

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد الثالث عشر

من أول سورة الذاريات إلى آخر سورة الصف


بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ (٥١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الذاريات) هي السورة الحادية والخمسون في ترتيب المصحف، والسادسة والستون في ترتيب النزول، كما ورد عن جابر بن زيد.

نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية.

وسميت بسورة الذاريات؛ لأن هذه الكلمة لم تقع في غيرها من السور، وبعضهم[1] يُثْبت فيها الواو، على حكاية لفظ القرآن، وجمهور المفسرين على حذفها.

وهي سورة مكية باتفاق، وعدد آياتها: ستون آية باتفاق.

وعدد كلماتها: ثلاث مئة وستون كلمة، وعدد حروفها: ألف ومئتان وتسعة وثلاثون حرفًا.

والسورة تتحدث عن اليوم الآخر، وعن دلائل القدرة والوحدانية، وعن الوحي والرسالة، وهذه القضايا الثلاث هي عناصر القرآن المكي.

وتبدأ السورة بالقسم بأربعة من القوى الإلهية، من جنود الله تعالى في أرضه، وهي: الرياح، والسُّحُب، والسُّفُن، والملائكة المعَبّر عنها بـ: الذَّارِيَاتِ، وَالْحَامِلَاتِ، وَالْجَارِيَاتِ، وَالْمُقَسِّمَات، وهذا القسَم على أن البعث والنشور كائن لا محالة.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾.

ثم يُقْسم الله تبارك وتعالى ثانية بالسماء المحبوكة، ذات الخلْق الحسن المتقن على أن المكذبين باليوم الآخروبالرسول الخاتم، يتخبطون في أقوالهم المنكِرة للبعث والرسالة، ثم تذكُر السورة مصير كلٍّ من المكذبين والمصدقين يوم لقاء الله، وتذكُر المؤهلات التي أهَّلت المتقين للنعيم المقيم.

وتسوق جانبًا من الآيات الكونية التي يُستدل بها على وحدانية الله تعالى في سمائه وأرضه وجباله ووهاده، وفي خلق الإنسان وإبداع صورته.

وتبيِّن السورة أنه ينبغي على العبد أن يتخلص من تعلُّق القلب بالبحث عن الرزق؛ كي

(١) كالبخاري وابن عطية والقرطبي.

يخلُص إيمانه بالله تعالى.

وفي مقام الاستدلال على صدق النبوة، تذكُر السورة عددًا من رسل الله تعالى، وتوجز ما حلَّ بأمم هؤلاء الرسل، من العذاب والهلاك، فتذكُر طرفًا يسيرًا من قصة كلٍّ من: إبراهيم، ولوط، وموسى، وما حلَّ بقوم نوح، وعاد، وثمود، لَمَّا كذبوا رسل الله.

وتُختم السورة ببيان الغرض الذي خلق الله الإنس والجن من أجله، وهو أن يتعرفوا على رب الأرض والسماء، فيخصُّوه بالعبادة، ويُفردوه بالطاعة، ويُخلصوا له التوحيد، ولا يَكُنْ همهم طلب الرزق؛ فإن في هذا رقًّا وأسْرًا للقلوب، وعليهم أن يتخلَّصوا من هذا الرقِّ والأسْر، فقد ضَمِن الله رزقهم، وتكفَّل به وهم في بطون أمهاتهم، وبعد طرْق الأسباب لا يأتيهم منه إلا ما قُدِّر لهم، وشدة الحرص عليه تضر ولا تنفع.

ويلحظ القارئ أن في هذه السورة **ثلاثة مقاطع**:

فالمقطع الأول: من أولها إلى الآية الثالثة والعشرين منها، وهذا المقطع يتضمن القسَم خمس مرات على أن البعث والحساب والجزاء على الأعمال والأقوال حق وصدق، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق، وأنّ أقوال الناس في ذلك مضطربة، ولا يُصرف عن هذا الوحي المنزل إلا من حُرم السعادة، وصُرف عن الهداية، من كل مُكذِّب بالقرآن والدار الآخرة، وهم لن يفيقوا من غفلتهم إلا حين يُعرضون على النار، ويقال لهم: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾....

أما المتَّقون الذين يقومون الليل، ويستغفرون بالأسحار، ويتصدقون ببعض أموالهم، فهم في دار الكرامة والنعيم، ينْعمون بما آتاهم ربهم ونجَّاهم من عذاب السموم.

ويلفت السياق أنظار الخلق إلى دلائل التوحيد في النفس والأرض والسماء، فهو مَقْطع يشتمل على عناصر القرآن المكي الثلاثة، ففي الآيات من ١-١٤ حديث عن يوم القيامة ونعيم المتقين، وفي الآيات من ١٥-٢٣ بعض دلائل التوحيد، والذي أخبرنا بهذا هو الوحي المنزل على محمد ﷺ.

أما المقطع الثاني: فهو من الآية الرابعة والعشرين إلى الآية السادسة والأربعين، وقد اشتمل هذا المقطع على إشارات وجيزة إلى ستة من رسل الله تعالى، اقتصرت فيها

السورة على بيان العبرة المستفادة من هلاك كل أمة من هذه الأمم بما يناسب المقام من قِصَر السورة وما يراد منها، وكونها من المفصل.

أما المقطع الثالث والأخير: فهو من الآية السابعة والأربعين إلى نهاية السورة، وهو يعود على ما بدأت به السورة لدعم دلائل التوحيد في النفس والأرض والسماء، ووجوب الفرار إلى الله تعالى بتوحيده ونبذ الشرك وأهله، وأنه تعالى قد خلق الخلق لعبادته، وفيه تفنيد مزاعم مَن وصَف الرسول ﷺ بالسحر أو الجنون...، وبيان ما ينتظر المكذبين بالله ورسوله من نصيبهم في العذاب الأخروي، كما استحقّه مَنْ سبق ذِكْرهم في السورة من الأقوام الذين كذبوا رسل الله تعالى.

فهذا المقطع والمقطع الأول يدوران في فلك واحد هو مقصود السورة، من التركيز على جانب التوحيد واليوم الآخر والإيمان بخاتم المرسلين، والمقطع الذي بينهما فيه الأمثلة الحية ووسائل الإيضاح المفسرة لمصير من مات على كفره وشركه بالله تعالى ولم يتبع ما جاء به محمد ﷺ.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْقَسَمِ عَلَى أَنَّ الْقِيَامَةَ حَقٌّ وَأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ

١-٤- ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا[١] ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾

الريح والسحاب والسفن والملائكة خلْق من خلْق الله، وجند من جنوده، يجعلها سبحانه أداة لتنفيذ قدرته ومشيئته، والله تعالى يوجه أنظار عباده إليها للتأمل في دلائل التوحيد، فيُقْسم بها تعظيمًا لشأنها، ولله تعالى أن يُقْسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعباد أن يُقسموا إلا بالله تعالى، والمقسَم عليه هو أن ما وعدنا الله به من البعث والحساب والجزاء، آتٍ لا محالة، ولا شك في صدقه ووقوعه.

ويرى بعضهم أن هذه الصفات الأربع تتعلق بالرياح فقط، فهي تنشئ السحاب، وهي تحمل بخار المياه التي تجري فيها السفن، والملائكة تقَسِّم الأمطار على الأقطار بحمل الريح لها[٢].

وقد أقسم سبحانه وتعالى بهذه المخلوقات العظيمة على أن وعده حق، وأن يوم الحساب والجزاء واقع لا محالة، وإذا كان الله تعالى قد أقسم على أنه حق وصدق فإن التكذيب به في غاية القبح والشناعة!!

أثر ابن الكوّاء:

ومع وجاهة هذا المعنى، إلا أن المعنى الأول ورد عن عليٍّ ﷺ، فقد قيل إنه ﷺ صعد منبر الكوفة، فقال: سلوني قبل ألا تسألوني، ولا تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكوَّاء الأعور، وقال: يا أمير المؤمنين، ما ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾؟ قال: الرياح، قال: فما ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢﴾؟ قال: السحاب، قال: فما ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣﴾؟ قال: السفن، قال: فما ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾؟ قال: الملائكة، ولا تعُدْ لمثل هذا، ولا تسألني عن مثل

---

(١) قرأ أبو جعفر بضم السين من (يسرا)، والباقون بإسكانها.

(٢) يُنظَر هذا المعنى في «تفسير الفخر الرازي» (٧/ ٦٢٨) وبه قال الزمخشري في «الكشاف» وآخرون.

هذا، قال: فما ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾؟ قال: دارُ الخلْق الحسَن.

قال: فما السواد الذي في حرف القمر؟ قال: أعْمى يسأل عن عمياء، ما العلمُ أردتَ بهذا؟ ويْحك، سلْ تفقُّهًا، ولا تسأل تعنُّتًا، سل عمَّا يَعْنيك، ودع ما لا يَعْنيك، قال: فوالله إن هذا ليعنيني، قال: إن الله يقول: ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ﴾ [الإسراء: ١٢] السواد الذي في حرف القمر.

قال: فما المجرَّة؟ قال: شرج السماء، ومنها فُتحت السماء بماء منهمر، زمَن الغرق على قوم نوح.

قال: فما قوْس قُزح؟ قال: لا تقل قوْس قُزح، فإن قُزح: الشيطان، ولكنه القوس، وهي أمانة من الغرق.

قال: فكم بين السماء إلى الأرض؟ قال: قدْر دعْوة عبدٍ دعا الله، لا أقول غير ذلك.

قال: فكم ما بين المشرق والمغرب؟ قال: مسيرة يوم للشمس، مَنْ حدَّثك غير ذلك فقد كذَب.

قال: فمن الذين قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]؟ قال: دعهم، فقد كُفيتهم.

قال: فما ذو القرنين؟ قال: رجل بعثه الله إلى قوم كفرة، أهل كتاب، كان أوائلهم على حق، فأشركوا بربهم، وابتدعوا في دينهم، فأحدثوا على أنفسهم، فهم اليوم يجتهدون في الباطل، يحسبون أنهم على حق، ويجتهدون في الضلال، ويحسبون أنهم على هدى، فضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

قال: فرفع صوته وقال: وما أهل النهْروان غدًا منهم ببعيد، قال: فقال ابن الكوَّاء: والله لا أسأل سواك، ولا أتَّبع غيرك، قال: فقال: إن كان الأمر إليك فافعل[1].

هذا: وقد كان العرب يعتقدون أن الأيمان الكاذبة، تجعل الديار بَلاَقِع، أي: خرائب، وأنها تضرُّ صاحبها - على حدِّ زعمهم - وكان النبي ﷺ يُكثر من الحلف ولم يُصَب

---

(١) يُنظَر: «المستدرك» (٢/ ٤٦٦) مختصرًا، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ويُنظَر مطوَّلًا في «المختارة» للضياء المقدسي برقم (٤٩٤) ورقم (٥٥٦) وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره برقم (٢٩٧٠) ط قلعجي، قال ابن كثير: وثبت ذلك من غير وجه (٧/ ٤١٣) وهو عند الطبري (٢٦/ ١١٥) والله أعلم بصحته.

بسوء، فكان هذا دليلًا على صِدْقه ورفْع شأنه، ولعل هذا الاعتقاد عند العرب هو بعض السر في قسَم الله تعالى ببعض مخلوقاته، حيث كانوا يعتقدون أن النبيَّ ﷺ رجل قويُّ الحجة، غالب في المجادلة وإقامة الدليل، فأقسم لهم القرآن على لسان النبي ﷺ بكل شريف ليعلموا صدقه ﷺ فيما يأتيهم به من عند الله تعالى.

والسور التي بُدئت بالقسم بغير الحروف المقطعة، يكون المقسم عليه فيها واحدًا من ثلاثة:

التوحيد، أو الرسالة، أو البعث، وهذه الثلاثة هي أصول الدين العامة، وهي موضوع السور المكية.

اختصاصات القسم في أوائل السور:

١- وقد اختصَّت سورة الصافات بأن القسم في أولها كان على التوحيد: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾ [الصافات].

٢- وفي سورتي النجم والضحى أقسم سبحانه في مطلعهما على صدق الرسول ﷺ: قال تعالى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم]، وقال سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى].

٣- والقسم في بقية السور على البعث والحساب والجزاء.

وهذه السورة من بين السور المقسم فيها على البعث والنشور ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾.

والمعنى: أقسم سبحانه وتعالى - **أولًا** - بالرياح المثيرات للتراب فتُفَرقُه، وتحمل الرمال من مكان إلى مكان، وتحمل حبوب اللقاح والغبار والسحب وغيرها، فتسُوقها بلين ولطف وقوة وإزعاج، وتوزعها هنا وهناك، كما قال تعالى: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم:٤٨].

والرياح نعمة كبرى، ولو أننا حُرمنا الهواء لَمتْنا واختنقْنا.

إن تيارات الهواء تصعد وتهبط فوق ظهر الأرض، ثم تهب الرياح، فتذهب بها شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، وقد يذهب ما يخرج من الرئتين من الهواء إلى شخص آخر في شرق الأرض أو غربها، ولا يعلم ذلك إلا الله وحده.

ثم أقسم - **ثانيًا** - بالسحُب، وهي تحمل قدرًا عظيمًا من الماء فتسير به إلى حيث أراد الله تعالى، ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ﴾ وهي السحب ﴿وِقْرًا﴾ أي: وهي محمَّلة بالماء الذي فيه حياة الإنسان والحيوان والطير والنبات.

إن الهواء الخفيف الرقيق يحمل أثقالًا من المياه التي تجري في الأنهار والبحار، فهو يحمل السحب التي ينزل منها المطر، ويتكوَّن منه أنهار الأرض لنفع العباد والبلاد، ولا عجب في هذا فإن إطارات السيارات تُعبَّأ بالهواء لتحْمِل أثقالًا من البشَر أو البضائع والأمتعة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وأقسم سبحانه -**ثالثًا**- بالسفن التي تجري في البحار بسهولة ويسر ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ﴾ وهي السفن تجري في المياه جريًا سهلًا، فتنقل الناس وتنقل أمتعتهم، وتحمل الأساطيل الحربية، وحاملات الطائرات والصواريخ وغيرها، من بلد إلى بلد.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمن].

وفسّر بعضهم[1] الجاريات بالنجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتتزين بها السماء، ويُهتدَى بها في ظلمات البر والبحر، ويُعتبر بها.

والأولى تفسيرها بالسفن كما جاء في أثر ابن الكواء.

ثم أقسم جلَّ شأنه - **رابعًا**- بالملائكة، وهي تقسِّم أمر الله تعالى في خلقه وتدبره بأمره عزّ وجل، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾ أي: الملائكة وهي تقسم الأرزاق والأمطار والأعمار وغير ذلك بين العباد بأمر الله تعالى، وكل ملَك مخصص بأمر من الأمور:

فجبريل صاحب الوحي إلى رسل الله، وميكائيل صاحب الأرزاق والأمطار والرحمة، وإسرافيل صاحب النفخ في الصور، وملَك الموت صاحب قبض الأرواح، وهناك حمَلة

---

(١) كالشيخ ابن سعدي في تفسيره للآيات.

العرش والكرسي، والحفظة والمعقبات، ومن يطوفون حول البيت المعمور. . . إلخ، وهكذا جعل الله كُلًّا من الملائكة على تدبير أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدّى ما قدّر له ولا يُنقص عنه.

جَوَابُ الْقَسَمِ عَلَى هَذِهِ الأَرْبَعِ

٥، ٦- ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝﴾

أي: إن الذي وعدكم الله به -أيها الناس- من البعث والحساب، لكائن حقًّا وصدقًا ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ أي: الجزاء على الأقوال والأفعال بالثواب والعقاب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أي: كائن لا محالة.

وتسمية يوم القيامة بيوم الدين، جاء كثيرًا في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝﴾ [الفاتحة] أي: اليوم الذي يُدان فيه العباد، ويُجزوْن على أعمالهم، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] أي: جزاءهم الحق، وقوله جلَّ شأنه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝﴾ [الماعون] أي: بالحساب والجزاء.

ومنه ما جاء في الأثر: (كما تدين تدان)[1]، أي: كما تعمل تُجزى.

الْقَسَمُ عَلَى تَنَاقُضِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْوَحْيِ وَالْبَعْثِ:

٧-٩- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝﴾

ثم أقسم ﷻ قسمًا - **خامسًا** - بالسماء ذات الخلْق الحسَن المتْقن المستوي، فهي المزيَّنة بالمصابيح، والمحبوكة بالنجوم، ذات الطرق المتعددة لصعود الملائكة وهبوطها ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝﴾ فهي تشبه حبك الرمال، ومياه الغُدران حين يحركها النسيم، وقد فُسِّرت ﴿الْحُبُكِ﴾ بمعانٍ يمكن الجمع بينها على نحو ما ذكرتُ فيما سبق، وهذه المعاني هي:

أوّلًا: ذات الخلْق الحسَن المحكم المتقن المستوي.

ثانيًا: ذات الزينة والنجوم.

ثالثًا: ذات الطرائق الحسنة المتعددة.

---

(١) يُروى عن أبي قلابة، قال الألباني: ضعيف، السلسلة الضعيفة برقم (٢٣٦٩).

والسماء توصف بهذا كله، فهي أوصاف يكمّل بعضها بعضًا.

وجواب القسم: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ إنكم -أيها المكذبون بمحمد ﷺ - وباليوم الآخر - لفي قول مضطرب متناقض، يخالف بعضه بعضًا، في أمر البعث، وفي صدق القرآن، وفي شأن خاتم الرسل، فالخراصون هم أصحاب القول المختلف.

فقد قالوا عن القرآن أقوالًا متناقضة، قالوا: إنه سحر، وشعر، وكهانة.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥].

وقالوا: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ﴾ [ص: ٧].

وقالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

وقالوا عن الرسول ﷺ: إنه شاعر، وساحر، وكاهن، ومجنون.

وقالوا: يعلمه بشر، بعد أن كانوا يلقبونه بالصادق الأمين.

وقالوا عن البعث والنشور: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾ [المؤمنون].

وقالوا عنه أيضًا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

وقالوا: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٧، ٨] وهكذا. فَهُمْ في حيرة واضطراب وتردد.

ثم بيَّن ﷻ أنه قد صُرف عن الإيمان بالبعث والحساب والجزاء، وصُرف عن هذا القرآن وما فيه من هدى ونور، وصُرف عن الإيمان بصاحب الرسالة العالمية، من صُرف عن اتباع الحق، فحُرم الهداية وأسباب السعادة؛ لأنه آثر الغيَّ على الرشد، والضلالة على الهداية، والكفر على الإيمان، فانصرف عن أدلة التوحيد وبراهينه اليقينية، فلم يوفَّق للخير ﴿يُؤْفَكُ﴾ أي: يصرف عن الإيمان ويصرف عن كتاب الله تعالى ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ أي: من غلبت عليه شقاوته فصُرف عن أدلة الله اليقينية وبراهينه القطعية لانحراف الفطرة عنده، وقد علم الله منه ذلك قبل أن يكون بشرًا سويًّا مكلفًا.

وهذا الاختلاف دليل على فساد أقوالهم وبطلانها، وكون الحق واحداً لا اختلاف فيه

ولا تناقض، دليل على صدقه وصحته، وأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]

عُقُوبَةُ الْمُكَذِّبِينَ بِالْبَعْثِ وَبِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ

١٠-١٤- ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

ثم لعن الله تعالى كل من كذَّب بالبعث أو بالقرآن أو بخاتم الرسل، أو كذَّب بالجميع فقال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: لُعن الكذابون، وهذا دعاء على أصحاب القول المختلف بالهلاك والطرد من رحمة الله تعالى.

وإذا جاء لفظ: ﴿قُتِلَ﴾ في القرآن فهو بمعنى: اللعنة؛ لأن من لعنه الله تعالى فهو بمنزلة المقتول الهالك(١).

والخرص في القول: هو الظن والتخمين الذي لا حجة فيه ولا دليل عليه، وهو غير الخارص الذي يخرص النخلة ليقدِّر ما عليها من ثَمر، فإن ذلك الخرص للنخيل جائز في المعاملات وبيع السَّلَم.

والمعنى: قاتل الله الذين كذَبوا على الله وجحدوا آياته، فأنكروا البعث والنشور، وكذَّبوا خاتم النبيين، وقالوا على الله ما لا يعلمون.

ثم وصف الله الظانين غير الحق -وهم الخرَّاصون- بأنهم في جهالة تغمر قلوبهم فتستُرها وتغطِّيها عن التأمل والفكر الصائب، وأنهم في غفلة تامة عما ينفعهم، وكأنهم لا يحسون بشيء مما حولهم ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ أي: في لُجَّة من الجهل والكفر والضلالة ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عن الدار الآخرة.

فالسهو: الغفلة عن الشيء مع ذهاب القلب عنه، والمراد به في الآية: الغفْلة عن اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء.

ومن صفات المكذبين بالله واليوم الآخر، الظانين بالله غير الحق، أنهم يَسألون سؤال

(١) قاله ابن الأنباري كما في «زاد المسير» لابن الجوزي (٨/ ٣٠).

تهكم وتكذيب، واستخفاف واستبعاد: متى يوم الحساب والجزاء الذي تقولون عنه؟ ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متى يقع يوم الحساب والجزاء؟ ومتى يحلُّ؟ وهم يعنون أنه لا وقوع له، وأنه أمر مستبعد كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ [النبأ]

فلا تسأل عن حال هؤلاء المكذبين، فإن مآلهم إلى النار يعذبون فيها، قال تعالى في الرد عليهم: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ أي: إن يوم الدين هو اليوم الذي تدخلون فيه النار -أيها الخرَّاصون- وتَصْلوْن حرَّها ولهيبها، فهذا هو يوم البعث والحساب والجزاء، فالمراد بقوله تعالى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يُعذَّبون ويُحْرقون.

ويقال لهم ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي ذوقوا العذاب والنار، وهو أثر فتنتكم، بسبب الكفر والضلال الذي سلكتم طريقه في دنياه.

وأصل **الفتَن**: مأخوذ من قولهم: فتنْتُ الذهب بالنار، بمعنى: أذبْته لتظهر جوْدته من عدمها.

أي: ويوم يُعرض المكذبون على النار، تقول لهم خزنة جهنم: ذوقوا العذاب المعدَّ لكم، فهذا جزاء كفركم وتكذيبكم، ويقال لهم: هذا عذابكم الذي كنتم تستعجلونه وأنتم في الدنيا قائلين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

فالآن تمتعوا به في السلاسل والأغلال والسخط والوبال..

نَعِيمُ الْمُتَّقِينَ وَصِفَاتُهُم الْخَمْسُ

١٥- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ(١) ۝١٥﴾

وبعد أن ذكرت الآيات مصير أهل الشقاء، الجاحدين لوحدانية الله تعالى، والمكذبين بخاتم الرسل، وكتابه الخالد إلى يوم الدين، شَرَعت الآيات في بيان مصير أهل السعادة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين خافوا ربهم، مع أنهم لم يَروْه، فوقفُوا عند حدوده، وأقاموا الفرائض، وأكثروا من النوافل، وابتعدوا عن المحرمات، وتركوا الشبهات والمكروهات ورعًا ورغبةً فيما عند الله، هؤلاء المتقون في حدائق وبساتين،

(١) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (عِيون)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

وعيون تجري فيها المياه الصافية، فهم يرون هذه الأنهار، ويتمتعون بها، ويأكلون من ثمار الجنة ويشربون من عيونها.

وقد وصف الله المتقين في هذه السورة **بخمسة أوصاف**:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُم فِي جَنَّاتٍ وَعُيُون:

أي إنهم ينعمون في حدائق وبساتين وأشجار وثمار وفواكه، لها نظير في الدنيا أو ليس لها نظير: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥ أي في الدنيا قال تعالى ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ يشبه بعضه في الشكل ولكنه يختلف في طعمه ومذاقه، وفي هذه البساتين عيون سارحة، تشرب منها البساتين، ويشرب منها عباد الله، يفجرونها تفجيرا، يجدون فيها عين النسيم، وعين السلسبيل، وعين الكافور.

الْوَصْفُ الثَّانِي: الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ

١٦- ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾

هذا إشارة إلى ثوابهم على إحسانهم في الدنيا، فقد أعطى الله أهل الجنة جميع ما يتمنَّوْنهُ من أصناف النعيم في الآخرة، فأخذوه وهم راضون به، فرحون بما أعطاهم الله من فضله، قد قرّت به أعينهم في دار الكرامة، وفرحت به نفوسهم، فلم يطلبوا له بدلًا، ولا يريدون عنه حولًا.

فالمعنى: أنَّ أهل الجنة يُحصِّلون نعم الله تعالى التي أعطاهم إياها، من جنته ورضوانه، فهم ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وهذا النعيم في دار الكرامة جزاء لهم على إحسانهم في الدنيا بفعل الطاعات وترك المنهيات ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾. فيما بينهم وبين الله،وفيما بينهم وبين ا لناس.

قد تلقّوا أوامر الله تعالى ونواهيه بالانقياد وانشراح الصدر في الدنيا، فكافأهم الله بالإحسان إحسانًا، وكما قيل للمشركين: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ فإن المتقين:

١- في جنات. ٢- وفي عيون.

٣- آخذين ما آتاهم ربهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر،

قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف].

وقال جلَّ شأنه في وصف الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: **«إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يأهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»**[1].

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ يَسْهَرُونَ عَلَى الطَّاعَاتِ لَا عَلَى الْمَعَاصِي:

١٧- ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

كان هؤلاء المحسنون -وهم في الدنيا- قليلًا ما ينامون في الليل، فهم يصلُّون لربهم قانتين له، كما قال تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل].

قال سبحانه ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

لقد أحسنوا في عبادتهم لربهم وأخلصوا له، وتواطأ القلب واللسان على طاعة الله تعالى في جوف الليل وهم سجدًا وقيامًا، ينامون قليلًا ويصلون كثيرًا، فهم قانتون لربهم، ما بين: صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرع وخشوع وإنابة، فكانوا أهلًا لهذا النعيم المقيم.

وكان النبي ﷺ يأمر أصحابه بذلك، ولا ينسوْن حق أنفسهم ولا حق أهليهم، كما في

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٥١٨، ٦٥٤٩) و«صحيح مسلم» (٢٨٢٩).

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: **«ألم أُخبَر أنك تقوم الليل وتصوم النهار»**؟ قلت: إني أفعل ذلك، قال: **«فإنك إن فعلت ذلك هجَمتْ عينُك، ونفِهتْ نفسُك، وإن لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فصُم وأفطر، وقم ونم»**[١].

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

والهجوع: هو النوم القليل ليلًا، فهم ينامون قليلًا من الليل، ويصلون أكثره.

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذّاب، فكان أول ما سمعتُه يقول: **«يأيها الناس، أطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»**[٢].

وقال الحسن البصري: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضْتُ عملي على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينُونا بوْنًا بعيدًا، وإذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون.

وعرضتُ عملي على عمل أهل النار، فإذا قوم لا خير فيهم، يُكذبون بكتاب الله، وبرسل الله، يُكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدتُ من خيْرنا منزلة قومًا خلطوا عملًا صالحا وآخر سيئًا[٣].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذَكر الله قومًا فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ ونحن والله قليلًا من الليل ما نقوم، فقال له أبي: طوبى لمن رقد إذا نعَس، واتقى الله إذا استيقظ [٤]

فاشترط بعضهم أن يكون التهجد بعد نوم، ولو نومًا خفيفًا.

---

(١) «صحيح مسلم» (١١٥٩) و«صحيح البخاري» (١١٥٣) وهذا لفظه.

(٢) «المسند» (٥/ ٤٥١) برقم (٢٣٧٨٤) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين، نحوه، (محققوه) وأخرجه الترمذي برقم (٢٤٨٥) وابن ماجه برقم (١٣٣٤) والحاكم (٣/ ١٣) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥٣١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٠٩٧، ٢٦٣٠) بإسناد صحيح.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٧).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٧).

وصحَّ عن أنس ﷺ في معنى الآية: أنهم يصلون بين المغرب والعشاء[١].

الوَصَفُ الرَّابِعُ: أَنَّهُمْ يُكْثِرُونَ مِنَ الاِسْتِغْفَارِ بِالْأَسْحَارِ:

١٨- ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾

أي: إنهم كانوا يستغفرون الله تعالى من ذنوبهم وهم في صلاتهم وقت السحر، قُبيل الفجر، في السدس الأخير من الليل، فهم مع إحسانهم يَعُدُّون أنفسهم مذنبين مقصِّرين، فيُكثِرون من الاستغفار بالأسحار، وهم يتهجدون ويجتهدون في الإكثار من الصلاة ومن العمل الصالح، وحين يهْجَعون في ليلهم يشتغلون بعبادة أخرى هي الاستغفار، وخُصَّ وقت السحر؛ لأن النوم يغلب فيه، فالصلاة والاستغفار فيه أعجب من بقية الليل.

فهم يُصلُّون لله متهجدين، ثم يستغفرون الله تعالى: استغفار المذنب المقصِّر.

وقد وصف الله عباده الصالحين بقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

بما يشير إلى أن الاستغفار في وقت السحر له فضيلة وخاصية ليست لغيره.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤﴾ [الفرقان].

ووقت السحَر مظنة قبول الإجابة:

١- صحَّ عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟**»[٢].

وفي الحديث إثبات صفة النزول لله تعالى على وجه يليق بجلاله تعالى من غير تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل.

٢- وفي الصحيحين: عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «**اللهم لك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد،**

(١) كما في «صحيح سنن أبي داود» (١١٧٤) وعبد الرزاق في التفسير (٢٩٧٩) وصححه الحاكم والذهبي (٤٦٧/٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٧٥٨) و«صحيح البخاري» (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤) وغيرهما.

أنت مَلِكُ السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت.

فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت».

زاد في رواية: **«أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك»**[1].

وزاد النسائي: **«ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».**

٣- وفي البخاري: عن عبادة بن الصامت ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استُجيب له، فإن توضأ وصلَّى قُبلتْ صلاتُه»**[2] يقال: تعارَّ الرجل من نومه: إذا انتبه وله صوت.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: أَنَّهُمْ يُخْرِجُونَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ

١٩- ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

أي: حق واجب، هو الزكاة المفروضة بشكل عام، غير محددة المقدار ولا النصاب؛ لأن أصل الزكاة قد فُرض بمكة، وحُددتْ مقاديرها وأنْصبتها في السنة الثانية من الهجرة، وفي أموال الأغنياء أيضًا حق مستحب على وجه التطوع ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ المحتاج الذي يسأل الناس الصدقة.

وفي حديث الحسين بن عليٍّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«للسائل حق وإن جاء على فرس»**[3]

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٢٠)، وانظر: (٦٣١٧، ٧٣٨٥) و«صحيح مسلم» (٧٦٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٥٤).

(٣) «المسند» (١/ ٢٠١) برقم (١٧٣٠) بإسناد ضعيف لجهالة يعلى بن أبي يحيى (محققوه) و(سنن أبي داود) برقم (١٦٦٥) وابن أبي حاتم (١٥٥٦) وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٣٦٤، ٣٦٥) وأخرجه ابن عدي في «الكامل» عن أبي هريرة (٥/ ١٨٧٨). وضعفه لأن فيه يعلى بن أبي يحيى، لكن له شواهد.

وفي المال حق سوى الزكاة[١]، يصل به رحمًا، أو يقري به ضيفًا، أو يعين به محرومًا . . .

﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ هو المحتاج الذي لا مال له، ولكنه لا يسأل الناس حياء وتعففًا، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، واقرؤوا إن شئتم:** ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[٢].

وفي لفظ: **«ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطَن له فيُتصدق عليه»**[٣].

وذكْر لفظ: ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ لترقيق النفوس، وحث الناس على البحث عنه ليضعوا صدقاتهم في موضع يحب الله وضْعها فيه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج].
والحق المعلوم هو الزكاة، وغير المعلوم هو الصدقة.

وقد تضمنت هذه الآية والتي قبلها: إصلاح النفس بقيام الليل والتوجه إلى الله تعالى بالدعاء والاستغفار، وفي ذلك تزكية للنفس بالأقوال والأفعال، وتطهير لها في الظاهر والباطن.

كما تضمنت الآيتان: إصلاح الناس بسدِّ حاجات المحتاجين منهم، ونفْع المحروم المتعفف عن إظهار حاجته، الصابر على شدة احتياجه.

والسائل: هو الذي يُظهر فقره بسؤال الناس.

والمحروم: هو المتعفف عن السؤال فيُحرم نتيجة تعففه، إلا لمن هو مطلع على حاله.

---

(١) جاء هذا في الترمذي عن فاطمة بنت قيس، ضعَّفَهُ الألباني برقم (٦٥٩) وهو في سنن الدار قطني رقم ٣ ج٢ ص١٠٧.

(٢) من طريق شريك بن عبد الله، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة عند البخاري برقم (٤٥٣٩) ومسلم برقم (١٠٣٩).

(٣) «تفسير الطبري»: (٢٦/ ١٢٥). وهو عن أبي هريرة في صحيح البخاري (١٤٠٩) وفي الموطأ وأحمد وأبي داود والنسائي كما في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٣٨٤).

ثَلَاثَةٌ مِنْ بَرَاهِينِ التَّوْحِيدِ: الْأَرْضُ وَالنَّفْسُ وَالسَّمَاءُ

٢٠، ٢١- ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

ثم ساق سبحانه ثلاثة من أدلة التوحيد في الكون: في الأرض، وفي الأنفس، وفي السماء، داعيًا عباده إلى التفكر فيها والاعتبار، فقال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ عِبَر ودلائل واضحة على قدرة خالقها، في صنوف النبات، والحيوان، والجبال، والقفار، والبحار، والأنهار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما بينهم من التفاوت في العقول والأفهام، والسعادة والشقاء، وما في تركيبهم من الخلق البديع[1].

والتأمل في الأرض، يشمل الأرض نفسها وما فيها من جبال وبحار وأشجار ونبات وغير ذلك، فكلها تدل على عظمة الخالق سبحانه، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن.

وفي دلائل كيفية خلق الأرض ودحْوها، وتسخيرها للإنسان والحيوان، وكيف قُسِّمت الأرض إلى سهول وجبال وبحار، وكيف أنبتت الزرع والشجر، وما يخرج منها من منافع للناس، آياتٌ وعِبرٌ ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ الذين ينتفعون بدلالتها، فتكسبهم اليقين بوقوع البعث والنشور، وغير الموقنين لا ينتفعون بهذه الآيات.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ آيات عجيبة في بواطن أحوال الإنسان وأطوارها، وأعجبُها خلْق العقل، وخلْق النطق، وخلْق الحواس، والدوْرة الدموية، واتساق الأعضاء، وتسوية المفاصل والعضلات والشرايين، وخلْق الإنسان من نطفة إلى علقة إلى مضغة، ثم خلْقها عَظْمًا، وكِسْوة العظم باللحم، ومن ثَم إلى نفخ الروح فيه، واختلاف الألسنة، والصور والألوان والطبائع، وما يخرج من السبيلين، والسمع والبصر، وما إلى ذلك.

إن جسم الإنسان خلْق بالغ التعقيد، سبحان من خلقَهُ وصوَّرهُ، وشق سمعه وبصره.

ومع ذلك فإن الإنسان المغرور المفتون يجلس على أريكته، ويقول: لا إله، والحياة مادة! فإذا كانت الحياة مادة فَمَنْ بناها وضبطها ووضع لها نظامها؟ أفلا تتفكرون - أيها

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٩).

الناس - في خلق أنفسكم؟ كيف أنشأكم الله من ماء؟ وكيف خلقكم أطوارًا، وفي كل طور أوجد خلقًا لم يكن موجودًا من قبل؟ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فتتعظون وتعتبرون، وتؤمنون بالبعث بعد الموت؟ وتستدلون بذلك على أن الله تعالى واحد أحد، فرد صمد، لا والد له ولا ولد، وأنه لم يخلق الخلق سُدى، بل خلقهم لحكمة عظيمة وغاية بالغة الأهمية.

قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خُلق ولُيِّنتْ مفاصله للعبادة.

لَنْ تَمُوتَ نَفْس حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا

٢٢، ٢٣- ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ[1] مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾

أية التوحيد الثالثة هي خلق السماء وجعلها مصدر للرزق الديني والدنيوي.

ومع أن الله تعالى خلق أسباب الرزق في الأرض، وربط الأسباب بالمسببات، وأوجب على العبد أن يكدَّ ويكدح، إلا أن الله تعالى ربط العبد بالسماء في طلبه للرزق، ليتجاوز المرء أسباب الرزق الظاهرة في الأرض، ويتطلع إلى السماء مع بذل السبب حيث الرزق المقسوم، والخط المرسوم.

وليس المقصود عدم طرْق أبواب الرزق، وعدم الأخذ بالأسباب، إنما المقصود أن يعمل الإنسان في الأرض، ويجتهد في تحصيل رزقه، وهو يتطلع إلى السماء موقنًا برزقه المقدَّر، وأنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، وأن الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ من الخير والشر، والثواب والعقاب، وغير ذلك كله مكتوب ومقدر.

أي: جعل الله في السماء مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الخيرات والأقدار، وهذا الرزق منه ما هو رزق دنيوي يتعلق بالمعاش والأقوات وسائر الأرزاق، ومنه ما هو رزق ديني كالهدْى والتشريع الذي يأتي عن طريق الوحي، فهو رزق دنيوي وأخروي، أشار إليه قوله تعالى ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي من الأمور المقدرة والثواب والعقاب عليها، وقد أقسم ربنا على أن الرزق مضمون.

---

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف برفع لام (مثلُ) صفة لـ(الحق)، وقرأ الباقون بنصبها حالًا من الضمير المستتر في (الحقٌّ).

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣].

قال الأصمعي: أقبلت من جانب البصرة، فطلع أعرابي على قَعُودٍ له، فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال: اتْلُ عليَّ، فتلوْتُ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ فلما بلغتُ ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته، فنحرها ووزَّعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى قوسه وسيفه فكسرهما وولَّى! فلما حججتُ مع الرشيد طفقتُ أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفتُّ فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفرَّ، فسلَّم عليَّ واستقرأ السورة، فلما بلغتُ الآية، صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأتُ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فصاح وقال: يا سبحان الله، مَن الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدقوا بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين! قالها ثلاثًا، وخرجتْ معها نَفْسُه[١].

ثم أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة على صحة هذا الخبر، وأن ما وعدهم الله به من ضمان الرزق، ومن البعث والنشور، ومن الحساب والجزاء حقٌّ لا ريب فيه، فلا تشكُّوا فيه، كما لا تشكُّون فيما تنطقون به من كلام يخرج من أفواهكم، فهو أمر يقيني وفي غاية الوضوح، وكما أن النطق لا يفارق الإنسان في حال من الأحوال فكذلك رزقه، وكما أنكم لا تشكون في نطقكم، فلا ينبغي أن تشكوا في البعث بعد الموت.

وفي الأثر: لو أن أحدكم فرَّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت[٢].

قِصَّةُ ضَيْفِ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ وَالِاعْتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِقَوْمِ لُوطٍ

٢٤- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ[٣] ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾

في هذا انتقال من المواعظ ودلائل التوحيد إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية، حيث تأتي إشارات يسيرة إلى ست قصص من قصص الرسل والأمم، وهم: إبراهيم، ولوط،

(١) ذكرها «تفسير الكشاف» و«تفسير النسفي» وغيرهما عند تفسير هذه الآية، وفيها موعظة بليغة.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٣).

(٣) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهام)، والباقون (إبراهيم).

وموسى، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقوم نوح.

وذُكرتْ قصة إبراهيم ﷺ توطئة لبيان ما حلَّ بقوم لوط ﷺ حين كذَّبوا رسولهم.

وضيوف إبراهيم كانوا: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وأتباع لهم من الملائكة، وكانت لإبراهيم أموال كثيرة من البقر، وكان مضيافًا، فكان يطوي بطنه حتى يأتيه ضيف، وقد أوقف إبراهيم للضيوف أوقافًا، صارت سُنَّة في الناس من بعده على اختلاف أجناسهم وشرائعهم.

وترتيب القصص هنا على خلاف الترتيب الذي جرى عليه اصطلاح القرآن في البدء بقصة نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم لوط ليعتبر المشركون الذين هم في غمرة ساهون بما حلَّ بالأمم الماضية.

وقد بدأت قصة ضيف إبراهيم ﷺ بأسلوب التشويق والتفخيم، بمعنى: هل وصل إلى سمعك -يا محمد- خبر ضيوف إبراهيم المعظمين من الملائكة الكرام الذين وفدوا عليه في صورة رجال من بني آدم؟

وقُدُوم الملائكة لإهلاك قوم لوط بدأ بالحديث عن ضيف إبراهيم المكرمين، وهو حديث يكشف عن سوء فهم أهل الكتاب للألوهية، وتأثُّر عقولهم بالفكر الوثني!

لقد كان ضيوف إبراهيم عددًا من الملائكة، جاؤوا له بأنباء سارة، منها أن الله تعالى سيرزقه بغلام عليم، ومنها أنهم أخبروه أن الله تعالى سيُدمِّر القرى النجسة التي عجز لوط ﷺ عن إصلاحها.

لكن العهد القديم ساق القصة على نحو آخر، فذكر أن الله تعالى هو الذي تناول الغداء مع إبراهيم، وأن إبراهيم قدَّم لرب العالمين مائدة فاخرة، عليها عجل مشوي وخبز، وأن الله تعالى أكل حتى امتلأ!! هذا ما ذكره الكتاب المقدَّس مما حرَّفته أيديهم.

أما القرآن المتَّهم عند أهل الكتاب، فقد تنزَّه عن هذا الكلام جملة وتفصيلًا[1].

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» ص ٤١١، وانظر: سفر التكوين.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ هل وصل إلى سمعك -يا محمد- خبر ضيوف إبراهيم الذين أكرمهم الله -وكانوا من الملائكة الكرام- وقد جاؤوا إليه في صورة رجال حسان؟ نحن نقص عليك قصتهم بالحق الذي لا تشُوبه شائبة من باطل، ولم تصل إليه أيدي التحريف والتغيير والتبديل.

والضيوف هم الملائكة الذين أظهرهم الله لإبراهيم ﷺ، فأخبروه بأنهم مرسلون من الله تعالى لتنفيذ العذاب في قوم لوط، وسمَّاهم الله ضيفًا؛ لأنهم جاؤوا في هيئة الضيف.

وعن ابن عباس ﷺ أنهم كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: إنهم كانوا اثني عشر ملكًا[1] وقد أكرمهم الله تعالى برفع الدرجة عنده؛ لأن الملائكة مقربون عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وهكذا: فإن الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى لإهلاك قوم لوط، أمرهم بالمرور على إبراهيم ليبشروه بغلام عليم مع كبَرِهِ وعُقم امرأته، فجاؤوا إليه في صورة ضيوف قال تعالى:

٢٥- ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ[2] قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

هل بلغك -أيها الرسول- حديث الملائكة حين دخلوا على إبراهيم في بيته، فحيَّوه قائلين له: سلامًا، أي: نُسلِّم عليك سلامًا، فردَّ عليهم التحية ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ عليكم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتم قوم غرباء لا نعرفكم، فمَن أنتم؟ أُحب أن تُعرِّفوني بأنفسكم؟ وقد أنكرهَم إبراهيم؛ لأنهم قدموا عليه في صورة شباب حسان، عليهم مهابة عظيمة.

ولعل إبراهيم قال ذلك في نفسه، أو قاله لمن كان معه من غلمانه وأتباعه، ولم يخاطبهم بذلك.

ورد في التوراة أن إبراهيم كان جالسًا أمام بيت خيمته تحت شجرة، وأنه أنزل ضيوفه تحت تلك الشجرة.

فلما عرف أنهم ضيوف جاؤوا لزيارته، ذهب إلى أهله سريعًا ليحضر لهم الطعام:

---

(١) «تفسير الألوسي» (٢٧/ ١١).

(٢) قرأ حمزة والكسائي (سِلْم)، والباقون (سلام) وهما لغتان، مثل: حِرْم وحَرام.

٢٦ ، ٢٧- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ[1] قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وكان إبراهيم ﷺ كريمًا بطبعه، فكان لا يأكل إلا مع ضيوف، وإذا لم يجد ضيفًا ربما طوى بطنه أكثر من يوم حتى يأتيه ضيف، فلما قدم عليه هؤلاء الضيوف سرعان ما مال خفية إلى أهله، فعمد إلى عجل سمين فذبحه، وهذا معنى ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: عدل إبراهيم عن المكان الذي نزل فيه الضيوف وتوجَّه إلى أهل بيته ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فذبحه، وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] فهو عجل سمين مشوي، والشوْيُ أسرع أنواع الطبخ لأهل البادية، وكانت أموال إبراهيم من البقر.

ومن آداب الضيافة أن صاحب البيت يُسرع بتقديم الطعام إلى ضيوفه من غير أن يشعُروا به، حتى لا يمنعه الضيف، أو يُثقل عليه بالتأخير، وأعدَّ إبراهيم العجل الحنيذ.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ ووضعه بين أيديهم، ولم يَسْتشرْهُم في إحضار الطعام؛ لأن هذا يُحرج الضيف فلا يجيب بحقيقة الحال، فقد يكون الضيف جائعًا ويستحي من طلب الطعام، ولذا فإن إبراهيم ﷺ قدَّم إليهم الطعام مباشرة، وقال لهم في تلطُّف وبشاشة: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف، وليس على سبيل الأمر.

ففي الحديث عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»**[2].

ورد أن إبراهيم ﷺ لَمَّا قدَّم الطعام إلى الملائكة قالوا: إنا لا نأكل إلا ما أدَّينا ثمنه، فقال إبراهيم: وإنا لا نبيحه لكم إلا بثمن، قالوا: وما هو؟ قال: أن تُسمُّوا الله تعالى عند الابتداء، وتمجِّدوه عند الفراغ من الأكل، فقال بعضهم لبعض: بحق اتخذه الله خليلًا[3]. قال تعالى:

٢٨- ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

أي: فلمَّا رأى إبراهيم الملائكة لا يأكلون أحسَّ في نفسه خوفًا منهم، فإنَّ من لم يأكل

---

(١) ضم الهاء حمزة ويعقوب، والباقون بكسرها.

(٢) في البخاري (٦١٣٨، ٦٤٧٥) ومسلم (٤٧) ومن حديث أبي شريح الخزاعي عند البخاري (٦٠١٩) ومسلم (٤٨).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٥/ ١٧٨).

طعامك لا يحفظ ذمامك ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وهنا كشف الملائكة له عن ذواتهم، وأخبروه أنهم ملائكة جاؤوا في صورة رجال لمهمَّتيْن:

المهمة الأولى: بشرى إبراهيم ﷺ بغلام عليم، هو إسحاق ﷺ، وكانت زوجه سارة عقيمًا لا تلد.

المهمة الأخرى: عقاب قوم لوط على جريمتهم النكراء، وكُفرهم بنبي الله لوط ﷺ.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله وأخبروه بما جاؤوا من أجله ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي: بشروه بأن زوجهُ سارة، ستلد مولودًا يكون من أهل العلم بالله وبدينه، وهو إسحاق ﷺ.

وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠].

والغلام العليم الذي بشرت به الملائكة في قصة لوط هو إسحاق ابن سارة.

أما الغلام الحليم المبشر به في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات] فهو إسماعيل ابن هاجر.

وإسماعيل أكبر من إسحاق بثلاثة عشر عامًا، وقد بُشرتْ سارة بإسحاق بعد أن بلغت سن اليأس، أما هاجر فقد كانت شابة في مقتبل عمرها. قال تعالى:

٢٩- ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

أي: ولما سمعت سارة مقالة الملائكة، أقبلت على مجلس إبراهيم مع ضيفه، في صيحة وجلَبة، وهي فرحة مسرورة، فلطمت وجهها تعجُّبًا من هذا الأمر، وعلى عادة ما يحدث من النساء عند السرور من الأقوال والأفعال، وقالت: كيف ألد وأنا عجوز عقيم لا ألد؟ وقد ذكرت سارة ثلاثة أسباب مانعة لها من الحمل، وهي:

١- أنها عجوز، قد بلغت السن الذي لا تلد فيه النساء.

٢- وأنها عقيم، فرحمها غير صالح للحمل والولادة.

٣- والمانع الثالث جاء في سورة هود في قولها ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود ٧١]

وقد جاء هذا في قوله ﷻ: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ أي: حاضت ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ

وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود]، وكان النساء يحضرْن مجالس الرجال في بيوتهن مع أزواجهن ويؤاكلْنَهم.

وفي الموطأ قال مالك: لا بأس أن تحضر المرأة مع زوجها وضيفه وتأكل معهم[١].

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صيحة وضجة وجلبة.

وقيل: في جماعة من النسوة يتبادرْن النظر إلى الملائكة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾أي: لطمت وجهها.

وقال مجاهد: ضربت بكفها جبهتها على عادة النساء عندما يتعجبْن من أمر غريب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ لم يسبق لها حمل قط، وقد استبعدت ذلك لكبر سنها، وكان عمرها تسعًا وتسعين سنة، وكان عمر إبراهيم مئة وعشرين عامًا[٢].

فالعقيم من النساء التي لا تلد، ومن الرياح التي لا تلقِّح شجرًا. قال تعالى:

٣٠- ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

أي: قالت الملائكة: هكذا قال ربكِ، كما أخبرناكِ، فنحن بلَّغنا ما أُمِرْنا بتبليغه، فلا تتعجبي أن يكون لك غلام في هذه السن ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ﴾ أي: الأمر كما قلنا لك ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ أي: هكذا حَكَمَ ربك وقضى في الأزل، فلا تتعجبي، فهو القادر على ذلك، ولا عَجَب من قدرته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ يضع الأشياء في مواضعها ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده، لا يخفى عليه شيء، وقد وسع علمه كل شيء.

والحوار الذي دار هنا كان بين الملائكة وسارة، وكذلك الحوار الذي دار في سورة هود.

أما الحوار الذي في سورة الحِجْر، فهو بين إبراهيم والملائكة، والمعنى واحد، ثم إن إبراهيم عليه السلام أراد أن يتعرف على حقيقة الضيوف، إذ كيف يبشرونه بغلام عليم؟

٣١- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾

عرف إبراهيم حقيقة ضيوفه، وأنهم ليسوا بشرًا، وإنما هم ملائكة جاؤوا لتبليغ أمرٍ مًّا،

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/ ٣٦٠).

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٤/ ١٢٦).

وقد علم إبراهيم أن الملائكة لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم، فسألهم: ما شأنكم الخطير الذي جئتم لأجله أيها الملائكة الأبرار؟ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ **الخطب**: هو الأمر المهم، أي: ما قصتكم، وما شأنكم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بعد هذه البشرى السارة؟ ولَمْ يسألهم إبراهيم عن شأنهم إلا بعد أن أضافهم، واستعدوا للرحيل، وقد علم خليل الرحمن أن نزول الملائكة بتلك الصورة لا يكون لمجرد بشارته بالغلام العليم، فإن هذه البشرى تحصل بالوحي، فهم ولابد جاؤوا لمهمة أخرى، أجابت الملائكة إبراهيم:

٣٢-٣٤- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قالت الملائكة مجيبة لإبراهيم ﷺ: إن الله قد أرسلنا إلى قوم لوط المجرمين، فقد كفروا بالله، وكذَّبوا رسوله، وارتكبوا أفحش الجرائم التي لم يسبقهم إليها أحد من خلق الله وهم أهل سدوم وعمورية بالأردن.

ومهمتنا التي جئنا إليها أن نهلك قرى قوم لوط، فنجعل عاليها سافلها، ثم نُتْبع ذلك فنمطرُهم بحجارة من طين متحجر، وفي الآية الأخرى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

والسجيل: هو الطين المطبوخ بالنار، كالآجر، وهذه الحجارة، قذفتها الأرض إلى أعلى بضغط إلهي، ثم نزلت عليهم كأنها مطر.

وكل حجر منها يحمل اسم صاحبه الذي يُرمى به، وعليه علامة أنه ليس من حجارة الدنيا ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعلَّمة، قيل: إنها مختومة.

وقال ابن عباس ﷺ: في الحجر الأسود منها نقط بيضاء، وفي الحجر الأبيض نقط سوداء.

وقد أُعدت هذه الحجارة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين حدود الله تعالى في الفجور.

قيل: كانوا ست مئة ألف، فأدخل جبريل جناحه تحت الأرض فاقتلع قراهم، ورفعها حتى سمع أهل السماء أصواتهم، ثم قلَبها، وأُرسلت الحجارة على من كانوا خارج قُرى المؤتفكة[1].

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٤/١٢٦).

أخذ إبراهيم يجادل الملائكة في قوم لوط، لعل الله أن يدفع عنهم العذاب، فقال الله تعالى ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود] قال تعالى:

٣٥، ٣٦- ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ترك الملائكة إبراهيم ذاهبين إلى قوم لوط لإهلاكهم، وكانوا متجاورين، كما بين البحر الميت ومدينة الخليل، وحلُّوا بديارهم، وجرى بينهم وبين لوط ﷺ ما جرى من الحوار، ثم شرعوا في تنفيذ ما كلفهم به ربهم، فأمر الله الملائكة بإخراج من في قرى قوم لوط من المؤمنين؛ حتى لا يشملهم العذاب، ولم يكن منها مؤمن سوى لوط وابنتيه، فخرجوا منها ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ أي: بأمرنا ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ في قرية لوط ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من أهل الإيمان؛ لئلَّا يهلكوا، وقد يسر الله إخراج المؤمنين ونجاتهم، وهم لوط وأهله إلا امرأته.

لم تجد الملائكة في القرية غير بيت من المسلمين، وهو بيت لوط وابنتيه.

وقيل: أهل بيته كانوا ثلاثة عشر، أما امرأته فكانت من الهالكين؛ لأنها لم تؤمن بنبوة لوط ﷺ، وكانت تُرشِد الشباب على ضيوف إبراهيم، وتُظهر إيمانها بلوط ﷺ

والإيمان أعم من الإسلام، فكل مؤمن يكون مسلمًا وليس العكس، كما فرَّق الله بينهما في قوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

وقد عرَّف النبي ﷺ كُلًا منهما في حديث جبريل ﷺ حين سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان.

عرَّف الإسلام بأنه: عمل الجوارح، بالإتيان بأركانه الخمسة.

وعرَّف الإيمان: بأنه عمل القلب، بالتصديق بأركانه الستة.

وعرَّف الإحسان: بأنه مراقبة الله ﷻ.

والغرض من الآية بيان قلة المؤمنين الناجين من العذاب، وكثرة الكافرين المستحقين للهلاك، ولوط وابنتاه كانوا مصدقين بقلوبهم، منقادين لأمر الله تعالى بجوارحهم، ولذا فإن الله تعالى جمع لهم بين الإيمان والإسلام. قال تعالى في بيان العبرة المستفادة من القصة:

٣٧- ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

ولما أهلك الله قوم لوط، بقيت آثارهم ظاهرة، علامة بيِّنة، يمرُّ عليها الناس في صباحهم ومسائهم، وهي بحيرة لوط، أو البحر الميت في الأردن، الذي لا يُنتفع بمياهه ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ أي: في قرى قوم لوط ﴿ءَايَةً﴾ من آثار عذابهم واستئصالهم ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فهم الذين ينتفعون بالذكرى، ويعتبرون بما حدث لغيرهم، وهي علامة دالة على قدرة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات].

وقد بقي مكانهم خرابًا لم يُعمَّر حتى الآن ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر].

والذين يخافون العذاب الأليم هم المؤمنون بالبعث والجزاء من أهل الإسلام، فهم الذين يتقون أسبابها.

الاعْتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ

٣٨، ٣٩- ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾

وبعد قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام، تأتي إشارة سريعة إلى ما لحق بفرعون وجنده من الهلاك لما كذبوا نبي الله موسى ﷺ ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ أي: وفي قصة موسى مع فرعون آية وعبرة، وهذه الآية كائنة حين أرسلنا موسى إلى فرعون وملئه بالآيات والمعجزات الظاهرة، وجعلناها آية للذين يخافون العذاب الأليم،وتدل هذه الآية، على أن الله تعالى مهلك المكذبين الذين خالفوا أمره ونهيه، فيخافون أن يقع بهم مثل عذابهم إن هم صنعوا مثل صنيعهم.

وقد أرسل الله موسى ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة واضحة، وبرهان بيِّن، حيث أيده الله تعالى بالتوراة والآيات التسع، ومنها العصا واليد.

وقد جاءت قصة موسى بعد قصة ضيف إبراهيم، لشهرتها أكثر من غيرها، ولأن عذاب قومهما أرْضيٌّ، فقد عُذِّب قوم لوط بالحجارة، وعُذِّب فرعون وقومه بالغرق.

أما عاد وثمود فقد كان عذابهما سماويًا، إذ عُذبتْ عاد بالريح، وعُذبتْ ثمود بالصاعقة أو الطاغية.

وكما أن أسباب وجود الناس أربعة أشياء، هي: الماء، والتراب، والهواء، والنار، فقد أهلك الله قوم لوط بالحجارة وهي من طين، وأهلك قوم فرعون بالماء، وأهلك قوم

عاد بالريح وهو هواء، وأهلك قوم ثمود بالنار.

دعا موسى فرعونَ وقومه إلى توحيد الله تعالى، فأعرض فرعون بجانبه عن الإيمان به، وتعزز بأصحابه وجنوده، وتقوَّى بهم، وهذا معنى ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فأعرض فرعون عن الإيمان بموسى مغترًّا بقوته وجنوده وجاهه، فكان جنوده له كالركن الذي يعتمد البنيان عليه ﴿وَقَالَ﴾ فرعون عن موسى: ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ فهو إما ساحر وما أتى به شعوذة ليس من الحق في شيء، وإما مجنون لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله، ولذلك ادَّعى النبوة.

وقد قال فرعون ذلك تمْويهًا على قومه، وليس شكًّا منه في صدق موسى ﷺ، فهو يعلم أنه صادق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]

وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]

فماذا كانت عاقبة فرعون حين أعرض عن الحق وسخر بموسى ﷺ؟ قال تعالى:

٤٠- ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

أي: أخذنا فرعون ﴿وَجُنُودَهُۥ﴾ الذين تقوَّى بهم ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ أي: ألقيناهم جميعًا ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ وهو البحر، لَمَّا أغضبونا وكذَّبونا ﴿وَهُوَ﴾ أي فرعون ﴿مُلِيمٌ﴾ قد أتى بما يُلام عليه من الكُفر والطغيان والجحود.

لقد رُمي الطاغية الذي ادَّعى الربوبية والألوهية في البحر كما تُلقى النواة، ولم يكلِّف أحدًا شيئًا، ولا احتاج جُهدًا، وما بكت عليه السموات والأرض.

وفي هذا آية للذين يخافون العذاب الأليم، فيجتنبون سبب ما حلَّ بفرعون وقومه من العذاب بسبب المكابرة وعدم تصديق الرسل، وعدم الإيمان بالبعث والجزاء.

الاعْتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِقَوْمِ عَادٍ

٤١، ٤٢- ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾

ومن أشهر قبائل العرب البائدة: قوم عاد بالأحقاف في جنوب الجزيرة العربية، فقد

أرسل الله تعالى إليهم نبيه هودًا ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، فكذبوه واتهموه بالجنون والسَّفه، قائلين له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] فعاقبهم الله بالريح العاتية ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة].

قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أي: وفي شأن قوم عاد وإهلاكهم آياتٌ وعِبرٌ للذين يخافون العذاب الأليم، وكان ذلك ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ التي لا تأتي بخير، ولا بركة فيها، فلا تلقِّح شجرًا، ولا تحمل مطرًا، وهي ريح الدَّبور لقوله ﷺ من حديث ابن عباس ﵄: «**نصرتُ بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدَّبُور**»[1] وذلك بسبب إشراكهم بالله تعالى وتكذيبهم هودًا ﷺ، وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ومن خصائص هذه الريح أنها لا تُبقي ولا تذر.

وهكذا وصف الله هذه الريح العقيم بأنها ما تترك شيئًا مرَّت عليه في طريقها مما أراد الله تدميره وإهلاكه من الأنفس والأموال والأنعام والمتاع ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ وهو الشيء الهالك البالي الهشيم المفتَّت، فقد أرسل الله تعالى عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، استمرت ثمانية أيام متتابعة، قال تعالى في عذابهم: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر].

كما قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾ [الأحقاف].

وقال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦].

فكانت هذه الريح تهدم البنيان، وتنتزع الرجال، فترفعهم إلى أعلى، حتى يُرى الواحد منهم كالطير، ثم ترمي به في الأرض جثة هامدة.

وسُميت الريح بالعقيم تشبيهًا لها بعقم المرأة التي لا تحمل ولا تلد، وهي ريح لا خير فيها.

---

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح مسلم» برقم (٩٠٠) و«صحيح البخاري» برقم (١٠٣٥، ٣٣٤٣، ٤١٠٥).

وهذه الريح كانت تنتزع الإنسان العادي من بين الناس وتذهب به.

أخرج الترمذي وغيره، عن أبي وائل، عن رجل من ربيعة قال: قدمتُ المدينة فدخلتُ على رسول الله ﷺ فذكرتُ عنده وافد عادٍ، فقلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عادٍ، قال رسول الله ﷺ: «وما وافد عادٍ»؟ قال: فقلت: على الخبير سقَطْت، إنَّ عادًا لَمَّا أقحطت بعثتْ قَيْلًا، فنزل على بكر بن معاوية، فسقاه الخمر، وغنَّتْه الجرَادتان، ثم خرج يريد جبال مَهَرة، فقال: اللهم إني لم آتك لمريض فأُداويه، ولا لأسير فأفاديه، فاسْق عبدك ماكنتَ مُسْقيه، واسْق معه بكرَ بنَ معاوية، يشكُرُ لَه الخمر التي سقاه، فرُفع له سحابات، فقيل له: اخترْ إحداهن، فاختار السوداء منهن، فقيل له: خذها رَمَادًا رِمْدًا - أي: متناهية في الإحراق- لا تذرْ من عاد أحدًا، وذَكر أنه لم يُرسَل عليهم من الريح إلا قدْرُ هذه الحلَقة، يعني: حلَقة الخاتم، ثم قرأ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ لَا مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾[1].

والذين لا يخافون العذاب الأليم ممن أصر على الكفر والتكذيب مصيرهم مثل مصير قوم عاد.

الِاعْتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِقَوْمِ ثَمُودَ

٤٣- ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾

ومن القبائل المشتهرة بين العرب قبيلة ثمود في مدائن صالح بشمال الجزيرة العربية، فقد أرسل الله إليهم نبيه صالحًا ﷺ، فدعاهم إلى التوحيد وعدم الإشراك بالله تعالى، فناصبُوه العداء، وطلبوا منه معجزة معينة تدل على صدقه، بأن يُخرِج لهم ناقة عُشراء من صخرة صماء، فأيده الله بها ورأوْها بأعينهم، ولكنهم لم يؤمنوا، بل قتلوا الناقة وتآمروا على قتل صالح، ﷺ فتوعَّدهم الله تعالى ثلاثة أيام، تأخذهم الصاعقة بعدها، فتهلكهم وهم ينظرون.

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي: وتركنا في شأن قصة قوم ثمود آية للمؤمنين ليكون في هلاكهم آيات وعبر ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: حين قال لهم نبيهم صالح ﷺ: انتفعوا بحياتكم

---

(١) «سنن الترمذي» (٥/ ٣٩١) (٣٢٧٣، ٣٢٧٤) وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦١١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٦٠٧) وابن ماجه (٢٨١٦) و«المسند» (١٥٩٥٣، ١٥٩٥٤). بأطول من هذا السياق، وإسناده حسن، كما قال محققوه.

وتمتعوا بها مدة أيام ثلاثة، حيث تنتهي آجالكم بعد ذلك بنزول الصاعقة عليكم فتُهلككم، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود].

ورد أن صالحًا وعدهم بالهلاك بعد ثلاثة أيام، وقال لهم: تصبح وجوهكم غدًا مصفرة، وبعد غد محمرة، وفي اليوم الثالث مسودة، ثم يصبحكم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر: ٨٣].

فلما رأوا الآيات التي بينها لهم نبيهم صالح ﷺ بتغيُّر اللون عمدوا إلى قتله، فنجَّاه الله منهم، وفي اليوم الرابع نزلت عليهم نار من السماء، وقيل: صيحة فهلكوا[١] وفي تآمرهم على قتله يقول تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل]. قال تعالى:

٤٤، ٤٥- ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ[٢] وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ولما توعَّد صالح قوم ثمود بالتمتع في منازلهم ثلاثة أيام، ما كان منهم إلا أنهم عصوْا أمر ربهم، وأعرضوا عما أمرهم الله به على لسان رسوله صالح ﷺ، فأخذتهم صاعقة العذاب وهم ينظرون إلى عقوبتهم بأعينهم ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أعرضوا عن دعوة صالح وكذبوه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ والنظر إلى النقمة يزيد صاحبها ألمًا وحسرة، كما أن النظر إلى النعمة يزيد صاحبها مسرة.

قال مجاهد: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون، وذلك أن ثمود وُعدت العذاب قبل نزوله بهم بثلاثة أيام، وجُعل لنزوله عليهم علامات في تلك الأيام الثلاثة، فظهرت العلامات التي جُعلت لهم، الدالة على نزولها في تلك الأيام، فأصبحوا في اليوم الرابع موقنين بأن العذاب نازل بهم، ينتظرون حلوله بهم[٣].

---

(١) يُنظَر: «تفسير روح المعاني» للألوسي (٢٧/١٦).

(٢) قرأ الكسائي (الصعقة) على إرادة الصوت الذي يصحب الصاعقة، والباقون (الصاعقة) على إرادة النار النازلة من السماء للعقوبة.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح عن مجاهد.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت].

وقال تعالى في عذابهم: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر].

ولما حلَّ بهم عذاب الله تعالى أعجزهم عن الحركة، وشل حواسهم، فأقعدهم مكانهم، وجعلهم جُثثًا هامدة، فلم يمكنهم أن ينهضوا قيامًا، ولم يستطيعوا الهرب ولا الفرار، ولم يمكنهم الحركة ولا القيام من أماكنهم ولم ينصرهم من بأس الله ناصر، ولم يمكنهم نصر أنفسهم ولا دفع العذاب عنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

الاعْتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِقَوْمِ نُوحٍ

٤٦- ﴿وَقَوْمَ[1] نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ثم ختم الله هذه الآيات بلمحة عن نبي الله نوح ﷺ، فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء الذين ذُكروا في الآيات السابقة، وهم: قوم إبراهيم، وقوم لوط، وفرعون وقومه، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقبل هؤلاء جميعًا أهلكنا قوم نوح بالطوفان، فأرسل الله عليهم الماء المنهمر فأغرقهم عن آخرهم ولم يبق من الكافرين ديَّارًا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ مخالفين لأمر الله تعالى، خارجين عن طاعته، منغمسين في الشرك وعبادة الأصنام، قد ارتكبوا الكفر والمعاصي، وهذه عادة الله تعالى وسنته فيمن عصاه.

وفي قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ تنبيه على مخالفة عادة القرآن في ترتيب أحوال هذه الأمم في السورة.

وجاء مثل ذلك في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم].

---

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف بخفض ميم (وقومِ) عطفًا على ثمود، والباقون بالنصب مفعول لفعل محذوف تقديره: وأهلكنا، دل عليه ما قبله.

ثَلاثَةُ بَرَاهِينَ أُخْرَى عَلَى الْبَعْثِ وَالتَّوْحِيدِ

الْبُرْهَانُ الأَوَّلُ: خَلْقُ السَّمَاءِ وَاتِّسَاعُهَا

٤٧- ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾

تحدثت السورة عن منكري البعث، وأعقبتْ ذلك بذكر ما حلَّ ببعض الأمم المكذبة لرسل الله، والمكذبة للبعث والنشور، ولَمَّا كانت شبهة منكري البعث أنهم يتوهمون استحالة إعادة الأجسام بعد فنائها، فإن الله تعالى ذكر ثلاثة أمثلة على ذلك للاستدلال بها على أن الله تعالى يحيي الناس بعد موتهم، وهذه الأمثلة الثلاثة هي: السماء، والأرض، وخلْق الذكر والأنثى من جميع أجناس المخلوقات.

وابتدأ سبحانه بخلق السماء؛ لأنها أعظم المخلوقات، وقد خلقها الله تعالى ولم تكن شيئًا، فإعادة الأشياء الفانية بالنسبة إلى خلقها شيء يسير في عرف الناس.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ أي: خلقنا السماء وأتقنَّاها، وجعلناها سقفًا للأرض، وشيدناها وأحكمنا بناءها ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائها وأنحائها، بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الفضاء -بالنسبة إلى سعة السماء- كالحلقة الملقاة في فلاة من الأرض.

وعبَّر سبحانه عن خلق السماء بالبناء؛ لأن السماء تبدُو كالقبة وهي بناء، وإنا لقادرون على توسعتها بتلك الصورة العجيبة، وهذه السعة تشمل مدارات النجوم والكواكب، والمجرات التي تحوي مئات الملايين من النجوم، وتشمل طبقات الفضاء التي تتناثر فيها النجوم والكواكب، فهذه التي تُعدُّ بالملايين لا تعْدُو أن تكون ذرَّات متناثرة في هذا الفضاء الرحيب(١).

وهذه الآية ليست من آيات الصفات؛ لأن لفظ ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ ليس جمع يد، وإنما معناها: أنا بنينا السماء بقوة وقدرة عظيمة فائقة، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: ٨٧] أي: قوَّيناه(٢).

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٣٨٥) بتصرف.

(٢) «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٧/ ٦٦٩).

والآية تحتمل أن يكون هذا الاتساع في المستقبل شيئًا فشيئًا، بدءًا من أول الخلق، وهو يدخل في الإعجاز العلمي للقرآن.

وتحتمل أيضًا ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ على عبادنا بالرزق، فما من دابة في أقطار العالم العلوي والسفلي، إلا أوْصَلَ الله إليها من الرزق ما يُغْنيها ويَكْفيها، والمعنى الأول أنسب لسياق الآية.

الْبُرْهَانُ الثَّانِي: صَلَاحِيَةُ الْأَرْضِ لِمَنَافِعِ النَّاسِ

٤٨- ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ومن دلائل قدرة الله تعالى وحكمته أن جعل الأرض مبسوطة ممهدة، يمشي عليها أنواع الحيوان وتتوسَّدها وتضطجع عليها جميع المخلوقات، ولو لم تكن كذلك لما استطاع الإنسان والحيوان أن يستخْدمها.

وقد رُوعي في ذكر الأرض ما يبدو للناس من سطحها، ورُوعي في ذكر السماء ما يبدو للناس من قبة أجوائها.

والأرض بما فيها كحلقة في فلاة بالنسبة إلى السماء، وقد بسط الله الأرض وجعلها صالحة لمنفعة الناس وراحتهم، ولتكون موطنًا لهم ودارًا لمعاشهم ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها فراشًا مبسوطة للخلق للاستقرار والمشي عليها، ولزراعتها واستثمارها واستخراج كنوزها، وجعلنا فيها مسالك وطرقًا تُوصِّلُهم إلى حيث يريدون ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ نحن، حيث جعلناها مهدًا لأهلها على أحسن الوجوه وأكملها، وفي هذا تلقين للناس، وتعليم لهم أن يحمدوه ويشكروه سبحانه على ما امتنَّ به عليهم من خلْق السماء والأرض، ليقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ ويعبدوه حق العبادة.

الْبُرْهَانُ الثَّالِثُ: خَلْقُ نَوْعَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ مِنْ جَمِيعِ أَجْنَاسِ الْمَخْلُوقَاتِ

٤٩- ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[١] ﴿٤٩﴾﴾

أي: ومن كل شيء من أجناس الموجودات خلقنا نوعين متقابلين متضادين: كالذكر والأنثى، والليل والنهار، والسماء والأرض، والغنى والفقر، والضلال والهدى، والصحة

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الذال من (تذَكرون)، والباقون بتشديدها.

والمرض، والبياض والسواد، والحُلْو والحامض، والجنة والنار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والسهل والجبل، والجن والإنس، والموت والحياة، والظلمة والنور، والسعادة والشقاء، والحق والباطل، والإيمان والكفر، والشتاء والصيف، والثواب والعقاب، والطاعة والمعصية، والحر والبرد، والخير والشر.

وخلقنا من الحيوانات ذكورًا وإناثًا، ومن الجن ذكورًا وإناثًا، ومن الطيور ذكورًا وإناثًا، ومن النبات ذكورًا وإناثًا، وهكذا . . . .

والقادر على خلق هذه الأزواج، وعلى جعْل الأرض مهادًا، والسماء بناء، قادرٌ على إعادة الحياة للموتى من باب أولى، والمنفرد بخلق هذه الكائنات هو الذي يجب أن يُفرَد بالعبادة.

وفي هذا دلالة على أنه سبحانه إله واحد، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، وفي ذلك إبطال لكل شريك مع الله تعالى، وقد خلق الله هذا الكون بما فيه؛ لكي تتذكروا قدرة الله تعالى وتعتبروا ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ نعم الله عليكم وحكمته فيكم، فتعرفوا أن الله تعالى خالق كل شيء، وتستدلوا بذلك على توحيده سبحانه، وعلى أنه يحيي الناس بعد موتهم.

ولما دعا الله عباده إلى النظر في آياته، أمرهم بالمقصود من ذلك، وهو الفرار إلى الله بالرجوع إليه فيفر العبد إلى ربه من كل ما يكرهه الله تعالى إلى كل ما يحبه، ومن الغفلة إلى ذكر الله، يفر من قضاء الله وقدره إلى قضائه وقدره.

وُجُوبُ الْفِرَارِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ

٥٠- ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾

أي: وما دام الأمر كذلك فأقلعوا أيها المشركون، وأيها الجاحدون لوحدانية الله تعالى، المنكرون للبعث والنشور، أَقْلِعُوا عما أنتم فيه من الكفر والضلال، وتوجَّهوا إلى الله الواحد القهار بالطاعة والعبادة، وفِرُّوا من عذاب الله إلى رحمته تعالى بالإيمان به وبرسوله، واتباع أمره، واجتناب نهيه، والعمل بطاعته ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ فِرُّوا من الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم، ومن الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان.

والفِرَارُ: سرعة المفارقة تجنبًا للأذى، والأمر بالفرار إلى الله تعالى أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الرحمن، وعبَّر بالفرار لينبه على العقاب والعذاب الذي ينتظرهم.

قال ابن الجوزي: اهْربُوا مما يوجب العقاب من الكفر والعصيان، إلى ما يوجب الثواب والطاعة[١].

كما جاء في الحديث عن البراء بن عازب ﷺ: **«لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك»**[٢] فأسرعوا إلى طاعة الله عباد الله، فقد أنذرتكم عقاب الله قبل أن يحل بكم.

وكان النبي ﷺ يفر إلى الصلاة كلما حزَبَهُ أمر، وهذا فرار إلى الله تعالى.

وُجُوبُ الْفِرَارِ مِنَ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ

٥١- ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

ثم أكد ﷻ هذا الإنذار، ونهى عن التقاعس فيه، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ﴾ أي: لا تشركوا بالله أحدًا في طاعته وعبادته، فإن خطر الشرك شديد، وعاقبته وخيمة ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من الله تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾ أبلِّغكم رسالة ربي، وأبشِّر من أطاعه بدخول الجنة، وأحذِّر من عصاه من دخول النار، فأنا لكم نذير ﴿مُّبِينٌ﴾ بيِّن الإنذار لكم.

والشرك بالله تعالى أعظم الذنوب، وهو الذنب الذي لا يُغفر إذا مات العبد عليه، ولذلك فإن أصل الفرار إلى الله تعالى، أن يفر العبد من الشرك إلى التوحيد، ويخلص لربه الطاعة والعبادة، والخوف والرجاء والدعاء والإنابة، والرغبة والرهبة.

وجملة ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ذُكرتْ عند الأمر بالطاعة في الآية السابقة، وذُكرتْ عند النهي عن المعصية في هذه الآية للإشارة إلى أنه لا يفوز عند الله تعالى إلا مَن جمع بين الإيمان والعمل الصالح، وأن أحدهما بدون الآخر لا ينفع[٣].

---

(١) «زاد المسير» (٨/ ٤١).

(٢) من حديث البراء بن عازب في البخاري (٥٣١٢، ٦٣١٥) ومسلم (٢٧١٠).

(٣) «تفسير الخازن» (٤/ ١٨٥) بتصرف.

مَوْقِفُ الأَقْوَامِ مِنَ الرُّسُلِ

٥٢، ٥٣- ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾

ولَمَّا تصدَّرت السورة بالقسم على أن المنكرين لوحدانية الله تعالى، والمنكرين للبعث والنشور في قول مختلف متناقض، خُتمت السورة بهذا المعنى كذلك، فقال تعالى مشيرًا إلى ما سبق: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل قول المكذبين السابقين بالتوحيد والبعث والرسالة.
﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ أي: ما أتى جميع الأقوام الذين قبل قومك -أيها الرسول- ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾ عن كل منهم ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.
فكل رسول قال فيه فريق من قومه: مجنون، وقال فريق آخر: شاعر، وقال فريق ثالث: ساحر، وقال فريق رابع: كاهن... وهكذا.

فلا تحزن -أيها الرسول- لما تسمعه من بعضهم، فإن هذا دأب الكفار في كل زمان ومكان، حيث تصدر عنهم الأقوال الشنيعة التي يتنزه عنها رسل الله جميعًا، ولم يزل هذا دأبهم وعادتهم في الأولين والآخرين، يلقن بعضهم بعضًا، ويؤثّر بعضهم في بعض.

فهل أوصى بعض الأمم بعضًا بهذا، حتى وصلت المقولة من أول أمة، إلى آخر أمة، وهل أوصى بعض الأقوام بعضًا بهذه الأقوال حتى وصلت إلينا ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ﴾ أتواصى الأولون والآخرون بالتكذيب بالرسول ﷺ -أيَّ رسول - حين قالوا بذلك جميعًا؟ ثم بيَّن سبحانه أن السبب في ذلك هو الجحود والطغيان، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ جمعهم الطغيان والكفر، فتشابهت قلوبهم وأعمالهم، فقال متأخرهم بذلك كما قال متقدمهم. ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

وكذلك المؤمنون لما تشابهت قلوبهم في الإذعان إلى الحق، بادروا إلى الإيمان برسل الله وتعظيمهم وتوقيرهم وطاعتهم واتِّباعهم.

وتوَاصِي المكذبين بعضهم بعضًا على تكذيب الرسل، يُشعر بأن القوم لن ينتفعوا بالآيات والنذر، ولَمَّا لم ينتفعوا بها استحقّوا عقاب الله في الدنيا والآخرة.

الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَا يَعُوقُهَا عَائِقٌ

٥٤، ٥٥- ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان قومه، يغتمُّ قلبه لعنادهم وكفرهم، فخفف الله عنه، وبيَّن له أنه لما كانت مهمتك -أيها الرسول- هي مجرد البلاغ والإنذار، وقد بلَّغت الرسالة، وبذلْت الجهد، ولم تقصِّر، فلا عليك منهم بعد ذلك ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أعرض عن المكذبين بك -يا محمد- حتى يأتيك أمر الله فيهم، وكُفَّ عن جدالهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ لن يلومك أحد بعد أن بلَّغت الرسالة، وأدَّيت الأمانة، ونصحت الأمة.

وقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان الأمة، يتألم من عنادهم وكفرهم، فكان الله سبحانه يعاود تسْليته مرة تلو المرة، ليُسرِّي عن نفسه ويواسيه، فيقول له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء].

ويقول أيضًا: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

ويقول أيضًا: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وهكذا.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ اشتد ذلك على الصحابة، وظنوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حضر، حيث أُمر النبي ﷺ أن يُعرض عنهم، فأنزل الله تعالى[1] يطيِّب نفوس أصحابه، ويبيِّن لهم أن الوحي لم ينقطع، وأن النبي ﷺ مستمر في تذكيرهم ووعظهم، فقال: ﴿وَذَكِّرْ﴾ أي: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ واحترس؛ كي لا يتوهم متوهم أن الإعراض عن المكذبين إبطال للتذكير، فالتذكير باقٍ، وقد ذكَّر النبي ﷺ بعد ذلك، فآمن بعض من لم يكن قد آمن من قبل.

والاستمرار في التذكير، إقامة للحجة على المعرضين؛ لئلَّا يزدادوا طغيانًا وكفرًا، فمع إعراضك عنهم -أيها الرسول- وعدم التفاتك إلى تخذيلهم، داوِمْ على الدعوة إلى الله، وعلى وَعْظِ مَنْ أُرسلْت إليهم، فإن الموعظة والتذكير ينتفع بهما أهل القلوب المؤمنة، وفيهما إقامة الحجة على المعرضين[2].

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١٨٥) و«المطالب العالية» (٤١١٦) والطبري (٢١/ ٥٥٢) والبيهقي (١٧٥٠).

(٢) «التفسير الميسر» نخبة من العلماء ص ٥٢٣ .

والذكرى ينتفع بها مَنْ عَلِم الله أنه سيؤمن منهم، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى].

وانتفاع المؤمنين بالتذكرة والموعظة أمر محقق، والنفع الحاصل لهم هو رسوخ العلم وتنشيط العمل بإعادة التذكير، واستفادة علم جديد، وإظهار حجة المؤمنين على الكافرين.

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله:

والتذكير نوعان: تذكير بما لم يُعرف تفصيله، مما عُرِف مُجْمله بالفِطَرِ والعقول؛ فإن الله تعالى فَطَر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهية الشر والزهد فيه، وشَرْعُهُ تعالى موافق لذلك، فكل أمر ونهي من الشرع فهو من التذكير، وتمام التذكير أن يُذْكرَ ما في المأمور به من الخير والحُسْن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني: تذكير بما هو معلوم، ولكن انسحبتْ عليه الغفلة والذهول، فيُذَكَّرون بذلك، ويُكرَّر عليهم التذكير ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكَّروه من ذلك، وليُحْدِث لهم نشاطًا وهمةً توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله تعالى أن الذكرى تنفع المؤمنين؛ لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، والعمل بما يرضى الله تعالى، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعًا ، أما من ليس معه إيمان، ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، وهو بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئًا، وهذا الصنف من الناس لو جاءتهم كل آية فإنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم[1].

الْعِبَادَةُ هِيَ الْغَرَضُ مِنْ خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ

٥٦- ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[2] ۝٥٦﴾

ثم إن الله تعالى خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه، ولو لم يخلقهم ما عرفوه وما عبدوه، وما كان هناك جنة ولا نار، ولم يرض الله من خلقه إلا أن يعترفوا له بأنه المتفرد بالإلهية، وأنه

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، بتصرف، موسسة الرسالة، ط رابعة ص ٨١٢.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء في (ليعبدون) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين، ومثلها (يطعمون) و(فلا تستعجلون) في الآيات التالية.

المستحق للعبادة دون سواه، وهو الذي يجب إظهار الخضوع له، واعتقاد أنه وحده النافع الضار، وأنه المعبود بحق من الإنس والجن، وأن الله تعالى لم يخلق الخلق إلا ليقفُوا عند حدود التكاليف الشرعية من الأوامر والنواهي فيمتثلوها ويعملوا بها، وتمام العبادة متوقف على تمام المعرفة، وكلما ازداد العبد معرفة لربه، كلما كانت عبادته أكمل.

وهذه التكاليف الشرعية في الشرائع الإلهية، تكون فيها بعض الفروق من أمة إلى أمة، من نقص إلى زيادة، ومن كيفية إلى كيفية، ومن تشديد إلى تخفيف، وهكذا.

وبناء على ذلك فإن معنى الآية:

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفوني، ويقرُّوا بوجوب العبادة لله وحده، فيطيعوه باختيارهم، بمقتضى ما أودعه فيهم من الفطرة، وما أخذه عليهم من ميثاق التوحيد، وبمقتضى ما خلق الله فيهم من عقول، وأرسل إليهم من رسل، وأنزل عليهم من كتب، فمن أطاعه واتبع الحق والرشد فقد فاز ونجا، ومن عصاه وأعرض عن ذكره فقد ضلَّ وغوى.

وكُفْرُ الكافر لا ينافي أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، فقد يَبْري الإنسان القلم ليكتب به، ولكنه لا يستعمله.

على أن الكافر منقاد لله تعالى طوْعًا وكرهًا، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد].

وإقرار العبد بربه خالقًا ورازقًا ومدبرًا اعتراف به سبحانه، كما قال تعالى عن الكفار: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

ولكن هذا الإقرار أو هذه المعرفة لا تنفعهم مع الشرك به سبحانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: إلا لآمرهم بعبادتي، وأكلفهم بالعمل والترك، ثم أجازيهم على أعمالهم وأقوالهم، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

فالحكمة الأولى من خلق الإنس والجن هي ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف].

ففي هاتين الآيتين وأمثالهما بيان **الحكمة الأولى** من خلق الجن والإنس وهي عبادة الله وحده، وفي تقديم الجِّن على الإنس رد على المشركين الذين يعبدون الجن ليعلموا أن الجن عباد لله تعالى مثلهم.

والحكمة الأخرى هي: بعث الناس بعد موتهم ليجازيهم ربهم على أعمالهم وأقوالهم التي كانت في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

فهذه الآيات وأمثالها تبيِّن الحكمة الثانية من خلْق الخلق، وهي الجزاء على ما قدمته أيديهم في الدنيا.

وعلى هذا، فالحكمة من خلق المخلوقات هي: العِلْم بالخالق، وبعد العلم به سبحانه يكون التكليف: افعل، ولا تفعل.

ومقر القيام بهذا التكليف هو الدنيا، وبعد التكليف يكون الجزاء الذي يترتب على نتيجة الاختبار.

ومقر هذا الجزاء هو الآخرة، ومن أجل هذا أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وخلق لنا عقولًا، وأمرنا بالخير ونهانا عن الشر، والعبادة التي خلق الله الجن والإنس لأجلها، هي العبادة الاختيارية وليست عبادة التسخير؛ لأن العبادة الاختيارية هي التي يكون عليها الثواب والعقاب.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقوله سبحانه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وأمثالهما، فإن معنى ذلك: أن الله تعالى خلق الخلق بما أودع فيهم من عقول وحواس، وما أرسل إليهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب، وجعلهم بفطرتهم مستعدين لقبول الإيمان والكفر.

فمن آمن بالله واليوم الآخر فقد عمل بمقتضى الفطرة السليمة، ووفَّى بالميثاق المأخوذ على بني آدم بتوحيد الله تعالى وهم في عالم الذر، ومن لم يؤمن بالله ورسله فقد انحرفت عنده الفطرة، وعطَّل أجهزة الاستقبال فيه عن الانتفاع بالهدى والأخذ بأسبابه.

ومن آمن بالله تعالى فقد حقق غاية وجوده في هذه الحياة، وقام بوظيفته فيها، ومن لم يؤمن بالله تعالى فقد أبطل غاية وجوده في الدنيا، وأصبح بلا وظيفة.

وتتحقق العبودية بالتوجه إلى الله تعالى بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

وفي الآية بيان لسوء صنيع الكفار؛ لأن الله تعالى قد خلقهم لعبادته، ولكنهم لم يعبدوه.

ثَمَرَةُ الْعِبَادَةِ تَعُودُ عَلَى الْخَلْقِ لَا عَلَى الْخَالِقِ

٥٧- ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾

ثم أبطل سبحانه أن تكون هناك علة أو غاية تعود على الله ﷻ من خلق الخلق وعبادتهم، فبيَّن أنه تعالى لا يحتاج إليهم في شيء، وأن أهم ما يحتاجه المحتاج هو الطعام والشراب واللباس والمسكن، وكل هذا يرجع إلى الرزق، وهو المال، وقد نفى الله تعالى أنه محتاج إلى ذلك في قوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ فأنا الرازق المعطي، وأنا الغني المغني، فلا أحتاج لأحد في شيء، وأنتم الفقراء إليَّ في جميع أحوالكم؛ لأن الخالق الرازق غني عن خلقه، يُطعِم ولا يُطعَم، ويَرزُق ولا يُرزَق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«قال الله تعالى: يابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غِنًى وأسُدَّ فقرك، وإلا تفعل ملأتُ صدرك شُغلًا، ولم أسُدَّ فقرك»**[1].

---

(١) «المسند» (٢/٣٥٨) (٨٦٩٦) بإسناد حسن، لأجل زائد بن نشيط، صدوق، حسن الحديث، كما قال أبو حاتم، (محققوه) والترمذي برقم (٢٤٦٦) وابن ماجه برقم (٤١٠٧) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٥)، والحاكم ٣٢٦/٤ وصححه، ووافقه الذهبي، وله شاهد حسن من حديث معقل بن يسار.

وجاء في بعض الكتب: يابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفَّلتُ برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدتَ كل شيء، وإن فُتُّك فاتك كل شيء، وأنا أَحبُّ إليك من كل شيء[1].

وقد أسند الله تعالى الإطعام إلى نفسه؛ لأن الخلق كلهم عيال الله، ومن أطعم عيال الله فكأنه أطعم الله تعالى، وذلك لما صحَّ من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ﷻ يقول يوم القيامة: يابن آدم، مرضتُ فلم تعدني، قال: يارب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عُدته لوجدتني عنده؟**

يابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال: يارب كيف أُطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تُطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يابن آدم، استسقيتك فلم تسقني، قال: يارب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تَسقه، أما علمت أنك لو سقيْته لوجدت ذلك عندي»[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

وفي ذكر الإطعام إشارة إلى ما كان يهديه المشركون من الطعام إلى سدنة الأصنام، وما يتقربون به من النذور والذبائح إلى أصحاب القبور.

ثَلاثَةُ أَوْصَافٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٥٨- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

وصف الله تعالى نفسه في هذه الآية بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ كثير الرزق لخلقه، فما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٦).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٥٦٩).

﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠] وهذا الرزق يعم المال والطعام، فهو المتكفل بأرزاق العباد وحاجاتهم، وقد أكد الله ذلك بـ(إنَّ) والضمير المنفصل لقطْع أوهام الخلق في أمور الرزق، ليقْوى اعتمادهم على الله تعالى، فلا رازق غيره جلَّ شأنه ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات] ولن تموت نفسي حتى تستوفى رزقها وأجلها.

الوصف الثاني: أنه سبحانه ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: أنه تعالى صاحب القدرة الباهرة، الخالية من النقائص، وهي قوة لا تشبهها قوة، فهو جلَّ شأنه لا يُقهر ولا يُغلب، ولا يُعجزه شيء، أوجد المخلوقات ونفذت فيهم مشيئته، لا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد.

الوصف الثالث: أنه جلَّ شأنه ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ أي: الشديد، فالله تعالى كامل في قوته، بحيث لا يُعارَض ولا يُدانَى، فله القوة والقدرة كلها، لا يطرأ عليه عجز ولا نقص.

ومن ذلك أنه رزق الخلائق وأنه يبعثهم بعد موتهم.

والمعنى: أن الله تعالى غنيٌّ غِنًى مطلقًا، لا يحتاج إلى شيء أبدًا، ولم يخلق الله الخلق لتحصيل نفع له، ولكن ليعْمُر هذا الكون، ونظام العمران لا يقوم إلا على اتباع الشريعة التي يجمعها معنى العبادة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] ويتحقق ذلك بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

الْعِبْرَةُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْ هَلَاكِ الظَّالِمِينَ

٥٩، ٦٠- ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ[2] ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ولما ذكر الله سبحانه أنه خلق الخلق لعبادته بيَّن هنا أن عبادة المشرك بالله تعالى باطلة، فإذا لم يتوجه العبد إلى الله وحده بالعبادة، فإن له نصيبًا من العذاب كنصيب مَن سبق ذِكْرُهم في السورة، من قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، فكما ماثلوهم في الشرك والظلم، يماثلونهم في العقاب والمصير ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ غيرهم، أو ظلموا أنفسهم

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٣/ ٢٩).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (يومهِمِ الذي) وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الهاء والميم، وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم.

بالشرك، أو بتكذيب الرسول الخاتم ﷺ، أو بإنكار البعث والنشور، لهم ﴿ذَنُوبًا﴾ أي: نصيبًا من العذاب لعبادتهم غير الله تعالى.

والذَّنُوب في الأصل هو: الدَّلْو الكبير المملوء ماء، فإن كان فارغًا فلا يقال له ذَنوب، وهو مستعمل في الآية بمعنى: النصيب.

قال مجاهد في معنى ﴿ذَنُوبًا﴾: سَجْلًا من العذاب مثل عذاب أصحابهم[1].

فإن للكافرين ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي: لهم نصيب من العذاب ينزل بهم، مثل نصيب أسلافهم الذين مَضوْا وهلكُوا ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي لا يستعجلوا نزوله بهم، وكانوا يفعلون ذلك، ويقولون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الملك ٢٥] يقولون ذلك استهزاءً واستبعادًا، فبيّن سبحانه أن العذاب نازل بهم لا محالة، ولكن الله تعالى أخره إلى يوم القيامة ولم يعاجلهم به في الدنيا، لعلهم يتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم.

ثم توعَّدهم الله تعالى بالهلاك والويل والثبور مرة أخرى، ليبيِّن لهم موعد نزول العذاب بهم، وهو يوم القيامة، وعبَّر عنهم في الآية السابقة بالذين ظلموا، وعبَّر عنهم هنا بالذين كفروا قال تعالى ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله وبالبعث والنشور ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ بنزول العذاب فيه، وهو يوم القيامة، فإن هلاكهم سيكون فيه، وهو آتٍ لا محالة، وليس فيه مغيث ولا مجير ولا منقذ لهم من عذاب الله سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ في نهاية السورة، هو نفسه اليوم الذي سبق ذكره في أول السورة في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾ وفي هذا ردٌّ للعجز على الصدر.

قال تعالى عن هذا اليوم: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣]. نعوذ بالله من العذاب ونعوذ به من الكفر والضلال.

تم تفسير (**سورة الذاريات**) ولله الحمد والمنة.

---

(١) ابن أبي حاتم والطبري (٢١/ ٥٥٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الطُّورِ (٥٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الطور) هي السورة الثانية والخمسون في ترتيب المصحف، والخامسة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (نوح) وقبل سورة (المؤمنون).

وسميت سورة الطور لورُود لفظ الطور فيها معرَّفًا دون غيرها.

وعدد آياتها عند أهل الشام والكوفة تسع وأربعون آية[1].

وعدد كلماتها ثلاث مئة واثنتا عشرة كلمة، وعدد حروفها ألف وخمس مئة حرف.

وهي سورة مكية باتفاق، وكان النبي ﷺ يقرأ بها كثيرًا في صلاته:

١- فعن محمد بن جُبير بن مُطعم، عن أبيه ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا -أو قراءة- منه[2].

٢- وعن أم سلمة ﷺ قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي، فقال:

«طُوفي من وراء الناس، وأنت راكبة» فطفتُ ورسول الله ﷺ يُصلِّي إلى جنب البيت، يقرأ بالطور وكتاب مسطور[3].

٣- وقد أسلم جُبير بن مُطعِم لَمَّا سمع النبي ﷺ يقرأ بسورة الطور، فقد قدم جُبير من مكة إلى المدينة بعد غزوة بدر، ليفاوض النبي ﷺ في شأن أسرى المشركين الذين عنده، وكان جبير مشركًا، فوقف خارج المسجد، والمسلمون اصطفُّوا وراء نبيهم لصلاة المغرب، واستمع إلى سورة الطور، فتغيرت نفسه، واهتزَّ الشرك في ضميره، وأحسَّ كأن

---

(١) وعند أهل المدينة ومكة سبع وأربعون آية، وعند أهل البصرة ثمانٍ وأربعون آية.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٧٦٥، ٤٨٥٤) و«صحيح مسلم» برقم (٤٦٣) ومالك (٨٧/١) وأحمد (١٦٧٣٥، ١٦٧٨٣) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٦٢) وابن حبَّان (٨١٣٣).

(٣) «صحيح البخاري» بأرقام (٤٦٤، ١٦١٩، ٤٨٥٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٧٦) وأبو داود (١٨٨٢) وابن ماجه (٢٩٦١) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٤٦٤، ٣٨٨٩) و«المسند» (٢٦٤٨٥) وابن حبَّان (٣٨٣٠).

الوحي المتْلُوَّ يسْحقُ بقايا الكفر في نفسه، ويكتسحُها اكتساحًا.

قال جبير: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ كاد قلبي أن يطير[١].

٤- وفي رواية قال: قدمتُ المدينة على رسول الله ﷺ لأُكلِّمه في أُسارى بدر، فدُفِعْتُ إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب، فسمعته يقرأ: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ فكأنما صدع قلبي... فأسلمتُ خوفًا من نزول العذاب! وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب[٢].

لقد ترك الرجل عبادة الأوثان، وأسلم من فوره، وما أكثر الذين أخرجهم القرآن من الظلمات إلى النور!

والمحاور التي تقوم عليها السورة: هي غرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر، والإيمان باليوم الآخر، والمحور الثالث: هو الإيمان بالنبي الخاتم، وهذه المحاور الثلاثة، هي موضوعات السور المكية، التي تلزم لمن لم يدخل في الإسلام، ومَن هم حديثو عهد به في كل زمان ومكان، حيث يبدأ الداعية معهم بهذه الأصول الثلاثة، ثم تأتي مرحلة التكاليف الشرعية، والأوامر والنواهي:

١- وتبدأ السورة بما يتعلق بالبعث والجزاء، فتُقْسِمُ بخمسةٍ من عظيم خلْق الله تعالى، هي: جبل الطور، والتوراة التي نزلت فيه، والبيت المعمور، والسماء، والبحر المسجور على أن عذاب الله تعالى كائن لا محالة، وليس هناك ما يدْفعُه، وهو افتتاح مرهوب، يبعث على الخوف الشديد من عذاب أهل الجحيم، وأهوال الآخرة وشدائدها ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾.

٢- ثم تُقَسِّم السورة الناس إلى قسمين:

الكفار المكذبون بالله ورسوله واليوم الآخر، وذلك من الآية الأولى إلى الآية السادسة عشرة، وهم أهل النار.

---

(١) البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٣٤)، والحديث في صحيح البخاري (٤٥٧٣).

(٢) يُنظَر هذا المعنى في: «صحيح البخاري» برقم (٤٨٥٤) و«المسند» (١٦٧٦٢، ١٦٧٨٥).

والمتقون الأبرار، المؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، وذلك من الآية السابعة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين وهم أهل الجنة.

فتتحدثت آيات السورة **أوَّلًا**: عن عذاب أهل النار في مشهد يزلزل ويرعب، فيه ويل وهول وفزع، ترجف له القلوب، وترتعب منه النفوس ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وتتحدث آيات السورة **ثانيًا**: عن نعيم المتقين، وأنواع السعادة التي أعدها الله لهم في الآخرة، وإلى من يرْقَى معهم في درجتهم من زوجاتهم وذريَّاتهم من أهل الإيمان، من كل ما فيه أمن وأمان، وسعادة ورضوان.

٣- ويأتي الأصل الثاني بالحديث عن خاتم الرسل ﷺ وفيه الأمر من الله تعالى بالتذكير وإنذار الكفار، وألا يعبأ بما يقوله المكذبون الضالُّون، وفيه إبطال مزاعمهم المفْتراة على النبي ﷺ، وهذا من الآية التاسعة والعشرين إلى الآية الرابعة والثلاثين.

٤- ثم تتحدث آيات السورة عن جانب التوحيد من الآية الخامسة والثلاثين إلى الآية السابعة والأربعين في مناظرة عقلية مع الكافرين، لا يملك معها كل ذي لُبٍّ سليمٍ إلا أن يقول: آمنت بالله رب العالمين.

إنها سورة تُبطل الشُّبَهَ والأضاليل، وتدحض الحجج والمعاذير، وتعرض الحقيقة بارزة واضحة بمنطق نافذ لا يحتمل التأويل.

٥- وقد جاء في آيات السورة خمسة عشر استفهامًا متعاقبًا، كأنها خمس عشرة صدمة كهربائية تنقل المرء من حال إلى حال، وتُرْغمه على التفكير في الحال والمآل، ولا يسع الكافر العاقل إلا أن يؤمن بالله تعالى ربًّا وبمحمد ﷺ نبيًّا وبالإسلام دينًا، وهذه المناظرة من الآية الثلاثين إلى الآية الثالثة والأربعين، منها جانب يتعلق بالرسالة، وجانب يتعلق بالتوحيد، وفيها دحض لأكاذيب الجاحدين، فتقذف بالحق الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ على باطل المكذبين المعاندين فإذا هو زاهق، وتسوق ذلك بأسلوب ساحر خلَّاب.

٦- وآيات هذه السورة، ذات تأثير قوي على النفس البشرية، فهي تَدْحَضُ كل شبهة، وكل عذر، وتُذلِّل كل عقبة في طريق الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، فآياتها وفواصلها

كأنها قذائف، أو صواعق، أو سياط لاذعة، من البدء إلى الختام، تَرُجُّ القلب رجًّا، وتُرْعِب الحسَّ رُعبًا، وتهز المشاعر هزًّا، فتنسف الباطل نسفًا، وتُخرس لسان كل مكابر مجادل!

يجد القارئ ذلك في سياط العذاب المسلَّطة على أهل النار في مطلع السورة، وحلاوة النعيم المعدِّ لأهل الجنة[1].

ويجدها وهي تُطارد الهواجس والشبهات والأباطيل وتدحضُها في استفهامات السورة الخمسة عشر، فتبطل مزاعمهم الفاسدة في شأن نبوة محمد ﷺ، وتردُّ عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل، وتقيم الدلائل على صدق محمد ﷺ، وهذه الاستفهامات الخمسة عشر جاءت في قوله تعالى:

١- ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾.

٢- ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [٣٢] ٣- ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [٣٢]

٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [٣٣] ٥- ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [٣٥]

٦- ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [٣٥] ٧- ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [٣٦]

٨- ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [٣٧] ٩- ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ﴾ [٣٧]

١٠- ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [٣٨] ١١- ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

١٢- ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ [٤٠] ١٣- ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ [٤١]

١٤- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [٤٢] ١٥- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [٤٣]

٧- وفي نهاية السورة ترسم مشهدًا محسوسًا يحمل التوبيخ والتقريع لكل معاند مكابر ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

وتختم السورة بتوجيه النبي ﷺ إلى التسلح بالصبر والتسبيح والصلاة، ففي ذلك العلاج الناجع لتخطِّي العقبات والتغلُّب على النكبات.

---

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٣٩١).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْقَسَمِ عَلَى أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ

١-٦- ﴿وَالطُّورِ[1] (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦)﴾

لله تبارك وتعالى أن يُقْسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يُقْسم إلا بالله تعالى، وقد أقسم الله تعالى في أول سورة الطور بخمسٍ من مخلوقاته العظيمة على أن البعث والجزاء حق، لكل من المتقين والمكذبين، وبيانها فيما يأتي:

القَسَمُ الأولُ: ﴿وَالطُّورِ (١)﴾:

وهو جبل طور سيناء، الذي ناجى فيه موسى بن عمران ربه، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول التوراة، وقد أقسم الله تعالى به تكريمًا وتشريفًا له، وتنويهًا بشأن الألواح، وتذكيرًا بما فيها من الآيات. وجبل الطور هو المقسَمُ به في قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ (٢)﴾ [التين].

والجبل الذي خوطب فيه موسى ﷺ، من جانب الله تعالى، هو جبل **الزُّبير**، ويسمى جبل حُوريب، وهو جبل الطور المذكور في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]. وكلها في صحراء سيناء.

القَسَمُ الثاني: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢)﴾

أي: كتاب منسق الكتابة، منتظم الحروف، مرتب المعاني، قد سُطِّرت حروفه وكلماته تسطيرًا حسنًا جميلًا، وقد فُسِّر هذا الكتاب **بخمسة أقوال**:

الأول: اللوح المحفوظ. **الثاني**: كتاب أعمال بني آدم. **الثالث**: التوراة.
الرابع: جميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى، فهو اسم جنس. **الخامس**: القرآن.

ولعل الأقرب للصواب أن يكون المراد بالكتاب المسطور: التوراة، فهو المناسب لمجاورة الطور، وكأن القسم بالطور توطئة للقسم بالتوراة.

---

(١) عدّ (والطور) آية، البصري والكوفي والشامي، وليست آية عند الحجازين: المدني الأول والأخير والمكي.

والتوراة كتبها موسى ﷺ بيده بعد نزول الألواح عليه، وضمَّنها كل ما أوْحى الله به إليه، مما أُمر بتبليغه في مدة حياته، إلى ساعات قليلة قبل وفاته.

والتوراة هي الأسفار الأربعة المعروفة عند اليهود: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر العدد، وسفر التثنية[1].

وهي التي قال الله تعالى عنها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال عن الألواح: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف].

والقسَم بالتوراة يستلزم أن يكون قبل تحريفها وتبديلها، وقد يكون بدء التحريف عندما ظهرت دعوة محمد ﷺ، فعمدُوا إلى تغيير أوصافه فيها.

والقول بأن المراد بالكتاب المسطور: القرآن، قول بعيد؛ لأن القرآن وقت نزول هذه السورة في مكة لم يكن مسطورًا، ولم يكن كتابًا مكتملًا.

ولا توجد مناسبة ترشِّح أن يكون المراد بالكتاب: كتاب أعمال بني آدم.

والمسطور: هو المكتوب، كما قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [القلم: ١] والأقوال الثلاثة الباقية محتملة.

أما قوله تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾﴾ فإن الرَّق: هو الصحيفة المتَّخَذة من جلد أبيض رقيق، ليكتب عليه؛ إذ لم يكن الورق موجودًا آنذاك، والناس تكتب على مثل هذا الجلد، **والمنشور**: هو المبسوط غير المطوي.

وقد كان اليهود يكتبون التوراة في رقوق ملتصق بعضها ببعض، أو مَخيطة حتى تصير قطعة واحدة، ثم تُطوى طيًّا أسطوانيًّا لتُحفظ، فإذا أرادوا قراءتها نشروها، وفي حديث الرجم: «**فنشروا التوراة**»[2].

(١،٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٣/ ٣٧).

والمعنى: أن الله تعالى أقسم بالكتاب وهو منشور للقراءة، حيث يحصل الاهتداء به للقارئ والسامع، وهذه الحالة هي أشرف أحواله.

القَسَمُ الثالثُ: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾

وهذا لفظ صريح في أن المراد بالبيت المعمور: البيت الذي تطوف حوله الملائكة في السماء السابعة، وهو لأهل السماء كالكعبة لأهل الأرض، ويقع في محاذاة الكعبة، تعمرُه الملائكة في السماء السابعة، وفي كل سماء بيت يَتعبَّدُ فيه أهلها، والذي في السماء الدنيا هو بيت العزة.

أحاديث في البيت المعمور:

١- وفي حديث الإسراء عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أُتيت بالبراق -وهو دابة- أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى بصره- قال: فركبتُه حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطتُه بالحَلَقة التي يَربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل ﷺ بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة، ثم عرَج بنا إلى السماء...»**

وساق الحديث بطوله، وفيه **«فإذا أنا بإبراهيم مسنِدًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخلُه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه...»**[(١)].

٢- ولفظ البخاري: من حديث مالك بن صعصعة عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«... فرُفع إليَّ البيت المعمور، فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه...»**[(٢)].

٣- وقد سُئل عليٌّ ﷺ:- ما البيت المعمور؟ فقال: بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، يقال له: الضُّراح، وهو بِحِيَالِ الكعبة من فوقها، حُرمتُه في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة لا

---

(١) «صحيح مسلم» (١/ ١٤٥-١٤٧) برقم (١٦٢) كتاب الإيمان، باب الإسراء والمعراج.

(٢) «صحيح البخاري» (٦/ ٢١٩) برقم (٣٢٠٧) وكذا «صحيح مسلم» (١٦٤) من طريق قتادة، وهو في «المسند» (١٢٥٥٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين، غير حمّاد بن سلمة فمن رجال مسلم (محققوه) والحديث. في «المستدرك» (٢/ ٤٦٨) وفي «المنتخب» لعبد بن حميد (١٢١٠).

يعودون إليه أبدًا[١].

٤- وعن عائشة ﵂ أن النبيَّ ﷺ قال: «. . . **إن هذه الكعبة بحيال البيت المعمور الذي في السماء يدخل ذلك البيت المعمور سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، لو وقع حجر منه لوقع على ظهر الكعبة**»[٢].

وقيل: إن المراد بالبيت المعمور هنا: البيت الحرام، وسمي كذلك لأنه معمور بالحجاج والعمَّار، والآثار الواردة فيه تؤيد المعنى الأول.

القَسَمُ الرابعُ: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾

أي: والسماء العالية المرتفعة، وقد جاء مصرحًا به في آية أخرى، أن السماء سقف للأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء].

فقد جعلها سقفًا للمخلوقات، وبناءً للأرض، تستمد منها أنوارها، ويُقتدى بعلاماتها ومناراتها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

فالمراد بالسقف: السماء، وهي عالية مرفوعة بلا عمد.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [الرعد: ٢].

أما العرش فهو سقف للجنة، كما قال ابن عباس ﵄.

القَسَمُ الخامسُ: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾

أي: المملوء بالماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، وقد اقتضت حكمة الله تعالى عدم جريانه وفيضانه، ليعيش الناس والنبات والدواب على وجه الأرض.

وقد يراد بالمسجور: المملوء بالنار، والنار تحت الماء في البحار، والبحار تُملأ يوم القيامة بالنار، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢].

---

(١) «تفسير الطبري» (٢١/٥٦٣) وبه قال مجاهد والضحاك وابن زيد، يُنظَر: «المطالب العالية» عن إسحاق بن راهويه (٤١٢٢) والبيهقي (٣٩٩١).

(٢) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٦/٣٠٨): إسناده صالح عن ابن مَرْدُوَيْه.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير] أي: أُضرمت فيها النار والْتهبتْ، فتصير نارًا تلظى ممثلة على سعتها وعظمتها.

عن سعيد بن المسيب أن عليًّ بن أبي طالب ﷺ سأل يهوديًا: أين جهنم؟ قال: هي البحر، فقال عليٌّ: ما أُراه إلا صدقًا ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾[1] [التكوير]. ولعل المراد به: جنس البحار، أو البحر الأحمر، لمناسبته للطور والكتاب المسطور وغرق فرعون.

ويبدو أن الرق المنشور: صحائف موسى، وأن البحر المسجور: هو البحر الأحمر، حيث أغرق الله فرعون، وقضت أمواج البحر على الألوهية المزوَّرة.

فمن جانب الطور نُودي موسى ﷺ ليقيم حربًا على وثنية فرعون، وليأخذ التوراة فيقيم بها دينًا ودولة، كما نُودي محمد ﷺ من جانب البيت العتيق ليُرسي دعائم التوحيد، فيأخذ القرآن ويقيم به دينًا ودولة.

أما عيسى ﷺ فقد جاء بالإنجيل معتمدًا على ما في التوراة من تشريع، وليُحِلَّ لبني إسرائيل بعض ما حُرِّمَ عليهم في التوراة بسبب ظلمهم وبغيهم، وليصدِّق ما قبله من كتب، ويبشر بخاتم المرسلين وقرآنه الباقي إلى آخر الدهر.

وهكذا أقسم الله تعالى بخمسة أشياء، هي:

جبل الطور في سيناء، والتوراة، والبيت المعمور، والسماء، والبحر المسجور.

وقد أقسم الله تعالى بهذه الخمس للدلالة على أنها آية من آيات الله دالة على وحدانيته تعالى وبراهين قدرته وبعْثه للأموات.

والمقسَم عليه في الآيات السابقة هو قيام الساعة، ونزول العذاب بالكفار، وأنه ليس له من دافع يدفعه عن المستحقين له: قال تعالى:

٧، ٨- ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾

أي: إن عذاب الله نازل بالمكذبين والمشركين نزولًا لا شك فيه يوم القيامة، فهو واقع

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٧)، (٢٤/ ١٣٨).

بهم لا محالة، ولا يخلف الله وعده، وليس لذلك اليوم ما يُبعده ولا ما يمنعه ويدفعه، ولا يوجد من يقيهم منه بشفاعة أو معارضة.

وَرَدَ أن عمر ﷺ لما سمع هذه الآيات أخذ يبكي ويبكي حتى صار له خطان أسودان في وجهه، وانتفخت جفون عينيه.

وفي رواية: أنه نزل عن حماره واستند إلى حائط وقال: قسمٌ -ورب الكعبة- حقٌّ. وظل وقتًا طويلًا، ثم رجع إلى منزله فمكث شهرًا يعوده الناس لا يدْرُون ما مرضه، ﷺ[١].

ولما سمعها جبير بن مطعم ﷺ أسلم، وقال: ما كنت أظن أني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب[٢].

الْفَنَاءُ الْمُؤْذِنُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ

٩-١٢- ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾

ثم بيَّن سبحانه اليوم الذي يقع فيه هذا العذاب، فبيَّن أنه اليوم الذي تتحرك فيه السماء، وتضطرب أجزاؤها اضطرابًا كثيرًا، ويختل نظامها من شدة الأهوال فتمورُ، أي: تدور كما تدور الرَّحى، وتتكفَّأُ بأهلها، وتدوم حركتها ولا تسكن، وذلك يوم القيامة عند نهاية الحياة ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾ [المعارج].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان].

ويوم القيامة تسير الجبال، فتزول عن أماكنها، وتسير كما يسير السحاب، فتُنسف نسفًا من فوق وجه الأرض وتتفتت كالرمال، ثم تصير كالصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥﴾ [طه].

وتكون هباء منثورًا ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة].

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ [المعارج].

---

(١) مسند عمر (٢/ ٦٠١) وأبو عبيد في «فضائله» عن الحسن ص ٦٤ وأحمد في «الزهد» عن مالك بن مغول.

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ١٨٧).

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وذلك كله لِعظَم يوم القيامة وما فيه من الأهوال والزلازل، التي تُزعج الأجرام العظيمة، فكيف بالإنسان الضعيف!

والحكمة في ذلك أن الجبال والبحار والشمس والقمر وغير ذلك، خلقها الله تعالى لعمارة الدنيا، وانتفاع بني آدم بها، ولَمَّا لم تَبْقَ عوْدة إلى الدنيا، أزالها الله تعالى لخراب الدنيا وعمارة الآخرة، ويومئذ تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات.

فالهلاك في هذا اليوم واقع بالذين كذَّبوا بما جاءهم به الرسول ﷺ من توحيد الله تعالى، والإيمان بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وكل ما جاء به القرآن، وهو منتهى سوء الحال لهم.

فقد كانوا في الدنيا يخوضون في الباطل والكذب، كقولهم:

﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فيُكذِّبون بالقرآن ويسخرون من الإسلام، وقد عاشوا حياتهم الدنيا في غفلة وسهو عن لقاء الله تعالى، فكانوا يلهون ويلعبون، ولا يذكرون حسابًا ولا ثوابًا ولا عقابًا، وكانوا منشغلين بأسلحة الدمار الشامل والعلوم الضارة التي تهلك الحرث والنسل، بخلاف ما عليه أهل الصدق والإيمان، وأصحاب العلم الشرعي والعلوم النافعة للبشرية.

مَشْهَدُ عَذَابِ الْمُكَذِّبِينَ وَهُمْ يُسَاقُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ

١٣-١٥- ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا [(١)] ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾

ثم وصف الله سبحانه دخولهم النار، فبيَّن أنهم يُدفعون إليها دفعًا بقسوة وغلظة وعنف، حيث تجْمع الخزنة أيديهم إلى أرجلهم، وتأخذ بنواصيهم، وتدفعهم على وجوههم إلى النار دفعًا ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أي: يُساقون بعنف ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ وهذا

---

(١) عد الشامي والكوفي لفظ (دعا) آية، ولم يعده غيرهما.

حال الخائف المتقهقر، حيث يُساق إلى النار سَوْقًا فيه إهانة وزَجر.

وتقول لهم الملائكة الموكلون بإيصالهم إلى النار، توبيخًا وتعنيفًا لهم، حين يَصِلُون بهم إلى حافة النار: ﴿هَٰذِهِ﴾ هي ﴿ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ لقد كنتم في الدنيا تُكذبون بالبعث والحشر والعذاب، فهذا هو العذاب ماثل أمام أعينكم، لاسبيل إلى إنكاره ولا تكذيبه.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ الذي تشاهدونه بأعينكم، وقد كنتم تزعمون في الدنيا أن محمدًا ساحر، وأن ما يقوله سحر، فهل ما ترونه سحر؟ ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ المرئيات، كما كنتم تقولون في الدنيا ﴿بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

وتقولون: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ [الحجر: ١٥] فهل سُكِّرت أبصاركم وعَمِيت عن رؤية العذاب، أم أن الحجاب قد منعكم الرؤية؟

والجواب على ذلك: أن القرآن ليس بسحر، بل هو أحق الحق، وأصدق الصدق، وهم قد رأوْا بأعينهم صدق ما أخبرهم به رسول الله ﷺ، فلا مجال للإنكار والتكذيب، وهذا تأنيب لهم على ما سبق منهم من تكذيب في الدنيا، وعند رؤية المكذبين للنار يقال لهم:

١٦- ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

أي: وعندما يَدْفَعُ خزنة النار بأهلها إلى جهنم، يقولون لهم تيْئيسًا: ذوقوا حرَّها ولهيبها، وادخلوها صاغرين، سواء أصبرتم على سعيرها أم لم تصبروا، فإنها مأواكم ومصيركم، لا مفر منها ﴿ٱصْلَوْهَا﴾: ادخلوها، فهي محيطة بكم، مستوعبة لجميع أبدانكم مطّلعة على أفئدتكم ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على ألمها وشدتها ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سواء أصبرتم أم لم تصبروا، فلن يُخَفَّف عنكم من عذابها، ولن تخرجوا منها، وجزاؤكم فيها أمرٌ حتمٌ، ولا رجاء في خروجكم منها، وقد فعل الله بكم ذلك بسبب ذنوبكم ومعاصيكم ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب، وأنتم مخلدون فيها أبدًا، تنالون جزاء أعمالكم القبيحة من الكفر والتكذيب ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فالصبر والجزع لا ينفعان شيئًا، وهذا كقولهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

فالجزاء من جنس العمل، وإذا كان الجزاء واقعًا حتمًا كان الصبر وعدمه سواء.

عَشَرَةُ أَلْوَانٍ مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

١٧- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

ولَمَّا ذكر ﷻ حال أهل الكفر، بيَّن حال الذين صدَّقوا بالله ورسوله واليوم الآخر، وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه، قد أعد الله لهم ألوانًا من النعيم المقيم عند رب العالمين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ أي: إن الذين صانوا أنفسهم عن كل ما نهى الله عنه يكونون يوم القيامة في حدائق وبساتين، وأشجار ملتفَّة، وأنهار متدفقة، وقصور محدقة، ومنازل مزخرفة، تجري بين قصورها أنهار الجنة، وهم في نعيم دائم لا ينقطع، ويشمل نعيم القلب والروح والبدن، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ [النبأ].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥] وفي هذا تباين بين حال المتقين وحال المكذبين السابق ذكرهم.

ثم أخذ سبحانه يُعدِّد ألوانًا من نعيم أهل الجنة، فذكر عشرة من نعيمهم، فهم:

أَوَّلًا: فِي فَرَحٍ وَسُرُورٍ بِمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّعِيمِ وَالسَّعَادَةِ

١٨- ﴿فَٰكِهِينَ(١) بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾

إنهم يتنعَّمُون ويتلذَّذُون بما أعطاهم ربهم من أصناف النعيم المذكور في الآية السابقة، من المأكل، والمشرب، والمسكن، والملبس، والمركب، حيث يكونون ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي: مسرورين فرحين، أو أنهم ذوُو فاكهة من فواكه الجنة ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فقد أرضاهم بما يحبون من أصناف النعيم والسعادة الكاملة، وفي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهو فضل من الله تعالى وإكرام لهم، ومنة عليهم، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة]

---

(١) قرأ أبو جعفر بحذف ألف (فاكهين)، والباقون بإثباتها.

ثانيًا: فَوْزُهُمْ بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

أي: نجَّاهم من عذاب جهنم.

كما قال تعالى ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وأي فوز أعظم من أن يصرف الله عنهم أهوال جهنم؟

ومن أوصاف عباد الرحمن أنهم يدْعُون ربهم قائلين:

﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان]

لقد نجاهم الله من عذاب الجحيم، لأنهم فعلوا ما يرضى الله وتركوا ما يسخطه.

ثَالِثًا: تَهْنِئَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ

١٩- ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

وكما قيل لأهل النار: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ يقال لأهل الجنة على وجه التهنئة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من كل ما تشتهون ﴿هَنِيئًا﴾ مريئًا لكم، فلا تُخمة ولا سقم، ولا تنغيص ولا كدَر، جزاءً لكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب ما قدمتموه من صالح الأعمال في الدنيا، فطعامكم هنيء، لا يلحقه تعب ولا مرض، ولا عُسر هضم، ولا حموضة ولا سمنة، وشرابكم سائغ فيه تفكُّه وتلذذ، وهذا كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة]. وكل ذلك على وجه الفرح والسرور والحبور.

رَابِعًا: هَيْئَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَالَ اتِّكَائِهِمْ عَلَى السُّرُرِ

٢٠- ﴿مُتَّكِئِينَ[1] عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

الاتكاء على الفُرش والسُّرُر حال الأكل والشرب، شأن أهل الترف والرفاهية في الدنيا، كما قال تعالى عن نساء القصور من عِلْية القوم: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [يوسف: ٣١].

والاتكاء هو الجلوس على وجه الراحة، والأرائك جمع أريكة، وهي ما يُتكؤ عليها من الفرُش والمزخرفة المزيَّنة الفاخرة، ووصفها الله تعالى بأنها مصفوفة، لكثرتها وحُسْن

---

(١) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (متكئين) وصلًا ووقفًا، هكذا (متكين) ولحمزة وقفًا: الحذف والتسهيل بين بين، وقرأ الأزرق بتثليث البدل، قصر وتوسط ومد.

تنظيمها وجمال رونقها، واجتماع أهلها عليها بسرور وحُسنِ معاشرة.

وكان الأكاسرة وأباطرة الرومان يتكئون وهم يشربون الخمر، وليس هذا من شأن المتقين في الدنيا، كما قال ﷺ: **«أما أنا فلا آكل متكئًا»**[1].

أما في الآخرة فإنهم يأكلون ويشربون حال كونهم ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصۡفُوفَةٍۖ﴾ متقابلين في مواجهة بعضهم البعض، وهذا لتمام الأنس وحُسْن المجالسة، كما قال تعالى:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوۡضُونَةٍ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ [الواقعة].

وقال جلَّ شأنه: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

وقال ﷻ: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسًا وَلَا زَمۡهَرِيرًا ١٣﴾ [الإنسان].

خَامِسًا: الْحُورُ الْعِينُ

وفضلًا عن ذلك فإن الله تعالى جعل لكل فرد في الجنة زوجًا من الحور العين، قال تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ وهن نساء حسان بيض، واسعات العيون، أي: قرنَّاهم بنساء من الحور العين.

والحور: صفة لنساء المؤمنين في الجنة، سواء أكنَّ مخلوقات في الجنة لأهل الجنة، أم كنَّ نساء للمؤمنين في الدنيا، فأنشأهن الله إنشاءً، وجعلهُن عُرُبًا أترابًا، أي: متحبِّبات لأزواجهن، أبكارًا لا ثيِّبات، وهُنَّ أترابًا، أي: في سن الثالثة والثلاثين، وهو أفضل سن للمرأة، ويقال للجميع: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾ [الزخرف].

والحور: من الْحَوَر، وهو شدة البياض مع شدة السواد في العين.

والعين: جمع عيناء، وهي المرأة واسعة العين.

---

(١) من حديث أبي جُحَيْفَة في صحيح سنن الترمذي (١٨٣٠) وصحيح ابن حبان (٥٢٤٠) والنسائي (٦٧٤٢) والبيهقي (١٣٠٣).

سَادِسًا: إِلْحَاقُ الْأَدْنَى دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ بِالْأَعْلَى مِنَ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ

٢١- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ[(١)] ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ[(٢)] وَمَآ أَلَتْنَٰهُم[(٣)] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِىٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾

ومن فضل الله تعالى على أهل الجنة أن يُلْحق الأدنى منهم درجةً في الجنات، بمن هو أعلى في درجات الجنان، من الذرية والآباء والأمهات والزوجات، بشرط أن يكونوا من المؤمنين، ولكنهم في درجة أقل مرتبةً، فيلْحَقُ الأدنى بالأعلى إكرامًا لهم، ومن تمام نعيمهم؛ كي تقر أعينهم وتطيب نفوسهم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ أي: بشرط أن يكون الأبناء مؤمنين مثل آبائهم، فهم شركاء في الإيمان، ولذا ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعلناهم معهم في منزلتهم في الجنة، وإن لم يبلغُوا درجة آبائهم في الإيمان، لتقرَّ أعين الآباء بالأبناء في مكان واحد على أحسن الوجوه، ولتجتمع لهم أنواع السعادة والسرور في أنفسهم، بمزاوجة الحور العين، ومؤانسة الإخوان المؤمنين، واجتماع نسلهم بهم، ومساواتهم لهم في العطاء والنعيم والمنزلة، وإن لم يبلُغوا عملهم، فضلًا من الله وكرمًا.

وفي رواية عن ابن عباس ﷺ أن المراد بالذرية: الصغار الذين هم دون سن البلوغ، ولم يصلوا إلى درجة التكليف وتحمُّل الإيمان.

ولعل هذا الإلحاق من شفاعة المؤمن الصالح لأهله وذريته.

جاء في الأثر عن ابن عباس أيضًا: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل لتقرَّ به عينه، ثم قرأ الآية[(٤)].

---

(١) قرأ أبو عمرو (وأَتْبَعْنَاهُم ذُرِّيَّاتِهِمْ) مفعولًا ثانيًا، وقرأ ابن عامر ويعقوب (واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهم) فاعل. وقرأ الباقون (واتَّبعتْهُم ذُرِّيتُهم) فاعل.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (ألحقنا بهم ذُرِّيَّاتِهِم) مفعول به، والباقون (ذُرِّيَّتهم).

(٣) قرأ ابن كثير بكسر لام (وما أَلِتناهم)، والباقون بفتحها، ورُوي عن قنبل وجه آخر بحذف الهمزة، وكلها لغات.

(٤) جاء هذا الأثر من طريقين بألفاظ متقاربة، يُنظَر: «تفسير الطبري» (٢٧/ ١٥) وصححه الحاكم (٢/ ٤٦٨) وسكت عنه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٧): رواه البزار، وفيه قيس بن الربيع وثَّقه شعبة والثوري، وفيه ضعف، وأخرجه البيهقي في «السنن» (١٠/ ٢٦٨) والبزار في «الكشف» (٢٢٦٠).

وهذا الإلحاق كرامة للآباء، وإلا لكانت معاملة الأبناء على حسب أعمالهم، ومع هذا فإن الله تعالى لم يُنْقِص الآباء من ثواب أعمالهم شيئًا ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: وما نقصنا الآباء شيئًا من ثواب أعمالهم، فالمقصِّر يلْحق بالمحسن، والمحسن لا ينقص من أجره شيء.

قال الجمل: والذرية هنا تصدُق على الآباء والأبناء، فإن المؤمن إذا كان عمله الصالح أكثر أُلحق به مَنْ هو دونه في العمل، أيًا كان، أبًا أو ابنًا، وهذا منقول عن ابن عباس وغيره[١]. **وقد ورد في ذلك أحاديث**، منها ما جاء:

١- عن ابن عباس ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وعن زوجته وولده، فيقال: إنهم لم يدركوا ما أدركت، فيقول: يارب، إني عملتُ لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به**» وقرأ الآية[٢].

٢- وعن عليٍّ ﷺ قال: سألَتْ خديجةُ النبيَّ ﷺ عن ولَدَيْن ماتا لها في الجاهلية، فقال ﷺ: «**هما في النار**» فلما رأى الكراهة في وجهها قال: «**لو رأيتِ مكانَهُمَا لأبغضتِهما**»، قالت: يا رسول الله، فولدي منك؟ قال: «**في الجنة**» ثم قال ﷺ: «**إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار**» ثم قرأ الآية[٣].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يارب، أنى لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك لك**»[٤].

٤- وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: من**

---

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (٢١٦/٤).

(٢) الطبراني في «الصغير» (٦٤٠) وفي «الكبير» برقم (١٢٢٤٨) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١١٧): فيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو ضعيف.

(٣) من زوائد عبد الله بن أحمد على «المسند» (١/ ١٣٤) (١١٣١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧١): فيه محمد بن عثمان لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، وضعَّفه محققو «المسند».

(٤) «المسند» (٢/ ٥٠٩). ورقمه (١٠٦١٠) بإسناد حسن من أجل عاصم بن أبي النجود وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٩٦) وابن ماجه (٣٦٦) والبزار في كشف الأستار (٣١٤١) وغيرهم وهو في صحيح الجامع (١٦١٧).

صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

وربما توهم بعض الناس أن أهل النار، يُلْحِق الله بهم ذريتهم كأهل الجنة، فرفع الله هذا الوهم، وبين سبحانه أن من عدل الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بذنب، فأخبر سبحانه أنه لا يؤاخَذُ أحدا بذنب أحد، وأن كل إنسان مرهون بعمله، لا ينفعه غيره، سواء أكان أبًا أو أمًّا، أو ابنًا أو زوجة... ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ فهو مرتهن بعمله، لا يحمل وزر غيره ولا ذنب غيره، وهذا الارتهان خاص بالكافر، فإن كان العبد مؤمنًا صالحًا سعد وفاز؛ لأن عمله الصالح أطلقه وفكَّ أسره، وأدخله الجنة مباشرة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١﴾ [المدثر].

فالمؤمن لا يكون مرتهنًا بعمله، أما الكافر فإنه مرهون بعمله، لا ينفكُّ عنه إلا بعد أدائه وحسابه.

سَابِعًا: أَهْلُ الْجَنَّةِ يَتَزَوَّدُونَ مِنَ اللُّحُومِ وَالْفَاكِهَةِ مَا يَشْتَهُونَ

٢٢- ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢٢﴾

أي: وزدنا أهل الجنة من فضْلِنا الواسع ورزقنا العميم، فوق ما ذُكِر من النعيم ألوانًا من الفاكهة المنوعة وأصناف اللحوم المختلفة، من كل ما يُستطاب ويُشتهى، ولعل هذه الآية فُسِّرت بقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١﴾ [الواقعة].

والمعنى: زدناهم على ما ذُكِر من النعيم من الأكل والشرب الهنيء، فاكهةً ولحمًا مما يشتهون، من كل مالذّ وطاب من أنواع الفواكه واللحوم وسائر ألوان المتع والنعيم.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٣١) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨) وأبو داود (٢٨٨٠) والترمذي (١٣٧٦) و«المسند» (٨٨٤٤) بإسناد صحيح و«شرح مشكل الآثار» (٢٤٦)، وأبو يعلى (٦٤٥٧) وابن خزيمة (٢٤٩٤) وابن حبان (٣٠١٦).

ثامنًا: خَمْرُ الْآخِرَةِ لَا تُؤَثِّرُ عَلَى الْعَقْلِ وَلَا عَلَى اللِّسَانِ

٢٣- ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا[1] لَّا لَغْوٌ[2] فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ[3] ﴿٢٣﴾﴾

ومن نعيم أهل الجنة: أنهم يتعاطوْن فيها كأسًا من الخمر، يُناوِل كلٌّ واحد منهم صاحبه ليتمَّ بذلك سرورهم، وهذا الشراب مخالف لخمر الدنيا، فلا يزول به عقل شاربه، ولا يحصُل بسببه لَغْو، ولا كلام فيه إثم أو معصية، ولا باطل، ولا رفث، ولا تخاصم، كما يحدث ممن يشربون الخمر في الدنيا ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ يَصُبُّ بعضهم لبعض، ويُناوِل بعضهم بعضًا في جو من السَّمَر والمداعبة، والإيثار و الكرامة، هذا هو معنى ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ [النبأ].

وإذا انتفى ما في الجنة من الكلام الذي لا فائدة فيه، والكلام الذي فيه إثم ومعصية، ثبت أن كلامهم كله طيب طاهر، فيه مسرة للنفوس وفرح للقلوب وحُسْن معاشرة.

والكأس: هي الإناء الذي يُشرب فيه الخمر، لا عُرْوة له ولا خُرطوم، ولا يقال له كأس إلا إذا كان فيه خمر، وإلا فهو كوب.

واللغو: هو الكلام الساقط الذي يُنبئ عن خلل في العقل.

والتأثيم: ما يؤثِّم قائله أو فاعله شرعًا أو عرفًا.

قال قتادة: نزَّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها صُداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام الذي لا فائدة فيه، المتضمن للهذيان والفُحش، ووصَفها بحُسْن منظرها، وطيب مطعمها، فقال:

﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات].

---

(١) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (كأسًا) ألفًا وصلًا ووقفًا، والباقون بإثباتها ساكنة.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الواو من (لغوَ) وفتح الميم من (تأثيمَ) مع عدم التنوين فيهما على أن (لا) نافية، والباقون بالرفع فيهما مع التنوين على أن (لا) نافية للوحدة.

(٣) أبدل همزة (تأثيم) ألفًا ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، وحمزة عند الوقف، وحققها الآخرون.

تَاسِعًا: خَدَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ غِلْمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ الْمَصُونِ فِي أَصْدَافِهِ

٢٤- ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ[1] مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾

ومع أن الجنة لا نَصَب فيها ولا تعب، ولا شُغل ولا عمل، إلا أنه من تمام النعيم أن يكون في الجنة غلمان دون سن البلوغ، مُعَدُّون للخدمة، يطوفون حول المؤمنين في الجنة، يناولونهم الكؤوس وغيرها، في لذة وسرور، من غير سآمة ولا ملل، وهؤلاء الغلمان قد خلقهم الله في الجنة لهذا الغرض.

قيل: إن أولاد المشركين الذين هم دون سن التكليف هم خدم أهل الجنة[2].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ قد أعدَّهم الله لخدمتهم، وهم صغار في السن لتكون حركتهم خفيفة ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الصفاء والبياض والحُسْن ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي: لؤلؤ مصون في أصدافه، لم تمسه الأيدي.

قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة].

وقال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان: ١٩].

قال قتادة: ذُكر لنا أن رجلًا قال: يا نبي الله، هذا الخادم، فكيف المخدوم؟ قال: **«والذي نفس محمد بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»**[3].

عَاشِرًا: أَهْلُ الْجَنَّةِ يَتَجَاذَبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عَمَّا كَانَ فِي الدُّنْيَا

٢٥، ٢٦- ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

---

(١) أبدل الهمزة الأولى من (لؤلؤ) واوًا أبو عمرو بخلف عنه، وشعبة وأبو جعفر، وحمزة عند الوقف، أما الهمزة الثانية فيبدلها وقفًا هشام بخلف عنه، وحمزة، ولهما أيضا تسهيلها مع الرَّوْم، ولهما كذلك إبدالها واوًا خالصة مع السكون والرَّوْم والإشمام.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٩).

(٣) حديث مرسل أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٧/ ١٩) وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (١٣/ ٧٠٦) ولعبد الرزاق (٢/ ٢٤٨) وابن المنذر، وقال ابن حجر في «تخريج الكشاف» (١٦٠): رواه عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة به.

والتحدُّث بنعمة الله تعالى، وتجاذُب أطراف الحديث بين الجلساء في الجنة، والمؤانسة بينهم، من نعيم الله تعالى على أهل الجنة، فإن أهل النار يكونون في غمٍّ وكربٍ ونكدٍ، وكلٌّ منهم لا يفكِّر إلا في نفسه.

والمعنى: وأقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضًا عن عظيم ما هم فيه من نعيم لا ينفد، وعما كانوا فيه في الدنيا من أحوال، وهذا من باب التحدث بالنعمة، والتلذذ بالحديث، وهم يتذاكرون ما هم فيه من حُسْن العاقبة، إلى جوار سوء عاقبة أهل النار.

ومن ذلك ما ذكره القرآن عن الصَّدِيقَيْنِ اللذيْن دخل أحدهما الجنة، والآخر النار.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إلى أن قال لجلسائه في الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات]

وهكذا يسأل بعضهم بعضًا من باب المؤانسة والمحبة والمودة.

أخرج البزار عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سريرَ هذا فيتحدثان، فيتكئ هذا ويتكئ ذا، فيتحدَّثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدري أيَّ يوم غفر الله لنا؟ يوم كنَّا في موضع كذا وكذا، فدعوْنا الله فغفر لنا**»[1].

ويقول كل مسؤول لسائله: إنا كنا بين أهلينا في الدنيا نعيش خائفين من أهوال يوم القيامة، وكنا نعمل الصالحات، ونرجو من الله أن يقبلها منا، ويرضى عنا بها ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال المسؤولون للسائلين: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ ونحن في الدنيا ﴿فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من عذاب الله وعِقابه، نخاف من رد الحسنات، والأخذ بالسيئات.

ولكن الله تعالى مَنَّ علينا بالإيمان والعمل الصالح، فوفَّقنا للطاعة والعبادة، وكان ذلك سببًا للفوز بالجنة والنجاة من ا لنار:

---

(١) أخرجه البزار (٣٥٥٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤٢١): رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار، والربيع بن صبيح، وهما ضعيفان وقد وُثِّقا.

٢٧ ، ٢٨- ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ[1] هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾

أي: لقد تفضل الله علينا بالهداية والتوفيق، وأكرمنا بالجنة، ومَنَّ علينا بالعفو والمغفرة والرضوان، وأذهب عنا الحزَن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾ [فاطر: ٣٤].

وأجارنا مما نخاف، وحمانا من نار جهنم، وأنقذنا من حرها وسعيرها ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ فتزداد لذة المؤمن حيث انتقل من الضيق إلى السعة، ومن السجن إلى الجنة، كما يزداد الكافر حسرة وألمًا، حيث انتقل من نعيم الدنيا إلى نار جهنم.

والسَّموم: الريح الحارة التي تدخل المسام.

ويقول أهل الجنة: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ ونحن في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي: نعبد الله وحده، ونبتهل إليه، ونتضرع إليه، ولا نشرك معه أحدًا، ونسأله سبحانه أن يقينا عذاب السموم، ويوصِّلنا إلى النعيم، وهذا يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة، أي: لم نزل نتقرب إلى الله تعالى بأنواع القربات، وندعوه في سائر الأوقات ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ فاستجاب لنا ربنا وأعطانا سُؤْلَنا، ومِن برِّه بنا ورحمته لنا أن أنالنا رضاه والجنة، وحفظنا من سخطه والنار.

لَمَّا قرأتْ عائشة ﵂ هذه الآية، قالت: اللهم مُنَّ علينا، وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم، قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم[2].

وُجُوبُ الْمُثَابَرَةِ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ أُوذِيَ الدَّاعِي

٢٩- ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ[3] رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾

---

(١) فتح همزة (إنه) نافع والكسائي وأبو جعفر على تقدير لام التعليل، أي: لأنه، والباقون بكسرها على الاستئناف، وقرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير في (ندعوه).

(٢) عبد الرزاق (٤٠٤٨) وابن أبي شيبة (٢/ ٢١١) والبيهقي في «الشعب» (٢٠٩٢).

(٣) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على (بنعمت) على الأصل في هاء التأنيث، ووقف الباقون بالتاء تبعًا للرسم، وأمالها الكسائي وقفًا.

هذا أمر من الله تعالى بالقيام بواجب الدعوة إلى الله سبحانه، ومتابعة نشر الإسلام في العالم، فيذكِّر الناس جميعًا كافرهم ومسلمهم، بأمر الله ونهيه في كتاب الله وسنة رسوله، لتقوم الحجة على الضالين، ويهتدى بتذكيره الموفَّقون.

وذلك أنه بعد أن ساقت السورة ألوانًا من الوعد والوعيد، والعذاب والنعيم، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالمثابرة على الدعوة، وملازمة التذكير، إنذارًا للكافرين، وتبشيرًا للمؤمنين، وأن يمضي ﷺ في طريقه دون أن يهتمَّ بأكاذيب المبطلين.

فداوِمْ -أيها الرسول- على التذكير حتى يَرْعَوِيَ بعض المكذبين عن كذبهم، ويزدادَ المصدِّقون توغُّلًا في إيمانهم.

ولما كان أثر الدعوة أهم بالنسبة للمكذبين لعلهم يهتدون، ناسب ذلك أن يتتبَّعَ القرآن شبُهاتهم واتهاماتهم لتبْرئة الرسول ﷺ منها، حتى يزول ما عَلِق في نفوسهم.

وتبدأ الآيات بتبرئة الرسول ﷺ من صفتين قبيحتين رماه بهما الكفار، وهما: الكهانة، والجنون، وكانت العرب تألف وجود الكهانة والجنون في بعض الناس.

﴿فَذَكِّرْ﴾ -يا رسولنا - مَن أُرسلت إليهم بالقرآن، واثبت على ما أنت عليه من الوعظ والتذكير ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: بما أنعم الله عليك بالنبوة والرسالة ورجاحة العقل، وعصمته لك ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يزعم الكافرون.

وهكذا: نفى الله سبحانه عن رسوله ﷺ كل نقص، وأثبت له كل كمال، وبيَّن أنه أكمل الناس عقْلا، وأبعدهم عن الهوى والشياطين، وأعظمهم صدقًا، وأرجحهم رأيًا.

والكاهن: هو الذي يُخبر بالغيب دون علم، **والمجنون**: هو الذي لا يعقل ما يقول، فلَسْتَ كما يدَّعون أيها الرسول -وحاشاك- وإنما أنت تنطق بالوحي عن ربك، قال تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير].

فمن أين تأتي الكهانة لدين التوحيد والفطرة؟ ومن أين يأتي الجنون لدين العقل والحكمة؟

قَذَائِفُ الْحَقِّ تَدْمَغُ الْبَاطِلَ فِي خَمْسَةَ عَشَرَ اسْتِفْهَامًا

٣٠، ٣١- ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾

أخذت السورة بعد ذلك في تقريع الجاهلين بأسلوب استنكاري، فيه التعجب من جهالاتهم، والرد على أكاذيبهم، فساقت شبهاتهم وردَّت عليها بأسلوب يبدأ بلفظ ﴿أَمْ﴾ خمس عشرة مرة، كلها إلزامات ليس لديهم جواب عليها، فالإسلام ليس فيه عوج ولا خطأ ولا شرود، وهي استفهامات متعاقبة كأنها صدمات كهربائية توقظ الإنسان، وتنقله من حال إلى حال، وترغمه على التفكير والتأمل، وهذه الاستفهامات، منها ما يتعلق بالوحي والرسالة، ومنها ما يتعلق بالتوحيد والعقيدة:

الِاسْتِفْهَامُ الْأَوَّلُ: عَنْ تَرَقُّبِ نُزُولِ الْمَوْتِ بِالرَّسُول

بل أيقول المشركون عنك -يا محمد-: هو شاعر ننتظر نزول الموت به، فينقضي أمره ويذهب ما جاء به من هذا الدين؟

روى ابن إسحاق عن ابن عباس ﷺ: أن قريشًا اجتمعت في دار الندوة في أمر النبي ﷺ، فقال قائل منهم: احتبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك ويموت، كما هلك من هلك مِنْ قبله مِنَ الشعراء: زهير، والنابغة، والأعشى، إنما هو كأحدهم، فأنزل الله هذه الآية(١).

فكانوا يقولون: ننتظر به حوادث الدهر حتى يموت ويهلك، كما هلك مَنْ قبله مِنَ الشعراء، أو يتفرق عنه أصحابه، وإن أباه مات وهو شاب، ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه(٢).

وفسَّره ابن عباس بالموت، والمنون: هو الدهر، أي: نتربص به حوادث الزمن، والمنون أيضًا: اسم من أسماء الموت، وهو واحد لا جمع له.

والريب: هو الحدث، كما قال قتادة: تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه، كما كفاكم

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٧/ ١٩) و«تفسير الألوسي» (٢٧/ ٣٦) وهو في «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٨٠).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ١٨٨).

شاعر بني فلان، وشاعر بني فلان.

وقد نفى القرآن صفة الشعر عن النبي ﷺ، كما نفى عنه صفة الكهانة التي جاءت في الآية السابقة، فقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس].

إن محمدًا ﷺ ليس بشاعر، وكتابه مشحون بالحقائق لا بالخيالات كما قال تعالى ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم عن مقالتهم هذه بجواب منصف؛ لأن حوادث الدهر مشتركة بين الجانبين، ولا يدري أحد بأي من الطرفين تحلُّ.

﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿تَرَبَّصُوا﴾: انتظروا موتي أو هلاكي ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾: المنتظرين نزول العذاب بكم، وأن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، وسترون لمن تكون العاقبة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة].

أي: منتظرون عاقبة الأمور، فأنا واثق من نصر الله تعالى، وقد أذاقهم الله ألوانًا من العذاب في غزوات الرسول ﷺ، وبأيدي المسلمين في كل زمان ومكان.

الِاسْتِفْهَامُ الثَّانِي: عَنْ تَسْفِيهِ الدَّاعِيَةِ وَإِلْصَاقِ التُّهَمِ بِهِ

٣٢- ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ[1] أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾

إن عظماء قريش كانوا يوصَفون بأولي الأحلام والعقول، وكذا أمثالهم من العلمانيين والجاحدين، فكيف يقولون: إن محمدًا شاعر، أو كاهن، أو مجنون؟ وكيف الْتبستْ عليهم الحقائق واختلطتْ عليهم الأمور، فلم يميزوا ويفرقوا بين الكاهن وغيره،

(١) قرأ السوسي بإسكان الراء واختلاس ضمتها في (تأمرهم) ودوري أبي عمرو، له الإسكان والاختلاس وإشمام الحركة، والباقون بإتمام الحركة.

والمجنون وغيره؟! وهم لا يجهلون حال محمد ﷺ، ويعرفون أن هذه الأوصاف لا تنطبق عليه ﷺ وقد اعترف بذلك بعض زعمائهم كالوليد بن المغيرة.

قيل لعمرو بن العاص ﷺ: ما بال قومك لم يؤمنوا وهم أصحاب الأحلام؟ فقال: تلك عقول كادها الله، أي: لم يصحبها التوفيق والرشاد.

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ بل أعقول المكذبين تأمرهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ الكلام المتناقض، وهو دعوى أن القرآن سحر أو شعر أو كهانة، فأين عقولكم؟ وكيف لا تميز بين الحق والباطل؟ وكيف تصف محمدًا ﷺ بالأوصاف المذكورة مجتمعة أو متفرقة؟ فالعقول السليمة لا تأمر بهذا؛ لأن أصحابها يترفَّعون عن اختلاق هذه التهم وإلصاقها بأفضل الخلق ﷺ، فبئس العقول والأحلام التي صدر عنها ما صدر، فإن عقولًا جعلتْ أكمل الخلْق عقلًا، جعلتْه مجنونًا، وجعلَتْ أحق الحق وأصدق الصدق كذبًا وباطلًا، لَهِي عقول المجانين.

والحلم: يطلق في الأصل على ضبط النفس عند هيجان الغضب، ويطلق على سعة الصدر وحسن الخلق.

الِاسْتِفْهَامُ الثَّالِثُ: لِبَيَانِ أَنَّ الطُّغْيَانَ هُوَ الْبَاعِثُ عَلَى تَكْذِيبِ الدُّعَاةِ

وبعد هذا التهكم اللاذع يأتي هذا الوصف المزري ليبيِّن للكفار أن الطغيان قد تأصَّل فيهم وخالط نفوسهم، فدفعهم ذلك إلى مثل هذه الأقوال، فإذا انتفى أن عقولهم لم تأمرهم بذلك، لم يبق إلا أنهم قوم طغاة ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ فالطغيان هو الباعث الأول الذي حملهم على التكذيب، وهم قوم قد تجاوزوا الحدَّ في أقوالهم وأفعالهم.

الِاسْتِفْهَامُ الرَّابِعُ: لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ كَلَامَ بَشَرٍ فَمَا الذي يَمْنَعُ الْبَشَرَ مِنَ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ؟

٣٣، ٣٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

ثم تطاولت ألسنة المكذبين على رسول الله ﷺ فاتهموه بافتراء ما يقول، ولذا فإن السؤال هنا يأتي باستنكار قولهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ بل أيقول الجاحدون المكذبون: إن محمدًا ﷺ افترى هذا القرآن من تلقاء نفسه؟

والتقوُّل: نسبة الكلام إلى أحد لم يقله، أو هو تكلُّف القول، وتقوَّل عليه، أي: كذب

عليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء].

ثم ابتدأ سبحانه الرد عليهم في زعمهم أن القرآن مفترى بقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، بل هم لم يصدقوا بالقرآن أصلًا، استكبارًا وعنادًا، ولو أنهم آمنوا به لم يقولوا ما قالوه فيه.

إن دلائل تنزيه النبي ﷺ عن دعوى التقوُّل بالقرآن -أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، ولكنهم لا يريدون الإيمان، فهم يبادرون إلى الطعن، ويختلقون المعاذير سترًا لمكابرتهم، والذي حملهم على ذلك هو انغماسهم في الباطل وإصرارهم على الجحود.

فإن كان هذا القرآن كلام بشر، فما الذي يمنع البشر من الإتيان بمثله، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة؟ ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ﴾ أي: بكلام ﴿مِّثْلِهِۦٓ﴾ أي: مثل هذا القرآن في نظمه، وحسن بيانه، وبديع أسلوبه ﴿إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ في زعمهم أن محمدًا اختلقه، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، فإما أن تصدُق معارضتهم له، وإما أن يُقرُّوا بِصدْقه.

ولما كانت مقالتهم بأن القرآن مفترى، طعنًا منهم في المعجزة الدالة على صدق خاتم الرسل ﷺ، ربما تُرُوج على بعض الدهْماء، فإن القرآن قد تصدَّى لإبطال دعواهم:

فتحدَّاهم **أوَّلًا** أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين، وكان عجزهم عن ذلك دليلَ كذبهم؛ لأن محمدًا ﷺ عربي مثلهم، ينطق بلسانهم، فلو كان قد قال هذا القرآن فما الذي يمنع خاصة العرب البلغاء من تأليف مثله، وفيهم الشعراء والفصحاء؟ فَعَجْزُ البشر عن الإتيان بمثله دليلٌ على أنه من عند الله تعالى.

ثم تحدَّاهم **ثانيًا** إذا كانوا قد عجزوا عن الإتيان بمثله كله، فليأتوا بمثل عشر سور مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾ واستعينوا على ذلك بمن شئتم من البشر ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

والأمر ليس كذلك، فالمانع لهم من التصديق هو الجحود والمكابرة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فلما عجزوا عن ذلك، تحداهم القرآن ثالثًا أن يأتوا بسورة واحدة من مثله:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ معناه: أن يأتوا بسورة من مثل القرآن، أي: بكلام يشبهه.

وقد نفى الله تعالى هذا في قوله سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص].

وقال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

وفي هذه الآيات إلهاب لعزيمتهم؛ ليأتوا بكلام يماثل القرآن، وعدم استجابتهم دليل على كذبهم، والتحدي بالقرآن قائم إلى قيام الساعة، على كل مكابر معاند مكذب.

وهم على هذا، إما مؤمنون مهتدون، وإما معاندون مكذبون.

الِاسْتِفْهَامُ الْخَامِسُ: هَلْ خُلِقَ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ؟

٣٥- ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾

أي: أوُجِدُوا من غير موجد؟ أم هم أَوْجَدُوا أنفسهم؟

أو أنّ المعنى: أخُلقوا لغير سبب فلا ثواب ولا عقاب، ولذلك فهم لا يسمعون ولا ينتفعون؟!

ومن أهم أغراض السورة: إثبات البعث والجزاء، وأن إعادة خلق الإنسان أيسر من بدء الخلق، وقد كان الناس عدمًا، فأوجدهم الله تعالى، ثم أماتهم، وكما خُلِقوا من العدم فإنهم يُبعثون بعد موتهم للحساب والجزاء، وخلْقُ الناس من غير خالق أمرٌ واضحُ

البطلان، لا يحتاج إلى الاستدلال، فالصفر لا يُوجِد شيئًا.

فيسأل الله تعالى منكري البعث، الجاحدين لوحدانيته تعالى، عن حقيقة وجودهم، وهي حقيقة قائمة، لا سبيل لإنكارها، فيقول تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أخُلق هؤلاء الملحدون من غير خالق؟ هذا شيء تنكره الفطرة، ولا يحتاج إلى جدل.

وهذا استدلال عليهم، لا يمكنهم معه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، فهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وهذا يستلزم إنكار أن الله خلقهم.

الِاسْتِفْهَامُ السَّادِسُ: هَلْ خَلَقَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ؟

ثم يأتي الافتراض الآخر في قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم حتى تجرَّؤوا على الله تعالى فأنكروا وجوده، ولم يدَّع أحد من الخلق أنه خلق نفسه، أو خلَق غيره، فإذا كانوا لم يُوجَدُوا بدون واجدٍ، ولم يُوجِدوا أنفسهم -فلم يبق إلا أن الله تعالى هو الخالق لهم، وبعبارة أخرى: فإنهم إنْ أقروا بأنهم لم يُخْلَقوا بغير خالق، وأقروا بأنهم لم يَخْلُقوا أنفسهم - لزمهم أن يقروا أن لهم إلهًا خلقهم، وهو الله سبحانه، فهذه ثلاث حالات ليس لها رابع.

وما دام الله تعالى لم يشاركه أحد في الخلق وجب ألا يشاركه أحد في العبادة، وتكون الحجة قد قامت على العباد بأن لهم خالقًا يجب عليهم الإيمان به.

والقول بأنهم لم يُخْلَقوا لشيء زعمٌ باطلٌ، بل خُلقوا للأوامر والنواهي، ومن ثَمَّ للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

فالإنسان مخلوق مربوب لله تعالى وهو لا يخلق شيئا ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطارق].

والمشركون معترفون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

الِاسْتِفْهَامُ السَّابِعُ: هَلْ خَلَقَ أَحَدٌ الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ أَوِ السُّفْلِيَّ؟

٣٦- ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ثم يواجههم القرآن بمخلوقات أعظم من خلق الإنسان، وهي السموات والأرض، إنها لم تَخلُق نفسها بطبيعة الحال، كما أنهم لم يَخْلُقوا أنفسهم، فهل السموات والأرض خلقتْ نفسها؟ أم خُلِقت من غير خالق؟ وهم لم يدَّعوا أنهم خلقوها ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ على هذا الصنع البديع.

ثم بيَّن سبحانه السبب في إنكارهم لوحدانية الله تعالى، واليوم الآخربأنهم كفار لا يؤمنون بالله ولا يصدقون ما جاء به رسوله ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾بعذاب الله تعالى؛ لأنهم مشركون،فإنكارهم البعث ناشئ من عدم يقينهم بالغيب، فهم ينكرونه بدون حجة ولا شبهة، وليس عندهم علم تام، ولا يقين يجعلهم ينتفعون بالأدلة الشرعية والعقلية.

وخصَّ السموات والأرض بالذكر لِعِظَمِهِمَا وشرفهما، وهم يعترفون بأن الذي خلقهما هو الله سبحانه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

لقد أوجدَنا الله تعالى في عالم ممهَّد، مسخَّر لنا، ونحن لم نصنع من ذرَّاته ولا مجراته شيئًا.

الِاسْتِفْهَامُ الثَّامِنُ: هَلْ يَمْلِكُ أَحَدٌ خَزَائِنَ اللهِ؟

٣٧- ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾

أي: أم يمكنهم الاستغناء عن الله تعالى في جميع الأمور، كالمال والصحة والقوة وغير ذلك؟ فكلها من خزائن الله تعالى.

ولَمَّا تبيَّن على وجه الاستحالة أن البشر لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا السموات والأرض، فهل هم يملكون خزائن الله فيقبضوا الرزق ويوسعوه على من شاؤوا؟ ويضروا من شاؤوا وينفعوا من شاؤوا؟

وهل يملكون أن يخصوا من شاؤوا بالنبوة والرسالة، ويمنعوها عمن شاؤوا؟ ويتصرفوا كيفما أرادوا؟ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾؟ وكثيرًا ما كانوا يتساءلون: لماذا اختير الأنبياء من بيننا، ولماذا لم يقع الاختيار علينا؟ كما قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]

والله تعالى يبيِّن أنه لو كانت الخزائن بأيديهم لأمسكوا وبخلوا ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء].

والخزائن: جمع خزينة، وهي في الأصل: الصندوق الذي يوضع فيه المال أو القوت، وهو هنا بمعنى: عِلْم الله تعالى وإرادته في إعطاء مخلوقاته أو حرمانهم، ومنه: الاصطفاء للرسالة ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

الِاسْتِفْهَامُ التَّاسِعُ: هَلْ يَمْلِكُ أَحَدٌ قَهْرَ الْخَلْقِ جَمِيعًا؟

﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ[1] ﴿٣٧﴾﴾

فإذا لم يكن للناس تصرف في رزق الله تعالى، فهل هم الجبارون المتسلطون على خلق الله بالقهر والغلبة؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ المتصرفون في الخلق كما يشاؤون؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الضعفاء، وإذا كانت لهم سطوة فليجرِّبوا حظهم.

الِاسْتِفْهَامُ الْعَاشِرُ: هَلِ اطَّلَعَ أَحَدٌ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى عَلَى مَا عِنْدَ اللَّهُ

٣٨- ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

نفى ﷻ أن يكون لأحد اطلاع على ما قسمه الله لعباده، فقال على سبيل التهكم ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: ألهم مَصْعَد يرتقون به إلى السماء ويستمعون فيه إلى كلام الملائكة، فيصلوا عن طريقه إلى علم الغيب، ويعرفوا أن ما هم عليه هو الحق؟ فإن تيسر لهم ذلك فليتمسكوا به، ويعلموا أنهم على حق، ولْيأتِ من استمع منهم إلى كلام الملائكة بحجة تدل على صدق دعواهم بنفي رسالة محمد ﷺ، وهذا معنى ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وهيهات، فلا قِبَل لهم بذلك، وهذا على سبيل التعجيز؛ إذ لا سبيل لهم إلى الاستماع لمصدر التنزيل، ولا يعلم الغيب إلا رب العالمين، ولا يُطلع أحدًا على شيء منه إلا من ارتضى من رسول، فإن الله تعالى يخبره بما يريد، بعد أن يحيطه بالحفظة من الملائكة من بين يديه ومن خلفه.

---

(١) قرأ هشام بالسين في (المصيطرون) على الأصل، وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، وقرأ قنبل وابن ذكوان وحفص بالسين والصاد، وقرأ خلاد بالإشمام والصاد، والباقون بالصاد.

الاِسْتِفْهَامُ الْحَادِي عَشَرَ: هَل اخْتُصَّ اللَّهُ بالْبَنَاتِ عَلَى حَدِّ زَعْمِهِمْ؟

٣٩- ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ثم وبخهم الله تعالى على ما هو أشنع وأقبح من المزاعم السابقة، وهو نسبتهم البنات إلى الله تعالى، ومن الأمور المستحيلة أن يكون لله ولد، فهو سبحانه لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، ومع ذلك فإنهم ينسبون البنات إلى الله تعالى، وهم يأنفون منهن، ويعتبرون البنات في درجة أقل من البنين، حيث تَسْودُّ وجوههم كمَدًا وغيظًا إذا بُشِّروا بهن، وهم لا يستحيون من نسبتهن إلى الله تعالى، وهذا من أقبح المنكرات، وقد سفَّه الله عقولهم؛ إذ كيف يجعلون لله ما يكرهون؟ فقال: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ كما تزعمون ذلك افتراءً وكذبًا على الله تعالى، ومن كان عقله كذلك فلا يُستبْعد منه إنكار البعث وإنكار الوحي والرسالة، فليس بعد الشرك بالله ذنب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم]. لقد جمعوا في شركهم بين نسبة الولد إلى الله تعالى، وبين اختيار أنقص الصِّنْفين له، فهل بعد هذا كُفر وشرك؟

الاِسْتِفْهَامُ الثَّانِي عَشَرَ: هَلْ يَطْلُبُ الدَّاعِيَةُ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ؟

٤٠- ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾

ثم عادت الآيات إلى إبطال الدواعي التي تحمل المكذبين على الإعراض عن دعوة النبي ﷺ، فقال تعالى على سبيل التهكم: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ بل أتسأل -يا محمد- الناس أجرًا على تبليغ الرسالة وتعليم أحكام الإسلام؟! إن الأنبياء لم يسألوا الناس شيئًا، ولم يطلبوا منهم دنيا، فقد قال كل نبي لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء: ١٠٩].

وأمر الله محمدًا أن يقول للناس: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص].

وهو ﷺ حريص على هدايتهم وتعليمهم تبرعًا منه، بل إنه يبذل لهم الأموال ويؤلف قلوبهم ويستجلب محبتهم ومودتهم، ليتمكن الإيمان و العلم من قلوبهم، ويُقبلوا على دعوة ربهم.

فليس على الأمة مشقة ولا جهد من جرَّاء تبليغ الدعوة، وليس عليهم التزام بغرامة مالية تُطْلَب منهم على إرشادهم.

فالمعنى: إنك -يا محمد- ما كلَّفتهم شيئًا ماديًّا يعطونك إياه، فيكون ذلك سببًا لإعراضهم عنك، تخلُّصًا من أداء ما يُطلب منهم، فانتفى بذلك عذر إعراضهم عن دعوتك.

الِاسْتِفْهَامُ الثَّالِث عَشَرَ: هَلْ عِنْدَ الْكُفَّارِ مَا يُخَالِفُ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ؟

٤١- ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾

وبعد أن أثبت القرآن أن النبيَّ ﷺ لم يطلب من الناس أجرًا على تبليغ الرسالة، أنكر أن يكون للمشركين اطلاع على ما عند الله تعالى يخالف ما بلَّغهم إياه النبي ﷺ، فهم يسجلون ما اطَّلعوا عليه ليكون معلومًا لهم.

﴿أَمْ عِندَهُمُ﴾ علم ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ وهو ما في اللوح المحفوظ، فيكونوا قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسل الله ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: يكتبون هذا الغيب للناس، ويخبرونهم به، ويعارضون دعوته بما عندهم من علم الغيب؟ ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم الغيب في السموات والأرض إلا الله، فلا قِبَل لهم بإنكار ما جحدوه، ولا بإثبات ما أثبتوه قال تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن].

وقال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

ومن ذلك عِلْمُه تعالى بقيام الساعة، وليس للكفار عِلْم من غيب أو شهادة، وفي هذا إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم.

قال قتادة: إن هذه الآية رد على قولهم: ﴿شَاعِرٌ﴾ بمعنى: أَعلموا أن محمدًا يموت قبلهم حتى يحكموا بذلك؟[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أم عندهم اللوح المحفوظ، فهم يكتبون ما فيه، ويخبرون الناس بما فيه؟[٢].

---

(١) «زاد المسير» (٨/ ٥٧) و«تفسير الخازن» (٤/ ١٨٩).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٦).

الاسْتِفْهَامُ الرَّابِع عَشَرَ: هَلْ يُرِيدُونَ الْمَكْرَ بِالإِسْلَامِ؟ فَالْعَاقِبَةُ لِلأَصْلَحِ

٤٢- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢)﴾

وتنتقل الآيات من إبطال أقوال الكفار ومزاعمهم إلى إبطال نواياهم وعزائمهم، للنيل من الإسلام ورسول الإسلام ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ يبطلون به دعوتك - أيها الرسول - ويفسدون به دينك، فإن كيدهم في نحورهم، وضرره يعود عليهم.

والمعنى: بل أيريد المكذبون المكر برسول الله ﷺ والكيد للإسلام وأهله؟! فالصراع بين الحق والباطل طويل، والعاقبة للمتقين ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ فعليهم يرجع كيدهم ومكرهم.

ومن ذلك تآمر قريش على قتل النبي ﷺ ليلة الهجرة، وتآمر اليهود على قتله ﷺ ودسّ السُّم له أكثر من مرة، ومن ذلك تآمر الصليبيين والصهاينة والعلمانيين على الإسلام وأهله.

وكيد الله تعالى لهم معناه: مجازاتهم على ما دبَّروه وفعلوه، كما قال تعالى:

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾ [إبراهيم].

وقد رد الله كيدهم في نحورهم، فنصر نبيه ودينه، وخذلهم وانتصر عليهم ولله الحمد والمنة.

الاسْتِفْهَامُ الْخَامِسَ عَشَرَ: أَلَهُمْ مَعْبُودٌ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُ اللَّهِ؟

٤٣- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾

وبعد أن انكشفت كل شبهة، ودُحضت كل حجة، وتعرَّى القوم من كل عذر، تختم هذه الأسئلة، بالرد على رأس الخطايا، أم لهم معبود يستحق العبادة غير الله، يخلقهم ويرزقهم، ويلجؤون إليه في وقت الشدة والضر؟ تنزه الله وتقدس عن شركهم، فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوحدانية والعبادة، فبطل بذلك عبادة ما سوى الله سبحانه، ووجب إخلاص العبادة لله وحده.

والاِسْتِفْهَامُ في ﴿أَمْ﴾ في المواضع الخمسة عشر للإنكار والتوبيخ والتقريع.

الْكَافِرُ لَنْ يُؤْمِنَ وَلَوْ كَانَ الْهَلَاكُ فَوْقَ رَأْسِهِ وَالسَّيْفُ عَلَى عُنُقِهِ

٤٤- ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

وبعد هذه الاستفهامات العقلية، أتى ﷻ بدليل محسوس، يبيّن أن السبب في كفر الكافرين: هو العناد والمكابرة والتقليد الأعمى لمن سبقهم، وأنهم لو رَأَوا بأعينهم قِطَعًا من النار تنزل عليهم من السماء لعذابهم -لعاندوا وكابروا، وقالوا: هذا سحاب متراكم، ولم ينتهوا عن كفرهم.

﴿وَإِن يَرَوْا﴾ أي: المشركون المكذبون ﴿كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي: قطعًا من العذاب نازلًا بهم، لم يتركوا ما هم عليه من التكذيب و﴿يَقُولُوا﴾ وهم يرونه ساقطًا عليهم: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ متراكم بعضه فوق بعض، فلا يبالون بما رأوا من الآيات، ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، وهذا كما قال قوم عاد حين رأوا سحابة الموت والدمار فوق رؤوسهم، قالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فرد الله عليهم في قوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

فهم مكابرون في الحق، ولن يعترفوا به ولو كان الهلاك فوق رؤوسهم والسيف على أعناقهم.

والآية تلوّحُ إلى ما طلبه المشركون من النبي ﷺ في قولهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء].

والله تعالى يقرر عدم إيمانهم مهما جاءهم من آيات وحجج وبراهين، ومهما لَبّى الرسول ﷺ مطالبهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وقال ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١٠، ١١١].

عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ وَالْعِقَابُ

٤٥، ٤٦- ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟[1] يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ[2] ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

ويتوجه القرآن بعد ذلك إلى النبي ﷺ بألأيترك دعوة الكافرين،ولاعرْض القرآن عليهم، نظرًا لجحودهم وإعراضهم، فبلِّغ دعوة ربك -أيها الرسول- واتركهم إلى أن يعاينوا اليوم الذي يموتون فيه ويهلكون، وذلك عند النفخة الأولى، حيث يُصعَق الناس جميعًا، وهذا معنى ﴿فَذَرْهُمْ﴾: دَع المشركين وما هم فيه من غيٍّ وضلال، مع الاستمرار في تبليغ الدعوة، فإنك لن تعدم من ينتفع ويهديه الله على يديك، واترك المعاندين ولا تهتم بهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ فيموتوا ثم يبعثوا، ويكون الحساب والعقاب.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [المعارج].

ويوم الصعق هو اليوم الذي قال الله فيه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

ثم وصف الله تعالى يوم القيامة، بأنه يوم لا يملك أحد فيه أن يدفع عنهم شيئًا من عذاب الله، ولا يقيهم منه، أو يشفع لهم في رفعه عنهم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ لا في قليل ولا في كثير، أي: امضِ في دعوتك -أيها الرسول- وإن لم يعاقَبوا على كيدهم في الدنيا، فعمَّا قريب سيأتيهم اليوم الذي يعاقبون فيه على مكرهم السيئ وكيدهم القبيح.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فلا ينصرهم ناصر، ولا يقيهم واقٍ من عذاب الله تعالى، ولا يمنعهم منه مانع، بل هو واقع بهم لا محالة.

---

(١) قرأ أبو جعفر (يَلْقَوْا) مضارع لقي، والباقون (يلاقوا) من الملاقاة، فعل مضارع.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم بالبناء للمفعول في (يُصعَقون)، والباقون بالبناء للفاعل.

عَذَابُ الظَّالِمِينَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ

٤٧- ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أن للظالمين عذابًا في الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: أن هذا العذاب يحل بهم قبل يوم القيامة في البرزخ وعذاب القبر، وبأيدي المسلمين في الدنيا من القتل والأسر، وبالقلق والضيق، والكدر والأوجاع، والأسقام والبلايا، وذهاب الأموال والأولاد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم يجهلون ما سينزل بهم من عقاب، ولا يفهمون ما يُراد بهم، ولا يدركون أنهم إذا رُفع عنهم العذاب عادوا إلى أسوأ مما كانوا عليه، ولذلك أقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب من الكفر والعصيان.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة].

التَّسَلُّحُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ عَلَى مَشَاقِّ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٤٨، ٤٩- ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾

وجَّه الله تعالى رسوله ﷺ أن يستعين بالله تعالى على المكذبين لدعوته، وأن يُقَوِّي عزيمته ويوثِّق صلته بالله تعالى بثلاثة أسلحة، هي: الصبر، والإكثار من الصلاة، والتسبيح: عند القيام من النوم، ومن المجلس، وفي أثناء الليل، وفي وقت الفجر.

فقال: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي: لا تعبأ أيها الرسول، ويا من تقوم بواجب الدعوة إلى الله ﷻ، بما يفعله المكذبون المعارضون لك، واصبر ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ على ما حكَمَ به وقدَّره من إعراض بعضهم عن دعوتك.

واصبر على ما أمرك الله به من تبليغ الرسالة، مع صدِّهم وإنكارهم، واصبر على ما يلحقُك من أذى، اصبر إلى أن يحكم الله بينك وبينهم، اصبر لحكم ربك الذي قدّره، واصبر لحكم ربك الذي شرعه للناس وأمرهم بالاستقامة عليه ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: أنت بمرأى منا، وفي حفظنا ورعايتنا وتحت حمايتنا، فنحن نرى ونعلم ما يَلْحق بك من أذى.

وفي هذا إثبات صفة العينين لله تعالى على وجه يليق بجلاله، دون تشبيه بخلقه، أو

تكييف لذاته سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة وأجمع عليه سلف الأمة، وقد ورد اللفظ بصيغة الجمع للتعظيم.[١]

ثم أمره ربه أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من نومك، وحين تقوم إلى صلاتك، وحين تقوم من مجلسك، فإن كان قد حدث في المجلس لغط أو لغو، فإن هذا التسبيح يكون كفارة لك، وإن لم يكن فيه لغط ولا لغو ازدادت حسناتك، وفي الآية أمر بقيام الليل، والقيام إلى الصلوات الخمس بدليل الآية بعدها ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

١- ففي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من جلس مجلسًا فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك؛ إلا كان كفارة لما بينهما»**[٢].

زاد في رواية أنه: **«يُختم له بهن كما يُختم بالخاتم على الصحيفة»**[٣].

وسبِّح بحمد ربك حين تقوم إلى الصلاة، فتقول: **«سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، وجلَّ ثناؤك، ولا إله غيرك»**[٤].

وسبِّح بحمد ربك حين تقوم من فراشك، وإلى أن تدخل في الصلاة.

٢- عن عاصم بن حميد قال: سألت عائشة ﷺ: بأي شيء كان يفتتح رسول الله ﷺ قيام الليل؟ فقالت: سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، كان إذا قام كبَّر عشْرًا، وحمِد الله عشْرًا، وسبَّح عشرًا، وهلَّل عشْرًا، واستغفر عشْرًا، وقال: **«اللهم اغفر لي**

---

(١) «التفسير الميسر» نخبة من العلماء ص ٥٢٥.

(٢) يُنظَر: الترمذي برقم (٣٤٣٣) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٢٥٩، ١٠٢٦٠) و«المستدرك» (١/ ٥٣٦، ٥٣٧) وأبو داود برقم (٤٨٥٨، ٤٨٥٩) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٥٦) و«صحيح سنن أبي داود» (١٠٦٨)، والحديث في مسند أحمد (١٠٤١٥) وهو حديث صحيح، وإسناده منقطع، لأن موسى بن عقبة لم يسمع من سهيل بن أبي صالح، أفاده محققوه.

(٣) «سنن أبي داود» برقم (٤٨٥٧).

(٤) رواه أبو داود والترمذي، وقد تُكلِّم في أحد رواته، ورواه مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ دون لفظ «وجل ثناؤك» برقم (٣٩٩) وابن أبي شيبة (١/ ٢٣٢) والطبري (٢١/ ٦٠٦).

وارحمني، واهدني، وارزقني، وعافني»، وكان يتعوَّذ من ضيق المقام يوم القيامة[1].

وفي أثناء الليل سبِّح بحمد ربك وعظِّمه، وصلِّ له صلاتيْ المغرب والعشاء، وافعل ذلك أيضًا عند صلاة الصبح وقت إدبار النجوم، أي: حين تغيب النجوم بضوء الصبح، وتصلي ركعتين قبل الفجر.

أما ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ التي في (سورة ق) فهي الركعتان بعد المغرب، أو غير ذلك.

٣- وعن عُبَادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي أو قال -ثم دعا- استُجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلى، تُقبِّلت صلاته»**[2].

٤- وعن عائشة ﷺ أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهدًا منه على ركعتي الفجر[3].

٥- وفي لفظ مسلم عن عائشة ﷺ: **«ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»**[4].

وفي صلاة الليل، يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩].

تم تفسير (**سورة الطور**) ولله الحمد والمنة.

---

(١) «سنن النسائي الصغرى» برقم (١٦١٨) وأبو داود بتصحيح الألباني رقم (٧٦٦ ج١ ص ٢٠٣) وانظر: مشكاة المصابيح برقم (٩٠٠) عن ابن عباس ﷺ عند الترمذي.

(٢) «المسند» (٥/ ٣١٣) برقم (٢٢٦٧٣) بإسناد صحيح ورجال ثقات على شرط الشيخين (محققوه) والبخاري برقم (١١٥٤) وأبو داود (٥٠٦٠) والترمذي برقم (٣٤١٤) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٦٩٧) وفي «عمل اليوم والليلة» (٨٦١) وابن ماجه برقم (٣٨٧٨) وابن حبَّان (٢٥٩٦) والدارمي (٢٦٨٧).

(٣) البخاري برقم (١١٦٩) ومسلم برقم (٧٢٤).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٧٢٥).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّجْمِ (٥٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (النجم) هي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الإخلاص) وقبل سورة (عبس).

وعدد آياتها اثنتان وستون آية عند أهل الكوفة، وإحدى وستون آية عند بقية علماء العدد.

وهي ثلاث مئة وستون كلمة، وألف وأربع مئة وخمسة أحرف.

وسميت سورة (النجم)؛ لأنها بُدئت بهذا اللفظ، وبعضهم أثبت الواو في أولها، على حكاية لفظ القرآن، كالبخاري والترمذي، وهي سورة مكية باتفاق.

وذكر بعضهم عن ابن عباس وقتادة أن آية ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [٣٢] مدنية، وهو سند ضعيف.

قال ابن عطية: سبب نزولها أن المشركين قالوا: إن محمدًا يتقوَّل القرآن ويختلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك:

أحاديث في سجدة سورة النجم:

١- قال عبد الله بن مسعود ﷺ عن سورة النجم: هي أول سورة أَعْلَن النبي ﷺ بقراءتها، فقرأها في الحرم، والمشركون يسمعون[١].

٢- وقال أيضًا: أول سورة أُنزلت فيها سجدة سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فسجد رسول الله ﷺ وسجد الناس كلهم، إلا رجلًا رأيتُه يأخذ كفًّا من تراب فسجد عليه، فرأيتُه بعد ذلك قُتل كافرًا، وهو أمية بن خلف[٢].

٣- وعن عكرمة عن ابن عباس ﷺ: أن النبي ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٤/ ٥) و«تفسير ابن عطية» (٥/ ١٥٧) وغيرهما.

(٢) يُنظَر: البخاري بأرقام (١٠٧٠، ٣٨٥٣، ٣٩٧٢، ٤٨٦٣) ومسلم برقم (٥٧٦) وأبو داود برقم (١٤٠٦) والنسائي (٢/ ١٦٠) (٩٥٨) مختصرًا وابن أبي شيبة (٢/ ٧).

والمشركون والجن والإنس[١].

٤- وعن ابن عمر ﷺ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فسجد بنا فأطال السجود[٢].

٥- وعن زيد بن ثابت ﷺ قال: قرأتُ النجم عند رسول الله ﷺ فلم يسجد فيها[٣].

٦- وعن ابن عباس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يسجد في ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فلما هاجر إلى المدينة تركها[٤].

٧- وعنه أيضًا: أن رسول الله ﷺ لم يسجد في شيء من المفصَّل منذ تحوَّل إلى المدينة[٥].

٨- وعن المطلب بن أبي وداعة قال: قرأ النبي ﷺ بمكة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فسجد وسجد من عنده[٦].

أما موضوعات السورة:

١- فقد ابتدأت سورة (النجم) بالحديث عن الوحي والرسالة، من الآية الأولى إلى الآية الثامنة عشرة، فذكرت حقيقة الوحي وطبيعته، وذكرتْ مشهديْن من مَشاهِده، وتحدَّثتْ عن معجزة المعراج، وبيَّنتْ أن الرسول ﷺ رأى ليلتها من آيات ربه الكبرى، وأثبتت أن الرسول ﷺ صادق فيما يُبلِّغه عن ربه، وأنه منزَّه عما ادَّعاه المشركون، وأن القرآن وحي من الله تعالى بواسطة جبريل الأمين.

٢- ثم تحدثت السورة عن الشرك والمشركين، فأبطلتْ زعمهم أن الأصنام آلهة، وبيَّنتْ أنها أوهام لا حقيقة لها، وحذَّرت المعرضين عن توحيد الله تعالى ليُقلعوا عن شركهم،

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٠٧١، ٤٨٦٢) والترمذي (٥٧٥) وابن أبي شيبة (٢/ ٧) من طريق آخر.

(٢) البيهقي (٢/ ٣١٤) برقم (٥٤١٨) في السنن.

(٣) ابن أبي شيبة (٢/ ٦) وأحمد في المسند (٥/ ١٨٣) (٢١٥٩١) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، والبخاري برقم (١٠٧٢) وأبو داود برقم (١٤٠٤) والترمذي برقم (٥٧٦) والنسائي (٢/ ١٦٠) (٩٥٩) والطبراني برقم (٤٨٢٩).

(٤) ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٤/ ٦).

(٥) أبو داود برقم (١٤٠٣)، وقد ضعفه الألباني (٢/ ٥٨).

(٦) «المسند» (١٥٤٦٤، ٢٧٢٤٦) وغيرهما، والنسائي (٩٥٧) والحاكم (٣/ ٦٣٣) قال محققو المسند: صحيح لغيره.

وذلك في الآيات من التاسعة عشرة إلى الثامنة والعشرين.

٣- وبيَّنت الأسلوب الحكيم الذي ينبغي على الداعية أن يسلكه في دعوته حيال ما يلقاه من أذى وإعراض.

وأشارت السورة إلى الدار الآخرة، وما فيها من حساب وجزاء لمن أحسن أو أساء.

وبيَّنتْ شيئًا من رحمة الله تعالى بعباده بغفران اللَّمم، وضربتْ مثالًا للجزاء العادل يوم القيامة، بأنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن العقوبة لا تتعدى المجرم، وهذا في الآيات من التاسعة والعشرين إلى الآية الثانية والثلاثين.

٤- وذكرت السورة جملة من آثار قدرة الله تعالى للدلالة على وحدانيته سبحانه، كالإحياء والإماتة، والبعث بعد الفناء، والإغناء والافتقار، وخلْق الإنسان من نطفة... إلخ، وذلك من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية التاسعة والأربعين.

٥- وخُتِمت السورة ببيان ما حلَّ بالأمم الطاغية من العذاب والدمار تذكيرًا لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويؤمن بالرسالة الخاتمة إلى يوم القيامة، وزجرًا لأهل الطغيان والضلال بالعذاب الذي ينتظرهم يوم لقاء الله، وذلك في الآيات من الخمسين إلى الثانية والستين.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قَسَمُ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى صِدْقِ مَا يَصْدُرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قُرْآنٍ وَسُنَّةٍ

١-٤- ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾

افتُتحت السورة بالقسم على صدق رسول الله ﷺ فيما يوحى إليه من ربه، ردًّا على المكذبين الطاعنين في رسالة محمد ﷺ، القائلين بأنه قد اختلق القرآن.

وقد أقسم الله تعالى بالنجم حين يبدو للناظرين لامعًا في جوِّ السماء ليلًا، وأقسم به وقت سقوطه وهو ينقضُّ على مسترقي السمع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وسقوط النجم يدل على بطلان عبادتها، قال مجاهد: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي: سقط مع الفجر.

وأقسم سبحانه بالنجوم وهي تميل للغروب، كل ذلك داخل في القسم.

فالمراد بالنجم **أربعة أقوال** بإجمال:

أحدها: أنه اسم جنس يشمل كل نجم بازغ في السماء.

ثانيها: أن المراد به: نجم خاص، هو أشهر النجوم: الثريَّا، وكان العرب يوقِّتون بطلوعه عند فصول العام، ونُضْج الثمار، فإذا أُطلق اسم النجْم فيكون هو المراد؛ لأنه المشهور لدى العرب.

وقيل: إنه نجم الشِّعْرى المذكور في السورة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩﴾ [النجم]. وهذا أيضًا نجم خاص، كنجم الثريَّا السابق ذكره.

وكانت قبيلة خزاعة تعبده، فهو معظَّم عندهم.

وقال السُّدِّي: هو الزهرة، وهو نجم خاص أيضًا، فهذه ثلاثة أقوال في النجم الخاص.

ثالثها: أن المراد بالنجم: الشهاب الذي يَهْوي لرجْم الشياطين الذين يسترقون السمع، ولفظ: ﴿هَوَىٰ﴾ يحتمل أن النجم غاب أو سقط[1].

---

(١) يُنظَر: «زاد المسير في علم التفسير» (٨/ ٦٢) و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٠).

رابعها: أن المراد به: ما يَنْزِل من القرآن منجَّمًا، أي: مفرقًا حسب الحوادث والأحوال، كما قال تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة].

ولعل الأرجح أن الله تعالى أقسم بنجم الثريا إذا غاب، فقد أخرج الطبري وعبد الرزاق عن مجاهد بسند صحيح: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ قال: إذا سقطت الثُّريَّا مع الفجر[1].

وفي هذا تعظيم لقدرة الله تعالى في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ۝٧٦﴾ [الأنعام: ٧٦].

ولله تعالى أن يُقْسم بما شاء من مخلوقاته، والعبد لا يقسم إلا بالله تعالى.

عن معمَّر عن قتادة قال: لما نزلت ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ قال عُتْبة بنُ أبي لهب: إني كفرتُ برب النجم، قال معمَّر: فأخبرني ابنُ طاوس عن أبيه أن النبي ﷺ قال له: «**أما تخاف أن يسلط الله عليك كلبه**»؟ فخرج ابن أبي لهب مع أناس في سفر، حتى إذا كانوا ببعض الطريق سمعوا صوت الأسد، فقال: ما هو إلا يريدني، فاجتمع أصحابه حوله، وجعلوه في وسطهم، حتى إذا ناموا جاء الأسد فأخذ هامَتَه[2].

وأخرج أبو نعيم عن أبي الضُّحى قال: قال ابنُ أبي لهب: هو يكفر بالذي قال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ فقال النبي ﷺ: «**عسى الله أن يرسل عليه كلبًا من كلابه**»، فبلغ ذلك أباه، فأوصى أصحابه: إذا نزلتم منزلًا فاجعلوه وسطكم، ففعلوا حتى إذا كانت ليلة بعث الله سَبُعًا فقتله[3].

والمقسم عليه هو الشهادة للنبي ﷺ وتنزيهه عن الضلال في علمه، وعن الغي في قصده، وأنه ليس ساحرًا ولا شاعرًا ولا كاهنًا، وبأنه لم يختلق هذا القرآن من عند نفسه ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ أي: ما حاد محمد ﷺ عن طريق الحق والهداية، وما خرج عن

---

(١) وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، يُنظَر: عبد الرزاق (٢/ ٢٥٠) والطبري (٢٢/ ٥) و«الدر المنثور» (١٤/ ٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٥٠) والطبري (٢٢/ ٦) وأبو الفرج الأصفهاني في «الأغاني» (١٦/ ١٧٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (٣٨٩).

السداد والرشاد، بل هو في غاية الاستقامة والاعتدال، بخلاف ما عليه أهل الضلال من فساد العلم وفساد القصد.

والمعنى: وحقِّ النجم الذي تَروْنه بأعينكم حين يغرُب، وحين يسقط لرجم الشياطين، إن محمدًا ﷺ الذي أرسلناه ﴿شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] ما ضلَّ عن طريق الحق في أقواله وأفعاله، وما جانب الصواب في أمر من الأمور.

وهكذا: يقسم الله تعالى بالنجم عند سقوطه في الأفق عند إدبار الليل وإقبال النهار، على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الوحي الإلهي.

والفرق بين الضلال والغي: أن الضلال هو عدم الاهتداء إلى الصواب، والغواية هي اتباع الهوى وسبيل الفساد والعوج، فالضلال يكون بسبب الجهل والغواية تكون بسبب معرفة الحق والعدول عنه.

أي: ما جهل - رسولنا - الحق وما عدل عنه، بل هو عالم بالحق متبع له، فهو يقول الحق، ولا يتكلم بالباطل، ولا يأتي بشيء من تلقاء نفسه.

وأتى بلفظ: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ إشارة إلى أن محمدًا ﷺ ملازم لهم، يعرفون أحواله تمامًا، لا يخفى عليهم شيء منها، وهم مطلعون على أخلاقه وسلوكياته منذ نعومة أظفاره، ولم يعرفوا عنه إلا الصدق والأمانة، .ورجاحة العقل، والقول السديد، ولم يقولوا فيه هذا الكلام إلا بعد بعثته، فدلَّ ذلك على كذبهم، وأنهم ما قالوه إلا حسدًا.

وللعلم الإنساني مصادر معروفة: أولها العقل، ثم الحواس الخمس، وهناك مصدر اختصَّ الله به بعض الناس، وهو الوحي الصادق، أشار إليه يعقوب ﷺ عندما قال لأبنائه: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

ومَنْ تلقَّى شيئًا من العليم بكل شيء، فقد اكتسب علمًا لا ريب فيه! والله تعالى لا يهب مِنْ عِلْمه لكل إنسان، فالناس معادن، ولا يَحْمِلُ الوحي إلا عبادٌ مُصْطَفَوْن، عبادٌ لهم طباع سماوية تأنف من الإسفاف والافتراء، تأفل النجوم وهم لا يأفُلون، وتغْرُب وهم لا يغرُبون! ومحمد ﷺ من هؤلاء، أو قُل: هو إمام هؤلاء[١].

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» للشيخ/ محمد الغزالي ص ٣١٦ .

والله تعالى يقسم على أن محمدًا ﷺ لا يصدُر نطقه بالقرآن والسنة عن هوى نفسه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾.

والهوى: هو ميل النفس إلى ما تحبه، أو ما تحب أن تفعله، وهو خلاف مقتضى العقل، ولذا فإن الناس تختلف في الهوى ولا تختلف في الحق.

وفي الآية ردٌّ على قول المكذبين بالقرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤].

وقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

فما هذا القرآن وما هذه السُّنة، إلا وحي صادر من الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ لا يزيد فيه ولا ينقص عنه، والوحي يشمل صحيح الأحاديث القدسية، ويشمل صحيح الأحاديث النبوية، كما في حديث المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال:

«ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه»[١].

والشبعان: هو المتكبر المنكر للسُّنَّة.

ومن ذلك قول النبي ﷺ: **«إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»**[٢].

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتْني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب، فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: **«اكتب، والذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق»**[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٠٤) والترمذي و«المسند» (١٧١٧٤). صححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤٣) قال محققو المسند: إسناده صحيح وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/٦٦٨) وابن عبد البر في التمهيد (١/١٤٩) وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن حبان عن ابن مسعود كما في «الدر المنثور» (١/٤٦٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٦٦) ج٦ ص ٨٦٥).

(٣) «المسند» رقم (٦٥١٠، ٦٨٠٢) إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين كما قال محققوه وأبو داود برقم (٣٦٤٦) والحاكم (١/١٠٥) والدارمي (١/١٢٥) وابن أبي شيبة (٩/٤٩).

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لا أقول إلا حقًّا» قال بعض أصحابه: فإنك تُداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقًّا»[1].

وقد لازم الصدق رسول الله ﷺ حتى في مزاحه ومداعبته.

فالنبي ﷺ لا يتبع إلا ما أوحاه الله إليه من الهدى والتقوى، وقد دل هذا على أن السنة الصحيحة وحي من الله تعالى لرسوله، كما قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]

وهو ﷺ معصوم فيما يخبر به عن ربه، لأنه لا يصدر إلا عن وحي.

مِنْ صِفَاتِ جِبْرِيلَ عليه السلام وَهُوَ يَتَنَزَّلُ بِالْوَحِي

٥-٨- ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾

وقد علَّم محمدًا ﷺ ملَكٌ شديدُ القوة -وهو جبريل عليه السلام- ليستطيع تنفيذ ما يأمر الله به من الأعمال العظيمة العقلية والجسمانية، فهو الذي أعلم الرسل بالتبليغ، وهو الذي اقتلع قرى قوم لوط فرفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها فجعل أسفلها أعلاها، وهو الذي صاح بقوم ثمود صيحة فأصبحوا خامدين، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده أسرع من لمح البصر، فهو شديد القوى الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره الله به، قوي على توصيل الوحي إلى الرسل ومنع اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه.

وهذه الآية تضمنت أمرين:

أحدهما: أن هذا الوحي بأمر الله تعالى.

والآخر: أن جبريل عليه السلام شديد القوة.

وكوْن جبريل عليه السلام نزل بالوحي، وعلَّم الرسول ﷺ القرآن، جاء ذلك في مثل قوله

---

(١) «المسند» (٢/ ٣٤٠) (٨٤٨١، ٨٧٢٣) والترمذي برقم (١٩٩٠) من طريق المقبري به، وقال: حديث حسن صحيح، قال محققو المسند: إسناده قوي، وصححه الألباني عن الترمذي (٤/ ٣٥٧).

تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

وقوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة].

وكون جبريل شديد القوى جاء في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير].

ومن حفظ الله لوحيه أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

ثم وصف الله تعالى جبريل ﷺ وصْفًا ثانيًا بعد أن وصفه بالقوة، فقال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾. أي: ذو قوة وخلُق حسن، وجمال ظاهر وباطن.

قال ابن عباس: ذو منظر حسن.

وقيل: ذو حصافة ورجاحة في العقل، فهو الذي ينزل بفيوضات الحكمة على الرسل والأنبياء، ولذلك فإن النبي ﷺ لَمَّا اختار اللبن ليلة الإسراء، قال له جبريل: لقد أصبت الفطرة، ولو أخذت الخمر لَغَوَتْ أمتك.

وجبريل ﷺ هو الذي ظهر على صورته الحقيقية للنبي ﷺ في الأفق الأعلى، وهو أفق الشمس جهة المشرق ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: استقام جبريل وجاء في صورة ذاته الحقيقية، وظهر للنبي ﷺ على طبيعته.

رؤية النبي لجبريل عليهما السلام على صورته الحقيقية مرتين:

وكان جبريل ﷺ ينزل على النبي ﷺ في صورة الآدميين، كما كان يأتي الأنبياء قبله، فسأله رسول الله ﷺ: أن يريه نفسه على صورته التي جُبل عليها، فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء.

١- فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى، أو الأفق المبين أي: جهة الشرق، تحت السماء الدنيا، حيث كان رسول الله ﷺ يتعبد في غار حراء ، فطلع عليه جبريل من الجهة الشرقية وفتح جناحيْه، فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، فخرَّ رسول الله ﷺ مغشيًّا عليه، فنزل إليه جبريل في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه،وجعل يمسح الغبار عن وجهه،ونزل عليه ب(إقرأ) وهو قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: جبريل ﷺ من النبي ﷺ لإيصال الوحي إليه و ذلك بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ إلى محمد وكان منه قاب قوسين أو أدنى.

٢-وعن زِرِّ بن حُبيش عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ رأى جبريل عند سدرة المنتهى له ست مئة جناح يتناثر منها تهاويل الدر[١].

قال ابن مسعود ﷺ: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ست مئة جناح، كل جناح منهما قد سدَّ الأفق، يسقُط من جناحه من التهاويل والدرِّ والياقوت ما الله به عليم[٢]

والتهاويل: هي الأشياء المختلفة الألوان.

وصح عن ابن مسعود أن النبي ﷺ رآى جبريل وله ست مئة جناح[٣].

وعن عبدالله في قوله ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ قال: رآى رسول الله ﷺ جبريل في حُلّة من رفرف، قد ملأ ما بين السماء والأرض[٤].

وهذه الرؤية غير الرؤية الأولى التي رأى فيها النبي ﷺ جبريل ﷺ في غار حراء على كرسي بين السماء والأرض حيث نزلت عليه آيات من سورة المدثر بعد نهاية فترة التعبد في الغار.

أي وأما المرة التي في السماء فكانت عند سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج فوق

---

(١) أخرجه النسائي (٥٦٢) وأحمد، عن حسن بن موسى (١/ ٤٦٠) وابن خزيمة (٢٩١) وهو في مسلم بنحوه عن أبي هريرة (١٧٤) والبخاري (٤٨٥٦).

(٢) «المسند» (١/ ٣٩٥) (٣٧٤٨) وهذا لفظه وإسناده ضعيف لضعف شريك، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير عاصم بن أبي النجود، فهو حسن الحديث، كما قال محققوه، وانظر (٣٩١٥) بإسناد حسن و«تفسير الطبري»: (٢٧/ ٢٧) والطبراني (٩٠٥٤، ٩٠٥٥).

(٣) البخاري (٣٢٣٢) ومسلم (١٧٤) والترمذي (٣٢٧٧) وأحمد في المسند (٣٧٨٠).

(٤) والحديث في «المسند» (١/ ٣٢٢). ينظر الحديث (٣٨٦٤) وفيه رؤيا النبي لجبريل في صورته مرتين وانظر البخاري بنحوه (٣٢٣٣) و (٣٢٣٥)، والمسند (٣٧٤٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهذا لفظه، وأخرجه الترمذي (٣٢٨٣) وقال: حديث حسن صحيح والنسائي في الكبرى (١١٥٣١) وغيرهم.

السماء السابعة كما سيأتي في الآية الرابعة عشر.

ولم يره أحد من الأنبياء على صورته الحقيقية التي خُلق عليها غير محمد ﷺ.

والمرة الأولى جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير].

والمرة الثانية جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم].

وقد وصف الله تعالى الرؤية التي كانت في السماء بقوله:

٩-١٢- ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ[١] الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُ[٢] عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾

ثم إن جبريل اقترب من النبي ﷺ فنزل من أعلى إلى أدنى، وكأنه معلق في الهواء، وهذا معنى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ أي: انخفض جبريل من الأفق الأعلى مقتربًا من محمد ﷺ، وأخذ في الدُّنوِّ بحيث لو رآه الرائي يظنه متدليًا.

ثم ازداد في القرب منه حتى كان على مسافة قوسين منه ﷺ أو أقرب من ذلك، والقوس آلة مقوَّسة من عود يُشدُّ بها وتر من جلد، وهي مقدار ذراع.

وفي الحديث: عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ولقابُ قوس أحدكم من الجنة، أو موضع قيدٍ -أي: سَوْطه- خير من الدنيا وما فيها إلا الشهيد...**» الحديث[٣].

والقاب: هو ما بين مقبض القوس -أي: وسط العود المقوَّس- ولكل قوْس قابان، وقاب قوسين، بمعنى: قدْر قوسين ﴿فَكَانَ﴾ جبريل ﴿قَابَ﴾ أي: قدر مسافة ﴿قَوْسَيْنِ﴾ من محمد ﷺ أو ﴿أَدْنَىٰ﴾ من قوسين، وهذا يدل على كمال المباشرة للرسول بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل ﷺ، وهذا المعنى هو الذي نختاره للآية.

---

(١) قرأ هشام وأبو جعفر بتشديد الذال (ما كذَّب) على أن (ما) موصولة أو مصدرية، مفعول به، والفعل مضاعف متعدٍّ، والباقون بالتخفيف، فعل لازم متعدٍّ إلى مفعوله بفي، أي: ما كذب فيما رأى.

(٢) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف (أَفَتَمْرُونَه) مضارع مَرَيْته، إذا علمته وجحدته، والباقون (أفتمارونه) مضارع ماراه يماريه، إذا جادله.

(٣) يُنظَر: البخاري (٢٧٩٣، ٢٧٩٦) وعن أبي هريرة.

وقال بعض المفسرين: ثم دنا الرب من محمد فاقترب منه حتى صار قاب قوسين أو أدنى، جاء ذلك في رواية شريك بن عبد الله، ورُدَّ عليه بأن هذه زيادة منه في الحديث[١] وقال بها ابن عساكر والضحاك.

وكانت تعتري النبي ﷺ رعْشة أو رجْفة عند نزول الوحي عليه في أول الأمر، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل].

ولما كان الاتصال المباشر بين الملَك والإنسان لا يقْوى عليه البشر، كانت تعتري النبي ﷺ شدة، لذا كان جبريل ينزل على النبي في صورة رجل حسن الخلق والخِلقة ثم اعتاد النبي ﷺ على اتصال جبريل به مباشرة، وفارقتْه هذه الشدة والرعشة، كما في حديث عمر ﷺ أن جبريل جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيْه، وكان عمر قد وصف جبريل بقوله: إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد منا، وفي نهاية الحديث قال ﷺ: **«هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم»**.

ولمراعاة هذه الحكمة كان جبريل يتمثَّل للنبي ﷺ في صورة إنسان، كما جاء في حديث عمر ﷺ، وكثيرًا ما كان جبريل يتمثل في صورة دحية الكلْبي:

قال مسروق بن الأجدع: قلت لعائشة: فأين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾؟ قالت: ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسدَّ الأفق[٢].

فيكون المعنى: ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فتدلى إلى محمد ﷺ، وكان منه قاب قوسين بل أدنى.

وكان الحليفان من العرب إذا أرادا عقْد الصفاء والعهد بينهما، خرجا بقوْسيْهما فألصقا بينهما دليلًا على أن كلًّا منهما حليف ومعاون للآخر[٣].

---

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٩١).

(٢) أخرجه الشيخان: البخاري (٣٢٣٥) ومسلم (١٧٧).

(٣) «تفسير الخازن» (٤/ ١٩٢).

وبعد أن اقترب جبريل جدًّا من النبي ﷺ أوحى الله تعالى إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى بواسطة جبريل ﷺ من قرآن كريم، ومن هذي نبويٍّ، فالموحِي هو الله سبحانه، والموحَى إليه هو النبي ﷺ بواسطة جبريل ﷺ، والموحى به هو القرآن.

وعدم التصريح بالموحَى به فيه تفخيم شأنه وإعلاء قدْره، حتى لكأنه لا تحيط به عبارة، ولا يحدُّه وصف.

عن أنس ﷺ في حديث الإسراء، عندما ذَكَر سدرة المنتهى، قال: «**فلما غشيها من أمر الله ما غَشَّى تغيَّرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حُسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة**»[1].

فهذا حديث صحيح صريح في نسبة الوحي في الآية إلى الله تعالى، وأن جبريل ﷺ مبلِّغ عن الله تعالى، وهذا أولى من أن يكون المعنى: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى، ولا تعارض بينهما، فالمؤدّى واحد.

قال سعيد بن جبير: أوحى إليه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝﴾ إلى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾.

ولما بلغ المشركون أن النبي ﷺ رأى جبريل كذَّبوه، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝﴾ ما كذب قلبُ النبي ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل الحقيقية، فقد رآه بعينه وعرفه بقلبه، ولم يشكَّ في أن ما رآه حق.

والمعنى:اتفق فؤاد النبي ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه إليه، وتواطأعليه سمعه وقلبه وبصره، فتلقى النبي ﷺ الوحي تلقيًا لاشك فيه ولا شبهة ولا ريب، ومن ذلك ما رآه بعينه ليلة العروج، من آيات الله العظيمة وأن قلبه وعينه قد تيقنا مما رآه، وقد كانت رؤية النبي ﷺ لجبريل حسّية، وليست مجرد اتصال روحي.

أتُكذِّبون محمدًا ﷺ فتجادلونه على ما يراه ويشاهده من آيات ربه؟ أفتجادلون محمدًا فيما رآه بعينه، وتحقَّق منه بعقله وبصَره من رؤية جبريل ﷺ؟ إنَّ تكذيبكم لذلك تعنُّت واضح، وجهل فاضح، فكيف هذا وأنتم تُقرون بأنه صادق أمين؟!

---

(١) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (١٦٢).

ولما أخبر النبي ﷺ قومه عن رحلة الإسراء والمعراج كذَّبه كفار مكة، واستخفوا به، وطلبوا منه أن يصف لهم بيت المقدس، فصوَّره الله أمامه، فأخذ ينظر إليه ويصفه لهم.

الرُّؤْيَةُ الثَّانِيَةُ

١٣-١٦- ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾

ولقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها مرة أخرى عند سدرة المنتهى -شجرة نبْق- وهي التي فوق السماء السابعة، ينتهي إليها ما يُعْرَج به من الأرض، وينتهي إليها ما يُهْبَط به من فوقها، وهي عن يمين العرش، وسُمِّيتْ سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها عِلْم الملائكة وعِلْم الخلائق، ولا يعلم أحد ما وراءها.

ففي الحديث، عن أنس رضي الله عنه: **«ثم صُعد بي إلى السماء السابعة...، ثم رُفعتُ إلي سدرة المنتهى، فإذا نَبقُها مثل قلال هجر، وإذا أوْراقها كآذان الْفيَلة»**[١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا أُسْرِيَ برسول الله ﷺ انتُهِي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من تحتها، وإليها ينتهي ما يُهبَط به من فوقها، حتى يقبض منها[٢].

فرآى محمد جبريل عليهما السلام في هذا المكان الذي هو محل الأرواح العلوية التي لا يقْربُها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

وقد كانت رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام على صورته الحقيقية في المرة الثانية ليلة الإسراء والمعراج، حيث فرضت عليه الصلاة، أما المرة الأولى فقد كانت على الأرض في جبل حراء حيث كان يتعبَّد ﷺ، فنزل عليه بـ (اقرأ) في أثناء الفترة التي قضاها في غار حراء، ونزل بـ (المدثر) بعد انتهاء فترة التعبد في الغار، وكانت المرة الأولى للنبوة والثانية للرسالة.

---

(١) جزء من حديث في الصحيحين: في البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١/ ٣٨٥) و«المسند» (١٧٨٣٣).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٦٦٥) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والنسائي في «الكبرى» برقم (٣١١) (١٧٣) (٢٧٩) وهذا لفظه، ومسلم (١٧٣) والترمذي (٣٢٧٦) وفي «سنن النسائي الصغرى» (٣٢٧٦).

وهي التي رآه النبي ﷺ فيها على كرسي بين السماء والأرض، وكانت في حراء بعد فتور الوحي في المرة الأولى حيث نزل بالمدثر[١].

والله تبارك وتعالى يُقْسم على الرؤية التي كانت في السماء لنفي الشك والريبة فيها، فكأنه تعالى يقول للمنكرين: إن كنتم أنكرتم هذه الرؤية التي في الأرض، فإنه لم يره في الأرض فقط، بل رآه رؤية أعظم منها، حين كان مصاحبًا لجبريل في ليلة المعراج، وهذا من باب الترقي في بيان مراتب الوحي.

وفيه دلالة على عظيم منزلة النبي ﷺ، حيث وصل إلى مكان لم يصل إليه مَلك مقرب، ولا نبي مرسل، وفيه شرف لسدرة المنتهى لتبوئها هذا المكان فوق سبع سموات قرب العرش.

ويختص النبْق بثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيذ، ورائحة زكية، ولو أن ورقة منها وُضعت في الأرض لأضاءت لأهل الأرض.

قيل: وهي شجرة طوبى التي ذكرها الله تعالى في الآية التاسعة والعشرين من سورة الرعد ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

وقد وصف الله سبحانه الجنة بأن عرضها السموات والأرض، فكم يكون طولها؟ وجنة المأوى إحدى الجنات الثمان؛ سُميت كذلك لأن الملائكة وأرواح الشهداء والصالحين تأوي إليها، فهي مأواهم ومسكنهم، وهي الجنة الجامعة لكل نعيم تشتهيه الأماني وتأوى إليه الرغبات، ومعنى ذلك أن الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة، وعلى عِظَم مساحة الجنة طولًا وعرضًا، فإن الله تعالى يقول عن سدرة المنتهى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ أي: إن جنة المأوى التي وعد الله المتقين -على عِظمها وسَعتها- توجد عند سدرة المنتهى، فكم تبلغ سدرة المنتهى إذن؟ وكم يكون حجمها؟ وهذا كما يقول شخص لآخر: اذهب إلى المسجد الحرام فستجد فلانًا عنده، فكم تأخذ قدما فلان هذا من مساحة المسجد الحرام؟ وهكذا، فإن جنة المأوى بأكملها عند سدرة المنتهى!! يا سبحان الله!

ولَمَّا انتهى النبي ﷺ إلى سدرة المنتهى، حيث ينتهي علم الخلائق، غشيها من نور الله ما غشيها، فلا يستطيع أحد أن ينظر إليها، حيث حَفَّ بالمكان من الجلال والكمال

---

(١) ينظر: حديث جابر في البخاري (٤٩٢٤) و(٣٢٣٨ و٦٢١٤) ومسلم (١٦١) وانظر أسباب النزول في مقدمة سورة المزمل.

ما لا يحيط به الوصف، وما حصل فيه للنبي ﷺ من التشريف بتلقِّي الوحي مباشرة من الله تعالى دون واسطة، كما في حديث الإسراء والمعراج: «**حتى ظهرتُ بمستوى أسْمع فيه صريف الأقلام في الألواح، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة**»[(١)].

ذلكم قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾ أي: يغشاها من الفيوضات الربانية، والأنوار القدسية، والخيرات التي لا يحيط بها الوصف ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ فقد غشيتْها سحابات أنوار الله ﷻ، حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها، وغشيتها الملائكة أمثال الطيور يعبدون الله عندها، ويجتمعون حولها مسبِّحين وزائرين.

في الحديث: عن عبد الله بن مسعود ﷺ، أن النبي ﷺ رأى سدرة المنتهى وقد غشيها فراش من ذهب، فأُعْطِيَ ثلاثًا: أُعطي الصلوات الخمس، وأُعطِيَ خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لم يُشرك بالله شيئًا من أمته[(٢)].

ثَبَاتُ بَصَرِ النَّبِيِّ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْآيَاتِ الْكُبْرَى

١٧، ١٨- ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

ورؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج يثبته بعض الصحابة، حيث يرى بعضهم أن محمدًا ﷺ رأى ربه ببصره، دون كيف ولا انحصار، وقد غشيتْه الأنوار وأحاطت به، فانعكس بصره في بصيرته، وهو رأي أهل السُّنَّة والجماعة.

في حديث أبي ذر ﷺ، قال: سألت النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «**نور، أنَّى أراه**»[(٣)] وفي رواية: «**رأيت نورًا**»[(٤)].

---

(١) يُنظر: صحيح البخاري (٣٤٢) عن أبي ذر، وفي صحيح مسلم (١٦٣) في قصة المعراج وفي صحيح الجامع (٤١٩٩).

(٢) «المسند» (١/ ٤٢٢) (٣٦٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٣) والترمذي (٣٢٧٦) والطبري (٢٢/ ٣٤) والبيهقي (٢/ ٣٧٢).

(٣) «المسند» (٢١٣٩٢، ٢١٥٢٧). وفي صحيح مسلم (١٧٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٧٥، ١٧٨) و«المسند»: (٥/١٤٧) برقم (٢١٣٩٢) والترمذي (٣٢٨٢)، والطيالسي (٤٧٤) وأبو عوانة (٣٨٣).

بمعنى أن حجابه تعالى النور، فالرائي يرى نورًا، لأنه غير مؤهل في الدنيا للرؤيا الحقيقية قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام].

فهي رؤية بغير إحاطة، ولا يلزم أن يكون مع الرؤية كلام، وبعضهم ينفي هذه الرؤية[١] والأول أرجح.

قال ابن عباس ﷺ: إن محمدًا ﷺ رأى ربه مرتين: مرة ببصره، ومرة بفؤاده[٢].

وجمهور السلف وأهل العلم -ومنهم ابن مسعود وقتادة- على أن المرئي في المرتين هو جبريل: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى ليلة المعراج.

وفي ليلة المعراج كان النبي ﷺ على درجة عالية من الثبات والطاعة، فما مال بصره يمينًا ولا شمالًا، ولا جاوز ما أُمر برؤيته، بل ثبت في مقامه العظيم الذي تَحارُ فيه العقول، وتزلُّ فيه الأقدام، وتميل فيه الأبصار ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي: لم يُصبْ بصعقة، ولم يُغْش عليه، ولم يفعل إلا ما أُمر به، ولم يسأل فوق ما أُعطي، ولم يتجاوز ما لم يؤذن له في رؤيته.

والمراد بزوغان البصر في الآية: ميله عن الرؤية، وليس المراد: خداع البصر، وقد رأى النبي ﷺ جبريل بعيني رأسه، فكيف تجادلونه فيها؟

وفي ليلة المعراج رأى النبي ﷺ من آيات ربه الكبرى، الدالة على قدرة الله وعظمته، رأى سدرة المنتهى وما غشيها من البهجة والجلال، ورآى البيت المعمور، والملائكة تطوف حوله، ورآى الجنة والنار، ورأى أحوال الطائعين والعاصين، ورأى جبريل في صورته التي يكون عليها في السماء له ست مئة جناح[٣].

---

(١) منهم عائشة ﷺ، كما جاء في البخاري برقم (٤٨٥٥) ومسلم (١/١٥٩) برقم (١٧٧) وفي البخاري (٣٢٣٤) عن عائشة: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم الفرية، ، فمردود عليه بصغر سن عائشة وقت المعراج، وقال أبو ذر: رآه بقلبه ولم يره ببصره، ينظر: النسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٠٣٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٥٦٤) و«الأوسط» (٥٧٦١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٧٩): رجاله رجال الصحيح خلا جمهور بن منصور الكوفي، ذكره ابن حبّان في الثقات.

(٣) كما في «صحيح مسلم» عن ابن مسعود برقم (١٧٤) و«صحيح البخاري» برقم (٤٨٥٦، ٤٨٥٧).

وفي حديث ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**رأيت ليلة أسري بي موسى رجلًا آدم طوالًا جعْدًا، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلًا مربوعًا، مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكًا خازن النار، والدجال**»، في آيات أراهنَّ الله إياه، فلا تكن في مرية من لقائه[١].

قال أنس وأبو بكرة، عن النبيِّ ﷺ: «**تحرس الملائكة المدينة من الدجال**»[٢].

وعن ابن مسعود ﷺ: أن النبيَّ ﷺ رأى رفرفًا أخضر من الجنة قد سدَّ الأفق[٣].

وكلها من آيات الله الكبرى، وفي سورة الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

أَشْهَرُ أَصْنَامِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ثَمَانِيَةٌ

١٩، ٢٠- ﴿أَفَرَءَيْتُمُ[٤] ٱللَّٰتَ[٥] وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ[٦] ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾

بعد أن زكّى الله نبيه وأمره بتوحيده، عمد القرآن إلى إبطال عبادة الأصنام، وبيَّن أنها لا تنفع ولا تضر، وهي أسماء فارغة المعنى، سمَّاها المشركون وآباؤهم، فابتدعوا لها أسماء باطلة خدعوا أنفسهم بها، وزعموا أنها مشتقة من صفات الإله الحق، فذكر سبحانه أشهر أصنام أهل الجاهلية، وهذا مما يتعلق بالوحي والرسالة، حيث تم القضاء عليها بالإسلام في جزيرة العرب، وبقي نظائرها في العالم، والمذكور في الآية أسماء أصنام اتخذها العرب آلهة يعبدونها، واشتقوا لكل منها اسمًا من أسماء الله تعالى فاشتقوا من

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣٩، ٣٣٩٦) و«صحيح مسلم» (١٦٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣٩، ٣٣٩٦) و«صحيح مسلم» (١٦٥).

(٣) البخاري (٣٢٣٣، ٤٨٥٨) والطبري (٢٢/ ٤٥) والطبراني (٩٠٥١، ٩٠٥٣) والبيهقي (٢/ ٣٧٢).

(٤) سهَّل الهمزة الثانية من (أفرأيتم) نافع وأبو جعفر، وأبدلها ألفًا مع المد المشبع حالة الوصل ورش، وحذفها الكسائي، وحققها الباقون.

(٥) قرأ رويس بتشديد التاء من (اللَّاتّ) مع المد المشبع، اسم فاعل، والباقون بالتخفيف، ووقف الكسائي بالهاء، والباقون بالتاء وفقًا للرسم.

(٦) قرأ ابن كثير (ومناءة)، والباقون (ومناة) وهما لغتان بمعنى واحد، وهي على قراءة ابن كثير مشتقة من النوء وهو المطر، وكانوا يطلبون المطر عندها، وهي صخرة على ساحل البحر، وعلى قراءة الجمهور مشتقة من منى يمنى، أي يصب؛ لأن دماء الذبائح كانت تُصَبُّ عندها.

الله: اللَّات، ومن العزيز: العُزَّى، ومن المنان: مناة، وهذا إلحاد منهم في أسماء الله، وتوجُّهٌ بها نحو الشرك بالله سبحانه.

وأول هذه الأصنام الثمانية: ﴿ٱللَّٰتَ﴾

وهو صنم كان لثقيف (بالطائف)، وكانت له شهرة عند قريش، وكان جمهور العرب يعبدونه، وكان العرب يبْنون للأصنام بُيوتًا تُضاهي الكعبة، فبنوْا لِلَّات بيتًا، وجعلوا له أستارًا وسدنة، وجعلوا حوله فناء عظيمًا يفتخرون به.

وكان اللَّات عبارة عن صخرة بيضاء منقوشة داخل هذا البيت.

وهو في الأصل كان رجلًا صالحًا يلتُّ السَّويق للحجاج بمكة[١].

فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه،وسبب هذا هو الغلوُّ في محبة الصالحين.

وقد بعث النبي ﷺ إليه (المغيرة بن شعبة وأبا سفيان) فهدماه.

وسمَّوه اللَّات على الاشتقاق من اسم الجلالة (الله) ثم قصدُوا تأنيثه، أو ما يفيد أنه كان يلتُّ، أي: يعْجن السويق، وهو نوع من الحبوب كالقمح أو البُرِّ.

جاء عن مجاهد: أن اللَّات كان رجلًا في الجاهلية على صخرة بالطائف، وكانت له غنم، فكان يأخذ من سمنها ولبنها، ويأخذ من زبيب الطائف، ومن اللبن المجفف والتمر، فيخلط ذلك، ويجعل منه حَيْسًا، ويُطعم من يمرُّ عليه، فلما مات عبدوه، وقالوا: هو اللَّاتُّ -بالتاء المشددة[٢].

وقال ابن جريج: كان اللَّات رجلًا من ثقيف، يلتُّ السويق بالزبيب، فلما تُوُفِّيَ جعلوا قبره وثنًا،وزعم الناس أنه (عامر بنُ الظَّرِبِ)،أخذ عَدْوَان[٣].

ولما مات اللَّات قال (عمرو بن لُحيٍّ): إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة، فعبدوها وبنوْا عليها بيتًا[٤].

---

(١) جاء هذا في «صحيح البخاري» عن ابن عباس حديث رقم (٤٨٥٩) وفي «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور والفاكهي في «أخبار مكة» (٥/ ١٦٤) (٧٥).

(٣) أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٤/ ٣٢).

(٤) الفاكهي في «أخبار مكة» (٥/ ١٦٤) (٧٦).

وكان اللَّات يهوديًا، وسدنته كانوا من ثقيف، بنو عتاب بن مالك، وهم الذين بنوا عليه بناء، وكانوا يسمون: زيد اللات، وتيم اللات، وهكذا.

وثانيها: ﴿الْعُزَّىٰ﴾

وهي شجرة عليها بناء وأستار، وكانت (بنخلة) بين مكة والطائف.

وقيل: إنها اسم لصنم، وهو شجر أبيض على هيئة صخرة فيها صورة شجر، وكانت فوق ذات عرق.

وكانت قريش تعظمها وتعبدها مع غيرهم من العرب، وكانوا يحلفون بها، كما قال أبو سفيان يخاطب المسلمين يوم أُحُد: لنا العُزَّى، ولا عُزَّى لكم، فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا: «**الله مولانا، ولا مولى لكم**»[1].

وكانوا إذا شرعوا في عمل يقولون: باسم الله اللات والعزى.

وقد بعث النبي ﷺ إليها (خالد بن الوليد) فقطعها، وهدم البيت الذي عليها، وكان يقول وهو يَضْرِبها بالفأس:

يا عُزُّ كُفرانَك لا سبحانك إني رأيتُ الله قد أهانَك

هدم (خالد) البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: ارجع، فإنك لم تصنع شيئًا، فرجع خالد، فلما أبصرتْه السَّدنة أمعنُوا في الحيل وهم يقولون: يا عُزَّى، يا عُزَّى، فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة، ناشرة شعرها، تحْفِنُ التراب على رأسها، فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «**تلك العُزَّى**»[2].

فقد أخرج النسائي عن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالدَ بنَ الوليد إلى نخلة، وكانت بها العُزَّى، فأتاها خالد، وكانت على ثلاث سَمُرات -نوع من

---

(١) من حديث البراء في صحيح البخاري (٤٠٤٣) ومن حديث طويل لابن مسعود في المسند (٤٤١٤).

(٢) جاء هذا عن أبي الطفيل في «سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٥٤٧) وفي «السنن» برقم (٥٦٧) وإسناده حسن، وأخرجه أبو يعلى في مسنده برقم (٩٠٢) عن أبي كريب عن محمد بن فضيل به، وقال محققه: إسناده صحيح، وكلام محقق النسائي أصح لما في أحد رواته (الوليد) من كلام يُنزل الحديث من مرتبة الصحيح إلى الحسن، وهو في الأحاديث المختارة بإسناد صحيح (١/ ٢١٩٥) برقم (٢٥٨).

شجر الطلح- فقطع السَّمُرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئًا. . .**» الحديث(١).

والعُزَّى أحدث من اللات ومناة، وكان الذي اتخذها (ظالم بن أسعد)، وكانت بوادٍ من نخلة الشامية يقال له: حُرَّاض بإزاء العُمَيْر، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، وكانت العرب وقريش تُسمي عبد العُزَّى، وكانت أعظم الأصنام عندهم، وكانت قريش قد حميتْ لها شِعبًا من وادي حُراض يقال له: سُقام، يضاهون به حرم الكعبة(٢).

وثالثها: ﴿مَنَوٰةَ﴾

وهي صخرة عظيمة، وكانت بمكان اسمه (**المشلَّل**) حذْو **قُدَيْد** بين مكة والمدينة.

وسميت مناة؛ لأن دماء النسك كانت تُمنى -أي: تراق- عندها، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويُهلُّون منها للحج بالكعبة، ويستمطرون عندها تبرُّكًا بها، وكانوا يطوفون حول مناة عوضًا عن السعي، فلما شرع الإسلام السعي بين الصفا والمروة تحرَّج الأنصار من السعي بينهما، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾(٣) [البقرة: ١٥٨].

قال ابن عطية: كانت مناة أعظم هذه الأوثان قَدْرًا، وأكثرها عبادة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ فأكدها الله تعالى بهاتين الصفتين: الثالثة، والأخرى.

وقد بعث النبي ﷺ إليها أبا سفيان، وقيل: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهدمها.

أخرج البخاري بسنده عن الزهري قال: سمعت عروة يقول: قلت لعائشة رضي الله عنها، فقالت: إنما كان مَنْ أَهَلَّ لمناة الطاغية التي بالمشلَّل لا يطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ فطاف رسول الله ﷺ والمسلمون.

قال سفيان: مناة بالمشلَّل مِنْ قُديد.

---

(١) «الأصنام» ص ١٧ .

(٢) يُنظَر هذا المعنى في: «صحيح البخاري» برقم (٤٨٦١) و«صحيح مسلم» مع «شرح النووي» (٩/ ٢٢) وهما عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) البخاري (٤٨٦١) ومسلم (١٢٧٧).

وقال عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن عروة قال: قالت عائشة: نزلتْ في الأنصار، كانوا هم وغسَّان -قبل أن يُسلموا- يهلُّون لمناة.

وقال معمر، عن الزهري، عن عائشة ﷺ قالت: كان رجال من الأنصار ممن كان يُهلُّ لمناة -ومناة: صنم بين مكة والطائف- قالوا: يا نبي الله، كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة. نحوه.

قال ابن الكلبي: كان مناة منصوبًا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة، ولم يكن أحد أشد إعظامًا له من الأوس والخزرج، وكانت جميع العرب تعظمه ويحجون إليه[1].

ورابعها: ذو الخُلَصة.

وكانت تعبدها: دَوْس، وخَثْعَم وبَجِيلَة، وكانوا يسمونها الكعبة اليمانية، ويسمُّون الكعبة: الكعبة الشمالية،وقد أرسل النبي ﷺ إليها (جرير بن عبد الله البَجَلي) فهدَمَها.

وخامسها: فَلْس، لطيء، ومن يليها من جبَلَيْ طيء،وقد أرسل إليه النبي ﷺ (علي بن أبي طالب)ﷺ فهدمه، واصطفى منه سيْفين أعطاهما النبي ﷺ لعليٍّ ﷺ.

وسادسها: رُيام، بيت الصنعاء، كان لحمير وأهل اليمن.

وسابعها: رُضاء، بيت لبني ربيعة بن كعب.

وثامنها: ذو الكَعَبات، لبَكْر وتغْلب ابنيْ وائل[2].

ومعنى الآية: هل رأيتم هذه الأصنام حق الرؤية، فإذا رأيتموها علمتم أنها لا تصلح للعبادة، ولا تضر ولا تنفع، فأخبرونا -أيها المشركون- عن هذه الآلهة التي تعبدونها، هل لها من القُدرة ما لِربِّ العالمين، حتى تزعموا أنها آلهة؟ قال تعالى:

---

(١) كتاب «الأصنام» ص ١٣ .

(٢) يُنظَر في هذه الأصنام: «سيرة ابن هشام» (١/ ٨٣-٨٨).

٢١، ٢٢- ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ[1] ﴿٢٢﴾﴾

وكان المشركون يقولون عن الملائكة، وعن هذه الأصنام الثلاثة: اللات، والعُزَّى، ومناة- إنها بنات الله، مع أنهم كانوا يئدون البنات ويَكْرَهونهن، فقال الله تعالى لهم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أتجعلون لكم الذكر الذي ترضونه، وتجعلون لله بزعمكم الأنثى التي لا ترْضونها لأنفسكم؟ وهذا من باب التهكُّم والتسفيه؛ لأنهم يعترفون أن الله تعالى خالقهم ورازقهم.

ومع أن أساس هذه القضية باطل لا أصل له؛ لأن الله تعالى لا والد له ولا ولد، إلا أن هذه القسمة على فرض صحتها -كما تزعمون أيها المشركون- قسمة جائرة ظالمة؛ إذ كيف تخصُّون أنفسكم بالذَّكَر الذي تفضِّلونه، وتنسبون لله ما تكرهون؟ فهلَّا كنتم محايدين وعادلين في قسمتكم ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ لقد جُرتم في القسمة ولم تعْدلوا، وأي ظلم أعظم من تفضيل المخلوق على الخالق؟ وهذا من باب الإنكار والتوبيخ.

هذا: وقد مرَّ الحديث عن قصة الغرانيق في سورة الحج عند الآية الثانية والخمسين، وهي قصة باطلة، ومن زعم أن النبيَّ ﷺ مدح الأصنام، فالإسلام منه بريء، وهي من الإفك المفترى على رسول الله ﷺ.

عِبَادَةُ الأَصْنَامِ فِي الْعَالَمِ أَوْهَامٌ

٢٣- ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه حقيقة هذه الأصنام، وأنها أسماء لآلهة مزعومة، لا حجة عليها ولا برهان، فهي لا تعقل ولا تتصرف، وليست لها حقائق ثابتة، وإنما هي حجارة، أو بيوت، تجعلون لها سدَنة وتعبدونها ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ باطلة فاسدة لا معنى لها، فهي لا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل ولا تفهم، ولا تضر ولا تنفع، وليس لها شيء من صفات الألوهية، وهي مجرد أسماء، سميتم بها هذه الحجارة، أو هذا الجماد ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: ليست

(١) قرأ ابن كثير (ضئزى)، والباقون (ضيزى).

لها حقائق، فأنتم سميتموها آلهة، وليست بآلهة، بل جعلتموها أنتم آلهة ظلما وزورا بدافع الهوى وتزيين الشيطان ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أي: إن الله تعالى لم يُخبر أحدًا من رسله، بأن لهذه الأصنام أرواحًا، كما أخبر عن الملائكة والإنس والجن والشياطين، فالسلطان هو الحجة، والإخبار عن هذه الأصنام من الله تعالى ليكون ذلك حجة لهم على عبدة الأوثان في كل زمان ومكان، ولم تزل عبادة الأصنام قائمة، إلى وقتنا، كما في بعض البلاد من العالم:

قال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ [الحج: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [يوسف: ٤٠].

فهي أسماء ليس لها حقيقة، وليس لها من أوصاف الكمال والقدرة والعظمة شيء.

وإذا انتفت الحجة، كانت الأوهام والأماني هي التي تخدعهم وتغُرُّهم وتُزيِّن لهم عبادة الأوثان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ليس المراد بالظن هنا: الاعتقاد غير الجازم، وإنما المراد: أنهم على وَهْمٍ باطل، بقرينة ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ من الشرك والبدع الموافقة لأهوائهم الآمرة بالسوء، المنحرفة عن الهدى.

أي: ما يتبع هؤلاء الجاهلون في عبادتهم الباطلة إلا الأوهام الكاذبة، وهوى النفس المنحرفة الذي ينشأ عن الفطرة غير السليمة، وتقليد من سبقهم دون إعمال فكر ولا تدبر، وما تمليه عليهم النفس الأمارة، والشيطان اللعين، فهم قد وضعوا عبادتهم بأنفسهم، والعبادة تكون بمقتضى الشرع لا بمتابعة هوى النفس.

والظن الذي يبعثهم على متابعته، ظن كاذب مذموم؛ دون علم ولا هوى، فهم يتَّبعونه لأنه موافق لهواهم وما يألفون، وكان الواجب عليهم أن يتَّبعوا ما جاءهم به رسول الهدَى ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ أي: جاءهم الهدى على لسان محمد ﷺ يرشدهم إلى التوحيد والنبوة والبعث والحساب والجزاء، وما فيه صلاح المرء في دينه ودنياه، فلم يهتدوا، ولم ينتفعوا بما في القرآن الكريم والسنة النبوية من البيان الساطع، والبرهان القاطع، على أن هذه الأصنام ليست آلهة، وأن العبادة لا تصلح إلا لله تعالى، فكيف لا

يتركون عبادتها بعد وضوح هذا البيان؟ من أنَّ هذه الأصنام ما هي إلا ظن كاذب وزعم فاسد، وكيف يُمنّون أنفسهم بأنها تشفع لهم، والله تعالى هو مالك الدنيا والآخرة ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يشفع إلا لمن ارتضى.

خَمْسُ شُبُهَاتٍ لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى

٢٤، ٢٥- ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

ثم أبطل سبحانه عقائد المشركين في **خمس نقاط**، هي:

١- يقينهم بأن الأصنام تشفع لهم عند الله تعالى.

٢- وتمنِّيهم أن يكون الرسول ملَكًا.

٣- وتمنِّيهم أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم.

٤- وطلبهم من الرسول أن يأتيهم بقرآن غير هذا أو يُبدِّلَه.

٥- وطلبهم أن يأتيهم الرسول بخوارق للعادات، كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام.

فهذه الشبهات وغيرها كان المشركون يتطلعون إليها على أنها محطُّ أمانيهم وأهوائهم، وكانوا يُعْرِضون عن كل ما يخالف هواهم، فبيَّن سبحانه أن تحقيق الأماني بيد الله، وأنه هو المعطي المانع، على أن ما يتمناه الإنسان قد يتمناه غيره، فيحدث التعارض والحرمان، ويفضي إلى تعطيل الأُمْنيتيْن.

والحظوظ مقسَّمة، ولكل واحد نصيب، والعاقل هو الذي يوطِّن نفسه على الرضى، ذلكم قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: لا يحصل للإنسان كل ما يتمناه، وهؤلاء قد اتبْعوا الظنون والأوهام وما تشتهيه أنفسهم، من حب الزعامة وتقليد الآباء، وتطلُّعهم إلى شفاعة الأصنام لهم عند الله تعالى.

وفي حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدري مَا يُكتب له من أمنيته**»[١].

---

(١) تفرَّد به أحمد في «المسند» (١/ ٣٥٧) برقم (٨٦٩١) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف عمر بن أبي سلمة عند التفرد، وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٥١): وأخرجه الطيالسي (٢٣٤١) والبخاري في الأدب المفرد (٧٩٤) والبيهقي في الشعب (٧٢٧٤)..

وليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وليس كل ما يريده العبد يتحقق، فكل شيء مرهون بإرادة الله تعالى ومشيئته وفق حكمته تعالى في خلقه ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إنه جلَّ شأنه مالك الدنيا والآخرة، يعطي من اتبع هداه وترك هواه.

لِلشَّفَاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى شَرْطَانِ

٢٦- ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾

ثم ضرب الله سبحانه مثلًا بأعظم ما يتمناه المشرك، وهو شفاعة الآلهة لهم عند الله، فبيَّن سبحانه أن الملائكة مع علوِّ شأنهم، وشرف منزلتهم، وكرامتهم على الله تعالى، فإن شفاعتهم لا تنفع إلا إذا تحقق فيها **شرطان**، وهما: أن يأذن الله للشافع في أن يشفع، وأن يرضى عن المشفوع له بالشفاعة فيه.

وهذا معنى ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ أي: وكثير من ملائكة الله المقربين عند الله في السموات العلا ﴿لَا تُغْنِى﴾ عنهم ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾ ولا تنفع ﴿شَيْـًٔا﴾ عند الله تعالى.

أي: لا تفيد هذه الشفاعة مَن دعاها أو رجاها وتعلق بها، مع سُموِّ منزلتهم، فكيف تطمعون في شفاعة مَن هم دون ذلك من شجر أو حجر أو إنسان صالح أو غير صالح، ميت أو حي، ونحو ذلك ممن يَطْلُب منهم المشركون الشفاعة، مع إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق؟ فيقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ثم وضع سبحانه شرطين لقبول الشفاعة عنده لابد منهما لكل شافع أو مشفوع له:

أولهما: جاء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ لهم في الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] بأنْ كان من أهل التوحيد.

وثانيهما: جاء في تتمة الآية في قوله سبحانه: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ أي: عن المشفوع له، كما قال تعالى عن الملائكة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقد جمع الشرطين معًا قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه]. وجمعهما أيضًا في الآية التي معنا من سورة النجم.

فإذا كان هذا في حق الملائكة، فكيف بغيرهم؟

فِرْيَةُ الْقَوْلِ بِأُنُوثَةِ الْمَلائِكَةِ

٢٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾

والحديث موصول عن الكفار المنكرين للبعث، فهم الذين يقولون عن الملائكة: إنهم إناث، وهم الذين لا يصدقون بالدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وما فيها من بعث وحساب وجنة ونار، ولا يعملون لها، وهم الذين يفترون على الله الكذب، فيزعمون أن الملائكة بنات الله، ويجعلونهم إناثًا كما قال تعالى عنهم:

﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: هم الذين يصفون الملائكة بأوصاف الإناث، ويقولون: الملائكة بنات الله، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف] أي: إن هؤلاء الكفار هم الذين يصفون الملائكة بالأنوثة، ويزعمون أنهم بنات الله، والسبب في ذلك أنهم لا يؤمنون بالآخرة، لهذا تجرؤوا على الله تعالى في أقوالهم وأفعالهم، فلم ينزهوا الله سبحانه عن الولد، وجعلوا الملائكة إناثًا، وكل هذا افتراء على الله تعالى وتقوُّل عليه بغير علم، ولذا: قال تعالى:

٢٨- ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا[1] ﴿٢٨﴾﴾

أي: إن المشركين لا علم لهم بتكوين الملائكة، فهم لم يشهدوا خلْقهم، وليس عندهم حجة ولا برهان على أنهم إناث، فقولهم هذا مجرد وهْم وتخيُّل لا دليل عليه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فهو اعتقاد خاطئ لا يفيد شيئًا.

وحقائق الأمور لا تُدرَك إلا بالعلم الصحيح، ولو وافق الظن الحقيقة فهذا مجرد صُدفة واتفاق، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يُجدي ولا يقوم مقام

(١) انفرد الكوفي بعدّ لفظ (شيئا) آية، وأسقطه جمهور أهل العدد، فلم يعدوه آية.

الحق أبدًا، وإنما تُدرك حقيقة الشيء بالعلم اليقيني، لا بالظن والتوهُّم الذي لا يفيد شيئًا في إدراك الحقائق، والعلم اليقيني يدل على نقيض قولهم، وأن الله تعالى منزه عن الصاحبة والولد، وأن الملائكة عباد مقربون ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وأن المشركين لا يتبعون إلا الظن وهوى النفس.

هَذَا وَعِيدٌ لِلْكُفَّارِ وَوَعْدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

٢٩- ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ[١] عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا[٢] ﴿٢٩﴾﴾

ولما كان المنكرون للبعث والنشور، ضالِّين في حقيقة الأمر، ونتج عن هذا الضلال إعراضهم عما جاء به النبي ﷺ في هذا القرآن العظيم، لذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُعرض عنهم، فلا يهتم بهم؛ لأنهم لم يقبلوا الإرشاد، وأمره ألا يحزن على كفرهم، ويداوم على دعوتهم للإيمان.

﴿فَأَعْرِضْ﴾ أيها الرسول، وأيها الداعية إلى الله تعالى ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: القرآن والسنة ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فإنَّ طلب الدنيا ومتاعها، منتهى علمهم وغايتهم، وهم قد آثروا الفانية على الباقية، وظلُّوا يعملون للدنيا وغفلوا عن الآخرة، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها. قال تعالى:

٣٠- ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

ثم حقَّر الله تعالى أفكارهم وهوَّن من شأنهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: هذا هو نهاية علمهم وغاية مداركهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أعلم بمن أصرَّ على الضلال، فحاد عن الحق وعن طرّيق الهداية، هذا هو طريق أهل الضلال، أما المؤمنون بالآخرة، فهمتهم منصرفة إلى الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلّها، وهو كتاب الله وسنة رسوله، لذا قال تعالى عنهم: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: ممن سلك طريق الإسلام، واستجاب لدعوته، وقد أسند الله الهدى والضلال إليهم؛ لأنهم اكتسبوهما بفعلهم، وإن كان كل شيء مِنْ خَلْقِ الله تعالى.

---

(١) انفرد الشامي بعد (عمن تولى) وتركه غيره.

(٢) أسقط الشامي (إلا الحياة الدنيا) من العدد، وعدّها غيره.

إنه سبحانه أعلم منك -أيها الرسول- بحالهم ودخائل نفوسهم، فلا تحزن على من لم يتَّبع طريق الهدى منهم، ولا تتحسر عليهم، وفي هذا إنذار شديد للعصاة المعرضين عن العمل بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ المؤثرين لهوى النفس وحظوظ الدنيا، فالدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، فاللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

وكثيرًا ما كان النبي ﷺ يدعو ربه ألا يجعل الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه.

عن ابن عمر ﷺ قال: قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعُوَ بهؤلاء الدعوات لأصحابه: **«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على مَن عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا»**[1].

عَدَالَةُ الْجَزَاءِ الأُخْرَوِيّ

٣١- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾

وبما أن لله سبحانه الآخرة والأولى، وأنه تعالى أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وأعلم بمن اهتدى، فإنه لا يقْدر على مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، إلا مالك الملك، كامل القدرة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له سبحانه كامل ما في الكون، فهو خالقه ومالكه، والمتصرف فيه، يأمرهم وينهاهم، ويُجري عليهم شرعه، ويَجزيهم على ما أمرهم ونهاهم، فيثيب المطيع ويعاقب العاصي.

والله تعالى، يعلم أن لهم حياتين، ويعلم أن مَنْ في العالم الأرضي ستصدر منهم أقوال وأفعال حسنة وسيئة في حياتهم الدنيا، وأنه مجازيهم على ذلك جزاء عادلًا في الآخرة، فلاجَرَم أن يكون الجزاء غايةً لخَلْقهم، وعلة باعثة على وجودهم، إلى جوار سبب أساسي

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٨٣) بإسناد حسن، ومشكاة المصابيح (٢٤٩٢) التحقيق الثاني، وابن السنِّي (٤٤٦) والحاكم (١/٢٥٨).

أوجد الله الخلق من أجله، هو معرفة الله سبحانه، وهو المقصود الأعظم، والسبب الأول، ثم إعمار هذه الأرض، وابتلاء المخلوقات، وغير ذلك من الحِكَم الإلهية.

ولهذا فقد خلق الله الخلق ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: يعاقبهم عقابًا عادلًا مماثلًا لما عملوه في الدنيا ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ فيثيبهم بأفضل مما عملوا، وهو الجنة، ثم رضى الله سبحانه ورؤيته في دار النعيم.

الْكَبَائِرُ وَالْفَوَاحِشُ وَالصَّغَائِرُ وَاللَّمَمُ

٣٢- ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ[(١)] ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ[(٢)] فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

ثم وصف الله سبحانه هؤلاء المحسنين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾. فهم يفعلون ما أمرهم الله به ويتركون ما نهاهم عنه.

١- **والإثم**: اسم جنس، يشمل الذنوب الصغائر والكبائر.

٢- **وكبائر الإثم**: هي كل ما توعد الله فاعله أو قائله بالعذاب أو الغضب، أو اللعنة أو النار، كالسرقة، والربا، والرشوة، وقذف المحصنات، والتولي يوم الزحف، ويدخل في ذلك كل ما وضع له الشرع عقوبة القصاص، أو الحدود، أو التعزيرات، وكل جريمة تُؤذن بعدم اكتراث فاعلها بالدين، أو رقَّة في دينه.

والسبع الموبقات من كبائر الذنوب، وهي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع.

٣- **والفواحش**: أخص من الكبائر، وأقوى إثمًا، ويُعدُّ فاعلها متجاوزًا حد الكبائر، كالزنى بزوجة الجار، ونكاح زوجة الأب، والقتل غِيلَة، والزنى بالمحارم.

وهكذا فإن الزنى في حد ذاته حرام، وهو من كبائر الذنوب، ولكن الزنى بالمحارم، أو بحليلة الجار، وكذا الشيخ الزاني -أشد إثمًا، فهو من الفواحش.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (كبير الإثم) على التوحيد، وقرأ الباقون (كبائر) على الجمع، ورقق الأزرق الراء، ووقف حمزة بالسكت والنقل في (الإثم).

(٢) قرأ حمزة بكسرة الهمزة والميم وصلًا من (أمهاتكم) وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم وصلًا، والباقون بضم الهمزة وفتح الميم وصلًا، والجميع يبدأ بهمزة مضمومة وميم مفتوحة.

والزواج من المحارم حرام، وهو بزوجة الأب أشدُّ حرمة، قال الله تعالى عنه:
﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

والقتل كبيرة من الكبائر، ولكن القتل غيلة أشدُّ إثمًا.

وخيانة الأمانة حرام، ولكن خيانة الإنسان لمن ائتمنه أشدُّ حرمة.

والكذب حرام، ولكن الكذب على الله ورسوله أشد حرمة، وهكذا كل ما تناهى قبحه وفحشه من الأقوال والأفعال فهو من الفواحش.

٤- **والصغائر**: هي ما دون الكبائر، كالقُبْلة والنظرة والغمزة دون إصرار.

فهناك قاعدة عامة تقول: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

فالإصرار على الصغيرة بالمداومة عليها وتحقيرها، يجعلها كبيرة بالنسبة لمن يفعل ذلك.

والذي يتوب من الكبيرة وهو صادق من قلبه في توبته وقت أن تاب، ثم ضَعُفَتْ نفسه وزلَّت، فوقع في الذنب مرة أخرى ثم تاب، فإن الله تعالى يتوب عليه، ولكن عليه ألا يكون مستخفًّا، متهاونًا في ذنبه، غير مُقْلِع من قلبه.

وفي الحديث: عن ابن مسعود مرفوعًا: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على العبد حتى يهلكنه**»[١].

٥- **واللَّمم**: هو الذي يُلِمُّ بالذنب -أي: يقع فيه- من غير إصرار عليه، ثم يتوب منه ولا يعود إليه، فهو يُلمُّ به على وجه الندرة والقلة[٢]، **ومما ورد في ذلك**:

(أ) ما رواه ابن جرير عن مجاهد قال: اللَّمم: هو الذي يُلمُّ بالذنب ثم يدعه، وفي رواية له: هو الرجل يلمُّ بالذنب ثم ينزع عنه[٣].

(١) الحديث في «المسند» (٣٨١٨) وبرقم (٢٥١٧٧) عن عائشة ﵂ بنحوه، قال محققوه: إسناده حسن، وهو مكرر برقم (٢٤٤١٥) وفي «سنن النسائي الكبرى» (١١٨١١) وصححه ابن حبان (٥٥٦٨) وابن ماجه (٤٢٤٣) وفي حديث طويل عن سهل بن سعد في «المسند» (٢٢٨٠٨) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٨٧٢) و«الأوسط» (٧٣١٩) و«الصغير» (٩٠٤).

(٢) وبهذا قال ابن عباس، وأبو هريرة، والحسن، ومجاهد، وابن جرير، والسُّدِّي.

(٣) «تفسير الطبري» (٢٧/ ٣٩).

(ب) وقال ابن عباس ﷺ: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب، وقال: قال رسول الله ﷺ: «**إنْ تغفِرِ اللهُمَّ تغفِرْ جَمًّا، وأيُّ عبْدٍ لك ما أَلَمَّا**»[(١)]

(ت) وقال أبو هريرة ﷺ: اللَّمَّة من الزنى، ثم يتوب، ولا يعود، واللَّمَّة من السرقة، ثم يتوب ولا يعود، واللَّمَّة من شرب الخمر، ثم يتوب، ولا يعود، قال: ذلك الإلمام[(٢)].

(ث) وقال السُّدِّي: قال أبو صالح: سُئلتُ عن اللَّمَم، فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب، وأخبرتُ بذلك ابن عباس، فقال: لقد أعانك عليها ملَك كريم[(٣)].

(ج) وعن ابن عباس ﷺ، قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنَّى وتشتهي، والفرْج يصدق ذلك أو يكذبه**»[(٤)].

(ح) وقال ابن مسعود ﷺ: زنى العينين النظر، وزنى الشفتين التقبيل، وزنى اليدين البطش، وزنى الرجلين المشي، ويُصدِّق ذلك الفرْج أو يُكذِّبه، فإن تَقَدَّمَ بفرجه كان زانيًا، وإلا فهو اللمم[(٥)].

(خ) قال أبو هريرة وابن عباس والشعبي وغيرهم: **اللَّمَم**: صغار الذنوب التي بين الحدَّين: الدنيا والآخرة، وهي ما لا حدَّ فيه ولا وعيد مختصًّا بها، ويقال لها: صغائر بالإضافة إلى غيرها[(٦)].

(د) **وقيل**: إن هذه الآية نزلت في رجل يُسمَّى نبهان التمَّار، كان له دكان يبيع فيه تمرًا،

---

(١) «تفسير البغوي» (٧/ ١٢٨) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٢٨٤) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٦١٨) والبزار (٢٦٦٢) «كشف الأستار» والحاكم (٢/ ٤٦٩) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٥٥، ٧٠٥٦) والبيت لابن أبي الصلت.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٧/ ٣٩) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٥٨، ٧٠٥٩).

(٣) حكاه في التفسير: البغوي والخازن والسيوطي في «الدر».

(٤) «المسند» (٢/ ٢٧٦) (٧٧١٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) و«صحيح البخاري» برقم (٦٦١٢، ٦٣٤٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٥) وعبد الرزاق (٢/ ٢٥٣) والطبري (٢٢/ ٦٢) والبيهقي في «السنن» (٧/ ٨٩).

(٥) «تفسير الطبري» (٢٧/ ٣٩) وعبد الرزاق (٢/ ٢٥٥) والحاكم (٢/ ٤٧٠) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٦٠).

(٦) «تفسير ابن عطية» (٥/ ٢٠٤) والطبري (٢٢/ ٦٧).

فجاءته امرأة تشتري تمرًا، فقال لها: إنَّ داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلتْ راودها عن نفسها فأبت فندم، فأتى النبي ﷺ، وقال: ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلْتُه -أي: بالمرأة غصبًا عنها- إلا الجماع، فنزلت الآية[١].

وقد حدثت هذه القصة في المدينة، وعليه فإن هذه الآية تكون مدنية ألحقت بسورة النجم المكية.

(ذ) قال زيد بن أسلم: **اللَّمَم**: الشرك والزنى، تركوا ذلك حين دخلوا الإسلام وغفر الله لهم، ما كانوا ألمُّوا به، وأصابوا من ذلك قبل الإسلام[٢].

والجمع بين هذه الأقوال: أن كل ذنب ألمَّ به العبد -صغيرًا كان أو كبيرًا- قبل الدخول في الإسلام، أو قبل التوبة، فإن الله تعالى يغفر له ذلك؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها.

ووجه تسمية هذه الذنوب التي ذُكرت في الحديث، وفي قول ابن مسعود، وفي سبب النزول، باللَّمم: أن العبد لا يُصِرُّ عليها، وكلما أَلَمَّ بها على وجه الندرة والقلة، أقلع عنها مباشرة، فالإقدام عليها مرة لا يُخرج العبد عن أن يكون من المحسنين، فتارك المحرمات، وفاعل الواجبات يدخل تحت مغفرة الله تعالى التي وسعت كل شيء[٣].

وقيل في اللمم أقوال أخرى، ونختار ما سبق ذكره؛ لأنه جاء بالتفرقة بين اللمم والصغائر.

وتعريف اللمم في اللغة يختلف عن تعريف الصغائر، فالصغائر أطلق القرآن عليها سيئات في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء] ولم يطلق ذلك على اللمم.

وما أَلَمَّ به العبد من الشرك والمعاصي قبل إسلامه وقبل التوبة فهو من اللمم.

فقد جاء عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وزيد بن أسلم، وابنه، في سبب نزول الآية:

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢٢).

(٢) الطبري (٢٢/ ٦١).

(٣) يُنظَر: «تفسير ابن سعدي» ص ٧٦٨ تحقيق محمد زهدي النجار.

أن الكفار قالوا للمسلمين: قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا، فنزلت الآية.

وهي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣].

ومعنى الآية: إن المحسنين هم الذين يبتعدون عن كبائر الذنوب والفواحش، ولا يُلامون على ما صدر منهم من ذنوب، ولم يُصرُّوا عليها، ووقعت منهم على وجه الندرة، ثم تابوا وأقلعُوا عنها، فإن الذين فعلوا هذا مع الإتيان بالواجبات وترْك المحرمات يغفرها الله لهم ويسترها عليهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فهو غفَّار الذنوب، وستَّار العيوب، يغفر لمن أقبل على ربه وأناب، فرحمتُه وسعت كل شيء، وقد عقَّب الله تعالى بذلك؛ لئلَّا ييأس صاحب الكبيرة من عفو الله تعالى، ولو لا مغفرة الله تعالى لهلك العباد والبلاد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السموات على الأرض، ولما ترك الله على ظهرها من دابة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«الصلوات الخمس ،والجمعة، إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهنّ إذا اجتنبت الكبائر»**[1].

والآية تنشد الكمال في المسلم، وتفيد أن لكل جواد كبوة، ولكل صارم نَبْوة، وأن طبيعة الإنسان الأرضية قد تغْلب جانب الروح فيه، وينبغي على الإنسان أن يشتد تعلُّقه بمغفرة الله تعالى، وأن يُعوّل على فضل الله سبحانه بعد الاجتهاد في ترك المحرمات وفعل الواجبات.

(١) صحيح مسلم برقم (٢٣٣).

ورحمة الله الواسعة صادرة عن علم شامل يحيط بظاهر العبد وباطنه، فهو سبحانه أعلم بأحوال الإنسان الأول وقت إنشائه من تراب الأرض، وأعلم بذريته وهم أجنة مستترون في بطون وأرحام أمهاتهم، ويعلم أطوارهم فيها ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي: أعلم بحالكم من أنفسكم، فهو يدبِّر لكم ما لا يخطر ببالكم، كما قال تعالى في الحديث القدسي عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إن الله تبارك وتعالى قال: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإن شئتم فاقرءوا:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»(١) [السجدة: ١٧].

ومن هذا القبيل قوله تعالى لنبيه ﷺ في حديث الإسراء حين فَرض عليه خمسين صلاة: «**إن أمتك لا تطيق ذلك**»(٢).

فهو سبحانه أعلم بأحوالكم وما جُبلتم عليه من ضعف وقوة، وخوَر وعزيمة وما إلى ذلك، وعِلْمُه تعالى لم يزل قائمًا بكم، ولعِلْمه بأحوالكم تغمَّدكم برحمته ومغفرته وعفوه، فلا تخبرون الناس بطهارة قلوبكم وتمدحُون أنفسكم، فإن الله تعالى، أعلم بمن اتقى لأن التقوى محلها القلب، والله هو المطلع عليها.

النهي عن تزكية النفس:

قيل: إن ناسًا كانوا يعملون أعمالًا حسنة، ثم يقولون مفتخرين: صلاتنا وصيامنا وحجنا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾(٣) أي: لا تَمْدحُوها، ولا تُثْنوا عليها، ولا تَصِفُوها بالصلاح والتقوى، ولا تظنوا أنكم أصحاب فضل وطاعة، فإن هذا يؤدي إلى الإعجاب بالنفس، وانتقاص الآخرين، ويوصل المرء إلى الرياء المحبط للعمل.

---

(١) البخاري (٣٢٤٤، ٧٤٩٨) ومسلم (٢٨٢٤) وابن ماجه (٤٣٢٨) والترمذي (٣٠١٣) والنسائي في (الكبرى) (١١٠١٩) و«المسند» (٨١٤٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) دون ذكر الآية، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٨٧٤) وعند أبي يعلى (٦٢٧٦) وغيرهم، وابن حبَّان (٣٩٦).

(٢) من حديث طويل عن مالك بن صعصعة في البخاري (٣٢٠٧) معلقًا، ومسلم (١٦٤) والترمذي (٣٣٤٦) و«المسند» (١٧٨٣٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وابن حبَّان (٤٨) والنسائي في الكبرى (٣١٣).

(٣) من «تفسير النسفي» وابن عاشور للآية.

وعليكم أن تهضموا أنفسكم، وتتهموها، وتنسبوها إلى التقصير، وانظروا إلى من هم دونكم في الرزق، وأعلى منكم في الطاعة؛ حتى لا تزدروا نعمة الله عليكم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ فاكتفوا بعلمه وجزائه عن ثناء الناس، فهو أعلم بمن برَّ وأطاع، وأخلص العمل، واتقى ربه في السر والعلن.

وعن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صِدِّيق، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: **«كذبت يهود، ما من نسْمة يخلقها الله في بطن أمها إلا أنه شقي أو سعيد»**، فأنزل الله الآية[1].

ومن اعتقد أن طاعته وعمله الصالح هو بفضل الله وتوفيقه وتسديده وإعانته، فَحَمِدَ الله وشكَره على ذلك، فإن هذا ليس تزكية للنفس، وإنما هو سرور بالطاعة، وذِكْرُها شكرًا لله تعالى[2].

وقد جاء النهي عن تزكية النفس، وتزكية الآخرين في الكتاب والسُّنَّة، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء].

ومن ذلك حديث أم علاء الأنصارية: حين مات عثمان بن مظعون في بيتها، فلما غُسِّل وكُفِّن في أثوابه دخل عليه رسول الله ﷺ، فقالت: رحمةُ الله عليك أبا السائب -كنيتُه- فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لها رسول الله ﷺ: **«وما يدريك أن الله أكرمه»**؟ فقالت: إذا لم يكرمه الله، فمن يكرمه الله؟ فقال ﷺ: **«أمَّا هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير، وإني والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي»** قالت أم علاء: فلا أُزكِّي أحدًا بعدما سمعت هذا من رسول الله ﷺ[3].

والرسول لا يعلم ما يحدث له في الدنيا ولكنه يعلم مصيره في الآخرة وهو الجنة.

وقد شاع بين الصحابة ﷺ في عصر النبوة أنهم كانوا يتحرزون من التزكية، فإذا أثنَوْا على أحد قالوا: لا أعلم عليه إلا خيرًا، ولا أزكي على الله أحدًا.

عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سَمَّيتُ ابنتي برَّة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة:

---

(١) الطبراني في «الكبير» (١٣٦٨) وأبو نعيم (١/ ٤٠٤) (١٣٦٣) والواحدي ص ٢٩٧ .

(٢) «تفسير الكشاف» (٤/ ٢٣).

(٣) البخاري (١٢٤٣)، وانظر: (٢٦٨٧، ٧٠١٨) و«المسند» (٢٧٤٥٧) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين (محققوه) والطبراني في «الكبير» (٣٣٩) والحاكم (١/ ٣٧٨) والبيهقي في «السنن» (٤/ ٧٦).

إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسُمِّيتُ برَّة، فقال ﷺ: «﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ إن الله أعلم بأهل البرِّ منكم»، قالوا: بم نُسميها؟ قال: «**سمُّوها زينب**»[١].

النهي عن مدح الآخرين تملُّقًا:

ومما ورد في النهي عن مدح الآخرين، ما جاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: مدح رجل رجلًا عند النبي ﷺ، فقال له: «**ويلك، قطعت عنق صاحبك -مرارًا- إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا، أحسبه -إن كان يعلم ذاك- كذا وكذا**»[٢].

وجاء رجل إلى عثمان، فأثنى عليه في وجهه، فجعل المقداد بن الأسود، يَحْثُو في وجهه التراب، ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المدَّاحين أن نَحْثُو في وجوههم التراب[٣].

أما تزكية القدوة والصالح من عباد الله ليقتدي به الناس فهو جائز، وقد زكَّى النبي ﷺ أبا بكر ﷺ، قالوا: والآية نزلت في قوم كانوا يعملون أعمالًا حسنة، ثم يتفاخرون بها.

لَا يُؤَاخَذُ أَحَدٌ بِذَنْبِ غَيْرِهِ

٣٣-٣٥- ﴿أَفَرَءَيْتَ[٤] ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

أَعَلِمْتَ - أيها الرسول - قُبْح حالة مَنْ أُمر بتوحيد الله وعبادته، فتولى عن الإيمان، وأعرض عن طاعة الرحمن، فما أجهله وما أشد غفلته؟ وانظر إليه حين يُدعَى إلى إنفاق المال، فإنه يبخل بالقليل منه، ثم يمنع عطاءه بالكلية، ويُمسك بمعروفه وإحسانه، فما أشد بخله؟ وهل عنده علم من الغيب أن ماله سينفد حتى يبخل به؟

هذا: وقد وردت في هذه الآيات **أسباب كثيرة للنزول**، منها:

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢١٤٢).

(٢) «المسند» (٥/ ٤١، ٤٥) برقم (٢٠٤٦٢) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، والبخاري برقم (٦١٦٢) ومسلم برقم (٣٠٠٠) وأبو داود (٤٨٠٥)، والبزار في مسنده (٣٦٢٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٣٠٠٢) وأبو داود برقم (٤٨٠٤).

(٤) سهَّل الهمزة الثانية من (أفرأيت) نافع وأبو جعفر، وأبدلها ألفًا ورش مع المد المشبع حالة الوصل، وحذفها الكسائي، وحققها الباقون.

ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة أن النبي ﷺ خرج في غزوة، فأراد رجل أن يخرج معه، ولم يجد ما يخرج عليه، فلقى صديقًا له، فقال: أعطني شيئًا، قال: أعطيك بَكْرِي هذا -أي: الصغير من الإبل- على أن تتحمل عني ذنوبي، فقال: نعم، فأنزل الله الآية.[1]

وبهذا المعنى وردت روايات أخرى:

فقد جلس الوليد بن المغيرة عند النبي ﷺ يستمع إلى وعْظه، فتأثر قلبه، وكاد أن يُسْلم، فعيَّره رجل من المشركين وقال: تركتَ دين آبائك وضلَّلتهم، وزعمتَ أنهم في النار؟ فقال الوليد: إني خشيت عذاب الله، فضَمِن له الرجل إن هو أعطاه شيئًا من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فأعطاه بعض الذي طلبه، ثم بخل ومنَعه الباقي، فنزل قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾[2].

فقوله: ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: بخل بعطائه ومنَعه عنه، يقال: أكْدَتْهُ للذي اعترضَتْه كُدْية، أي: صخرة، أو حجر لا يستطيع إزالته، وهو يَحْفُر في الأرض.

والمعنى: أفرأيت -يا رسولنا- حالًا أعجب من حال هذا الإنسان الفاجر الأثيم الذي أعرض عن طاعة الله ورسوله، ونبَذ الهداية وراء ظهره، بعد أن قارب على الدخول فيها، وأعطى لصاحبه قليلًا من المال المشروط بينهما؛ كي يتحمل عنه العذاب، ثم توقف وقطع عطاءه عن صاحبه الذي عيَّره إن هو دخل في الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣].

﴿أَعِندَهُۥ﴾ أي: أعند هذا الذي قطع عطاءه وأعرض عن الهداية والرشد عِلْمٌ بالأمور الغيبية حتى يعلم أن صاحبه يتحمل عنه العذاب؟ وهل عنده ﴿عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أن صاحبه

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٤/ ٤٣).

(٢) رواه الطبري والقرطبي وابن عطية والألوسي وغيرهم عن مجاهد وابن زيد، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٢٦ وفي سنده ابن لهيعة، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٢٨) وزاد في نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي نعيم في «المعرفة» وابن مردويه عن ثابت بن الحارث الأنصاري.

سينفد ما في يده ويحتاج إليه حتى أمسك عنه معروفه، فهو يرى ذلك عيانًا ويطَّلع عليه؟

وهل هو يَعْلم أن في إمكان غيره أن يحمل عنه أوزاره وذنوبه يوم القيامة؟ ليس الأمر كذلك، وإنما أمْسَك عن العطاء شُحًّا وبُخْلًا.

وليست هذه الآيات صفات شخص بعينه، ولكنها تصوير لحالة من حالات الكفر الشائعة قديمًا وحديثًا، فمَلاحِدة العصر في غرور بالباطل، وإعراض عن الحق، واستعلاء على غيرهم، وجمُود على ما هم عليه، وسبب نزول الآيات يوضِّح الحالة الخاصة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والآيات بعد ذلك، في السياق نفسه.

الْكُفْرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ كُفْرٌ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ

٣٦، ٣٧- ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ[١] بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ[٢] ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾

إن الكفر بمحمد ﷺ كفرٌ بجميع الأنبياء، وإنكارٌ للوحي الذي نزل على رسل الله كلهم، فهلَّا اطَّلع الكافر على ما أخبرتْ به رسل الله من قبل؟ فكثيرًا ما ذكر الله تعالى أسماءهم وشرائعهم في كتابه العزيز، وفي الكتب السابقة.

والمعنى: ألم يُخبَر هذا الذي أعرض عن الإسلام بما جاء في أسفار التوراة، وصحف إبراهيم الذي وَفَّى بما أُمر به، وبلَّغه وقام بأدائه خير قيام، من أنه لا تحمل نفس ذنب أخرى، ولكل إنسان ما اكتسب من الخير أو الشر، وأنه محاسب ومجزيّ على ما قدمتْ يداه.

وفي هذا ذمٌّ لمن أعرض عن الحق وبخل بماله، وذمٌّ له على جهله وحمقه، فطالما سأل هذا الكافر وغيره أهل الكتاب عن أخبار موسى عليه السلام، فكان عليه أن يسأل عن طلب النجاة من عذاب الله تعالى فيّ شريعة محمد، فإن شريعة موسى معلومة عند اليهود.

ومآثر شريعة إبراهيم يعرفها العرب، ولهذا خُصَّت هاتان الشريعتان بالذكر دون غيرهما، وقُدِّم موسى عليه السلام لاشتهاره بكثرة الأحكام عما وصلهم من شريعة إبراهيم، ﷺ.

وقُدِّمَتْ صحف إبراهيم في سورة الأعلى على صحف موسى مراعاة للترتيب الزمني،

---

(١) أبدل أبو جعفر همزة (ينبأ) ألفًا وصلًا ووقفًا، وفي الوقف حمزة وهشام.

(٢) قرأ هشام (إبراهام)، والباقون (إبراهيم).

وصحف موسى هي التوراة، وصحف إبراهيم هي التي سجل فيها ما أوحى الله به إليه.

سأل أبو ذر ﷺ رسول الله ﷺ عن الكتب التي أُنزلت على الأنبياء، فذكر له منها عشر صحائف أُنزلت على إبراهيم[1].

أي: أنزل الله عليه ما كُتب فيها، وهي تساوي نحو عشر ورقات بالخط القديم.

فهلّا سأل هذا الْمُعْرِضُ عن دين الله العلماءَ عن صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام، لِيَعْلَم ما يجهله عن وحي الله تعالى ورسله الأكرمين.

أمَّا مَا وفَّى به إبراهيم ﷺ فهو كل ما يجب عليه الوفاء به من جميع ما ابتلاه الله به، من سنن الفطرة وغيرها، وما أمره الله به من أصول الدين وفروعه.

ومن ذلك الكلمات التي ابتلاه الله بها فوفَّاها: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومنها ما وفَّى به من ذبح ولده إسماعيل لَمَّا أمره ربه بذلك، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

ومنها قيامه بجميع الأوامر والنواهي التي أُمر بها، فكان بحق إمامًا يُقتدَى به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

ومما ورد في ذلك ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ﷺ قال: وفَّى إبراهيم بسهام الإسلام كلها، وهي ثلاثون سهمًا، منها عشرة في براءة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١] وما بعدها، وعشرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وستة في المؤمنون من أولها، وأربعة في المعارج ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦﴾ فذلك ثلاثون سهمًا فمن وافى الله بسهم منها فقد وافاه بسهم من سهام الإسلام، ولم يوافه بسهام الإسلام كلها إلا إبراهيم ﷺ[2].

---

(١) أخرجه ابن حبَّان برقم (٣٦١ ج٢ ص٨١) وقد أورده ضمن الأحاديث الصحاح، وأخرجه الحاكم في المستدرك.

(٢) «الدر المنثور» (١٤/٤٧).

وقد أخرج الحاكم هذا الأثر بسند صحيح عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصرًا قال: سهام الإسلام ثلاثون سهمًا، لم يتمها أحد قبل إبراهيم عليه السلام، قال الله عز وجل: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾[1].

عَشْرَةُ أَحْكَامٍ مِمَّا فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عليهما السلام

٣٨- ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾

ثم شرع سبحانه في بيان ما أوحاه الله تعالى في صحف إبراهيم وموسى، فذكر منها **عشرة أحكام**، ثم أتبعها بذكر بعض مصارع المكذبين لرسل الله، للاعتبار بما حدث لهم؛ حتى لا يصيبنا ما أصابهم إن كذَّبنا خاتم المرسلين ﷺ.

أوَّلًا: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾

أي أنه لا عقوبة إلا بنص، فلا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى، وكل إنسان يحمل وزر نفسه.

وفي هذه الآية ردٌّ على من زعم أن أحدًا يتحمل العذاب عن غيره، حيث لم يكتب في صحف إبراهيم وموسى أن أحدًا يتحمل العذاب عن غيره، فلا تؤخذ نفس بإثم غيرها، ووزرها لا يحمله عنها أحد، فكل نفس ظلمت نفسها بِكُفْر أو شِرْك أو دون ذلك من الذنوب، فإن وزرها عليها، لا يتحمله عنها غيرها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

والمتسبب في وزر غيره يحمل وزرًا زائدًا على وزره، ولا يُعتبر هذا مِنْ تحمُّل أوزار غيره، ولكنه زيادة في العذاب؛ لأنه أضل غيره، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت].

ومن هذا القبيل قوله ﷺ في حديث المنذر بن جرير عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

---

(١) صححه الحاكم وأقره الذهبي (٢/ ٤٧٠١) ومن رواته (المعلَّى بن راشد) متكلم فيه، ولشطره الأول شاهد في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني برقم (١٣٨٧).

قال: «**من سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيء، ومن سَنَّ سُنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[(١)]. فهذا وزر بسبب إضلاله لغيره، وليس وزر غيره.

وفي الحديث: عن ابن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**لا تُقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنه أول من سن القتل**»[(٢)].

وجاء في التوراة: عن إبراهيم ﷺ أنه قال في شأن قوم لوط ﷺ: أفتهلك البار مع الأثيم؟[(٣)].

ونظيره في صحف موسى في التوراة: لا يُقتل الآباء عن الأولاد، ولا يُقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يُقتل[(٤)].

وقد حكى الله تعالى عن خليله إبراهيم قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

كما حكى عن موسى قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. قال تعالى:

٣٩-٤١- ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾

ثانيًا: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾

أي: أن كل إنسان له عمله الحسن أو السيء، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء.

ومما كُتب في صحف إبراهيم وموسى أنه لا يحصل للإنسان من الأجر إلا ما اكتسبه هو لنفسه بسعيه، فكما أنه لا يُحمل عليه وزر غيره، لا يحصل له إلا ثمرة عمله الصالح دون زيادة ولا نقص، وهذا من باب العدل، أما باب الفضل فإن الله تعالى يزيد ما يشاء من فضله وكرمه.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧).

(٢) النسائي في «الكبرى» (٣٤٣٣، ١١٠٧٧) وهو في البخاري (٣٣٣٥، ٦٨٦٧) ومسلم (١٦٧٧) وابن ماجه (٢٦١٦) والترمذي (٢٦٧٣) و«المسند» (٣٦٣٠) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وابن حبَّان (٥٩٨٣) وعبدالرزاق (١٩٧١٨) وابن أبي شيبة (٩/ ٣٦٤).

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٣١).

(٤) «تفسير تفسير التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٣١).

قال عكرمة: إن هذا في شريعة سابقة فلا تلزم في شريعتنا.

وفسر الربيع بن أنس، الإنسان في الآية بالكافر، أما المؤمن فله ما سعى، وما سعى غيره[1].

ومن سَعْي الإنسان ما تركه من صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، ومن ذلك المرابط والشهيد، والقدوة الصالحة، واقتفاء الأثر في العمل الصالح الذي له أصل في الإسلام، وعليه ذنبُ من قلَّدوه في العمل السيء، كما أنه ينتفع بالصدقة عنه وبالحج والعمرة والدعاء ونحو ذلك.

ثالثًا: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾.

يراه الإنسان في الآخرة، فيميز حسناته من سيئاته، تشريفًا للمحسن، وتوبيخًا للمسيء، ويُعرَض كلٌّ منهما على صاحبه يوم القيامة، ويراه في ميزانه.

وفي هذا بشرى للمؤمن، وأنه سيرى أعماله الصالحة ليفرح بها، كما أن الكافر يحزن بأعماله السيئة، فيزداد غمًّا حين يرى ذلك في صحيفة أعماله، ويراها في ميزانه.

ويجوز أن تُجسَّم الأعمال فتصير مشاهَدة، فأمور الآخرة مخالِفة لأمور الدنيا.

ويجوز أن تكون هناك علامات على الأعمال تعرف بها كما في قوله تعالى عن المؤمنين: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

ويجوز أن تكون رؤية الأعمال بإشهارها وإعلانها، كما قال تعالى عن أهل الأعراف: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وفي الحديث: عن نافع، عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لكل غادر لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان»**[2].

وفي الحديث أيضًا: عن جندب بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»**[3].

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٥/ ٢٠٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣١٨٨، ٧١١١) و«صحيح مسلم» (١٧٣٥) مختصرًا.

(٣) من «صحيح البخاري» برقم (٦٤٩٩، ٧١٥٢) و«صحيح مسلم» (٢٩٨٧).

رابعًا: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١)﴾

أي: ويوم القيامة يُجزى الإنسان على سعيه الجزاء المستكمل لجميع أقواله وأفعاله، وهذا وعد للمؤمن ووعيد للكافر، حيث يكون الجزاء على الفعل من جنس العمل، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩].

وقال أيضًا: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

ما ينتفع به الإنسان بعد موته من عمل غيره وما لا ينتفع:

هذا: وقد توسَّع العلماء في الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ وبين النصوص التي تفيد أن الإنسان قد ينتفع بعمل غيره، وإذا كانت هذه الآية من شرع إبراهيم وموسى، فإن ما ورد في القرآن الكريم من شرع غيرنا هو شرع لنا؛ لأن القرآن يثبته ويقرره، وليس من باب الحكاية، كما أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، وهذه الآية لم تُنسخ، ويقرر معناها في القرآن الكريم آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

وقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

والآية تقرر أن الإنسان لا يستحق أجرًا إلا على سعي نفسه، ولم تتعرض لانتفاعه بسعي غيره بنفي أو إثبات؛ لأن اللام في ﴿لِلْإِنسَانِ﴾ تدل على أن الإنسان لا يستحق ولا يملك شيئًا إلا بسعيه، ولم تتعرض الآية لنفي الانتفاع بما ليس مِلْكًا ولا مستحقًّا له[1].

والظاهر أن الآية عامة خُصصت بكثير من الأمور في الكتاب والسنة: فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فأدخل الله الأبناء

(١) «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٧/ ٧٠٨).

درجة أعلى في الجنة بصلاح الآباء.

وقوله سبحانه: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾ [الزخرف].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ [يس: ١٢].

وقد أجمع العلماء على أن الميت ينتفع **بخمسة أشياء**، هي:

١- الصلاة عليه. ٢- والدعاء له. ٣- والحج عنه.

٤- والصدقة له. ٥- وقضاء الدَّيْن عنه.

عشرون دليلًا لابن تيمية على انتفاع الميت بعمل غيره:

قال ابن تيمية: ومن اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع، وذلك باطل من عشرين وجهًا:

أوَّلًا: الإنسان ينتفع بدعاء غيره.

ثانيًا: النبي ﷺ يشفع لأهل الموقف في الحساب، ثم يشفع لأهل الجنة في دخولها.

ثالثًا: النبي ﷺ يشفع لأهل الكبائر في الخروج من النار.

رابعًا: الملائكة يستغفرون ويدعون لمن في الأرض.

خامسًا: الله تعالى يُخرج من النار من لم يعمل خيرًا قط من المؤمنين، بمحض رحمته تعالى وفضله.

سادسًا: أولاد المؤمنين يدخلون درجة أعلى في الجنة بعمل آبائهم.

سابعًا: انتفاع الغلاميْن اليتيميْن بصلاح أبيهما، كما في قوله تعالى:﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: ٨٢].

ثامنًا: ينتفع الميت بالصدقة عنه وبالعتق من الرق.

تاسعًا: يسقط الحج المفروض عن الميت بحج وليِّه عنه.

عاشرًا: يسقط الحج المنذور والصوم المنذور عن الميت، بعمل غيره له وأدائه عنه.

حادي عشر: امتنع النبي ﷺ من الصلاة على مدينيْن، حتى قضى أبو قتادة ديْن الميت الأول، وقضى عليٌّ بن أبي طالب ديْن الميت الثاني، وانتفعا بصلاة النبي ﷺ عليهما.

قلت: وهذا كان قبل أن يفتح الله على رسوله من الغزوات وغيرها، حيث تحمل هذه الديون عن أمته فيما بعد.

ثاني عشر: قال النبي ﷺ لمن صلَّى وحده: **«ألا رجل يتصدق على هذا فيصلي معه»**[1] فيحصل له فضل صلاة الجماعة بصلاة غيره معه.

ثالث عشر: تبْرأ ذمة الإنسان من الديون، إذا قضاها عنه غيره.

رابع عشر: من كانت عليه تبعات ومظالم تحلل منها أصحابها -سقطت عنه، وهذا انتفاع له بعمل غيره.

خامس عشر: الجار الصالح ينفع جاره في الحياة وبعد الممات.

سادس عشر: جليس أهل الذكر، وإن لم يجلس بقصد الذكر يُرحم معهم، فينتفع بعملهم.

سابع عشر: ينتفع الميت بصلاة الحي عليه، والدعاء له.

ثامن عشر: الجمعة والجماعة يحصل أجرهما باجتماع الناس وكثرتهم، فينتفع بعضهم من بعض.

تاسع عشر: يُرفع العذاب عن بعض الناس بسبب بعضهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ﴾ [الفتح: ٢٥] وهذا انتفاع لهم بعمل غيرهم.

عشرون: صدقة الفطر تُشرع عن الصغير وعن غيره ممن يمونهم الرجل، ولا سعي لهم في ذلك.

ومن تأمل العمل وجد كثيرًا من الانتفاع بعمل غيره بما لا يكاد يُحصى[2].

---

(١) من حديث أبي سعيد الخدري في سنن أبي داود ١/١٥٧ برقم ٥٧٤ بتصحيح الألباني وهو في المسند من حديث أبي أمامة (٢٢١٨٩،٢٢٣١٥) وهو حديث صحيح، كما قال محققوه، وهذا مرسل، إسناده صحيح ورجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٨٥٧) وفي الأوسط (٦٦٢٠).

(٢) يُنظَر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٤/٢٣٦).

ومن الأحاديث والآثار الواردة في ذلك:

١- قوله ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ: **«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**(١).

وهو حديث عام يشمل كل إنسان في الانتفاع بهذه الثلاث: العلم، والصدقة الجارية، ودعوة الابن، كما في الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ قال: **«ولد الرجل من أطيب كسبه، فكلوا من أموالهم هنيئًا»**(٢).

٢- وعن ابن عباس أن امرأة من خثعم سألتْ رسول الله ﷺ، فقالت: إن فريضة الله على عباده في الحج أدركتْ أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحجَّ عنه؟ قال: **«نعم، حُجِّي عنه»**(٣).

وورد مثل ذلك عن امرأة من جهينة: أن أمها نذرت الحج ولم تحج، فقال ﷺ: **«حُجِّي عنها»**(٤).

٣- وفي حديث بريدة ﷺ: أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، أفيجزئ - أو يَقضي - أن أصوم عنها؟ قال: **«نعم»** قالت: وإنها لم تحج، أفيجزئ أو يقضي عنها أن أحج عنها؟ قال: **«نعم»**(٥).

٤- وفي حديث ابن عباس ﷺ: أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن أمي تُوفيت، أفينفعها إن تصدَّقتُ عنها؟ قال: **«نعم»**(٦).

٥- وسأل عمرو بن العاص ﷺ رسول الله ﷺ أن يعتق عبيدًا له من الرق مثل أخيه، فقال

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٣١) عن أبي هريرة.

(٢) «المسند» (٦/ ٣١) برقم (٢٤٩٥١، ٢٥٤٠٠، ٢٤٠٣٢) قال محققوه: وهو حديث حسن لغيره لجهالة عمّة عمارة بن عمير التيمي، وأبو داود برقم (٣٥٢٨) والترمذي برقم (٣٥٨) وقال: حسن صحيح، وهو عن عائشة، وأخرجه الطيالسي (١٥٨٠) وابن أبي شيبة (٧/ ١٥٨).

(٣) «صحيح البخاري» بأرقام (١٥١٣، ١٨٥٤، ١٨٥٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٣٤) مطوّلًا.

(٤) «صحيح البخاري» (١٣١٥)، (١٨٥٢) و«صحيح مسلم» (١٣٣٤) مطوّلًا، وفي البخاري (١٨٥٢).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (١١٤٩)، وانظر حديث عائشة عند البخاري (١٩٥٢) وابن عباس (١٩٥٣).

(٦) «صحيح البخاري» برقم (٢٧٥٦، ٢٧٧٠).

له: «**لو كان أبوك مسلمًا فأعتقتم عنه، أو تصدقتم عنه، أو حججتم عنه، بَلَغَهُ ذلك**».[(١)]

٦- وبعد موت عبد الرحمن بن أبي بكر، أعتقتْ عنه عائشة ﵂ رقابًا من الرق واعتكفت عنه.

٧- وعن ابن عمر وابن عباس ﵃: أنهما أفتيا امرأة جعلت أمها على نفسها، أي: نذرت صلاة بمسجد قباء، ولم تفِ بنذرها، أن تصلي عنها بمسجد قباء، أي: هل يجوز ذلك؟

٨- وأمر النبي ﷺ سعد بن عبادة ﵁ أن يقضي نذرًا نذرتْه أمه، قيل: كان عتقًا، وقيل: صدقة، وقيل: نذرًا مطلقًا، قال سعد: إن أمي تُوفيت قبل أن تقضيه، فقال ﷺ: «**اقضه عنها**»[(٢)].

٩- وفي الحديث: عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»[(٣)].

١٠- وعن ابن عباس ﵄ أن امرأة رفعت صبيًّا لها فقالت: يا رسول الله، ألهذا حج؟ قال: «**نعم، ولك أجر**»[(٤)].

١١- وعن عائشة ﵂ قالت: إن رجلًا قال لرسول الله ﷺ: إن أمي افْتُلِتَتْ نفسها، وأظنها لو تكلمت تصدَّقت، فهل لها أجر إن تصدقتُ عنها؟ قال: «**نعم**»[(٥)].

١٢- وورد أن عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول، كان قد أعطى العباس قميصًا ألبسه إياه، فلما مات أرسل رسول الله ﷺ قميصه ليكَفَّن فيه، فلم يبق له في الآخرة حسنة يثاب عليها.

---

(١) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٥٠٧).

(٢) من حديث ابن عباس عند البخاري (٢٧٦١، ٦٦٩٨) ومسلم (١٦٣٨) وأبي داود (٣٣٠٧) وابن ماجه (٢١٣٢) والترمذي (١٥٤٦) و«المسند» (١٨٩٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وابن حبان (٤٣٩٣) والنسائي في «الكبرى» (٤٧٤٠، ٤٧٥٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٤).

(٤) «صحيح مسلم» (١٣٣٦) وأبو داود (١٧٣٦) و«المسند» (١٨٩٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات (محققوه) وابن حبَّان (١٤٤) و«سنن النسائي الكبرى» (٣٦١١-٣٦١٥) وألفاظه متقاربة.

(٥) «صحيح البخاري» برقم (١٣٨٨، ٢٧٦٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٠٤) وفي الوصية (١٢).

وقد أجمع أهل العلم على أنه لا يؤمِنُ أحد عن أحد، وما عدا الإيمان من شرائع الإسلام، فإنَّ ما كان منه مِنْ عمل الأبدان فليس فيه للإنسان إلا ما سعى، ولا يجزئ عنه سعي غيره؛ لأن المطلوب في عمل البدن هو الإنسان نفسه.

ومثل ذلك ما يقصد به تزكية الإنسان نفسه، والترويض على مراقبة الله تعالى في السر والعلن، وتعويدها الخير من النوافل والقربات، فالنيابة في مثل هذا لا تجوز.

أما ما كان المقصد منه تكثير الخير وزيادة الحسنات بالقُرَب، والنوافل من الأقوال والأعمال، فالنيابة تجوز فيه.

والصحيح أن المسلم يدعو لأخيه المسلم بعد قراءة القرآن، فإن الأجر يصل للميت وللحيِّ بمشيئة الله تعالى، وقد ورد في حديث عائشة ﵂ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُعوِّذ نفسه بالمعوذات، فلما ثقُل به المرض كنت أُعوِّذه بهما، وأضع يدي على جسده رجاء بركتها[1].

فقد صحَّت النيابة في قراءة القرآن والتبرك به ﷺ في هذا الحديث، فيصح الدعاء من باب أولى، ويجوز الاستئجار على النيابة في القُرَب. قال تعالى:

٤٢-٤٤- ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾

نقل القرطبي عن السُّدي، عن أبي صالح قال: هذه الحروف التي ذكر الله تعالى من قوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ كل هذا في صحف إبراهيم وموسى، وعليه فتكون الآيات التالية من تتمة ما في صحف إبراهيم وموسى.

خامسًا: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: إليه تنتهي جميع الأمور، وإليه يصير كل شيء وإليه البعث والنشور، وإليه ينتهي العلم والحكمة والرحمة وسائر الكمالات، وهكذا:

وأن إلى ربك -أيها الرسول- انتهاء جميع خلْقه يوم القيامة، فإن مرْجعهم ومصيرهم

---

(١) ينظر نحوه في صحيح البخاري (٤١٧٥) ولفظه (كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده)الخ.

إليه، فيجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فيراد بالمنتهى: الحشر والمصير بعد الموت، فهو منتهى بالنسبة إلى الدنيا، وبعد ذلك الجنة والنار، والله تعالى هو الذي ينتهي إليه استدلال العقل، وإليه تنتهي الخلائق.

وفسر أُبي بن كعب الآية بأنه لا فكرة في الرب[1].

أي: إن العبد يجب عليه أن ينتهي عن التفكير في ذات الله تعالى فإنه لن يصل إلى شيء، وقد أمرنا النبي ﷺ أن نفكر في آلاء الله تعالى وآياته الكونية، ونستدل بذلك على وجوده سبحانه، ولا نفكر في ذات الله تعالى؛ فإن ذلك يؤدي إلى الهلاك، فعن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله فتَهلِكُوا**»[2].

وعن ابن عباس ﷺ قال: مرَّ النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله تعالى، فقال: «**تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقْدِرونه**»[3].

سادسًا: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ﴾

ومن أحوال الآخرة إلى أحوال الدنيا، أي أنه سبحانه ﴿أَضۡحَكَ﴾ من شاء في الدنيا، بأن أوجد في الكون ما يسرُّه ويضحكه ﴿وَأَبۡكَىٰ﴾ من شاء في الدنيا، فأوجد ما يؤدي إلى حُزنه وغمه، فقد خلق الله أسباب الخير والشر، والفرح والحزن، والسرور والهم والغم، وسبَّب المؤثرات، وأوجد المشاعر والأحاسيس والأسباب والدوافع، وقد رمز الله سبحانه إلى الحزن والفرح: بالضحك والبكاء في الدنيا والآخرة لإفادة الإحاطة بأحوال الإنسان، وإن كانت متفاوتة في الضعف والقوة، وله الحكمة البالغة في كل ذلك.

سابعًا: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ﴾

أي أنه سبحانه أمات من أراد موته من خلقه بقدرته وإرادته ﴿وَأَحۡيَا﴾ من أراد حياته منهم بالبعث بعد الموت، فهو المتفرد بالحياة والموت، والإيجاد والإعدام، وهو المستحق للعبادة دون سواه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢].

(١) «تفسير البغوي» (٧/ ٤١٧) وأخرجه أبو الشيخ في «العظمة» عن سفيان الثوري برقم (٦) بإسناد حسن كما قال المحقق.

(٢) حسَّنه الألباني عن أبي الشيخ في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٧٨٨) وقد أخرجه أبو الشيخ برقم (٤).

(٣) أبو الشيخ (٥) وحسَّنه الألباني في المصدر السابق.

والذي أوجد الخلق أمرهم ونهاهم، وسوف يعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بما عملوه من خير أو شر، وأيضًا فإنه تعالى أحيا قلوب من شاء بالإيمان، وأمات قلوب من شاء بالكفر، وأحيا الأرض بالنبات، وأماتها بالجدب والقحط، وهكذا. قال تعالى:

٤٥، ٤٦- ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾

ثامنًا: وأنه سبحانه خلق الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان، والنبات والطيور... إلخ، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات].

وقال سبحانه: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة]

ويبدو أن المراد بالزوجين خصوص الإنسان؛ لأن سياق الكلام عنه.

وقد خلق الله الذكر والأنثى من نطفة تتدفق من صلب الرجل، وتُصبُّ في رحم المرأة، حيث تلتقي نطفة الرجل ببويضة المرأة، ويختلطان في قرار الرحم، وماء المرأة يخرج مع بويضة دقيقة، تتسرب مع دم الحيض، وتستقر في كيس دقيق، فإذا باشر الذكر الأنثى انحدرت تلك البيضة من الأنثى، واختلطت مع ماء الذكر، وعند التقاء النطفتين يبتدئ تخلُّق النسل ما لم يَعُقْه عائق.

وهذا من أعظم الدلائل على كمال قدرة الله تعالى، وانفراده بالعزة والسلطان، حيث خلق الإنسان من ماء مهين، ثم نمّاها حتى بلغتْ ما بلغت، وقد أحسن الله خلْقه وصوّره في أحسن صورة، وجعله في أعلى عليين، أو في أسفل سافلين، بمقتضى عمله واختياره طريق الهدى أو الضلال. قال تعالى:

٤٧، ٤٨- ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ[1] ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾

تاسعًا: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾

المراد بالنشأة الأخرى: الخلْق الثاني بعد الموت للبعث والحساب والجزاء يوم القيامة، وهي النشأة التي ليس بعدها نشأة، وهي في مقابلة النشأة الأولى، التي هي الإيجاد والخلْق والتكوين.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (النشَاءَة)، والباقون (النشْأة) وهما لغتان.

أي: وإن على ربك -أيها الرسول- إعادة الخلق بعد مماتهم، فكما قدِر سبحانه على البدء، فهو على الإعادة أقدر، فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

عاشرًا: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾

أي: وأنه سبحانه أغنى من شاء من خلقه وفق حكمته، أغناه بالمال والمتاع والجاه، وملّكه لهم وأرضاهم به، ويسّر لهم أسباب المعاش وأنواع المكاسب.

ومعنى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ ضد معنى ﴿أَغْنَىٰ﴾ أي: وأنه سبحانه أغنى وأفقر، وبهذا قال ابن زيد.

كما قال تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ: ٣٦] وهذا يناسب الآيات قبلها: أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، والذكر والأنثى.

وقد قال المفسرون في ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أقوالًا كثيرة، أبرزها: أنها بمعنى: الرضى والقناعة، فتكون ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ بمعنى: أرضى، أي: أعطى فأرضى، والثراء عرض زائل، والقناعة خير قُنية.

وقيل: إن ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ من القُنية، وهي الشيء الذي يُدَّخر ويُقتنى، وقد أعطى الله عباده من الأموال ما يملكونه ويقتنونه.

فيكون المعنى: وأنه أغنى وأعطى ما يُدَّخر ويُقْتَنَى، فموارد الرزق وأسبابها وموانعها بيد الله سبحانه، والمعنى الأول مأثور عن ابن عباس ﷺ[1].

وكل هذا من نعم الله تعالى على عباده الموجبة للشكر وإخلاص العبادة للمنعم سبحانه.

كَوْكَبُ الشِّعْرَى

٤٩- ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

ولما كان بعض الناس في الجاهلية يعبدون كوكب الشِّعْرى، المسمى بالمرزم، وقت التنزيل، فقد خصه الله تعالى بالذكر، وهو سبحانه رب كل شيء، فقد أخبر سبحانه أن هذا النجم وغيره مخلوق لله تعالى، وليس إلهًا كما يزعمون، فكيف يُتخذ إلٰها مع الله؟ فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ أي: وأنه تعالى رب الكوكب المسمى بالشِّعْرَى، وكانت قبيلتا خزاعة وحمير تعبدانه.

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٤) و«الإتقان» (٢/ ٤٥).

وأول من سنَّ لهم ذلك أبوكبشة، قال: لأن النجوم تقطع السماء عرْضًا، والشعرى تقطعها طولًا، فهي مخالفة لبقية النجوم، ولذا فإن النبي ﷺ لما بُعث وخالف العرب في الدين سموه: ابن أبي كبشة، تشبيهًا له بأبي كبشة الذي خالفهم وعبَدَ الشعرى[١].

وكان أبو كبشة من أجداد النبي ﷺ من جهة أمه، فكان كفار مكة يريدون التغطية على دعوة التوحيد، فيقولون: إن محمدًا يدعو إلى عبادة الشعرى.

ولما أيد الله رسوله بمعجزة انشقاق القمر، قالوا: سحَرَكم ابن أبي كبشة، وقال أبو سفيان لمن حوله وهو في حضرة هرقل: لقد بلغ أمْرُ ابن أبي كبشة أنه يخافه مَلِكُ بني الأصفر.

والشعرى: اسم نجم من نجوم برج الجوزاء، شديد الضياء، وهو من البروج التي تظهر في فصل الربيع.

وسميت الجوزاء: لشدة بياضها في سواد الليل، تشبيهًا لها بالشاة الجوزاء، وهي شاة سوداء في وسطها بياض.

والشعرى أبرز نجوم الجوزاء، ويقال لها: الشعرى اليمانية؛ لأنها إلى جهة اليمن.

وهناك كوكب آخر اسمه: الشعرى الغُميْصاء، وهو ليس من كواكب الجوزاء.

وقد خُصت الشعرى بالذكر؛ لأن أبا كبشة -وهو من كبار العرب- قد عبدها، ودعا الناس إلى عبادتها، فذُكرت في هذه السورة إلحاقًا لها باللّات والعزى ومناة.

وقبيلة خزاعة التي عبدت الشعرى كانوا مجاورين لأهل مكة، فلما عبدوها ظهرت عبادة الكواكب في الحجاز.

فإثبات أن الشعرى مخلوقة لله تعالى دليل على إبطال عبادتها؛ لأن المخلوق لا يكون إلهًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت].

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ٢٠٠) والقرطبي (١٧/ ١١٩) وأبو السعود (٥/ ١٦٣).

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» بتصرف، مجلد (٢٧/ ١٥٠-١٥٢).

وكانت الأصنام التي عبدها المشركون أكثر من ثلاث مئة وستين صنمًا معظمها حول الكعبة، وقد حطمها النبي ﷺ بقضيب في يده يوم فتح مكة، وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء].

الِاعْتِبَارُ بِمَصَارِعِ أَرْبَعَةٍ مِنَ الْغَابِرِينَ:

٥٠، ٥١- ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا[١] ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا[٢] فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١﴾

وبعد هذه الجولة في الأنفس والآفاق، ساقت السورة جانبًا من مصارع الغابرين، فذكرت منهم أربعة، هم قوم عاد، وقوم ثمود، وقوم نوح، وقوم لوط.

أوَّلًا: قَوْمُ عَادٍ

قال تعالى عن قوم عاد: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠﴾ وهم قوم هود، كذبوا نبيهم حين دعاهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته، فرموه بالسفاهة والضلال،وقد أهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة].

ثَانِيًا: قَوْمُ ثَمُودَ

أما عاد ا الآخرة فهم قبيلة ثمود، قوم صالح، وقوم عاد متقدمة في الزمان على عاد الآخرة.

وقد أهلك الله عادًا الأخرى، وهم قوم ثمود،ونبيهم صالح ﷺ،دعاهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته وأيده بمعجزة الناقة، فكذبوه وتآمروا على قتله وعقروا الناقة، فأرسل الله عليهم صيحة واحدة، صاح بها جبريل ﷺ، فلم تُبق منهم أحدًا، فأصبحوا في دارهم جاثمين، كأنهم لم يكونوا فيها من قبل، وأهلكهم الله جميعًا، وتراهم بعد هلاكهم كهشيم المحتظر، فدمرهم الله تدميرًا. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾ [القمر]

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بنقل همزة (عاد الأولى) إلى اللام قبلها وحذف الهمزة مع إدغام تنوين (عادًا) في لام (الأولى) غير أن قالون يقرأ بهمزة ساكنة بعد اللام المضمومة بدلًا من الواو، وقرأ الباقون بإظهار تنوين (عادًا) وكسره، وإسكان لام (الأولى) وتحقيق الهمزة بعدها مضمومة مع إسكان الواو، وهذا في حالة الوصل، فإن وقف على (عادًا) وابتدأ بـ (الآن) ففيها وجوه كثيرة لا مجال لذكرها.

(٢) قرأ عاصم وحمزة ويعقوب بفتح الدال غير منونة على المنع من الصرف من (ثمود) اسم للقبيلة، والوقف بدال ساكنة، ونوَّنها الباقون على إرادة الحي، ويقفون بالألف.

ثَالِثًا: قَوْمُ نُوحٍ عليه السلام

٥٢- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾

وأهلك الله سبحانه قوم نوح بالطوفان، وكانوا في الترتيب الزمني قبل عاد وثمود، وهم أول أمة كذبت رسولها من أهل الأرض، ونوح أول رسول، وكان قومه أشد تمرُّدًا، وأعظم كفرًا من الذين جاؤوا بعدهم، فكانوا لا يتأثرون بدعوته رغم طول المدة فيهم، ألف سنة إلا خمسين عامًا، كلما ذهب قرن جاء قرن آخر، وهم مستمرون في الإعراض عنه، عاكفون على أذاه، فقد كانوا يضربونه حتى لا يكاد يتحرك، وكان الرجل منهم يأخذ بيد ولده ويمشي به إلى نوح ﷺ فيحذره منه، ويقول له: يا بُنَيَّ، إن أبي مشى بي إلى هذا الرجل، وأنا في سنِّك، وحذَّرني منه، فإياك أن تصدِّقه، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير وهو يبغض نوحًا[1]. وقد أرسل الله عليهم الطوفان فأغرق الكافرين به جميعًا.

رَابِعًا: قَوْمُ لُوطٍ عليه السلام

٥٣-٥٥- ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ[2] ۝٥٥﴾

أرسل الله نبيه لوطًا إلى أهل المؤتفكة ودعاهم إلى توحيد الله تعالى وترك فاحشة اللواط، فكذبوه وهددوه بالطرد، واستمروا على طغيانهم وفسقهم، فعاقبهم الله تعالى بما يناسب جريمتهم، فقد أهلك الله مدائن قوم لوط بالأردن، وهي قرى أربع: سدُوم، وعَمورة، وآدمة، وصبوييم. وعبَّر القرآن عنها هنا بالمؤتفكة، وفي سورة براءة [٧٠] بالمؤتفكات، وكذا في سورة الحاقة [٩] ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾.

والائتفاك: هو الانقلاب، حيث خسف بها جبريل، أي: قلبها فجعل عاليها سافلها، وهذا معنى ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: أسقطها وقلبها عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ۝٤٠﴾ [الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢].

---

(١) يُنظَر: «البحر المحيط» (٨/ ١٧٠) والطبري (٢٢/ ٨٩) وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة.

(٢) قرأ يعقوب بإدغام التاء الأولى في الثانية من (ربك تتمارى) والنطق بتاء واحدة مشددة وهذا في حالة الوصل، فإذا ابتدأ بـ(تتمارى) أظهر التاءين كقراءة الآخرين في الحالين.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ أي: أصابها من الهلاك والدمار ما أصابها، وألبسها ما ألبسها من الحجارة التي وقعت عليها، وغطاها من ألوان العذاب ما غطى، بأن فاضت عليها مياه غمرت بلادهم، فأصبحت بحرًا ميِّتًا لا يُنتفع بمياهه، وجعلها عبرة مشاهدة يراها السابق واللاحق، وهذا العذاب الذي أصابهم لم يعذب الله به أحداً من العالمين، حيث قلب أسفل ديارهم أعلاها وأمطر عليهم حجارة من سجيل، وهذا التهويل والتفخيم الذي اشتملت عليه الآية جاء أيضًا بالنسبة لفرعون وقومه، فقال تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]. أي شيء عظيم لا يمكن وصفه.

ثم تشير هذه الآية إلى ما سبق في السورة من النعم والنقم؛ لأن في النقم عظات للمتعظين، وعِبَرًا للمعتبرين، فهي نعم بهذا الاعتبار، وقد مرَّت في السورة نِعَمٌ خاصة بالنبي ﷺ فيما يتعلق بالوحي والمعراج، ونِعَمٌ للناس جميعًا من ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ إلى ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ إلى جوار النقم التي فيها مصارع المكذبين.

فبأي نعمة من هذه النعم أيها الإنسان المكذِّب تشُكُّ وتتردد؟ إنك لا تستطيع التشكك في واحدة منها، ولا في غيرها من نعم الله تعالى، فهي نعم ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ولا يدفع النقم إلا الله سبحانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن].

إِنْذَارٌ وَتَحْذِيرٌ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٥٦-٥٨- ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾

أي: أنّ هذا النبي القرشي الهاشمي، محمد بن عبد الله، ليس بدعًا من الرسل، فقبْلَه رُسل كثيرون، دعوْا إلى ما دعا إليه من التوحيد والعبادة، وقد قرُبت الساعة، فإذا أتت وجاءهم العذاب الموعود به فلا مرد له من ا لله ولا دافع يدفعه.

وبعد ذكْر ما لحق بالأمم المكذبة لرسل الله من عذاب، حذَّر سبحانه أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة أن يحلَّ بهم مثل ما حل بغيرهم، فقال: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ أي: هذا محمد ﷺ جاء لكم بالقرآن أيها الناس، لينْذركم ويخوفكم عذاب الله إن لم تؤمنوا بالنبي الخاتم، وقد أنذركم بالحق الذي أنذر به الأنبياء قبله، وهذا معنى ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ فدعْوتُه لكم

من جنس الدعوات السابقة، والنذُر الجامعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

فهو سبحانه يخبركم بما أخبر به الأنبياء قبل محمد ﷺ من الأمم السابقة.

فاحذروا مخالفة رسول الله؛ لأن مخالفته تؤدي بكم إلى الهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وفي الحديث: عن أبي موسى ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**أنا النذير العريان**»[1] أي: الذي أعْجلَه شدة ما عاين من الشر فبادر إلى إنذار قومه، فجاءهم عريانًا مسرعًا.

ثم إن المنذَر به قد دنا واقترب وقته، فقيام الساعة قد اقترب، وانتهاء الدنيا قد اقترب ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ أي اقتربت الساعة، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وقال سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] وقال أيضًا: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج] وسميت آزفة لقرب وقتها.

وليس بإمكان أحد أن يدفع أو يمنع قيامها، ولا يستطيع أحد أن يكشف ما فيها من ضرٍّ وعذاب غير الله سبحانه، ولا يطَّلع على وقت قيامها إلا الله سبحانه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: ليس من دون الله من يكشف وقتها ويَعْلَمه، فمجيئها محقق، والله وحده هو الذي يعلم وقت وقوعها ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فهو سبحانه القادر على كشفها، ولكنه لا يكشفها لأحد، وهو القادر على رفع ما يلحق بالناس من عذاب يومها، ولا يقدر على كشف هذا العذاب إلا هو.

وفي الحديث: عن سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مَثَلي ومَثَلُ الساعة كهاتين**» وفرَّق بين الوسطى والإبهام[2].

ثم قال: «**مَثَلي ومَثَلُ الساعة كمثل فَرَسَيْ رهان**»[3].

---

(١) من حديث أبي موسى في صحيح البخاري (٦١١٧).

(٢)، (٣) «المسند»: (٥/ ٣٣١). وهو عن سهل بن سعد برقم (٢٢٨٠٩) قال محققوه: إسناده صحيح وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢٢٠).

ذَمُّ مَنْ لَمْ يَخْشَعْ قَلْبُهُ بِالْقُرْآنِ فِي إِنْكَارَاتٍ أَرْبَعَةٍ

٥٩-٦١- ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾

ثم أشار سبحانه إلى من كذَّب بهذا القرآن، فتعجَّب منه في **أربعة أشياء** إنكارًا عليه؛ ووعيدًا له بسوء المصير، وهذه الإنكارات الأربع هي:

الإنكار الأول: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ وهو القرآن، وما جاء فيه من وعد ووعيد، وأوامر ونواهٍ وهو أشرف الكلام وأفضله ﴿تَعْجَبُونَ﴾ أيها المكذبون من أن يكون هذا القرآن صحيحًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الواقعة].

إن الذي ينبغي التعجب منه هو عقولكم وضلالكم، أما القرآن فهو أصدق الحديث، من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

الإنكار الثاني: ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ عند سماعه تهكُّمًا وسخرية واستهزاء منه ومما جاء فيه.

وهو الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون.

الإنكار الثالث: ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خشية من الله تعالى، وخوفًا من عذابه، وكان عليكم أن تبكوا من زواجره ووعيده بدل الدمع دمًا، حُزنًا على ما فرطتم في جنب الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

وكان عليكم أن تزدادوا إيمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

في حديث سعد بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن هذا القرآن أُنزل بِحَزَن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا**»[١].

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

الإنكار الرابع: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾

أي: وأنتم غافلون لاهون معرضون عن القرآن، رافعون رؤوسكم تكبُّرًا.

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ٤٢٤) برقم (١٠٥٦) وفي إسناده ضعف.

والسمود: بلغة حمير، هو الغناء، ومنه قول بعضهم لجاريته: اسْمُدِي لنا، أي: غنِّي لنا.

فيكون المعنى: وأنتم فرحون بأنفسكم تتغنون بالأغاني لقلة الاكتراث، وعدم الاحترام لما تسمعون من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

وإذا كان هذا شأن المكذبين بالقرآن فإن شأن المؤمنين به هو الخضوع والعبادة:

٦٢- ﴿فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾

هذا أمر من الله تعالى في خاتمة السورة بالخضوع له سبحانه، والكف عن تكذيب رسوله ﷺ، وعن إعراضهم عن القرآن؛ لأن ذلك استخفاف بحق الله تعالى، وكان عليهم أن يتدبروا القرآن، وينظروا في دلائل صدق النبوة.

فالمراد بالسجود في الآية: إما الخشية والسكينة، وإما سجود الصلاة، بأن يدخلوا في الإسلام، والصلاة أهم شعائره ﴿فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾ أي: أخلصوا له العبادة، واتركوا ما أنتم عليه من كفر وضلال، واعبدوا الله وحده، واتركوا عبادة اللَّات والعُزَّى ومناة والشعرى، فإن السجود والعبادة والخضوع لا تجوز إلا للواحد الأحد، الفرد الصمد، وسلِّموا أموركم لله وحده، وهذه الآية سجدة عند بعض أهل العلم.

ففي سنن ابن ماجه بإسناد ضعيف عن أبي الدرداء ﷺ قال: سجدت مع النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة، ليس فيها من المفصَّل شيء[١].

وبهذا أخذ المالكية فلم يعدوا سجدات المفصل، وهو مبنيٌّ على دليل غير صحيح.

وعن أُبَيِّ بن كعب ﷺ قال: كان آخر فعل النبي ﷺ ترك السجود في المفصل.

وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ لم يسجد في المفصل منذ تحول إلى المدينة.

قالوا: وكان الأمر بالسجود في سورة النجم مُذكِّرًا للمشركين بالسجود لله تعالى، فسجدوا مع النبي ﷺ، ثم نُسخ السجود فيها بعد ذلك فلم يُرْو عن النبي ﷺ بعد الهجرة[٢].

تم تفسير (**سورة النجم**) ولله الحمد والمنة.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٠١) وقال: إسناده واهٍ، وابن ماجه (١٠٥٦) بتضعيف الألباني (١/ ٣٣٥).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ١٦٢). وانظر بعض هذه الأحاديث في مقدمة السورة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَمَرِ(٥٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (القمر) هي السورة الرابعة والخمسون في ترتيب المصحف، والسابعة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الطارق) وقبل سورة (ص).

وتسمى سورة القمر، وسورة ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، لورودهما في الآية الأولى منها، وبالأول ترجم لها الترمذي، وبالثاني ترجم البخاري.

وهي خمس وخمسون آية باتفاق أهل العدد، وثلاث مئة واثنتان وأربعون كلمة، وألف وأربع مئة وثلاثة وعشرون حرفًا.

وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم ثلاث آيات، هي: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

قيل: إنها نزلت يوم بدر، ولعل الصحيح أن النبي ﷺ تلاها يوم بدر ليستشهد بها، وكانت قد نزلت قبل ذلك، ويؤيده قول عمر ﷺ إنه لم يكن يدْري ما معنى ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ حتى فَهِم تأويلها يوم بدر.

وكان نزول سورة القمر سنة خمس قبل الهجرة، ففي الصحيح: عن عائشة ﷺ قالت: أُنزِلَ على محمد بمكة، وإني جارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾[1].

وكانت عائشة ﷺ قد عُقد عليها في شهر شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، أي: في أواخر سنة أربع قبل الهجرة، وكانت سنها يومئذ نحو ست سنوات، وكان انشقاق القمر سنة خمس قبل الهجرة غالبًا.

قال ابن عباس ﷺ: كان بين نزول آية ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ وبين بدر سبعُ سنين.

وفي حديث أبي واقد الليثي ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة،

---

(١) البخاري برقم (٤٨٧٦، ٤٩٩٣).

في الفطر والأضحى[١].

أحاديث في إنشقاق القمر:

وانشقاق القمر أمرٌ متفقٌ عليه بين العلماء، وأنه وقع في زمن النبي ﷺ، وكان إحدى معجزاته، **ومن الأحاديث الواردة في ذلك:**

١- ما رواه أنس بن مالك ﷺ قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة فرقتين، فنزلت: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ إلى ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾[٢].

٢- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: انشقَّ القمر على عهد النبي ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، سحَرَكم، فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به السُّفَّار، فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فجاء السُّفَّار فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأينا، فأنزل الله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[٣]، وابن أبي كبشة:

أ- رجل من خزاعة عَبَدَ كوكب الشعرى، وخالف قريشًا في عبادة الأوثان، فشبَّهوا النبي ﷺ به في مخالفة عبادتهم.

ب- وقيل: إنه كان جد النبي ﷺ من جهة أمه.

جـ - وقيل: إن أبا كبشة كنية زوج حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ.

٣- وعنه ﷺ قال: انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتيْن، حتى نظروا إليه، فقال ﷺ: **«اشهدوا»**[٤].

---

(١) «المسند» (٥/ ٢١٨) برقم ٢١٨٩٦، ٢١٩١١) حديث صحيح، (محققوه) والموطأ (١/ ١٨٠) وعبدالرزاق (٥٧٠٣) ومسلم (٨٩١/ ١٤) و«المستدرك» (٢/ ٤٦٥) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وابن ماجه برقم (٨١٦). وأبوداود برقم (١١٥٤) والترمذي برقم (٥٣٤) وابن حبان (٢٨٢٠).

(٢) الترمذي (٣٢٨٦) وعبد الرزاق (٢/ ٢٥٧) و«المسند» (١٢٦٨٨، ١٣١٥٤) ومسلم (٢٨٠٢/ ٤٧) والبيهقي (٢/ ٢٦٢) وغيرهم.

(٣) الطبري (٢٢/ ١٠٦) وأبو نعيم (٢١١) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٦٦) وهو في البخاري (٣٦٣٦) وغيره ومسلم (٢٨٠٣).

(٤) «أسباب النزول» للواحدي ومسند الطيالسي برقم (٢٩٥) بنحوه. وهو في البخاري (٣٨٦٩) ومسلم (٢٨٠٠) والترمذي (٣٢٨٥) وابن حبان (٦٤٩٥) وأحمد (١/ ٣٧٧).

٤- وعن أنس ﷺ أيضًا قال: انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»[(١)]، وعن ابن عمر بنحوه[(٢)].

٥- وعن أنس ﷺ: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقَّتَيْن حتى رأوا حراء بينهما[(٣)].

٦- وفي رواية عنه ﷺ قال: فانشقَّ القمر بمكة مرتين[(٤)].

٧- وقال ابن عباس ﷺ: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ[(٥)].

٨- وعن ابن مسعود ﷺ قال: خمس قد مضيْن: الدُّخَان، والقمر، والروم، والبطشة، واللزام ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[(٦)] [الفرقان: ٧].

٩- وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: رأيت القمر وقد انشق، فأبصرت الجبل من بين فُرْجَتِي القمر[(٧)].

وهكذا سجلت السورة مكابرة المشركين وعدم تصديقهم بمعجزات النبي ﷺ، وأمرتْه بالإعراض عنهم وعدم الاكتراث بهم، وأنذرتهم باقتراب الساعة، وما يلقونه فيها من عقوبات بسبب تكذيبهم بصاحب الرسالة الأخيرة، وذكَّرتهم بما حدث لأمثالهم، وأنذرتْهم بعذاب دنيوي قريب، وأعلمتهم بأن الله تعالى محيط بهم وبأفعالهم، ومجازيهم بالسوء سوءًا وبالإحسان إحسانًا.

وكررت آيات السورة التنويه بشأن القرآن الكريم في فواصل القصص:
قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) البخاري بأرقام (٣٦٣٦، ٣٨٣٩، ٤٨٦٤) ومسلم برقم (٢٨٠٠) والترمذي (٣٢٨٧) والطبري (٢٢/ ١٠٥).
(٢) مسلم برقم (٢٨٠١) والترمذي برقم (٣٢٨٨) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٦٧) والحاكم (٢/ ٤٧٢) وأبو نعيم (٢٠٨).
(٣) البخاري برقم (٣٦٣٧، ٤٨٦٧، ٤٨٦٨) ومسلم برقم (٢٨٠٢) والطبري (٢٢/ ١٠٥).
(٤) «المسند» (٣/ ١٦٥) ومسلم برقم (٢٨٠٢).
(٥) البخاري برقم (٤٨٦٦).
(٦) البخاري برقم (٤٧٦٧) واللفظ له، وانظر (١٠٠٧) و«صحيح مسلم» (٢٧٩٨).
(٧) «المسند» (٧/ ٣٩) (٣٩٢٤) والطبري (٢٢/ ١٠٦) والحاكم (٢/ ٤٧١) قال محققو «المسند»: حديث صحيح.

وفي نهاية كل مشهد من مشاهد تعذيب المكذبين يأتي هذا التهديد ولفت النظر للاعتبار ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ وفي كل مشهد من مشاهد العذاب السبعة يتناثر الرعب والفزع والهول في سرعة تزلزل القلوب كأنها سياط تقصم الظهر وتأخذ بالأنفاس.

وكان النبي ﷺ يقرأ بسورة القمر مع سورة قاف في المحافل الكبار؛ لاشتمالها على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة، وتحتوي سورة القمر على موضوعات السور المكية:

١- فتبدأ بمعجزة انشقاق القمر لإثبات جانب الوحي والرسالة للنبي ﷺ، وموقف المكذبين منها.

٢- وتتكلم السورة عن جانب البعث ومشاهد القيامة في أولها وآخرها، من الآية السادسة إلى الآية الثامنة، ومن الآية السادسة عشرة إلى الآية الخامسة والخمسين وهي نهاية السورة.

٣- وما بين ذلك من الآية التاسعة إلى الآية الثانية والأربعين تتحدث عن مصارع خمسة من المكذبين لرسل الله في الأمم الغابرة، في عرْض سريع لمصارع قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وفرعون وملئه.

٤- ومن الآية الثالثة والأربعين وما بعدها تتحدث آيات السورة عن عقاب الطغاة ونعيم المتقين، والإنذار بقيام الساعة، والإخبار عن وقوع قتال في المستقبل يُهْزَم فيه الكفار في الدنيا، ولهم عذاب أشد في الآخرة.

وفي السورة غرْسٌ لعقيدة التوحيد في نفوس المؤمنين، ووعيد لمن كذَّب بخاتم الرسل ﷺ ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾.

وهكذا كل أمة ضالة سوف تلقى مصيرًا مؤلِمًا ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١].

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

مُعْجِزَةُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ فِي مِنَى لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ خَمْسٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ

١- ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾

تبدأ السورة بالموعظة المشتملة على معجزة انشقاق القمر، وتجعل ذلك وسيلة للتذكير بقيام الساعة، حتى يتضاءل تعلُّق النفوس بالدنيا، ويفكِّر الناس فيما بعد الموت، فيُنصِتوا لداعي الهدى، وتتهيأ قلوبهم لقبول الحق، وتستعد للعمل لما بعد الموت، وفي هذا اغتنام الفرصة للموعظة والتذكير، وكم يكون مثل هذا الانتهاز سببًا لإيمان القلوب القاسية، وإذا تأمل العبد آية انشقاق القمر ازداد تأييدًا لِصدْق النبي ﷺ، وكان ذلك سببًا لإيقاظ القلوب، وإحياءً للإيمان في النفوس.

وكان كفار مكة قد تحدّوا النبي ﷺ، وقالوا له: إن كنت صادقًا فشُق لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان به إن فعل، وكانت ليلة بدر من الشهر، فسأل النبي ﷺ ربه أن يؤيده بما طلبوا، فانشق القمر نصفين: نصفًا على جبل الصفا، ونصفًا على جبل قعيقعان المقابل له، حتى رأوا جبل حراء بينهما، فلما رأوا ذلك قالوا: سحَرنا محمد، ثم قالوا: إن كان قد سحَرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي، فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا، فجاؤوا فأخبروا بانشقاق القمر، فقال أبو جهل والمشركون: هذا سحر دائم مطرد، ونزلت الآيات.

وفي حديث محمد بن جبير قال: انشق القمر[1] على عهد رسول الله فرقتين: فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا

---

(١) يُنظَر: حديث جبير بن مطعم في «المسند» (٢٧/ ٣١٤) (١٦٧٥٠) بسند ضعيف كما قال محققوه، لأن السُّلَمى لم يسمع من محمد بن جبير، وأخرجه الترمذي (٣٢٨٩) والطبري (٢٢/١٠٩) والحاكم (٢/ ٤٧٢) والبيهقي (٢/ ٢٦٨) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٦٢٢) وأبو نعيم في «الدلائل» (٢٠٩). قلت: ولهذا الحديث أصل في الصحيحين دون قولهم: (سحرنا محمد) عن عبدا لله بن مسعود برقم (٤٨٦٤) في البخاري و(٢٨٠٠) في مسلم، قال: (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال ﷺ اشهدوا).

يستطيع أن يسحر الناس كلهم. وقد مرّت أحاديث انشقاق القمر في مقدمة السورة.

وقد اشتملت الآية الأولى من السورة على أمرين:

أحدهما: اقتراب قيام الساعة. **وثانيهما**: معجزة انشقاق القمر.

الشق الأول من الآية:

واقتراب قيام الساعة، هو الحدث الأكبر، الذي تهتز له القلوب، وتُدْهَش له العقول، ويحتار فيه الوجدان، ومعنى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ قَرُب وقت حلول القيامة، ودنا زمان قيامها.

وسميت القيامة بالساعة؛ لوقوعها بغتة، ولسرعة ما فيها من الحساب؛ أو لأنها على طول يومها، فهو قدر يسير عند الله تعالى، خفيف على المؤمن.

وقد وردت أحاديث تبيِّن أن ما بقي من الدنيا قدر يسير بالنسبة لما مضى منها، وأن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة، إذ هو ﷺ آخر الرسل، ولا نبي بعده.

والمرء في هذا المعنى ينظر إلى عُمْر الدنيا ولا ينظر إلى عُمْر نفسه.

خطب النبي ﷺ في أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغْرُب، فقال: **«والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى»**[(١)].

٢- وعن سهل بن سعد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«بُعثت أنا والساعة هكذا، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى»**[(٢)].

٣-وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش، يقول: **«صبحكم ومسَّاكم»** ويقول: **«بعثت أنا والساعة كهاتين»**، ويقرُن بيْن أصبعيه: السبابة والوسطى[(٣)].

---

(١) أخرجه البزار عن أنس كما في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣١١). وهو عن أبي سعيد عند أحمد والترمذي والحاكم بإسناد ضعيف كما في ضعيف الجامع (١٢٤٠).

(٢) أخرجه الشيخان: البخاري برقم (٦٥٠٣) ومسلم برقم (٢٩٥٠) وانظر «المسند» (٥/ ٣٨٨) برقم (٢٢٧٩٦، ٢٢٨٣٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) بلفظ (كهذه من هذه).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٨٦٧).

وبمثل افتتاح سورة القمر، افتُتحت سورة الأنبياء: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ وهكذا سورة النحل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾.

ولفظ ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ أبلغ من قرُبت، كما تقول: اقتدر أبلغ من قدر، ومعناه: أنها قربت دون تحديد.

واقتراب الساعة باعتبار نسبة ما بقي من عمر الدنيا بعد البعثة المحمدية إلى ما مضى.

والمقصود بافتتاح هذه السور الثلاث: تذكير الناس بقرب قيام الساعة؛ ليعملوا لما بعد الموت، وحثهم على الاستعداد ليوم الحساب بإخلاص الإيمان والعمل الصالح لله تعالى، عن طريق التذكير بأهوال يوم القيامة.

الشق الثاني من ا لآية:

أما الشق الثاني في الآية، وهو انشقاق القمر في قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ فإن هذا لفظ قرآني صريح في وقوع انشقاق القمر بالفعل في الزمن الماضي، إلى جوار أحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة في انشقاق القمر، وقد ذكرنا بعضها في مقدمة السورة عن جماعة من الصحابة ﷺ منهم: علي بن أبي طالب، وأنس، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وحذيفة، وجبير بن مطعم، ومنهم من لم يشهد انشقاق القمر، ولكنه لم يتكلم إلا عن يقين.

قال السبكي: الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر، منصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى، لا يُمترى في تواتره[(١)].

فهو خبر مستفيض، تدل جميع رواياته على أن انشقاق القمر معجزة حصلت لرسول الله ﷺ في الدنيا، وهذه المعجزة رآها النبي ﷺ والمسلمون والكفار، وليس عند المنكِر إلا الاستبعاد، ولا يمكنه أن يأتي بدليل على استحالته.

فعن ابن مسعود ﷺ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى فانشق القمر[(٢)].

أي: إن هذه المعجزة حدثت في منى، وكما حدَّد هذا الأثر مكان انشقاق القمر، فقد

(١) قول السبكي عن «التفسير الوسيط» للشيخ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر (١٤/ ٩٧).

(٢) في رواية الترمذي بتصحيح الألباني رقم: (٢٦١٩).

جاء في السيرة الحلبية تحديد زمانه، وأنه كان ليلة أربع عشرة من ذي الحجة، آخر أيام النفْر من منى.

وفي هذه الليلة اجتمع المشركون بمنى، وفيهم: الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، فسأل هؤلاء الثمانية رسول الله ﷺ، قالوا: إن كنت صادقًا فشُقَّ لنا القمر فرقتين، فانشق القمر[١]، فقال لهم النبي ﷺ: «**إن فعلتُ تؤمنوا**»؟ قالوا: نعم، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما سألوا. فأمسى القمر قد مُثِّل نصفًا على أبي قبيس، ونصفًا على قُعيْقعان -جبل بمكة- ورسول الله ﷺ ينادي: «**يا أبا سلمة بنَ عبد الأسود، والأرقمَ بن أبي الأرقم**»، فشهدوا[٢].

وكان ذلك سنة خمس قبل الهجرة، حيث دعا النبي ﷺ ربه فأجابه، وأراهم تلك الآية.

كما حددت بعض الروايات هيئة انشقاقه.

ففي رواية ابن مسعود ﷺ[٣] أن القمر انشق فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، وقال ﷺ: «**اشهدوا، اشهدوا**».

وفي رواية ابن عباس ﷺ[٤]: نصف على جبل أبي قبيس، ونصف على جبل قُعَيْقِعَان، المقابل له. وفي رواية أنس: حتى رأوا حراء بينهما[٥].

وقد نزلت الآية بعد انشقاق القمر بوقت يسير، وكان القمر قد انشق إلى نصفين، رأى الناس بينهما سوادًا، كأنه قمران.

ولَمَّا رأى المكذبون انشقاق القمر قالوا: هذا سِحْرُ محمد بن أبي كبشة، وفي رواية أنهم

---

(١) عن «تفسير التحرير والتنوير» (١٣/ ١٦٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» من طريق عطاء، والضحاك، عن ابن عباس (٢٠٩).

(٣) في «صحيح البخاري» برقم (٣٨٦٩) بنحوه وانظر صحيح مسلم (٢٨٠٠) وراجع البخاري (٣٦٣٦،٤٨٦٥)، و«تفسير الطبري» (٢٧/ ٥٠).

(٤) عند أبي نعيم (٢٠٩).

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٣٨٦٨)، وانظر (٣٦٣٧،٤٨٦٧) وصحيح مسلم (٢٨٠٢).

قالوا: سَحَرَ محمد القمر، وهو سِحْر معروف معهود فيه بمعنى: الكسوف، ثم قالوا: إن كان محمد سَحَرنا، فهو لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي، فإن أَخْبَروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سَحَر محمد أعيننا، فجاؤوا فأَخْبَروا بانشقاق القمر، فقال أبو جهل والمشركون: هذا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: سحر دائم، وأخذوا يتلقُّون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رَأَوُا انشقاق القمر نصفين، فيكذبونهم.

هل انشقاق القمر ظاهرة فلكية؟

وربما كان هذا الانشقاق بسبب مرور جسم سماوي، حَجَب ضوء الشمس عن وجه القمر، بمقدار ظل ذلك الجسم.

يقول ابن مسعود ﷺ: انشق القمر حتى رأيت الجبل بين فُرْجتي القمر[1].

وقد يكون القمر في بعض المنازل الخاصة به، فيظهر لبعض الناس دون بعض، كما يغيب ويُكْسَف، فيراه بعض الناس دون بعض.

جاء عن ابن عباس ﷺ قال: كُسف القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: سُحِر القمر فنزلت ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ إلى قوله ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[2].

فقد جاء التعبير في هذه الرواية عن الانشقاق بالكسوف، مما يفيد أن الذي حدث هو خسوف نصفي للقمر، حجَب نصفه، وقد عُرفت حوادث من هذا القبيل بالنسبة لأشعة الشمس، ويجوز أن يحدث مثله بالنسبة لضوء القمر على وجه الندرة.

ولا ينافي هذا أن الذي حدث معجزة؛ لأنه تم وقت سؤال المشركين للرسول ﷺ أن يريهم انشقاق القمر، وقد تحداهم بذلك قبل حصوله، ولا سبيل لمعرفة ذلك للرسول ﷺ إلا عن طريق الوحْي لمعرفة أوقات ظواهر التغيُّرات للكواكب.

وقد اختص ظهور ذلك الخسوف النصفي بمكة دون غيرها من العالم؛ لأن أهل مكة تأهبوا لذلك بعد أن أخبرهم النبي ﷺ، أما غيرهم فهم في نوم أو غفلة، بالإضافة إلى

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٧/ ٥١). وأخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٦٥) وانظر الحديث رقم ٩ في مقدمة السورة.

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١١/ ٢٥٠) (١١٦٤٢). وإسناده حسن وله شواهد.

ظلام الليل واختلاف المطالع[١].

وهكذا يخبر سبحانه أن الساعة قد اقترب وقت مجيئها، وأن المكذبين لم يزالوا غير مستعدين لها، ويريهم الله من الآيات ما يدل على صدق صاحب الرسالة فيما جاء به من عند الله عز وجل، ومن هذه الآيات انشقاق القمر فلقتين: فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، وقد رآى المكذبون ذلك بأعينهم ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكنا نسأل القادمين من السفر، فإن أخبرونا أنهم قد رأوْه آمنا، فلما أخبروهم بوقوع ذلك قالوا: إن محمدا سحرنا وسحر غيرنا، وهذا معنى قولهم: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

مَوْقِفُ الْمُعَارِضِينَ لِلدَّعْوَةِ مِنْ مُعْجِزَةِ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ

٢، ٣- ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ[٢]﴾

وهكذا المكذبون للرسالة في كل زمان ومكان، كلما رأوْا دليلًا أو برهانًا يصدِّق صاحب الرسالة ﷺ يُعْرِضون عن تصديقه والإيمان به، فيكذِّبون ويُنْكِرون، ويقولون بعد ظهور الدليل: هذا باطل، وتخرُّصات لا تدوم ولا تصح.

وقيل: إن معنى مستمر: شديد المرارة، أي: هو أمر مستبشع عندنا، مُرٌّ على لَهَواتِنا، لا نقدر على استساغته.

وبعد أن أخبر سبحانه عن حال المعرضين المكذبين للنبي ﷺ في المستقبل، أخبر عن حالهم في الماضي، فقد أخبر جلَّ شأنه في الآية الثانية أن المكذبين إن يروا في الحال أو الاستقبال آية دالة على صدق الرسول ﷺ يعرضوا عنها.

وأخبر في الآية الثالثة أنهم قد رأوْا كثيرًا من الآيات فأعرضوا ﴿وَكَذَّبُوا﴾ النبي ﷺ فيما عاينوه من انشقاق القمر ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في ضلالاتهم وما دعتْ إليه أهواؤهم وزيَّنه الشيطان لهم من التكذيب، فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى لآمنوا من فورهم، واتبعوا

---

(١) يُنظَر: «التحرير والتنوير» مجلد (١٣/ ١٧٠).

(٢) قرأ أبو جعفر بخفض الراء من (مستقر) صفة لأمر وخبر كل مقدر تقديره: بالغوه، والباقون بالرفع خبر كل.

محمدًا ﷺ ولكنهم قصدوا اتباع الهوى، فضلُّوا وأضلوا، قال تعالى ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص]

ثم أخبر سبحانه أن كل شيء له نهاية فقال: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ من الخير والشر، والإيمان والكفر، والهدى والضلال ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: كل أمر سينتهي إلى غاية، من كل شيء كائن وواقع بأهله يوم القيامة عند ظهور الثواب والعقاب، وهذا هو منتهى الأمر، حيث تبيَّن الحق، وظهر أمر النبي ﷺ، وتبيَّن غاية البيان، فكل أمر سيصل إلى آخره، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم ومغفرة من الله ورضوان، والمكذب يتقلب في غضب الله وسخطه، خالدًا مخلدًا في نار جهنم.

قال مقاتل: لكل حديث منتهى وغاية.

وقال قتادة: إن الخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر، وكل أمر مستقر بأهله[1]

وقال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام:٦٧].

وهكذا فإن دعوة النبي ﷺ ستظهر أكثر مما هي عليه في الحاضر، ويعلو شأنها، ويزيد أتباعها، وإن المتبعين لأهوائهم، المختلقين للمعاذير سينخذل باطلهم، ويفتضح أمرهم، وينتقص أتباعهم.

قُلُوبُ الْجَاحِدِينَ لَا تَتَأَثَّرُ بِالزَّوَاجِرِ وَالْمَوَاعِظِ

٤، ٥- ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ[2] النُّذُرُ﴾

ثم بيَّن سبحانه أن قلوب الجاحدين لا تتأثر بالزواجر والمواعظ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ أي: جاءهم من أخبار الأمم الماضية، التي كذبت رسل الله، مع ما أيدهم الله به من المعجزات والخوارق، وكل ما فيه عبرة وعظة، وقد علموا ما حلَّ بالأمم المكذبة لرسل الله من العذاب والنكال، ولكنهم لم يرتدعوا ولم يزدجروا عن ارتكاب

---

(١) «زاد المسير» (٨/ ٨٩).

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء وقفًا من (فما تغني) والباقون بحذفها.

الشرور، وجاءهم من المواعظ والزواجر التي من شأنها أن يتأثر بها كل عاقل، ولكنهم لم ينتفعوا ولم يهتدوا، وجاءهم من الحجج والبراهين ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ما فيه كفاية وردع لهم ولأمثالهم عن كفرهم وضلالهم، بالإضافة إلى أنه قد أحل لهم الحلال، وحرم عليهم الحرام، وأخبركم أيها الجاحدون بما تفعلون وما تذرون، ولم يترك أمرًا فيه لَبس إلا بيَّنه، ونعمة أنعمها الله عليكم، ومع وجود هذه الموانع التي تحول بينهم وبين ارتكاب ما ارتكبوه لمْ يرتدعوا، واستمروا في طغيانهم وجحودهم.

وهذه الأنباء التي جاءتْهم يتضمنها هذا القرآن بما فيه من حِكَم عظيمة بلغت منتهى الغاية في الهداية والبيان، فهي ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ لتقوم الحجة عليهم، فلا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، ولكن ماذا تغني النذُر عن قوم كذبوا بآيات الله وأعرضوا عنها ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ أي: ماذا تنفع الإنذارات والوعود لقوم صَمُّوا آذانهم عن سماع الحق، واستمرُّوا في غيِّهم فلم يتعظوا ولم يهتدوا حتى كتب الله عليهم الشقاء وختم على قلوبهم قال تعالى ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

وقال سبحانه: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

سَبْعَةٌ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٦- ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ[1] إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ[2] ﴿٦﴾﴾

وإذا كان هذا حال المكذبين الجاحدين من أنهم لا ينتفعون بالنذر ولا بالمواعظ والعبر، ولا تغني عنهم شيئًا، ولا حيلة لك في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض والتولى عنهم، فلا تبالِ بهم -أيها الرسول، وأيها الداعية إلى الله تعالى- واتركهم في طغيانهم

(١) قرأ ورش وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (الداع إلى) وقرأ البزي ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها وصلًا ووقفًا، وعلى إثبات الياء يكون المد منفصلًا.

(٢) قرأ ابن كثير بإسكان الكاف من (نكْر)، والباقون بضمها.

وأعرض عن جدالهم، وأمهلهم إلى اليوم الذي يدعوهم فيه الداعي إلى أمر عظيم، تنكره النفوس لعدم عهدهم بمثله، وهو يوم البعث والنشور، حيث يدعوهم فيه إسرافيل، النافخ في الصور، وهو قائم على صخرة بيت المقدس يدعوهم ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي: إلى أمر فظيع منكَر، لا تألفه النفوس، ولا تعرف له مثيلًا، هو يوم الحساب، وهو يوم شديد الأهوال، وقد عدَّد الله تعالى في هذه الآيات سبعة من **أهوال يوم القيامة**:

منها ثلاثة في هذه الآية، واثنتان في الآية التالية، واثنتان في الآية بعدها:

الْأَوَّلُ: نداء إسرافيل، فإنه يؤذِن بحضور الخلق إلى ساحة العرض والحساب.

الثَّانِي: أنه يدعوهم إلى شيء مهول، وخطب جسيم.

الثَّالِثُ: أن يوم القيامة يومٌ تنكره النفوس وتهابه، وتخاف منه.

الرَّابِعُ: أَنَّ أَبْصَارَهُمْ تَكُونُ ذَلِيلَةً خَائِفَةً

٧- ﴿خُشَّعًا[1] أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾

أي: إن أبصار الكفار تنظر من طرف خفي، وهي خاضعة خاشعة ذليلة، كحال الذي لا تثبت حدقة عينه في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح، فإن عزة العزيز وذلة الذليل تظهران في العيون ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ خاضعة منكسرة، لا يستطيعون رفعها من شدة الهول والفزع الذي وصل إلى قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ [الغاشية].

وقال سبحانه: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾ [النازعات]. وقال تعالى يصف حالهم:

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

الْخَامِسُ: تَشْبِيهُ الْمَوتَى حَالَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ بِالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ الْمُكْتَظّ

ويوم القيامة يخرج المكذبون من قبورهم يستتر بعضهم في بعض، من شدة الخوف على كثرتهم، وكثرة تحركهم، وهم في ساحة العرض والحساب، عيونهم ذليلة ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف (خاشعا) مفردًا، والباقون (خُشَّعًا) جمعًا.

﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حين يموج بعضهم في بعض في سيرهم نحو الداعي ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي: وهم لكثرتهم ينبعثون منتشرين في الآفاق، لا يدري الواحد منهم أين يذهب من الخوف والحيرة، فليس لأحد منهم جهة يقصدها.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ٤].

ثم وصف الله حال المجرمين عند خروجهم من القبور بأنهم:

السَّادِسُ: أَنَّهُمْ يَتَوَجَّهُونَ مُسْرِعِينَ نَحْوَ صَوْتِ الدَّاعِي

٨- ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ[1] يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾

مادِّين أعناقهم إلى الأمام، **فالإهطاع**: هو الإسراع في المشي مع مدِّ العنق إلى أعلى، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾ [إبراهيم].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ [المعارج: ٤٣].

فهم لا يتلكئون ولا يتأخرون، وأبصارهم نحو صوت الداعي شاخصة، لا تفارق وجْهته، ولا تلْتفت إلى شيء آخر من شدة الذعر، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور في ساحة الحشر فيلبون دعوته ويسرعون إلى إجابته.

السَّابِعُ: أَنَّهُ يَوْمٌ شَدِيدُ الأَهْوَالِ

ومن أثر ما في نفوس أهل النار من الخوف والذعر ﴿يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: يوم صعب شديد الأهوال، كما قال تعالى:

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدّثر].

وهذا خاص بالكافرين، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة.

ثم عرضت السورة لخمسة من أنباء السابقين الذين أشارت إليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ لتبيِّن أن ما أصاب هؤلاء الأقوام من

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء من (إلى الداع) وصلًا، وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها.

عذاب الاستئصال، كان بسبب عدم انتفاعهم بما جاءتهم به الرسل.

وابتدأت السورة بأول الرسل، نبي الله نوح ﷺ.

الِاعْتِبَارُ بِمَا نَزَلَ بِخَمْسَةِ أَقْوَامٍ مِنَ الْعَذَابِ

الْقِصَّةُ الْأُولَى: قِصَّةُ عَذَابِ قَوْمِ نُوحٍ

٩، ١٠- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾

لمّا ذكرت السورة حال المكذبين لرسول الله ﷺ، وبينت أن الآيات والنذر لم تُجد فيهم، بعد ذلك أنذر الله أمة محمد ﷺ وخوفها بعقوبات الأمم الماضية المكذبة لرسل الله، وبيّن - سبحانه - كيف أن الله تعالى أهلكهم وأحل بهم عقابه، وبدأ بقوم نوح، أول رسول أرسله الله إلى قوم يعبدون الاصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته، ولكنهم أصروا على شركهم وتمادوْا في طغيانهم، وهذه القصة مقصورة هنا على إهلاك قوم نوح وبيان سببه، وتفصيلها في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، ونوح، ويونس، والشعراء، والعنكبوت، والصافات.

فقد كذبت قبل قومك -أيها الرسول- قوم نوح، وقد أُسند التكذيب إلى جميع القوم؛ لأن الذين آمنوا به قلة، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

ولأنهم شافهوه بالتكذيب، واستمر تكذيبهم له إلى أن أنذرهم الله بالطوفان، فلم يتبعوا نوحًا ولم ينضموا إليه أيضًا، فكان تكذيب قوم نوح له شبيهًا بتكذيب المشركين لرسول الله محمد ﷺ، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ ۝﴾ [آل عمران].

وكان التكذيب لجميع الرسل مشوبًا بالبهتان، حيث يتهمونهم بالجنون، والسفه، والضلال، والسحر، والكهانة، وما إلى ذلك، وتتجاوز الأقوال إلى الأفعال، فيعْتدُون عليهم بالضرب والأذى والزجر.

وكان تكذيب الأمم لرسل الله بسبب دعوتهم إلى التوحيد، فالتوحيد هو المهمة الأولى، وهو الأصل والأساس لدعوة كل رسول، وكل رسول جاء يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم

﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: ٥٠].

وقد وصف الله المكذبين من أمة محمد ﷺ أنهم لم يبلغوا معشار ما كان لدى الأمم السابقة من القوة، والعدة، والعتاد، والحضارة ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [سبأ: ٤٥].

وقوم نوح كذبوا نبيهم نوحًا، وكانوا كلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نوحًا، وجحدوا رسالته ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ فنسبوه إلى الجنون، أي: إنه لا يعقل ما يقول، فزعموا أنهم على حق، وأن نوحًا على ضلال، فقلبوا الحقائق، ثم زجروه، وعنفوه كما قال تعالى: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: إنهم انتهروه وتوعَّدوه بأنواع الأذى إن لم ينته عن دعوته، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

فلم يكتفوا بعدم الإيمان به ولا بتكذيبه، بل آذوه وهددوه بالرجم!!

واستمر نوح يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى وعبادته ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، فلم يزدهم ذلك إلا فرارًا منه، وظل يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، وترْك عبادة الأصنام، حتى أخبره الله تعالى بأنه: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وقد بلغ أذاهم لنوح ﷺ مبلغًا كبيرًا، حيث كان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخر مغشيًّا عليه، وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[١].

وهنا دعا نوح ربه وتوجه إليه أن ينصره عليهم، فقال: رب قد غلبني قومي فلم يستجيبوا لي، وإني ضعيف عن مقاومتهم ولا قدرة لي على الانتصار منهم ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ لي بعقاب من عندك على كفرهم بك، فأنت القوي المتين، وأنت نصير المقهورين المظلومين، وقال في الآية الأخرى ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]

يقول الشيخ محمد الغزالي: كنت أسمع هذه الآيات من فم قارئ نديِّ الصوت، وَقَف على كلمة ﴿مَغْلُوبٌ﴾ أطال مدَّ الواو -ست حركات- مليئة بالقهر والضراعة والاستنجاد،

(١) «البحر المحيط» (٨/ ١٧٦).

خُيِّل إليَّ أنها امتلأت بآلام تسعة قرون ونصف، من جهاد الدعوة، وفَشَلِ الاستجابة، ونظرتُ حولي، فرأيتُ الدموع تطفُر من الأعين، رقَّة لعبودية نوح واستغاثته[١].

قال تعالى مجيبًا دعوة نوح ومنتصرًا له من قومه:

١١، ١٢- ﴿فَفَتَحْنَآ[٢] أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا[٣] فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾

أنهى نوح إلى ربه ما انتهى إليه مع قومه في مشواره الطويل، وجهاده الدؤوب، وعمله المتواصل، وما انتهت إليه طاقته وَوُسْعه، فلم تعُدْ لديه طاقة يبذلها، ولم تَبْق له حيلة ولا حيلولة، وما كاد نوح يُسلِّم الأمر لرب الأرض والسماء بطلب الانتصار لدعوته منهم، وما كادت الكلمة تخرج من فمه حتى كانت الإجابة الفورية من رب العالمين: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝﴾ أي: أرسلنا عليهم الطوفان بصورة سريعة، في مطر غزير قوي، يَنْصبُّ بتدفُّق وغزارة، لم تتقدمه سحُب ولا رعد ولا برق، ولم تمطر السماء قبله ولا بعده مثله، مع استمراره أربعين يومًا[٤].

وقد صحَّ في أحاديث الإسراء والمعراج: أن للسماء أبوابًا تُفتح وتُغلق، وهذا المطر المتتابع أسنده الله تعالى إليه، فظاهر الآية يفيد أن يدَ الجبار - سبحانه - هي التي فتحت أبواب السحاب فانهمر منها الماء وتدفق، فهو سبحانه الذي يقول للشيء كن فيكون.

سأل ابنُ الكُوَّاء عليًّا ﷺ عن المجَرَّة فقال: شَرْجُ السماء، ومنها فتحت أبواب السماء بماء منهمر، ثم قرأ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝﴾[٥].

وقال ابن عباس ﷺ: قال كثير: لم تُمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، وفتُحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب في ذلك اليوم، فالتقى الماءان[٦].

---

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٤٢٠ .

(٢) قرأ ابن عامر وأبو جعفر وروح ورويس بخلف عنه بتشديد التاء من (ففتحنا) للتكثير، والباقون بتخفيفها على الأصل، وهو الوجه الثاني لرويس، وهما لغتان.

(٣) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (عِيونًا)، والباقون بضمها.

(٤) «تفسير الخازن» (٤/ ٢٣٠).

(٥) «صحيح الأدب المفرد» (٥٨٩) وابن أبي حاتم عن أبي الطفيل.

(٦) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٤/ ٧٥).

وقال أبو السعود: وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها[١].

هذا هو الماء النازل من السماء، أما الماء المتفجر من الأرض، فيقول تعالى عنه: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: شققنا الأرض عيونًا متفجرة بالماء، وصارت الأرض كلها عيونًا تتفجر بالماء، بنفس القوة والشدة والكثرة التي تنهمر بها من السماء ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ المنهمر من السماء، والمتفجر من الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: على أمر قد قدَّرهُ الله وقضاه في الأزل، فقد تفجرت الأرض كلها بالماء حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فقد نبع فيه الماء مع أنه موضع النار، وهذا الأمر الذي قدَّره الله تعالى وهو إهلاك قوم نوح بالطوفان، كان جزاء لهم على عدم إيمانهم.

واجتماع الماء النازل من أعلى بالماء النابع من أسفل لم يكن بطريق المجاورة، بل باتحاد الماءين واختلاطهما حتى صارا طوفانًا يعمُّ ويطمُّ، يغمرُ وجه الأرض كلها حيث أغرق الله المكذبين، ونجَّى الله نوحًا ومن آمن معه. قال تعالى:

١٣، ١٤- ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾

أي: نجينا نوحًا، وحملناه ومن معه على سفينة مصنوعة من ألواح الخشب والمسامير التي شُدَّت بها، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة].

وقد أمر الله نوحًا أن يدعو ربه بدعاء جاء في هذه الآية: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون].

ثم وصف الله - سبحانه - السفينة التي صنعها نوح ﷺ،ونجاه هو ومن آمن به من الغرق، ممن حملهم معه فيها من أصناف المخلوقات، فقال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تجري هذه السفينة بمرأى منَّا، وبحفظنا وتحت رعايتنا وعنايتنا، فقد نجَّينا المؤمنين وأغرقنا المكذبين.

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٧/ ٧٨٦).

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]

ثم بيَّن سبحانه الأسباب التي أدت إلى نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، وجعلتْهم محل غضب الله تعالى، فقال: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا بنجاته من الغرق جزاءً له على كفرهم به، وانتصارًا لنوح ﷺ، فقد كذبه قومه وكفروا به فصبر على أذاهم واستمر في دعوته لهم، فإنه كان نعمة أنعم الله بها على قومه، فجحدوا هذه النعمة وكفروا بها، وهذا جزاء كفران النعمة.

والذي كُفِر هو نوح ﷺ، فقد كفر به قومه، وكان كفرهم به مدة تسعة قرون ونصف القرن، حيث بدأت دعوته لهم بالرسالة، وفي الآية إثبات العينين لله سبحانه على وجه يليق بجلاله.

١٥، ١٦- ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ[1] ۝١٦﴾

ولقد أبقينا قصة نوح مع قومه وجعلناها عبرة ودليلاً على قدرتنا لِمَن جاء بعد نوح، ليعتبروا ويتعظوا بما حلَّ بهذه الأمة التي كفرت بربها وكذبت رسولها ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ يتذكر بها المتذكرون على أن من كذب الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: هل من معتبر ومتعظ، مشمِّر عن ساعد الجد للعمل بما فيه من أوامر ونواهٍ؟

عن أبي إسحاق أنه سمع رجلًا يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أو (مذكر)؟ قال: سمعت عبد الله يقرؤها: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ دالًا[2].

وعلى هذا التفسير فإن الضمير في ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ يعود على قصة نوح، من نجاة

---

(١) أثبت الياء وصلًا من لفظ (ونذر) في المواضع الستة بالسورة ورش، وأثبتها وصلًا ووقفًا يعقوب، وحذفها الباقون في الحالين، والراء مرققة وصلا، ونرجح تفخيمها وقفا لسكونها بعد ضم والسكون العارض يعتد به وقفا ولا ينظر إلى أصل الكلمة.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٧١) و«صحيح مسلم» برقم (٨٢٣) وأبو داود برقم (٣٩٩٤) والترمذي برقم (٢٩٣٧) و«سنن النسائي» (٢/ ١٥٠) وورد مثل ذلك عن ابن مسعود في البخاري برقم (٤٨٦٩، ٤٨٧٤) و«المسند» (٣٧٥٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٥٥٥) والحاكم (٢/ ٢٤٩) وقراءة الذال، قراءة شاذة، يُنظَر: «مختصر الشواذ» لابن خالويه ص ١٤٨ .

المؤمنين وغرق الكافرين.

ويجوز أن يعود الضمير في ﴿تَّرَكْنَهَآ﴾ على السفينة نفسها، ليدل ذلك على رحمة الله بخلقه وعنايته بهم، بحيث يكون المعنى: أبقينا أثر سفينة نوح وجنسها محفوظة من الانقراض والبِلى، لتكون عبرة وعظة دالة على كمال قدرة الله تعالى وبديع صنعه، تشهدها الأمم الذين أُرسلتْ إليهم الرسل تأييدًا لهم، وتخويفًا بأول عذاب عُذِّبتْ به أول أمة كَذبت رسولها، فكان عذابها حجة دائمة لكل أمة، مِثْلَ هلاكِ ديار عاد وثمود.

وقد أخذت السفينة تتناقص حتى بقي منها أخشاب، شهدها صدر الأمة الإسلامية، وقد تواتر خبر مُشاهدتها من جميع الأمم بعد نوح ﷺ إلى هذا العصر.

ولقد ذكر القرآن أن سفينة نوح استقرت على جبل الجودي، حيث نزل نوح ومن معه منها، وبقيت السفينة هناك لا ينالها أحد، وجبل الجودي يقع قُرب قرية تسمَّى **بَاقَرْدِي** في جزيرة ابن عمر، قرب الموصل، شرقيَّ دجلة، عند ملتقى الحدود السورية التركية حاليًا، ويُرى جبل الجودي بوضوح من بلدة (عين دِيوار) السورية.

وفي صحيح البخاري، قال قتادة: لقد شهدها صدر هذه الأمة[(١)].

وعند الطبري عن قتادة قال: أبقاها الله بباقَرْدِي من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رمادًا.

وقد نقلت وكالات الأنباء يوم الأربعاء ١٣/٩/٢٠٠٠م أنه تم العثور على مدن كاملة مغمورة في قاع البحر الأسود، وقال العلماء المكتشفون: إنها تثبت الطوفان كما ورد في الكتب المقدسة،وذكرت ذلك الخبر هيئات الإذاعة البريطانية بعد أن بثت الفضائيات صوره[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[(٣)] [العنكبوت: ١٥].

---

(١) كما أخرجه عبد الرزاق (٢/٢٥٨) وعبد بن حميد وابن جرير (٢٢/١٢٨).

(٢) ينظر: أطلس القرآن الكريم ص٢٧ د/ شوقي أبو خليل.

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/١٨٦).

وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

ثم يأتي استفهام تعجُّبيٌّ، يوقظ القلوب الغافلة إلى هول العذاب وصِدْق النذير: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ[1] ﴿١٦﴾﴾ أي: كيف كان عذابي وإنذاري لمن كفر بي وكذَّب برسلي، ولم يتعظ بما جاءت به؟! لقد كان عذابهم أليمًا، ولم يبق لأحد منهم حجة.

وفي هذا تعريض بتهديد كل من كذَّب بالنبي الخاتم ﷺ أن يصيبهم عذاب أليم جزاء تكذيبهم لرسول الله، كما أصاب قوم نوح عليه السلام. قال تعالى:

١٧- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

ثم نوَّه الله تعالى بشأن القرآن، وبيَّن أنه من عند الله، وأن الله تعالى سهَّله ويسَّر حفظه وتلاوته وفهمه، ويسَّر تذكُّر الخلق بما يحتاجونه من التذكير بكل ما فيه من هُدًى وإرشاد.

وفي هذا تبصير للمؤمنين ليزدادوا إقبالًا عليه سبحانه، وفيه تعريض بالمكذبين، لعلهم يُقلعون عن صدِّهم وإعراضهم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ سهلنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، وسهلنا معانيه للفهم والتدبر لمن أراد أن يتذكر ويعتبر.

والله تعالى يدعو عباده إلى الإقبال عليه ويقول: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هل من متعظ به، عامل بما فيه؟ وهل من طالب علم فيُعان عليه؟ وفي هذا حث على تعليم القرآن والاشتغال به؛ لأن الله تعالى قد يسَّره وسهَّله على من يشاء من عباده، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربي والعجمي، وغيرهم.

قال سعيد بن جبير: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كتب الله تعالى يُقرأ كله ظاهرًا -أي يُحفظ كله عن ظهر قلب- إلا القرآن[2].

---

(١) هذه الكلمة أصلها (ونذري) فحذفت منها الياء، ونظرًا لهذا الحذف فقد رآى بعض علماء التجويد ترقيقها وقفًا ولم يعتدوا بالسكون العارض، واعتد آخرون بالسكون العارض فقالوا: إنها مفخمة لأنها ساكنة بعد ضم، والقاعدة تقتضي التفخيم، وهذا في المواضع الستة في هذه السورة.

قلت: ولعل التفخيم أرجح لأن السكون العارض للوقف يغير حكم الراء من الترقيق إلى التفخيم والعكس، كما في (والعصر) فهي مرققة وصلا مفخمة وقفًا.

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ٢٠٥).

ومع أن الرسم العثماني يخالف الرسم الإملائي في كثير من القواعد، إلا أننا نجد بعض الصبيان يحفظون القرآن كله في التاسعة من أعمارهم ونحوها، وكثير منهم يُحْسن تلاوته من المصحف، وكذا العُميان، وغير الناطقين بالعربية ممن لا يكتب اسمه، ولا يعرف النطق بالعربية، ولكنه يقرأ القرآن كله في المصحف قراءة صحيحة، كما نجد من عوام المسلمين العرب مَنْ هو أميٌّ، ولكنه يجيد قراءة القرآن من المصحف لكثرة إلْف حروفه ورسمه وألفاظه، وهو لا يعرف أن يكتب اسمه؛ وذلك لأن الله تعالى سهَّل فهم القرآن ويسَّره، ويكفي أن تقرأ النص لتتعظ كل الاتعاظ بما لا يُغني عنه شرح مهما كان.

وقد جاءت هذه الآية في أعقاب قصة كل من: نوح، وهود، وصالح، ولوط ﷺ للاعتبار والاتعاظ بكل قصة منها، بما يناسب موضوع القصة، والملاحظ أن القصص في هذه السورة تقتصر على جانب التذكير بعاقبة أهل الضلال والعناد في إيجاز شديد، و بيان مصارع المكذبين بما يناسب موضوع السورة، وهو قيام الساعة، وما فيها من نعيم وعذاب.

الْقِصَّةُ الثَّانِيَةُ: قِصَّةُ عَذَابِ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ

١٨، ١٩- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾

أرسل الله هودًا ﷺ إلى القبيلة التي سميت باسم جدِّها عاد، وكانوا يسكنون الأحقاف من الربع الخالي في جنوب الجزيرة العربية، وكانوا قومًا يعبدون الأصنام، فأرسل الله تعالى إليهم نبيّه هودًا ﷺ، فدعاهم إلى توحيد الله تعالى، فكذبوه واتهموه بالسفه والجنون.

والقصة هنا تقتصر على ما لحق بالمكذبين به من عذاب، وقد مرَّت القصة أكثر تفصيلًا في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والأحقاف.

وقبيلة عاد كانت قبيلة مغرورة متكبرة، آتاها الله بسطة في الأموال والأجسام، فلم تستح أن تصف نبيَّها بالسفاهة، وهو يدعوهم إلى توحيد الله! قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

ولذا فإن الله تعالى يبدأ بذكْر تكذيبهم له، وقبل أن تفرغ الآية يَلْحقها الاستفهام

التعَجُّبي من عذابهم ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ نبيهم هودًا ﷺ، فعاقبنا المكذبين له باستئصال شأفتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ أي: كيف كان عذابي لهم على كفرهم؟ وكيف كان إنذاري لهم على تكذيب رسولهم وعدم الإيمان به؟

ثم وصف الله سبحانه ما حلَّ بهم من دمار وهلاك، بأن أرسل عليهم ريحًا عاتية في يوم كله شؤم وعذاب، واستمر هلاكهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة.

أي: أرسلنا عليهم ريحًا شديدة الهبوب، شديدة البرودة، ذات صوت عالٍ، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت].

وقال سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات].

وقد استمر عذاب قوم هود ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] فوُصفت هذه الأيام بأنها أيام حاسمة، وأنها أيام نَحْس وشُؤم عليهم، استمرَّ فيها عذابهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ فقد استمر عليهم نحسه ودماره، حتى اتصل عذاب الدنيا بالآخرة، ثم وصف الله هذه الريح بأنها:

٢٠، ٢١- ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾

أي: وكانت هذه الريح تقتلع الناس من مواضعهم على الأرض فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم إلى الأرض، فترمي بهم وهم منكَّسون على رؤوسهم فتدق أعناقهم، وتَفْصِل رؤوسهم عن أجسادهم، فتتركهم كالنخل المنقطع من أصله، كما قال تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾ تقتلع رؤوسهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أي: كأنهم أصول نخل قد انقطعت من مغارسها على الأرض، وشُبِّهوا بالنخل لطول أجسامهم وضخامتهم، وقد كانت الريح تأتي على أحدهم فترفعه حتى تغيِّبه عن الأبصار، ثم تنكِّسه على أم رأسه، فيسقط على الأرض، فتنقلع رأسه، فيبقى جثة بلا رأس، فما أهون الخلق على الله إذا عصَوْا أمره؟

ولتهويل ما حلَّ بهم من عذاب، والتعجب من أمرهم، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لهم ﴿وَنُذُرِ﴾ أي: وإنذاري إياهم، ألم يكن شيئًا فظيعًا؟! والنذارة لا تُبقي لأحد على الله حجة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر].

إن هذه الريح التي دمَّرت كل شيء بأمر ربها، ولم تُبقِ إلا مساكنهم، هي جند من جند الله، وقوة من قوى هذا الكون يسلطها الله على من يشاء من عباده، لقد كانت الريح العقيم تَجْلِد الأرض بأجسام هؤلاء العماليق، أو تَجْلِد أجسادهم بالأرض، فإذا هم مُمَدَّدُون على الثَّرى، كجذوع النخل التي طاحت رؤوسها، لقد هلك قوم نوح بالماء، وهلك قوم هود بالهواء، والماء، والهواء من نعم الله الكبرى على كل الكائنات الحية، فلا حياة لها بدونهما، ولكن الله تعالى إذا شاء أغرق بالماء، ودمَّر بالهواء.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨].

وتُختم القصة بما خُتمت به نظائرها في السورة:

٢٢- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾

وهذا التكرار يراد منه: التأكيد والتحريض وتنبيه الأنفس، ومثله قوله ﷺ في حجة الوداع: «**ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟**»[1] وقوله ﷺ: «**ألا وقول الزور، وشهادة الزور**» ومازال يكررها حتى قال الصحابة: ليته سكت[2]، وهو من أساليب البلاغة والتركيز الإعلامي.

الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ: قِصَّةُ قَوْمِ ثَمُودَ مَعَ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عليه السلام

٢٣، ٢٤- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤﴾

وكانت قبيلة ثمود قد خلفتْ قبيلة عاد في القوة والتمكين في جزيرة العرب، وكانت عاد في جنوب الجزيرة، وثمود في الشمال، في أرض الحِجْر، بمدائن صالح، ولم تعتبر ثمود بمصارع المكذبين من قوم عاد، وكان الله سبحانه قد ذكَّر بهذا في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ

---

(١) من حديث سليمان بن عمرو عن أبيه في سنن النسائي الكبرى (٤٠٨٥، ٩١٢٤، ١١١٤٩) وعند أبي داود (٣٣٣٤) وابن ماجه (١٨٥١) والترمذي (١١٦٣) وفي المسند (٢٠٦٩٥) عن أبي حُرّة الرقاشي عن أبيه وهو حديث صحيح لغيره كما قال محققوه.

(٢) من حديث عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه في البخاري (٥٩٧٦) ومسلم (٨٧) والترمذي (١٩٠١).

بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

والقصة هنا مقصورة على بيان نوع تكذيب القوم له، فقد فصَّلته السورة ولم تُجْمله كما سبق في قصة عاد، ثم بيَّنت العذاب الدنيوي الذي كان نتيجة هذا التكذيب، وقد فُصِّلت القصة في سور: الأعراف، وهود، والشعراء، والنمل.

وبدأت القصة هنا ببيان تكذيب قبيلة ثمود لنبيهم صالح، بعد أن دعاهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته، وحذّرهم عقاب الله إن خالفوه، فكذبوه وقالوا له ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ [هود: ٦٢] وقد سقطت من أعيننا بعد أن دعوتنا إلى ترك عبادة آبائنا الأولين.

وتكذيب رسول واحد هو تكذيب لرسل الله جميعًا، ولذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: كذبوا بآيات الله ونذره ومواعظه التي أنذرهم بها صالح ﷺ.

والنُّذُر: جمع نذير، أي: كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم الله بها على لسان رسله، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٥].

وكما قال سبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

ثم فصَّل سبحانه وتعالى مظاهر هذا التكذيب، في تعجبهم أن يكون الرسول بشرًا مثلهم، وهي شبهة قال بها السابقون واللاحقون، فهي شبهة مكررة في الناس جيلًا بعد جيل، وهكذا قالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢].

وماذا في أن يختار الله واحدًا من عباده فيُنزل عليه الوحي؟ والله أعلم حيث يجعل رسالته، وهؤلاء يستنكرون أن يكون الرسول واحدًا منهم، وهم جماعة كثيرة ﴿إِنَّا إِذًا﴾ إن اتَّبعناك يا صالح ﴿لَّفِي ضَلَالٍ﴾ أي: شقاء وبُعْد عن الصواب.

﴿وَسُعُرٍ﴾ قيل: إن السُّعُر هو العذاب، أو شدته، وقيل: هو الجنون، من قولهم: ناقة مسعورة، كأنها من شدة نشاطها مجنونة، وقد أنف هؤلاء أن يتبعوا رسولًا من البشر، ولم يأنفوا من عبادة الشجر والحجر والصور.

والمعنى: أنتبع واحدًا من البشر جاءنا بما يخالف ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا؟! لقد

خبْنا وخسرنا إذا نحن سلَّمنا قيادتنا لواحد منا! وهذا حسد من قوم ثمود لصالح، واستبعاد منهم أن يفضُل بعض البشر على بعض، فقالوا: أنكون جمْعًا ونتَّبع واحدًا؟ ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ويفيض بنور الهدى على من يشاء. قالوا:

٢٥، ٢٦- ﴿أَءُلْقِيَ(١) ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ(٢) غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾

أي: أؤنزل على صالح الوحي، وخُصَّ بالنبوة من بيننا، وهو واحد منا؟ كيف ذلك، وفينا من هو أحق منه؟! فكيف يخصه الله بالرسالة وينزل عليه الذكر؟ وهذا الاعتراض من المكذبين ببشريّة الرسول، وقع من جميع الأمم حيث قالوا لهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبرايهم: ١٠] فردوا عليهم قائلين ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ إبراهيم: ١١] فالرسل قد اختصهم الله بوحيه وزوَّدهم بمؤهلات الرسالة، ثم إن المكذبين ببشريّة الرسول، أَضْرَبوا عن هذا الكلام، وانتقلوا إلى ما هو أقوى منه وأشد، فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ وهكذا وصفُوه بأنه قد تجاوز الحد في الكذب، وأنه متكبر متجبر، يريد العلُوَّ والتعاظم عليهم بادِّعاء النبوة، **والأشر**: هو البطِر المتعالي على الناس.

ثم إنهم سيروْن عندما ينزل بهم العذاب في الدنيا أو الآخرة: مَنْ الكذَّاب المتجبر، هل هو صالح أو قومه المكذبون له؟ ولأن العذاب سينزل بالقوم لا محالة، فإن هذا مما لا يخفى على أحد، ولذلك فإن القرآن أورده مورد الإبهام.

معجزة صالح عليه السلام

٢٧- ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧﴾

ذكر ﷻ في هذه الآية، معجزة الناقة التي أيد الله بها نبيه صالحًا عليه السلام، والتي كانت سببًا في العذاب الذي لحق بقوم ثمود، وكان المكذبون قد سألوا نبيهم صالحًا ﷺ أن يُخرج لهم ناقة حَلُوبًا، عُشراء من صخرة صماء، فإن أجابهم لذلك صدَّقوه وآمنوا به،

(١) سهَّل الهمزة الثانية مع إدخال ألف بين الهمزتين قالون وأبو جعفر، وسهَّلها مع الإدخال وعدمه أبو عمرو، وسهَّلها من غير إدخال ورش وابن كثير ورويس، ولهشام التسهيل مع الادخال، والتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق بلا إدخال.

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة بتاء الخطاب في (سيعلمون)، والباقون بياء الغيب.

ودعا صالح ربه، فأيده بالمعجزة المطلوبة ولكنهم لم يؤمنوا:

والمعنى: إنا مخرجو الناقة التي سألوها من الصخرة، أو الهضبة الحمراء، محنةً واختبارًا لهم، كما شاؤوا وطلبوا، فسنخرجها لهم أمام أعينهم لتكون حجة من الله عليهم للتصديق بنبيهم صالح ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ ترقب -أيها الرسول- وانتظر ما يحصل لهم من الفتنة عند ظهور الناقة وارتقب هل يومنون أو يكفرون؟ ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أي: اصبر على تكذيبهم لك صبرًا لا يعتريه ملَل ولا ضجر، ولا تيأس من النصر عليهم مهما أصابك من أذاهم، وداوم على تبليغ الدعوة لهم. قال تعالى:

٢٨- ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾

أي: وأخبر قومك - يا صالح - أن الماء الذي يمُرُّ بواديهم مقسوم بين القبيلة والناقة، فللناقة يوم تشرب فيه الماء كله لايشاركها فيه أحد،وأنتم تشربون في هذا اليوم من حليب الناقة، فإنه سيكفي القبيلة كلها، ولكم يوم تشربون فيه الماء ولا تشارككم فيه الناقة ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي: يحضر هذا اليوم إلى بئر الماء مَن كانت قسمته حاضرة فيه، ويُحظر على مَن ليس له بقسمة أن يحضر، وقد فُسرت هذه الآية بمثل قوله تعالى:

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء].

ومع أن القوم لم يكن ينقصهم شيء، ولم يصبهم ضرر من جرَّاء هذه القسمة، حيث إنهم يشربون حليب الناقة في يوم قسمة الماء لها فيكفيهم، وهو أفضل من الماء، وأكثر من كافٍ لإروائهم، ولكن القوم شحُّوا بهذه القسمة، فأضمروا قتْل الناقة، فأبلغهم صالح ﷺ أن الله تعالى ينهاهم عن أن يمسوها بسوء. قال تعالى:

٢٩، ٣٠- ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾

أي: إن قوم ثمود أجمعوا على قتل الناقة، فنادوا أشقى القوم، وهو صاحبهم **(قُدار بن سالف)** نادُوه لقتل الناقة، وكان قُدار من سادة القوم وأهل العزة فيهم، جاء في الحديث: **«فانتدب لها رجل ذو منعة في قومه، كأبي زَمْعة»** وهو الأسود بن المطلب بن أسد، فأجاب نداءهم، فرماها بنبل فقتلها، وهو غير مكترث بما فعل ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ أي: تناول الناقة بيده فنحرها بعد أن رماها بالنبل، قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ [الشمس:

١٢] أي: أشقى القوم، وهو قُدار ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: احذروا أن تمسوها بسوء ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ أي: وقسمة الماء بينهم وبين الناقة بالسويَّة ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ﴾ أي: غضب ﴿عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس].

وجاء عقر الناقة منسوبًا إلى الرهط الذين اتفقوا على قتلها في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود].

وفي هذه السورة نُسِب العقر إلى من قام بالتنفيذ

وفي سورة النمل نُسب إلى من خططوا ودبروا المكيدة ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [آية].

فعاقبهم الله على عقرها، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم وتكذيبهم رسول الله، وقتلهم الناقة؟ وكيف كان إنذاري لمن عصى رسلي؟ وهذه الآية ليست تكرارًا، ولكنها خاصة بهذه القصة، وهكذا في ختام كل قصة في السورة.

ثم فصَّل سبحانه العقاب الذي لحق بقوم ثمود فقال:

٣١، ٣٢- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

أي: إنا أهلكناهم بصيحة صاح بها جبريل ﷺ، فلم تُبق منهم عينًا تطرف ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ كالزرع والكلأ اليابس، الذي يُجعل تحت أرْجُل الإبل والمواشي في الحظائر الخاصة بها، وهو الهشيم والشجر البالي الذي تدوسه الأنعام بأقدامها.

وهذه الصيحة هي الصاعقة التي قال الله عنها: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت].

والتي قال تعالى عنها: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وهي الطاغية التي قال الله عنها: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة].

وهي الرجفة التي قال الله عنها: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف].

إن العذاب الذي نزل بقوم ثمود حوَّل أشخاصهم إلى غُثاء كالهشيم، وهو ما تهشَّم وتفتَّت وتكسَّر تحت أرجل البهائم، مما يُفرش في الحظائر، وتطؤه الدواب بأقدامها!!

فالمحتظِر: هو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك، يحفظها فيها من الذئاب والسباع، وما سقط من ذلك فداسته المواشي، فهو الهشيم، والمراد: أن هذه الصيحة صعقتهم وجعلتهم كالعيدان اليابسة.

وفي نهاية القصة يردُّهم الله تعالى إلى قرآنه ليتدبرُوه ويتأمَّلوه، فإن في ذلك تجنب الضلال، وسلوك طريق الهدى، ولقد سهلنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، وسهلنا معانيه للفهم والتدبر، لمن أراد أن يتذكر أو يعتبر، فهل من متعظ به وعامل بما فيه؟

الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ: قِصَّةُ عَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ عليه السلام

٣٣-٣٥- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾

وقد وردت هذه القصة في سور: الأعراف، وهود، والحجر، والشعراء، والنمل، والعنكبوت.

ولوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وكان قد آمن به، وهاجر معه من العراق إلى الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل سدُوم بوادي الأردن، ولم يكن لقوم لوط أمة يُعرفون بها، ولذا أضيفوا إليه، وكان هؤلاء القوم قد تفرَّدُوا من بين العالَمين بإتيان الذكور، فدعاهم لوط عليه السلام إلى توحيد الله تعالى، ثم نهاهم عن الفاحشة التي يرتكبونها، ولم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فكذبوه وهدَّدوه بالطرد من ديارهم إن لم ينته عن دعوته.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ أي: كذبوا بآيات الله التي أُنذروا بها، وكذبوا بالإنذارات التي أنذرهم بها نبيهم لوط عليه السلام، فلم يستجيبوا لإرشاداته ولا لأوامره ونواهيه، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده، وترْك الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا في شركهم وشرهم، وبالتالي فهم قد كذبوا بالوحي الذي أنزله الله على جميع رسله، وموضوع القصة هنا هو وصف العذاب الذي نزل بهم:

فقد أمر الله تعالى جبريل عليه السلام فاقتلع مدائن قوم لوط، ورفعها حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها، وأتبع ذلك بقذفهم بحجارة من سجيل منضود متتابع.

فالحاصب: هي الريح التي ترمى بالحصباء، أي: الحجارة دون ملء الكف فترفعها من

الأرض لقوّتها، ثم تنزل على من أُريد له أن يُقذف بها، وكان رَميهم بها بعد أن جعل جبريل أسفل القرى أعلاها.

وقد نجّى الله لوطًا وبناته، حيث أمره ربه أن يخرج من القرية في وقت السَّحَر، وهو الوقت الذي يختلط فيه ظلام آخر الليل ببياض أول النهار قبيل الفجر، وكان إنجاؤهم قبيل نزول العذاب بالقوم، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ فقد أوحى الله تعالى إليه ألَّا يلتفت منهم أحد حين يخرجون من القرية، إلا امرأته، فإنه مصيبها ما أصابهم؛ لأنها لم تؤمن بدعوته ﷺ.

وهذا هو معنى الخيانة التي ذكرها الله تعالى عن امرأة لوط وامرأة نوح: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحريم: ١٠].

ولم تكن امرأة نبيٍّ قَطُّ زانية، فخيانتهما خيانة في الدين، وكفر بالرسالة.

وقد أرسل الله تعالى على قوم لوط ريحًا شديدة، تحمل الحصباء وترميهم بها فتهلكهم، ولم يؤمن بلوط سوى بناته، ولم يؤمن به رجل واحد، ولا امرأة واحدة، ولا حتى امرأته.

وكانت نجاة لوط وبناته من هذا العذاب الذي استأصل قومه -نعمة أنعم الله بها عليهم.

وبمثل هذه النعمة والنجاة من الهلاك نثيب من آمن بنا وشكَرنا.

وفي هذا بشرى للمؤمنين الشاكرين؛ كي يزدادوا من الطاعة، وتعريض بسوء مصير الكافرين؛ كي يشكروا ربهم على نعمه. قال تعالى:

٣٦- ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾

وقبل أن يحل العذاب بقوم لوط خوَّفهم نبيهم لوطاً ﷺ بأس الله وعذابه:

أي: إن لوطًا حذَّر قومه عذاب الله إن لم يؤمنوا؛ حتى لا يبقى لهم عذر، فما كان منهم إلا أن كذبوه وتشككوا في دعوته وإنذاره لهم ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي: شكوا في دعوته وفي دعوة الرسل جميعًا، ولم يصدقوها ولم يلتفتوا إليه ولم يستجيبوا له. قال تعالى:

٣٧- ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾

أجمل سبحانه في هذه الآيات ما لم ينزِّل إلا في هذه السورة، مما يتعلق بقصة لوط ﷺ، وهو أن ضيوف إبراهيم ﷺ من الملائكة الكرام كانوا في صورة شباب حسان، قيل: وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، ولما أضافهم لوط ﷺ خرجت امرأته وأعلمت أهل القرية بوجود ضيوف حسان في بيت لوط، فجاءه قومه يهرعون إليه من كل مكان، بقصد فعل فاحشة اللواط بهم، على أنهم شباب حسان من البشر، فأغلق لوط الباب، فحاولوا كَسْره، فقالت له الملائكة: يا لوط، خلِّ بيننا وبينهم، فإنا رُسل ربك، فلن يصلوا إليك ولا إلينا بسوء، وأخذ يدفعهم ويمنعهم من الدخول، ولكنهم لم يمتنعوا، فعرض عليهم لوط أن يزوِّجهم بنات أهل القرية، قائلًا لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ [هود: ٧٨].

﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود: ٧٩] فاشتد الحال واحتدم الجدال، وأصروا على الدخول ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ فخرج إليهم جبريل فضربهم بطرف جناحه، فطمس الله أعينهم وأعماها ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ فلم يروا الضيوف، وصارت أعينهم مطموسة بمساواة الوجه، ليس لها شق، وقيل: إن عيونهم غارت من وجوههم بالكلية، وأنهم رجعوا على أدبارهم يتحسسون الحيطان، ويتوعدون لوطًا إلى الصباح.

قال قتادة: ذُكِر لنا أن جبريل استأذن ربه في عقوبتهم ليلة أتوْا لوطًا، وأنهم عالجوا الباب ليدخلوا عليهم، فصفقهم بجناحه فتركهم عُميانًا يتردَّدون[1].

قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ذوقوا أيها المجرمون عذابي وعقوبة إنذاري الذي أنذركم به لوط ﷺ، بسبب تكذيبكم له، فضلًا عن عذابنا الشديد الذي سيلحقكم يوم لقاء الله تعالى، ثم حدد سبحانه وقت نزول العذاب بهم، فقال:

٣٨-٤٠- ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

أي: ولقد نزل بهم عذاب الله في الصباح الباكر، وهو معنى ﴿صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أي: في

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٥٩) والطبري (٢٢/ ١٤٩) وغيرهما.

وقت مبكر من الصباح، وهو عذاب متصل بعذاب الآخرة لا يفارقهم إلى يوم القيامة، فهو معهم في البرزخ بعد هلاك أجسادهم، وهذا معنى ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: ثابت دائم لا ينفك عنهم، ولا ينفكون عنه.

وتحديد موعد نزول العذاب بهم جاء أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

أما العذاب نفسه وهو الخسف ومطَر الحجارة فقد جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

وهذا العذاب استقر فيهم ولازمهم حتى يُفضي بهم إلى عذاب الآخرة، فهم في مدة موتهم يُعذَّبون بانتظار جهنم.

قال الحسن: عذاب في الدنيا استقر بهم في الآخرة.

ثم خاطب الله تعالى الذين أصابهم العذاب المستقر، فقال: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: تذوَّقوا عذابي الذي أنزلته بكم لكفركم وتكذيبكم، واستخفافكم بما وُجِّه إليكم من نصائح وتخويف، وذوقوا إنذاري الذي أنذركم به لوط ﷺ، وهكذا ينتهي مصير المدينة الفاجرة التي طغت عليها شهواتها، واستمْرأت الشذوذ الجنسي، وفتحت له نوادي تقارفه فيها، إن نبيها الصالح لوطًا ﷺ قد أعلن مقته لهذه الفاحشة، وحاول تهذيب طباعهم، لكنهم أبَوْا وحاولوا السطْو على ضيوفه من الملائكة، فكانت عقوبتهم دمار مدينتهم.

واللواطة معروفة في الحضارة الحديثة، وقد أعقبت بوباء الإيدز المُهْلك، والغريب أن التوبة منها لم تخطر بالبال، بل إنهم يطالبون بالاعتراف الرسمي بفاحشتهم على أنها حق من حقوق الإنسان، والنصيحة المبذولة لهؤلاء: اقضوا شهواتكم واحتاطوا لصحتكم!! ذلك ما يقوله رجال الدين، وهم ينشرون الشفاء الواقي، وماذا يُنتظر ممن نسي الله واتبع شهواته؟!

ويأتي التنويه الثالث بشأن القرآن، وأن الله تعالى قد سهَّل لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، وسهَّل معانيه للفكر والتدبر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر.

وفي ذكر هذه الآية عقب كل قصة: تجديد الحث على الاستماع لكل نبأ من أنباء

الأولين، فيتعظون ويعتبرون، وتستيقظ نفوسهم، ولا تستولي عليها الغفلة، حتى يتدبروا في أحوال مَنْ سبقهم ويستفيدوا مما حدث لغيرهم.

الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ الْأَخِيرَةُ: قِصَّةُ عَذَابِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

٤١، ٤٢- ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

وقد ذُكرت قصة فرعون وآله في سور: الأعراف، ويونس، وهود، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، وجاء الحديث عنهم هنا في آيتين اثنتين، ولما كانت دعوة موسى ﷺ موجهة إلى فرعون لدعوته إلى التوحيد، وتخليص بني إسرائيل من ذُلِّه وقهره، وليست موجهة إلى أهل مصر، لذلك فإن هذه القصة، لم تبدأ كغيرها من القصص بلفظ ﴿كَذَّبَتْ﴾ وإنما جاءت هكذا ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ أي: جاء فرعون وقومه إنذارنا بالعقوبة لهم على كفرهم.

ويراد بالنُّذُر: موسى وهارون عليهما السلام بما أيدهما الله به من الآيات البينات الدالة على صدق الرسالة.

وقد صُدِّرت القصة بالقسَم المؤكد لعظم ما فيها من الآيات، ولهوْل ما لاقُوه من العذاب.

فقد شاهد فرعون وقومه جميع الآيات الدالة على وحدانيتنا، ونبوَّة أنبيائنا، ومنها المعجزات التسع التي أيد الله بها موسى ﷺ، منها خمس في قوله تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

والأربعة الأُخر هي: انقلاب العصا حية، وظهور يده البيضاء بخلاف لون جسمه من غير برص، وسنوات القحط، وانفلاق البحر بمرأى من فرعون وجنوده.

فكذبوا بهذه الآيات كلها ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾أي: عاقبهم الله بالعذاب عقوبة عزيز لا يُغالَب، قادر على كل شيء، لا يعجزه أمر، ولم يُبق منهم أحدًا، بل أهلكهم جميعًا بالغرق، والمراد بذكر القصة هنا تحذير المكذبين بخاتم النبيين ﷺ كي لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم:

كُفَّارُ الْيَوْمِ لَنْ يَسْلَمُوا مِنْ مَصِيرِ كُفَّارِ الأَمْسِ

٤٣، ٤٤- ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾

وبعد أن فرغت الآيات من بيان مصارع الظالمين، توجهت بالخطاب إلى كل كافر مكذب لخاتم الرسل ﷺ في كل زمان ومكان؛ لِتُسقِط كل شبهة، وتُزيل كل شك في صدق ما جاء به محمد ﷺ، وتسدَّ كل ثغرة أو مغالطة تتعلق بيوم الحساب والجزاء على الأعمال والأقوال.

إن أعداء الإسلام لن يَفْلِتوا من المصير الذي نال أسلافهم ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ لستم -أيها المكذِّبون- خيرًا من قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، ولا من قوم لوط، ولا فرعون وملئه، فقد كانوا أقوى أبدانًا وأكثر أموالًا وأوسع عقولًا، فلستم خيرًا منهم، وليست لكم براءة من العذاب نصت عليها الكتب المنزلة من عند الله تعالى، وهذا معنى ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: أم أعطاكم الله عهدًا وميثاقًا فيه إخبار لكم بعدم نزول العذاب بكم، وهذه البراءة تقضي بنجاتكم مما حلَّ بأمثالكم، حتى تظنوا أنكم خير من الأمم السابقة، فأنتم مخطئون في عدم اكتراثكم واتعاظكم بما حل بمن سبقكم.

وقد بيَّنت الآية أن حالهم لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون الكفار الحاليُّون خيرًا من الكفار السابقين، وأفضل منهم عند الله تعالى، وفي هذا ذم وتوبيخ لهم، إذ أنهم ليسوا خيرًا منهم بل أسوأ.

الآخر: أن تكون لهم براءة من العذاب مسجلة في الكتب المنزلة من عند الله تعالى!

فإذا انتفى الأمران معًا فلا مأمن لهم من حلول العذاب بهم في الدنيا والآخرة كما حل بأمثالهم.

ثم وبَّخهم القرآن على **افتراض ثالث:** وهو دعواهم أنهم كثرة من البشر، وأنهم على ثقة من نصر الله لهم، وأنهم يغلبون الإسلام وأهله، فهم يقولون: نحن أولو حزم ورأي، وأمرنا مجتمع، فنحن جماعة كثيرة منتصرة، لا يغلبنا من أرادنا بسوء. ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾، أي جمع ﴿مُّنتَصِرٌ﴾.

ومن الأمثلة المعاصرة لنزول القرآن: أن أبا جهل قال يوم بدر: نحن ننتصر اليوم من

محمد وأصحابه.

وما دامت هذه الآية قد نزلت قبل غزوة بدر، وأخبرت عما يقال مستقبلًا، فإنها من الإعجاز المتعلق بعلم الغيب، وقول أبي جهل هذا ينبئ عن غرور الكفار بأنفسهم، واستخفافهم بالنبي ﷺ وتطاولهم عليه بألسنتهم.

ثم بيّن سبحانه ضَعْف هذا الجمع المنتصر - على حد قولهم - وأخبر أنهم منهزمون.

مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ

٤٥ ، ٤٦- ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

هذه آية عامة في البشري بهزيمة الكافرين وإن كان لها سبب خاص.

هذا وعْد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيهزم جَمْع قريش المتحزِّبين له، ووعد للمؤمنين كافة إلى قيام الساعة، بهزيمة أعدائهم إذا نصروا دينه، وأخذوا بأسباب النصر المادية والمعنوية، وقد أجاب الله سبحانه في هذه الآية على قول الكفار المعاصرين للنبي ﷺ: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ وهكذا يقول أمثالهم من أهل الكفر في كل مكان وزمان، بأن النصر متحقق لهم، وقد أخبر القرآن عما سيقع في المستقبل القريب من نصر المسلمين وهزيمة الكافرين في قوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

والجمْع: هو تجمع الكفار يوم بدر، وتجمعهم في كل زمان لاحق بهذا اليوم، وقد تحقق هذا الوعد، ونزلت هزيمة مُذِلَّة بالمشركين يوم بدر، في معركة أطاحت برؤوس الكفر، وأرغمت أنوفهم، وما ينتظرهم في الآخرة أقسى وأشد.

وفي هذا بشارة للإسلام وأهله بأن الله تعالى منجز وعده، وأن الكافرين لا يزدادون إلا غرورًا، فهم يُعِدُّون العدَّة دائمًا لمقاومة المسلمين، وقد هُزم الكفار يوم بدر وولَّوا الأدبار.

وقد ثبت في الصحيح: أن النبي ﷺ لما خرج يوم بدر قرأ هذه الآية قبل قتال العدو، وفي هذا إشارة إلى تحقيق وعد الله تعالى له.

جاء عن عكرمة أن عمر بن الخطاب ﵁ قال: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ جعلتُ أقول: أيُّ جمع يُهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع وهو

يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ فعرفت تأويلها يومئذ[١].

أي: أنه ﷺ لم يتبيَّن له المراد بالجمع الذي سيُهزم إلا في هذا اليوم، حيث عرف أنه تجمع المشركين يوم بدر، ؛ إذ لم يكن يوم نزول الآية قتال، ولم يخطر لهم على بال.

والآية من دلائل النبوة؛ لأنها نزلت في مكة، وغزوة بدر كانت بالمدينة، ولم يكن القتال قد شُرع بعد.

فعن عكرمة عن ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبدًا**»، فأخذ أبو بكر ﷺ بيده وقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألْححْتَ على ربك، فخرج وهو يثب في الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾[٢].

ومثل هذه الآية في الكشف عن أخبار المستقبل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٢﴾ [آل عمران].

ثم أخبر سبحانه أن عذاب الكفار ليس مقصورًا على عذاب الدنيا، بل هناك العذاب الأكبر الذي ينتظرهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: إن موعد عذابهم الأخروي هو قيام الساعة، فهو اليوم الذي يجازوْن فيه بما يستحقون، وهو عذاب أشد مرارة من القتل والأسر ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي: إن عذاب الآخرة أقسى وأشد وأنكى مما لحقهم من عذاب الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾ [السجدة]. وقوله أيضًا: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه].

عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

٤٧، ٤٨- ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾

ثم بيَّن سبحانه ألوانًا من عذابه تعالى للمجرمين الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي

---

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٠٩) من طريق معمر عن أيوب، ورواه الطبري (٢٢/ ١٥٧) وابن راهويه كما في «المطالب العالية» (٤١٢٧).

(٢) البخاري بأرقام (٢٩١٥، ٣٩٥٣، ٤٨٧٥، ٤٨٧٧) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٥٥٧) والطبراني في «الكبير» (١١٩٧٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٠٢).

الذنوب العظيمة، كالشرك والكفر والفسق والفجور والظلم ونحو ذلك من المعاصي، وهذا العذاب يحدث لهم يوم القيامة، فبيَّن سبحانه أنهم بالإضافة إلى ما هم فيه في الدنيا من حيرة وتخبُّط، وضلال عن العلم، وضلال عن العمل، وبُعْد عن الاهتداء إلى الحق بسبب انطماس بصائرهم، وإيثارهم الغي على الرشد، فهم في الآخرة في نار مسعرة، تغشاهم من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، وهي تشتعل في أجسادهم حتى تصل إلى أفئدتهم، وهذا هو خسران الآخرة.

والنار المسعورة: هي شديدة السرعة كأن بها جنونًا في التهام أهل النار، كما قال تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص].

وهذا العذاب يحدث لهم يوم يجرُّون في النار على وجوههم عقوبة لهم وإذلالًا، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

ويقال للمجرمين يوم القيامة حين يُجَرُّون على وجوههم في النار توبيخًا وتقريعًا لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: ذوقوا شدة عذاب جهنم التي أنتم بها، وقاسوا حرها ولهيبها، وسقر: اسم من أسماء النار، وعلَم عليها.

كُلُّ شَيْءٍ يَحْدُثُ فِي الْكَوْنِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى

٤٩، ٥٠- ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾

وقد فعل الله بالكافرين ما فعل؛ وَفْقَ تقديره تعالى السابق في الأزل، حسبما اقتضته الحكمة الإلهية، وكل شيء يحدُث في الكون سواء أكان خيرًا أم شرًّا فهو مقدر ومكتوب في اللوح المحفوظ، وفق علم الله تعالى الكاشف عما كان وما سيكون ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ من جميع العوالم العلوية والسفلية، خلقناه بمقدار قدَّرناه وقضيناه، وسبق علمنا به، لا خالق له سواه، ولا مشارك له في خلقه، وقد سبق به القدر، وجرى به القلم.

قال ابن عطية: وهذا المعنى يقتضي أن كل شيء مخلوق، إلا ما قام دليل العقل على أنه ليس بمخلوق كالقرآن والصفات.

وخَلْق الله تعالى للأشياء مُصاحب لقوانين جارية على مقتضى حكمته سبحانه:

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر].

وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

قال ابن عباس ﷺ: إني أجد في كتاب الله قومًا ﴿يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾؛ لأنهم كانوا يكذبون بالقدر، ويقولون: المرء يخلق أفعاله، وإني لا أراهم، فلا أدري أشيء مضى قبلنا، أم شيء بقي؟[1].

قال أبو عبد الرحمن السلمي: فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ أفي شيء نستأنفه، أم في شيء قد فُرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: **«اعملوا فكلٌّ ميَّسر لما خلق له، سنيسره لليسرى، ونيسره للعسرى»**[2].

وقد جاء هذا الحديث موصولًا من حديث علي ﷺ قال: كنا جلوسًا مع النبي ﷺ ومعه عود ينكُت به في الأرض وقال: **«ما منكم من أحد إلا قد كُتب مقعده من النار أو من الجنة»**، فقال رجل من القوم: ألا نتكل يا رسول الله؟ قال: **«لا، اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له»**، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ الآيات[3].

ومن مقتضى الحكمة الإلهية مجازاة العباد على أعمالهم في الآخرة!

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدخان].

---

(١) «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٥/ ٢٢١).

(٢) حديث مرسل أخرجه الطبري (٢٢/ ١٦١) وهو مخرَّج في الصحيحين موصولًا من طرق أخرى، ينظر نحوه في صحيح البخاري بأرقام (١٣٦٢، ٦٦٠٥، ٦٦٠٦) ومسلم برقم (٢٦٤٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٦٠٥) واللفظ له، وراجع (١٣٦٢) و«صحيح مسلم» (٢٦٤٧).

وهكذا نجد أن الآيات المتعلقة بالخلْق يعقُبها ذكر الساعة وذكر يوم الجزاء؛ لبيان الحكمة من خلْق الخلق، وهو الثواب والعقاب في الآخرة على ما قدَّموه في الدنيا، وبيان أن الله تعالى قد خلق كل شيء بقدر، وليس لمجرد الإعلام بذلك، وإنما هو لبيان الحكمة والعلم المسبق بذلك، فالله تعالى خالق أصول الأشياء، وخالق أسبابها، وموجد القوة فيها، وهذا معنى الحديث: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**».

وعندما يُعنِّف سبحانه المشركين على عبادتهم للأصنام، يتمسحون في القدَر، ويعتذرون به، فيقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]

ويقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥].

وقدرة الله تعالى تتعلق بكل شيء من الأعمال الصالحة والسيئة، ونسبة الخير إلى الله تعالى دون نسبة الشر هو من الأدب الذي لقَّنه الله سبحانه لخلْقه ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]. والمجوس هم الذين يجعلون للخير إلهًا وللشر إلهًا.

معاني القدر: والمراد **بالقدر**: مراد الله تعالى ومشيئته، وما سبق به علمه.

وللقدر من جهة اللغة **ثلاثة معانٍ**:

أولها: أن القدر هو الأمر المقدَّر، الذي لا يزاد عليه ولا ينقص منه، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وثانيها: أن يراد بالقدر: قدرة الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة].

وثالثها: أن يراد بالقدر: إيجاد الشيء في وقته، بأن يقدر الله له وقتًا يخلقه فيه[1].

وقد وردت **أحاديث في القدر** منها ما جاء:

١- عن أبي هريرة ﷺ قال: إن مشركي قريش جاؤوا إلى النبي ﷺ يخاصمونه في

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/٢١٨).

القدر، فنزلت: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[١].

٢- وعن ابن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس»**[٢].

٣- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أيضًا أن النبيَّ ﷺ قال: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لَوْ تفتح عمل الشيطان»**[٣].

٤- وفي حديث ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء -لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك -لم يضروك، جفت الأقلام وطويت الصحف»**[٤].

٥- وأخرج الإمام أحمد، وغيره بسنده عن الوليد بن عبادة، حدثني أبي قال: دخلت على (عبادة) وهو مريض، أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني، واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بُنيَّ، إنك لم تَطْعم طعم الإيمان، ولم تبلُغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره.

قلت: يا أبتاه، وكيف لي أنْ أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك.

---

(١) «المسند» (٢/ ٤٤٤) (٩٧٣٦) (١٠١٦٤) وإسناده حسن، كما قال محققوه: لأن زياد بن إسماعيل ، متكلّم فيه، وأخرجه مسلم برقم (٢٦٥٦) والترمذي برقم (٣٢٩٠) وابن ماجه برقم (٨٣) والبيهقي (١٨٣) والطبري (٢٢/ ١٦١)، والبخاري في خلق أفعال العباد (١٣٤).

(٢) «المسند» (٢/ ١١٠) برقم (٥٨٩٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات (محققوه) ومسلم برقم (٢٦٥٥) وعند مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٩) وابن حبان (٦١٤٩) والبخاري في خلق أفعال العباد ص(٩٥).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٤).

(٤) «المسند» (١/ ٢٩٣) بأرقام: (٢٦٦٩، ٢٧٦٣، ٢٨٠٣) بإسناد قوي (محققوه) وأخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٥٦) وابن أبي عاصم في السنة معلَّقًا (٣١٦) والبيهقي في الشعب (١٠٠٠٠) وغيرهم.

يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**» يا بني، إن متَّ ولستَ على ذلك دخلت النار[١].

٦- وفي حديث علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره**»[٢].

٧- وفي حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**»، قال: «**وكان عرشه على الماء**»[٣].

والمقصود بهذا: تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ، وليس أصل القدر، فإن القدر أزليٌّ، لا أول له.

قال الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر: إجبار الله تعالى للعبد، وقهرُه على ما قدَّره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه: الإخبار عن تقدُّم علم الله تعالى بما يكون، مما يكتسبه العباد، ويصدر عنهم، عن تقدير منه سبحانه، وخلق لها خيرها وشرها[٤].

نفاذ قدرة الله تعالى في خلقه:

إن كل حركة في الكون، وكل حركة في التاريخ، وكل انفعال في النفْس وكل نفَس يخرج من صدر الإنسان، وكل نملة سارية، وكل هباءة طائرة، وكل خليَّة سابحة في

---

(١) «المسند» (٥/ ٣١٧) برقم (٢٢٧٠٥) قال محققوه: وهو حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، لأن ليث، ومعاوية، وأيوب، من رجال (التعجيل) والترمذي برقم (٢٣١٩) وقال: حسن صحيح غريب، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ١١٤) وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١٠٧) وأبو داود (٤٧٠٠) والطيالسي (٥٧٧) وغيرهم.

(٢) الترمذي برقم (٢١٤٥) وابن ماجه برقم (٨١) و«المسند» (١/ ١٣٣) برقم (٧٥٨) ورجاله ثقات رجال الشيخين أفاده محققوه، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٣) عن أبي حذيفة، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح عن عليّ برقم (١٠٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٣) و«سنن الترمذي» برقم (٢١٥٦).

(٤) «تفسير الخازن» (٤/ ٢٠٧).

الماء، وكل فلَك أو جِرْم في السماء، وكل عود ينبت من الأرض، وكل نسْمة في الهواء، وكل ذرة في الكون، كل ذلك وغيره، خلقه الله وقدره تقديرًا، وقدرة الله تعالى فيه نافذة وشاملة.

ومن كمال قدرة الله تعالى أنه إذا أراد خلْق شيء فإنه يخلقه دفعة واحدة، لا يسبق ذلك إعداد ولا نظر ولا اختبار، ويُخلق بأسرع ما يكون، بمجرد توجه إرادته سبحانه إلى هذا الشيء ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ أي: وما شأننا في الخلق والإيجاد لشيء إذا أردناه إلا ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ مرة واحدة، فإذا هو كائن موجود كلمح البصر ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ولا يتأخر طرفة عين ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

وكلمة ﴿كُن﴾ تعني: أن الله تعالى إذا توجهت إرادته إلى فعل شيء خلقه مباشرة، ولا يتوقف هذا الخلق على سبب ولا على قول أو مقدمات، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وفي الآية تحذير من مجيء العذاب فَجْأة عند قيام الساعة بغتة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس].

فعلى المرء أن يَعُد العدة، ويحاسب نفسه قبل يوم الحساب، والتعبير بلفظ ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ لإفادة أن ما يريده الله تعالى يوجَد في أسرع وقت، بمقدار كلمة واحدة لا زيادة عليها.

أما خلْق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، فإن خلقهما ينطوي على مخلوقات أخرى لا حصر لها، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦] وكل خلق منها يحصل بكلمة كن فيكون كلمح البصر، فخلْق السموات بكلمة كن، وخلق الأرض بكلمة كن، وخلق الأقوات بكلمة كن، وهكذا.

والله تعالى قادر على خلقها جميعًا مرة واحدة، ولكنه جلَّ شأنه له حكمة في هذا؛ ليعلِّمنا النظام والتأني في الأمور والتثبت فيها.

هَلَاكُ الأُمَمِ سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللهِ تَعَالَى

٥١- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾

ثم استدل سبحانه على نفاذ قدرته في خلقه وسرعتها، المتمثلة في هلاك الأمم السابقة،

فقد استمر قوم نوح في شركهم حتى أخذهم الطوفان بغتة، واستمر قوم عاد وقوم ثمود غير مصدقين بحلول العذاب بهم حتى أتاهم العذاب فجأة، واقتفى فرعون وجنده أثر موسى في البحر وهم واثقون بأنهم مُدْرِكُوه، متمكنون من إحكام قبضتهم عليه، فانطبق البحر عليهم، وهذا معنى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أتباعكم وأمثالكم في الكفر من الأمم الماضية، ونُهلِككم كما أهلكناهم، فلستم بأوفر منهم عددًا ولا عتادًا ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هل من متأمل متعظ يقي نفسه من مغبة ما وقع فيه غيرهم؟

قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤] وكما أهلكنا أشياعكم نهلككم أيها المكذبون. قال تعالى:

٥٢، ٥٣- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝﴾

لقد أهلكنا أمثالكم في الكفر وهم في الدنيا، وهيأنا لهم عذاب الآخرة، فكُتب في صحائف الأعمال كل ما فعلوه من الكفر وفروعه ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: إن كل ما فعله الأشياع الماضون من خير أو شر مكتوب ومسجل ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ لدى الحفظة، فهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وكل قول أو فعل حاضر أمامهم في صحف أعمالهم، حين ينشر لهم الكتاب، ويقال لكل إنسان: اقرأ كتابك، ويومئذ تجد كل نفس ما عملته من خير أو شر حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

فالمراد **بالزبر**: صحف الأعمال، والمراد بلفظ: ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ اللوح المحفوظ.

أي: إن كل صغيرة وكبيرة من الأعمال والأقوال مسطر في أم الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، وسيجزون به.

عن عائشة ﵂ قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا عائشة، إياك ومحقرات الأعمال فإن لها من الله طالبًا»**[1].

---

(١) ابن ماجه برقم (٤٢٤٣) و«المسند» (٦/ ٧٠، ١٥١) برقم (٢٤٤١٥، ٢٥١٧٧) وإسناده قوي كما قال محققوه، وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢/ ٤١٦) وحسَّنه ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٢٨٣) وأخرجه الدارمي (٢٧٢٦) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٠٠٦) وابن حبان (٥٥٦٨) والطبراني في (الأوسط) (٣٧٨٨، ٢٣٩٨).

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿. .وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فالأمور التي يستهين بها العبد ويستصغرها، فيرتكبها ولا يهتم بها، هو مؤاخذ بها، وإن استمر عليها فهي كبيرة بالنسبة له، وهذا كله كائن في علم الله تعالى، وهو الذي يُجازِي عليه يوم الحساب والجزاء.

وهكذا فإن الله تعالى عَلِم جميع الأشياء، وسطّرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وهذا حقيقة القضاء والقدر.

مَصِيرُ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ

٥٤، ٥٥- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾

ولما ذكر جلَّ شأنه أن المجرمين في ضلال وسعر، بيَّن هنا أن المتقين في نعيم الجنات والأنهار التي تجري تحت قصورها وأشجارها، فهم يوم القيامة في بساتين عظيمة، وأنهار واسعة، وشراب متنوع، فإن فيها أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون، وفيها أنواع المطاعم والمشارب والملابس والمنازل والحور العين. .

فالمراد بقوله تعالى ﴿وَنَهَرٍ﴾: الأنهار، وسعة الأرزاق، وحُسْن المنازل والإقامة.

وهؤلاء المتقون الذين صانوا أنفسهم عن محارم الله تعالى يكونون يوم القيامة في استقرار وأمن تام، وفي إقامة مطمئنة، ومجلس حق لا لغوَ فيه، ولا باطل ولا إثم، إنهم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في مكان مَرْضيٍّ، ومقام كريم حسن، وهو المقعد الذي صدقهم الله وعده، وهذا المكان في منزلة شريفة عالية، فهو ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: عند رب عظيم، جليل القدر، رفيع الشأن، قادر في ملكه وسلطانه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال جعفر الصادق: وصف الله تعالى المكان بالصدق، فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق[١].

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعْدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا**»[٢].

ومن دعاء خليل الرحمن لنفسه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٨٤﴾ [الشعراء].

تم تفسير (**سورة القمر**) ولله الحمد والمنة.



(١) «تفسير الخازن» (٤/ ٢٠٤).

(٢) «صحيح مسلم» (١٨٢٧) و«سنن النسائي» (٨/ ٢٢١) ورقمه في «صحيح سنن النسائي» (٤٩٧٣).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّحْمَنِ (٥٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الرحمن) هي السورة الخامسة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة والأربعون في ترتيب النزول على القول بأنها مكية، وهو الأرجح، فيكون نزولها بعد سورة الفرقان وقبل سورة فاطر، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين، واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ فقيل: إنها مدنية، والأصح أنها مكية كبقية السورة، بل إن السورة من أوائل ما نزل من القرآن.

فقد أخرج الإمام أحمد والطبراني، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يَصْدَع بما يؤمر، والمشركون يسمعون، يقرأ: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1].

وقيل: إن سورة الرحمن مدنية، وعلى هذا فهي الثامنة والتسعون في ترتيب النزول، كما قال الجعبري، ويكون نزولها بعد سورة الرعد وقبل سورة الإنسان، فهي من السور المختلف في أنها مكية أو مدنية.

وعدد آياتها عند أهل الشام وأهل الكوفة ثمان وسبعون آية[2].

وهي ثلاث مئة وإحدى وخمسون كلمة، وألف وست مئة وستة وثلاثون حرفًا.

وسُميت سورة الرحمن، وهي أول كلمة فيها، وقيل: إنها تسمى أيضًا: عروس القرآن، ومن قال بهذا اعتمد على حديث ضعيف أخرجه البيهقي عن عليٍّ رضي الله

---

(١) «المسند» (٣٤٩/٦) (٢٦٩٥٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٠/٧): وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، وضعّف إسناده محققو المسند (٥١٧/٤٤) وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٣١).

(٢) وعدّها أهل مكة والمدينة سبعًا وسبعين، وأهل البصرة ستًّا وسبعين آية.

عنه، وفيه: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن»[١].

أسباب النزول:

أ - وورد في سبب نزولها قول المشركين الذي حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:٦٠].

ب - وقيل: إنها نزلت في صلح القضيَّة عندما أَبَى سُهيل بن عمرو أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم في شروط صلح الحديبية.

ج - وقيل أيضًا: إن سبب نزولها قول المشركين ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣] فردَّ الله تعالى عليهم بأن الرحمن هو الذي علَّم النبي ﷺ القرآن:

في فضل سورة الرحمن:

١- وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ قام يصلي الصبح بنخلة، فقرأ سورة الرحمن، ومرَّ النفر من الجن، فآمنوا به.

٢- وعن قاسم بن عاصم المنقري، أنه قال للنبي ﷺ: اتلُ عليَّ ما أُنزل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمن، فقال: أَعِدْها، فأعادها ثلاثًا، فقال: إن له لحلاوة(٢).

٣- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن، من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «**ما لي أراكم سكوتًا؟ لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودًا منكم، كلما أتيتُ على قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لاشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد**»[٣].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» برقم (٢٢٦٥) وإسناده ضعيف، لضعف علي بن الحسين بن جعفر، وأحمد بن الحسن بن علي بن الحسين، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٣٥٠).

(٢) من «تفسير القرطبي» للسورة.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٢٩١) وصححه الحاكم (٢/٢٧٣) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/٢٣٢) وفي «الشعب» برقم (٢٢٦٤) ورجاله ثقات، والطبري (٢٧/٧٢) وغيرهم، وقال الترمذي عنه: هو حديث غريب، وفي سنده زهير بن محمد وقد ضعَّفه البخاري وأحمد بن حنبل، يُنظَر: «التهذيب» (٣/٣٤٩) وأخرجه أبو الشيخ (١١١٨) وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٢٤) وأخرج البزار في «كشف الأستار» (٢٢٦٩) نحوه عن عبد الله بن عمر، وكذا الدارقطني والخطيب في تاريخه وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٤/١٠١).

٤- وروى عروة بن الزبير‌ﷺ قال: أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي ﷺ عبد الله ابن مسعود، وذلك أن الصحابة قالوا: ما سمعتْ قريش هذا القرآن يُجهر به قط، فمَن رجُل يُسمعهم إياه؟ فقال ابن مسعود: أنا، فقالوا: نخشى عليك، إنما نريد رجلًا له عشيرة يمنعونه، فأبى، ثم قام عند المقام، فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ثم تمادَى رافعًا بها صوْته، وقريش في أنْديتها، فتأملوا وقالوا: ما يقول ابن أم عبد؟! قالوا: هو يقول الذي يزعم محمد أنه أُنزِل عليه، ثم ضربوه حتى أثَّرُوا في وجهه، وفي هذا دليل على أن السورة مكية[1].

٥- وعن ابن مسعود ﷺ أن رجلًا قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة، فقال: أهذًّا كَهذِّ الشعر؟ لكن النبي ﷺ كان يقرأ النظائر سورتين في ركعة: الرحمن والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة، والطور والذاريات في ركعة، و(إذا وقعت) و (ن) في ركعة، و عمَّ والمرسلات في ركعة، والدخان وإذا الشمس كورت في ركعة، وسأل سائل والنازعات في ركعة، وويل للمطففين وعبس في ركعة[2].

٦- وأخرج ابن حبان عن ابن مسعود أيضاً أن رجلًا قرأ عليه سورة الرحمن بوجه من وجوه القراءات، فأنكر عليه وقال له: من أقرأك هكذا؟ قال: رسول الله، فذهبا إلى النبي ﷺ فأقرَّ كلًّا منهما على قراءته، وتغيَّر وجهه ﷺ حين سمع الخلاف بينهما، فأمر عليًا فقال: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما عُلِّم. قال ابن مسعود: فانطلقنا وكل رجل منا يقرأ حرفًا – أي: قراءة - لا يقرأ بها صاحبه[3].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٧/١٥١).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (١٢٤٤) قال الألباني: صحيح دون سرد السور، وهو في الصحيحين، وقال أبوداود:هذا من تأليف ابن مسعود، وأخرجه البيهقي (٢/٦٠) وقد جاء مختصرًا في «المسند» (١/٤١٢) عن زِرّ: أن رجلًا قال لابن مسعود... الحديث.

(٣) انظر هذا المعنى في: «صحيح ابن حبّان» (٧٤٧) وحسّنه محققه، وأصل الحديث في البخاري بدون ذكر اسم السورة، وفيه أن النبيّ ﷺ قال: كلاكما محسن، البخاري (٢٤١٠، ٣٤٧٦، ٥٠٦٢).

آية الآلاء:

وقد ذُكِرتْ آية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة في السورة، في كل مرة لها معنى يختلف عن غيره، حيث يراد بالآلاء فيها: النعمة التي ذُكرت قبلها، وهي تختلف في كل آية عن الأخرى.

ومعنى ذلك: أن في السورة إحدى وثلاثين نعمة أنعم الله بها على الإنس والجن.

وأول آية من ﴿فَبِأَيِّ﴾ ذُكر قبلها اثنتا عشرة آية، وهي تُذْكَر بين الصفة والموصوف.

قال الزمخشري: أراد الله تعالى أن يقدم في عدد آلائه أسبق شيء، وأهم شيء في آلاء الله: أصناف نعمه، وقد قدَّمت السورة نعمة الدين، وبدأت بأعلى مراتبه، وهي نعمة القرآن وتعليمه، وأخَّرتْ ذِكْر خلْق الإنسان عن ذِكْر القرآن، ثم ذكرت الإنسان، وبيَّنت ما تميَّز به عن سائر الكائنات من أنواع البيان[1].

وتبع ذلك التنويه بالنبي ﷺ، وبيان أن الله تعالى هو الذي علمه القرآن، ردًّا على مزاعم المشركين الذين يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ وقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أو أنه سحر، أو أنه كلام كاهن أو شاعر.

ولأن القرآن الكريم هو المنة الكبرى التي امتنَّ الله بها على الإنسان، فقد تقدم ذكره على خَلْق الإنسان.

ثم استعرضت السورة صفحات الوجود الناطقة بآلاء الله وآثار قدرته، ومنها: الشمس، والقمر، والنجم، والسماء المرفوعة بلا عمد، وما فيها من عظيم المخلوقات، وخلْق الأرض وما فيها، من فاكهة ونخل وحبٍّ ورمان وريحان، وأنواع الزروع والثمار، والجن والإنس، والمشرقين والمغربين، والميزان، والبحرين والبرزخ الحاجز بينهما، وما يخرج منهما، وما يجري فيهما، ثم يأتي مشهد الفناء للخلائق، يقابله الوجود المطلق لوجه الله الكريم.

---

(١) «تفسير الكشاف» بتصرف (٤/٤٣).

وفي يوم القيامة الناس فريقان، حيث: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أما الفريق الذي خاف هذا الموقف، فمنهم السابقون المقربون، وهؤلاء أعدَّ الله لهم جنتين من الدرجة الأولى.

ومنهم أهل اليمين من عامة المؤمنين، وقد أعدَّ الله لهم جنتين من الدرجة الثانية.

وللجنات الأربع مواصفات ومقاييس تعرف بأدنى تأمل في الآيات.

فمثلًا: يقابَل قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ للسابقين بـ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ لأهل اليمين.

فالعين التي تجري ليست كالعين التي تضخ أو تنبع.

ويقابل قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ للسابقين بـ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ لأهل اليمين، فالأُولى أعم وأشمل.

ويقابَل ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ لأهل اليمين بـ ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ للسابقين، فالمقصورات غير القاصرات، كما ترى في الدنيا امرأة عفيفة أو محجبة باختيارها من تلقاء نفسها، وأخرى مرغمة على ذلك، وهذا من باب التشبيه، وإلا فليست الحور العين مظنة للشبهات، كنساء الدنيا.

ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة فصول:

الأول: عن الخلق والإبداع، وهذا من أول السورة إلى الآية الخامسة والعشرين منها، وفيه خلق الإنسان، وتعليمه البيان، وتسخير الكون له برًّا وبحرًا وجوًّا وكواكب وأفلاكًا.

والإنسان مكلف بإقامة العدل والميزان، ومستحق للثواب والعقاب.

الثاني: عن الفناء والبعث والجزاء المعدِّ للمجرمين في الآخرة، وذلك من الآية السادسة والعشرين إلى الآية الخامسة والأربعين، وفيه فناء العالم، وإعادة الخلق بعد فنائه، ومظاهر فناء العالم، ثم أحوال الناس في المحشر، من يُسأل منهم عن ذنبه، ومن لا يُسأل عنه، بل يؤخذ من ناصيته وقدميْه ويُقذف به في جهنم، فيَلقى فيها العذاب ألوانًا.

والثالث: عن جَنَّتَي السابقين المقربين عند ربهم، وذلك من الآية السادسة والأربعين إلى الآية الحادية والستين، وفيه وصف لنعيم كلِّ مَنْ خاف مقام ربه، وصف يشرح الصدور، وتقرُّ به العيون، لأصحاب الدرجات العلا والنعيم المقيم.

والرابع: عن جَنَّتَي أهل اليمين من عامة المؤمنين، وذلك من الآية الثانية والستين إلى الآية الثامنة والسبعين، وفيه وصف لنعيم جمهور أهل الإيمان، وما أعده الله لهم من الخُضْرة، وعيون المياه، والفاكهة، والخيرات الحسان، والرفارف الخضر.

وخُتِمت السورة بتمجيد الله تعالى، والثناء عليه بما أنعم على عباده من مختلف النعم، وفيه تناسق مع بدء السورة في أروع صور البيان.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْمَجْمُوعَةُ الأُولَى مِنَ النِّعَمِ: عَشْرٌ مِنْ مِنَنِ اللهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ

١ – ٥ – ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ [(١)] ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ [(٢)] ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [(٣)].

في الخمس والعشرين آيةً الأولى من سورة الرحمن، ذَكر الله سبحانه وتعالى خمس عشرة نعمة أنعم بها على خلقه في مجموعتين من الآيات، ذكر في المجموعة الأولى منها، عشر نعم أو منن، في الثلاث عشرة آية الأولى، وذكر في المجموعة الثانية خمسًا أخرى في الآيات العشر التي تليها.

ومجمل هذه النعم العشر في المجموعة الأولى، هي: تعليم القرآن، وخلق الإنسان، وتعليمه البيان، وتنسيق الشمس والقمر بحسبان، ورفْع السماء، ووضْع الميزان، ووضع الأرض للخلق وما فيها من: فاكهة ونخل، ورمان وحب وريحان، وذلك أنه:

(أ) لَمَّا أنزل الله تعالى قوله: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٠] قال المشركون: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فأنكروه، وقالوا: لا نعرف الرحمن، فافتتح الله تعالى هذه السورة بما أنكره المكذبون، وهو اسم: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وفي هذا دليل على أن سورة الرحمن نزلت بعد سورة الفرقان.

(ب) ولما قال أهل مكة عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] أنزل الله تعالى يبيِّن أن الذي علَّم محمدًا القرآن، هو رب العالمين ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

والرحمن اسم من أسماء الله الحسنى، وهو يعدل اسم الجلالة ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

---

(١) عدَّ الشامي والكوفي ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ آية وتركها غيرهما.

(٢) لم يعد المدني الأول والمدني الأخير ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ آية، وعدها غيرهما.

(٣) قرأ ابن كثير بنقل حركة الهمزة إلى ما قبلهافي لفظ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ وكذا حمزة عندالوقف، والباقون بتحقيقها.

فبدْءُ السورة باسم الله العظيم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ يقع موقع الحروف الهجائية في أوائل بعض السور، للتعريض بذم الذين أخطؤوا، فأنكروا القرآن الكريم، أو أنكروا اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

وافتتاح السورة باسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، دون غيره من أسماء الله الحسنى، فيه جمْع بين الردَّين على ما سبق ذكره من إنكار المعارضين لاسم الرحمن، وقول بعضهم : ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤].

وبالإضافة إلى ذلك، ففيه تشويق إلى الخبر الذي يأتي بعده، فالمنكرون لاسم الرحمن، والمؤمنون به، يترقَّبون ما سيوصف به بعدُ.

وقد جاء الإخبار عن الرحمن سبحانه، بعشرة أخبار أومنن، جاءت في الآيات تباعاً: الأربعة الأولى جاءت متوالية بدون عطف، والستة التالية جاءت معطوفة بالواو، وكلها دالة على تصرفات الله تعالى في خلْقه وإبداعه لهذا الكون، ليَعْلَم المكذبون أن ما ينكرونه وهو اسم: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ هو نفسه اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ وأن المسمى واحد.

واسم الرحمن: يدل على سعة الرحمة، وعموم الإحسان، وجزيل الثواب، وسعة الفضل، وبهذا تنتهي الآية ليترقَّب القارئ والمستمع الخبر العظيم الذي تخفق له القلوب، وهو (تعليم القرآن) وبعده أخبار كثيرة، كلها نعم يمْتنُّ الله تعالى بها على خلقه، ويحثهم على شكره، وينبههم على تقصيرهم في حقه تعالى.

المنة الأولى: نعمة تعليم القرآن:

أول نعمة للرحمن على الإنسان من النعم الدينية والدنيوية والأخروية، أنه سبحانه ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: علّم عباده ألفاظ القرآن ومعانيه، ويسرها عليهم، وهو أعظم منة على الإنسان، قد اشتمل على خيري الدنيا والآخرة.

وهكذا: قدَّم الله تعالى في الذكر: أعظم نعمة أنعم بها على خلقه، وأجلَّها قدرًا، وأكثرها نفعًا، وأتمها فائدة، وأعظمها عائدًا، وهي نعمة تعليمهم القرآن؛ فإن فيه مدار السعادة في الدارين.

أي: أن الله تعالى لم يترك البشر دون هداية تقودهم إلى رضوانه تعالى، فكان هذا القرآن العظيم جامعًا لِماَ أُودع في صحف الأنبياء الأولين، ومتضمنًا أسباب الرشد للناس حتى قيام الساعة، فهو النعمة الأولى على صاحب الرسالة الخاتمة، وعلى الثقلين: الإنس والجن، وجاء ذلك في مفتتح سورة الآلاء والنعم.

وهو نعمة عظمى على كل من درَّسه وفقَّه الناس فيه: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[(١)]؛ لأنه يخلُف الأنبياء في تبليغ الرسالة ومحو الجاهلية، ولذلك فإن أبا عبدالرحمن السُّلمي قال: فذاك الذي أقعدني هذا المقعد، وقد ورد عنه أنه قال: (صُمْتُ ثمانين رمضان) ومات على الراجح سنة خمس وثمانين، عن تسعين سنة، وقد جلس ﷺ للإقراء أكثرمن اثنتين وسبعين سنة.

فالرحمن هو الذي علَّم محمدًا ﷺ القرآن، وفي هذا تبكيت لمن زعم أن محمدًا ﷺ علَّمه بشر.

والرحمن هو الذي علَّم الإنسان القرآن، ويسَّر له حِفْظه وتلاوته، وفهم معانيه.

والقرآن كلام الله تعالى المعجز، المنزل على رسوله ﷺ، المتعبَّد بتلاوته، المتحدَّى بأقصر سورة منه.

وقد ذُكِر لفظ القرآن في الكتاب العزيز في أربعة وخمسين موضعًا، لم يصرح في واحد منها أنه مخلوق.

ويتجلَّى ذلك واضحًا في أن القرآن الكريم ذكر لفظ الإنسان في ثمانية وعشرين موضعًا كلها تنص على خلقه، ومن ذلك ما جاء في سورة الرحمن، فقد قَرَنَتِ السورة بين القرآن والإنسان، ونصَّت على أن الرحمن سبحانه علَّم القرآن وخلق الإنسان.

---

(١) من حديث عثمان بن عفان ﷺ في البخاري (٥٠٢٨) وأبو داود (١٤٥٢) وابن ماجه (٢١١) و«المسند» (٤١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في «الكبرى» (٧٩٨٢).

المنة الثانية: خلق الإنسان:

كما جاء في قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي من العدم،وجعله كامل الأعضاء، وصوره فأحسن صورته، وكرمه وميزه على سائر الحيوانات، فمن نعم الله العظيمة أنه خلق جنس الإنسان في أحسن تقويم، خلقه سبحانه سميعًا بصيرًا ناطقًا، في أجمل صورة، وكرَّمه على سائر المخلوقات، فتميَّز على الأجناس الأخرى بالنطق والفهم والإفصاح عما يريد، وكان مستعدًّا لتلقِّي العلوم، وعبادة الله وتوحيده، والخلافة في أرضه، فعلَّمه بيان الدنيا والآخرة، وبيَّن له الحلال والحرام، ليحتج بها عليه، فحمَلَ الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال.

وخلْق الله تعالى للإنسان قضية لم يُنازِع فيها أحد، ولكن لَمَّا كان بعض الناس يتوجه بعبادته لغير الله تعالى، فقد ذكرها الله تعالى تعدادًا لنعمه تعالى عليهم، وللدلالة على أنه تعالى هو المستحق للعبادة دون سواه.

وفي خلق الإنسان تشريف له بإخراجه من غياهب العدم إلى حيِّز الوجود.

وقدَّم خلْقه على خلق السموات والأرض؛ لأنه المعنيُّ بتعليم القرآن.

المنة الثالثة: نعمة النطق والفصاحة

أي: إنه سبحانه جعل الإنسان مخلوقًا ناطقًا، فقد ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي: إن الله تعالى فضَّل الإنسان بنعمة العلْم والإبانة والإفصاح عما في نفسه وضميره، تمييزًا له عن الحيوان والجماد، فألْهَمهُ النطق، وعلَّمه الخط، وميَّزه عن سائر الحيوانات، وهو بهذا يفيد ويستفيد، وهذا من أجلِّ النعم، وقد يُعْرِب الإنسان عما في نفسه عن طريق الإشارة أو الإيماء، أو لمح النظر، وهذا أيضًا من مميزات الإنسان، وإن كان دون النطق.

ومعنى تعليم الإنسان البيان: أن الله تعالى خلق فيه الاستعداد للعلم، وألْهَمَهُ وسائل التعرف، كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

ومن ذلك معرفة التكاليف الشرعية، والعلوم الدينية والدنيوية، وخصائص اللغة

وآدابها، فمن خصائص الجنس البشري: نعمة البيان، ونقل تعاليم الإسلام ومحاسنه إلى الآخرين بمختلف لغات العالم.

وفي هذا تبكيت للإنسان على ما فيه من عدَم شكر الله تعالى على نعمه، حيث صرف كثير من الناس عبادتهم لغير الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى خلق الإنسان ليحيط علمًا بوحيه وكتبه، ومن ثم لعبادته وتوحيده.

المنة الرابعة: أنه سبحانه خلق الشمس والقمر لنفع الإنسان:

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: ومن الدلائل على تفرد الله تعالى بالخلق، وامتنانه على خلقه بالنعم، أنه تعالى خلق الشمس والقمر، وسخرهما يجريان بحسبان دقيق، وتقدير مقدر، وأنهما يجريان متعاقبين في بروجهما ومنازلهما بحساب متقن معلوم، لا يختلف ولا يضطرب، رحمة بالعباد وعناية بهم ليقوم بذلك مصالحهم.

وبدَوَرانهما يعرِفُ الناس السِّنين والشهور والأيام ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥].

ويعرفون مواعيد الصلاة والصيام والزكاة والحج ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[البقرة: ١٨٩].

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

ولولا الليل والنهار، والشمس والقمر، لم يَدْرِ أحد كيف يحسِب، ولولاها ما عرف الإنسان أوقات العبادة، ولا الآجال، ولا وقائع الدهر، فالكون محكوم بسُنن ضابطة، والكواكب لا تتجول في الفضاء كما يحلو لها، بل لها مسار مرسوم، وسرعة محدودة، وعليها إشراف دقيق!

والشمس ليست أكبر أجرام السماء، ولكنها النجم الأهم بالنسبة لسكان الأرض، فهم يعيشون على ضوئها وحرارتها وجاذبيتها.

والقمر تابع للأرض، وله أثر قوي في حركة المدِّ والجزْر في البحار.

يقول سيد قطب رحمه الله: إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين مليونًا ونصف المليون ميل، ولو كانت أقرب من ذلك بالنسبة لنا، لاحترقت الأرض أو انْصهرت، وتحولت بخارًا يصعد في الفضاء!! ولو كانت أبعد من ذلك لتجمَّد مَنْ في الأرض ومات، والذي يصل إلينا من حرارتها جزء من مليوني جزء من حرارتها، وهو القدْر الذي يلائم حياتنا.

ولو كان القمر أكبر من حجمه لكان المدُّ الذي يُحدثه في البحار كافيًا لِغَمْرِها بطوفان، يعم كل من عليها.

وجاذبية كلٍّ من الشمس والقمر للأرض لهما حساب دقيق في توازن وضعها، وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب، الذي تجري فيه المجموعة الشمسية بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه واحد، ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين، ولا يختلُّ مدار نجم بمقدار شعرة، ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة(١) فسبحان الخلاق العليم!

والله تعالى يَمنُّ على عباده بما أودع في الشمس والقمر من منافع للناس، كتنظيم معاملاتهم، واستعدادهم للسعي عند تغيُّر الأجواء، وتقلُّب الأرزاق، وتفرُّد رب العالمين بتقدير الكون وتدبيره ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

واكتفى القرآن الكريم بذكر الشمس والقمر دون بقية الكواكب، كالجوزاء والشِّعرى والثُّريا والأسد؛ لأن الشمس والقمر هما الباديان لأهل الأرض.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٣٤٤٨/٦) بتصرف، وأقول: لا بأس ببيان ذلك إن لم يوجد في الكتاب وصحيح السنة، ما يعارضه، فإن الحكمة ضالة المؤمن ولو كان القائل غير مسلم، فإن وُجد ما يردّه رفضْناه.

المِنَّةُ الخَامِسَةُ لِلرَّحْمَنِ عَلَى الإِنْسَانِ: أَنَّهُ سَخَّرَ لَهُ النَّبَاتَ وَالشَّجَرَ

٦ - ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾

وجاءت هذه المنة بعد النعم الأربع التي في أول السورة، معطوفة بالواو ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ والنعم الست التالية لا يراد بها التعريض بالمشركين ولا غيرهم، وإنما هي امتنان من الله تعالى على خلقه بذكر بعض النعم التي في الأرض، بعد ذكر بعض النعم التي في السماء.

والواسطة في ذلك هي لفظ: ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ فهو لفظ مشترك يراد به نجم السماء، ويراد به نجم الأرض، وهو النبات والحشيش الذي لا ساق له، وشاهد الأول قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]. قال مجاهد: هو النجم الذي في السماء[(١)]، وهو ظاهر اللفظ.

و يفسر ابن عباس رضي الله عنهما النجم في هذه الآية بأنه: النبات الذي لا ساق له، وهو ما انبسط على وجه الأرض[(٢)] من النبات والحشيش؛ لأنه ينجُم، أي: يظهر من الأرض بدون ساق.

والشجر: هو النبات الذي له ساق وارتفاع عن وجه الأرض، وينتفع بهما الإنسان والحيوان.

وتفسير النجم في الآية بهذا المعنى أنسب لازدواج الآيات، والنبات يناسب الشجر، ولا يناسب النجم السمائي.

وسجود النبات يكون بالتصاقه بالتراب، كالساجد على الأرض.

وسجود الشجر يكون بطأطأته عند هبوب الرياح، ودُنُوِّ أعضائه لمن يجني ثمره أو يقطف ورقه.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

---

(١) يُنظَر: الطبري (٢٢/١٧٤).

(٢) يُنظَر: الطبري (٢٢/١٧٤) وأبو الشيخ (١٢٢٢) والحاكم (٢/٤٧٤) وابن أبي حاتم وابن المنذر.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

فكل ما ينمو على الأرض من زرع له ساق مرتفعة، أو له ساق تمتد على الثرى، كلاهما خاضع لنظام محكم دقيق، كما قال تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

والنبات والشجر تَعرِف ربها وتسجد له وتطيعه وتخشاه، وتنقاد لما سخرها له من مصالح العباد ومنافعهم.

المِنَّةُ السَّادِسَةُ: رَفْعُ السَّمَاءِ بِلاَ عَمَدٍ

٧ — ٨ - ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ أي والسماء خلقها ورفع سقفها بقدرته فوق المخلوقات الأرضية، وهو رفْع بلا عمَد، وأحكم بناءها، وأنتم ترونها بأعينكم، وأوجد فيها الملائكة والعرش والكرسي وسدرة المنتهى قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سبحانه: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وقال جل شأنه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

ونعمة خلق السماء لنفع الإنسان لا تضاهيها نعمة!

المنة السابعة: إقامة العدل بين الناس:

ويقابل السماء: الأرض، التي وضع الله فيها العدل وأمر به، وشرَعَه لعباده في الأقوال والأفعال والحُكم بين الناس.

وقد شاع بين الناس إطلاق لفظ الميزان على العدل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

والمراد: أن الله تعالى أمر بالعدل، وجعله بين الناس لإقامة نظام الخلق وتحقيق العدل في الأرض.

وقَرْنُ العدل برفع السماء، فيه تنويه به، ورفع لشأنه، بنسبته إلى العالم العلوي، ونزوله إلى الأرض لإقامة الحق والفضائل بين الناس.

وقد تكرر اقتران مقتضى العدل بخلق السماء، في كثير من الآيات تحت مسمًّى ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] فالحق: هو العدل والإنصاف، وهو ضد الباطل، ومن ذلك الأثر: «بالعدل قامت السموات والأرض»[١].

وسُمِّي الميزان عدلًا لأنه آلة العدل.

وهو في الأصل: الآلة المعروفة التي يزن بها الناس الحبوب ونحوها، ونحن مكلفون بإقامة العدل بشكل عام، سواء في تبادل السلع أو في إعطاء كل ذي حق حقه من الناحية الإدارية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

ومن ثَمَّ يرتبط الحق والعدل في الأرض، بالسماء التي ينزل منها وحي الله تعالى ومنهجه.

وقد لا يقوم الناس بالعدل في الأرض، فيظهر الفساد فيها بسبب الظلم والفوضى في البر والبحر والجو ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم:٤١].

وقد يحدث ثُقْب في طبقة **الأوزون** - مثلًا - بسبب الطغيان والفساد، غير أن هذا الكون لن يضطرب في يد الخالق سبحانه، ولن يختل التوازن العام في قوانين المادة، إلى أن يأذن الله بفناء العالم وإعادة الخلق بعد بدْئه وفنائه.

الميزان حسي ومعنوي:

وكما سبق فإن الميزان في الآية يراد به: إقامة الحق والعدل بين الناس في الأحكام، ويدخل فيه الميزان المعروف، الذي توضع فيه الأشياء الموزونة ونحوها في البيع

(١) يُنظَر: فيض القدير (٢/ ٢٤٨).

والشراء، ويدخل فيه المكيال الذي تكال به السلع والمقادير، وكذا المساحات التي تضبط بها المجهولات.

كما يشمل الميزان: الخصومات والنزاعات التي تكون بين المخلوقات، ويقام به العدل بينهم، فهو ميزان حسي وميزان معنوي.

وقد أمرنا الله تعالى بالعدل فيهما؛ كي نجْتنب الجور والطغيان بتجاوز الحد فيهما زيادة أو نقصًا، وهذا معنى ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾. أي أنزل الله تعالى الميزان لئلا نتجاوز الحد في الميزان، ومن الطغيان في الميزان: دَحْضُ الحق، وإضاعته واحتقار أصحابه، والاستخفاف بهم مهما كانت الأسباب، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد توعَّد الله سبحانه المطففين في الكيل والميزان، بالويل والعذاب الشديد، في مثل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦].

فلا تعتدوا، ولا تخونوا، ولا تغْلوا، ولا تغدرُوا. قال تعالى:

٩ - ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾

ثم أكَّد سبحانه وتعالى ضرورة الالتزام بالعدل في جميع الأمور تأكيدًا صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: حققوا العدل وأقيموه بينكم على أكمل وجه وأتمه، واجعلوه ملازمًا لكم في جميع أموركم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والله تعالى يقيم العدل بين الناس يوم لقائه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وأمر سبحانه بوفاء الموازين والمكاييل في المعاملات بين الناس، فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤] أي: إذا وزنتم للناس أو كِلْتم لهم، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تُنقصوه ولا تجُورُوا فيه، واحذروا مقت الله وغضبه. قال تعالى:

١٠ ، ١١ - ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ[1] ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾﴾

المنة الثامنة: تسخير الأرض لجميع الخلق:

وهذا التسخير نعمة من ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ سبحانه، الوارد ذكرهُ في أول السورة.

أي: إن الله تعالى مهَّد الأرض وبسطها وجعلها موضوعة للناس على هذا النظام البديع ليستقر عليها الخلق، وينتفعوا بما على ظهرها، وقد أرساها بالجبال لئلَّا تميد بهم ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾.

ولأن الإنسان يألف هذه الأرض فيعيش فوقها مستقرًّا، ويُصبح ويُمسي، وهو يتقلَّب في هذه النعمة، فإنه قد لا يشعر بها إلا عندما يحدُث زلزال أو بُركان أو خسف في مكان من العالم، وأهل هذا المكان الذي يحدث فيه زلزال هم الذين يشعرون بنعمة الاستقرار فوق هذه الأرض.

فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، وقد يسَّر الله تعالى الحياة فوق هذه الأرض، وقدَّر فيها أقواتها، مع أنها تدُور بهم حول نفسها وحول الشمس، فهي تركض مع الشمس وتوابعها بسرعة مذهلة، والأنام لفظ يشمل الإنس والجن والحيوان.

المنة التاسعة: ثمرات الزروع والنخيل:

ومن نعم الله تعالى على خلقه، ما أوجده في الأرض من الأقوات والفواكه والروائح العطرية، ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿فَاكِهَةٌ﴾ وهي اسم لما يأكله الإنسان على وجه التلذُّذ والتفكُّه، كالعنب والتفاح والتين والرمان ونحوها، وليس من باب القوت الضروري ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي: ذات الأوعية التي يكون فيها الثمر فتخرج منه شيئاً فشيئاً ثم

---

(١) أسقط العدد المكي ﴿لِلْأَنَامِ﴾ فلم يعدّه آية، وعدّه الآخرون.

ينضج فيكون قوتاً يؤكل ويدّخر، ويتزوّد منه المقيم والمسافر.

والكِم - بكسر الكاف- هو وعاء كوز الطلع، وهو القنو، الذي يكون فيه بذور الثمر قبل ظهوره وخروج البلح منه.

والكِم في النبات: كل ما له وعاء يلفُّه ويستره، مثل كِم الزهرة، وكم الثوم، وهكذا.

وعطف النخل على الفاكهة لأهميته، فهو قوت وفاكهة، وهو يُثمر أصنافًا من الفاكهة من: رُطَب وبُسر وتمر، وله أطوار يكتمل فيها بدءًا من الطلع إلى التمر، حيث يُنتفَع بكل شيء فيه، من ليف، وسعَف، وجريد، وجذوع، وجُمّار، وثمر، وغير ذلك.

المِنَّةُ العَاشِرَةُ: نِعْمَةُ الحَبِّ وَالرَّيحَانِ

١٢، ١٣ - ﴿وَٱلْحَبُّ(١) ذُو(٢) ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ(٣) ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ(٤) ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

أي: وفي الأرض أنواع من الحبوب، كالحنطة والشعير والأرز والفول والعدس، من كل ما هو غذاء للإنسان يُقتات ويُدَّخر.

وتشتمل الحبوب على غذاء الحيوان، من القشر الذي يكون الحبُّ بداخلها، وكذا الساق الذي يَيْبَس ويكون هشيماً يداس ويُفتت، وهو التبن، والقش الذي تعصفه الرياح.

فالعصف: هو التبن والقشر، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥].

قال ابن عباس: **العصف**: ورق الزرع إذا يبس، والريحان ما أنبتت الأرض من الريحان الذي يُشم(٥).

(١ -٣) قرأ ابن عامر بنصب الألفاظ الثلاثة (والحبَّ ذا العصف والريحانَ) على إضمار فعل قبل (والحب)، تقديره أخص، أو خلق، و(ذا) صفة و(الريحان) معطوف عليه، وقرأ حمزة والكسائي برفع الأول والثاني عطفًا على (فاكهة) وجر (الريحانِ) عطفًا على العصف، وقرأ الباقون بالرفع في الثلاثة عطفًا على (فاكهة)، و(ذو) صفة (والحب).

(٤) قرأ الأصبهاني عن ورش بإبدال همزة (فبأي) ياء، وصلاً ووقفاً في جميع السورة، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بتحقيقها مفتوحة.

(٥) «تفسير الطبري» (٢٢/١٨٣).

ويخرج من الأرض كذلك كل ما له رائحة زكية، من الأزهار والرياحين والورد والياسمين، وهكذا، يمن الله على عبادة بأنواع الروائح الطيبة، وهي من الكماليَّات ومتع الحياة الزائدة بعد أن منّ عليهم بكل ما هو ضروري من القوت وما يليه في الأهمية من الفواكه التي تؤكل تفكهاً وتلذذاً، فهذه ثلاثة أنواع من النعم: القوت، والفاكهة، والروائح الزكية قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

وإلى هنا ينتهي هذا المقطع من تعداد عشرة أنعم من نعم الله تعالى وآلائه، جاء ذكرها في أول السورة، وهي:

تعليم القرآن، وخلْق الإنسان، وتعليمه البيان، وتنسيق الشمس والقمر بحسبان، ورفع السماء بلا عمد، ووضع الميزان، ووضْع الأرض للأنام، وما فيها من فاكهة ونخل ورُطَب وحب ورَيْحان.

آية الفصل بين كل نعمتين، ذُكرتْ إحدى وثلاثين مرة في السورة:

ثم يخاطب الله تعالى الجن والإنس؛ ليسجل عليهم النعم السابقة في هذا الكون، ويُشْهِدهم عليها، وخصَّ الجن والإنس بالذكر؛ لأنهم المكلفون بعبادة الله تعالى في الأرض ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعمة من نعم الله الدينية والدنيوية -يا معشر الجن والإنس- تكذبان؟ ومن نعمه تعالى تسخير الأرض، وخلق ما فيها من زرع وفاكهة ونخل وحب وريحان... الخ، فالآلاء هي النعم.

وما أحسن جواب الجن، حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فكلما مرَّ بهذه الآية قالوا: «**ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد**».

وهكذا ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله تعالى وآلاؤه أن يُقِرَّ بها، ويشكر الله ويحمده عليها، ويقوم بحق الله عليه فيها من وجوب توحيد الله تعالى وعبادته.

ومسؤولية الجن كمسؤولية الإنس مقررة في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وقد ذُكرتْ هذه الآية إحدى وثلاثين مرة في السورة تقريرًا للنعمة، وتأكيدًا للتذكير بها، وذلك كقول الرجل لمن أحسن إليه وهو ينكر هذا الإحسان: ألم تكن فقيرًا فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن عريانًا فكسوتك؟ أفتنكر هذا؟ وهكذا كما يركز رجال الإعلام على أمر هام، فيكرروه ويعيدوه ليل نهار، حتى يصل خبره إلى الناس جميعاً، ولله المثل الأعلى.

وجاء ذكر هذه الآية، ثماني مرات عقب آيات فيها تعداد عجائب الخلق، مبدئه ومنتهاه.

ثم ذُكرتْ سبع مرات، عقب آيات ذُكرت فيها النار وشدائدها، وكان ذلك بعدد أبواب جهنم والعياذ بالله.

ثم ذُكرتْ ثماني مرات، في وصف الجنتين وأهلهما من السابقين المقربين، وكان ذلك بعدد أبواب الجنة، اللهم اجعلنا من أهلها، ووفقنا للعمل الذي يؤهِّلنا لها.

كما ذُكرتْ ثماني مرات في الجنتين بعدهما لأهل اليمين، وهما دون الجنتين قبلهما.

فَمَنْ عمل بمقتضى الثماني الأولى، استحق الثماني الأخرى، ووقاه الله السبع الخاصة بجهنم، بفضل الله تعالى وكرمه(١).

وقد جاءت هذه الآية للفصل بين كل نعمتين، لينبههم الله تعالى عليها، ويقررهم بها؛ وذلك لأن الله تعالى ذكَر في هذه السورة ما يدل على وحدانيته تعالى من خلْق الإنسان، وتعليمه البيان، وخلْق الشمس والقمر، والسماء والأرض، وغير ذلك مما أنعم الله به على خلْقه.

وقد خاطب الله تعالى الجن والإنس معًا في السورة، تقريرًا وتذكيرًا بنعم الله تعالى التي لا يستطيع أحد أن يجحدها.

---

(١) يُنظَر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٤/٢٥٤).

الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَةُ: خَمْسُ مِنَنٍ أُخْرَى مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ

١٤- ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ[1] كَٱلْفَخَّارِ﴾.

ثم تأتي مجموعة ثانية من النعم، تشتمل على الأصل الذي خُلق منه الإنس والجن، وتبيِّن أن خالقهما هو خالق المشرق والمغرب، وخالق البحار والأنهار، وما يخرج منهما وما يجري فيهما، فهذه خمسة مخلوقات: الإنس، والجن، والمشرق، والمغرب، والبحار.

الْمِنَّةُ الأُولَى: خَلْقُ الإِنْسِ وَالْجِنِّ

وتبدأ الآيات بالإنسان ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي: خلق الله آدم -وهو الإنسان الأول- من طين مبلول ثم جف، فصار يابساً كالفخار الذي طبخ على النار، يُسمَع له رنين إذا نُقر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

أي: من طين أسود متغير.

قال مجاهد: **الصلصال**: التراب اليابس الذي يُسمع له صلصلة، فهو كالفخار.

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات:١١] أي يلتصق باليد.

وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ولا تنافي بينها إنما هو تدرج في الخلق.

وذلك لأن الله تعالى أخذ قبضة من تراب الأرض، فعُجن بالماء، فصار طينًا لازبًا يلتصق باليد، ثم تركه حتى صار حمأ مسنونًا، أي: طينًا أسودَ منتنًا، ثم صوَّره كما تُصور الأواني، ثم أيْبسَهُ حتى صار في غاية الصلابة كالفخار، إذا نُقر كان له صوت.

فأطوار خلق آدم أربعة: التراب، الطين، صلصال من حمأ مسنون، صلصال كالفخار.

والمذكور هنا: هو آخر الأطوار، فقد خُلقت ذرية آدم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يكون عظمًا، ثم يُكسى العظم باللحم، ثم ينفخ الله فيه من روحه، ثم يصير

---

(٢) غلَّظ الأزرق عن ورش لام (صلصال) الأولى ورققها، والباقون بترقيقها قولاً واحداً.

بشرًا سويًا، هذه هي النشأة الأولى.

وسيملأ الإنسان أرجاء الأرض، ثم يغلبهم الموت جميعًا، ثم يستيقظون للحساب والجزاء.

وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي على عناصر التراب الذي خُلق منه، فهو يتكون من: الكربون، والكلور، والأكسجين، والأيدروجين، والفسفور، والكبريت، والكالسيوم، والحديد، ... إلخ، وما أثبته العلم يقبل الخطأ والصواب، والتعديل والتبديل، والقرآن معجز إعجازًا مطلقًا، سواء وافقه العلم أم خالفه[1].

١٥، ١٦ - ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾

أي وخلق الله إبليس - وهو أبو الجن- من لهب النار الصافي المختلط بعناصر أخرى كالدخان، لكن النار تغلب عليه، والمراد: لهب النار الخالص الذي لا دخان فيه.

قال مجاهد في معنى من ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾: هو اللهب الأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أُوقِدت[2].

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانُّ من مارج من نار، وخُلق آدم عليه السلام مما وصف لكم»[3].

وقد فضَّل الله الإنسان على الجانِّ، حيث أُمر الجانُّ بالسجود للإنسان، والإنسان هو المؤهل لعمران العالم، لكونه مخلوقًا من الطين، وخلْقُ الجانِّ من مارج من نار مسألة خارجة عن حدود العلم البشري، والمصدر الوحيد في ذلك هو الخبر الصادق عن رب العالمين، فهو أعلم بمن خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/٣٤٥١).

(٢) الطبري (٢٢/١٩٦).

(٣) «المسند» (٦/١٦٨) (٢٥١٩٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وهو مكرر برقم (٢٥٣٥٤) سنداً ومتناً، وأخرجه مسلم برقم (٢٩٩٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات، وفي الشعب (١٤٣) و(٨١٨)، وعبد بن حميد (١٤٧٩) «المنتخب»، وعبد الرزاق (٢٠٩٠٤) وابن حبان (٦١٥٥).

والنار التي خلق منهاالجان هي محل الخفة والطيش والشر والفساد، بخلاف الطين والتراب الذي خلق منه الإنسان فهو محل الثقل والرزانة والمنافع والتواضع.

ثم وبَّخ الله المكذبين من الجن والإنس على عدم الاعتراف بنعم الله تعالى، وعدم القيام بشكرها، ومن هذه النعم خلْق الإنسان من نطفة، وخلق الجان من نار.

قال ابن قتيبة: إن الله تعالى عدَّد في هذه السورة نعماء، وذكَّر خلقه بآلاء، ثم أتبع كل خلَّة وضعها ونعمة وصفها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين؛ لينبههم على النعم ويقررهم بها.

المِنَّةُ الثَّانِيَةُ: خَلْقُ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ

١٧، ١٨ - ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

أي: وهو سبحانه رب كل مَا أشرقت عليه الشمس والقمر والكواكب النيرِّة، وكل ما غربت عليه، والكل مخلوق لله تعالى مربوب إليه، والكون كله تحت تدبيره وتصرفه.

وقد جاء في القرآن الكريم إفراد المشرق والمغرب، وجاء تثنيتهما، وجمعهما:

١. ففي إفرادهما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل] والمراد بهذا: جهة الشروق، وجهة الغروب.

٢. والآية التي معنا جاءت بالتثنية، قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ والمراد: رب مشرقي الشمس في الصيف والشتاء، ومغربي الشمس في الصيف والشتاء.

٣. وجاء الجمع في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الشتاء، ومطلع في الصيف ومغرب في الصيف، غير مَطْلَعِهما في الشتاء وغير مَغْرِبهما في الشتاء[1].

والمعنى: أن للشمس ثلاث مئة وستون مشرقًا، بعدد أيام العام، وأنَّ لكل يوم مشرقًا

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٤/١١١).

معيَّنًا تشرق منه الشمس، أي: رب جميع المشارق التي تشرق منها الشمس في كل يوم، على مدار العام، إذْ لها في كل يوم مشرق تشرق منه، ولها أيضًا في كل يوم، مغرب تَغرب فيه، بعدد أيام العام، ومشرق الشمس في الصيف هو غاية ارتفاعها، ومشرقها في الشتاء هو غاية انخفاضها، فبأي نعم ربكما - أيها الثقلان من الجن والإنس - تكذبان؟ وقد خلق لكم ومن أجلكم المشرقين والمغربين لنفعكم وفائدتكم.

المِنَّةُ الثَّالِثَةُ: خَلْطُ الْمَاءِ الْعَذْبِ بِالْمَاءِ الْمِلْحِ وَلاَ يُغَيِّرُ أَحَدُهُمَا طَعْمَ الآخَرِ

١٩ – ٢١- ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾

ومن عظيم قدرة الله تعالى: أنه خلط ماء البحر العذب بماء البحر المالح، فأرسلهما وجعلهما متجاورين يلتقيان ويختلطان ولا يمتزجان، مع أن أحدهما يصبُّ في الآخر، والمياه غمرة كثيرة متدفقة، ومع هذا لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فيشرب الناس والحيوان والزرع والأشجار من الماء العذب، ويطيب الهواء، ويتولد الحوت والسمك واللؤلؤ والمرجان من الماء الملح، ويكون مستقراً مسخراً للسفن والمراكب. ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: أرسلهما، وجعل كلًّا منهما يمشي وفق ما يشاء، ولا يبغي أحدهما على صاحبه ولا يأخذ منه شيئًا، ولا يتأثر به في لونه أو طعمه أو رائحته أو مذاقه، بل حجز سبحانه كلًّا منهما عن الآخر بقدرته ولطفه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢].

ومن ذلك التقاء ماء الفرات بالخليج الفارسي في شاطئ البصرة، أو التقاء البحر الأحمر ببحر العرب، وغير ذلك.

ومع التقاء البحرين واختلاط مائهما ببعض، فإن بين الماء الملح والعذب، فاصلًا، بحيث لا يُغيِّر أحد البحرين طعم الآخر، وذلك بما أودع الله في كل منهما من خصائص

تمنع اختلاط أحدهما بالآخر، بحيث لا يفسد الماء الملح طعم الماء العذب ولا يغيِّر طعمه، وهذا ثقل نوعيٌّ أوْدعه الله تعالى في كل من الماءين.

والبرزخ هنا تشبيه بليغ، أي: بينهما مِثْلُ البرزخ، فلا يغلب أحد الماءين الآخر، فيُفسِد طعمه، وهذا يشمل البحار والمحيطات، ويشمل جميع الأنهار، ويجوز أن يكون البرزخ حاجزًا ماديًّا، فاصلًا بين الماء العذب والملح، ويكون المراد بذلك: بحرين معيَّنين، هما: البحر الأحمر وبحر العرب، ويكون الفاصل بينهما باب المندب[1].

والماء العذب يُنتفع به في الشراب للإنسان والدواب والنبات، أما الماء الملح فإنه يُنتفع به في أشياء أخرى، كاستخراج الملح منه.

والماء الملح: ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية، والماء العذب: يمثل الربع، وجميع الأنهار تصب في البحار، ومستوى سطح البحار أعلى من مستوى سطح الأنهار، ومن ثَمَّ لا يبغي البحر على النهر الذي يُصَّب فيه، والبرزخ بينهما من صنع الله سبحانه.

فبأي نعم ربكما -أيها الثقلان- تكذبان؟ ومن هذه النعم وجود الماء العذب والماء الملح وعدم اختلاطهما بقدرة الله تعالى.

المِنَّةُ الرَّابِعَةُ: خُرُوجُ اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ مِنَ الْبِحَارِ

٢٢، ٢٣ - ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾

ويخرج من البحار: اللؤلؤ والمرجان، وهما من نعم الله على الإنسان.

واللؤلؤ: حيوان يهبط إلى أعماق البحر، وهو داخل صدفة من المواد الجيريَّة لتقيه من الأخطار، فإذا دخلتْ ذرَّة رمل، أو قطعة حَصَى إلى الصدفة، أفرز الحيوان مادة لَزِجة يغطيها بها ثم تتجمد، وتكون اللؤلؤة على حسب حجم الذرة.

أما المرجان: فهو حيوان يعيش في البحار على عمق يتراوح بين خمسة أمتار وثلاث مئة متر، وفتحة فمه في أعلى جسمه، محاطة بعدد من الزوائد، يستعملها في غذائه من

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/٢٤٤).

الأحياء الدقيقة، كبراغيث الماء، ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسليَّة منه، يتم بها إخصاب البويْضات، حيث يتكون الجنين.

وشجرة المرجان تكون ذات ساق سميكة، يبلغ طولها ثلاثين سنتيمترًا، وألوانها مختلفة: صفراء، وحمراء، وبرتقالية، وباهتة... ومن اللؤلؤ والمرجان يُتخذ الحُلي الذي تتحلى به النساء، وهو يخرج من البحار دون الأنهار[١].

وقيل: إن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحار والأنهار معًا وفقًا لظاهر الآية، ولأنهما لَمَّا التقيا كانا كالشيء الواحد.

وقد أثبتت البحوث العلمية الحديثة أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من الأنهار العذبة التي في ضواحي ويلز، واسكتلندا في ضواحي بريطانيا[٢].

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[فاطر: ١٢].

أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها، فما وقع فيها من قطر فهو اللؤلؤ[٣].

وقيل: إن اللؤلؤ صغار الدر، والمرجان كباره.

فبأي نعمة من نعم ربكما - يا معشر الجن والإنس - تكذبان؟ ومن نعم الله تعالى ما يخرج من البحرين كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما.

المِنَّةُ الخَامِسَةُ: سَيْرُ السُّفُنِ فِي البِحَارِ

٢٤، ٢٥ - ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ[٤] الْمُنشَآتُ[٥] فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

---

(١) يُنظَر: «كتاب الله والعلم الحديث» عبد الرزاق نوفل ص ١٥٠ بتصرف.

(٢) «دائرة معارف الشعب» المصرية، العدد ٧٣ ص ٥٣٧.

(٣) الطبري (٢٢/٢٠٨) وابن أبي الدنيا (٨) وغيرهما.

(٤) وقف يعقوب على (الجوارِ) بالياء، والباقون بدونها.

(٥) كسر الشين من (المنشِآت) حمزة وشعبة بخلْف عنه، اسم فاعل، والباقون بالفتح، اسم مفعول، وهو الوجه الثاني لشعبة.

ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى من نعم البحار، فبيَّن أن السفن الضخمة التي تجري في البحر وتمخر فيه وتشقه بإذن الله لمنافع الناس، رافعة قلاعها وأشرِعتها كالجبال العظيمة، هي من مِلْك الله تعالى، ومن نعمه على خلقه، فيركبها الناس ويحملون عليها أمتعتهم وتجاراتهم وغير ذلك مما تدعو إليه الحاجة والضرورة، وقد حفظها الله بحفظه.

واللام من ﴿وَلَهُ﴾ للملك، أي: إن تسخير السفن وهي تسير في البحر بأمر الله تعالى هي من ملك الله وحده، ومن نعمه على خلقه.

والجوارِ: هي السفن، ومعنى كالأعلام، أي: كالجبال، فالسفن في البحر كالجبال في البر، ومعنى المنشآت: أي: إن السفن مرفوعة الشراع، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥].

قال شيخ زادة: واعلم أن أصول الأشياء أربعة: التراب، والماء، والهواء، والنار، فبيَّن تعالى بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ أن التراب أصل لمخلوق شريف مكرَّم.

ثم بيَّن بقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ أن النار أصل لمخلوق عجيب الشأن.

وبيَّن بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أن الماء أصل لمخلوق آخر له قدر وقيمة.

ثم ذكر سبحانه أن الهواء له تأثير عظيم في جزي السفن المشابهة للجبال، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ وخص السفن بالذكر؛ لأن جريها في البحر لا صنع للبشر فيه، وهم معترفون بذلك حيث يقولون: لك الفُلْك ولك الملك.

وإذا خافوا الغرق دعوا الله خاصة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾[1] [العنكبوت: ٦٥].

---

(١) «حاشية شيخ زادة على البيضاوي» (٣/٤٣٠).

فبأي نعمة من نعم ربكما -يا معشر الجن والإنس- تكذبان؟ ومن نعمه تعالى هذا السفن التي تجري في البحار مرفوعة الشراع لنقل الإنسان والمتاع والأحمال الثقيلة.

اللهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْبَقَاءِ بَعْدَ فَنَاءِ الْعَالَمِ

٢٦ - ٢٨ -﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

وبعد هذه النعم التي استعرضت صفحة الكون، تُطوى صفحة الخلق الفاني، وتتوارى أشباح الخلائق، وكان آخرها جزي السفن في البحر بأمر الله تعالى، والإنسان وهو في البحر مُعَرَّض للنجاة والهلاك.

والنجاة: نعمة من الله تعالى على عباده، فإذا قدَّر الله لهم الفناء، فإن هذا هو نهاية أعمارهم، كما قال تعالى:﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾(١) [آل عمران: ١٥٤].

وفي كلتا الحالتين يجب على العباد أن يستعدُّوا للحياة الباقية بفعل الصالحات، وأن يتفكروا في عظيم قدرة الله تعالى، ويُقبلوا على توحيده وطلب مرضاته، ولذلك فإن الآيات تَطْوِي صفحة الخلْق الفاني، والأشباح المتوارية، لتفرَغ من كل حي، وتُبرز المتفرد بالبقاء في عليائه.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: كل من على وجه الأرض من الخلائق هالك سيموت، فلو كانت الدنيا تدوم لواحد لكان رسول الله حيًّا وباقيًا، قال سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر].

فجميع الخلق من إنسان أو حيوان، أو جن، أو دواب، أو حشرات، و غيرها صائر إلى الزوال والفناء، وهذا تذكير بالموت وما بعده من بعث وحساب وجزاء.

قال القرطبي: لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فنزلت: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨] فأيقنت الملائكة بالهلاك.

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٦٥/١٧).

ويعد أن قضى الله تعالى على جميع الخلائق بالفناء، أثبت البقاء له وحده، وأثبت تفرده سبحانه بالجلال والدوام، فهو ذو العظمة والجود، والسلطان والكبرياء والفضل، والاستغناء المطلق، وهو الحي الذي لا يموت، وهو سبحانه المنعم على عباده بشتى النعم.

والآية تُثبت صفة الوجه لله تعالى على نحو يليق بجلاله، دون تشبيه ولا تأويل، ولا تعطيل ولا تحريف، وليس هذا من باب التجسيم، وإنما هو إثبات لما أثبته الله لنفسه، بالإضافة إلى أنه سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والمراد: أن ذاته تعالى هي الباقية، والمخاطَب: هو النبي ﷺ أو هو كل إنسان وكل مخاطب، وهو سبحانه ذو العظمة والكبرياء وهو واسع الفضل والجود، فهو الذي يعظم ويبجّل، فهو (ذو الجلال) وهو الذي يكرم خواص خلقه وأوليائه بأنواع الإكرام وواسع العطاء، فيحبهم وينيبون إليه.

وفي الحديث: عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام**»[1] ومعنى «أَلِظُّوا»: الزمُوا وداومُوا على هذا الدعاء.

وورد في حديث معاذ: أن النبيَّ ﷺ مرَّ على رجل وهو يصلي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: «**قد استجيب لك فسل**»[2].

قيل: هو اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب.

والفناء نعمة؛ لأنه يُفضي بالمؤمنين إلى النعيم الدائم.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٤) وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وأخرجه أبو يعلى (٦/٤٤٥) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٩٧) وأخرجه أحمد عن ربيعة بن عامر (١٧٥٩٦) بإسناد صحيح كما قال محققوه، وكذا النسائي في «السنن الكبرى» (٧٧١٦، ١١٥٦٣).

(٢) «تفسير النسفي» (٤/٢١١) بحاشية الخازن والحديث في «المسند» (٤/١٧٧،(٢٢٠١٧) و(٢٢٠٥٦) وإسناده حسن (محققوه)، والنسائي في «الكبرى» (٦٥٦٣) وهو في الترمذي (٣٥٢٧) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. والبيهقي في الشعب (٩٠٤٦) والطبراني في الأوسط (٤٣٧) (١٥٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٢٥) وضعّفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٧٠٦).

قال يحيى بن معاذ: حبذا الموت فهو الذي يقرب الحبيب إلى الحبيب، ولذا أعقب الله الفناء لخلقه بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبقاء وجه الله الكريم هو أساس النعم؛ لأن الحي الباقي هو الذي يخلُق ويُبدع، وهو الذي يبعث ويُدخل الجنة، ويُحاسب ويُجازي، فهو سبحانه مصدر النعم.

وفي الموت تسوية بين الخلائق جميعًا، فلا يبقى على وجه الأرض ولا في جو السماء ملك، ولا سلطان، ولا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا تجرع كأس الموت، ولولا الموت ما عبرنا إلى دار الثواب والجزاء، وفي هذا نعمة عظمى، فكيف تكذبان بهاتين النعمتين أيها الإنس والجن؟

افْتِقَارُ الْخَلْقِ جَمِيعًا إِلَى اللهِ وَحْدَهُ

٢٩، ٣٠ - ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

وبما أن الناس تنقرض منهم أجيال، وتبقى أجيال، وكل باقٍ يحتاج إلى أسباب بقائه ومقومات حياته، وصلاح أحواله، فهو في حاجة إلى الذي لا يفنى ولا يحتاج إليهم، لأنه سبحانه الغني عن جميع مخلوقاته،وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، وجميع من في هذا الكون محتاج إليه سبحانه، فالكل يسأله حاجته بالليل والنهار، يسألونه بلسان الحال ولسان المقال، ولا يستغنون عنه طرفة عين حتى الملائكة، فإنهم يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن في الأرض، ويسألون ربهم الرضا عن عباده المؤمنين.

والبشَر يسألون ربهم نعم الدنيا، ويسألونه النجاة في الآخرة ورفع الدرجات فيها.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾ كل ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حاجاتهم، فلا غنى لأحد منهم عنه سبحانه، الكل يسأله:

أهل السموات يسألونه المغفرة، ولا يسألونه الرزق.

وأهل الأرض يسألونه المغفرة، ويسألونه الثراء والصحة والرزق والعوْن، بلسان الحال والمقال.

والله تعالى يقضي حاجات عباده كلها كلما سألوه، ولا يستغني عن سؤاله أهل الأرض ولا أهل السماء ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي: كل لحظة، وكل دقيقة، وكل ساعة، هو سبحانه في شأن من شؤون خلقه، والشأن هو الشيء العظيم والحدث المهم، وما هو أدنى من الشأن الكبير أولى بتصريف الله تعالى له.

وفي كل وقت تتعلق قدرة الله تعالى بأمور يبرزها، ويتعلق أمره بالإيجاد والإعدام.

قيل: إن هذه الآية نزلت ردًا على اليهود حيث قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت[1].

قال المفسرون: من شأنه تعالى أن يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، ويُعزّ قومًا ويذلّ قومًا آخرين، ويَشفي مريضًا ويُمرض صحيحًا، ويفُكّ عانيًا، ويفرِّج عن مكروب، ويجيب داعيًا، ويُعطي سائلًا، ويغفر ذنبًا، وينفِّس كربًا، ويُغني محتاجًا، ويَضُر وينفع، ويعطي ويمنع، يغني فقيراً ويجبر كسيراً، ويرفع أقواما ويضع آخرين إلى ما لا يحصى من أفعاله تعالى وأحواله مع خلقه في أمور الدنيا، أما أمور الآخرة فهي الحساب والجزاء، والثواب والعقاب، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تختلط عليه المسائل، ولايبرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين.

قال الحسين بن الفضل في معنى الشأن: هو سوْق المقادير إلى المواقيت، بمعنى: أن الله عزَّ وجلَّ كتب ما يكون في كل يوم، وقدَّر ما هو كائن، فإذا جاء ذلك الوقت تعلقت إرادته بالفعل، فيوجده في ذلك الوقت.

ولما سأله عبد الله بن طاهر قائلًا: قد أُشكل عليّ قوله هذا، وقد صح أن القلم جفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال: إنها شؤون يُبديها لا شؤون يبتديها، وهذه الشؤون لا تخالف ما سطَّره القلم[2].

وهذا العطاء الإلهي يتعلق بكل رطب ويابس: الأسماك في بحارها، والديدان في مساربها، والحشرات في مخابئها، والوحوش في أوكارها، والطيور في أعشاشها، وكل

(١، ٢) «تفسير الخازن» بتصرف (٢١١/٤) والألوسي (١١١/٢٧) و«المحرر الوجيز» (٢٣٠/٥).

بيضة وكل فرخ، وكل جناح وكل ريشة، وكل خلية في جسم الحي، وكل سؤال يكون التوجه فيه إلى رب الأرض والسماء، وليس إلى نبي مرسل، ولا وليّ تقي، فماذا يملك الفاني للفاني؟ وماذا يملك المحتاج للمحتاج؟[1].

سأل بعض الملوك وزيره عن معنى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فاستمهله إلى الغد، وذهب كئيبًا يفكر فيها، فقال له غلام أسود: يا مولاي، أخبرني عما أهمّك، لعل الله يسهِّل لك على يدي، فأخبره، فقال: أنا أفسِّرها لك، قال له: أيها الملك: شأن الله تعالى أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيمًا، ويسقم سليمًا، ويبتلي معافًى، ويعافي مبتلًى، ويعز ذليلًا، ويذل عزيزًا، ويفقر غنيًّا، ويغني فقيرًا، فقال الأمير: أحسنت، وخلع عليه ثياب الوزارة، فقال: يا مولاي، هذا من شأن الله[2].

وعن أبي الدرداء ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال في معنى الآية: «من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرِّج كربًا، ويرفع قومًا، ويخفض آخرين»[3].

وعن عبيد بن عمير قال: من شأنه أن يجيب داعيًا، ويعطي سائلًا، ويفك عانيًا، ويشفي سقيمًا[4].

وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السماء والأرض، يحيي حيًّا، ويميت ميّتًا، ويربي صغيرًا، ويفك أسيرًا، ويُغني فقيرًا، وهو مردُّ حاجات الصالحين، ومنتهى شكواهم،

---

(١) «في ظلال القرآن» (٧/٣٤٥٥).

(٢) «تفسير النسفي» (٤/٢١١) بحاشية الخازن.

(٣) «سنن ابن ماجه» (٢٠٢)، قال البوصيري: هذا إسناد حسن، لتقاصُر الوزير - أحد الرواة - عن درجة الحفظ والإتقان «مصباح الزجاجة» (١/٨٨) وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١/٤٠) برقم (١٦٧) و«في ظلال الجنة» (٣٠١) وأخرجه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٣٠١) وابن حبان (٦٨٩) والطبراني في «الأوسط» (٣١٤٠).

(٤) ابن أبي شيبة (١٣/٤٤٠) وابن جرير (٢٢/٢١٣) والبيهقي (١١٠٣).

وصريخُ الأخيار[١].

وتلبيةُ حاجات العباد، وإجابة أسئلتهم، وتدبير شؤونهم، من نعم الله تعالى على خلقه.

وتدبير شؤون الخلق من أعظم نعم الله على الثقلين فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه الأرض والسماء، وعم لطفه جميع خلقه الكائنات، لا يمنعه معصية العاصين، ولاجهل الجاهلين، ولا استغناء المحتاجين، وهذه الشؤون والتدابير مقدّرة في الأزل، ينفذها سبحانه في أوقاتها بمقتضى أوامره ونواهيه، وهي الأحكام التي قدرها الله على عباده في الحياة الدنيا، فإذا انتهت هذه الحياة، ونقل المكلفون من دار الإبتلاء والامتحان إلى دار الثواب والعقاب، نفّذ الله فيهم أحكام الجزاء والعدل والفضل والإحسان ، فبأي هذه النعم تكذبان أيها الثقلان؟

لا مَفَرَّ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ

٣١، ٣٢ - ﴿سَنَفْرُغُ[٢] لَكُمْ أَيُّهَ[٣] ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾

وبعد الفراغ من أحوال الدنيا، يُذكِّرنا الله تعالى بأحوال الآخرة، فبيَّن سبحانه أن الجن والإنس سيُعرضون على رب العالمين ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ أي: سننظر في شؤونكم يوم القيامة - يا معشر الجن والإنس - فنحاسبكم ونجازيكم على كل ما قدمت أيديكم في الدنيا، فنعاقب أهل المعاصي، ونثيب أهل الطاعة.

والآية بمثابة التهديد والوعيد، ولذلك فإن الله تعالى بدأها بقوله: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ أي: نتجرد لحسابكم، وننظر في أمركم، وليس معناها أن الله تعالى مشغول، وأنه سيتفرغ لهم

---

(١) الطبري (٢٢/ ٢١٢).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء في (سنفرغ) والفاعل ضمير يعود على اسم الجلالة، والباقون بنون العظمة على الالتفات.

(٣) رُسِم لفظ (أيها) في المصحف بدون ألف هكذا (أيه) وقد قرأ ابن عامر بضم الهاء وصلًا وإسكانها وقفًا، وضم الهاء لمناسبة ضم الياء، وقرأ الباقون بفتح الهاء وحذف الألف وصلًا، ووقف عليها بالألف بعد الهاء أبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف الباقون بحذف الألف وسكون الهاء.

يوم القيامة؛ لأن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن، والتفرغ بعد الشغل من شأن الخلق، وهذا كما يقول إنسان لآخر يتهدده: سأفرغ لك، وأستعدُّ للانتقام منك.

والثقلان: هما الإنس والجن.

قال جعفر الصادق: سُمِّيا كذلك لأنهما مُثْقلان بالذنوب.

وفي الحديث عن أبي الطُّفيل أن رسول الله ﷺ قال: «**إني تارك فيكم الثِّقْلَيْن أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله، وعترتي أهلي بيتي**»[1] فجعلهما ثِقْلين إعظامًا لقدرهما.

فبأي نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان؟

لا يُمْكِنُ لِمَخْلُوقٍ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مُلْكِ اللهِ تَعَالَى

٣٣، ٣٤ - ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾

وبعد أن توعَّد الله تعالى الجن والإنس بالحساب والجزاء في يوم الحشر والنشر، بيَّن سبحانه وتعالى أن الخلق يوم القيامة في قبضته جلَّ شأنه، وتحت سلطانه، بحيث لا يمكنهم الفرار أو الهرب من هذا الموقف العصيب، فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، ولا قدرة لأحد على الانفلات أو التخلص من ساحة العرض والحساب، فالكون كله ملك الله، فأين يذهبون؟ وأين يفرون؟ فأينما ذهبتم فأنتم في أرض الله وسمائه، وأنتم في قبضته، وتحت قدرته وتصرفه.

وفي يوم الحشر تتشقق السماء وتكون أبوابًا وطرقًا لنزول الملائكة، فتكون صفوفًا سبعة تحدق بالخلائق من كل جانب، فلا يستطيع أحد الذهاب إلا بأمر الله تعالى وإرادته قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة:].

---

(١) السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني برقم (١٧٥٠) وفي المعجم الكبير للطبراني برقم (٤٩٨٠) من حديث زيد بن أرقم، وهو في المسند برقم (١٥٧٨، ٢١٦٥٤) بنحوه، وهو حديث صحيح بشواهده وأخرجه عبد بن حميد (٢٤٠)، وابن أبي عاصم (٧٥٤).

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ المعشر: العدد الكبير الذي يُعد بالعشرات والمئات والآلاف والملايين.

وقدَّم الله تعالى في هذه الآية الجن على الإنس؛ لأنهم أقدر من الإنس على الهرب والفرار، وأقوى على ذلك.

فيأيها الثقلان: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فتجدون منفذاً أو مخرجاً أو مسلكاً تخرجون به عن ملك الله وسلطانه ﴿فَٱنفُذُواْ﴾ هذا ترويع وتخويف وتعجيز للضالين والمضلين من الجن والإنس، لِمَا ينتظرهم من الجزاء السيئ على أعمالهم السيئة.

وهذا الترويع لا يشمل المؤمنين الصالحين، المختلطين بغيرهم من أهل الضلال في ساحة العرض والحساب.

والنفوذ: هو الخروج والهرب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القيامة]، وكما قال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

وهل المقصود من التحدي في الآية: الدنيا أم الآخرة؟ قيل: إنها تحكي حال قوم يحاولون الفرار من ساحة الحشر يوم القيامة:

١. قال الضحاك: وذلك أنه - عند قيام الساعة - يفر الناس في أقطار الأرض، والجن كذلك - يفرون - لِمَا يرون من هول يوم القيامة، فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أحاطت بالأرض، فيرجعون من حيث جاؤوا، فيقال لهم حينئذ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ الآية.

٢. وقال بعض المفسرين: بل هي مخاطبة في الدنيا، والمعنى ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ الفرار من الموت.

٣. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، المعنى: إن استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تنفذوا، فتعلَّموا علم السموات والأرض فانفذوا. والأقطار: الجهات[١].

---

(١) هذه الأقوال الثلاثة من «تفسير ابن عطية» (٥/ ٢٣٠) بتصرف.

والنواحي الواسعة المترامية الأطراف.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ [الأحزاب:١٤].

قلت قد يراد بالآية: محاولة الإنس والجن الفرار والهرب من ساحة العرض والحشر، وذلك عند البعث والقيام من القبور، كما قال الضحاك.

وعلى كل حال فإن هذه الآية سيقت لبيان أهوال يوم القيامة وشدائده، وأنه لا يمكن للإنسان أن يفر من العرض والحساب والعذاب، إلا إذا أذن الله له في ذلك.

وأقطار السموات والأرض: جوانبها ونواحيها الواسعة، وصفوف الملائكة السبعة محدقة ومحيطة بالخلائق من كل جانب إظهارًا لعظمة الله تعالى، ألا ترى الحرَّاس يحيطون بالقُضاة والملوك في الدنيا، لضبط النظام واستتباب الأمن؟ ولله المثل الأعلى.

وهناك جوانب متعددة، وأمكنة كثيرة، لمن حاول أن يخرج من أرض الله وسمائه!! وما هو بفاعل، وما هو بمستطيع! على أن السموات والأرض يوم القيامة قد بُدِّلتا وغُيِّرتا ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم].

فإن قدرتم - يا معشر الجن والإنس - حين يجمعكم الله في موقف القيامة، على النفاذ من أمر الله وحكمه، هاربين من جوانب السموات والأرض وأطرافها، فافعلوا واذهبوا حيث شئتم لتُعجِزوا ربكم؛ حتى لا يقدر عليكم، اخرجوا؛ كي تهربوا من قضائه، وتخرجوا من ملكه وسلطانه، ومن سمائه وأرضه، وليس في مقدوركم ذلك، فأنتم ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي:إلا بقوة قاهرة، وقدرة فائقة، ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان، فلا يمكنكم النفوذ إلا بقوة وقدرة وغلبة، وأنَّى لكم ذلك، وأنتم لا تملكون لأنفسكم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وحيثما توجهتم فأنتم في ملك الله وسلطانه، فكيف ستنفذون من ملكه؟

فقوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ تعجيز لهم وإظهار لضعفهم؛ لأن السلطان هو القدرة والقوة، وهذا السلطان لا يقدر عليه إلا الله، فهو سبحانه صاحب القوة القاهرة،

والقدرة الفائقة، والجن والإنس لا يمكنهم الخروج من المأزق الذي هم فيه يوم القيامة، إلا بقدرة عظيمة تفوق قدرة الله تعالى الذي حشرهم في هذا الموقف، وأنى لهم هذه القدرة؟! فهم في حالة لا يتكلم فيها أحد إلا بإذنه تعالى، ولا تسمع إلا همساً من صوت الأقدام ونحوها، ويستوي في ذلك اليوم : الملكوك والمماليك، والرؤساء والمرؤوسون، والأغنياء والفقراء، والضعفاء والأقوياء.

وهذه الآية كالقول المأثور: من لم يرضَ بقضائي، فليخرج من تحت سمائي، وليعبد ربًّا سواي.

وهكذا فإن هذه الآية تفسَّر على حسب ما قبلها وما بعدها من الآيات، وهي في سياق الحديث عن القيامة وشدائدها وأهوالها، ولا صلة لها بغزو الفضاء؛ إذْ إن رُوَّاد الفضاء، وإن وصلوا إلى أبعد الكواكب من الأرض، فهم داخل ملك الله وسلطانه، ولم يخرجوا من جوانب السموات والأرض، وأنى لهم ذلك؟ وأين يذهبون؟ فمهما تجوَّلوا، ومهما بحثُوا ووصلوا، فهُمْ في ملك الله تعالى، داخل أرضه وسمائه، على أن القمر والمريخ والمشترى، وسائر الكواكب دون السماء الأولى، وكذلك الدوَران حول الأرض، والارتفاع في الأجواء، كل ذلك يمكن للإنسان أن يصل إليه عن طريق العلم والبحث.

أما السموات فقد جعلها الله سقفًا محفوظًا، وزيّنها بالمصابيح، وفيها الشهب والرجوم لشياطين الجن والإنس.

أما مقصود الآية لمن في الدنيا فهو تحذير الفاسقين والكافرين من التمادي في كفرهم وشركهم، حتى يُقلعوا عما هم فيه، ويستعدُّوا للقاء الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح؛ لأنهم لن يفروا من الحساب والجزاء ولن يُفلتوا من عقاب الله العادل ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس: ٢٧].

ثم يأتي السؤال المتكرر: هل يبقى لهم شيء يكذبون به؟ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟ وفي إثابة المؤمن وعقاب الكافر، الجزاء العادل بين العباد، والعدل في الجزاء نعمة من نعم الله تعالى.

اسْتِحَالَةُ الْخُرُوجِ مِنْ أَيِّ مَنْفَذٍ فِي الْكَوْنِ

٣٥، ٣٦ - ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ[3] وَنُحَاسٌ[2] فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

والكلام موصول لتوضيح معنى الآية السابقة، وبيان أن الجن والإنس لو حاولُوا الخروج يوم القيامة من عرصاتها، فإن الملائكة وزبانية جهنم، تردُّهم، بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليهم، ليرجعوا إلى ساحة العرض، ولا يجدون لهم ناصرًا ولا مغيثًا.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ يا معشر الجن والإنس، إن حاولتم الهرب من قبضتنا يوم الحشر والنشر فإنه يرسل عليكما ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ الشواظ: لهب النار الخالص الذي لا يخالطه دخان؛ لأنه قد تم اشتعاله، فيكون أقوى وأشدَّ إحراقًا.

والنحاس - كما فسره ابن عباس وسعيد بن جبير - هو الدخان الذي لا لهب معه، فيحدث الاختناق بسبب شدته، فهم لا يفلتون من الأمرين: اللهب الذي لا يصحبه دخان، والدخان الذي لا يصحبه نار فيمتزجان.

وفسر مجاهد وقتادة الدخان بأنه: لهب الحديد أو النحاس المذاب، وهي نار خارقة للعادة، كقوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) قرأ ابن كثير بكسر الشين من (شِواظ)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) عد الحجازيين: المدني الأول والأخير والمكي قوله تعالى (من نار) آية، وأسقطها غيرهم من العدد.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح بخفض السين من (ونحاسٍ) عطفًا على (من نارٍ)، والباقون برفعها عطفًا على (شواظٌ).

قال الضحاك في معنى الآية: هي نار تخرج من قبل المغرب تحشر الناس، حتى إنها لتحشر القردة والخنازير، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا[١].

والشواظ والدخان يُصبُّ على رؤوسهم، إذا أرادوا الفرار من الموقف العظيم.

ولا يوجد من ينصرهم ويمنع عنهم عذاب الله يومئذ ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ يا معشر الجن والإنس، أي فلا ينصر بعضكم بعضًا، ولا ينقذه من عذاب الله، ولو ذهبتم هاربين لردَّتكم الملائكة وزبانية جهنم بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا.

إنها صورة فوق مألوف البشر وفوق تصوُّرهم، فيها تهديد رهيب، ووعيد مرعب، ومصير رديء، ومع ذلك فقد عُدَّت من آلاء الله تعالى على خلقه التي لا تُكذَّب ولا تُجحد، فإنَّ وقايتهم من هذه النار نعمة عظيمة، فلاتكذبان بها يا معشر الجن والإنس، ولما كان تخويف الله لعباده سوطاً يسوقهم إلى أعلى المطالب وأكرم المواهب، كان هذا نعمة أنعم الله بها عليهم، فعلى الإنس والجن أن يشكروها ولا يكفروها.

انْشِقَاقُ السَّمَاءِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٣٧، ٣٨ - ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾

ثم تبدأ مشاهد القيامة بتفصيل ما أُجمل في الآيات السابقة، ويبدأ ذلك بانشقاق السماء، فهو من أحوال الحشر ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ لنزول الملائكة وقيام العدل بين الناس، وذلك عند قيام الساعة، فوقعت الواقعة، وكان العرض والحساب، وشدة الأهوال وخسوف الشمس والقمر، وانتثار النجوم:

وهذا الانشقاق هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان].

وقوله سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق].

(١) ابن أبي شيبة (١٥/٧٨).

وقوله أيضًا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾﴾ [الانفطار].

وعندما تتشقق السماء تكون كالورد الأحمر، أو الجلد الأحمر، من حرارة النار.

وهذا معنى ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾.

قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ].

أي: إن السماء انفرجت يوم القيامة، فكانت أبوابًا لنزول الملائكة منها لتحيط بالخلائق من كل جانب ، فتكون عند انشقاقها حمراء كلون الورد، أو كالزيت المغلي، أو الرصاص المذاب، وذلك من شدة أهوال يوم القيامة، ورهبة الموقف العظيم.

قال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة].

وقال أيضًا: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾﴾ [المعارج].

وانشقاق السماء لنزول الملائكة وفصل القضاء بين الناس، ورحمتهم من الموقف الرهيب، ومعرفة كل منهم مصيره، في ذلك نعمة وأي نعمة، فلا ينبغي لكم معشر الجن والإنس أن تكذبان بها، فبأي نعم ربكما تكذبان أيها الإنس والجن؟

يَوْمُ الْحَشْرِ فِيهِ مَوَاقِفُ مُتَعَدِّدَةٌ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُسْأَلُ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُسْأَلُ

٣٩، ٤٠ - ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾

أي: وفي ساعة العرض والحساب لايسأل الجن والإنس عن ذنوبهم التي وقعت منهم في الدنيا، أي لا يسألون سؤال استعلام عما وقع منهم، لأنه سبحانه عالم الغيب والشهادة والماضي والحاضر والمستقبل، وفي القرآن آيات تقضي بأن في القيامة سؤالًا، وآيات تقضي بنفي السؤال، فقال قتادة وعكرمة: هو في مواطن دون مواطن.

وقال ابن عباس: يكون السؤال حيث يراد التوبيخ والتقرير، ولا يكون إذا أريد مجرد الاستخبار والاستعلام؛ لأن الله تعالى عليم بكل شيء، والملائكة لا تَسْأَل؛ لأنها تعرف المؤمن من الكافر بعلامات مميزة.

وفي يوم القيامة الذي تتصدع فيه السموات، لا تسأل الملائكةُ المجرمين من الإنس والجن عن ذنوبهم؛ لأنهم يعرفونهم بعلاماتهم، كزُرقة العيون وسواد الوجوه، وما يغشاهم من الكآبة والحزن، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ [عبس]،وقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤)﴾ [الغاشية:]، وقال جل شأنه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقال عزوجل: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

ومن الناس من يدخل النار يوم القيامة بغير سؤال ولا حساب، ومنهم من يدخل الجنة بغيرسؤال ولاحساب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات].

ويوم الحشر يوم طويل، فيه مواقف متعددة، وفيه أناس تختلف أحوالهم وفق أعمالهم في الدنيا، فتارة يحتاج الأمر إلى حساب، وتارة لا يتطلب سؤالًا، ومن الناس من يُسأل عند خروجه من القبر، ومنهم من لا يُسأل في هذه الحالة، وإنما يُسأل في ساحة العرض والحشر، ومنهم من يُسأل في الحالتين معًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [الحجر].

وقوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦)﴾ [الأعراف].

وقوله أيضًا: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾ [الصافات].

والسؤال يختلف، فقد يكون سؤال شكر عن النعمة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ [التكاثر].

وقد يكون السؤال عن التبليغ والبلاغ، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقد يكون السؤال للتقريع والتوبيخ، وقد يكون السؤال للتقرير والاعتراف، وتارة يكون السؤال سرًا، وتارة يكون على رؤوس الأشهاد، وبعد السؤال يكون الحساب والجزاء، وقد جعل الله لأهل الخير علامات يعرفون بها ولأهل النار علامات يعرفون بها.

وعدم السؤال في ساحة العرض والحساب نعمة كبيرة تستحق الشكر والامتنان.

وحكمة السؤال لتظهر حجة الله البالغة للخلق أجمعين، ثم يأتي التعقيب على هذا التقرير والتوبيخ، وبيان أنه من نعم الله تعالى التي لا تُكذَّب .

مَشْهَدُ الْمُجْرِمِينَ حِينَ يُقْذَفُ بِهِمْ فِي النَّارِ

٤١، ٤٢ - ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه السبب في عدم سؤال الإنس والجن عن ذنوبهم في بعض أحوالهم يوم القيامة، فذكر هنا أنه يُستغنى عن سؤال المجرمين يوم القيامة بظهور علاماتهم للملائكة، فيعرفونهم بسيماهم، قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم.

و هذه العلامات قال سبحانه عنها: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

و قال جلَّ شأنه: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

وقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران] فالملائكة تعرف المجرمين بعلاماتهم من سواد الوجوه وزرقة العيون، فيضمون أقدامهم إلى نواصيهم، وهو الشعر الذي يكون في مقدمة الرأس، ويُلقَى بهم في النار، وهذا معنى ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي: تضم نواصيهم إلى أقدامهم، فيُلقوْن في النار ويسحبون فيها، إنه مشهد عنيف، فيه هوان وذلة، حيث تُجمع الأقدام إلى الجباه في ذل وهوان، وقهر وانكسار، ويُقذف بهم في النار، فيستمرون فيها.

فهل من مكذِّب؟ وهل من منكر؟ إن عقاب المجرمين وإثابة الطائعين دليل على كمال عدل الله تعالى، وعلى عظيم فضله ونعمه، وفي إثابة الطائعين وعدم الأخذ بنواصيهم وأقدامهم نعمة لهم بدخول الجنة والنجاة من النار، ويقال للمجرمين يوم القيامة:

٤٣ - ٤٥ - ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ[١] ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

وبعد أن يؤخذ بأرجل المجرمين، فتجمع إلى مقدَّم رؤوسهم ليلقى بهم في النار، تقول لهم الملائكة: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ التي كنتم تكذبون بها في الدنيا، وقد تبيَّن لكم سفه تكذيبكم بها، وها أنتم تشاهدونها عيانًا، فذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها ما هو جزاء تكذيبكم.

وأهل النار يتردَّدُون ويمشون بين أطياف النار وبين الحميم، فإذا أصابهم حر النار وطلبوا أن يتبرَّدُوا يظهر لهم الماء ليتبردوا منه، فيذهبون إليه، فيصيبهم حره، فينصرفون إلى عذاب النار ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

فتارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم المسمى ﴿ءَانٍ﴾ أي: إنه متناهي الحرارة، يقطِّع الأمعاء والأحشاء، ويشوي الوجوه، فهو في منتهى الحرارة وشدة البرد والزمهرير، كما قال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية].

١. والله تعالى يصور عذابهم في مثل قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر].

٢. وقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم].

٣. وقوله أيضًا: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

فبأي من هذه النعم تكذبان أيها الثقلان؟ وفي عذاب المجرمين ونعيم المتقين، وإقامةالحق والعدل بين الناس نعمة يجب شكرها وعدم كفرهاوتكذيبها، وأي نعمة؟!

---

(١) أسقط العدد البصري وحده ﴿يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فلم يعدها آية، وعدها جمهور أهل العدد.

وَصْفُ جَنَّتَي السَّابِقِينَ وَجَنَّتَيْ أَهْلِ الْيَمِينِ بِخَمْسَةِ أَوْصَافٍ

وبعد أن ذكر سبحانه أهل النار وجزاءهم، ذكر أهل الجنة ونعيمهم، وبيَّن أنهم درجتان: السابقون المقربون، وأهل اليمين، ولكلٍ منهما جنتان، وجنتا أهل اليمين أدنى مرتبة من جنَّتَي السابقين المقربين، ولهذه الأوصاف، أوصاف مشابهة في سورة الواقعة.

أي: ولمن اتقى الله تعالى، وخاف قيامه بين يدي ربه للحساب والجزاء، فترَك الشهوات والمعاصي، وراقب ربه في السر والعلن، فإن تهيأت له معصية بعيدًا عن أعين الناس تركها خوفًا من الله تعالى، وفعل ما أمره الله به من مختلف وجوه الطاعات، فكان ممن خشي ربه، وقدَّم لنفسه العمل الصالح، هذا التقى له جنتان يوم القيامة، كلاهما من ذهب، آنيتهما وحِلْيَتَهما، وبُنيانهما، وما فيهما، إحدى الجنتين جزاءً على ترك المنهيات، والأخرى جزاءً على فعل الطاعات، وهما:

١. جنتان داخل الجنة الكبيرة، قد تكون له جنة عن يمين قصره، وجنة عن يساره.
٢. أو جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي.
٣. وقد تكون له جنة لسكَنه، وجنة لزوجاته وخدمه وحشمه، كحال ملوك الدنيا.
٤. أو تكون له جنتان في الآخرة، ليضاعف له السرور بالتنقل بينهما من جنة إلى جنة.

٥. وبما أن الخطاب في السورة موجه للإنس والجن، فلعل الأرجح في ذلك ما قاله الزمخشري: من أن لكل ممن خاف الله تعالى من الإنس والجن جنة، فمن خاف ربه من الإنس له جنة، ومن خاف ربه من الجن له جنة[1].

وسياق السورة كله يتناول الإنس والجن.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ بالإفراد والتثنية والجمع:

أ - فجاءت التثنية في سورة الرحمن.

---

(١) «تفسير الكشاف» (٤/٤٩).

ب - وجاءت الجنات بالجمع في آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ [القلم].

ج - وجاء ذكْر الجنة الواحدة في سور كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥].

فذِكْر الجنة الواحدة: قد يكون لاتصال أشجارها ومساكنها وعدم وجود الفاصل بينها، فكأنها جنة واحدة، وذِكر الجنتين: نظراً للإنس والجن، وذِكر الجنان: نظراً لاختلاف المراتب الموزعة على الجنان الثمان، وفي الآيات دليل على دخول الجن الجنة.

وقال تعالى عن جنات الدنيا: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧].

والذي يخاف ربه: هو الرجل يهمُّ بالمعصية ثم يتركها خوفًا من الله تعالى، قاله مجاهد.

ومقام الله تعالى هو اليوم الذي يقف فيه العبد للحساب بين يدي الله تعالى.

وقيل: هو إشراف الله تعالى على أحوال خلقه، واطلاعه على أقوالهم وأفعالهم.

والمقام: هو وقوف العبد بين يدي ربه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين].

والله تبارك وتعالى يقوم على العبد، أي: يراقبه ويعلم أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] ولذا أضيف المقام إلى الله تعالى.

والآية عامة في كل من خاف الوقوف بين يدي الله تعالى ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] ولم يُؤْثر الدنيا على الآخرة، وعَلِم أنَّ الآخرة خير له وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب ما حرم الله، فله يوم القيامة عند ربه جنتان داخل الجنة العامة.

خمسة أوصاف لجنّتي السابقين:

ثم وصف الله تعالى كُلًّا من الجنتين بخمسة أوصاف، بينهما تفاضُل وتمايز:

فوصف سبحانه جنَّتي المقربين بأنهما:

١- ذواتا أنواع من الشجر والثمار، ففيهما شجر وظلال ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾.

٢- وفيهما عينان تجريان بالماء الزلال، قيل: إن إحداهما عين التسنيم، والأخرى عين السلسبيل ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾.

٣- وفيهما من كل نوع من الفاكهة صنفان، نوع مألوف ونوع غير معروف، وكلاهما في منتهى اللذة والحلاوة ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾.

٤- وأهل الجنتين يتكئون على فرش مبطنة بالديباج الغليظ، وظواهرها أفضل من بواطنها ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾.

وإن ثمار الجنتين قريبة في متناول يد القائم والنائم والماشي، فليست عالية كالنخل، ولا يحوطها شوك كالورد ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

٥- وفي الجنتين نساء طاهرات عفيفات، قصرْن عيونهن على أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾.

وإنهن أبكاراً لم يَفضَّ بكارتهن قبل أزواجهن إنس ولا جان ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

وإن هؤلاء النسوة كأنهن الياقوت في بياضهن وصفائهن، وكأنهن المرجان في حمرتهن ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾.

فبأيِّ من هذه النعم كلها تكذبان يا معشر الجن والإنس، وقد خلق الله الجنة للمطيعين المتميزين منكم، وجعلها لهم دار خلود يتنعّم فيها أهل الطاعة بالنعيم الذي لا يحول ولا يزول، وهو إحسان من الله تعالى مقابل إحسانكم في الدنيا بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

خمسة أوصاف لجنتى أهل اليمن:

ثم وصف الله سبحانه جنتي أهل اليمين من عامة المؤمنين بأنهما:

١- جنتان قد اشتدت خضرتهما لكثرة مائهما، فهما ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ أي مُخضرَّتان.

٢- وفيهما عينان تضُخَّان الماء بقوة واندفاع، ويفور منهما الماء الكثير بغزارة لا تنقطع ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾.

٣- وفي هاتين الجنتين فواكه يأكلها أهل اليمين لذة وتفكُّهًا، وعلى الأخص النخيل والرمان، وقد خصهما القرآن بالذكر لكونهما معروفين بكثرة، لمن نزل القرآن بلغتهم ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾.

٤- وفي الجنتين نساء خيرات حسان في الخلْق والخلُق من الحور العين، ومن نساء الدنيا، فقد أنشأهن الله إنشاء، وجعلهن أبكارًا متحبِّبات لأزواجهن، وهن في سن الشباب والحُسْن والبهاء ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾.

والحور العين لا يلجْن المجتمعات ولا النوادي ولا المجالس العامة، ولا الحفلات، ولا غير ذلك، ولا ينظرن لغير أزواجهن، ولا يختلطن بغيرهن، ولا يطلبْن المساواة بالرجل فيما خصَّ الله به الرجال، فلا يتمنيْن ما فضل الله به بعضهم على بعض ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾.

وهؤلاء النسوة لم يمسَّهن قبل أزواجهن إنس ولا جان ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

٥- وأصحاب الجنتين يتمتعون بالاتكاء على فرش خضر، وثياب عبقرية جميلة غريبة، بلغت منتهى الحسن والجمال ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾.

فهل في وسعكم – أيها الثقلان- تكذيب ماأعده الله لعامة المؤمنين من النعيم المقيم ؟ فسبحان صاحب الفضل، واهب الخير، واسع العطاء، مصدر النعم، جلَّ جلاله وتبارك اسمه.

خمسة فوارق بين الجنّات الأربع:

ونعود إلى تفسير الآيات لبيان ما بين الجنات الأربع من فوارق، جنتا السابقين، وجنتا أهل اليمين، على ضوء الموازنة بين الآيات، وقد جاءت هذه الموازنة في خمسة أوصاف، ذكرتُ في كل وصف منها لجنّتي السابقين، ما يقابله من وصف جنّتي أهل اليمين:

الْوَصْفُ الأَوَّلُ: لِجَنَّتَي السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِين

٤٦ – ٤٩ – ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ ﴾

أي ولمن خاف ربه، وخاف الوقوف بين يديه في يوم العرض والحساب ، فترك مانهى الله عنه، وفعل ما أمره به ، جنتان من ذهب، جنة على الطاعات، وجنة على ترك المنهيات، ومباني الجنتين من ذهب وكل ما فيهما من السرر والفرش والوسائد والأواني من ذهب.

والجنتان: ذواتا أغصان نضِرة من الفواكه والثمار، وأغصان كثيرة تمتاز بالجمال والخضرة والنُّضرة والشجرالظلال، وفيهما فناء واسع.

فالأفنان: هي الأغصان المستقيمة طولا، وفي كل غصن أنواع من الفاكهة.

فبأيِّ من هذه النعم تكذبان – يا معشر الجن والإنس -؟

ومن هذه الآلاء: هذه الجنان ذات الأفنية الواسعة، والأغصان المثمرة اليانعة، والظلال الوفيرة، والفواكة الكثيرة، وفيهما من نعيم الظاهر والباطن، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ففيهما الأشجار الكثيرة، والغصون الناعمة، والثمار اليانعة، وفيهما من كل نوع أصناف كثيرة، فالأفنان جمع فن وهو الصنف.

الوَصْفُ الأَوَّل لجنَّتيْ أَهْلِ الْيَمِين

٦٢ – ٦٥ –﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾

ومن دون الجنتين السابق ذكرهما، جنتان من فضة، بنيانهما، وآنيتهما وحِلْيتهما وكذا كل ما فيهما من السرر والأبواب والنمارق وغيرها، وهذا النعيم أعده الله لأهل اليمين من عامة المؤمنين، وهما أدنى درجة من جنتي السابقين المقربين، وهم خواص المؤمنين.

أي: ومن دون جنَّتي السابقين المقربين: جنتان أقل منهما في الفضيلة والقدر، ويحتمل أن يكون المعنى: وللسابقين المقربين – أيضًا - جنتان أخريان ، فهو من باب ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: وكما في قوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥] ويُقدّم المعنى الأول.

وهاتان الجنتان قد اشتدت خضر تهما حتى مالا إلى السواد، لأن الشجر إذا كان ريانًا بالماء، اشتدت خضرة أوراقه.

فبأيّ من هذه النعم تكذبان – يا معشر الإنس والجن -.

ومن هذه الآلاء ، أن ما في هاتين الجنتين من الأشجاروالأغصان والثمار وغيرهما، من شدة الخضرة وجمال المنظر وبهائه وحسنه، مايدل على جودة الثمر وجودة ما يُقطف منها، وهذا من أثر الري وكثافة الظلال، والجنتان المخضرتان لأهل اليمين أدنى درجة من الجنتين ذاتي الأفنية الواسعة والأغصان المثمرة للسابقين المقربين.

الوَصْفُ الثَّانِي لجنَّتَي السَّابِقِين الْمُقَرَّبِين

٥٠، ٥١ -﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ ﴾

في هاتين الجنتين عينان من الماء العذب الفرات تجريان من خلالهما بلا انقطاع، إحداهما عين التسنيم، والأخرى عين السلسبيل، كما قال الحسن.

يفجرونها كما يريدون ويشتهون، وقد ذكر سبحانه ما يتم به النزهة من خضرة الأشجار، وجريان الأنهار، ثم ما يكون بعد النزهة من أكل الثمار والاستراحة على فرش وثيرة، بطانتها من ديباج.

ونعمة الماء الذي يجري من أجلِ النعم، فبأيّ نعمة من هذه النعم تكذبان – يا معشر الإنس والجن -؟

الوَصْفُ الثَّانِي لجنَّتَيْ أَهْلِ الْيَمِين

٦٦، ٦٧ -﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ ﴾

في هاتين الجنتين عينان تفوران بالماء الذي لا ينقطع.

قال ابن مسعود، وابن عباس: تنْضخُ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور الجنة.

والنضخ: هو فوران الماء من العيون، مع حسنه وجماله وتدفقه واستمراره وماء العيون أقل من الماء الجاري.

وعيون المياه المتدفقة نعمة تشكر ولا تكفر، ولا يكذِّبها إنس ولا جن، وجاء وصف جنّتي أهل اليمين بأن فيهما عينان يفور الماء منهما في مقابلة وصف جنتي السابقين بأن الماء يجري فيهما بصفة مستمرة لا ينقطع.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ لِجَنَّتَيِ السَّابِقِينَ

٥٢، ٥٣ -﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾

في هاتين الجنتين من كل نوع من أنواع الفاكهة صنفان، يُستلذ بكل نوع من أنواعه: بعضه يؤكل رطبًا، وبعضه يؤكل يابسًا، مثل: الرطب والعنب والتمر والزبيب والجوز واللوز، وهي فواكه كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفيهما من ثمار الجنة. ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الثمار، وكل ما لذ وطاب.

ومن هذه الآلاء، أن لكل صنف من الفاكهة لذة ولون ليست للنوع الآخر، فبأي نعمة من هذه النعم تكذبان – يا معشر الإنس والجن -؟

الْوَصْفُ الثَّالِثُ لِجَنَّتَيْ أَهْلِ الْيَمِينِ

٦٨، ٦٩ -﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ ﴾

في هاتين الجنتين أنواع كثيرة من الفواكه، ونخل ورمان، وجاء عطف النخل والرمان على الفاكهة لمزيتهما وفضلهما، فالتمر غذاء وفاكهة، والرمان دواء وفاكهة ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ قال تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

فبأي نعمة من نعم الله تكذبان أيها الثقلان؟

ومن هذه الآلاء: أصناف الفواكه المختلفة، وخص منها النخل والرمان لما فيهما من كثرة المنافع، وتخصيص جنّتي أهل اليمين بالفاكهة والنخل والرمان، أدنى درجة من جنّتي السابقين، ففيهما من كل فاكهة صنفان.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ لِجَنَّتَيِ السَّابِقِينَ

٥٤، ٥٥ - ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ [1] إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾

وللذين خافوا مقام ربهم جنتان يتنعمون فيهما، وهم متكئون على فرش مبطنة من غليظ الديباج، والاتكاء جلسة المتمتع المتنعم.

وثمر الجنتين قريب إليهم، وأكل أهل الجنة ليس من جوع، والفُرش ما يفرش للنوم أو الجلوس، والمراد به السرير المرتفع عن الأرض.

والبطائن: ما يقابل الظهائر، فالبطائن هي الداخلية، وهي من الديباج السميك الظاهر وهي ما يظهر للرائي وتكون أفضل عادة.

والاستبرق: الديباج المصنوع من الحرير السميك، فإذا كانت البطائن هكذا، فلا تسأل عن الظواهر.

وهم يقْطفُون ما شاؤوا من الثمار، وهم متكئون وفي أي حالة كانوا، حيث تدنو منهم الفاكهة حيثما كانوا.

والجنى: هو ما يُجْنَى من الثمار، **والداني**: هو القريب، يناله القائم والقاعد والمتكئ.

جاء عن قتادة: أنه ما من إنسان يقطف ثمرة من الجنة فتصل إلى فيه حتى يبدل الله مكانها خيرًا منها[2] قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان]. فبأي نعمة

---

(١) قرأ ورش ورويس بنقل حركة الهمزة إلى النون، وحذف الهمزة في ﴿مِنِ اسْتَبْرَقٍ﴾ وحققها غيره.

(٢) الطبري (٢٢/٢٤٤).

من نعم الله تكذبان؟

ومن هذه الآلاء، صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليهاجلوس المتكئ كجلوس الملوك على الأسرة، وهي فرش لايعلم حسنها ووصفها إلا الله، وثمرها قريب متناول.

الوَصْفُ الرَّابِعُ لِجَنَّتَي أَهْلِ الْيَمِين

٧٦، ٧٧ - ﴿ مُتَّكِـِٔينَ [1] عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾

وهؤلاء الزوجات من الحور العين، متكئات على وسائد خضر، وفرش حسان، **والرفرف**: هو ما يوضع على الفرش للنوم عليها.

والعبقري: اسم لكل ما هو فائق في صُنْعه، نادر الوجود، ويقال لها: زرابي وطنافس، وهي أغطية خُضْر، ممتازة في صُنعها، وفي اليمَن قرية يقال لها: عبقر، قيل: كان يسكنها الجن، وكان يُنسج فيها أفخر الثياب والبسط المنقوشة وهي فرش لها رفارف من وراء المجالس لزيادة البهاء .

ومن نعمه تعالى هذه الفرش المنسوجة نسجاً فاخراً لحسن المظهر وجمال الملمس. ولا يكذب بها إنس ولا جن، ولا يجحدها جاحد ولا معاند.

الوَصْفُ الْخَامِسُ لِجَنَّتَي السَّابِقِين

٥٦ - ٦١ - ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ [2] إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾

على هذه الفرش زوجات قاصرات أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، متعلقات بهم، وقاصرة الطرف أعلى درجة من مقصورة الطرف، فالأولى تغض بصرها

---

(١) قرأ أبو جعفر بحذف همزة ﴿مُتَّكِينَ﴾ومثله حمزة عند الوقف، وله التسهيل أيضًا.

(٢) قرأ الكسائي بضم الميم وكسرها من ﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾ هنا وفي الآية الرابعة والسبعين، والباقون بكسرها.

من نفسها، وهذا خُلُق لها وطَبْع، والثانية مُلْزَمة أن تغض بصرها من قبل غيرها.

لم يطأهن إنس ولا جان قبل أزواجهن، وغَضُّ الطرْف خِلْقة فيهن.

والطمْثُ هو فَضُّ البكارة، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦﴾ [الواقعة] وهن من نساء الجنة لا من زوجات الدنيا، وقيل: إن نساء الدنيا كذلك، ينشئهن الله إنشاء.

وأصل الطمث: خروج الدم من الحائض، فيقال للحيض طمث، ثم أُطلق الطمث على جماع الأبكار؛ لأن فيه خروج الدم، ثم أطلق على كل جماع.

وفي الآية دليل على أن الجن يدخلون الجنة [١]، وفيها دليل على مشاركة الجن للإنس في الجماع، إذا جامع الرجل أهله ولم يسم الله [٢].

وزوجات الجنة من أجلّ النعم، التي لا يكذب بها إنس ولا جن.

وهؤلاء الزوجات من الحور العين، كأنهن في حسنهن وجمالهن وصفائهن الياقوت والمرجان في الصفاء واللمعان، وبياض الوجوه مع حمرة الخدود، كلون الورد. **والياقوت**: هو الحجر المعروف. **والمرجان**: حجر أحمر يؤخذ من البحر.

وقد سبق وصف هؤلاء الزوجات في الآية السادسة والخمسين بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ بما يعادل الوصف المقابل لأهل اليمين ، كما وصفهن الله تعالى بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ [الصافات].

وجمال الحور العين وبهائهن ولذة وصالهن من أجلّ النعم، فهل يكذب بهذا إنس أو جن؟

ثم ختم الله تعالى نعيم أهل الجنة، من عباد الله المقربين، ببيان أنه ما جزاء مَن أحسن بعمله في الدنيا، إلا الإحسان إليه بالجنة في الآخرة.

فالإحسان الأول: هو القول الطيب، والعمل الصالح، ومخافة القيام بين يدي رب العالمين، ونهْي النفس عن الهوى.

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» عن ضمرة بن حبيب (٢٢/٢٤٨) وأبو الشيخ (١١٦٢).

(٢) كما ورد الخبر بذلك عند الحكيم الترمذي (١/٣٨٤) عن مجاهد.

والإحسان الثاني: هو الثواب والجنة والنعيم المقيم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة؟

وقد سبق وصف أهل هاتين الجنتين بأنهم ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ بما يعادل الوصف المقابل لأهل اليمين.

ومن نعم الله تعالى على عباده أن من أحسن في عبادة ربه ونفع عباده أحسن الله إليه بالثواب الجزيل، والنعيم المقيم والفوز الكبير، ومقابلة الإحسان بالإحسان محض فضل من الله تعالى لا يكذب بها إنس ولا جن.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ لِجَنَّتَيْ أَهْلِ الْيَمِين

٧٠ - ٧٥ - ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾

ذكر سبحانه في هذه الآيات أن في هذه الجنات: زوجات طيبات الأخلاق، حسان الوجوه، كما في حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**إن الحور العين يتغنَّينَ في الجنة يقُلْن: نحن الخيرات الحسان، خُبِئْنا لأزواج كرام**»[1]. والضمير من ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ يقابله ما جاء في وصف جنتي السابقين ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ فكلاهما جاء بضمير الجمع، وكأن فيهما إشارة إلى ما في الجنات الأربع من الحور العين وزوجات الدنيا، فبأيِّ نعمة من نعم الله تعالى تُجْحد وتُكذَّب؟ ومن هذه النعم: ما في الجنات من الحور العين والزوجات الحسان، قد جمعن بين جمال الظاهر والباطن وحُسن الخَلْق والخُلق، متحجبات لأزواجهن، قاصرات الطرف عليهم.

---

(١) ابن أبي شيبة (١٣/ ١٠٦) و«صحيح الجامع» (١٥٩٨).

وهؤلاء الخيّرات الحسان: حور، أي شديدات البياض، في عيونهن حَوَر، وهن مستورات في الخيام، محبوسات لا يُبتذلْن في شارع أو سوق، ولا يخرجْن لبيع ولا شراء، ولا يلجْن المجتمعات ولا النوادي، فالنساء تُمْدَح إذا لزمْن البيوت.

ففي هذا صيانتهن وعفتهنّ وطهارتهن، وخيام الجنة من اللؤلؤ المجوف.

وفي الحديث عن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل، ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون**»[١].

فخيام الجنة من الدر المجوف، وهل يكذِّب بهذه النعم أحد من الجن والإنس؟

والحور العين المحبوسات في خيام اللؤلؤ المتنزهات في بساتين الجنة ورياضها.

وهؤلاء الحور العين لم يقربهن أحد قبل أزواجهن في الجنة، لا إنس ولا جان.

وفي هذا دليل على أن الجن يغشاهن مثلما يغشى الإنسان.

وسئل ضمرة بن حبيب: هل للجن ثواب؟ فقال: نعم، وقرأ هذه الآية، ثم قال: الإنسيات للإنس، والجنيات للجن.

وقال مجاهد: هذه الآية إذا جامع الرجل ولم يسم، انطوى الجني على إحليله، فجامع معه[٢].

ونعمة الحور العين لا يكذب بها إنس ولا جن، فكلاهما يقول: ولا بشئ من نعمك ربنا نكذب.

---

(١) من حديث عبد الله بن قيس عن أبيه، البخاري برقم (٣٦٤٣، ٤٨٧٩) وانظر: «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٨، ١٨٠) من حديث أبي عمران.

(٢) «تفسير الخازن» (٢١٤/٤) والطبري (٢٤٨/٢٢) والحكيم الترمذي (٣٨٤/١).

ختام نعيم الآخرة بما ختم به نعيم الدنيا

٧٨ - ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى[1] ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾

ثم ختمت السورة بالثناء على الله تعالى: فقد تكاثرت بركاته، وكثرت خيراته، فهو صاحب الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه.

والجلال بمعنى: العظمة، وهو وصف جامع لصفات الكمال اللائقة بالله تعالى، فهو سبحانه المستغني عن عباده على وجه الإطلاق والإكرام، بمعنى: أنه تعالى مُسْدِي النعم والخير، وهو الجدير بالثناء والشكر، وجدير أن يُفرَد بالعبادة دون سواه.

ولما ختم الله تعالى نعيم الدنيا بقوله: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ ختم نعيم الآخرة بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾.

ومما ورد في فضل الجنات والحور العين ما جاء:

١- عن عبد الله بن قيس، عن أبيه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عزَّ وجلَّ إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن»[2].

٢- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، إلا إن سلعة الله الجنة»[3].

٣- وعن أبي الدرداء ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقص على المنبر وهو يقول: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال ﷺ: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال ﷺ: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ

---

(١) قرأ ابن عامر (ذو الجلال) بالرفع، صفة (اسم)، والباقون (ذي) بالخفض صفة (ربك) أما الموضع الأول من السورة فهو بالواو اتفاقاً.

(٢) البخاري (٤٨٧٨، ٧٤٤٤) ومسلم (٢٩٦/١٨٠) والترمذي (٢٥٢٨) وابن ماجه (١٨٢).

(٣) «سنن الترمذي» برقم (٢٤٥٠)، والحاكم وصححه (٧٨٥١)، وقال الألباني: صحيح لغيره، انظر: صحيح الترغيب والترهيب(٣٣٧٧)، وقال المناوي: صحيح(٢٤٥٠)، و«تفسير البغوي» (٤٥١/٧).

﴿رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فقلت الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن، رغم أنف أبي الدرداء»[(١)] قلت: ومن خاف مقام ربه لم يسرق ولم يزنِ.

٤- وفي الأثر، عن أبي موسى: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من وَرِق لأصحاب اليمين»[(٢)].

٥- وفي الصحيحين، وغيرهما، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر»[(٣)].

زاد في رواية: «ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دُريّ في السماء إضاءة، لا يبصقُون فيها، ولا يتمخَّطُون، ولا يتغوَّطُون، آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ومجامرهم الألُوَّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد زوجتان، يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحُسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا»[(٤)].

---

(١) «تفسير البغوي» (٧/٤٥١)، وشرح السنة (٤١٨٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٥٦٠)، وفي ط الرسالة (١١٤٩٦)، و«تفسير الطبري» (٥/٤٩٠)، ورواه النسائي في «السنن» برقم (٥٨٠)، وابن خزيمة برقم (٥٣٣)، وعزاه الهيثمي لأحمد والطبراني، وقال رجال أحمد رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٧/١١٨)، وفي «السُّنَّة» عند ابن أبي عاصم، مختصراً برقم (٩٧٥) وهو في «المطالب العالية» (٤١٣٠، ٤١٣١) وقال محققو المسند (٨٦٨٣) رجاله ثقات رجال الصحيح غير ابن دواد فقد روى له أصحاب السنن وهو ثقة، وأعلّه الحافظ في الفتح (١١/ ٢٦١) بالإرسال، لانقطاعه بين عطاء بن يسار وأبي الدرداء.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٧/٨٥) بسنده عن أبي موسى، وانظر: ابن أبي شيبة (١٣/٣٨٣) والحاكم (١/٨٤) والبيهقي (٢٤٠)، وانظر : فتح الباري ١٣/٤٣١ عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه، وابن أبي حاتم ورجاله ثقات في شرح الحديث (٧٠٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٦) من حديث طويل هذا أوله، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٨٣٤)، وابن ماجه (٤٣٣٣)، والبغوي في شرح السنة (٤٣٧٣)، وفي التفسير (١/٥٧)، وانظر: «المسند» (٧١٥٢، ١٠١٢٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وله طرق عديده وراته كُثر.

(٤) الحديث في البخاري (٣٢٤٥) وهذا لفظه و(٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤)، وابن ماجه (٤٣٣٣)، والبيهقي في «البعث» (٣٢٧، ٤٤٨)، و«المسند»بنحوه (٧١٦٥، ٧٤٨٦).

٦ - وفي حديث أنس، وسهل بن سعد، وأبي أمامة ﷺ، أن النبيَّ ﷺ قال: «الغُدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقابُ قوس أحدكم، أو موضع قيد - يعني: سوطه - خير من الدنيا وما فيها، ولو طلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحًا، ولطاب ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[(١)].

٧ - وفي حديث أبي هريرة أيضًا أن النبيَّ ﷺ قال: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على ضوء كوكب دُرِّيٍّ في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة عزب»[(٢)].

٨ - وعن أبي هريرة أيضاً أن النبيَّ ﷺ قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من حور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يُرى مخ ساقها من وراء الثياب»[(٣)].

٩- وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن أن شابًا على عهد عمر بن الخطاب ﷺ كان يلازم المسجد والعبادة فعشقته جارية فكلَّمته، فحدَّث نفسه، فشهق شهقة فغُشي عليه، فحمله عمه إلى بيته، فلما أفاق، قال: يا عم، اذهب إلى عمر فأقرئه مني السلام، وقل له: ما جزاء من خاف مقام ربه؟ وشهق شهقة أخرى فمات، فوقف عليه عمر وقال: لك جنتان، لك جنتان[(٤)].

١٠- وفي حديث أنس ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ جالسًا في الحلقة، ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد وتشهَّد ودعا، فقال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا

(١) البخاري برقم (٢٧٩٦) وهذا لفظه، وأخرجه مسلم (٨٨٠) أوله، و«المسند» (١٤١/٣) برقم (١٢٣٥٠، ١٣٧٨٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٤) واللفظ له، والبخاري برقم (٣٢٤٥).

(٣) تفرد به أحمد من هذا الوجه، «المسند» (٣٤٥/٢) برقم (٨٥٤٢) وإسناده صحيح على شرط مسلم كما قال محققوه، وهو قطعة من حديث (٧١٥٢).

(٤) «شعب الإيمان» للبيهقي (٧٣٦).

الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك، فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه العظيم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[(١)].

١١- وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان إذا سلَّم لا يقعُد بعد الصلاة إلا قدر ما يقول: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[(٢)].

١٢- وفي حديث ثوبان ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا، ثم قال: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[(٣)].

تم تفسير (**سورة الرحمن**) ولله الحمد والمنة

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» (١٣٢٦) والنسائي (١٢٩٩) وابن أبي شيبة (٢٧٢/١٠) و«المسند» (١٢٦١١، ١٣٥٧٠) وهو حديث صحيح وإسناده قوي (محققوه)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٨، ٣٤، ٢٧١)، والضياء في المختارة (١٨٨٥) وأبوداود وغيرهم.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٩٢) وأبو داود برقم (١٥١٢) والترمذي برقم (٢٩٨) و«سنن النسائي» (٦٩/٣) وابن ماجه برقم (٩٢٤).

(٣) مسلم (٥٩١) وأبو داود (١٥١٣) والترمذي (٣٠٠) والنسائي (١٣٣٦) وابن ماجه (٩٢٨) والبيهقي (١٨٣/٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ (٥٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الواقعة هي السورة السادسة والخمسون في ترتيب المصحف، والسادسة والأربعون في ترتيب النزول عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء، ولا يُعرف لها اسم غير سورة الواقعة.

وهي في العدد الكوفي الذي عليه رواية حفص،ست وتسعون آية[١].

وعدد كلماتها ثلاث مئة وثمان وسبعون كلمة، وألف وسبع مئة وثلاثة أحرف.

قال ابن عطية: وهي سورة مكية بإجماع من يُعتدُّ به من المفسرين، واستثنى ابن عباس وقتادة قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ فقد نزلت بالمدينة.

وقال الكلبي: إلا أربع آيات: اثنتان نزلتا في سفر النبي ﷺ إلى مكة، وهما قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾.

واثنتان نزلتا في سفره إلى المدينة، وهما: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝٤٠﴾.

قال ابن عطية: وهذا كله غير ثابت[٢]، والصحيح أنها كلها مكية.

جاء عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا بكر رضي الله عن الجميع قال: يا رسول الله، قد شبْتَ، قال: «شيَّبتْني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»[٣].

---

(١) وفي العدد البصري سبع وتسعون آية، وفي العدد المكي والمدني والشامي تسع وتسعون آية.

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٢٣٨/٥) و«تفسير التحرير والتنوير» (٢٧٩/٢٧) و«تفسير فتح القدير» (١٤٦/٥) و«زاد المسير» (١٣٠/٨).

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، برقم (٣٢٧٩) وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي (٣٤٣/٢) وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٧٦) ورواه الطبراني في «الأوسط» من طريق مسروق عن أبي بكر، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٠/٧): ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠٩١)، وانظر: «العلل» للدارقطني (١٩٣/١) وابن أبي حاتم (١٨٢٦، ١٨٩٤).

وعن جابر بن سمُرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يُخفف، كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر بالواقعة[(١)].

وورد في سورة الواقعة أحاديث أخرى لم تصح.

قال مسروق: من أراد أن يَعْلَم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة[(٢)].

أغراض السورة

موضوع سورة الواقعة: هو اليوم الآخر، وأصناف الناس في الآخرة، وجزاء كل صنف منهم يوم لقاء الله، والحديث عن البعث والحساب والجزاء، وغرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر، وهذا من خصائص القرآن المكي.

والواقعة اسم للسورة، وبيان لموضوعها، فليوم القيامة أسماء شتى، منها: الواقعة، والحاقة، والقيامة، والساعة، والقارعة، والصاخَّة، والطامَّة، والغاشية، والآزفة.

وتختص الآيات الست الأُوَل بحديث وجيز عن انتهاء العالم وبدء الحساب، فالقيامة تقوم بغْتة، فتُخرِس ألسنة المكذبين لها من الكافرين بها، وألسنة الملحدين المعاندين، والماديين والدهريِّين، وتُبيِّن أن القيامة ستخفض رؤوسًا كانت عالية في الدنيا، وترفع رؤوسًا كانت مغمورة.

ومع قيام الساعة تهيج الزلازل التي تهدم كل شيء، وتُحوِّل الصخور الصلْدة العالية إلى ذرَّات دقيقة، كالتي نراها تَسْبح في الشعاع، ولسنا ندري كم بقي من عمر الدنيا، وليس هذا هو المهم، إنما المهم أن يُعدَّ المرء للسؤال جوابًا، ويستعدَّ بعمله الصالح للموقف العصيب.

---

(١) «المسند» (١٠٤/٥) (٢٠٩٩٥) قال محققوه: صحيح لغيره، وأخرجه عبد الرزاق (٢٧٢٠) وابن خزيمة (٥٣١) وابن حبان (١٨١٣) والطبراني في «الكبير» (٤٠٣٦) والحاكم (٢٤٠/١).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٧٥/١٤).

فقد سأل رجل النبي ﷺ قائلًا: متى الساعة يا رسول الله؟ فأراد النبي ﷺ أن يرشده إلى ما هو أهم من السؤال، فقال له: «**وماذا أعددت لها**»؟ فذكر الرجل أنه يؤدي الفرائض، وليس عنده رصيد كبير من النوافل، قال الرجل: غير أني أحب الله ورسوله، فقال له النبي ﷺ: «**أنت مع من أحببت**»[1].

أصناف الناس يوم القيامة:

وبعد هذه المقدمة، فإن السورة تقسِّم الناس يوم القيامة إلى **ثلاثة أصناف**:

السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال.

وتُفصِّل النعيم الذي أعده الله للسابقين وأصحاب الميمنة، ثم تُفصِّل العذاب المعدَّ لأصحاب المشأمة، وهذا من الآية السابعة إلى الآية السادسة والخمسين.

وفي نهاية السورة تتناول أيضاً هؤلاء الثلاثة تحت مسمًّى: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، فتبيّن ما أعدَّ الله لهؤلاء الثلاثة في الآخرة وعند الاحتضار من نعيم وعذاب على وجه الإجمال.

وبين التقسيمين الأول والأخير، ذكرت السورة أربعة أدلة متنوعة من آفاق الكون وتجارب الناس، على أن البعث حق، وهي في الوقت نفسه دلائل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته.

وهذه الأدلة الأربعة تتمثل في بديع صنعه تعالى وخلقه للإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله في النار من قوة.

وجاءت هذه الأدلة في الآيات الأربع التالية، وما يتبع كل منها، وهي قوله تعالى:

١ - ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

---

(١) من حديث أنس في «المسند» (١٢٠٧٥، ١٤٠٧٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وعن أبي ذر (٢١٣٧٩، ٢١٤٦٣)، ورواه البخاري عن أنس (٣٤٨٥)، وأخرجه مسلم(٥٥٧)، والترمذي (٣٥٣)، وابن ماجة (٩٣٣)، وابن خزيمة(٩٣٤).

٢- ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٣- ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

٤- ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وهذه الأدلة من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الرابعة والسبعين.

ثم نوَّهت السورة بشأن القرآن العظيم، وذلك من الآية الخامسة والسبعين إلى الآية الثانية والثمانين.

إن سورة الواقعة تحدثت عن الناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، ووصفت جزاء كلٍّ منهم، بما لا يوجد في غيرها.

وزعم بعضهم أن أصناف الناس الثلاثة المذكورون هنا، وهم: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢].

وليس الأمر كذلك؛ لأن الثلاثة الذين هم في آية سورة فاطر كلهم من المسلمين ومن حملة القرآن، بدليل أول الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢].

أما الآيات التي في سورة الواقعة فهي تتحدث عن قسمين من المؤمنين، هما: السابقون بالخيرات، والفائزون بقدر راجح من الحسنات، وما بقي من أصناف الناس، فهم: الكافرون أصحاب الشمال، الذين هم في سموم وحميم، وظل من يحموم.

نسأل الله العفو والعافية، والسلامة من النار، والفوز بالجنة.

تقسيم السورة إلى شطرين:

ومع أن موضوع السورة واحد، هو البعث والحساب والجزاء، وبيان اختلاف أحوال الناس فيه، إلا أنه يمكن تقسيمها إلى شطرين:

الشطر الأول: من أولها إلى الآية السادسة والخمسين، فإن السورة في هذا الشطر، تبدأ بما يقطع الطريق على منكري البعث، القائلين: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض

تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، وتقطع الطريق على من يُقْسِمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، وعلى القائلين: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢] وعلى من قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف:٣٦، وفصلت:٥٠].

إنها تخرس ألسنة هؤلاء وأولئك، فتقطع كل شكٍّ في قيامها، وتزيل كل لَبس في ذلك، وتسمِّيها بالواقعة، وليس لهذا الوقوع من مكذب!

ثم تصف السورة القيامة بأوصاف تُشعر بالجزم، وتزلزل النفس، وتذْكُر أصناف الناس يوم الحشر والنشر، وتُفصِّل مصير كل منهم تفصيلًا دقيقًا وافيًا كأنه معروض للعيان، لاسيما مصير المكذبين أصحاب الشمال، حيث توضح السورة أسباب سوء المصير، بأنهم كانوا في الدنيا من المترفين البطرين، المصرين على الكفر والإشراك بالله تعالى، وكانوا ممن يستبعدون البعث بعد الموت لهم ولآبائهم الأولين.

أما الشطر الآخر من السورة، فهو من الآية السابعة والخمسين إلى الآية السادسة والتسعين في نهاية السورة.

وهذا الشطر يتكلم عن الخلْق الأول من مَنِيٍّ يُمنى، ويقرر النشأة الأولى للإنسان، ويجعل هذه المقدمة تتصدر خمسة أدلة على البعث والنشور.

فتتناول نشأة الحياة في صور أربع، وكلها صور للنشأة الأولى، وللحياة من العدم.

١ – وهي خلْق الإنسان من منيٍّ يُمنى، والله تعالى هو الخالق لهذا المني، وهو الذي يُميتُنا بعد حياتنا.

٢ – ومن ذلك حياة الزرع والحرث، من الأرض الميتة.

٣ - وحياة كل كائن حي بالماء الذي أنزله الله تعالى من المزن، وليس لمخلوق دَخلٌ في ذلك، ولو شاء الله تعالى لجعله أجاجًا لا يُنبت نباتًا ولا يُخرج كلأً.

٤ - ومن ذلك النار، وأصلها الذي تنشأ منه، وهي تذكِّر الناس بنار الآخرة، وكلها صور مألوفة في حياة الناس وواقعهم، ولا سبيل لإنكارها.

وبعد التنويه بشأن القرآن العظيم، تتناول السورة مشهد الاحتضار عند الموت، وما ينتظر كل صنف من أصناف الناس من النعيم أو العذاب، في لمسة عميقة الأثر في النفوس حين يقف الطب عاجزًا أمام المحتضِر، ويقف الأهل والمال والأحباب مكتوفي الأيدي، لا يملكون أن يزيدوه لحظة من العمر فوق عمره، ولا نفَسًا فوق أنفاسه.

وقد لخَّص آخر السورة ما جاء في أولها من المصير الذي أعده الله تعالى للسابقين وأهل اليمين والمكذبين الضالين، وسواء صدَّق بعض الناس ذلك أو كذَّبوه فإن هذا لن يغير من الواقع شيئًا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قِيَامُ السَّاعَةِ وَأَهْوَالُهَا

١ – ٣ - ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾

بدأت السورة بتقرير الحقيقة التي لاشك فيها، وهي أن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الجزاء حق، لقد غفل كثير من الخلق عن هذه الحقيقة تحت وطأة الشهوات والشبهات، أو تقليد الآباء والأجداد، أو سكرة الحياة، فقال بعضهم: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦ وفصلت:٥٠].

وقال آخرون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، وقد يؤكدون ذلك، ويقسمون عليه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨].

(ونحن نرى ميت الغد يشيّع ميت اليوم، وهو يحدِّث صاحبه عن الشهوات والآمال العريضة في الحياة، غير مستفيد من موكب الموت، ومشهد الجنازة بين يديه، وتمضي القرون، وتُدفن جماهير الناس، والمنكرون للبعث موجودون، وصوت الكفر عالٍ في مشارق الأرض ومغاربها[١].

وعندما يأتي أمر الله تعالى تقوم الساعة فجأة ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾ أي: إذا قامت القيامة التي لابد من وقوعها، وحدثت الطامة التي ينخلع لها قلب الإنسان، كان من أهوالها ما لا يصفه الخيال، ولا يُحيط به الوجدان.

فالواقعة: اسم من أسماء القيامة، وسميت كذلك لتحقق وقوعها.

والواقعة: هي الحادثة التي وقعت عند النفخ في الصور.

---

(١) يُنظَر: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» (ص ٤٢٥).

وافتتاح السورة بـ ﴿إِذَا﴾ وهي ظرف تتضمن معنى الشرط، استهلال بديع، فيه من التهويل بتوقع حدث عظيم يحدث.

وعندما تقوم الساعة، تَقطع كل شك، وتُلجِم كل لسان، فلا تجد أحدًا يكذِّب بها، فيخمُد صوت الإلحاد، ويتبدد إلى غير رجعة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ أي: لا شك في ذلك، لأن الأدلة السمعية والعقلية قد تظاهرت عليها، ولأن حكمة الله تعالى تقضى ألا يخلق الناس عبثاً دون حساب ولا جزاء، فمع أن الإنسان أكثر شيء جدلًا، ومع أنه عنيد مكابر، ولكن ماذا عساه أن يقول، وهو يرى القيامة بأم عينيه، وينظر إلى الهول وقد وقع، وقد جفت حلوق الأفاكين، وكذَّب الواقع لَغْوَهم، وبدَّد باطلهم؟

وعندما ترى كل نفس كافرة أهوال الساعة عيانًا، فإنها تُسارع إلى الإيمان، ولكن هيهات أن ينفع، فالصيْفَ ضيَّعت اللبن، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وإذا قامت الساعة فهي كائنة لا محالة، ولا توجد قوة تدفع قيامها أو تمنعه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء].

فأَقلِعوا عن اعتقادكم - أيها المكذبون للبعث والنشور - واعلموا أنكم على ضلال وجهل فاضح، وتداركوا ما فاتكم، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له.

وهذا وعيد بتحذير المنكرين لقيام الساعة في وقت المهلة، قبل أن يأتي وقت الحسرة والندامة، والخزي والخيبة في ساحة الحشر والقيامة.

وعندما تقوم الساعة فإنها تخفض أقوامًا كانت لهم منزلة رفيعة في الدنيا، يشار إليهم بالبنان، كانوا أعزة، أصحاب مال وجاه، ولكنهم لم يُعِدُّوا العدة لهذا اليوم، غمرتْهم الحياة بزُخرفها، فنسُوا لقاء الله، فيُبعثون يوم القيامة سُوقَى وصعاليك، لا يملكون شيئًا من زاد الآخرة، فإن موازين الناس قد اختلفت، وعندما يُساق عزيز الدنيا ذليل الآخرة

إلى النار، يقال له تهكُّمًا: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان] أي: إنك كنت كذلك في الدنيا.

وبالمقابل فإن هناك أقوامًا كانوا في الدنيا من غبَرة الناس، مغمورين، يعملون للآخرة في خفاء وبُعد عن الرياء، يكونون يوم القيامة قممًا، في أعلى الدرجات ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝١١١﴾ [المؤمنون].

ورُبَّ «كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة»، إنه يومٌ تصحَّح فيه الأوضاع، فيظهر الحق، ويختفي الزور، ويستقيم أمرها في ميزان الله.

ذلكم قول الله تعالى عن يوم القيامة: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ أي: خافضة لأناس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عليين، وهو يومٌ خفضت فيه القيامة صوتها، فأسمعت القريب، ورفعت صوتها فأسمعت البعيد.

قال الحسن: تخفض أقوامًا إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزة، وترفع الآخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وُضَعاء[(١)].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: هذه الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة[(٢)].

فالآخرة ترفع أهل الصلاح والتقوى، ممن كان أكثر الناس في الدنيا لا يعبأ بهم، وتخفض أقوامًا كانوا في الدنيا في رفعة وسيادة، وهم من الجبابرة المفسدين.

ويوم القيامة ترى أماكن من الأرض كانت منخفضة في الدنيا، فإذا هي مرتفعة، وترى أماكن من الأرض كانت في الدنيا مرتفعة، كالجبال والصوامع، فإذا هي منخفضة.

فالخفض والرفع يكون في الناس، ويكون أيضًا في سطح هذه الأرض، كما قال

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٧/٥١٤).

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم عن عثمان بن سراقة (٢٢/٢٨٠) و«فتح الباري» (٨/٦٢٦).

تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه] أي: ليس فيها مرتفع ولا منخفض.

كما جاء في الحديث: عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرصة نقيٍ» قال سهل أو غيره: «ليس فيها معلم لأحد»[(١)]. وكلا التفسيرين يكمل أحدهما الآخر، ليس بينهما تدافع.

والمعنى الأول: يرغِّب الناس في العمل الصالح وهم في الدنيا لترتفع منزلتهم يوم لقاء الله تعالى، ويرهِّب الفاسقين من سوء المصير حتى يُقلعوا عما هم فيه قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله.

والمعنى الثاني: فيه التهويل من شأن يوم القيامة، حتى يستعد الخلق لاستقباله.

وهنا معنى ثالث: وهو أن القيامة نفسها يكون لها صوت عالٍ، وصوت منخفض، لتسمع القريب والبعيد. قال تعالى في وصف يوم القيامة:

٤ - ٦ - ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾

وعند قيام الساعة: تُزلزل الأرض زلزالًا عنيفًا، وتضطرب اضطرابًا شديدًا، فيتهدم كل بناء شامخ، وطوْدٍ راسخ، وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾ أي تحركت واضطربت.

وإلى جوار هذا الزلزال المادي، هناك زلزال اجتماعي، أشارت إليه الآية السابقة تُهدم فيه مقاييس الدنيا: من الألقاب، والأنساب، والجاه، والسلطان، ليحُل محله ميزان التقوى والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون].

وبما أن هذه الأرض الثابتة المستقرة - في حِسِّ الناس- تُرَجُّ رجًّا عند قيام الساعة، فإن الجبال الصُلْبة الراسية، التي هي أوتاد للأرض، تتحول صخورها إلى ذرات دقيقة،

---

(١) البخاري برقم (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠).

كالفراش المبثوث، والعهن المنفوش، فتُنسف نسفًا، وتمر مرَّ السحاب، وتستوي مع الوِدْيان والسهول ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ ﴾ أي: فُتتت تفتيتًا دقيقًا.

فتصير الجبال غبارًا متطايرًا في الجو قد ذرَّه الريح ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ أي أصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا مَعلم، قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الهباء هو الذي يطير من النار إذا اضطرمت، يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئًا[(١)].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **الهباء المنبث**: رهج الدواب.

والهباء المنثور: غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوَّة[(٢)].

وهكذا قال مجاهد والحسن وغيرهما.

١. قال تعالى في وصف الجبال عند قيام الساعة: ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ ﴾ [الطور].

٢. وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾ [المرسلات].

٣. وقال سبحانه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ].

٤. وقال عزوجل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المزمل].

٥. وقال جل شأنه: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فإذا رُجَّت الأرض، وبُسَّت الجبال قبيل قيام الساعة، وجد كل إنسان أمامه ما عَمِله في الدنيا من خير أو شر ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة].

أَصْنَافُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاثَةٌ

٧، ٨ -﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ[(٣)] مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾

(١، ٢) الطبري (٢٢/٢٨٥).

(٣) ترك الكوفي والحمصي عدّ قوله تعالى ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾آية، وكذا قوله تعالى: ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ وعدهما غيرهما آية.

وقد بيّن سبحانه أن أبناء آدم سيكونون يوم القيامة أصنافًا ثلاثة: ﴿وَكُنتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي انقسمتم ثلاث فرق، بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة.

والأزواج: هي الأصناف التي بعضها من بعض، صنفان في الجنة، وصنف في النار، والزوج يطلق على الصنف وعلى النوع.

ثم فسّرت الآيات: الأزواج الثلاثة، وفصّلتْ أحوالهم، وهم:

أولًا: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أهل الجنة، وهم الذين يأخذون كتب أعمالهم بأيمانهم، يكونون في الجهة اليمنى يوم الحشر، عن يمين العرش، وليس هذا نسبة إلى اليمين والشمال، وقيل: المراد عن يمين آدم وشماله، كما في حديث الإسراء.

وهؤلاء هم السعداء الذين يأخذون كُتبهم يوم القيامة بأيمانهم.

وأهل اليمين، هم الذين أطاعوا ربهم،وخالفوا أهواءهم، فكانت عاقبتهم الجنة.

وللتعظيم من شأنهم، وبيان عُلوّ منزلتهم، وتفخيم لأحوالهم؛ يأتي هذا الاستفهام للتفخيم والتعجب من حالهم ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ هل تدري أي شيء هم؟ وما هو حالهم، وصفتهم؟ وقبل أن يُفصِّل القرآن حالهم ذكَر الصنف الثاني المقابل لهم، فقال سبحانه:

٩ - ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ[(١)] مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾﴾

أي: وأصحاب الشمال أهل النار، وهم الذين يأخذون كُتب أعمالهم بشمالهم، ويكونون جهة الشمال في يوم الحشر، عن شمال العرش، وهؤلاء هم الأشقياء الذين عصوْا ربهم، وأطاعوا أهواءهم وشياطينهم، فكانت النار عاقبتهم.

ولفظ: ﴿الْمَشْأَمَةِ﴾ من الشُّؤم، وهو الضر ضد النفع، فهم قد جَلَبُوا الشؤم على أنفسهم؛ لأنهم طغوْا وآثروا الحياة الدنيا، وكانت العرب تتشاءم من الجهة اليسرى، وتتفاءل بالجهة اليمنى، ويأتي التعجب من شأنهم واحتقارهم وتهويل حالهم في هذا الاستفهام ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ هل تدرون من هم؟ وما صفتهم وما حالهم؟ إنهم الذين

---

(١) ترك الكوفي والحمصي عدّ قوله تعالى: ﴿الْمَشْأَمَةِ﴾ آية وعدها غيرهما آية.

جلبوا الشقاء على أنفسهم بمخالفة الله ورسوله.

وقبل أن يُفصِّل القرآن حالهم يذكُر الفريق الثالث بوصفهم وبيان حالهم، فيقول تعالى:

١٠ - ١٢ - ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾

السابقون إلى الإيمان والطاعات والخيرات في الدنيا هم السابقون إلى دخول الجنات يوم القيامة، وهم الذين سبقت لهم السعادة، وكانت أعمالهم في الدنيا سبقًا إلى أعمال البر وترك المعاصي، وهم أفضل الأصناف الثلاثة؛ لأنهم سبقوا غيرهم إلى طاعة الله تعالى في كل قول وفعل، وتقربوا إليه بكل عمل صالح، وهم الذين اشتهرت أحوالهم، وعُرفت منزلتهم، وبلغت من الرفعة مبلغًا لا يرقى إليه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون].

فهم السابقون إلى الخيرات والحسنات، والسابقون إلى النعيم والجنات.

في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**الذين إذا أُعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئلوه بذلوه، وحكموا للناس حكمهم لأنفسهم**»[١].

ولما أراد الله تعالى أن يُقرِّب السابقين أعاد الكلمة ذاتها، كأنه تعالى يقول: إنهم،هم هم؛ إذ ليس هناك مِنْ وَصْفٍ آخر يزيدهم شيئًا، فحالهم قد بلغ منتهى الفضل والرفعة، بحيث لا يجد المتكلم خبرًا يخبر به عنهم، أدلَّ على مرتبتهم من اللفظ نفسه، فالسابقون هم السابقون وكفى، وهذا أبلغ في الدلالة على شرف قدرهم من جملة ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ وجملة ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ فإنها بالنسبة لأصحاب الميمنة للتفخيم

---

(١) «المسند» (٦٧/٦) برقم (٢٤٣٧٩، ٢٤٣٩٨) وفيه ابن لهيعة قد تفرد به، وهو مما لا يحتمل تفرده وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه)، وأخرجه البيهقي في الشعب(١١١٣٩) وأبو نعيم في «الحلية» (١٦/١)، (١٨٦/٢) وابن حجر في «الأمالي المطلقة» ص ١١٣، وقال: هذا حديث غريب، ولم أره إلا من حديث ابن لهيعة، وخالد معروف، يُنظَر تحقيق: «المسند» (٤٤٠/٤٠).

والتعظيم، وبالنسبة لأصحاب المشأمة للتفظيع والتحقير، وتعجب السامع من شأن الفريقين، فكأنه تعالى قال: فأصحاب الميمنة، ما أحسن حالهم! وأصحاب المشأمة، ما أسوأ حالهم! وفي هذا تشويق للسامع إلى معرفة أحوالهم.

ولَمَّا ذكر الله تعالى في أول السورة هول القيامة تخويفًا لعباده، وكان من الناس من هو محسن، ومن هو مسيء، قدَّم أصحاب اليمين ليرغَبوا أكثر فيما عند الله، ثم ذكر ما يقابلهم، وهم أهل الشمال ليرهَبوا ويكفُّوا عن كفرهم وتكذيبهم، ثم أخَّر السابقين وهم الذين لا يَحْزُنْهم الفزع الأكبر؛ كي يجتهد أصحاب اليمين في القرب منهم، ويتشوق السامعون إلى معرفة أحوالهم، وليبْدأ بهم عند تفصيل أحوال الفِرَق الثلاثة ترغيبًا في الاقتداء بهم، وهذا من الأسلوب البلاغي على طريقة اللف والنشر المشوش[1].

ثم أثنى سبحانه وتعالى على السابقين، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ من الله تعالى، في جنات النعيم في أعلى عليين، في المنازل العالية التي لا منزلة فوقها، يقربهم سبحانه منه في ظل عرشه ودار كرامته.

والمقرَّبون: هم المحبوبون عند الله تعالى، كما جاء في الحديث القدسي: عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ: «**قال الله عزَّ وجلَّ: من آذى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه**»[2].

وإذا أحب الله عبدًا أحبه أهل السماء، وأحبه أهل الأرض، ثم يوضع له القبول فيها.

وهؤلاء المقربون في جنة الخلد، يخلَّدون فيها، وينْعمون في النعيم الأكبر والأسنى،

---

(١) يُنظَر: « تفسيرالتحرير والتنوير» (٢٨٧/١٣) و«تفسير الألوسي» (١٣١/٢٧).

(٢) الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٢).

وهو نعيم القرب من ربهم، وكفى بذلك نعمة، وهذا وصف إجمالي للسابقين قبل تفصيل نعيمهم.والسابقون يكونون يوم القيامة:

١٣، ١٤ -﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

بيَّن سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين، أن السابقين المقربين هم جماعة كثيرة من المتقدمين في هذه الأمة، أي: هم عدد كبير من القرون المفضلة، وسلفنا الصالح من صدر هذه الأمة، وهؤلاء السابقون عدد قليل من متأخري هذه الأمة.

وهذا يدل على فضل صدْر هذه الأمة في الجملة، على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق، وقد دلت الأحاديث على ذلك.

كما في حديث ابن مسعود ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينَه، ويمينُه شهادته**»[1] وهم الذين نشروا الإسلام في أرجاء المعمورة بعلمهم وعملهم، فهم جماعة كثيرة من الأولين.

وقال الحسن بن أبي الحسن، وغيره: المراد: السابقون من الأمم، والسابقون من هذه الأمة، وذلك: إما أن يقترن أصحاب الأنبياء بمجموعهم إلى أصحاب محمد ﷺ، فأولئك أكثر لا محالة، وإما أن يقترن أصحاب الأنبياء ومَنْ سبقَ مِنْ أبناء الأمم، إلى السابقين من جميع هذه الأمة، فأولئك أكثر[2].

والسابقون في الأمم الماضية، كأصحاب موسى الذين رافقوه في التيه، ومثل الحواريين، وكثير من أصحاب أنبياء بني إسرائيل، ومن ذلك أصحاب النبي ﷺ الذي قال الله فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

والداخلون الجنة من السابقين في هذه الأمة، هم قليل بالنسبة إلى مَنْ كان قبلهم،

---

(١) من حديث عبد الله بن مسعود عند البخاري (٣٦٥١).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٥/٢٤٠).

فهم كثيرون، لكثرة الأنبياء فيهم وكثرة مَنْ أجابهم.

وهذا بخلاف أهل اليمين، فإنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وعليه: فقد يكون من أصحاب اليمين في هذه الأمة مَنْ هو أكثر من أصحاب اليمين من الأمم الأخرى.

وكان السابقون عددًا قليلًا من الآخرين؛ لأنهم لا يجدون لهم أعوانًا على دينهم، فهم غرباء بين الناس بتقواهم، وسْطَ قُوًى مناوئة، وخصومات مؤذية.

والثلة: هي الجماعة التي لا يُحصر عددها.

وعلى هذا: فالثلتان من الأولين والآخرين هما من أمة محمد ﷺ، ويرشحه أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ لأمة محمد ﷺ وهذا التقسيم خاص بهم:

١. عن أبي بكرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**جميعها من هذه الأمة**»[(١)].

٢. وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**»[(٢)].

٣. وفي الصحيح: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة**»، ثم قال: «**ثلث أهل الجنة**»، ثم قال: «**نصف أهل الجنة**»[(٣)].

ويرى بعض المفسرين أن الثلة من الأولين تعني: الصالحين، وأصحاب الأنبياء الذين سبقوا محمدًا ﷺ برسالاتهم، وأن القلة من الآخرين تعني: المسلمين من هذه الأمة، نظرًا لكثرة من سبق من الأنبياء والأمم، ولعل القول الأول هو الأرجح.

كلمات فيما أعده الله لأصناف الناس يوم القيامة:

وهذه كلمات فيما أعده الله تعالى لكل من السابقين، وأهل اليمين، وأهل الشمال على ضوء ما جاء في آيات السورة:

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١٢٠): ورواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح، غير علي بن زيد وهو ثقة سيئ الحفظ، وهو في «مسند الطيالسي» (٩٢٧) قال محققه: إسناده ضعيف.

(٢) البخاري (٢٣٨، ٨٩٦، ٧٤٩٥) ومسلم (١٩، ٨٥٥) و«المسند» (٧٣١٠) وابن حبان (٢٧٨٤) و«سنن النسائي الكبرى» (١٦٦٦).

(٣) يُنظَر: حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري بأرقام (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣) ومسلم (٢٢٢).

أَوَّلاً: مُجْمَلُ مَا أَعَدَّه الله لِلسَّابِقِينَ المقَرَّبِينَ بِحَسْبِ رَقَمِ الآيَةِ:

معنى الآية: ١٠-١٢ إنهم يتمتعون بمختلف أنواع النعيم في جنة الخلد، لا يحُولون عنها ولا يزولون، فهم ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾.

الآيتان: ١٥، ١٦- وهم يستريحون على أسرَّة منسوجة بالذهب، ومرصَّعة بالدرِّ والياقوت والزبرجد، حال كونهم متكئين عليها في مقابلة بعضهم بعضًا، لإدخال الأنس والسرور عليهم، وحتى لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، إنهم: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾.

والآيات: ١٧-١٩- ولتكريمهم وإعزازهم، فإنه يطوف عليهم -في الجنة- وِلْدان مخلدون فيها، لا يغتريهم ضعف ولا عجز ولا هرم، بل هم دائمًا في نضرة الشباب ورقته ونشاطه، يطوفون على أهل الجنة بأكواب من فضة، وأباريق من ذهب، فيها ألوان من الشراب، إلى جوار كؤوس الخمر، من عيونها الجارية التي لا تنقطع، ولا تُخمَّر ولا تُعْصر، ولا تُسبِّب ألمًا ولا صُداعًا، ولا تسبب ضغينة بين الشاربين، ولا تُذهب عقولهم، ولا تُبيد أموالهم، ولا تهدم صحتهم، ولا تحطُّ من كرامتهم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾.

الآيتان: ٢٠، ٢١ - وفي الجنة أنواع الفاكهة من كل ما يشتهي المرء ويتخيَّر، وفيها مما لذَّ وطاب من أنواع اللحوم، وكل ما يتمنَّونه ويطلبونه من لحوم الطيور خاصة، وهم يأكلون تَشَهيًا وتلذُّذًا! إذ إنهم لا يشعرون في الجنة بجوع ولا عطش، ولا تخرج منهم فضلات، ولا يحتاجون إلى علاج أمراض السمنة والتخمة ولا غيرها ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾.

الآيات: ٢٢-٢٤- وللسابقين في الجنة حور عين، كأمثال اللؤلؤ المصون في أصدافه، وقد أعدَّ الله لهم ذلك لقاء إيمانهم وإخلاص التوحيد لربهم والسبْق إلى صالح الأعمال ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾.

الآيتان: ٢٥، ٢٦- وهم يَسْلَمون في الجنة من كل عيب وضُرٍّ وألم، ولا يسمعون فيها لغوًا ولا كذبًا ولا باطلًا، وكل منهم يسلِّم على الآخر، وتسلِّم عليهم الملائكة بما صبروا وآمنوا، وإذا طلبوا شيئًا قالوا: **سبحانك اللهم**، فالتسبيح يجري فيهم مجرى النفَس، وإذا فرغوا مما طلبوا كان آخر دعواهم **الحمد لله رب العالمين**، إنهم: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

والسابقون هم الذين قال الله فيهم في نهاية السورة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة].

فمتاعهم ليس في جنة النعيم فحسب، بل هم في روح وريحان، وهم في رضوان من الله أكبر، ولذة التمتع إلى وجه الله الكريم.

ثانيًا: مُجْمَلُ مَا أَعَدَّه الله لأَهْلِ الْيَمِينِ

وهذا يشمل عصاة المؤمنين الذين أخذوا جزاءهم على معاصيهم، أو عُفي عنهم قبل دخول الجنة:

الآيات: ٢٨-٣٠- إن كلاً من أصحاب اليمين يُحصِّل في الآخرة ما كان يتمناه في دنياه ولم يستطع الحصول عليه، فيحقق الله له في الجنة كل ما يشتهي ويتمنى.

ومن ذلك أن البيئة التي نزل عليها القرآن كان أهلها يحبون أنواعًا من الفاكهة والشجر، وكان شجراً السدر والموز يكثر في بلادهم، فيتمناه بعضهم، وربما تمنى آخرون أن يكون له شجر وافر الظلال يستظل به، والله تعالى يحقق لهم مطلوبهم في الجنة من: السدر، والموز، أو الطلح، والشجر الظليل، وإنه يشبهه في الشكل الذي كان يألفه ويعرفه في الدنيا، ولكن ما في الجنة شيء آخر ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

وفي الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

قال تعالى عن نعيم أصحاب اليمين ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾.

الآية: ٣١- وقد عرف العرب الذين نزل عليهم القرآن، أن الماء يُصبُّ صبًّا، ويجري

في الأخاديد، وأهل اليمين يكونون في أماكن خصبة، بين الماء المنسكب المتدفق الذي لا ينقطع ولا يتغير، وبين الشجر الكثيف، والظلال الوارفة، والثمار الكثيرة، وهذا معنى ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾.

الآيتان: ٣٢، ٣٣- وفي الجنة فواكه كثيرة متعددة ومتنوعة، لا تنقطع صيفًا ولا شتاءً ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾.

الآيات: ٣٤-٤٠ وفي الجنة فرش مرفوعة على الأسرَّة، وفوق هذه السُّرُر نساء أهل الجنة، من الحور العين ومن زوجاتهم المحبوبات لهن في الدنيا، لقد خلقهن الله من جديد، فأعادهن إلى سن الشباب، وأبدعهن إبداعًا في أجمل صورة وأحسن هيئة، وجعلهن أبكارًا لا ثيبات، وهن متحببات إلى أزواجهن قد أعدهن الله تعالى لأهل اليمين من جماهير المسلمين، وهم الكثرة الغالبة من المسلمين، قال تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨﴾.

وهم الذين قال الله فيهم في آخر السورة: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾ [الواقعة].

ويكفي أنه سلم ونجا ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران].

ثالثًا: مُجْمَلُ مَا أَعَدَّه الله لأَهْلِ الشِّمَالِ الّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

الآية: ٤١-٤٢ إنهم يعذبون في ريح حارة تفعل فعل السموم، وتدخل في البدن من مسام الجسم، وهم يُعذَّبون في ماء متناهي الحرارة، فهم: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢﴾.

الآيات: ٤٣-٥٠- وهم يُعذَّبون في ظل من دخان أسود من نار جهنم، وسمَّاه القرآن ظلًا من باب التهكم، فهو ظل غير كريم المخبر ولا المنظر ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[الزمر:١٦]، قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ والسبب في هذا العذاب:

أ - أنهم كانوا في الدنيا ظالمين لأنفسهم، فكانوا مترفين، يتنعَّمون بالحرام، ويتكبرون عن الحق ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥﴾.

ب – وكانوا يُصِرُّون على فعل الذنب العظيم من الشرك بالله تعالى، ومن كل منكر قبيح ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

ج - وكانوا يُقْسمون بالأيمان المؤكدة أنه لا بعث ولا ثواب ولا عقاب.

وكانوا يُنكرون الحساب والجزاء، ويستبعدون إعادة الحياة إليهم وإلى من سبقهم من الأولين، ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقد أمر الله رسوله أن يرد على إنكارهم للبعث والنشور، بأن السابقين واللاحقين سيُبعثون من قبورهم في يوم معلوم، لا يتقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

وبعد أن بيّن الله سبحانه السبب في عذاب أهل الشمال استأنف سبحانه ذِكْر ألوان من عذابهم، ومن ذلك:

الآيتان: ٥١-٥٣- إنهم يأكلون من شجر الزَّقُّوم الذي ينْبُت في قعْر جهنم، وقد جعله الله طعامًا للظالمين الضالين عن طريق الحق، إلى جوار الأكل من الضريع وغيره.

والزَّقُّوم شجر كريه المنظر والمخبر، مرُّ المذاق، يغصُّ في حُلوقهم، وإنهم ليأكلون منه فيملؤون منه البطون ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾.

الآيات: ٥٤-٥٦- ثم إن أكل الزَّقُّوم يُلجئهم إلى الشراب الكثير، فيستغيثون طالبين الشراب فيُغاثون بماء كالمهل يشوي الوجوه ويقطِّع الأمعاء ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥] فيشربون ولا يرتوون كشأن الإبل الهيم التي تشرب حتى تموت أو تَسْقَم، نسأل الله العافية والسلامة قال تعالى في وصف شراب أهل الشمال: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

وأصحاب الشمال هم من قال الله فيهم في آخر السورة: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة].

رابعًا: مُوَازَنَةٌ بَيْنَ نَعِيمِ السَّابِقِينَ وَأَهْلِ الْيَمِينِ، وَعَذَابِ أَهْلِ الشِّمَالِ

النَّعِيمُ الأَوَّلُ لِلسَّابِقِينَ وَأَهْلِ الْيَمِينِ، وَمَا يُقَابِلُهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ لأَهْلِ الشِّمَالِ

قال تعالى في صفة جلوس السابقين في الجنة:

١٥، ١٦ - ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ[1] ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ[2] عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

أي: إنهم جالسين في الجنة على أسرَّة منسوجة بقضبان الذهب، مضفورة من المعادن النفيسة، مرصَّعة بالدر واللؤلؤ والياقوت، وهو كرسي متسع يجلس عليه المتكئ والمضطجع، مرتفع عن الأرض.

وملوك الدنيا يتخذونه من ذهب وفضة وعاج وأبنوس، فأهل الجنة أولى بذلك.

والموضونة: هي المصفوفة المسبوك بعضها ببعض، كما تُسبك حِلَق الدروع، ليكون المفرش وثيرًا مريحًا للمضطجع والمتكئ، كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وهكذا فإن السابقين يجلسون على سُرُرٍ وأرائك متكئين عليها في الجنة، يقابل بعضهم بعضًا بوجوههم، وهذا أدخل في السرور، وأكمل في أدب الجلوس، قلوبهم ممتلئة بالنعيم والراحة، ولا يشغل بالهم شاغل مِنْ هَمٍّ ولا كدَر، فهم ﴿فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الصافات].

وهم ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان].

وهم أيضاً ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن].

ومنهم من يتكئ على رفرف خضر وعبقري حسان، هذه هيئة جلوس السابقين

---

(١) ترك البصري والشامي عد ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ آية، وعدها الكوفي والحجازي، وقد عد ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ قبلها المدني الأول والمكي والشامي والبصري، وترك عدها المدني الأخير والكوفي.

(٣) حذف أبو جعفر همزة ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ ومثله حمزة عند الوقف، ويزاد له التسهيل بين بين، وقرأ الباقون بهمزة مكسورة، ولورش ثلاثة وجوه المد في البدل هي: القصر والتوسط والإشباع.

المقربين في الجنة.

وإذا كان هذا حال المقربين، فما حال أهل اليمين؟ إنهم:

٢٨ - ٣١ -﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ ﴾

ومن نعيم أهل اليمين في الجنة: جلوسهم في ظلال وارفة، وأكلهم من شجر السدر والطلح: فما أعظم مكانة أصحاب اليمين! وما أجزل جزاءهم! وما أحسن حالهم! إنهم يجلسون تحت أشجار النبق الخالي من الشوك، وهذه الجلسة أمنية يتمناها من نزل القرآن بلسانهم، والقرآن يحدث الناس بما يعرفوه حتى لا يكذبوه.

وفي الحديث: أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله، إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال: **«وما هي»**؟ قال: السدر، فإن له شوكًا، فقال ﷺ **«أليس الله يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ خضَّد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، وإن الثمرة من ثمره تفتَّق عن اثنين وسبعين لونًا من الطعام، ما فيها لون يشبه الآخر»**[(١)] .

أي: إن حدائق الجنة مليئة بشجر النبق منزوع الشوك، ممتلئة بكثرة الثمار والأغصان غير المضرة، وهو شجر مبارك، والمخضود هو الموقر بالثمر الخالي من الشوك.

جاء عن عطاء ومجاهد: أن أناساً كان يعجبهم وادي الطائف وما فيه من طلح وسدر، فقالوا: يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي، فأنزل الله هذه الآية[(٢)].

ولما كان السدر معروفاً عند العرب، وكان محبوبا لديهم، ذكره الله تعالى في الآية، ووعدهم الله به.

---

(١) من حديث أبي أمامة في «المستدرك» (٤٧٦/٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، ورقمه في ط دار المعرفة (٣٨٣٠) قال محققه: عبدالسلام علوش: سنده جيد، والبيهقي (٣٠٢) في «البعث» وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» برقم(٥٥١١): إسناده حسن، وله شاهد صحيح في «المعجم الكبير» للطبراني (١٣٠/١٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤١٤/١٠): ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه أبو بكر بن أبي داود برقم (٦٩).

(٢) يُنظَر: البيهقي (٣٠٣) والطبري (٣١١/٢٢).

والطلح المنضود: هو شجر الموز، المنسَّق المنظم، المتراكم بعضه فوق بعض، فليست له ساق بارزة، وقيل: هو الطلح المعروف، وثمر أشجار الجنة ليست في غلاف كثمر شجر الدنيا، وثمار هذه الأشجار إما مأكولة، وإما مشروبة، وإما مشمومة، وإما منظورًا إليها، والموز من الفواكه المأكولة.

عن عقبة بن عبد الله السلمي قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله، تُذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكًا منها - يعني: الطلح - فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خُصْيَة التيس الملبود - كثير اللحم- فيها سبعون لونًا من الطعام لا يشبه لونًا آخر**»[(١)].

قال تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾[البقرة: ٢٥].

هذا: وظل الجنة ظلٌّ دائم ممتد منبسط، لا تنسخه الشمس كظل الدنيا؛ لأن الجنة لا شمس فيها.

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾**»[(٢)] والظل الممدود هو الذي لا يتقلص، قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ﴾ [الرعد: ٣٥].

وفي حديث أبي سعيد وسهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجوَاد المضَمَّر السريع مئة عام ما يقطعها**»[(٣)].

قال ابن كثير: هذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة

---

(١) ابن أبي داود في «البعث» (٦٩) والطبراني في «الكبير» (٣١٨) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/١٠٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٤١٤): رجاله رجال الصحيح.
والملبود: هو الذي يكتنز اللحم ،ويلزم بعضه بعضًا، فيقال: تلبَّد.

(٢) البخاري برقم (٤٨٨١)، وانظر: (٣٢٥٢) ومسلم برقم (٢٨٢٦) والترمذي (٢٥٢٣) وابن ماجه (٤٣٣٥) و«المسند» (٧٤٩٨) وغيرهم.

(٣) «صحيح البخاري» (٦٥٥٣) و«صحيح مسلم» (٢٨٢٨).

الحديث النقاد، لتعدد طرقه، وقوة أسانيده، وثقة رجاله[(١)].

وأهل الجنة ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٣، ١٤].

أي: وفي الجنة ماء كثير مصبوب يجري على الأرض في جداول، ويأخذون منه ما شاؤوا دون جهد ولا تعب، وهذا الماء يجري دائمًا بلا انقطاع، ويسير في غير أخدود.

فالماء المسكوب: هو ما يجري من العيون والأنهار السارحة والمياه المتدفقة، تحت القصور والأشجار في الجنة، أو ما تدفعه النافورات إلى أعلى.

قال القرطبي: كانت العرب أصحاب بادية، والأنهار في بلادهم غزيرة، لا يَصِلُون إلى الماء إلا بالدلو والرشا، فوُعدوا في الجنة بأسباب النزهة وهي الأشجار وظلالها، والأنهار وجريانها[(٢)].

وفي الجنة أيضاً عيون مياه ممزوجة بمشروبات أخرى تفجر لهم يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٥، ٦] وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨]، وجاء في سورة المطففين ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨].

وإذا كان هذا حال السابقين وأهل اليمين وهم جلوس في الجنة، يتنعمون بما أعده الله لهم من نعيم، فما حال أهل الشمال في مقابل ذلك، قال تعالى في وصف عذابهم:

٤١ - ٤٤ - ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ[(٣)] مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾

ما أسوأ حال أصحاب الشمال! وما أفظع جزاؤهم! فهم ﴿فِي سَمُومٍ﴾ أي: في ريح

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/٥٢٨).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٧/٢٠٩).

(٣) قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ متروك من العدد عند الكوفيين، ومعدود عند غيره.

حارة من حر نار جهنم، تأخذ بأنفاسهم، وتُقلقهم أشد القلق، وتنفُذ في مسامّهم، تهلك الأبدان، وهي ريح شديدة الحرارة، وليس معها بلل، كأنها السم القاتل، وإلى جوار فيح جهنم، فهم في (حميم) وهو الماء الذي بلغ النهاية في درجة الغليان، يُقطِّع الأمعاء ويشوي الوجوه، إنهم بين الريح التي تلفحُهم بحرارتها وشدة أذاها، وبين الماء الذي يغلي، كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن]. وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ وهم يغاثون بماء كالمهل يشوي الوجوه.

ولا ظِلَّ لأهل النار يقيهم من السموم والحميم إلا ظل دخان أسود كثيف، يخنق الأنفاس، وينفذ في المسام، وهو ظل دخان لَهَب جهنم، يضر ولا ينفع، تنتفي عنه صفة البرودة، وكرامة الظلال، كما قال تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١]. وذلك لأن فائدة الظل ترجع إلى أمرين: دفع الحرارة وحسن المنظر، مع كون الإنسان مكرماً.

وظل أهل النار ليس كذلك فهو ظلٌّ حارٌّ ضارٌّ، ينبعث من لهب النار المختلط بالدخان، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وهذا العذاب يحيط بهم من كل جانب ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥] ولأهل الجنة ظل من نوع آخر، كما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقد صف الله ظل أهل النار بأنه ظل لا بارد المنزل، ولا كريم المنظر، فلا يستروح به الإنسان، ولا يستفيء بظله. وهذا إشارة إلى وجود الهم والحزن والغم والشر الذي لا خير فيه، لأن نفي الضد إثبات لضده.

ثَلاثَةُ أَسْبَابٍ لِعَذَابِ أَهْلِ الشِّمَالِ:

السَّبَبُ الأَوَّلُ: هُوَ التَّرَفُ

٤٥ - ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾

أي: إن أهل النار استحقوا هذا العذاب؛ لأنهم لم يقدموا لأنفسهم الإيمان والعمل الصالح، وكانت معيشتهم على ظهر الدنيا تشبُّعًا من اللذائذ المتاحة، أو جريًا وراءها، سواء وُجدت أم لم توجد، لقد ألهتهم الدنيا عن العمل بالآخرة، وألهاهم الأمل عن إحسان العمل.

وقد وصف الله معيشة الكافر بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق: ١٣، ١٤] أي: زعم أنه لن يعود إلى ربه. والترف: هو بطر النعمة وعدم شكرها، وشكرها يكون بالاعتراف للخالق سبحانه بالتوحيد، وألا تصدَّهم النعمة عن ذكر الله تعالى، وألا يستعملوها في المعاصي ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢] والترف في العيش ليس ذنبًا في حد ذاته، فليس سببًا مستقلًا للعذاب، إلا إذا انضم إليه التكذيب بخاتم الرسل، أو اليوم الآخر، أو الشرك بالله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل:١١] أو تعلق به قلب المرء، فاطمأن إليه وأنكر الآخرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس:٧، ٨].

السَّبَبُ الثَّانِي هُوَ: الإِصْرَارُ عَلَى كَبَائِرِ الذُّنُوبِ

٤٦- ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

إن عدم الإيمان باليوم الآخر يجعل الكافر يبني حياته على أنه لا بَعْث ولا حساب! فيوغل في المعاصي، وينكبُّ عليها دون شعور بقبحها، ولا ندم على اقترافها، وهذا هو الحنث العظيم، أي: المعصية الفادحة مع الدوام عليها وسبق الإصرار والترصد لها، وأعظم المعاصي: الكفر والشرك بالله تعالى مع عدم التوبة، وكذا اليمين الغموس، وإنكار البعث والجزاء والجنة والنار.

وكان المكذبون باليوم الآخر يقسمون بالله تعالى أنه لا بعث ولا نشور، ويقسمون بالله أيضًا لو جاءتهم آية كما طلبوا ليؤمنن بها، ثم يحنثون في أيمانهم.

وهكذا: فإن أهل الشمال يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يسخط الله عز وجل، فيقدمون على ربهم بأوزار كثيرة قد ماتوا عليها فيكون هذا جزاؤهم.

السَّبَبُ الثَّالِثُ: إِنْكَارُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٤٧ - ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ [١] أَئِذَا [٢] مِتْنَا [٣] وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا [٤] لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

إن أهل الشمال كانوا ينكرون البعث ويعتقدون استحالته، ويناظرون في ذلك قائلين: هل سنبعث بعد أن كنا ترابًا وعظامًا نخرة؟ يقولون ذلك على وجه الاستبعاد والتكذيب، وسنبعث نحن ومن سبقنا من الآباء والأجداد.

٤٨ - ٥٠ - ﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ [٥] ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ [٦] ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ [٧] إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

أي: أنُبعَث نحن وآباؤنا الأقدمون الذين صاروا ترابًا قد انتثر وتفرق في الأرض؟

وقد لقَّن الله تعالى رسوله الجواب الشافي بأن جميع الأمم التي سبقت، ومنها آباؤكم الأولون، وجميع الأمم اللاحقة، وأنتم من جملتهم ستحشرون في صعيد واحد ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [هود: ١٠٣، ١٠٤].

---

(١) عد المكي والحمصي (وكانوا يقولون) آية، وتركه من العدد غيرهما.

(٢ - ٤) قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بهمزتين في (أئذا) على الاستفهام وهمزة واحدة في (إنا) على الخبر، والباقون بالاستفهام فيهما، وكلٌّ على أصله من حيث التسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه. فقالون وأبو عمرو بالتسهيل مع الإدخال، وورش وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وأبو جعفر يسهِّل الثانية مع الإدخال، وهشام يحقق مع الإدخال، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

(٥) ترك الحمصي عد قوله تعالى: (أو آباؤنا الأولون) آية، وهو معدود آية عند جمهور أهل العدد.

(٦) ترك الشامي والمدني الأخير عد قوله تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ آية، وهو معدود آية عند غيرهما.

(٧) عد الشامي والمدني الأخير ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ آية، وهو متروك لغيرهما من أئمة العدد.

إن الخلائق جميعًا - السابق منهم واللاحق - سيُجمعون ويُحشرون ليوم الحساب الذي حدده الله بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، وليس البعث على أفواج أفواج، أو جماعات جماعات، كموت الناس في الدنيا، بل يبعث الأولون والآخرون في يوم واحد، دفعة واحدة، يجمعهم ربنا فيحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

النَّعِيمُ الثَّاني لأَهْلِ الْجَنَّةِ

١٧-١٩- ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ [(١)] وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ [(٢)] ﴿١٩﴾﴾

ويخدُم السابقين المقربين في الجنة، ويقوم على قضاء حوائجهم فتية صغار السن، في غاية الحسن والبهاء، يبقون في سن الشباب أبد الآباد، ونضارة الصبا لا يهرَمون، ولا يتغيرون لا تزيد أعمارهم، ولا يملُّون من كثرة التردد على خدمتهم، وهم ولدان خُلقوا في الجنة لخدمة أهلها كالحور العين، ولم يولدوا.

وقيل: إنهم أولاد الكفار الذين ماتوا قبل سن الْحُلُم. قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ١٩، ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤].

وخدمة الغلمان من باب تعدد ألوان المتع والنعم، وإلا فإنهم يجابون إلى مطالبهم بمجرد توجه رغباتهم إلى الشيء قائلين ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠].

والولدان المخلدون في الجنة، يطوفون على أهلها بأقداح لا عرى لها ولا خراطيم، مستديرة الفم ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ لها خرطوم وعروة يوضع فيها الخمر، وهي تبرق من صفاء

---

(١) عد المكي والمدني الأخير (وأباريق) آية، وتركها غيرهما من العدد.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بضم الياء وكسر الزاي من (يُنزِفون) مضارع أنزف، بمعنى: ذهب عقله من السُّكْر، والباقون بضم الياء وفتح الزاي مضارع نزف، بمعنى: سكر وذهب عقله.

لونها، فالأكواب ليست لها آذان، والأباريق لها آذان، قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦].

﴿وَكَأْسٍ﴾ أي: كوب طويل مملوء بالخمر من عيون جارية في الجنة، يجري فيها الماء والعسل واللبن ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥] ولا يقال كأس إلا إذا كان فيه خمر.

والمعين: هي الخمر الجارية لذيذة المشرب، لا آفة فيها، ولا ضرر منها، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦﴾ [الصافات: ٤٥، ٤٦] وقال جلَّ شأنه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤﴾ [النبأ: ٣٤] أي ممتلئة.

ومع كثرة الشراب في الجنة من لبن وعسل وماء وخمر، فإن الخمر المعنيّة خمر أباحها الله تعالى، لا تصيب بالصداع ولا الدوار، ولا تنزف العقل فتجعله يهذي، وتختلط عليه الأمور، كما هو معروف لدى السكارى في الدنيا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: في الخمر أربع خصال: السُّكْر، والصداع، والقيء، والبول. وقد نزَّه الله خمر الآخرة عن هذه الخصال الذميمة فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ [الصافات: ٤٧].

فرؤوس أهل الجنة لا تتصدع من شرب الخمر كما هو الحال في الدنيا، ولا تذهب عقولهم، كما يحدث في الدنيا، فخمر الآخرة تأخذ من خمر الدنيا مجرد الاسم، ولها خصائص النعيم في الجنة.

النَّعِيمُ الثَّالِثُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ

٢٠، ٢١- ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾

ويطوف عليهم الولدان بأنواع الفاكهة التي يتخيرونها من الثمار والبقول كاللوز والجوز والفستق، وهي كثيرة متنوعة، لا تنقطع صيفًا ولا شتاءً، وهي تأخذ شكل ثمار الدنيا وفواكهها، كما يألفه الإنسان، ولكن طعمها ألذ وأشهى، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا

رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ ﴾ [البقرة:٢٥]. فاللون واحد والطعم مختلف، والسابقون المقربون لهم في الجنة ما يشتهون وما يتخيرون من أنواع الفواكه المختلفة، دون أن يصابوا بأضرار صحية كالحموضة أو السكرى من كثرة أكل التمر مثلاً، فلهم ما يطلبون في الجنة من لذائذ المطعومات والمشروبات من كل تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ومن كل ما يتخيرون ويروق في أعينهم، وهم فيها خالدون مخلدون منعمون مكرمون.

وفي مقابل الفاكهة المختارة،ولحم الطير المشتهى للمقربين؛ الفاكهة الكثيرة التي لا تنقطع صيفاً ولا شتاءً لأهل اليمين.

ويطوف الغلمان على أهل الجنة بلحم طير مما ترغب فيه نفوسهم أي: من كل صنف من الطيور يشتهون، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، مشوياً، أو مظبياً أو مطبوخاً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يخطر على قلبه لحم الطير، فيطير ممثلًا بين يديه على ما اشتهى، وقُدِّمت الفاكهة على اللحم؛ لأن أهل الجنة يأكلون للتفكه والتلذذ وليس عن جوع، فنفوسهم تميل إلى الفاكهة أكثر، وهذا من شأن الشبعان.

عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن طير الجنة كأمثال البُخت ترعى في شجر الجنة**»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه الطير ناعمة، فقال: «**أَكَلَتُها أنعم منها** - قالها ثلاثًا - **وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها يا أبا بكر**»[1].

---

(١) «المسند» (٣/٢٢١) (١٣٣١١) قال محققوه: صحيح، وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف سيار بن حاتم، والضياء المقدسي في «المختارة» برقم (١٦١٤) بإسناد حسن، و«الترغيب والترهيب» برقم (٥٥٠٦) قال العراقي في تخريج الإحياء (٦/٢٧٧٠): إسناده صحيح، وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة «مجمع الزوائد» (٤/٤١٤) وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الألباني: حسن صحيح، يُنظَر: «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٦٧٨، ٢٠٦٣) و«السلسلة الصحيحة» (٢٥١٤).

والبُخت: جمال طوال الأعناق. قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الطور: ٢٢].

وإذا كان هذا شأن السابقين المقربين، فما شأن أهل اليمين من عامة المؤمنين، قال تعالى في مقابل ما سبق:

٣٢، ٣٣- ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾

ولما كانت الفواكه في الأرض موسمية، تظهر في بعض الشهور، وتختفي بقية العام، وُصفت فاكهة الجنة بالكثرة والاستدامة. وما في الآخرة من فواكه وثمار وغيرها يشبه شكل ما في الدنيا ويختلف في طعمه. جاء في الحديث عن سدرة المنتهى: أن النبي ﷺ قال: «فإذا ورقها كآذان الفيلة، ونبقها مثل قلال هجر»[1].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»[2]. ففاكهة الآخرة لا تنقطع ولا تقل، وجناها قريب يتناوله العبد على أي حال يكون وهي تشبه فاكهة الدنيا في الاسم وتختلف في المذاق والطعم.

أي: إن ثمار الجنة لا تنقطع كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء، وهي ليست بالقليلة العزيزة، وليست ممنوعة عن أحد، ولا ممنوعة في وقت من الأوقات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تنقطع إذا جُنيتْ، ولا تمتنع من أحد إذا أراد أخذها.

وفي الأثر: «ما قُطِعَتْ ثمرة من ثمار الجنة، إلا عاد مكانها أخرى».

فهي فاكهة لا تنفد، ولا تنقطع، ولا يمنع منها مانع. ولا تفسُد ولا تذبل، فهي طازجة بشكل مستمر، وهي كاملة السُّعرات الحرارية وإن كان البدن لا يحتاج إلى شيء من هذه السّعرات لأن ما يؤكل وما يشرب في الآخرة إنما هو للتلذذ والتفكه، وليس لحاجة الجسم إليها، وهذه الثمار في متناول أيديهم يقطفونها من أصلها كلما أرادوا.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٠٧) و«صحيح مسلم» (١٦٢) من حديث أنس.

(٢) «صحيح البخاري» (١٠٥٢) و«صحيح مسلم» (٩٠٧).

النَّعيمُ الرَّابعُ: في الجنَّةِ للمُقرَّبينَ وأهلِ اليَمينِ

٢٢ – ٢٤ -﴿ وَحُورٌ عِينٌ[(١)] ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

أي: ويطوف على أهل الجنة من السابقين المقربين نساء عيونهن شديدة البياض والسواد في سعة وجمال، فإن من العلامات البارزة في الجنة الحور العين، خلقهن الله وأبدعهن في الجنة، فتيات ساحرات العيون، يستمتع بهن أهل الجنة.

قال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الطور: ٢٠] والحوراء هي التي في عينها كحل وملاحة وحسن وبهاء، و(العين) حسان الأعين واسعات في حُسن وبهاء إلى جوار نساء الدنيا بعد صوْغهن في قوالب أخرى تجعل العجائز شواب، والدميمة وسيمة.

والحور العين في الصفاء والنقاء، كاللؤلؤ المصون في أصدافه لم تمسسه يد، فهو لؤلؤ أبيض رطب صافي، مستور عن الأعين والريح والشمس، لونه من أحسن الألوان، لا عيب فيه بوجه من الوجوه، وكذلك الحور العين، لا عيب فيهن بوجه، بل هن كاملات الأوصاف، يجد المؤمن فيهن كل ما يتمناه وما يروق له، وما كان يشتهي في دنياه.

إن أصناف النعيم التي حَظِي بها السابقون في الجنة، كانت جزاءً لأعمالهم الصالحة التي قدَّموها في الدنيا، لقد أحسنوا العمل في الدنيا فأحسن الله مثوبتهم، وكانوا من المقربين؛ لأن الله تعالى قربهم إليه بسبب تقرُّبهم منه بالطاعات، وتَرْكِهم المحرمات والشبهات، والإكثار من النوافل والقربات، كما في الحديث: **«ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»**[(٢)] **«وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه**

(١) قرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر بخفض الراء والنون من (وحورٍ عينٍ) عطفًا على (جنات النعيم)، والباقون بالرفع فيهما عطفًا على (ولدان) أو مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: لهم. وقد عدها آية المدني الأولى والكوفي وتركها غيرهما من العدد.

(٢) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» (٢٦٨٧).

الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»[(١)]
ومنازل الجنة ومراتبها على قدر الأعمال، أما دخول الجنة في حد ذاته فهو محض فضل من الله تعالى، فقد صح في الحديث: «**لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة**»[(٢)].

وإذا كان هذا شأن السابقين المقربين، فما شأن أهل اليمين من عامة المؤمنين، قال تعالى في مقابل ما سبق:

٣٤- ٤٠ - ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أي: وفي الجنة سرر مفروشة منضدة، قد ارتفعت فوق الأسرة عن الأرض ليتكئ عليها أهل الجنة وأزواجهم، وهذه الفرش من نسج خاص بأهل الجنة وليست كفرش الدنيا، ويُكَنَّى بالفرش عن المرأة، فتُسمَّى المرأة فراشًا، وهذا أنسب بالآية بعدها، فيكون المعنى أن نساء الجنة رُفِعْنَ بالفضل والجمال عن نساء الدنيا.

وقد جاء وصف هذه الفرش في مثل قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦] وهذا بالنسبة لأهل اليمين وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

إنا خلقنا نساء الجنة خلقًا جديدًا غير الذي كُنَّ عليه في الدنيا، فهي نشأة كاملة لا تقبل الفناء، وهُنَّ في سن الشباب لا يَهرمْن، كما خُلِقَتْ في الجنة نساء جميلات وسيمات أعدَّهن الله لأهل الجنة مخلوقات فيها.

وهؤلاء النسوة عذارى، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارًا، وهن في سن الشباب دائمًا.

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٦٥٠٢).

(٢) من حديث أبي هريرة في «المسند» (٧٢٠٣) بنحوه بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وانظر: (٧٤٧٩، ١٠٦١٤) وعن جابر (١٥٢٣٦).

فعن أنس: أن امرأة عجوزًا جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة، قال: «لا يا أم فلان، إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فولَّت تبكي، فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾»[1]. وهذا يشمل الحور العين ونساء الدنيا، والبكارة ملازمة لهن جميعاً في كل الأحوال.

والمرأة العَروب هي المتحببة إلى زوجها بحسن لفظها، وحسن هيئتها، ودلالها وجمالها، ومحبتها، فهي إن تكلمت سبت العقول، ووَدَّ السامع أن كلامها لا ينتهي، وإن نظر إليها ملأت قلبه إعجاباً، وكل ذلك بدون تكلف، فهي كثيرة الضحك والمزاح واللهو والخضوع في القول، والتغزل في الزوج، والمؤانسة في المجالسة، والتدلل، والمعاكسة، واللعب، وكل ما فيه جلْبُ محبة الزوج واكتساب قلبه، ونساء الجنة في سن الشباب المستوِي مع غيرهن لا تفاوت بينهن في السن، ولا في صفات الحُسْن، فأعمارهن ثلاثة وثلاثون عامًا لا يزدن عليها، وقد قبضهن الله إليه في الدنيا عجائز شُمطًا رُمصًا عُمشًا، ثم جعلهن في الجنة أترابًا، على سن ميلاد واحدة في الاستواء.

عن معاذ بن جبل ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلين، أبناء ثلاث وثلاثين»[2]، كما قال تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ [النبأ: ٣٣]. وقد وصف الله نساء الجنة بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [الرحمن: ٥٨] هذا غاية ما يشتهي المرء ويتمنى، نساء راضيات مرضيات، لا تحزنَّ ولا يُحزن، ولا نكد ولا كدر، بل فرح وسرور ومحبة وحبور.

وكل ما سبق ذكره من ألوان النعيم أعدَّه الله لأهل اليمين، وهم جماهير المؤمنين في الجنة، ولأن عمل أهل اليمين أدنى من عمل السابقين لم يقل الله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، والترمذي (٢٣٢) والبيهقي (٣٨٢) وحسنه الألباني في «غاية المرام» (٣٧٥).

(٢) «المسند» (٢٢١٠٦) قال محققوه: حسن لغيره، وأخرجه الترمذي (٢٥٤٥) والبزار في مسنده (٢٦٤٤) والطبراني في «الكبير» (١١٨) وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٢٥٧) وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٦٤).

يَعۡمَلُونَ ﴾ إشارة إلى أن الفضل في شأن أهل اليمين أكثر، حيث يدخل بعضهم النار عقابًا على معاصي فعلَها في الدنيا ولم يتُب منها، ثم يدخلون الجنة[1].

وأهل اليمين جماعة كثيرة من الأولين في صدر أمة محمد ﷺ.

وقيل من الأمم الماضية.

وجماعة كثيرة من الآخرين وهم من أهل هذه الأمة.

أما السابقون: فهم جماعة كثيرة من الأولين من هذه الأمة، أو الأمم السابقة، وجماعة قليلة من أمة محمد ﷺ، وقلتها بالنسبة لكثرة الأمم وكثرة الرسل.

طَعَامُ أَهْلِ النَّارِ وَشَرَابُهُمْ

٥١-٥٣- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾

إنكم أيها الضالون عن الهدى، المنصرفون عن الحق، المكذبون بالبعث والحساب والجزاء، غير المصدقين بوعد الله ووعيده، تأكلون يوم القيامة من شجر الزقوم، وتملؤون بطونكم منها.

والزقوم أقبح الطعام، وأقبح الشجر، وهي شجرة تنبُت في قعر جهنم، وثمرُها كأنه رؤوس الشياطين، وقد أعدَّها الله لعذاب الكافرين في جهنم، فهي طعامهم وغذاؤهم.

فيأكل أهل النار من شجرة الزقوم حتى تمتلئ منها بطونهم لشدة ما حلَّ بهم من الجوع، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الصافات: ٦٣-٦٦]. والذي أوجب لهم ذلك ما كانوا عليه في الدنيا من الكفر والتكذيب.

قال تعالى في شراب أهل النار بعد أن ذكر طعامهم:

---

(١) يُنظَر: «تفسير الألوسي» (١٤٣/٢٧).

٥٤ - ٥٦ - ﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ (٥٤) فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ[1] ٱلۡهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ (٥٦) ﴾

وبعد الأكل من شجرة الزقوم بالنسبة لأهل الشمال، يشربون من ماء قد بلغ منتهى الحرارة، لا يَرْوِي ظمأ، ولكنه يقطع الأمعاء. ويشوي الوجوه فيشربون منه بكثرة، كأنهم مصابون بداء الهُيام الذي يصيب الإبل فتشرب ولا تشبع، ولا تزال تشرب حتى تموت، فالهيم هي الإبل العطاش، ثم يقال لهم:

هذا العذاب والطعام والشراب هو المعدُّ لهم زادًا وضيافةً يوم القيامة، فبئس الطعام طعامهم، وبئس الشراب شرابهم، وبئس المصير مصيرهم.

النَّعيمُ الخَامِسُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ

٢٥، ٢٦ - ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا[2] (٢٥) إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا (٢٦) ﴾

وأهل الجنة من السابقين المقربين لا يسمعون في الجنة كلامًا باطلًا، ولا قبيحًا، ولا ما لا فائدة فيه، ولا ما يُكْسِب صاحبه إثمًا، من قول أو فعل قبيح، ولا فاحش ولا ساقط، فهم ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا (٣٥) ﴾ [النبأ:٣٥].

وهكذا وصف الله عباد الرحمن، ووصف عباده المؤمنين بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً، ووصف الذين أوتوا العلم بأنهم إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وهكذا أهل الجنة لا يسمعون فيها ما هو لغو ولا ما يؤثّم قائله.

والسابقون المسارعون إلى الخيرات لا يسمعون في الجنة إلا قولًا طيباً، يسر النفس ليس فيه لغو ولا إثم، فإن دار الطيبين لا يكون فيها إلا كلاماً طيباً سالمًا من الفحش والزور وسائر العيوب، وتسليم بعضهم على بعض، وتحية بعضهم لبعض، ومودة بعضهم لبعض، وسلام الملائكة عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ ﴾ [يونس: ١٠]. ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد: ٢٤].

---

(١) قرأ نافع وعاصم وحمزة وأبو جعفر بضم الشين من (شُرب) مصدر، والباقون بفتحها اسم مصدر.

(٢) ترك المكي والمدني الأول ﴿ وَلَا تَأۡثِيمًا ﴾ فلم يعدانها آية، وعدّها غيرهما.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

أهل الجنة من أمة محمد ﷺ:

١- في الصحيحين: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عُرضتْ عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيْط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذْ رُفع لي سواد عظيم، فظننتُ أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، قيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله، وَذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «ما الذي تخوضون فيه»؟، فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يرْقون، ولا يسترقون، ولا يتطيَّرون، وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم»، فقام رجل آخر، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم؟ فقال: «سبقك بها عكاشة»[(١)].

والمعنى: أنهم (لا يرقون ولا يسترقون) رقية محرمة غير شرعية، كالتعويذ من مرض لم يقع بعد، ومثل التمائم والتولة، وفي بعض الروايات عند البخاري (لا يكتوون) بدل (لا يتطيرون) والتطير محرم اعتقاده شرعاً، فالمنفي في الحديث هو الرقية المحرمة وليس الرقية الجائزة، المندوب إليها.

٢- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في قبة نحوًا من أربعين رجلًا، فقال: «أترضَوْن أن تكونوا ربع أهل الجنة»؟ قال: قلنا: نعم، فقال: «أترضَوْن أن تكونوا ثلث أهل الجنة»؟ فقلنا: نعم، فقال: «والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا

---

(١) البخاري (٣٤١٠، ٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠، ٢٢١).

نصف أهل الجنة، وذاك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشَّعْرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»[(١)].

٣- وعن بريدة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**أهل الجنة عشرون ومئة صفٍّ: ثمانون منها من أهل هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم**»[(٢)].

موازنة بين نعيم السابقين وأهل اليمين:

هذا: وإن جميع ما ذُكر في الآيات السابقة بالنسبة لأصحاب اليمين، ليس مخالفًا لما ذُكر بالنسبة للسابقين، كما أن ما أُعطي للسابقين، لا يُخالف ما أُعطي لأهل اليمين:

١- فالظل الممدود. ٢- والماء المسكوب. ٣- وكون أزواجهم ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

هذه الثلاثة ذُكرت لأهل اليمين، ولم تُذكر للسابقين، ولاشك أنهم أعلى منزلة من أصحاب اليمين، فهي ثابتة لهم لا محالة، ويدل على ذلك آيات سورة الرحمن في وصف جنتيْ من خاف مقام ربه، وما ذُكر فيها للسابقين من:

١- طواف الولدان عليهم. ٢- والأكواب والأباريق. ٣- ولحم الطير.

٤- وكون أزواجهم حورًا عينًا. ٥- وأنهم لا يسمعون في الجنة إلا قيلًا سلاماً سلاماً.

هذه الخمسة لم يُذكر مثلها لأهل اليمين، مع أن لأهل الجنة على وجه العموم ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون؛ إذ ليس المقصود توزيع النعم أو حضرها وقضرها على كل فريق، وإنما المقصود هو مجرد تعداد بعض النعم، والتشويق إليها.

على أن آيات القرآن الكريم ذَكرتْ أشياء أخرى لأهل الجنة لم تُذكر هنا بالنسبة للفريقين معًا، وذلك مثل: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس:١٠].

ومثل: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

---

(١) البخاري (٦٥٢٨، ٦٦٤٢) ومسلم (٢٢١) واللفظ له.

(٢) أخرجه الترمذي بإسناد حسن برقم (٢٠٠٦٥) في «صحيح سنن الترمذي»، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢٨٩) بتصحيح الألباني فيهما.

ومثل: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الكهف: ٣١].

ومثل: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣٣].

وهكذا، فإن الغرض من الآيات هو التنويه بشأن السابقين وأصحاب اليمين معاً.

خَمْسَةٌ مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: الْقَادِرُ عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ أَقْدَرُ عَلَى إِعَادَتِهِ

٥٧- ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

ثم إن أهل الشِّمال الذين أنكروا وحدانية الله تعالى، وأنكروا خاتمة الرسالات، وأنكروا البعث والنشور، إنهم مع هذا مُقرون ومعترفون بأن خالقهم ورازقهم هو الله سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١].

ولكن هذا الاعتراف كالعدم؛ لأنهم أشركوا مع الله غيره، يتوجهون إليه بالدعاء والذبح والنذر، ويطلبون منه المدد والعون، والنفع والضر، ويتوسلون به إلى الله تعالى لتكون لهم واسطة تقربهم منه تعالى.

ولما كان هذا ونحوه من خصائص الله تعالى، ولا يقْدِر عليه إلا الله، كان اعترافهم بوجود الخالق لا وزن له، لأنهم إذا لم يتوجهوا إلى الله وحده بجميع أنواع الطاعات، ولم يُحكِّموا كتاب الله سبحانه فيما شجر بينهم، فكأنهم لم يقروا بوحدانية الله تعالى ولم يؤمنوا بالبعث! ولذا قال تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أيها الناس، فأوجدناكم من العدم ولم تكونوا شيئًا، خلقناكم من غير عجز ولا تعب.

ولعل المقصود بهذه الآية: خلق الإنسان الأول - وهو آدم عليه السلام - من تراب؛ لأن الآية التي بعدها تحدثت عن خلق ذريته من المنيّ.

وليس المقصود إثبات أن الله تعالى هو الذي خلقهم فهم معترفون بذلك، وإنما المقصود إثبات أن القادر على الإيجاد الأول، قادر على إعادته، وأنه على كل شيء قدير،ولكنهم لمَّا توجهوا بالعبادة إلى غير الله تعالى،ولمَّا أنكروا البعث والنشور، أنزلهم الله تعالى منزلة من يشك في أن الله خلقهم،وهذا من باب إلزام الحجة لهم،والتبكيت والتهكُّم بهم،ولذا ويخهم الله تعالى على عدم التصديق بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه.

والقرآن الكريم يُلحُّ في طلب النظر واستقصاء الفكر في هذا الوجود لمعرفة البدء والعودة، إننا موجودون يقينًا، فكيف وُجدنا؟

والمتأمل في النشأة الأولى يرى أن استبعاد النشأة الآخرة قصور في الفكر، وطمس في البصيرة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١)﴾ [العنكبوت: ١٩-٢١].

لقد لُخصت هذه المعاني كلها في آية قصيرة: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧)﴾.

وقد أَفضَتْ هذه الآيات القصيرة، إلى ذكر أربعة أدلة على إمكانية البعث والنشور، وهذه البراهين الأربعة تتمثل في:

١- خلق الإنسان من نطفة.

٢- وخلق الزرع من البذور.

٣- وإنزال الماء من السحاب.

٤- وخلق النار من الشجر الأخضر.

وكلها حجج موجبة للتصديق بالبعث بعد الموت، وكأن معترضًا من الكفار قال: لم أصدق، فقيل له: أفرأيت كذا وكذا؟

الدَّلِيلُ الثَّانِي: خَلْقُ الإِنْسَانِ مِنْ نُطْفَةٍ

٥٨، ٥٩- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ[1] مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩)﴾.

---

(١) سهَّل الهمزة الثانية من (أفرأيتم) نافع وأبو جعفر، ولورش إبدالها ألفًا مع المد المشبع حالة الوصل، وحذفها الكسائي، وحققها الباقون.

أفرأيتم ابتداء خلقكم من المني الذي تمنونه؟ فهل أنتم خالقون هذا المني وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى هو الذي خلقه، وجعل بين الزوجين مودة ورحمة، كانتا سبباً لهذا التناسل.

إن هذا السائل العجيب، والماء المَهين تحمِل الدفعة الواحدة منه مئتي مليون حيوان منوي، هذا الحيوان - الذي لا يُرى لضالّته - ويَحمِل في كيانه كل خصائص النوع الإنساني المادية والمعنوية.

وهذا أمر معروف من قديم، ففي قصة الملاعنة التي جاءت في سورة النور من الآية السادسة إلى الآية التاسعة، يقول النبي ﷺ عن المرأة الحامل، المتهمة بالزنى:

«**إنْ جاءت به أكحل العينين، سابغ الإليتين، خدلج الساقين** - أي : ممتلئ الساقين - **فإنه لِشَرِيك بن سحماء**»[1] الذي رُميتْ به المرأة.

فقد بيَّن النبي ﷺ أن الصفات الجسدية تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الحيوانات المنوية.

كذلك تنتقل الصفات العقلية والخُلقية، فهل توجد في الخصيتين مصانع عالمية تديرها عُصبة من العباقرة، تصنع ذلك؟ إن هذه الغدد تأخذ مادتها من الدم، والدم يأتي من الغذاء، والغذاء يأتي من الطين! والمشرف على هذه الأطوار أوّلًا وأخيرًا هو الله رب العالمين ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَـٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٧-٩].

نحن خلقناكم - أيها الناس - من سلالة من طين ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَـٰهُ نُطۡفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَـٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَـٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَـٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٣-١٦].

---

(١) «فتح الباري» (٦/٣٢٦) وهو في «صحيح البخاري» مختصراً برقم (٤٧٤٧) عن ابن عباس وهذا جزء منه، وهو حديث طويل، وفي «المسند» (١/٢٣٨) برقم (٢١٣١) وهو حديث حسن، وعباد بن منصور متكلم فيه، وأبي داود (٢٢٥٦)، والطيالسي (٢٦٦٧)، وأبي يعلى (٢٧٤٠).

فهلَّا تصدقون أن الذي بدأ الخلق أقدر على إعادته، وقد أنكر الله عليهم عدم إقرارهم بالبعث، كما جاء في أسلوب الحث والحض على الإيمان باليوم الآخر في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: بالبعث والنشور.

ولماذا تتهمون صاحب الخلْق الأول بالعجز عن الخلْق الثاني؟ إن المدرس - ولله المثل الأعلى - عندما يتعب في إعداد درس تكون إعادته أسهل عليه، وتنزُّلًا على هذا الفكر، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وليس عند الله تعالى هيِّن وأهون، وسهل وصعب، ولذلك فإن الله تعالى أتبع هذا بقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وكثيرًا ما أنكر الكفار البعث والنشور ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ يقول سبحانه: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢].

وكثيرًا ما كذَّبوا صاحب الرسالة في قوله: إن البعث حق، والجنة حق، والنار حق، وكثيراً ما رموه بالجنون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ﴾.

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

والمدهش أن الإنسان يُخلق من حيوان منوي واحد فقط، والبقية الأخرى من المئتي مليون، تذهب إلى دورات المياه، كأن الله تعالى يقول للإنسان المتكبر: إن إيجادك وإيجاد مليارات مثلك، لا يكلف الله شيئًا[1].

فمَنْ صَنَعَ هذا الحيوان المنوي الذي خُلق منه الإنسان؟ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؟ هذه النُّطَف التي تقذفون بها في أرحام نسائكم، هل أنتم الذين خلقتموها

(١) يُنظَر: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» للشيخ محمد الغزالي (ص ٤٢٧).

وكَوَّنْتُموها، وأوْدعتُم فيها خصائص الإنسان المادية والمعنوية؟ وهل أنتم الذين خلقتم منها بشرًا سويًّا؟ أم نحن الخالقون لها، والخالقون لكم؟ فإن كنتم مُقرون بأنَّا الخالقون، فلماذا عبدتم غيرنا؟ ولماذا أنكرتم إعادة خلقنا لكم؟ ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: ٢٨].

إن دوْر الإنسان في أمر الخلْق، لا يزيد على أن يُودِعَ الرجل نطفته في رحم المرأة، ثم تتولى القدرة الإلهية أطوار خلْقه ونشأته، إن الخليّة الواحدة في تكوين الإنسان تنقسم إلى خلايا شتى ذات خصائص متعددة، منها: خلايا: العظام والعضلات والجلد والأعصاب، ثم خلايا: لعمل العين واللسان والأذن، وخلايا أخرى للغدد، وكلٌّ منها يَعرف مكانه ولا يُخطئه، فخلايا العين مثلًا لا تخطئ مكانها فتذهب إلى القدم، ولا تخطئ خلايا الأُذن فتذهب إلى البطن مثلًا، وكل الخلايا تأخذ مكانها تحت عين الخالق سبحانه.

إن هذه النطفة إفراز من إفرازات الجسد، كالعرق والدمع والمخاط[(١)].

وهذه الخلايا كامنة في الحيوان المنوي الذي خُلق منه الإنسان بعظْمه ولحمه وعروقه وشعْره وأظافره وسماته وملامحه وطباعه واستعداداته، فمن أودعها هذه الخصائص وهذه الاستعدادات؟ من الذي ألهمها الرغبة الكامنة في حفظ نوعها لإعادته مرة أخرى؟ لولا أن هنالك إرادة مدبرة لا عمل للإنسان فيها، تلك هي البداية.

أما النهاية فلا تَقِلُّ إعجازًا ولا غرابةً:

٦٠- ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا[(٢)] بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾

نحن قضينا وحكمنا عليكم بالموت، وساوينا بينكم فيه، وإن أعماركم من طول إلى قصر إلى توسط، وإليه ينتهي كل حي، ولا يفلت منه أحد، ولا يفوته أحد، ومنكم من يموت شيخًا أو شابًا أو طفلًا، وقد ساوى سبحانه في هذا القضاء بين الخلائق جميعًا: أهل الأرض وأهل السماء، الشريف والوضيع، الغني والفقير، الأمير والخفير، الصغير والكبير.

---

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٦/٣٤٦٧).

(٢) قرأ ابن كثير بتخفيف الدال من (قدرنا)، والباقون بالتشديد، وهما لغتان.

ثم إن الله تعالى لا يعجزه شيء، ومن ذلك استبدال المخلوقات بغيرها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ على تبديلكم إن أردنا، وننشئكم بأوصاف أخرى لا يصل إليها علمكم، ولا يوجد من يسبقنا أو يغلبنا على ذلك، فنحن قادرون على تحديد آجالكم قدرة تامة، فمن حضر أجله لا يتقدم ساعة ولا يتأخر، ونحن غير عاجزين:

٦١- ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

أي: نحن قادرون على تبديلهم بخلق أجساد أخرى تُودَع فيها الأرواح.

وقادرون على نفخ الروح في الأجساد الميتة: بجمع متفرقها، أو إنشاء أمثالها من ذواتها، أي: من عَجْب الذنَب ونحوه.

وقادرون على أن نبدل خلقهم، بخلق آخر مماثل لهم في الدنيا والآخرة.

وقادرون على أن نستأصل شأفتهم ونعوّضهم بأمة أخرى، قال تعالى:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم].

وقال سبحانه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام].

وقال جل شأنه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء].

وهذا معنى ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: نعيد خلقكم من جديد، فلسنا بعاجزين على أن نهلككم ونستبدل قومًا غيركم يكونون أطوع منكم، ولسنا بعاجزين أن نعيدكم يوم القيامة في خِلقة أخرى لا تعلمونها للبعث والحساب، وفي هذا تهديد لهم واحتجاج عليهم بالبعث.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة:].

وقالَ جلَّ شأنه: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم:٤٥-٤٧]. والخلْق الأول دليل الخلْق الآخر، قال تعالى:

٦٢ - ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ[1] الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ[2] ﴿٦٢﴾ ﴾

لقد علمتم ـ أيها الناس ـ النشأة التي خُلقتم منها: من نطفة، فعلقة، فمضغة..، وجعلنا لكم سمعًا وأبصارًا وأفئدة، وعلمتم نشأة أبيكم آدم من طين، فإنه لا يوجد أحد ينكر أنه من ولد آدم، وأن آدم لم يُخلق من تراب.

﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ هلَّا تذكُرون قدرة الله تعالى على إعادة خلقكم مرة أخرى؟

وهذا أمر عجيب لمن كذَّب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى، وأعجب منه مَنْ يصدِّق بالنشأة الآخرة، وهو لا يسعى لدار القرار.

إن الله الذي خلق هذا العالم لم يبذل فيه جهده، ولم يستفرغ طاقته ، إنه ـ سبحانه ـ في كل طرفة عين يتجدد له خلْق، وتستقبل فيه الدنيا ذُريات جديدة باستمرار.

والكافر الملحد ينكر هذا: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس: ٧٨-٨٣].

الدليلُ الثالثُ على البعثِ والنشورِ: خَلْقُ الزرعِ من البُذورِ

٦٣، ٦٤- ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

في هذه الآية إشارة إلى ما في الزرع والحصاد من دلائل البعث والنشور، فإحياء الموات وخروج الزرع من الأرض يشبه البعث بعد الموت ، وإخراج البشر من الأجداث لا يزيد على إخراج النبات من ظلمات التراب، حاملاً معه صنوف المعادن

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعدها، من (النشأة) والباقون بإسكان الشين وحذف الألف، وهما لغتان في المصدر.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الذال، من (تذكرون) والباقون بتشديدها.

والمواد المختلفة قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح:].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ [ق: ٧، ٨].

والإنابة هنا تعني يقظة العقل الغافل، الذاهل عن آيات الله تعالى في الكون.

إن هذه الأرض التي نحيا فوقها، فيها حدائق وبساتين وحقول وغابات، وأنواع من الزروع والثمار لا تُعدُّ ولا تُحصى، من: حبوب وفواكه وموالح وزيوت وأنسجة، وألوان من الأزهار المختلفة الرائحة واللون، فمن منشئ هذا كله؟

إن المُزارع يشق الأرض، ويضع البذر، ويتعهده بالماء، ولا يعلم عنه شيئًا بعد ذلك، ثم يشاهد قدرة الله تعالى وهي تُخرج البذر نباتًا وزرعًا قد استوى على سوقه يعجب الزراع، إن في هذا - أي إخراج النبات من الأرض - لدليل على معرفة المنشئ المبدع، فيبعث ذلك على إدراك حقيقة الحياة والموت؟

وبهذا فإن الآيات قد انتقلت من الاستدلال على البعث: بإيجاد الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، ثم خلْق نَسْله من نطفة، ثم إخراج النبات من الأرض، وإنزال الماء من السماء ، ثم إخراج النار من الشجر الأخضر ، ثم انتقلت الآيات إلى الأمر بتسبيح الله تعالى وتعظيمه وتقديسه، فهو المبدئ المعيد، الفعّال لما يريد، وذلك لأن هذا أمر جدير بالتأمل للاستدلال به على بعث الناس بعد موتهم، وفيه امتنان من الله تعالى على عباده بما أنعم عليهم به من الزروع والثمار، كي يوحدوه ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

أخبروني - أيها الناس - عن البذر الذي وضَعْتُموه في الأرض بعد حرثها، أأنتم الذين تُنبتونه زرعًا بهيجًا نضرًا؟ أأنتم الذين تُنشئونه وتضعون فيه السنبل والحب والفاكهة، أم نحن الذين نفعل ذلك؟ فإذا أقررتم أن الله تعالى يُخرج الحب وينبت الزرع، فكيف تنكرون إخراج الموتى من الأرض؟

ويؤخذ من هذه الآية أن الإنسان يقول: حرثت، ولا يقول: زرعت، فالله تعالى هو الزارع[1].

إن الخروج للقاء الله تعالى ومواجهة الحساب، كهذه الزروع التي خرجت من التربة السبخة وهي تحمل السكريَّات والدهنيَّات والنشويَّات، وتحمل جميع الألوان المختلفة، وكل ذلك من أدلة البعث والنشور لتقريب المعاني إلى الخلق.

ثم نبه سبحانه على أن هذا الحرث معرض للأخطار، لولا حفظ الله له، قال تعالى:

٦٥-٦٧- ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ[2] تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا[3] لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قد يتصور المزارع أن له عملًا ودورًا في إخراج النبات من الأرض، فبيَّن سبحانه أنه لو شاء لدمَّر الزرع والثمر وجعله هشًّا يابسًا ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أي لو أراد الله سبحانه لحطَّم هذا الزرع، وجعله هشيمًا تذرُوه الرياح، بأن يُسلِّط عليه ما يُحطِّمه من: بَرَد، أو ريح، أو حشرات، أو آفة، أو غَرق، فلا تنتفعون به ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: أضبختم، أو صِرْتم تتعجبون مما نزل بزرعكم، وأخذتم تتفجَّعون وتحزنون على ما نزل بكم من غُرم، فتتحسرون على ضياع أموالكم، وتندمون على الجهد الذي بذلتموه من غير فائدة، وتقولون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ بما أصابنا من مصيبة أو جائحة أتت على زرعنا وثمرنا.

لقد ذهب زرعنا بغير عوض، فنحن خاسرون هالكون مُعذَّبون، بسبب ما أصابنا من الغُرم وضياع المال، ثم أضربوا عن قولهم هذا، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قد حَرمنا الله الرزق، فغرمنا قيمة البذر والجهد، وحُرمنا خروج الثمر والنبات.

---

(١) وقد ورد في هذا حديث ضعيف عند ابن حبان برقم (١١٣٥) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/١٣٨).

(٢) قرأ البزي من طريق الداني بتشديد التاء من لفظ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ حال وصلها بما قبلها مع صلة ميم الجمع من ﴿فَظَلْتُمْ﴾ وإشباع المد، لتشديد التاء وصلًا، وإذا وقف على ﴿فَظَلْتُمْ﴾ وبدأ بـ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ خفف التاء كغيره من القراء، وهو الوجه الثاني له.

(٣) قرأ شعبة (أئنا) بهمزتين على الاستفهام مع التحقيق وعدم الإدخال، والباقون بهمزة واحدة على الخبر.

فاحمدوا الله تعالى أن أَخْرَجَ لكم النبات من الأرض، ثم أبقاه ونمّاه لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون خيره ونفعه.

قال القرطبي: والمستحب لكل من يُلقي البذر في الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ ثم يقول: بل الله هو الزارع والمنبت والمبلغ، اللهم صلِّ على محمد، وارزقنا ثمر هذا الزرع، وجنِّبنا ضرره، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وبارِكْ فيه يا رب العالمين[1].

إن بعث الأجساد يوم القيامة يشبه خروج النبات من الأرض، وكلاهما عمل تبرُز فيه قدرة فاطر السموات والأرض.

البعث والجزاء يكونان للجسد والروح معاً:

والنعيم والعذاب يوم القيامة، يشمل الجسم والروح معًا، فالإنسان مكون من جسد وروح.

وقد بيَّن الله سبحانه أن بني آدم بعد رحلتهم الطويلة في أرجاء الدنيا، وتوارُثهم عُمرانها جيلًا بعد جيل، سوف يعودون إلى الله تعالى مرة أخرى ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ولا يتحقق البعث يوم القيامة بقيام الناس بين يدي ربهم، صُوَرًا لا أرواح فيها، ولا بقيامهم بين يدي الله تعالى أرواحًا لا أجساد لها!

فالناس هم الناس، وسوف يَحْيَوْن يوم القيامة بجوارحهم ومشاعرهم التي باشروا بها المعاصي أو الطاعات، وعندما يُنكِر الإنسان أنه فَعَل المعصية، تنطق أركانه وجوارحه فتكذِّبه وتشهد عليه.

والذين قالوا: إن الأجساد تفْنَى ولا تعود، وإن الأرواح وحدها هي التي تُبعث يوم القيامة، وإن الثواب والعقاب يكون للروح دون الجسد.

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٧/٢١٨).

وإن التعذيب والنعيم بهذه الصورة شيء معنوي يشبه تأنيب الضمير أو راحته.

كل ذلك كلام باطل لا أساس له، ويبدو أنه انتقل إلى النصرانية من بعض الديانات الأرضية الوثنية، فقوّضت أركانها ومحت معالمها!

١ - يقول سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فهل دخول الجنة والزحزحة عن النار تكون للروح دون الجسد؟ إن ثواب الآخرة وعقابها يكون ماديًا ومعنويًا، دلَّت على ذلك حشود من الآيات والأحاديث.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

٢ - وقوله سبحانه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فهل للروح جلد؟! والله تعالى يبيِّن أن العذاب يقع على الجلد؛ لأنه مَرْكَز الإحساس في الجسم.

٣ - وقوله جلَّ شأنه: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٥].

فهل للروح جبهة وجنب وظهر، كما جاء في الآية السابقة؟

٤ - وهل الروح تتذوق الثمر: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥].

فهل الروح تأكل وتشرب وتتزوج الحور العين؟

وهل الحور العين أعدهن الله للروح دون الجسد؟

إن إنكار الجزاء المادي في الآخرة، والتهوين من شأنه، أو التهكم عليه من قِبَلِ الملحدين والعلمانيين والضالين، جهل فاضح، وتأثر بفلسفات وثنية، مقطوعة المدد عن الاتصال بالوحي الإلهي.

إن الإنسان مادة وروح لا تُصلحه إلا تعاليم تعترف بمادته وروحه معًا، وهي التعاليم التي حمل رايتها الأنبياء والمرسلون، والدين الخاتم أراد الله تعالى له ألَّا يُنسخ، وألَّا

يُحرِّف، وألَّا يُغيِّر، وألَّا يُبدِّل ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلام يقرر أن البعث والحساب والنعيم أو العذاب يكون بالجسم والروح معاً.

الدَّليلُ الرَّابعُ: إنْزَالُ الْمَاء مِنَ السَّحَابِ

٦٨، ٦٩- ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وبعد ذكر نعمة الطعام، يأتي ذكر نعمة الشراب، فيمتن الله تعالى على عباده بالماء العذب الذي يشربون منه، وأنه سبحانه أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، فكان منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ومنه العيون والغدران المتدفقة، وقد جعل الله هذا الماء عذباً فراتاً سائغاً شرابه، وفي هذا دليل على قدرة الله على البعث والنشور.

وقد رتَّب الله تعالى هذه الأدلة الخمسة ـ بما يشمل الدليل الآتي ـ على وحدانيته تعالى، وقيام الناس له تبارك وتعالى يوم لقائه ترتيباً بديعاً: فقد بدأها بالخلق، ثم بالرزق الذي يحيا به الإنسان، ثم رتب هذا الرزق ترتيباً حسناً، فبدأه بالمأكول من الحب ونحوه؛ لأنه أصل القوت، ثم ثنَّى بالمشروب؛ لأن به استمرار الحياة، ثم ثلَّث بما يُصلح الحب والماء، وهو النار؛ لأن بها صلاح الأغذية.

وهذا الدليل الذي معنا يتحدث عن الماء، فيقول تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ أخبروني - أيها الناس - عن الماء الذي تشربونه عذبًا فراتًا لتحيَوْا به، وتدْفعوا عن أنفسكم العطش، وهذا انتقال من الاستدلال بتكوين النبات إلى تكوين الماء الذي به حياة الزرع والشجر والنبات والإنسان والحيوان، فالماء أصل الحياة، وأساس بقائها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فكيف تكَوَّن هذا الماء؟

هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب على بلادكم وحرثكم ودوابكم، ثم أسكنتموه قرار الأرض ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾؟ لاشك أنكم لا تُنكرون أننا أنزلناه رحمة بكم ونعمة أنعمنا بها عليكم؛ إذ لا يقدر على ذلك إلا الله، ويوم القيامة ينزل مطر من السماء على

الأجساد البالية فيحييها الله تعالى وتنبت من عَجْب الذنَب، كما تنبت الشجرة من أصلها، وهو بمثابة النواة التي يُبعث منها الإنسان، جاء في السُّنَّة: «**إن الله تعالى ينزل مطرًا كأنه الطل، فتنبت به أجساد الناس**».

إن الماء يُمثِّل أربعة أخماس الأرض، وتمثل اليابسة التي نعيش عليها خُمس الكرة الأرضية، وللماء دوْرة جديرة بالتأمل العميق، فمثلًا: الريح تسوق السحاب من المحيط الهندي لِتَنسقُطَ على أرضنا ودوابِّنا، ثم يذهب الماء المستعمل إلى مصارفه ومجاريه، ويأخذ سبلًا لا نذريها ليعود إلى البحار والمحيطات مُنهِيًا دوْرة، ومبتدئًا دورة أخرى، لا تزيد ولا تنقص! والله تعالى قادر على حرماننا منه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٨].

وقال جلَّ شأنه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠].

وهو سبحانه قادر على أن يجعله أجاجاً شديدة الملوحة لا يُنتفع به. قال تعالى:

٧٠- ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

إن الله الذي أوجد الماء قادر على الذهاب به ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ أي: لجعلنا هذا الماء شديد الملوحة، مكروها للنفوس لا يُنتفع به في شرب ولا زرع، إن مشيئة الله وحدها هي التي يُناط بها وجود الماء والانتفاع به، أو ذهابه وفناؤه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فهلَّا تشكرون الله على إنزال الماء العذب لنفْعكم، وشكر الله تعالى يكون بالقول والفعل ووضع النعمة في موضعها، وإخلاص الطاعة والعبادة لله وحده.

إن عذوبة الماء تتم في الجوِّ بين تفاعلات قدَّرها رب العالمين، وإنزال الماء من السحاب وتحويله من ماء عذب إلى ماء ملح لا قدرة لأحد عليه سوى الله سبحانه.

وفي الأثر: أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال: «**الحمد الله الذي سقانا عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا**»[1].

---

(١) حديث مرسل عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في فيض القدير، قال مصنفه: فيه جابر الجعفي، ثم قال: غريب وأخرجه الطبراني في الدعاء.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ: خَلْقُ النَّارِ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ

٧١، ٧٢- ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ[1] ﴿٧٢﴾ ﴾

أخبروني - أيها الناس - عن النار التي توقدونها وتقْدحونها من الشجر الرطْب، أأنتم الذين خلقتم هذا الشجر الذي ينقدح منه النار، أم رب العالمين هو الذي خلقه؟ فهو ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس:٨٠].

ونعمة النار من الضرورات التي لا غنى للناس عنها، والله تعالى هو الذي أوجدها في مواد كثيرة، ومن قدرته تعالى أنه أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد، فإذا فرغ العباد من حاجتهم أطفؤوها وأخمدوها.

وشجرة النار هي شجرة المَرْخ وشجرة العَفار، وهما شجرتان يُقدح غُصن إحداهما بغصن الأخرى، فتتولد النار منهما بقدرة الله تعالى.

أأنتم الذين أوجدتم شجرتها التي تنقدح منها النار، أم نحن الموجدون لها؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العُنَّاب[2].

والشجر الذي ينقدح منه النار هو: شجر الزنَّاد، ومنه: المرخ، والعفار، والعُشر، والكلْخ، وفي كل شجر نار.

وقد تنقدح النار من حَجَرين، أو من حَجَر وحديدة.

ومن أمثلة العرب: لكل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار. قال تعالى:

٧٣، ٧٤- ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

نحن جعلنا نار الدنيا تذكيرًا بنار الآخرة، إذا رآها الرائي تذكَّر بها نار جهنم، فيخشى الله تعالى ويخاف عقابه، فهي نعمة من الله تعالى، تُذكِّر العباد بالنار التي أعدها للكافرين والعاصين، وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى جنات النعيم.

---

(١) قرأ أبو جعفر بخلف عن ابن وردان بحذف همزة (المنشئون) مع ضم الشين وصلًا ووقفًا، ولحمزة ثلاثة أوجه في الوقف هي التسهيل والحذف والإبدال ياء، والباقون بهمزة محققة مع كسر الشين.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٤/١٦٦).

والناس تنتفع بالنار في حِلِّهم وارتحالهم، وفيها المنفعة أكثر للمسافرين في البوادي البعيدة، في طهْو الطعام، وهداية الطريق للضال، والتدفئة، ولِتهْرَب منها السباع الضارية، وغير ذلك من المنافع، وفي هذا وغيره مِنَّة من الله تعالى على خلقه؛ إذ لا غنى عن النار للثري والفقير على حد سواء، فالمراد بالمقْوِين: المستمتعين بالنار من الناس جميعًا، وهذا أشمل من أن يراد بها: المسافرون، فإن الحاضر والبادي لا يستغني عن النار، ولكن المسافر يكون أحوج إليها، ولذا خُصَّ بالذكر، ومن ذلك أن الدنيا كلها دار سفر، والعبد منذ ولادته مسافر إلى ربه، وقد جعل الله هذه النار متاعاً للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار.

وهذا الدليل يكشف عنه العلم الحديث، فنحن عندما نتنفس نأخذ الأوكسجين، ونطرد ثاني أكسيد الكربون، والنبات يفعل عكس ذلك، فهو في تنفسه يأخذ الكربون، ويطرد الأوكسجين، والكربون هو الفحم!

ومن العجيب أن تكون الخضرة مخزَنًا للوقود! وأن تكون الخضرة سببًا في الاحتراق!

إن الشجر في جذوعه وفروعه وأوراقه لا يلبث أن يجف، ويتحول إلى هشيم تتأجج به النار! وهكذا نجد الموت في تضاعيف الحياة.

وعن هذه النار يقول ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ﷺ: «**ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**» قيل: يا رسول الله، إنْ كانت لكافية؟ فقال: «**إنها فضلت عليهن بتسعة وستين جزءًا، كلهن مثل حرهن**»[1].

ولما ذكر سبحانه أدلة التوحيد والقدرة والبعث بعد الموت ممثَّلة في خلْق الإنسان والزرع والماء والنار للاستدلال بها على إمكانية البعث والنشور، أمر جلَّ شأنه بتسبيحه، وتحميده، فإن هذا مما يوجب الثناء عليه من عباده، وشكره وعبادته، فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ فإذا علمتم ـ أيها الناس ـ ما أنزلناه من الأدلة، وتذكَّرتم

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٦٥) ومسلم برقم (٢٨٤٣).

ما في ذلك من النعم، فنزّهوا ربكم عما لا يليق بجلاله، وعظِّموه بقُصارى ما تستطيعون، فهو سبحانه كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمدوه بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، لأنه المستحق لأن يُشكر فلا يكفر، ويذكر فلا يُنسى، ويُطاع فلا يعصي.

عن عقبة بن عامر ﷺ قال: لما نزلت ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ قال ﷺ: «قولوها في ركوعكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ قال ﷺ: «قولوها في سجودكم»[1].

قالت عائشة رضي الله عنها: ولما نزلت ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ كان ﷺ يقول في سجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأوّل القرآن[2].

وقد أمرنا سبحانه أن نكثر من ذكره وشكره، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

التَّنْوِيهُ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

٧٥، ٧٦- ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ[3] ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

أقسم سبحانه وتعالى بمساقط النجوم في مغاربها وأماكن دوَرانها في أفلاكها وبروجها ، وما يحدث في وقت سقوطها من الحوادث الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وبعد أن عظم الله هذا القسم ذكر المقسم عليه وهو أن القرآن حق لا ريب فيه هذا.

ولما كانت قضية البعث هي موضوع سورة الواقعة، وكان الماديون الملحدون في كل زمان ومكان قد كذّبوا بالبعث، فإن تكذيبهم له تكذيب بالقرآن؛ لأن البعث من أهم ما اشتمل عليه القرآن، ولذلك فقد نوّه الله سبحانه بشأن القرآن، وبيّن أنه منزّه عن النقائص، وأنه تنزيل من عند الله تعالى، وأن الذي جاء به مُبلِّغ عن ربه.

---

(١) يأتي تخريجه في آخر السورة.

(٢) من حديث عائشة في صحيح البخاري (٤٦٨٤).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (بموقع) بإسكان الواو وحذف الألف، مصدر بمعنى الجمع، وقرأ الباقون (بمواقع) على الجمع.

وهذه النجوم لها أماكن تسقط فيها عند الغروب، ولها بروج ومنازل تسير فيها، ويوم القيامة تتناثر وتتفرق.

وقد أقسم الله تعالى بالنجوم تنويهًا بشأنها، على أنها من دلائل قدرة الله تعالى، وأن هذه الكواكب تسير بدقة ونظام بديع لا يختل ولا يضطرب، فكل نجم له مجالُه الذي يغيب فيه، وله مكانه الذي يدور فيه دُون أن يصطدم بغيره، ومنها ما يُرى بالعين المجردة، ومنها ما لا يُرى إلا بالمجهر والأجهزة. ولنا **وقفتان مع هذه الآية:**

الأولى: مع (لَا) والثانية: مع (مَوَاقِعِ النُّجُومِ).

أمَّا الوقفة الأولى (لَا) فإنها قد تكون مؤكدة للقسم، وهذا أحد وجهين فيها كما في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد:٢٩] أي: ليعلم.

والمعنى: فأقسم بمواقع النجوم، ومن أساليب العرب: نفي ما سوى المقسم عليه، فيفيد الكلام التأكيد.

والوجه الثاني: أن (لَا) للنفي.

والمعنى: أن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم[(١)] فضلًا عن هذا القسم، وقيل غير ذلك.

الوقفة الثانية: أن يراد بمواقع النجوم ما سبق ذكره من أنها نجوم السماء.

وقيل: إن المراد بمواقع النجوم: أوقات نزول القرآن نجمًا نجمًا، أي: مُفرَّقًا حسب الوقائع والحوادث والأحوال.

ونجوم القرآن: هي الطائفة من الآيات التي تنزل منه طائفةً طائفةً.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ليلة القدر، ثم نزل منجَّمًا[(٢)] مُفرَّقًا، حسب الحوادث والوقائع على مدى ثلاثة وعشرين عامًا.

---

(١) «تفسير الألوسي» (١٥٢/٢٧).

(٢) يُنظَر: النسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٦٥)، وفي ط الرسالة (١١٥٠١) بنحوه و(٧٩٣٧)، والطبري (٣٥٩/٢٢)، والحاكم.

ثم بيَّن سبحانه أن القسم بمواقع النجوم قَسم قدْرُه عظيم؛ لأن لها مواقع قُدْسية في السماء، لا يحلف بها إلا بارٌّ في يمينه، ولو كان عندكم علم نافع لعظَّمتموه، وآمنتم بما أقسمنا عليه، وعملتم بما فيه، وهو قسم عظيم بمنازل النجوم التي في السماء؛ لما فيها من الدلالة على وحدانية الله تعالى، ووظيفتها المنوطة بها في هذا الكون.

والمقسم عليه هو: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾[1]. لا يعتريه شك ولا ريب، فيه آيات وعبر وهدايات لا يمكن حصرها.

حُكْمُ مَسِّ الْمُصْحَفِ وَحَمْلِهِ لِغَيْرِ الْمُتَوَضِّئِ وَلِلْجُنُبِ وَالْحَائِضِ

٧٧-٧٩- ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

ذكر سبحانه وتعالى جواب القسم بمواقع النجوم، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ لقرآن عظيم المنافع، كثير الخير، غزير العلم، وليس بقول ساحر ولا شاعر ولا كاهن، بل هو قرآن كريم نزل من رب العالمين على قلب نبيه محمد ﷺ، وهو معجزة دالة على صدق رسالته إلى يوم الدين، فليس من أساطير الأولين ولا من قول الشياطين: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

والقرآن: هو كتاب الله المنزل على محمد ﷺ لهداية البشر، المتعبد بتلاوته، المتحدَّى بأقصر سورة منه، وهو أفضل الكتب الإلهية.

ولما وصف الله تعالى القرآن بأنه قرآن كريم، أي: نفيس رفيع الشأن، وصفه بوصف آخر، فقال: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ والكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ، أي: إن القرآن الذي بلَغهم، وسمعوه من النبي ﷺ موافق لما في علم الله تعالى، وهو كتاب ثابت محقق، لا تصل إليه أيدي البشر.

---

(١) «تفسير الكشاف» (٤/٥٩).

ولا يراد بالكتاب المكنون: القرآن الكريم؛ لأن سورة الواقعة سورةٌ مكية، نزلت في أوائل البعثة، فقد نزل بمكة ستٌّ وثمانون سورة، وكانت سورة الواقعة هي السادسة والأربعون في ترتيب النزول، وجلُّها سور قصيرة، وهذا القدر لا يمثل ثلث القرآن، فلم يكن هناك قرآن كامل ولا شبه كامل وقت نزول هذه الآية.

فالمراد بالكتاب المكنون قطعًا: هو اللوح المحفوظ[(١)] الذي كُتب فيه ما كان وما يكون إلى قيام الساعة، وهو الذي قال الله فيه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وهو كتاب مستور عن أعين الخلق، مصون ومحفوظ، أن يدنسه أحد، أو تمسه يد غير طاهرة، أي إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله، وعند ملائكته الكرام في الملأ الأعلى.

وهذا الكتاب المكنون الذي هو اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: لا يمس اللوح المحفوظ إلا الملائكة المطهرون الذين طهَّرهم الله تعالى من الآفات والذنوب، وطهَّرهم من الرجس والنجس والشرك والدنس.

فلفظ ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ يراد به: الملائكة، أما بنو آدم، فيقال لهم: متطهرون، كما قال تعالى عن أهل مسجد قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ويحتمل أن يكون المراد بالكتاب المكنون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة، ينزل منه وحي الله إلى رسوله، وأنه مستور على الشياطين، لا قدرة لهم على تغييره، ولا على الزيادة فيه أو النقص منه.

وعلى كلا المعنيين، فلا يراد بالكتاب المكنون، القرآن الكريم وإنما يراد أن القرآن بيد الملائكة، وأن جبريل ينزل به على رسول الله ﷺ، فيكون المعنى: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام الذين طهرهم الله من الآفات والذنوب، وأن الشياطين لا قدرة لهم

---

(١) بهذا فسره الربيع بن أنس ومجاهد وابن عباس وأنس وأبو العالية وسعيد بن جبير، انظر: الآثار الواردة في ذلك في «الدر المنثور» (٢٢٠/١٤).

على مسه.

والضمير في ﴿يَمَسُّهُۥ﴾ يعود على أقرب مذكور، وهو الكتاب المكنون، أي: المستور عن أعين الخلق، وهو اللوح المحفوظ، على القول الأول.

وعلى هذا فيجوز مس المصحف، وقراءة القرآن - حفظًا ونظرًا - لغير المتطهر من الحدث الأصغر، أما حديث: «**لا يمس القرآن إلا طاهر**» لعمرو بن حزم، فهو حديث مرسل منقطع السند[(١)].

أما نهي النبي ﷺ: «**أن يُسافَر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو**»[(٢)] فالمقصود منه الخوف على القرآن من أن يُمزَّق أو يُهان أو يُداس ونحو ذلك، فإذا أُمن هذا الجانب فلا بأس من السفر به إلى أرض العدوّ.

ولفظ: «طاهر» في حديث عمرو بن حزم يُقصد به المؤمن، لقول النبي ﷺ: «**إن المؤمن لا ينجس**»[(٣)].

وقال قتادة: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: ذاكم عند رب العالمين، لا يمسه إلا المطهرون، فأما عندكم فيمسه المشرك النجس والمنافق الرِّجس[(٤)].

وجاء من عدة طرق عن سلمان الفارسي أنه أحدث، فقيل له: لو توضأت ثم قرأتَ علينا سورة كذا وكذا، فقال: لا يمسه إلا الملائكة، ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا[(٥)].

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمس القرآن

---

(١) عبد الرزاق (١٣٢٨) و«مراسيل أبي داود» برقم (٢٥٧)، و«الموطأ» (١/١٩٩)، وأخرجه ابن حبان، عن ابن حزم الأنصاري، عن أبيه، عن جده برقم (١/٣٩٥) والحاكم (٦٥٥٩) قال محققه: إسناده ضعيف.

(٢) من حديث ابن عمر في البخاري برقم (٢٩٩٠) ومسلم برقم (١٨٦٩).

(٣) من حديث أبي هريرة للشيخين برقم (٢١٠) في «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان».

(٤) الطبري (٢٢/٣٦٦).

(٥) أخرجه عبد الرزاق عن علقمة (١٣٢٥) وابن أبي شيبة (١/١٠٣) والحاكم (٢/٤٧٧).

إلا طاهر»[(١)]. والحديث خبر بمعنى النهي.

وكذلك لما دخل عمر بن الخطاب على أخته قَبل أن يُسْلِمَ فوجدها تقرأ القرآن من صحيفة مكتوبة فيها سورة طه، فطلب الصحيفة ليقرأها فقالت: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ فقام فاغتسل وقرأ السورة فأسلم.

والمعنى: لا يقرأ القرآن إلا الموحدون، والكافر حين يدخل الإسلام يغتسل من جنابته ويتطهر من شركه.

حكم الجنب والحائض والنفساء في مس المصحف:

ولا يجوز للجنب مس المصحف ولا قراءة القرآن، لأحاديث وردت في ذلك، منها حديث علي ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ ثم قرأ شيئًا من القرآن، وقال: «هكذا لمن ليس بجنب، فأما الجنب فلا، ولا آية»[(٢)].

ويُرخَّص للحائض والنفساء في قراءة القرآن من المصحف، أو عن ظهر قلب، ولم يُرْوَ في هذا حديث صحيح صريح يمنع من ذلك[(٣)].

والآيات تنفي ما زعمه المشركون من أن القرآن تنزلت به الشياطين، وتُثبت أنه نزل من كتاب مصون مستور عن الأعين، وأن الملائكة وحدهم هم الذين يطَّلِعون على اللوح المحفوظ، ويَنْزلون بالقرآن على رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٣٢١٧) وفي «الصغير» (١٣٩/٢)، قال المناوي: وسنده صحيح، وجعله السيوطي في مرتبة الحسن، وكذلك رواه الدارقطني بسنده عن سالم عن أبيه، برقم (٤٣٧) ومن طرق أخرى برقم (٤٣٥-٤٤١) مقطوعًا وموصولًا، ورواه مالك أيضًا عن شرحبيل بن كلال، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٢٢).

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٧٦/١): رجاله موثقون، يُنظَر: «المسند» (١١٠/١).

(٣) يُنظَر تفصيل هذا والذي قبله مع فتوى ابن تيمية في كتابنا: «فن الترتيل وعلومه» (٣٨٨/١) وما بعدها.

٨٠- ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

أي: إن هذا القرآن الموصوف بهذه الصفات منزل من رب العالمين، الذي يربي العباد بنعمه الدينية والدنيوية، وقد أنزله مشتملاً على ما فيه سعادة الدارين، فهو الحق الذي لا مرية فيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٦].

وقال سبحانه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الزمر: ١].

وقال أيضًا: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر: ٢].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

وسُمِّي المنزل تنزيلًا؛ لأنه لم ينزل دفعة واحدة على رسول الله ﷺ، بل نزل نجومًا من بين كتب الله تعالى.

الْمُعَارِضُونَ يُكَذِّبُونَ بِالْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ، وَمِنْهُ نُزُولُ الْمَطَرِ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى

٨١، ٨٢- ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ثم انتقلت الآيات من التنويه بشأن القرآن وعظيم قدره، إلى مخاطبة المنكرين للقرآن، المكذبين به، ليقول لهم: أفبهذا الكتاب وما يحمله لكم من هدايات وإرشادات وتشريعات أنتم مكذبون لما فيه؟ ولذا: فإنكم تدهنون، أي لا تثقون بما فيه، فتخفونه خوفاً من الناس ولا تصْدَعُون بما فيه، مع أنه الحق الذي لا يغالب ولا يداهن به.

ومن أهم ما تضمنه القرآن: البعث والحساب والجزاء، الذي هو موضوع السورة، حيث قسّمت الناس يوم البعث والحساب والجزاء إلى ثلاثة أقسام:

السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال.

واستدلّت الآيات التي في السورة على بعث البشر بعد موتهم بـ:الخلق الأول، وإنزال الماء من السحاب، وإخراج الزرع من الأرض، وإخراج النار من الشجر الأخضر.

وعلى هذا فالمراد بالحديث في الآية: كل ما سبق ذكره في السورة، مما يتعلق

بالبعث والنشور ونحوهما، والقرآن نفسه يسمى حديثًا، كما قال تعالى:

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النجم: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ [القلم: ٤٤] أي القرآن.

فالقرآن حديث متضمن للبعث والنشور، والكفار يكذبون بالقرآن ويكذبون بالبعث.

وعلى هذا فحظُّ المشركين من القرآن ونصيبهم منه أنهم كذَّبوه.

قال الحسن: خَسِرَ عبدٌ لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب.

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ أي: حظَّكم ونصيبكم من القرآن ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي: تكذبونه ولا تؤمنون به، وتنكرون ما فيه، كاليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء، فأنتم - أيها المشركون - تكذبون بقدرة الله تعالى على إعادة الحياة للإنسان، وهو الذي خلقه وخلَق قُوتَه، ورزقه من الحَبِّ والماء والنار، ولكنكم عدلْتم عن شكره تعالى بما أنعم به عليكم، فأنكرتم الحياة بعد الموت، ونسبتم الزرع لأنفسكم، وزعمتم أن المطر النازل من المزن، إنما هو بعوامل طبيعية أو فَلكية، ينزل بتأثير النجوم، فنسبْتموه لغير الله تعالى، وجعلتم مقابلة نعمه عليكم بالرزق: التكذيب والكفر بنعمة الله، فقلتم مُطِرنا بنوء كذا، وأضفْتم النعمة لغير مُسْديها، فهلَّا شكرتم الله على نعمه عليكم؟

وفي الآية توبيخٌ للقائلين عن المطر الذي أنزله الله تعالى رزقًا لعباده: إنه نزل بتأثير النجوم، وهي الأنواء الواردة في الحديث.

والنوْءُ: هو سقوط نجم من النازل في المغرب مع الفجر، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته، في كل ثلاثة عشر يومًا ما خلا الجبهة، فإن لها أربعة عشر يومًا.

وكانت العرب تنسب الأمطار والرياح والحر والبرد إلى النجم الساقط منها:

١- فعن زيد بن خالد الجهني ﷺ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، في إثر سماء ـ أي: مطر ـ كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس

فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[(١)].

٢- وعن معاوية الليثي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون الناس مُجْدبين، فيُنزل الله عليهم رزقًا من رزقه، فيصبحون مشركين» قيل له: كيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «يقولون: مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا»[(٢)].

٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مُطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال ﷺ: «أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا»، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾[(٣)] أي أن التكذيب والكفر سببان لرفع النعم وحلول النقم.

والمعنى: أن الناس مُطروا في صدر الإسلام بمكة، فقال المؤمنون قولًا، وقال المشركون قولًا.

وكان المشركون إذا أنزل الله عليهم المطر ينسبون ذلك إلى النجوم، فبيّن سبحانه أن من يعتقد ذلك فقد كذّب برزق الله ونعمه، ومنها المطر، وكذّب بما جاء في القرآن، ومنه البعث بعد الموت، وقد سُلب عنه أصل الإيمان وخرج من الملة.

أما من اعتقد أن المطر من عند الله، وأن ظهور النجم وقت له، بمعنى: أنّا مُطرنا بفضل الله وقت طلوع نجم كذا، فليس في هذا شيء.

---

(١) «الموطأ» (١/١٩٢) والبخاري برقم (٨٤٦، ١٠٣٨) ومسلم برقم (٧١) وأبو داود برقم (٣٩٠٦) والنسائي (٣/١٦٤) (١٥٢٤) وفي «الكبرى» (١٠٧٦٠) وعبد الرزاق (٢١٠٠٣) والبيهقي (٤٥٧).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٤/٢٩٧) (١٥٥٣٧) قال محققوه: إسناده حسن، من أجل عمران القطان، وبقية رجاله ثقات، رجال الصحيح، وهو عند الطيالسي (١٢٦٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٠٤٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٧٣)، وانظر: رواية أبي هريرة برقم (٧١، ٧٢).

ومن ذلك: أن عمر رضي الله عنه استسقى، ثم نادى العباس: كم بقي من نجم الثريا؟ فقال: (إن العلماء يزعمون أنها تعترض في الأُفق سبعًا بعد وقوعها، فوالله ما مضت تلك السبعة حتى نزل المطر)، فقد أراد عمر بسؤاله: كم بقي من الوقت الذي جرت العادة أنه إذا تم، أتى الله بالمطر، فهذا جائز لا كُفر فيه.

عَجْزُ الْبَشَرِ عَنْ إِبْقَاءِ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ أَوْ إِعَادَتِهَا إِلَيْهِ

٨٣-٨٥- ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ومع قيام الأدلة على أن الله تعالى قادر على إعادة الحياة للناس بعد الموت، ووضوح الحجة في ذلك، إلا أن المعاندين مكابرون، ولذلك فقد ختمت السورة باستدلال آخر على أن إثبات البعث ملزم لهم، ولا محيص لهم عن الاعتراف به، وهذا الدليل هو عجز البشر عن إرجاع الروح إلى الجسد بعد مفارقتها له، وعجزهم عن إبقاء الروح في الجسد وعدم انتزاعها منه، فلو لم تكونوا مجزيّين على أعمالكم بعد الموت لبقيت الأرواح في أجسادها، فهل تستطيعون إذا بلغت نفسُ أحدكم الحلقوم عند النَّزع وهي تعالج سكرات الموت أن تمنعوها من الخروج؟

وأنتم يا أهل الميت حضور عنده، محيطون به، تنظرون إليه وهو يحتضر، وقد أحضرتم له الأطباء، ولكنكم لا تملكون دفع الموت عنه، وقد يكون المحتضر أكبر الأطباء في العالم، ولكنه لا يستطيع أن يدفع الموت عن نفسه، وقد يكون المحتضر أكبر ملوك الأرض، وعنده أموال قارون، ولكنه لا يستطيع أن يستبقي الروح فيه ساعة واحدة زيادة على أجله.

وقد يكون المحتضر أكبر علماء الأرض، ولكنه لا يستطيع أن يزيد لحظة في عمره.

ونحن أقرب إلى المحتضر بعلمنا وقدرتنا، وأقرب إليه بملائكتنا لقبض روحه، ولكنكم لا ترون مَنْ حضره من الملائكة لقبض روحه، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠]. وقال سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢]. قال تعالى:

٨٦، ٨٧- ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

فهلّا تردُّون نفْس من يعزُّ عليكم فِراقه، وتردُّون رُوحَه إلى بدنه إذا أوشك على مفارقة الحياة إن كنتم قادرين على ذلك.

هلّا تستطيعون إن لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء -كما تزعمون- أن تعيدوا الروح إلى الجسد، إن كنتم غير محاسبين وغير مجزيين على أعمالكم - على حدِّ زعمكم - إن أمكنكم ذلك فأعيدوا الروح للجسد، ورُدُّوها إلى الميت بعد أن بلغت الحلقوم، إن كان الأمر كما تقولون من أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء على الأعمال والأقوال.

فإن لم يمكنكم ذلك، فاعلموا أن الأمر لغيركم، وهو الله تعالى، فآمنوا به، واعلموا أن مفارقة الروح للجسد إنما هي للحساب والجزاء، وأن تُوَفَّى كل نفس بما كسبت.

النَّاسُ بَعْدَ الْبَعْثِ عَلَى ثَلَاثَةِ مَرَاتِبَ

٨٨، ٨٩- ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ(١) وَرَيْحَانٌ(٢) وَجَنَّتُ(٣) نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

وإذًا فمراتب الناس عند النزع وبعد البعث ثلاثة أصناف، وهم: المقربون، وأصحاب اليمين، والمكذبون الضالون، على ضوء ما سبق تفصيله بالنسبة للسابقين، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، ففي أول السورة تقسيم لطوائف الناس الثلاث، وفي

---

(١) قرأ رويس بضم راء (فرُوح) اسم مصدر بمعنى: الرحمة، وقرأ الباقون بفتح الراء، مصدر بمعنى: الاستراحة.

(٢) عد الشامي وحده (وريحان) آية، وهو متروك من العدد لغيره.

(٣) وقف بالهاء على (وجنت) ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف الباقون بالتاء، وأمالها الكسائي وقفًا، وهي مرسومة في المصحف بالتاء المفتوحة.

آخرها ذكر لأحوالهم عند الاحتضار والموت، فهذا إيجاز لمنازلهم ومراتبهم:

الْمَرْتَبَةُ الأُولَى: الْمُقَرَّبُونَ

فإن كان صاحب النفس التي تفارق الحياة من المقربين إلينا، السابقين بعمل الخيرات، الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات، فهو ممن قال الله فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ فله عند موته الراحة والطمأنينة والرحمة الواسعة والفرح والبهجة والسرور، وما تطيب به نفسه من نعيم القلب والروح، وله في الآخرة جنة النعيم، ويحلُّ عليه رضوان الله تعالى.

فالروح: هو الراحة والنعيم والأمان والاطمئنان، والريحان: هو الطِّيب والرائحة الزكية.

والمعنى: أن لصاحب الفضل والسبق في الدين، رائحة طيبة لا تفارقه في دنياه، ورحمة من الله واسعة في أخراه ، وله مثل ذلك عند خروج روحه حيث تبشره الملائكة بجنة النعيم فيطير لها فرحاً، وكذا عند نزوله القبر ووقوفه بين يدي الله تعالى للحساب، وله في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

وهذه جملة من الأحاديث في هذا المعنى:

١ - في حديث أبي هريرة ﷺ: أن ملائكة الرحمة تقول له: «اخرجي أيتها النفس الطيبة، في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأَبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان»[(١)].

٢ - وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن، طائر يَعْلُقُ في شجر الجنة، حتى يَرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم

---

(١) يُنظَر الحديث بكامله في: «المسند» (٨٧٦٩، ٢٥٠٩٠)، قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، و«سنن ابن ماجه» (٤٢٦٢) بإسناد صحيح والحاكم (٣٥٣/١) وابن حبان (٣٠١٤)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢)، وأخرجه مسلم بنحوه مختصراً برقم (٢٨٧٢).

يبعثه»[(١)] والنسمة هي الروح.

٣ - وصحَّ عن رسول الله ﷺ من حديث ابن مسعود ﷺ أنه قال: **«إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش»**[(٢)].

٤ - وجاء في الحديث: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«إن العبد إذا بُشِّر عند الاحتضار بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ فإنه عندئذ يحب لقاء الله، والله عزَّ وجلَّ للقائه أحب، والمكذب أيضًا إذا بُشر بذلك عند موته كره لقاء الله، فيكون الله تعالى للقائه أكره»**[(٣)].

٥ - وعن أبي قتادة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ مرت جنازة، فقال: **«مُسْتَرِيحٌ ومُسْتَرَاحٌ منه»** فقلنا: يا رسول الله، ما المستريح، وما المستراح منه؟ قال: **«العبد المؤمن يستريح من نصَب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»**[(٤)].

٦ - وعن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»** فقالت عائشة: إنا لنكره الموت! فقال: **«ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، وأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضر بُشِّر بعذاب الله وعقوبته،**

---

(١) «المسند» (٣/٤٥٥) ورقمه (١٥٧٧٨)، قال محققوه: إسناده صحيح، وقال ابن كثير: وهذا إسناد عظيم ومتن قويم، وأخرجه مالك في «الموطأ» (٤٩) والنسائي في «السنن» (٤/١٠٨) وابن ماجه (٤٢٧١) وفي «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/٤٢٣).

(٢) من حديث ابن مسعود في البخاري (٢٨٠١).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٨٤) و«المسند» (٤/٢٥٩).

(٤) أخرجه مالك (١/٢٤١) وأحمد (٢٢٥٣٦، ٢٢٥٩٢) والبخاري (٦٥١٢، ٦٥١٣) ومسلم (٩٥٠) والنسائي (١٩٢٩).

فليس شيء أكرهَ إليه مما أمامه، وكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»[1].

فهذه بشارات للمؤمن السابق بالخيرات وهو في الحياة الدنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى: عن أوليائه المتقين: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: أَصْحَابُ اليَمِينِ

٩٠، ٩١- ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١)﴾

أي: وإن كان الميت المفارق للدنيا، ممن يؤخذ بهم ذات اليمين، ويأخذون صحيفة عملهم بيمينهم، إن كان ممن أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل بعض التقصير الذي لا يخل بإيمانهم ولا بتوحيدهم، فقد تجاوز الله عن سيئاتهم وقبل حسناتهم، وقد ثقلت موازينهم، فإنهم ممن نجاهم الله من النار، وفازوا بدخول الجنة؛ ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] لأنهم كانوا من الثابتين على كلمة التوحيد في الدنيا، فثبتهم الله وأمَّنهم من الخوف والفزع يوم لقائه، كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

إنه في سلام وأمان، حيث تُسلِّم عليه الملائكة، يوم لقاء الله تعالى وله الأمن والطمأنينة والسلامة في الآخرة من الآفات ومن كل ما يشغل القلب لكونه من أهل اليمين الذين سَلِمُوا من الذنوب والموبقات.

المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: أَهْلُ الضَّلَالِ

٩٢-٩٤- ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤)﴾

أما إذا كان المحتضر من أهل الشمال المكذبين بالبعث والنشور، الضالين عن طريق الهدى وطريق الحق، فضيافته عند الله يوم لقائه: شراب الحميم المغلي المتناهي

---

(١) «المسند» (٣٧٠/٣٧) (٢٢٦٩٦) والبخاري (٦٥٠٧) ومسلم (٢٦٨٣) والترمذي (١٠٦٦) والنسائي (١٨٣٥) وفي «الكبرى» (١٩٧٥، ١٩٧٦).

الحرارة، وفي انتظاره نار جهنم يدخلها ويُحرق بها، ويقاسي شدائدها وأهوالها، والعياذ بالله، فهي تحيط به وتصل إلى فؤاده وإذا استغاث من شدة العطش والظمأ يغاث بماء كالمهل يشوي الوجوه. قال تعالى:

٩٥، ٩٦- ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ[1] حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾

إن هذا الذي قصصناه عليك في هذه السورة - أيها المخاطب - مما أعدَّه الله لأوليائه من النعيم، ولأعدائه من العذاب الأليم، لهو القول الحق الذي لا معدل عنه، إنه الحق الثابت الذي لا يحوم حوله شك ولا ريب، بل لابد من وقوعه.

تنزَّه الله تعالى عما يقول الظالمون الجاحدون، وتعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، فالأمر بتسبيح الله تعالى معناه: نزِّه - أيها المسلم - ذات الله تعالى وأسماءه وصفاته عن كل نقص، وعن الشريك والولد.

١ - عن عقبة بن عامر الجهني ﷺ قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»[2].

٢ - وعن حذيفة ﷺ: أنه صلى مع النبي ﷺ فكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم»، وفي سجوده: «سبحان ربي الأعلى»، وما أتى على آية رحمة إلا وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلا وقف وتعوَّذ[3].

---

(١) سكَّن الهاء من (لهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

(٢) «المسند» (٤/١٥٥) (١٧٤١٤) وقال محققوه: إسناده محتمل للتحسين، وأبو داود برقم (٨٦٩)، وابن ماجه برقم (٨٨٧)، وابن حبان (١٨٩٥)، والحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/٤٧٧) والبيهقي (٢/٨٦)، والدارمي (١/٢٩٩)، وابن خزيمة (٦٠٠) بإسناد حسن، وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (١٨٦).

(٣) أخرجه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٧٧٤).

٣ - وفي حديث أبي ذر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟**» **فقال**: «**سبحان الله وبحمده**»[1].

٤ - وعن أبي هريرة ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[2].

وهكذا فإن آخر السورة صدَّق أوَّلها، ولخَّص مجملها.

تم تفسير (**سورة الواقعة**) ولله الحمد والمنة

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٣١).

(٢) البخاري برقم (٧٥٦٣)، ومسلم برقم (٢٦٩٤)، والترمذي برقم (٣٤٦٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٦٦٦)، وابن ماجه برقم (٣٨٠٦).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَدِيدِ (٥٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١. (سورة الحديد) هي السورة السابعة والخمسون في ترتيب المصحف، والخامسة والتسعون في ترتيب النزول، على أساس أنها سورة مدنية، ويكون نزولها في هذه الحالة بعد (سورة الزلزلة) وقبل (سورة محمد)، وعلى القول بأنها سورة مكية، يكون نزولها قبل (سورتي الحجر وطه) وبعد (سورة غافر).

وسورة الحديد من السور المختلف فيها بين كونها مكية أو مدنية.

وذكر ابن عطية عن النقاش إجماع المفسرين على أن سورة الحديد مدنية.

والأظهر: أن الآيات من أول السورة إلى الآية التاسعة مكية، وبقية السورة منها المكي، ومنها المدني، ومن المدني: الآية السادسة عشرة، والآيتين الأخيرتين في السورة، وفيهما دعوة أهل الكتاب إلى الدخول في الإسلام.

وقد ورد أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ الآية:١٦ إلا أربعُ سنين[١].

ولِمَا ورد أن عمر ﷺ دخل على أخته قبل أن يُسْلم، فإذا صحيفة فيها أول (سورة الحديد)، فقرأها حتى بلغ ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الآية:٧ فأسلم[٢].

---

(١) رواه مسلم برقم (٣٠٢٧)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٦٨)، وابن ماجة برقم (٤١٩٢)، وصحيح ابن ماجه (٣٣٨٠) بإسناد حسن.

(٢) رواه الطبراني والبزار في كشف الأستار (٢٤٩٣)، وفيه أسامة بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد (٦٣/٩)، ورواه أبونعيم في الحلية (٤١/١)، والبيهقي في الدلائل (٢١٦/٢)، وابن عساكر (٣١/٤٤).

وفي رواية أخرى أن الصحيفة التي قرأها عمر ﷺ كان فيها صدر (سورة طه).

٢. وتسمى سورة الحديد: لورود لفظ (الحديد) فيها في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ الآية ٢٥.

ولما كانت قصة أهل الكهف أبرز من كلمة الحديد التي وردت في سورة الكهف فقد سُميت باسم القصة ولم تسمَّ سورة الحديد، مع ورود لفظ الحديد فيها في قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾[الكهف:٩٦].

٣. وعدد آيات السورة تسع وعشرون آية عند أهل الكوفة والبصرة، وثمان وعشرون آية عند بقية علماء العدد.

وهي خمس مئة وأربع وأربعون كلمة، وألفان وأربع مئة وستة وسبعون حرفاً.

٤. ومما ورد في فضلها مع غيرها من السور المفتتحة بالتسبيح: ما رواه العرباض بن سارية ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ بالمسبحات قبل أن يرقد ويقول: «**إن فيهن آية أفضل من ألف آية**»[(١)].

والمسبحات سبع سور، وهي: سور الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والإسراء والأعلى.

أغراض السورة:

١- تبدأ الآيات الست الأُول من سورة الحديد، فتذكّر بجلال الله تعالى، وصفاته العظيمة، وسعة علمه وملكوته، وتَذْكُر اثنان وعشرون دليلاً وصفة من أسماء الله الحسنى بعد الاسم العلم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ للدلالة على وحدانيته سبحانه، ومن هذه الأسماء: العزيز، الحكيم، المحيي، المميت، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، له مُلك هذا الكون، وهو العالِم بكل شيء.

---

(١) النسائي في السنن الكبرى (٨٠٢٦)، وأبوداود (٥٠٥٧)، والترمذي برقم (٨٤٠٦)، والمسند (١٢٨/٤) برقم (١٧١٦٠) باسناد ضعيف لجهالة ابن أبي بلال وقد ضعفه الألباني أيضاً في ضعيف سنن أبي داود (١٠٧٣).

فهو سبحانه خالق السموات والأرض ومالكهما، يعلم ما يدخل فيهما وما يخرج منهما، وما ينزل منهما، وما يصعد إليهما، وتبعاً لذلك فإنه سبحانه يُدخِل الليل في النهار، ويدخِل النهار في الليل، وهو قادر على كل شيء، وعلمه محيط بكل شيء، فهو سبحانه خالق كل شيء ومبدعه.

وهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر بآثار مخلوقاته، والباطن الذي لا يَعْرِف كُنْه حقيقته أحد، وهو الخالق لكل ما في الكون، والمتصرف فيه كيف يشاء، وكل ما في هذا الكون من ملَك وإنس وجن وحيوان وشجر ومدر وجماد، كل شيء يسبح بحمد الله تعالى، فالكل يشهد بوحدانيته تعالى، ويشهد بعظمته.

٢ - ثم تضع السورة عنصران رئيسان للأمة الإسلامية حتى تؤدي رسالتها العالمية، وهما:

الإيمان بالله ورسوله، وهو عبادة قلبية، ويظهر أثره على الجوارح واللسان.

والإنفاق من مال الله، وهو عبادة مالية ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الآية: ٧، وهذا الإنفاق للمال، لتحقيق عزة الإسلام ورفعة شأنه، ينفَقُ على التصنيع الحربي، وما يسلِّح الأمة في مواجهة عدوها بما يكافئ ماعنده من سلاح وعتاد، فلابد للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال واللسان، لينال التمكين والسيادة في الأرض، ومنه النفقة الواجبة والمستحبة، وبذلك ينال العبد السعادة في الدنيا والمثوبة في الآخرة، ولذا بيّنت السورة أن إنفاق المال في أوقات الأزمات والشدائد يفوق كثيراً الإنفاق في أوقات الرخاء والسعة، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الآية: ١٠] ولذلك فإن السورة جعلت عطاء المؤمن بمثابة القرض الحسن لله عز وجل.

ولما سمع أبو الدحداح هذه الآية وكان له بستان فيه ست مئة نخلة، فقال: إني أقرضت ربي حائطي، اخرجي يا أم الدحداح أنت وعيالك، فقد أقرضت ربي حائطي،

فأجابته على الفور: ربح بيعك يا أبا الدحداح.

والسورة تُعنى بالتشريع والتربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية والخلُق الكريم، والتشريع الحكيم.

٣ - وقد تحدثت آيات السورة عن أهل الإيمان، المنفقين أموالهم في سبيل الله، وبينت أن نورهم يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

أما أهل النفاق فإنهم يتخبطون في الظلمات على الصراط يوم القيامة، كما كانوا يعيشون في الدنيا في ظلمات الجهل والغي والضلال.

والإيمان المقبول: أساسه معرفة الله تعالى، ونكران الذات، ورحمة الخلق، ورقة القلب.

والإسلام يمقت القسوة والجفوة والصَلَف، وبهذا يعظ القرآن أهله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الآية:١٦] ولا يتشبهوا بغيرهم ممن طالت حياتهم في الدنيا ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الآية: ١٦].

٤ – ثم تتحدث آيات السورة عن الدنيا والآخرة، لتضع كُلاً منهما في ميزان الحق، فالدنيا تتمثل في خمسة أهداف: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد، فإذا أعطينا لكل من هذه الخمسة، ثمانية أعوام من بداية عمر الإنسان حسب ترتيبها، فسيبلغ إلى نهاية سن الشباب، فالطفل يلعب ثمانية أعوام، ويلهو ثمانية أخرى، ويتزين في سن المراهقة في الثمانية التي تليها، ويتفاخر فيما بين ٢٤-٣٢ من عمره، ويتكاثر في المال والولد من ٣٢-٤٠ سنة، وبذا يكتمل عقله ويستكمل شهواته، ولذا كان سن الأربعين هو سن النبوة، هذه هي رحلة الدنيا، كزرع أخصب، ثم ذبُل، ثم صار هشيماً يابساً.

أما رحلة الآخرة، فإنها تتطلب المسارعة، والتسابق إلى الجنات، والتنافس في الخيرات: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية:٢١] والآخرة دار الخلود والبقاء، لا نصَب فيها ولا تعب، ولا همّ ولا شقاء.

٥ – ثم تبيّن آيات السورة أن رسالة الله تعالى إلى خلقه واحده جاء بها الرسل

جميعاً، وأيدهم الله بالمعجزات، وأنزل معهم الكتب، وأنزل مع الكتاب ميزان الأعمال والأقوال في شرع الله، ليقوم الناس بالقسط ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الآية: ٢٥] ولإقامة منهج الله في أرضه، لابد له من القوة الرادعة المهيمنة التي تَلْزم للمسلمين في السلم والحرب، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الآية:٢٥].

ومن الحديد يكون التصنيع الحربي الذي يغنينا عن عدونا، ويحمي دعوتنا وأرضنا، وينصرنا الله بسببه على من اعتدى علينا، وندفع به الصائل، ونحرس به الحدود، وتُصنع الطائرات والدبابات والمدافع والسفن، وننشر كلمة التوحيد والرسالة الأخيرة، ومن الحديد تُبنى الجسور، والأنفاق،وتُشيَّد المباني والسدود، وتُقام الحضارات، ويكون العمران والبنيان والمواصلات.

إننا نعيش في عصر العلم، عصر غزو الفضاء وشبكة المعلومات، والفضائيات وطائرات التجسس، وأسلحة الدمار الشامل، وإذا لم يأخذ المسلمون بوسائل العلم المعاصر المكافئة لعدوهم، أو الوسائل المتاحة في حدود الإمكان، فلن تقوم لهم قائمة، ولن تتحقق لهم السيادة في دينهم وأرضهم.

وديار المسلمين غنية بالمال، وغنية بالعقول العلمية، ولا يحتاج الأمر إلا إلى التجرد والتوجه الصحيح.

وبهذا يتبين أن الله تعالى قد وضع للبشر القوة المعنوية، وهي تتمثل فيما جاءت به الرسل من المنهج العملي لتحقيق العبودية والخلافة في الأرض.

وَوَضع لها القوة المادية، الممثلة في الحديد، لحماية الدعوة وإقامة العدل بين الناس.

وتُختم السورة بتوصية المسلمين بالعودة إلى الله تعالى، والاقتداء برسوله ﷺ فإذا أعاد المسلمون علاقتهم بربهم، ومَشوْا وراء نبيهم، فإن الله تعالى ناصرهم على عدوهم بمشيئة الله سبحانه.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: يتناول جانب التنزيه لله تعالى ودلائل التوحيد، وذلك في الآيات الست الأول من السورة، وفيه اثنان وعشرون صفة ودليلاً على وحدانية الله تعالى.

المقطع الثاني: هو موجبات الإيمان والنفاق، ومصير المؤمنين الصادقين، والكافرين المكذبين، وذلك من الآية السابعة في السورة، إلى الآية التاسعة عشرة فيها.

فالمؤمنون لهم أجر كريم، والمنافقون في العقيدة، مأواهم النار وبئس المصير.

والمقطع الثالث: يتناول رحلة الدنيا والآخرة، فالدنيا لعب ولهو.. والآخرة تنافس وتسابق إلى وسائل النجاة، وهذا من الآية العشرين إلى الآية الرابعة والعشرين.

المقطع الرابع: حديث عن الرسل والرسالات، ووسائل التمكين في الأرض، ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بخاتم النبيين، وذلك من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية التاسعة والعشرين وهي نهاية السورة، وفي هذا المقطع بيان أن إقامة منهج الله تعالى في أرضه لا بد له من قوة تحميه، فالقوة المعنوية تحتاج إلى قوة مادية تساندها وتحقق لها البقاء في الأرض، والحديد عنوان هذه القوة، وقد جاءت الرسل بما يريده الله من خلقه.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَحَدَ عَشَرَ صِفَةً للهِ تَعَالَى، مِنْهَا: صِفَتَانِ فِي هَذِهِ الآيَةِ

١ - ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ[(١)] ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

ابتدأت سورة الحديد بإثبات أن جميع ما في الكون يسبح بحمد الله تعالى، وينزهه عما لا يليق بجلاله، وهو قانت لربه، خاضع ومنقاد لعظمته، وذلك من كل: إنس وملك وجن وحيوان ونبات وبحار وأنهار ودواب وجماد وشجر وحجر ومدر.

الجميع قد مجّد الله تعالى وعظّمه ونزّهه عن السوء، وعن كل ما لا يليق به قولا وفعلا واعتقادا، الكل يسبّح الله تعالى بلسان الحال والمقال، وهو سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالب على أمره بلا منازع ولا ممانع، وجميع الخلق مفتقر إليه، وهو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تصرفاته وأفعاله يضع الأمور في نصابها وفق ما تقتضيه مصلحة عباده.

فهاتان صفتان لله تعالى هما العزيز الحكيم، إلى جوار الاسم العلَم وهو اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾.

التسبيح في فواتح السور:

وقد جاء التسبيح في فواتح السور: تارة بالمصدر، في أول سورة الإسراء ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ .

ويأتي الافتتاح بالتسبيح، لما يعقبه من أمرٍ جلل، وآية باهرة كحادثة الإسراء.

وتارة بصيغة الفعل الماضي كما في سور: الحديد والحشر والصف.

وتارة بصيغة الفعل المضارع كما في أول سورتي الجمعة والتغابن.

---

(١) سكن الهاء قالون وأبوعمرو والكسائي وأبوجعفر من(وهو) حيث وقعت، وضمها الباقون، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

وتارة بصيغة فعل الأمر كما في أول سورة الأعلى. فهذه سبع سور جاءت مفتتحة بالتسبيح.

وفي هذا إشارة إلى أن جميع الكائنات تسبح بحمد الله تعالى دائما وأبدا في الماضي والحاضر والمستقبل.

وأول ما يقتضيه هذا التسبيح، هو تنزيه الله تعالى بنفي الشريك والولد عنه سبحانه، فإن عدم وحدانية الله تعالى أكبر ضلال ضل فيه المشركون ممن أشركوا مع الله غيره، أو توجهوا بالعبادة لغيره ، وكذلك من قال بوجود إلهين: إله للخير وإله للشر، كالمانوية.

وكذا أهل التثليث كالنصارى والبراهمة، والوثنيون كعبّاد البقر والأصنام، والقائلون بأن عيسى ابن الله، أو هو الله ، أو أنه ثالث ثلاثة .

ولذلك فإن الله تعالى أتبع اسمه العلم في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ باثنتين وعشرين صفة ودليلاً على وحدانية الله تعالى، منها صفتان في هذه الآية، وهي العزة والحكمة إلى جوار لفظ الجلالة قبلهما.

وأربع صفات في الآية بعدها هي: الملك والإحياء والإماتة والقدرة.

وخمس صفات في الآية الثالثة، وهي الأول والآخر والظاهر والباطن والعلم التام.

وأربع صفات في الآية الرابعة، هي: الخالق، الواحد، المدبر، البصير.

وهذه الآية تشتمل على ثمانيةمن دلائل التوحيد، وهي: الخلق، والاستواء، ومايدخل في الأرض ومايخرج منها، وما ينزل من السماء ومايصعد إليها، ومعية العلم الإحاطة، واطلاع الله تعالى على جميع خلقه.

وفي الآية الخامسة: أنه تعالى له ملك الدنيا والآخرة.

وفي الآية السادسة دليلان على وحدانية الله تعالى هما: إدخال كل من الليل والنهارفي الآخر، والعلم بما في الصدور ، وذلك كله في فحوى الآيات ومنطوقها.

والتسبيح يعني التوحيد والتعظيم والتمجيد،وإفراد الله تعالى بالعبادة.

ويعني أن جميع المخلوقات منقادة لله تعالى، ويدخل فيه السجود لله عز وجل:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد:١٥] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[الحج:١٨].

تسبيح الكائنات بلسان الحال والمقال:

وتسبيح الله تعالى من غير العقلاء يكون بكيفية لا يعلمها إلا هو، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، والأولى حمل هذا التسبيح على ظاهره، وأنه تسبيح حقيقي، بلغة وكيفية يعلمها رب العالمين، والأدلة متضافرة على ذلك: منها قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[سبأ:١٠] فالجبال والطيور ترجّع التسبيح مع داود عليه السلام.

١- وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أُبعث، وإني لأعرفه الآن**»[(١)].

٢- ويقول عليّ ﷺ كنت مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله حجر ولا جبل، إلا وهو يقول: «**السلام عليك يارسول الله**»[(٢)].

٣- وفي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله ﷺ: (أن رسول الله ﷺ خطب إلى الجذع، فلما صنعوا له المنبر، وخطب إليه، حنّ الجذع حنين الناقة، فنزل الرسول ﷺ فمسحه فسكن)[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٧).

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٢٢٦) قال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب.

(٣) ينظر الحديث في البخاري برقم (٩١٨،٤٤٩).

وأربع صفات في هذه الآية

٢ - ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

وفي هذه الآية أربع صفات لله تعالى هي: الملك والإحياء والإماتة والقدرة، إنه جل شأنه مالك هذا الكون، يتصرف فيه بعلمه وحكمته، يحيي من يشاء، ويميت من يشاء، وهو الخالق الرازق المدبر القادر فلا يعجزه شيء، ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما وحده، ولا ينفُذ غير تصرفه وأمره، فهو الغني عن جميع خلقه، والكل محتاج إليه ﴿يُحْىِۦ﴾ الأموات للبعث والحساب والجزاء ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء في الدنيا، وإن شاء أبقى، وإن شاء أزال، بلا منازع ولا مشارك.

ولا يوجد أحد من الخلق يدّعي أنه يحيي ويميت، وإن وُجد ذلك كالذي قال ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] فهذا من باب المغالطة والمجادلة بالباطل.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا من باب التعميم بعد التخصيص، فإن الإحياء والإماتة من قدرة الله تعالى وحده.

خمس صفات لله تعالى في هذه الآية

٣ - ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

وهذه الآية فيها خمس صفات لله تعالى لا تحتاج إلى بيان، ومُلك الله تعالى دائم في جميع الأزمنة، وتصرفه تعالى في العالم العُلوي والسفْلي حاصل في عموم الأحوال؛ وبيان هذه الصفات فيما يأتي:

١- ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ الأزلي، ليس لوجوده بداية، السابق على جميع الموجودات، فهو سبحانه موجدها ومنشؤها، فقد كان سبحانه ولم يكن قبله شيء، ووصْفُ الله تعالى بالقِدَم يستلزم وَصْفه بالغنى المطلق، أي أنه تعالى لا يحتاج إلى غيره في شيء، فليس الغنى بالمال فقط، بل بالاستغناء عن الآخرين، ولا يوجد أحد من الخلق يستغني عن الناس، فرغيف الخبز مثلا يشترك فيه عدد من الناس حتى يصل إلى الإنسان.

ويستلزم وصف القدم: التفرد بصفة الوجود، لأنه لو كان هناك غير الله موجود، لما اتصف سبحانه بأنه الأول مطلقاً.

ووصفُ الله تعالى بالأول يستلزم أيضا اتصافه بالوحدانية وجميع صفات الجلال والكمال.

٢ - ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ فليس بعده شيء، وليس لبقائه نهاية، فالكل يفْنى، ويبقى الله سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦،٢٧] فهو سبحانه الآخر بعد فناء موجودات السموات والأرض، وهو جل شأنه مستمر في وجوده، لا ينتابه العدم.

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن ينام، اضطجع على شقه الأيمن ثم قال: «**اللهم رب السموات ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالقَ الحب والنوى، ومنْزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، واغننا من الفقر**»[(١)].

وقد نصح النبي ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها أن تدعو بهذا الدعاء حينما جاءته تسأله خادماً[(٢)].

٣ - ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء، والظهور ضد الخفاء، فهو سبحانه ظاهر لجميع خلقه عن طريق النظر والاستدلال والتدبر في آياته الكونية في السموات والأرض، فهو ظاهر بالأدلة الدالة عليه سبحانه وفي الحديث السابق (وأنت الظاهر

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٧١٣) وابن أبي شيبة (١٠/٢٥١) والمسند (٨٩٦٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البيهقي (٥٣)، والترمذي (٣٤٨١)، وأبوداود (٥٠٥١) وابن ماجه (٣٨٧٣)، والنسائي في الكبرى (٧٦٦٩).

(٢) كما في صحيح مسلم في الحديث السابق، وعند ابن أبي شيبة (١٠/٢٦٢) والبيهقي (١٢).

فليس فوقك شيء) أي ليس فوقك شيء في دلالة الأدلة العقلية والنقلية على وجودك واتصافك بصفات الجلال والكمال.

٤ - ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء، يعلم بواطن الأمور، وهو سبحانه لا يحيط به البصر ولا التكييف، والله تعالى ظاهر بوجوده، باطن بكنهه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] فلا مطمع لأحد في إدراك ذاته، ولا معرفة تفاصيل تصرفاته، والعقول لا تدرك كنه ذاته سبحانه.

٥ - ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية في العالم العلوي والسفلي، قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والخفاياوالسرائر والأمور المتقدمة والمتأخرة. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾[لقمان:١٦].

قال تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ [سبأ:٣].

ثَمَانِيَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى التَّوْحِيدِ فِي هَذِهِ الآيَةِ

٤ - ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وفي هذه الآية أربع صفات هي: الخالق، الواحد، المدبر، البصير، وهذه الصفات الأربع يدخل تحتها أربعة أخرى من دلائل وحدانيته تعالى في هذه الآية التي اشتملت على **ثمانية أدلة على وحدانية الله تعالى**:

أولها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة أي إنه تعالى خلق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء فخلقها في يومين،

ثم خلق أقوات الخلق في يومين، فيكون مجموعها ستة أيام.

عن الحسن: أنها من أيام الدنيا، ولو أراد الله أن يجعلها في طرفة عين لفعل، ولكن جعل الستة أيام أصلا ليكون عليها المدار[(١)].

ثانيها: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ أي أنه تعالى استوى على عرشه وفوق جميع خلقه، استواء يليق بجلاله، بلا كيف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل ولا تجسيم.

قال الشعبي وجماعة: الاستواء من متشابه القرآن، يؤمن به المسلم، ولا يعرض لمعناه.

وقال مالك بن أنس لرجل سأله عن الاستواء: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة، وأظنك رجل سوء، أخرجوه عني، فأدبر السائل وهو يقول: يا أباعبد الله، لقد سألتُ عنها أهل العراق وأهل الشام، فما وُفّق أحدٌ توفيقك[(٢)].

ثالثها: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض من البذور والأمطار والأموات ومن حب وحيوان ومطر وغيرها.

رابعها: ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ من نبات وشجر وزرع وثمار وحيوان ومعادن ونفط وأحياء وغيرها.

خامسها: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من مطر وبرَد وثلج وصواعق، ومن الأرزاق، والأقدار والملائكة، والرحمة والعذاب وغيرها.

سادسها: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾ أي من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال الصالحة والسيئة، كما قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

وقال سبحانه: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج:٤].

وصح في الحديث عن أبي موسى ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع: «إن الله لا

---

(١) تفسير النسفي للآية.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٤/٣٧) تفسير أول سورة طه .

ينام ولا ينبغي له أن ينام، يَرفع القسط ويخفضه، ويُرفع إليه عمل النهار بالليل، وعمل الليل بالنهار»[1].

سابعها: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ بقدرته وعلمه وإحاطته، أينما كنتم في البر أو البحر أو الجوّ، أو الأرض أو السماء، أو الليل أو النهار، أو البيت، أو الصحراء، في جوف الليل وفي وضح النهار، هو عالم بكم أينما كنتم، يسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود:٥].

وقال جل شأنه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧].

وقال سبحانه: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠].

ولما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». وهذه المعية، معية العلم والإحاطة والاطلاع، ولهذا توعد الله المجرمين، ووعد المؤمنين بالمجازاة عليها.

ثامنها: وختمت الآية بما يؤكد مضمونها ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى أعمالكم ويسمع أقوالكم ولا يغيب عنه منها شيء، وسوف يحاسبكم ويجازيكم عليها.

وفي هذه السورة من أدلة التوحيد أن الله تعالى له ملك الدنيا والآخرة، قال تعالى:

٥ - ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ[2] ٱلْأُمُورُ﴾

وكما أن الله تعالى مالك هذا الكون في الدنيا، فإن سبحانه يملكه أيضا في الدار

---

(١) جزء من حديث أبي موسى الأشعري في صحيح مسلم برقم (١٧٩).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وعاصم وأبوجعفر بالبناء للمفعول في ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ والباقون بالبناء للفاعل.

الآخرة، وذلك أنه في الآية الثانية من السورة بين سبحانه وتعالى أن ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم بأوامره القدرية والشرعية وفق حكمته سبحانه أي أن جميع الموجودات مخلوقة ومملوكة لله تعالى، ومنها الموت والحياة، والتصرف الكلي في العالم العلوي والسفلي.

وأكد سبحانه هنا هذا المعنى نفسه ليبني عليه ما يتعلق بالدار الآخرة، وليبيّن أن الحكم والتصرف المطلق والمرجع والمصير إليه سبحانه فقال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ من الأعمال والعباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل:١٣] وقال جل شأنه: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

فِي هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلانِ مِنْ دَلائِلِ التَّوْحِيدِ

٦ - ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

وفي هذه الآية صفتان لله تعالى هما: مطلق التصرف في ساعات الليل والنهار، وعلمه تعالى بما تكنه الصدور من السرائر والضمائر، وما فيها من النوايا والخفايا.

وبما أن الله تعالى متصرف في أحوال الدنيا والآخرة، فإن من جملة ذلك: تصرفه في الليل والنهار بالزيادة والنقص، والحرارة والبرودة، فهو جل شأنه يُدخل ما نقص من ساعات الليل في النهار، فيزيد النهار، ويُدخل ما نقص من ساعات النهار في الليل، فيزيد الليل، ويُدخل كُلا منهما في الآخر، ويقلّب الليل والنهار، فيسيران وفق نظام محكم دقيق، يغشي الليل بظلامه فيسكن الناس ويهدؤون، ويأتي النهار فيزول الظلام ويضيء الكون ، ويقوم الناس إلى معايشهم ومصالحهم، وهكذا يكوّر الليل على النهار، والنهار على الليل، ويداول بينهما في الزيادة والنقص والطول والقصر، ويترتب على ذلك فصول السنة الأربعة، والحرارة والبرودة، وما إلى ذلك.

والله تعالى هو الذي يَفْني خلقه، ويتصرف فيهم كيف شاء، وليس الدهر ولا تعاقب

الليل والنهار، كما يزعم المشركون في قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٤]﴿وَهُوَ﴾ جل شأنه ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي يعلم الخفايا والنوايا ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

عن ابن عباس ﷺ أن اسم الله الأعظم في ست آيات من أول سورة الحديد[(١)] .

وقد اشتملت هذه الآيات الست على تسعة عشر دليلاً وصفة من أسماء الله الحسنى وهي: الله، العزيز، الحكيم، الملك، المحيي، المميت، القدير، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العليم، الخالق، الواحد، المدبر، البصير، مالك يوم الدين، مصرف الليل والنهار، عليم بذات الصدرو، ونتيجة لهذه الدلائل يجب عليكم - أيها الناس - أن تدخلوا في ساحة الإيمان إن كنتم غير مؤمنين.

الإِيمَانُ وَإِنْفَاقُ الْمَالِ عُنْصُرَانِ لابُدَّ مِنْهُمَا لِنَجَاحِ الأُمَّةِ

٧ - ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

في هذه الآية يأمر الله عباده أن يؤمنوا بالله ورسوله وينفقوا أموالهم في سبيل الله، وبعد أن بيّن الله سبحانه أنه مطّلع على النوايا والخفايا، وأن مصير العباد إلى الله وحده، وسوف يحاسبهم على النقير والقطمير، ذكّرهم بعد ذلك بالإيمان بالله إيماناً لا يشوبه شرك، وذكّرهم بالإيمان برسوله ﷺ بعد أن قامت الأدلة على صِدْق ما أَخبر به، مما كان محل ارتيابهم وتكذيبهم.

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ اثبتُوا على الإيمان، أو ادخلوا في الإيمان إن كنتم غير مؤمنين بالله ورسوله ، وداوموا على الإيمان بالله تعالى ورسوله محمداً ﷺ إيماناً حقّاً لا

(١) تفسير ابن عطية (٢٥٨/٥).

تشويه شائبة.

ومن مقتضيات الإيمان: أن تنفقوا من أموالكم في وجوه الخير، فإن هذه الأموال عارية في أيديكم، رزقكم الله إياها، أو وَرِثْتُموها عن غيركم، وغيركم سيرثها عنكم، وهي أمانة لديكم، استخلفكم الله عليها ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فهذه الأموال التي في أيديكم، هي أموال الله، وضعها عندكم للاستمتاع بها في الطرق المشروعة، وجعلكم خلفاء فيها، فأنفقوا منها في حقوق الله، ولا تضنّوا بها، فإن الله تعالى سيرث الأرض ومن عليها:

١ - جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه، قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر»**[1].

٢ - وعن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو **يقول: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»**[2].

٣ - وعن أنس بن مالك ﷺ **أن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الميت ثلاث، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»**[3].

والآية فيمن جمع بين الإيمان بالله والرسول وبين الإنفاق في سبيل الله، ورتَّبَتْ على ذلك الأجر الكبير والفوز بدار النعيم.

---

(١) البخاري (٦٤٤٢).

(٢) المسند (٤/٢٤) برقم (١٦٣٢٧، ١٦٣٠٦، ١٦٣٢٢، ١٦٣٠٥) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وهو في صحيح مسلم برقم (٢٩٥٨)، وابن حبان (٣٣٢٧)، والطيالسي (١١٤٨) وغيرهم.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٠) وصحيح البخاري (٦٥١٤) ومسند أحمد (١٢٠٨٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

وقد كان أهل الجاهلية لا ينفقون إلا في الملذات والمفاخرة والمقامرة وشرب الخمر، وقد جاء وصفهم بالذمِّ في القرآن العظيم في مواطن عدة، منها: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٤] وقوله: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[الفجر:١٧،١٨].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ بالله ورسوله وباليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾ من أموالهم في سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي ثواب عظيم، فاغتنموا ذلك وتداركوا ما فاتكم واستعدوا للقاء ربكم.

ثم ذكر سبحانه دواعي الإيمان وعدم المانع منه، وهو دعوة الرسول لنا بالإيمان ووجوب المبادرة إلى إجابته.

مُوجِبَاتُ الْإِيمَانِ الأَرْبَعَةِ

٨ - ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ[1] مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

أي: وماذا يمنعكم - أيها الكافرون - من الإيمان بالله؟ إنه لا عذر لكم في ذلك، مع قيام الحجج عليكم، ومنها:

أن الرسول ﷺ قد بين لكم من آيات الكون، وآيات القرآن، مافيه بلاغ وحجة، على أن الإيمان بالله حق، فإن تقرر ذلك فلا عذر لكم في عدم الإيمان به.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله؟ وهذا استفهام للتوبيخ والإنكار، وتوطئة لدعوتهم إلى الإيمان، إذ لا عذر لكم في ألا تصدقوا بوحدانية الله تعالى وتعملوا بشرعه.

ثم ذكرت هذه الآية أربعة أدلة، وهي حجج موجبة لوحدانية الله تعالى والإيمان به:

---

(١) قرأ أبوعمرو بالبناء للمجهول في ﴿أَخَذَ﴾ ورفع ﴿مِيثَٰقُكُمْ﴾ نائب فاعل، والباقون بالبناء للفاعل في ﴿أَخَذَ﴾ ونصب ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ مفعول به.

الحجة الأولى: دعوة الرسول ﷺ لوحدانية الله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ فيما يتلوه عليكم من آيات ربكم، ومن إقامة الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به، فماذا يمنعكم من الإيمان، وقد بين لكم الرسول ﷺ من آيات القرآن مافيه بلاغ وحجة، على أن الإيمان بالله حق، وأنه لا عذر لكم في عدم الإيمان بالله ورسوله، فتعين أن يكون إصراركم على عدم الإيمان مكابرة وعنادا!

والحجة الثانية: أن الله تعالى قد أخذ عليكم العهد والميثاق بتوحيده تعالى حين أخرجكم من ظهور آبائكم، وأعلمكم بأن الله ربكم لا إله إلا هو، لا رب غيره ولا معبود سواه، وقد أخذ عليكم الميثاق فأقررتم بذلك ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢].

والحجة الثالثة: أن الله تعالى جعل لكم عقولاً لتميزوا بها بين الحق والضلال، والغثّ والسمين، ومع هذا لم يترككم لعقولكم، بل أرسل لكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب، لتفرّقوا بين الهدى والضلال، والإيمان والكفر، فتخرجوا من الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور.

جاء في الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «**أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟ قالوا: الملائكة، قال: وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟ قالوا: فالأنبياء، قال: وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن، قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا، قوم يجيئون بعدكم، يجدون صُحُفاً يؤمنون بما فيها**»[1].

وفي بيعة الرسول ﷺ على الإيمان بالله ورسوله يقول سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ [المائدة:٧].

---

(١) ينظر: مسند أبي يعلى (١٤٧/١) والمستدرك (٨٥/٤) والبزار عن أنس في كشف الأستار (٢٨٤٠) وفي سنده مقال.

ومقتضى الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم وهم في عالم الذّر: أنه تعالى قد أودع في فطرة كل إنسان: الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته، فهو ناموس فطري أخذه عليهم في الأزل، وكان شرطاً في التكوين، لأنه الغاية التي خلق الله الخلق من أجلها.

فهذه مجموعة من الأدلة توجب الإيمان بالله ورسوله وهي:

١- ميثاق التوحيد الأزلي التكويني. ٢- ميثاق الإيمان بالنبي الخاتم.

٣- العقل وهو مناط التكيف. ٤- الرسالة الخاتمة، بما فيها من إنزال القرآن.

وهي حجج موجبة للإيمان ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا شرط جوابه محذوف، أي إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال، فآمنوا الآن، فقد توفرت لديكم جميع الأسباب الموجبة للإيمان.

الحجة الرابعة: هي أن الرسول الخاتم نبي مؤيد بالآيات البينات:

٩ - ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ [1] عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ [2] رَّحِيمٌ﴾

وبما أن السورة قد وضعت عنصران رئيسان كي تنجح الأمة في بلوغ غايتها وهما: الإيمان بالله ورسوله، والإنفاق في وجوه الخير، وعلى رأسها نشر الدعوة العالمية.

وقد أمرت بذلك الآية الثامنة وحثّت عليه، وبينت الآية العاشرة موجب الإنفاق في وجوه الخير والبر.

أما هذه الآية – التاسعة – فقد أقامت الدليل على موجب الإيمان بالله والرسول، وهو هذا القرآن المنزل من عند الله تعالى لإخراج الناس من ظلمات الجهل والشرك والضلال، إلى نور الإيمان والتوحيد والهدى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ محمد ﷺ ﴿ءَايَٰتٍۭ

---

(١) قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب بإسكان النون وتخفيف الزاي من ﴿يُنَزِّلُ﴾ مضارع أنزل والباقون بفتح النون وتشديد الزاي، مضارع نزل.

(٢) قرأ أبوعمرو وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بحذف الواو التي بعد الهمزة من ﴿لَرَءُوفٌ﴾ فتكون (رءف) على وزن فعُل، والباقون بإثبات الواو على وزن فعول، وهما لغتان.

﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ دلائل وحجج مفصلات واضحات، تتمثل في هذا القرآن، فهو أكبرها وأعظمها، ثم ما أيد الله به رسوله ﷺ من المعجزات الأخرى، وما أوحاه إليه في السنة النبوية، وقد أيده الله بذلك ﴿لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل، إلى نور الإيمان والعلم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ حيث أنزل عليكم الكتب، وأرسل إليكم الرسل لهدايتكم، ولم يقتصر على ما أودعه فيكم من العقل، والفطرة البشرية.

مُوجِبَاتُ الإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ

١٠ - ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا[1] وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾

أي: وما الذي يمنعكم - أيها الناس - من الإنفاق في سبيل الله والحال أن أموالكم ستنتقل منكم إلى غيركم، أو أنكم سترحلون عن الدنيا، ثم يعود الملك لمالكه.

والموجب العقلي لإنفاق المال في سبيل الله: أن الإنسان سيموت ويترك المال، فيرثه غيره، ولا يستفيد منه شيئاً، فلماذا لا يستفيد منه قبل مماته، بالإنفاق منه في سبيل الله، لينفعه ذلك يوم لقاء ربه، فاغتنموا فرصة وجود المال في أيديكم وأنفقوا منه في وجوه الخير، كالصدقة الجارية ونفع المسلمين، ولاتترك لأبنائك الوصية أن يُخرجوا عنك بل أخرج أنت بنفسك قبل أن تموت، فأنت لا تدري مايحدث من أبنائك بعدك.

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أيُّ شيء يمنعكم - أيها الناس- من الإنفاق في سبيل الله للجهاد في سبيله، والعمل على نشر الدعوة في أرجاء المعمورة، وسد حاجات المعوزين، وإقامة المشاريع الخيرية.. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ والله تعالى سيرث الأرض ومن عليها، ولا يبقى فيها ملك لأحد، وفي هذا إنكار من الله تعالى على

---

(١) قرأ ابن عامر (وكلٌ) برفع اللام على أنها مبتدأ، وما بعدها خبر، والعائد محذوف، تقديره (وعده) والباقون ﴿وَكُلّٗا﴾ بالنصب، مفعولاً أوّلاً مقدّماً على ﴿وَعَدَ﴾ والمفعول الثاني ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

من لم ينفقوا أموالهم فيما دعاهم الله إليه، وهم سيموتون ويتركونها لغيرهم، ولو أنفقوا بعض أموالهم فيما أمرهم الله به، لنالوا رضاه، وانتفعوا بثواب من سيرثه بعدهم، وحققوا التكافل الاجتماعي في المجتمع، فأنفقوا - أيها الناس - ولا تخشوْا فقرا ولا إقلالا، فإن الذي أنفقتم في سبيله، هو مالك السموات والأرض، وبيده المقاليد والخزائن، وهو مالك العرش والكرسي، وهو القائل ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[سبأ:٣٩] والقائل: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

الإنفاق في الجهاد:

وعدم إنفاق المال العام والخاص في التصنيع الحربي على وجه الخصوص يؤدي بالأنفس إلى التهلكة، وهو مقدم على إقامة المباني وتشييد العمران:

إن الأمة الإسلامية أغنى الشعوب، فأحشاء الدنيا في يدها، وأرضها الخصبة تفيض سمناً وعسلا، وصحراؤها العفراء مليئة بالكنوز والمعادن، فهلاّ سخرت الأمة أموالها في نصرة دينها؟ أم غلبتْ عليها الشهوات والنزوات وحُب الدنيا؟

إن ثروات المسلمين يستفيد منها غيرهم أكثر مما يستفيد المسلمون، والواجب أن يدعم هذا الثراء تسليح الأمة، حتى تتحرر من ذل غيرها، وتستطيع نشر دين ربها، وتحقق خلافتها في الأرض، وتدفع الغوائل عن نفسها.

وحسن التصرف في المال لخدمة الإيمان، شيمة الصادقين من أهل اليقين، أما عبيد الحياة، وأهل النفاق فلهم مسالك أخرى!

فضل الإنفاق في وقت الأزمات:

ثم إن إنفاق المال في وقت الأزمات والشدائد التي تُحدق بالأمة الإسلامية، أفضل بكثير من الإنفاق في وقت السعة والرخاء، وعلى هذا فإن من أنفق ماله وجاهد في سبيل الله قبل فتح مكة، أعظم درجة وأكثر ثوابا ممن أنفق بعد الفتح وقاتل ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾.

قال ابن عطية: رُوي أن هذه الآية نزلت في جماعة من الصحابة أنفقت نفقات كثيرة، حتى قال ناس: هؤلاء أعظم أجراً من كل من أنفق قديماً، فنزلت الآية مبينة أن النفقة قبل الفتح أعظم أجراً[(١)].

والمراد بالفتح في الآية: فتح مكة على الأرجح، لأنه الذي أزال الهجرة، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»[(٢)].

ولما قال رجل للنبي ﷺ بعد فتح مكة: أبايعك على الهجرة، فقال ﷺ: «**الهجرة قد ذهبت بما فيها، وإن الهجرة شأنها شديد، ولكن أبايعك على الجهاد**».

وحكم الآية باق فيمن أنفق وجاهد وقت الشدة والعدوان على بقعة من بقاع العالم الإسلامي، أو على إنصاف فئة من أبناء المسلمين المستضعفين في دولة غير إسلامية، أو إسلامية، فيكون هذا المنفق أعظم أجرا ممن أنفق وجاهد في غير هذا الوقت.

وقيل: المراد بالفتح، صلح الحديبية، والأول أولى.

ويُراد بالنفقة في سبيل الله: بذل المال للتصنيع الحربي، وأُسَر الجرحى، والأسرى، والشهداء، وتجهيز المقاتلين بالنفقة والسلاح والعتاد إن كان هناك عجز في موارد الدولة، أو تقاعس عن هذا الباب.

وفي الآية نفي للتسوية في الثواب والفضيلة بين من ينفق في وقت الشدة، ومن ينفق في وقت الرخاء، فإن الأوّل أكثر ثواباً وأعظم أجراً كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء:٩٥].

وهكذا فإن من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل في سبيل الله أعظم درجة وأكثر أجراً، ممن لم يُسْلِم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، وأكثر السابقين الأولين من فضلاء الصحابة

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٢٥٩).

(٢) من حديث ابن عباس في البخاري برقم (٢٧٨٣،٢٨٢٥) ومسلم (١٣٥٣).

قد أسلم قبل الفتح.

وخشية أن يتوهم متوهم، أن من ينفق ماله في وقت الرخاء لا يكون له أجر، وخشية أن يتوهّم متوهم أيضاً أن مَنْ يستطيع الجهاد بنفسه، ولا يستطيع الإنفاق بماله لا يكون له أجر، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي كل من أنفق قبل الفتح أو بعده، وكل من جاهد في سبيل الله بنفسه، أو قلمه وماله، قد وعده الله الحسنى، وهي الجنة والأجر والمثوبة، وغفران الذنوب، سواء من أنفق في الأزمات أو بعدها، مع التفاوت في الفضل بينهما، وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم حيث شهد الله لهم بالإيمان ووعدهم الجنة، وهذه الآية أصل في تفاضل أهل الفضل فيما فُضِّلوا فيه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فهو سبحانه يعلم سبب الإنفاق وأوقاته وأعذاره، ويعلم أحوال الجهاد، وثواب المجاهدين، فيعطي كل عامل على نية عمله، ولا يخفى عليه خافية من أعمالكم الظاهرة والباطنة، فأخلصوا أقوالكم وأفعالكم لتنالوا أجره وثوابه.

هذا: ومن المسلّم به أن ما أنفقه الصحابة في سبيل الله، يفوق في أجره وثوابه أضعاف ما ينفقه المسلمون في القرون المتأخرة، كما قال ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ «**لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه**»[١]، والحديث يشير إلى أن فضل الصحابة ليس في إنفاق المال فحسب بل يدل على فضلهم عموماً عمن سواهم من البشر جميعاً بعد الرسل والأنبياء، وإنفاق المال مثل ضربه النبي ﷺ لهذا الفضل.

وقد كانت النفقة والقتال قبل فتح مكة أعظم أجرا، لأن حاجة الإسلام إليهما وقتها كانت أشد، ثم أعز الله الإسلام بعد الفتح، فكثر ناصروه، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وقد كان أبوبكر ﷺ أول من أسلم، وأول من أنفق وأعتق في سبيل الله، وأكثر

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٦٧٣)، وصحيح مسلم برقم (٢٥٤١)، وابن أبي شيبة (١٧٤/١٢)، وأبوداود (٤٦٥٨)، والترمذي (٣٨٦١).

من ذبّ عن الإسلام[١].

أخرج الإمام أحمد وغيره عن أنس ﷺ قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغ النبي ﷺ فقال: «**دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أحد، أو مثل الجبال ذهبا، ما بلغتم أعمالهم**»[٢].

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ قال أبو الدحداح: والله لأنفقن اليوم نفقة أُدرك بها مَن قبلي، ولا يسبقني بها أحد بعدي، فقال: اللهم: كل شيء يملكه أبو الدحداح، فإن نصفه لله، حتى بلغ فَرْدَ نعليه، ثم قال: وهذا[٣].

الْحَثُّ عَلَى النَّفَقَةِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ

١١ - ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ[٤] لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

ثم حثت الآيات على الإنفاق في سبيل الله، وجعلته بمثابة من يقرض الله قرضاً حسناً، والقرض الحسن: هو النفقة الطيبة الخالصة لوجه الله تعالى، طلباً لمرضاته، على أن تكون من مال حلال طيب، طيّبةً بها نفسه ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مَن هو المؤمن القوي الإيمان، الذي ينفق ماله في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، وفي وجوه

---

(١) ينظر في ذلك الأثر الوارد في (معالم التنزيل) للبغوي (٣٤/٨) عن الكلبي وفيه العلاء بن عمرو وهو ضعيف.

(٢) المسند (٣١٩/٢١) (١٣٨١٢) قال محققوه: إسناده صحيح، وأخرجه الضياء في المختارة (٢٠٤٦)، وهو عند مسلم (٢٥٤١) (٢٢٢)، وعند البزار (٢٥٩٢ – كشف الأستار).

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٢٦٤/١٤).

(٤) قرأ نافع وأبوعمرو وحمزة والكسائي وخلف ﴿فَيُضَٰعِفُهُۥ﴾ بالرفع على الاستئناف، أي فهو يضاعفُه. وقرأ ابن كثير وأبوجعفر (فيضعِّفُه) بالرفع وحذف الألف على الاستئناف أيضاً، وقرأ ابن عامر ويعقوب (فيضعِّفَه) بالنصب والحذف، وقرأ عاصم (فيضاعفَه) بالنصب وإثبات الألف، على أن الفعل منصوب بأن مضمرة بعد الفاء في القراءتين، لوقوعها بعد الاستفهام، والتشديد والتخفيف لغتان.

الخير والبر، محتسبا أجره عند الله تعالى من قلبه، غير مُراءٍ ولا منّان ولا مُتْبِع نفقته أذى.

وقد سماه الله قرضاً، والمال ماله والعباد عباده، وَوَعَدَ بمضاعفة الأجر عليه في يوم تشتد حاجة العبد إلى ربه ولو بحسنة واحدة، ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي يعطيه الله أجر نفقته أضعافاً في الأجر والمثوبة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ هو المغفرة والجنة عند ربه، ولا يعلم ما فيها من النعيم إلا هو سبحانه.

والآية شَبهتْ عطاء المؤمن في الدنيا وهو يرجو به ثواب الله في الآخرة، بالقرض، فالمقترض هو الله سبحانه، والجزاء على ذلك هو الجنة، وهذا كالبيع والشراء.

وأصل القرض الحسن: هو السلف، كأن يعطي الإنسان أخاه، قدراً مُعيّنا من المال، على أن يردّه له بعد وقت طويل أو قصير، بلا زيادة ولا منفعة، يبتغي بذلك وجه الله.

وهذا المعنى غير مراد في الآية، إنما المراد هو نفقة التطوع ابتغاء وجه الله، والله تعالى هو المجازي عليها بمضاعفة الحسنات أضعافا كثيرة، قال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن:١٧] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد:١٨].

وهذا الأجر الكريم هو ما فسره النبي ﷺ من حديث أبي أمامة ﷺ «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفيء غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر**»[(١)].

قال بعض العلماء: ولا يكون القرض حسناً - بالنسبة للناس فيما بينها - حتى تجتمع فيه عشرة أوصاف وهي:

١- أن يكون المال حلالاً.

٢- وأن يكون القرض من أجود المال، إذا كانت الصدقة، بشيء من الطعام أو

(١) الطبراني ٨٠/٤ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨٠).

اللباس ونحوهما.

٣- وأن يتصدق به وهو محتاج إليه.

٤- وأن يصرف صدقته إلى من هو أشد حاجة إليها.

٥- وأن يكتم الصدقة ما أمكنه.

٦- وأن لا يتبعها بالمن والأذى.

٧- وأن يقصد بها وجه الله تعالى.

٨- وألا يُرائي بها الناس.

٩- وأن يستصغر صدقته وإن كانت كبيرة.

١٠- وأن تكون من أحب الأموال إليه.

١١- وألا ترى عز نفسك وذل الفقير[(١)].

وجاء في الآية الأخرى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة:٢٤٥].

وعن عبد الله بن مسعود وأنس وجابر بن سمرة ﷺ لما نزلت هذه الآية، قال أبوالدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منّا القرض؟ قال: نعم يا أبالدحداح، قال: أرني يدك يارسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائطي، وكان له بستان فيه ست مئة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها.

قال: فجاء أبوالدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، فقال: أُخرجي، فقد أقرضْتهُ ربي، عز وجل.

وفي رواية: أنها قالت: ربح بيعك يا أبا الدحدادح، ونَقَلتْ منه متاعها وصبيانها، وأن رسول الله ﷺ قال: « كم من عذْق ردّاح في الجنة لأبي الدحداح».

---

(١) تفسير الخازن (٤/٢٢٨).

وفي لفظ: «رب نخلة مُدَلاّة، عروقها دُرٌّ وياقوت لأبي الدحداح في الجنة»[(١)] .

حَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ

١٢ - ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

ثم بين سبحانه أن اليوم الذي تضاعف فيه الحسنات، هو اليوم الذي يُثاب فيه المؤمنون، ويُحرَم فيه المنافقون، مع مساواة المرأة للرجل في العبادات، فقال تعالى ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي اذكر - أيها المخاطب - يوم القيامة حيث تكوّر الشمس، ويخسف القمر، ويكون الناس في ظلمة، فيُنصب الصراط على متن جهنم، وعندئذ ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تضيء الطريق أمامهم على الصراط من جميع الجهات فيمشون بأيمانهم ونورهم على الصراط في ذلك الموقف العظيم، كل على قدر إيمانه، ويُبشرون بأعظم بشارة، وذلك بعد أن أخذوا صحف أعمالهم الصالحة في ساحة الحشر بأيمانهم، وتبشرهم الملائكة بالجنات والنعيم المقيم.

وهكذا في يوم القيامة، تُبصِرُ كل مؤمن ومؤمنة، ولهم نور حقيقي يضيء لهم الطريق على الصراط من جميع الجهات، وقد خُص الأمامُ واليمين بالذكر، لأنهما الجهة التي يعطى بها العبد كتاب عمله ويحمله بيمينه، والأيدي هي موضع حاجة الإنسان إلى النور، فهما مبعث النور وأصله، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنشقاق] .

---

(١) رواه أبويعلى في مسنده (٨/٤٠٤) عن محرز بن عون عن خلف بن خليفة، وضعفه ابن حجر في المطالب العالية برقم: (٤٠٨٠) قلت: والحديث صحيح من طرق متعددة، ينظر: المسند عن أنس (١٢٤٨٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه)، وعن جابر بن سمرة (٢٠٨٩٤،٢٠٨٣٤) وسعيد بن منصور في التفسير (٤١٧) والبزار (٢٠٣٣) والطبراني في الكبير (٧٦٤) والبيهقي في الشعب (٣٤٥٢) وابن أبي حاتم (٢٤٣٠) والحكيم الترمذي في النوادر (٢/٦١) وغيرها.

ومن الآثار الواردة في ذلك:

١ – ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أن كل مؤمن ومنافق يعطى يوم القيامة، نوراً، فيُطفأ نور المنافق، ويبقى نور المؤمن، حتى إن منهم من نوره يضيء كما بين مكة وصنعاء [(١)].

٢ - وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: إن هذا النور يكون على قدر أعمالهم يمرون على الصراط: فمنهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورا من نوره في إبهامه، يتّقد مرة، ويُطفأ مرة [(٢)].

وحينما يرى المؤمنون نور المنافقين ينطفيء يقولون ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ كما جاء ذلك في آية سورة التحريم رقم: ٨

٣ - قال أبو أمامة الباهلي: أيها الناس: إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تَقْتَسِمُون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظْعنوا منه إلى منزل آخر وهو القبر، بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا من وسّع الله له، ثم تنتقلون منه إلى موطن يومِ القيامة، فإنكم لفي بعض تلك المواطن، حتى يغشى الناس أمر الله، فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى موضع آخر، فتغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يُقْسَمُ النور، فيعطى المؤمن نورا، ويُترك الكافر والمنافق، فلا يُعطيان شيئا، وهو المثل الذي ضرب الله في كتابه ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ الآية من سورة النور: ٤٠.

ولا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن، كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير، ويقول المنافقون للذين آمنوا – عندما يروهم يمشون بنورهم، وقد طفئ عنهم النور ووقفوا حائرين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ - إن كان ذلك ممكناً - ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٢٦١).

(٢) نقله ابن كثير عن ابن أبي حاتم وابن جرير ١٥/٧ وصححه الحاكم في المستدرك ٤٧٨/٢ ووافقه الذهبي، وسنده حسن، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٣/٢٩٩).

﴿نُورًا﴾ وهي خُدعةُ الله التي خدع بها المنافقين حيث قال ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢] فيرجعون إلى المكان الذي قُسم فيه النور فلا يجدون شيئاً، فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب[1].

٤ - وقال أبو أمامة: تُبعث ظلمة يوم القيامة، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه، حتى يَبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدْر أعمالهم، فيتبعهم المنافقون فيقولون: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[2].

٥ - وقال أبو الدرداء: أين أنت من يوم جيء بجهنم قد سَدّتْ ما بين الخافقين.

٦ - وقيل: لن تدخل الجنة حتى تخوض النار، فإن كان معك نور، استقام بك الصراط، فقد والله نجوْت وهُديت، وإن لم يكن معك نور تشبّث بك خطاطيف جهنم أو كَلاليبها، فقد والله رَدِيتَ وهَوِيتَ[3].

لقد كان الملحدون والمكذبون مع المؤمنين في الدنيا يؤاكلونهم ويعاشرونهم ويصاهرونهم، وماتوا مِثْل غيرهم، فإذا كان يوم القيامة ميّز الله بين المؤمنين وغيرهم، وحيل بينهم بسور.

٧ - وفي الأثر عن أبي الدرداء وأبي ذر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر مَن بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، فأعرف أمتي من بين الأمم**» فقال له رجل: يا نبي الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، ما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «**أعرفهم محجلون من أثر الوضوء، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم**

---

(١) أخرجه ابن المبارك، بدون ما بين الشرطتين في المرتين، زوائد أبي نعيم (٣٦٨)، والحاكم (٢/٤٠٠)، والبيهقي (١٠١٥) قال محقق الأسماء والصفات: موقوف صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٨/٤٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/١٧٨).

بسيماهم في وجوههم، وأعرفهم بنور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم»[١].

وتقول الملائكة للمؤمنين ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي أنهم يبشرونهم بدخول جنات واسعة، تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار المياه العذبة الجارية، وهم لا يخرجون منها أبداً فما أجمل هذه البشارة لقلوبهم وما ألذها لنفوسهم حيث فازوا بكل مطلوب ونجوا من كل مرهوب ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز بعده ولا سعادة بعده.

ولما بيّن الله تعالى حال المؤمنين أتبعه بذكر حال المنافقين فقال:

١٣ - ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا[٢] نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ[٣] (١٣)﴾

يقول المنافقون ذلك وهم في عرصات القيامة، حيث الأهوال والزلازل، فهو يوم شديد، فيه ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:٢].

وفي هذا اليوم العظيم، يأذن الله تعالى للمؤمنين بالسير على الصراط إلى الجنة فوجاً فوجاً ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥)﴾ [مريم:٨٥] وأما المنافقون الذين كانوا يعيشون بين المؤمنين في الدنيا، فإنهم يسيرون وراءهم في الظلمة، كما جاء في حديث الشفاعة «**وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها**»[٤] وحين يسيرون على الصراط في الظلمة ولا يرون

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤٧٨/٢) من طريق عبد الله بن صالح، وهو صحيح لغيره كما في صحيح الترغيب (١٨٠)، وهو في المسند (٢١٧٣٧) بنحوه، قال محققوه: حسن لغيره، وأخرجه البزار (٣٤٥٧ – كشف الأستار)، والطبراني في الأوسط (٣٢٥٨).

(٢) قرأ حمزة بهمزة قطع مفتوحة في ﴿أَنظِرُونَا﴾ وصلا ووقفا مع كسر الظاء من الإنظار بمعنى الإمهال، والباقون بهمزة وصل ساقطة في الوصل مضمومة في البدء مع ضم الظاء، من نظر بمعنى انتظر أو بمعنى أبصر.

(٣) قوله تعالى: ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ معدود آية عند الكوفي وحده، ومتروك من العدد عند غيره.

(٤) من حديث أبي هريرة بتصحيح الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧٠٣٣).

شيئا، يقولون للمؤمنين: تريّثوا، انتظروا قليلا وتمهلوا في سيركم، حتى نلحق بكم ونستضيء بنوركم[(١)].

وهكذا: تغشى الناس ظلمة شديدة يوم القيامة، فيعطي الله المؤمنين نورا على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين أيضا نورا، خديعة لهم - لأنهم كانوا يخادعون الله ورسوله في الدنيا - فبينما هم يمشون على الصراط إذ بعث الله ريحا وظلمة، فانطفأت نور المنافقين، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ﴾ [التحريم:٨] يقولون ذلك مخافة أن يُسلب نورهم كما سلب من المنافقين[(٢)].

وحين لا يبصر المنافقون مواضع أقدامهم ويقولون للمؤمنين: انتظرونا نستضيء بنوركم، تَرُد عليهم الملائكة تهكما وسخرية ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أي ارجعوا إلى الدنيا إن كان ذلك ممكناً فالتمسوا فيها نورا بتصحيح الإيمان والتزود بالعمل الصالح، أو ارجعوا إلى الموقف الذي كنتم فيه حيث قسمت الأنوار، أو ارجعوا خائبين فلا نور لكم عندنا.

وهذا الاستهزاء مقابل استهزاء المنافقين بالمؤمنين في الدنيا، كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة:].

وحينئذ يُضرب بين المؤمنين والمنافقين بسور كبير - يوجده الله تعالى في هذا الوقت، قطْعاً لأطماعهم في الجنة - ويتركهم في ظلمات لا يبصرون، فيكون وضعهم في هذه الحال، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٣/٣٨٢).

(٢) تفسير الخازن (٤/٢٢٩) وينظر: تفسير ابن كثير (٧/١٦).

ﵟذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ﵞ [البقرة:١٧].

وهذا الحائط الذي يحجز بين أهل الجنة وأهل النار: باطنه من جهة المؤمنين فيه الرحمة والجنة، وظاهره من جهة المنافقين فيه العذاب والنار ﵟبَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُﵞ.

وكأن هذا السور يمثل أعمال العباد في الدنيا، بأنَّ منها ما يُفْضي بصاحبه إلى النعيم، ومنها ما يفضي بصاحبه إلى العذاب، وجُعل هذا الباب في حائط واحد، كي يزداد المنافقون المحبوسون وراء السور حسرة وندامة كلما رأوا المؤمنين يجتازونه إلى النعيم في باطن السور.

والظاهر أن هذا السور ليس هو الحجاب أو الأعراف الذي بين الجنة والنار المذكور في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﵟوَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚﵞ [آية:٤٦].

أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ بَاعَدَتْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٤ - ﵟيُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ[1] حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ﵞ

أي أنه إذا تكامل دخول المؤمنين في باطن السور، أُغلق الباب، وبقي المنافقون وراءه في الحيرة والظلمة والعذاب، وحينئذ ينادي المنافقون على المؤمنين قائلين لهم: ألم نكن معكم في الدنيا نطق بالشهادتين ونصلي ونصوم، ونؤدي الشعائر مثلكم ﵟيُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖﵞ نشارككم في أعمال الإسلام، فقد زعموا أن الآخرة مِثْلُ الدنيا يجري فيها التعامل على الصورة الظاهرة، وغاب عنهم أن الإخلاص يكمن في تجرد الإيمان لله تعالى، وهو أساس القبول، وحينئذ يردّ المؤمنون على المنافقين ﵟقَالُواْ بَلَىٰﵞ قد كنتم معنا في الدنيا تتظاهرون بالإسلام، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين بغير إيمان

---

(١) قرأ أبوجعفر بتخفيف الياء سطنة من ﵟٱلۡأَمَانِيُّﵞ وقرأ الباقون بتشديدها مضمومة.

صحيح ولا نية صادقة.

ثم بينوا لهم أن هناك أربعة أسباب هي التي باعدت بين المؤمنين والمنافقين، وهي: الفتنة، والتربص، والارتياب، والاغترار، وهذه هي أصول النفاق.

السبب الأول: جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أهلكتموها بالنفاق والمعاصي، فكنتم على ضلال، حينما تظاهرتم بالإسلام وأبطنتم الكفر، وكنتم في حيرة وتردد وشك وارتياب، ولم يستقر الإيمان في قلوبكم، فكانت خواطر الكفر والبغضاء، تنقض خواطر الإيمان ومحبة المؤمنين، مما ينشأ عنه: الكذب، والخداع، والاستهزاء، والطعن في المسلمين، ومحبة غيرهم، والتحاكم لغير شرع الله تعالى، يوضح هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء:٦٠] والمنافقون يرفضون التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، ويريدون التحاكم إلى غير المسلمين من القوانين الوضعية، والرضى بهذا، أو اعتقاد أنه الأفضل والأنسب للعصر، من علامات الكفر، وإن تظاهروا بالإسلام.

السبب الثاني: جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي ترقبتم أن تدور الدائرة على الإسلام وأهله، فالمنافقون في كل زمان ومكان، يترقبون للمؤمنين نزول الأضرار بهم، كالهزائم، والفقر وأنواع الأذى ويودّون انقسام المؤمنين وتفرقهم، كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ﴾ [التوبة:٩٨].

السبب الثالث: جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم في خبر الله تعالى الذي لا يقبل شكاً، وشككتم في الدين، وشككتم في البعث بعد الموت، وشككتم في الاعتماد على المسلمين في ساحات القتال، وثبّطتم الناس عن الجهاد في سبيل الله، وقلتم ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران:١٥٦] وقلتم ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ﴾ [آل عمران:١٦٨] وهذا الارتياب في الإسلام وأهله وعدم محبتهم هو النفاق بعينه.

السبب الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ أي خدعتكم أمانيكم الباطلة، فزعمتم أنكم على حق، وأنكم مصلحون، وأن الدائرة ستدور على المسلمين، وأن

العاقبة ستكون لكم، وتمنيتهم أن تنالوا مثل المؤمنين ولستم منهم.

وهذه الخصال الأربعة تتولد من النفاق، أي وبقيتم - أيها المنافقون - على الفتنة والارتياب، والتربص، والاغترار بالباطل، طيلة أعماركم، على تعاقب السنين، ولم تتدبروا العواقب ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ وهو الموت، وأنتم على هذه الحالة السيئة، ولم تُقلعوا عنها، لأن الشيطان قد خدعكم وضلّلكم حين منّاكم بالمغفرة، وأن الله لا يعذبكم على ما أنتم عليه ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ فهو الذي زيّن لكم الكفر والشك، فوثقتم به وصدّقتم خبره، واطمأنتم إليه، والغرور بفتح الغين هو الشيطان، وبضم الغين هو الخداع والتمويه، والتغرير هو إظهار الضار في صورة النافع، قال تعالى:

١٥ - ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ[1] مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾

أي: ويوم القيامة يرى المنافقون سوء عاقبتهم ونتيجة إصرارهم، حيث لا يُقبَل منهم عِوض، يَفتدون أنفسهم به ليخلّصوها من عذاب الله ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدۡيَةٞ﴾ مالية تدفعونها لِتَفْدُوا أنفسكم من العذاب، ولو كانت ملء الأرض ذهباً ومثله معه، لا يقبل ذلك منكم أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسوله، ومصيركم المحتوم الذي ترجعون إليه في الآخرة هو النار، وبئس المصير مصيركم، وبئس المستقر مستقركم ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ أي هي أولى بكم من كل منزل، ولن ينصركم منها ناصر، ولن يمنعكم منها مانع ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الذي صرتم إليه، وهو نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾ [القارعة: ٨ - ١١].

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ

---

(١) قرأ ابن عامر وأبوجعفر ويعقوب بتاء التأنيث في (تؤخذ) والباقون بياء التذكير وجاز التذكير والتأنيث لأن الفاعل مؤنث مجازى، وأبدل الهمزة واوا أبو عمر ويخلف عنه وورش وحمزة وقفاً.

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة:٣٦،٣٧].

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:٤٧] وهكذا.

ويوم القيامة يقرر الله الكافر يوم القيامة فيقول له: «**أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا، أكنتَ تفتدي نفسك بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم، يارب، فيقول الله تعالى: قد سألتك ما هو أيسر من هذا وأنت في صلب أبيك آدم، أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا الشرك**»[1].

التَّحْذِيرُ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ

١٦- ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ[2] مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا[3] كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ[4] عَلَيْهِمُ[5] الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

ولما ذكر الله تعالى أحوال الكافرين والمنافقين يوم القيامة، نبه المؤمنين ألا يكونوا مِثْلهم، ولا مِثْل أهل الكتاب، فيغتروا بالحياة الدنيا وينسوْا لقاء الله، وحذّرهم أن يكونوا كاليهود والنصارى حيث قست قلوبهم لَمَّا طال عليهم الزمان، وعاتبهم الله تعالى على عدم الانقياد الكامل لِمَا أنزل الله على رسوله.

---

(١) ينظر حديث أنس في البخاري (٦٥٣٨) وصحيح مسلم (٢٨٠٥) والمسند (١٢٧/٣) برقم (١٢٢٨٩) وهو صحيح على شرط الشيخين، وغيرهم مع تقارب في الألفاظ.

(٢) قرأ نافع وحفص ورويس بخلف عنه بتخفيف الزاي من ﴿نَزَلَ﴾ والباقون بتشديدها وهو الوجه الثاني لرويس.

(٣) قرأ رويس بتاء الخطاب في (ولا تكونوا) والباقون بياء الغيب.

(٤) قرأ الأزرق بتغليظ اللام وترقيقها من ﴿فَطَالَ﴾ والباقون بترقيقها.

(٥) كسر الميم والهاء وصلا من ﴿عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أبوعمرو، وضمهما حمزة والكسائي وخلف ويعقوب والباقون بكسر الهاء وضم الميم، وكلهم يكسرون الهاء من (عليهم) وقفا عدا حمزة ويعقوب فبالضم.

في أسباب النزول:

١- عن ابن مسعود ﷺ قال: (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين)[١].

٢- وقال ابن مسعود أيضاً: لما نزلت هذه الآية جعل بعضنا ينظر إلى بعض ويقول: ما أحدثنا؟ أيّ شيء صنعنا[٢]؟

٣- وقيل: إن هذه الآية نزلت في المنافقين بعد سنة من الهجرة، وذلك أنهم قالوا لسلمان الفارسي ذات يوم: حدّثنا عن التوراة فإن فيها من العجائب، فنزل ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف:٣] فأخبرهم أن القرآن أحسن من غيره، فكفّوا عن سؤال سلمان ماشاء الله.

ثم عادوا فسألوه مثل ذلك، فنزل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾ [الزمر:٢٣] فكفّوا عن سؤاله ماشاء الله، ثم عادوا فسألوه، فنزلت هذه الآية[٣].

٤- وقيل أيضاً: إن هذه الآية نزلت في المؤمنين، وذلك أنهم لما قدموا المدينة، أصابوا من لين العيش ورفاهيته، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه، فعوتبوا في ذلك[٤].

٥- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله تعالى استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن[٥].

٦ - وفي رواية أنس: استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن[٦].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٠٢٧)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٦٨)، وابن ماجة عن عامر بن عبد الله بن الزبير بنحوه برقم (٤١٩٢)، والبزار برقم (١٤٤٣)، وصحيح سنن ابن ماجة (٤٠٨/٢).

(٢) أبو يعلى (٥٢٥٦).

(٣) أسباب النزول للواحدي (ص ٣٠٣)، وذكره البغوي والخازن وابن الجوزي في تفاسيرهم للآية.

(٤) ابن المبارك (٢٦٤) وعبد الرزاق (٢٧٦/٢).

(٥) الطبراني في الكبير (٩٧٧٣) والحاكم (٤٧٩/٢).

(٦) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنور (٢٧٦/١٤).

٧- وقال أيضاً: إن بعضاً من شبان المسلمين أكثروا من الضحك والمزاح في بعض الأحيان فنزلت الآية[١].

فهذه سبعة أسباب لنزول الآية، منها ما يشير إلى أن الآية مكية، وهو الأصح، كما جاء في صحيح مسلم، ومنها ما يشير إلى أن الآية مدنية، وأن طائفة من المؤمنين بالمدينة، أصابهم بعض الفتور والكسل عن الاجتهاد في الطاعة، بعد أن فتح الله عليهم البلاد ورزقهم الكثير من خيرات الدنيا ولين العيش، فعاتبهم الله في ذلك من باب التعريض.

وفي الآية حث للمؤمنين أينما كانوا على الاستمرار في الطاعة والحذر من التقصير، وفيها تلطف في عرض الإيمان، كما تقول: أما آن لك أن تتوب إلى الله؟

ومن ذلك قول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ قبل إسلامه: «أما آن لك يا ابن الخطاب أن تسلم».

والمعنى: ألم يحِنْ الوقت للذين صدقوا الله ورسوله واتبعوا هديه، أن تلين قلوبهم وتخشع عند ذكر الله وسماع القرآن، فترقّ وتخضع، وتقشعر له جلودهم خوفاً من الله تعالى، فتُكْثِر من ذكره وتسارع في طاعته وتبتعد عن معاصيه وتنقاد لأوامره وزواجره، وللحق الذي جاء به محمد ﷺ ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ولا تقسوا قلوبهم بالانغماس في الشهوات والملذات والبعد عن الطاعات، كحال الذين أوتوا الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد للحق، ثم لم يثبتوا عليه من اليهود والنصارى، الذين طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم، فنسوا ما أوصاهم به أنبياؤهم، فبدلوا كلام الله، وخالفوا شرائعه، ولم يخافوا عقابه ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ واستمرت بهم الغفلة، فاضمحلّ إيمانهم وزال يقينهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ولم تتأثر بالترغيب والترهيب، ولم تفرق بين الحلال والحرام، وتمكّن الجفاءُ من قلوبهم، فانغمست في الضلال،

(١) جاء هذا عن عائشة وغيرها، انظر ابن أبي شيبة (١٤/٦٠) في المصنف، وانظر: الدر المنثور (١٤/٢٧٦) وما بعدها.

ورفضت الحق والهدى، والقلوب بحاجة مستمرة إلى تجديد الذكرى حتى لا تكون الغفلة والقسوة.

ثم إن كثيراً منهم تجاوز الحد من قسوة القلب، فنبذ دينه، وبدّل كتاب الله وحرَّفه، فأفسد عقيدته وبلَغ حد الكفر ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله مفرِّطون في دينه.

وفي الآية حث للمؤمنين ألا يتشبهوا بغيرهم في قسوة القلب والخروج عن طاعة الله تعالى، وفيها حث على أن تخشع قلوبهم عند سماع القرآن، وأن يسارعوا إلى امتثال أمر الله تعالى واجتناب نهيه، كما وصفهم ربهم في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢].

وفيها تحذير للمؤمنين من نبذ كتاب الله تعالى وراء ظهورهم، وعدم اتباع أوامر السلطان في تطويع معانيه للأهواء، ولا يكونوا كمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، وقد ذم الله قُساة القلوب في كثير من آياته:

كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة:١٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

آثار في معنى الآية:

١- أخرج ابن أبي شيبة عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبيه أن أبا موسى الأشعري ﷺ بعث إلى قراء البصرة، فدخل عليه ثلاث مئة رجل قد قرؤوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقرّاؤهم، فاتلوا القرآن، ولا يطولَنّ عليكم الأمد، فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب أهل الكتاب[١].

٢- وسمع الفضل بن موسى قارئاً يقرأ هذه الآية، وكان الفضل يحاول ارتكاب معصية، فكانت الآية سببا في توبته[٢].

---

(١) تفسير الخازن ٢٣٠/٤ وابن أبي شيبة (٣٨٧/١٣).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٦٤/٥).

٣- وأراد ابن المبارك وهو صغير السن، أن يضرب الثعلبي، فحرك العصا ليضربه، فإذا به يقرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فتوقف عن ضربه، وكسر العود، وجاءه التوفيق، فتاب إلى الله تعالى[1].

٤ - وذهب بعض السابقين ليلاً لارتكاب معصية، فسمع قارئاً يقرأ هذه الآية فارتجف، وعاد أدراجه، وهو يقول: بلى والله، قد آن أوان الخشوع لذكر الله، اللهم إني تبت إليك، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام[2].

إِحْيَاءُ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَالإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ

١٧ - ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

ثم بين سبحانه أنه يحيي القلوب القاسية بذكر الله تعالى وأهمها تلاوة القرآن، كما يحيي الأرض القاحلة المجدبة بالمطر، فذِكْرُ الله تعالى يؤثر في القلوب القاسية فيحييها، كما يؤثِّر الغيث في الأرض فتعود مُخْصِبة بعد أن كانت مُجْدِبة، وكذلك القلوب النافرة حين تُقبل على الله تعالى ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر:٢٣].

فيا معشر المؤمنين: اعلموا أن الله تعالى يحيي الأرض الهامدة بالمطر، فيُخرج منها النبات بعد يُبسه، وهذا أمر معلوم، لا يحتاج إلى تصدير الآية بلفظ ﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾ وإنما جيء بهذا التصدير، لبيان أن ما سَيُلْقَى في هذه الآية، جدير بالاهتمام وتوجُّه الذهن إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾ [البقرة:٢٣٥] وكما في قول النبي ﷺ لأبي مسعود البدري ﷺ بعد أن رآه قد لَطَم وجْه عبدٍ له «اعلم

(١) تفسير ابن عطية (٥/٢٦٤).

(٢) تفسير القرطبي (١٧/٢٥١).

أبامسعود، اعلم أبامسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا»[(١)] .

وافتتاح الآية بهذا، إشارة إلى احتياج القلوب المؤمنة إلى ذكر الله تعالى، كاحتياج الأرض إلى الماء، ولذا قال تعالى بعدها ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي وضّحنا لكم الحجج والبراهين الدالة على كمال قوتنا وقدرتنا ووحدانيتنا، لعلكم تتعظون وتعتبرون، فإن الذي أحيا الأرض بعد موتها، قادر على إحياء القلوب الميتة بما أنزله الله على رسوله من الحق، وفي ختام الآية دليل على أن من لم يهتد بآيات الله ويُنفّذ شرائعه لا عقل له ولا خير فيه.

والمقصود من الآية، تعهد النفس بالموعظة، والتذكير بالإقبال على الله تعالى، بين الحين والآخر وتدبُّر كتابه، واللجوء إليه سبحانه، وإلى سنة رسوله ﷺ ففيهما النجاة، وإليهما يفزع المؤمن، كي يعصمه الله من الزلل، كما قال ﷺ «تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي».

وفي الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب، وكانت منها أجادب أمسكت، فنفع الله بها الماء، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تُمسك ماءً ولا تُنبت كلأً، فذلك مَثَل من فقُه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلّم، ومَثَل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به»**[(٢)] .

والله تعالى يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

---

(١) من حديث أبي مسعود الأنصاري في مسند الإمام أحمد برقم (١٧٠٨٧،٢٢٣٥٤) عن عبد الرزاق عن سفيان الثوري، وسنده صحيح على شرط الشيخين، وهو عند عبدالرزاق في المصنف (١٧٩٥٩)، وفي مسلم (١٦٥٩)، والترمذي (١٩٤٨)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح البخاري (٧٩) وصحيح مسلم (٢٢٨٢).

١٨ - ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ[1] وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ[2] لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

وتواصُلاً مع الآية السابقة ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يبين سبحانه وتعالى أن من يتصدق كثيراً بماله من الرجال والنساء، وينفق ماله في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وإعانة الفقراء والمحتاجين، والمساهمة في وجوه الخير والبر، عن طيب نفس، يبتغي بذلك وجه الله، فإن الله تعالى يضاعف له الأجر والمثوبة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ أي المتصدقين المكثرين من الصدقة بفضول أموالهم في وجوه الخير والبر بشرط الإيمان ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالنفقة والصدقة وأعمال البر وكل ما يدخروه عند ربهم ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنة ورضوان الله تعالى.

وعلى قراءة تخفيف الصاد يكون المعنى: إن الذين صدّقوا رسول الله ﷺ فيما يبلغ عن الله تعالى وآمنوا به، والذين أقرضوا الله قرضاً حسناً بالإنفاق في وجوه الخير والبر، يضاعف الله لهم ثواب صدقاتهم، ولهم عند الله تعالى أجر عظيم وثواب جزيل.

ثَوَابُ أَهْلِ الإِيمَانِ وَعِقَابُ أَهْلِ الكُفْرِ

١٩ - ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

اشتملت هذه الآية على ثلاثة أصناف من البشر، هم:

١ - الصديقون، المؤمنون بالله ورسوله. ٢ - والشهداء. ٣ - والكافرون الجاحدون.

وقد بينت الآية السابقة فضل المؤمنين المتصدقين بأموالهم في سبيل الله، ولكن بعض المؤمنين قد لا يجد ما يتصدق به، فبين سبحانه وتعالى في هذه الآية أن الذين

---

(١) قرأ ابن كثير وشعبة بتخفيف الصاد من ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ من التصديق والباقون بالتشديد فيهما من تصدق، والأصل المتصدقين فأدغمت التاء في الصاد.

(٢) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (يضعّف) بتشديد العين وحذف الألف، مضارع ضعّف والباقون (يضاعف) بتخفيف العين وإثبات الألف.

صدّقوا بوجود الله تعالى ووحدانيته، وآمنوا برسوله ﷺ إيماناً راسخاً، لهم درجات عالية عند ربهم، وذلك أن المؤمن قد يكون فقيراً، لا يملك مالاً، ولا يجد ما يتصدق به، ولو كان عنده مالاً لتصدق به، وهو صادق في إيمانه، فهو كامل الإيمان وإن لم يجد ما يتصدق به. وهؤلاء المؤمنون الصادقون في إيمانهم، من الذين لا يجدون ما يتصدقون به من فضول أموالهم، قد فتح الله لهم أبواباً كثيرة للصدقات والحسنات، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كل سُلَامَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس قال: تعدل بين الاثنين صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة، وبكل تسبيحة صدقة، وبكل تحميدة صدقة، وبكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة**»[1].

جاء في بعض الروايات: «**ويجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى**».

ولما اشتكى فقراء الصحابة إلى النبي ﷺ أن الأغنياء قد ذهبوا بالأجر؛ لأنهم يتصدقون وهم لا يجدون ما يتصدقون به، نصحهم النبي ﷺ بالتسبيح والتحميد والتكبير دُبُر كل صلاة.

فقد ذهب فقراء المهاجرين إلى النبي ﷺ يقولون: يارسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، قال: «**أفلا أُعَلِّمكم شيئاً تُدركون به مَنْ سبقكم، وتَسبقون به مَن بَعْدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا مَنْ صنع مثل صنيعكم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فَعَلْنا، ففعلوا مثله، فقال ﷺ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**»[2].

---

(١) صحيح مسلم ١٠٠٩ وصحيح البخاري (٢٧٠٧،٢٨٩١،٢٩٨٩).

(٢) البخاري برقم (٨٤٣) ومسلم برقم (٥٩٥) وهذا لفظه.

ويمثل هذا نصَح النبي ﷺ فاطمة وعليّ رضي الله عنهما لَمَّا طلبا منه خادماً، بعد أن أفاء الله عليه من الفتوحات والغزوات، فأبى ﷺ أن يعطيهما ويترك أهل الصُّفَّة، ونصحهما أن يستعينا على ما يُجْهدهما مِنْ حَمْلِ الحُبوب وطَحْنِها ونحو ذلك، بالتسبيح والتحميد والتكبير عَشْراً عند النوم، فإن في هذا راحة للنفوس، وعلاجاً للأبدان.

وهذا الفضل للمؤمنين بكل الرسل، ولم يؤمن بجميع الرسل إلا أمة محمد ﷺ بخلاف الذين قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء:١٥٠].

والمراد من الإيمان بالرسل في الآية: الإيمان بمحمد ﷺ لأن من يؤمن بمحمد ﷺ يؤمن بجميع الرسل.

واليهود آمنوا بالله وأشرك بعضهم فقال: عزير ابن الله، وآمنوا بموسى عليه السلام، ولكنهم كفروا بعيسى وبمحمد عليهما السلام.

والنصارى أشركوا بالله، وقالوا: عيسى ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو هو الله، وكفروا بمحمد ﷺ.

والمؤمنون حقا هم الذين آمنوا بالله إلهاً واحداً لا شريك له، وآمنوا برسل الله جميعا، وأن كل رسول منهم أدى مهمته في وقته، فسلَّم كل منهم راية الدعوة من السابق للأحق، حيث نَسختْ رسالة عيسى رسالة موسى عليهما السلام، ونَسخَتْ رسالة محمد رسالة عيسى عليهما السلام.

ومن يؤمن برسالةٍ غير رسالة محمد ﷺ في كافة أرجاء العالم من لدن بعثته ﷺ إلى قيام الساعة، فلن يقبل منه هذا الإيمان، وهو من الكافرين، لأن من لم يؤمن بالرسول الخاتم فهو كافر، قد خسر دنياه وأخراه.

ولذا: فقد وُصف المؤمنون بالله ورسوله بالصدق فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ لأنهم لم يشكوا في الرسل حين أخبروهم بل صدَّقوهم تصديقاً كاملاً، وآمنوا بكل رسول جاء في زمانه ومكانه، وآمنوا بخاتم المرسلين والنبيين، والإيمان الذي دل عليه

الكتاب والسنة، هو: قول باللسان وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان، فهو إيمان يجمع بين عمل القلب واللسان والجوارح، ويشمل شرائع الإسلام الظاهرة والباطنة، والذين جمعوا بين هذه الأمور مجتمعة، هم الصديقون، ومرتبتهم فوق مرتبة المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء.

وهؤلاء المؤمنون لهم ثواب جزيل، ولهم نور يسعى بين أيديهم وأيمانهم يوم لقاء رب العالمين، وفي مقدمة المؤمنين من سبقوا غيرهم إلى الدخول في الإسلام أول ظهوره وهم: أبوبكر، وعلي، وزيد، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وحمزة، وعمر رضي الله عنهم أجمعين، والآية عامة في كل مؤمن بالله ورسوله.

والصنف الثاني من المؤمنين في الآية هم الشهداء، قال تعالى مستأنفاً:
﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾:

١- قد يراد بالشهداء في الآية: **الشهداء على الأمم يوم القيامة**، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة:١٤٣] وقال سبحانه: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج:٧٨] ومؤمنوا هذه الأمة، شهداء على الأمم السابقة.

٢- وقد يراد بالشهداء في الآية: **شهداء المعركة الذين قتلوا في سبيل الله**، ولا يتعارض هذا مع ذاك، فالمؤمن يكون صديقا وشهيدا في سبيل الله، ويكون شاهدا يوم القيامة على الناس.

ومرتبة الصديق أعلى من مرتبة الشهيد، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة يتراؤون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراؤون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم**» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم، قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين**»[١].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٢٥٦)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١).

وجاء في الحديث عن ابن مسعود ﷺ «**إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربهم اطّلاعَه فقال: هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركو من أن يُسألوا، قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا إلى أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى**»(١).

والشهداء على درجات، وأعلاهم مقاماً، من قُتل وهو يجاهد العدوّ بنية خالصة لإعلاء كلمة الله ردًّا لِعُدوان، أو إزالةً للعوائق أمام نشر الدعوة، أو نُصْرةً للضعفاء من المسلمين، وكل من الصديقين والشهداء لهم الأجر والنور التام يوم القيامة.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ «**إن في الجنة مئة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله**»(٢).

وهذا يقتضي عُلُوّ منزلتهم ورفعة شأنهم، وقربهم من الله تعالى.

وعن عمرو بنِ مرّةَ الجُهني ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن شهدتُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وأديت الزكاة، وصمت رمضان وقُمْتُه، فَمَنْ أنا؟ فقال: «**من الصديقين الشهداء**»(٣).

ثم ختم الله الآية بالصنف الثالث فيها، المقابل للمؤمنين الصادقين المتصدقين فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا وحدانية الله تعالى، وجحدوا رسالة خاتم الرسل ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على محمد ﷺ والمؤيدة لصدق رسالته ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ

---

(١) صحيح مسلم (١٨٨٧) عن ابن مسعود.

(٢) ابن حبان (٤٦١١، ٧٣٩٠)، وأخرجه أحمد في المسند بأطول من هذا، ورقمه (٨٤١٩، ٨٤٧٤)، قال محققوه: حديث صحيح.

(٣) صحيح ابن حبان (٣٤٣٨) ورواه البزار وابن خزيمة، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٦١)، والبيهقي في موارد الظمآن برقم (١٩) (١/ ٣٦).

ٱلْجَحِيمِ ﴾ في نار جهنم على تفاوت دركاتهم فيها.

وهكذا: جمعت هذه الآية والتي قبلها أصناف الخلق:

١ – المتصدقين، الذين أحسنوا إلى خلق الله.

٢ – والصِّدقين، الذين تميَّزوا بالإيمان والعلم النافع، والعمل الصالح، واليقين الصادق.

٣ – والشهداء، وهم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله بأنفسهم وأموالهم.

٤ – والكفار، أصحاب الجحيم، الذين كذبوا بآيات الله ورسله.

٥ – وفي سورة فاطر: المقتصدون، وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرَّمات وحصل منهم بعض التقصير.

شَهَوَاتُ الدُّنْيَا الثَّمَانِيَةُ وَمَثَلُهَا فِي سُرْعَةِ زَوَالِهَا

٢٠ – ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ[1] ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾

وبعد أن حثَّت الآيات السابقة على الصدقة والإنفاق في سبيل الله، بينت في هذه الآية أن سبب الشح والحرص على المال، هو استبقاؤه لإنفاقه في اللذائذ والشهوات، أو الخوف من الفقر، ولذا فإن الله تعالى حصر شهوات الدنيا ومتاعها في خمس نقاط في هذه الآية، ثم ضرب لها مثلاً لسرعة زوالها، وبيان أن ما عند الله خير وأبقى.

وهذه الأمور الخمسة هي: اللعب في مرحلة الطفولة، واللهو في مرحلة الصبا، والزينة في مرحلة الفتوة، والتفاخر في مرحلة الشباب، والتكاثر في مرحلة الكهولة، وكل مرحلة من هذه المراحل، تستغرق ثماني سنوات من عمر الإنسان، وبتمامها يصل الإنسان إلى سن الأربعين، وهو تمام العقل والرشد واستيفاء الشهوات، ولذا، فإن هذا

---

(١) قرأ شعبة بضم الراء من (رضوان) والباقون بكسرها، وهما لغتان.

السن، كان بداية نزول الوحي على أكثر الأنبياء.

وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية غالب ما يشغل الناس من شؤون الحياة، ولا يخلو منها إلا مَنْ عصمه الله، فكانت أعماله كلها تقوى وإحسان ومنافع وفضائل، ومن الناس من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وقد يمارس الإنسان في كل طور من أطوار حياته ما ذكر في الآية، في حدود المباح والمشروع، فلا يتخلل حياته آثام ولا خطايا.

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ ﴾ أيها الناس ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ تقتصر على الآتي:

أولا: إنها ﴿لَعِبٌ ﴾ واللعب هو: كل قول أو فعل من شأنه المزح والهزل وقضاء الوقت فيما لا فائدة فيه، للترويح عن النفس، وجلْب الفرح والمسرة لها، ومنه المداعبة، وإزالة الوحشة عن النفس.

واللعب هو الغالب على أعمال الأطفال في الطور الأول من أطوار حياتهم، وهو يتفاوت بينهم بحسب رجاحة العقل وضعفه، وقد يكون اللعب بالبدن والأعضاء.

وقد يكون معنى اللعب في الآية: أن يُتْعِب الإنسان نفسه في الدنيا، كما يُتْعبُ الأطفال أنفسهم باللعب، فإنه لا فائدة فيها غير تحصيل الزاد ليوم المعاد.

ثانيا: ﴿وَلَهْوٌ ﴾ اللهو هو: كل قول أو فعل يُقصد به التلذذ، وصرف الألم والحزن أو التعب والنصب عن الإنسان، فيتشاغل به لإلهاء النفس عن الهموم والكآبة.

ويراد باللهو أيضا ما يشغل الإنسان عن طاعة الله تعالى أو عن تحصيل قوته وقوت من يعول أو يُشغله عن العمل للدار الآخرة.

ثالثاً: ﴿وَزِينَةٌ ﴾ الزينة: اسم لما يَتزين به الإنسان في ذاته أو في ملبسه أو مركبه أو مسكنه ونحو ذلك، لتحسين نفسه في أعين الناس، والنساء تهتم بهذا الجانب أكثر من الرجال، ويكثر التزيّن في طَوْرِ ما قبل الزواج، فيحاول كل من الرجل والمرأة تجميل وتحسين ذاته حسياً ومعنوياً، فيتعلم أسلوب الكلام لجذب الآخرين ونحو ذلك.

رابعاً: ﴿ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ ﴾ يكون التفاخر بالأموال والعقار والمناصب والأعمال والأحساب والأنساب، فيتحدث المرء عن محامده، ويبالغ في ذلك، ويحب من الناس أن يذكُروه بالصفات الحميدة.

وقد يتفاخر الأحمق بما هو باطل، مما هو مذموم أو محرم شرعا، وأفحش شيء في ذلك، من يجاهر بالمعصية مفتخراً ومتباهياً بارتكابها.

وقد يفاخر الإنسان غيره بأن يكون هو الغالب في مختلف جوانب الحياة.

خامساً: ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ وذلك في طَوْر الكهولة حيث يحاول الإنسان أن يجمع الأموال، ويبني العقارات، ويكثّر من الذرية، ويكاثر غيره في المال والولد فهي مرحلة تكوين الثروة وتربية الأولاد وتأمين المستقبل كما يقال، ولا يزال يتفانى في ذلك حتى يأتيه الموت ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر:١، ٢].

وقد حصر سبحانه جُلّ متاع الدنيا في هذه الآية: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ۝١٤﴾ [آل عمران:١٤].

فاعلموا – أيها الناس – أن غاية ما في الدنيا من متاع، إنما هو لعب بالأبدان ولهو بالقلوب، وغفلة عن ذكر الله وعن الوعد والوعيد، والغافلون عن ذكر الله هم الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، أما أهل الذكر واليقظة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله تعالى وبمعرفته ومحبته قد شَغلوا أنفسهم بما يقربهم من الله ويسعدهم في دنياهم وأخراهم.

مثل الدنيا في سرعة زوالها:

ثم زجر الله سبحانه الناس عن الركون إلى الحياة الدنيا ركوناً ينسوْن معه فرائض الله تعالى، وينسوْن ما أمرهم به من طاعات أو نهاهم عنه من معاصي، فشبه سبحانه الدنيا في سرعة زوالها، وانقضاء نعيمها، وقلة فائدتها، بحال نبات خرج من الأرض، بعد أن هطلت عليه الأمطار، واستمر في نموّه وبهجته ونُضرته حتى أتى ثماره وأعجب أهله،

ثم اصفرّ هذا النبات واضمحلّ حتى صار حُطاماً هشيماً تذروه الرياح، وهذا معنى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي مطر غزير أصاب أرضاً، فأنبتت وأينعت وآتت أكلها وأُعجب بها أهلها، وهذا معنى ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾.

قال ابن مسعود ﷺ: الكفار: الزُّراع: جمع كافر، وهو الزارع، وسُمُّوا كذلك لأنهم يُكفِّرون الأرض، أي يَحفُرونها ويَضعون البذر فيها، ثم يسترونه بالتراب، والكُفر هو الستر والتغطية، وسمي الكافر بالله كافراً؛ لأنه يستر ويغطي الإيمان الموجود بداخله بمقتضى الميثاق المأخوذ على بني آدم بتوحيد الله تعالى، وهم في أصلاب آبائهم.

وفي تسمية الزراع بالكفار؛ تورية بالكفار بالله تعالى، لأنهم أشد إعجابا بمتاع الدنيا من المؤمنين إذ لا مطمع لهم في الدار الآخرة ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ هذا النبات، فيغلُظ ويشتدّ ويقارب اليبس، ثم يذبل ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد خُضرة ونُضرة ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي يصير النبات يابساً متفتتاً، يتحطم ويتكسر، ويُصبح هشيماً تذروه الرياح، قد جاءها من أمر الله ما جاءها، فعادت إلى حالها الأول، كأنه لم ينبت فيها شيء، ولا رُويتْ بماء، وهكذا الدنيا تزهو وتحلو في أعين أحبابها، ثم لا تلبث أن تنتهي.

وهكذا الإنسان يكون في أول عمره وعنفوان شبابه غضّاً طرياً، ثم يتحول إلى الكهولة، ومنها إلى الشيخوخة، فتتراجع قواه، وتقلّ حركته، وتضعف ذاكرته، ويعجز عما كان يقدر عليه قبل ذلك، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

ثم يرحل الإنسان من الدنيا، صفر اليدين، لم يتزوّد منها سوى بالكفن، وما خرج به مِنْ عمل يلقى به ربه، فتباً لمن كانت الدنيا غايته، فعمل لها وسعى.

أما العمل للآخرة، فهو الذي ينفع العبد ويصحبه في قبره وفي آخرته.

ويعد أن هوّن سبحانه من شأن الدنيا، فبيّن أنها سريعة الزوال، وأن متاعها قليل، حذّر من عذاب الآخرة، لمن اغترّ بالدنيا وانغمس فيها فشغلته عن طاعة الله تعالى وذكْره.

وفي الآية ترغيب لمن أطاع الله واتبع رضاه بالجنة والرضوان، فليس في الآخرة إلا أحد أمرين، إما عذاب شديد، وأغلال وسعير، لمن كانت الدنيا غايته، فكذب بآيات وكفر بأنعمه وإما مغفرة من الله ورضوان لمن عرف حقيقة الدنيا وسعى للآخرة سعيها، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي لمن كفر بالله ففسق عن أمره ولم يؤمن بالنبي الخاتم ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي لمن آمن بالله واليوم الآخر وآمن بخاتم النبيين وعمل صالحاً واتبع ولم يبتدع.

وفي هذا تعبيرعن النعيم الأخروي بقسميه: المادي والمعنوي، فالمغفرة والرضوان أصل النعيم الروحاني كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

وهما يقتضيان النعيم الجسماني.

وفي نهاية الآية، وَصَف الله الدنيا في سرعة انقضائها وزوال متاعها، وبيّن أنها متاع الغرور، الذي ينخدع به الغافل ويغتر به الجاهل ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ لا يغتر بها ويطمئن إليها إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور، وهو الشيطان.

قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغرور، إن ألْهتْك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتْك إلى طلب رضوان الله، وطلب الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة[1].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«موضع سوطٍ في الجنة خير من الدنيا وما فيها»**[2].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لَلْجَنَّةُ أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»**[3].

---

(١) التفسير الكبير (٢٩/٢٣٤).

(٢) من حديث سهل بن بن سعد في البخاري برقم (٦٤٨٨، ٣٢٥٠)، والمسند (١٥٥٦٤) وغيره بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والطبراني في الكبير (٥٩١٧)، وأبو يعلى (٧٥١٤).

(٣) البخاري برقم (٦٤١٥، ٦٤٨٨) والمسند (١/٣٨٧) برقم (٤٢١٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أبو يعلى (٥٢١١)، وابن حبان (٦٦١).

وُجُوبُ المُسَارَعَةِ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى

٢١ - ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

ولما هوّن الله تعالى من شأن الدنيا، وعظّم أمر الآخرة، حث على المسارعة إلى نَيْل مرضاة الله سبحانه، والمسابقة إلى مغفرة الله وجنته ورضوانه، لأنها سبب السعادة الأبدية في دار الخلود، فقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سابقوا - أيها الناس - في السعي إلى أسباب المغفرة: من التوبة النصوح، والابتعاد عن المعاصي، وأداء الفرائض، والإكثار من النوافل، والأعمال الصالحة، ولا تكونوا من المغترين بالدنيا، اللاهثين وراءها، غير القائمين بما كلفهم الله به من أعمال أو ندَبهم إليها.

ومن المسارعة إلى الخيرات: أداء الصلوات في أول وقتها، وإدراك الصف الأول في الصلاة، والتواجد في الروضة التي خلف الإمام، وتكبيرة الإحرام مع الإمام، وأن يكون المرء أول داخل إلى المسجد وآخر خارج منه، وأن يكون في الصف الأول في جهاد العدو، وأول المتصدقين، وأول الساعين إلى الخير والصلح بين الناس، وأول المحافظين على وقت العمل، واجتناب المال الحرام وما إلى ذلك.

قال ابن عطية: وهذه الآية حجة عند جميع العلماء في الندب إلى الطاعات[(١)].

فتنافسوا في أسباب المغفرة - أيها المسلمون - وسارعوا إلى رضوان الله تعالى ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا مبالغة في وصف سعة الجنة، فهي واسعة فسيحة، وقد نص القرآن على عرض الجنة، تنبيهاً على أن الطُّول أضعاف ذلك، والمراد بالعرض سعة الجنة، والتشبيه بأقصى ما يتصوره الإنسان من الاتساع.

قال الفخر الرازي: المراد، لو جُعلت السموات والأرضون طبقاً طبقاً، لكان ذلك

(١) تفسير ابن عطية (١٥/٢٦٧).

مثل عرض الجنة، وهذا غاية في السعة لا يعلمها إلا الله [(١)].

وروى الإمام أحمد أن هرقل - ملك الروم - كتب إلى النبي ﷺ فقال: (إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟) فقال ﷺ: **«سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار»** [(٢)].

قال مجاهد والسدي (إن السموات السبع في الكرسي كالدرهم في الفلاة، وإن الكرسي في العرش كالدرهم في الفلاة) [(٣)].

وهذه الجنة مُعدة للذين وحدوا الله تعالى، واتبعوا رسوله ﷺ وأقاموا أصول الدين وفروعه، فقد ﴿أُعِدَّتْ﴾ هذه الجنة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ ودخول الجنة محض فضل من الله تعالى يعطيه من يشاء، فلن يدخل الجنة أحد بعمله، وإنما يدخلها بفضل الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي بينّاه لكم من الطرق الموصلة إلى جنة الله، المبعدة عن ناره ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ وفضل الله تعالى بالثواب الجزيل والأجر العظيم، من أكبر ما يمتن الله تعالى به على عباده ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٣] وقوله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لن يُدخل أحد منكم الجنة عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمته»** [(٤)].

---

(١) التفسير الكبير (٩/٤).

(٢) أخرجه أحمد في المسند عن التنوخي برقم (١٥٦٥٥) في حديث طويل بإسناد ضعيف، وهو في مجمع الزوائد (٨/ ٢٣٤)، وقال: رواه عبدالله بن أحمد وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبدالله بن أحمد كذلك.

(٣) ينظر تفسير سعيد بن منصور (٤٢٥)، وأبوالشيخ (٢٥٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٣)، والطبري (٥٣٨/٤)، وابن أبي حاتم (٢٦٠٣).

(٤) البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦).

كلُّ ما يحدُثُ في العَالَمِ سَبَقَ به عِلْمُ اللهِ تَعَالَى

٢٢، ٢٣ - ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ [1] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ [2] وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾

ولما قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ كان في هذا إشارة إلى أن كل ما يحدث في الدنيا من استشهاد في سبيل الله، وابتلاء في الأنفس والأموال والثمرات، وقَتْلٍ وأسْر، ومَرضٍ وجائحة وهزيمة، وكل ما يصيب الإنسان من مصيبة صغيرة أو كبيرة في دينه أو دنياه، فهو بقوةٍ قاهرة خارجة عن نطاق قدرة الإنسان وكسْبه، ولكن هذا الكون يسير وفق نظامٍ محكم دقيق، ترتبط فيه الأسباب بالمسببات.

﴿مَآ أَصَابَ﴾ أي ما أصابكم أيها الناس ﴿مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالقحط والهزيمة والزلازل والبراكين وتلف الأموال والأنعام والثمار ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ مما يتعلق بذات الإنسان كالجوع والمرض والأسر، والأسقام وضيق العيش، وقطع الأعضاء، والموت، والفقر، وذهاب الأولاد، وغير ذلك ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي إلا وهو في قضاء الله وقدره مكتوب في اللوح المحفوظ، معلوم عند الله تعالى من قبل أن تُخْلق الأنفس، فكل الأمور مقدرة في الأزل، وهي مدونة في أم الكتاب من قبل أن تكون، وهذا شامل لعموم ما يصيب الخلق من خير أو شر، صغيرة أو كبيرة، ولا سبيل لدفعها أو منعها، بل لابد من نفوذها ووقوعها.

وعلى هذا فلا يجوز التطير أو التشاؤم، ونسبة ما ينزل بالإنسان من محن وبلايا إلى غير الله تعالى، كمن يتشاءم من المسكن الجديد، أو من المرأة، أو من السيارة، أو من

---

(١) قرأ ورش وأبوجعفر وأبوعمرو بخلْف عنه بإبدال همزة ﴿تَأْسَوْا﴾ ألفاً وصلا ووقفاً وحمزة وقفاً، وحققها باقي القراء.

(٢) قرأ أبوعمرو بقصر همزة ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الإتيان أي بما جاءكم، وقرأ الباقون بالمد من الإيتاء أي بما أعطاكم.

الوظيفة، أو من فلان أو فلانة ونحو ذلك، فكل شيء يحدث بإذن الله تعالى.

كما جاء في الحديث عن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**»[١].

وروى الطبري بسنده، أن الحسن ﷺ سئل عن هذه الآية فقال: (سبحان الله، ومن يشك في هذا؟ كل مصيبة بين السماء والأرض، ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النّسمة)[٢].

وقال قتادة: بلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود، ولا نكبة قدم، ولا خلجة عرق إلا بذنب، وما يعفو عنه الله أكثر[٣].

وعلم ما كان وما يكون أمر سهل على الله تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان عسيراً على العباد، وقدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، وعلمه لا يغيب عنه شيء.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة].

ويقول جل شأنه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن:١١].

ثم بيّن سبحانه وتعالى الحكمة في أن كل ما يصيب الإنسان إنما هو بقضاء الله وقدره، وذلك حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من حظوظ الدنيا، ولا تجزعوا لما أصابكم من محن وابتلاءات، فيوطّن الإنسان نفسه على ذلك، ويعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

---

(١) من حديث عمرو بن العاص وأبي هاني في مسلم برقم: ٢٦٥٣ والمسند ١٦٩/٢ والترمذي برقم: ٢١٥٦ وقال: حسن صحيح.

(٢) تفسير الطبري (١٣٥/٢٧) والبيهقي (٩٧٧٠).

(٣) تفسير القرطبي (١٥٨/١٧).

وقد أعلَمنا الله سبحانه بذلك حتى لا نفرح فرَح بطر وأشر عندما تقبل علينا الدنيا، فإن ما فيها من حظوظ سيزول عن قريب، وكل شيء يزول لا يستحق الفرح ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ مما طمحت له أنفسكم وتشوقتم إليه من زخرف الدنيا ومتاعها ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ فرح أشر وبطر، والأسى أو الحزن العادي هو من من طبيعة الإنسان، يعتريه عندما تحلّ به نكبة، أو يفوته شيء من نعيم الدنيا، وليس هذا هو الحزن المقصود في الآية، إنما المراد: الحزن الشديد الذي يصيب صاحبه باليأس والقنوط، إلا المؤمن صادق الإيمان، فإنه يرضى ويسلّم، ولا يجزع ولا يهلع، كما ورد في الحديث: «**إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا**»[1].

كما أن السرور الذي يعتري الإنسان عندما تحل به نعمة، أو تُرفع عنه نقمة، هو من طبيعة الإنسان، وليس فيه إثم، وإنما الفرح المذموم هو الذي يحمل صاحبه على الطغيان والتكبر وعدم شكر النعمة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمته شكراً، فلا تحزنوا حزناً يهلككم، ولا تفرحوا فرحاً يطغيكم.

قال بعض العارفين: من عرف سرّ الله في القَدر هانت عليه المصائب.

وقال عمر ﷺ: ما أصابتني من مصيبة إلا وجدتُ فيها ثلاث نعم:

الأولى: أنها لم تكن في ديني.

الثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت.

الثالثة: أن الله يعطي عليها الثواب العظيم، والأجر الكبير.

قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة].

وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**وما يصيب المؤمن من نصب**

---

(١) من حديث أنس بن مالك في البخاري (١٢٤١).

ولا وصب ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه»[١].

وإذا علم الإنسان أن ما هو فيه من منصب أو جاه أو مال، هو أمر زائل لا محالة، وصائر إلى غيره، قلّ جزعه عند فقده، ومَنْ علم أنه لن يفوته شيء من رزقه وأجله بحال من الأحوال، قلّ فرحُه ولم يتعال على الناس.

وفي الحديث عن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[٢].

وما في قضاء الله تعالى وقدره هو من باب الغيب قبل أن يحدُث، فهو مجهول للإنسان، وبالتالي وجب عليه أن يطرق الأسباب ويأخذ بها، فلا ينتظر رِزْقاً بدون سعي، ولا ينتظر نجاحاً بدون مذاكرة، ولا ينتظر نصراً على العدو بدون إعداد العدة، وهكذا، فقد ربط الله الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات، وكله مقدر، وكله معلوم عند رب العالمين، فهو خالق السبب والمسبب، وهو الآمر ببذل السبب للحصول على نتيجته، وكلّ ميسر لما خُلق له، وقد كتب الله الأمور كلها في الأزل، ولا يقع في ملك الله تعالى إلا ما يريد، وكل شيء بحول الله وقوته.

ثم ذم الله تعالى كل طاغية متكبر فظ غليظ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي لا يحب كل متكبر في الدنيا بما أوتي، ينسب الفضل إلى نفسه، معجب بما أعطاه الله، فخور به على الناس، مختال في نفسه، وكل مَنْ فرح بحظوظ الدنيا وعظمت في نفسه، فقد اختال وافتخر بها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ

---

(١) ينظر: البخاري (٥٦٤١) ومسلم (٢٥٧٣) والترمذي (٩٦٦) والمسند (١١٠٠٧،١١٣٣٦) بلفظ مقارب، قال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن إسحاق، وجاء أيضاً عن عائشة (٢٤١١٤) وأخرجه ابن حبان (٢٩٠٦) وسنن النسائي الكبرى (٧٤٤٣-٧٤٤٧).

(٢) صحيح مسلم (٢٩٩٩).

﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر: ٤٩].

أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن قزعة، قال: رأيتُ عَلَى ابن عمر، ثياباً خشنة، فقلت يا أبا عبد الرحمن: إني قد أتيتك بثوب ليّن مما يُصنع بخراسان، وتقرّ عيني أن أراه عليك، فإن عليك ثياباً خشنة، قال: إني أخاف أن ألبس فأكون مختالا فخورا، والله لا يحب كل مختال فخور[1].

وَصْفُ الْمُخْتَالِ الْفَخُورِ

٢٤- ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ[2] ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ[3] ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

وصف الله سبحانه أهل الفخر والخيلاء، فبيّن أنهم إذا رُزقوا مالاً أو جاهاً، ضنُّوا به على الناس، فلا ينفقون منه شيئاً في سبيل الله، ولا في وجوه الخير والبر، وهذا من علامات النفاق، ثم إنهم لم يكتفوا بذلك، بل إنهم يحرّضون الناس على البخل، فجمعوا بين أمرين ذميمين وهما: منع الحقوق الواجبة، وأمر الناس بذلك، فلم يكتفوا ببخلهم بل حثوا الآخرين بقولهم وفعلهم على البخل، فهم ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله تعالى، ويُعْرِض عن الإنفاق في سبيل الله، فإنه لن يضر الله شيئا، ولن يضر إلا نفسه، لأنه سبحانه الغني عن خلقه، المستحق للحمد على نعمه وآلائه، وهو جل شأنه الموصوف بكل وَصْفٍ حسن وفِعلٍ جميل ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي الغني عن العبد وعن إنفاقه للمال والمتاع، وهو سبحانه المحمود في ذاته وصفاته، لا يضره الإعراض عن شكره، ولا تنفعه طاعة الطائعين، وهو الذي أغنى

---

(١) عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (ص ١٩٢).

(٢) قرأ حمزة وخلف بفتح الباء من (البخل) والباقون بضم الباء وإسكان الخاء وهما لغتان.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وأبوجعفر بحذف (هو)، وخبر (إن) الغنى، وقرأ الباقون بإثبات (هو) على أنه ضمير الفصل بين الاسم والخبر، وكُلًا من القراءتين موافقة لرسم المصحف، فقد حُذِف لفظ (هو) من المصحف المدني والشامي وثبت في غيرهما.

عباده، وهو المستحق للحمد دون سواه.

وقد زادت آية سورة النساء وصفاً ثالثاً يتعلق باليهود وهو أنهم كما قال تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من أوصاف النبي ﷺ في التوراة، فهم ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء:٣٧] قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨].

تَقُومُ الدَّعْوَةُ: عَلَى التَّعَالِيمِ الإِلَهِيَّةِ وَالْقُوَّةِ الَّتِي تَدْعَمُهَا مَادِياً وَمَعْنَوِياً

٢٥- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا[1] بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

ثم بين سبحانه وتعالى أنه لا عذر للذين تولوْا وأعرضوا عن طاعة الله سبحانه، فقد أرسل إليهم الرسل في كل زمان ومكان، وأنزل معهم الكتب ليبيّنُوا للناس مافيه سعادتهم ومافيه شقاؤهم.

وما جاء به محمد ﷺ هو الذي جاءت به الرسل جميعا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي والله لقد بعثنا رسلنا بالحجج الواضحات الدالة على صدق ما جاؤوا به، وعلى أنهم يبلغون للناس رسالات الله، ومن البراهين الساطعة التي أيدهم الله بها: المعجزات الدالة على صدقهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [آل عمران:١٨٣].

ثم بين سبحانه أنه أقام الإسلام على أمرين هما: القوة المعنوية، والقوة المادية، وتتمثل القوة المعنوية في التشريع الإلهي القائم على الحق والعدل المعبر عنه بالميزان، وتتمثل القوة المادية في السلاح الرادع لمن يقف في وجه الدعوة:

الأمر الأول: جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي أنزلنا جنس

---

(١) قرأ أبوعمرو بإسكان السين من ﴿رُسُلَنَا﴾ والباقون بضمها.

الكتب السماوية بالتوحيد والأحكام والشرائع التي فيها سعادة البشر وهدايتهم، وما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

وأنزلنا مع الرسل: الميزان، أي الحكم بالعدل بين الخلائق، والعدل في الأقوال والأفعال، ليتعامل به الناس فيما شجر بينهم بالعدل، وهذا معنى ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالحق والعدل في معاملاتهم.

وقد عبر القرآن عن العدل، والقوانين الإلهية التي يُحكم بها بين الناس بالميزان، لأن الميزان شعار الحق والعدل، والدين كله عدل في أوامره ونواهيه، ومعاملاته وحدوده وتعزيراته وجناياته.

فقد أخرج الطبري عن قتادة بسند حسن أن المراد بالميزان: العدل، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٧] أي وضع للناس الحق والعدل الذي جاءت به الرسل وشهدت به الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]. وهذا يدل على أن الرسل متفقون في القواعد الكلية، ومنها القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل بحسب الأزمنة والأحوال.

وإذا فُسر الميزان بالآلة المعروفة، أي ميزان حقيقي، فإن المعنى يرجع أيضا إلى تحقيق العدل المادي والمعنوي بين الناس، حتى لا يظلم بعضهم بعضا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨] وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥].

فإنزال الكتاب لتبليغ مراد الله تعالى إلى خلقه بواسطة الرسل.

وإنزال الميزان لتبليغ الأمر بالعدل وتحقيقه بين الناس.

وبالعدل تنتظم أمور البشر وتصلح أحوالهم، وتستقيم أمورهم، وهذا الميزان أو هذا العدل، تُبيّنه كتب الله المنزلة على رسله، ليحكموا به بين الناس.

والقسط أعم من العدل، لأن العدل يكون بين متنازعين أو متخاصمين، أما القسط فهو العدل العام في جميع الأمور، وإجراء أمور الناس جميعاً على ما يقتضيه الحق.

الأمر الثاني: الذي قام عليه الإسلام هو استعمال القوة لردع الباطل، وهي المشار إليها في الآية بإنزال الحديد وما فيه من بأس شديد، وهذا يكون بعد إخفاق نجاح الدعوة بالحجة والبيان، وهو ردْع المعارضين عن طريق قتالهم، لإزالة العقبات من وجه الدعوة، بعد أن أصر الناس على الكفر وتكذيب الرسل، مع وجود الكتب الإلهية، وفيها الحُكْم بين الناس بما في هذه الكتب من العدل والقسط.

في الحديد منفعتان: البأس الشديد ومنافع للناس:

ومن هنا كان خلْق الحديد وإيجاده وتهيئته للناس، لاستخدامه في السلم والحرب معاً، والانتفاع به في النشاط المدني والعسكري، وسيلة للردع عن طريق صنع السلاح من المدافع والدبابات والطائرات والصواريخ والقنابل وما إلى ذلك، بالإضافة إلى المنافع الكثيرة للحديد في حياة الناس، لإقامة معاشهم في المباني والمصانع وآلات الزراعة والأواني والتجارة والمعادن ونحوها، هذا معنى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أي خلقناه وذلَّلناه لبني آدم ليردع به المؤمنون الكافرين المعتدين، وينتفعوا به في حياتهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل آدم من الجنة ومعه السنْدان والكلْبتان والميقعة[1] أي المطرقة.

وقال ابن عطية: قال حذاق المفسرين: أراد بالحديد السلاح، أي أن الله تعالى أنزل كُتباً وعدْلاً مشروعاً، وسلاحاً يحارب به من لم يهتد بهدى الله تعالى.

وهذا الإنزال كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦] أي خلقها الله تعالى لنا وأوجدها، وكذلك الحديد خلقه الله لنا لننتفع به في السلم والحرب.

ولما كانت الأحكام تُتلقَّى من السماء وكان الخلق والإيجاد يأتي أيضاً من قبل السماء، سُمّي هذا ونحوه نزولاً.

وهذا الحديد ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فيه قوة البطش، وإيقاع الضرر بمن حادّ الله

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٢٦٩) ونسبه ابن كثير إلى ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس (٨/٦٨).

ورسوله، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] وقال سبحانه: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤] وقال جل شأنه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد:٤].

وإلى جوار البأس الشديد فإن فيه ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في معايشهم، كالقدُّوم والفأس والمنشار ونحو ذلك، وفي صناعة المعادن يقول تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ [الرعد:١٧].

وفي ذكر البأس والمنافع، إشارة إلى أن استخدام الحديد في البأس لا يكون إلا في موضعه، حيث لا يوجد حلّ سواه، واستخدامه في المنافع يكون حيث تكون الحاجة، ولا يُساء استخدامه في غير موضعه، فلا يُستخدم ظُلماً، ولا لترويع الآمنين، ولا لقطع الطريق، ولا للثورة على أهل العدل، وإنما يُستخدم لتجهيز الجيوش، وحماية الأوطان من أهل العدوان، وتأديب من يصدون الناس عن دين الله.

فمعنى الآية: أن الله تعالى أرسل الرسل، وزوّدهم بالكتب، وأيدهم بالمعجزات، ووضع لهم الأحكام العادلة، كي يهتدي بها الناس إلى ما يسعدهم في دينهم ودنياهم، وإلى جوار ذلك فقد زوّدهم بالقوة المادية الرادعة، لحماية الحق الذي جاؤوا به، ولرد كيد المعتدين، وتخويف من يريد الاعتداء عليه، وفسح الطريق أمام نشر الدعوة في العالم.

وقد أقام النبي ﷺ ثلاثة عشر سنة بمكة، يدعو الناس إلى التوحيد بالبيان والحجة، ولَمّا لم تُفد الدعوة بمكة، شرع الله له الهجرة، وأذن له في قتال المشركين ردًّا للعدوان.

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجَعَل رزقي تحت ظل رمحي، وجَعَل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[1].

---

(١) المسند (٢/٥٠) برقم (٥١١٥،٥٦٦٧)، بإسناد ضعيف (محققوه)، وسنن أبي داود برقم (٤٠٣١)، والبيهقي في الشعب (١١٩٩)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٣).

فهل وعى المسلمون هذا الدرس، فأعدوا أنفسهم للقاء عدوهم؟ إن المسلمين لا ينقصهم شيئا حتى يكونوا أقوى قوة في العالم، فالمال فيهم موجود، ولكنه يساء استخدامه، ويوجه في غير وجهته الصحيحة، والعلم فيهم موجود، ولكنه مهاجر إلى الغرب، والعقل المسلم موجود ولكن الآخر هو الذي ينتفع به! ولا يمكن لنا النصر على عدونا إلا إذا صنّعْنا الطائرة والصاروخ والدبابة وسائر الآلات الحربية بأنفسنا، وطالما نحن عالة على غيرنا في آلة الحرب، فكيف ننتصر عليهم، وهم الذين باعوا لنا الأسلحة وعرفوا مداها، ومقدار صلاحيتها، وكيفية استعمالها، وما هو السلاح الأقوى منها!!

إن اليهود في العالم عددهم أقل من عدد سوريا، وهم مع ذلك يريدون الاستيلاء على مقدرات العالم الإسلامي، الذي يبلغ نحو ربع سكان العالم! وأتْباع الملل الأخرى من كتابيّين ووثنيّين يجتاحوننا في مواطن كثيرة، فهل الذين نزلت عليهم سورة الحديد يشعرون بما تقول؟

وبعد أن ذكر الله سبحانه أنه قد خلَق الحديد لمنفعتين هما: البأس الشديد، ومنافع للناس، وضّح في نهاية الآية، الغرض الأهم من خلْق الحديد، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ والواو حرف عطف على محذوف مقدر، أي وأنزلنا الحديد ليقاتل به المؤمنون أعداء الإسلام، ويجاهدوا لأجل إعلاء كلمة الله، ليعلم الله من ينصر دينه ورسله، وهو يؤمن بالغيب، فهم ينصرون ربهم مع أنهم لا يبصرونه، إيماناً منهم بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، وفي وجود الحديد بين يدي الناس، امتحان لهم بما أنزله الله من الكتاب والحديد، ليتبين من ينصر الله تعالى وينصر رسله حال الغيب دون الشهادة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ قادر على الانتقام من أعدائه دون حرب ولا قتال، ومن قوته أنه قادر على الانتصار من أعدائه ولكنه يبتلي أولياءه بأعدائه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُقهر ولا يُغلب، فهو غني بقوته وعزته عن كل مخلوق، وهو قادر على إهلاك من يريد إهلاكه ولا يفتقر إلى نُصرة أحد، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به ويُثابوا عليه، وقد قرن الله بين الكتاب

والحديد، لأن بهما ينصر الله دينه ويُعلى كلمته، ففي الكتاب الحجة والبرهان، وفي الحديد السيف الناصر بإذن الله، والعدل والقسط في كليهما.

شَيْخُ الرُّسُلِ وَأَبُوهُمْ

٢٦- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ[١] وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ[٢] وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولما تحدثت الآية السابقة عن رسل الله جميعاً، خصّت من بينهم في هذه الآية، أول رسل الله، وشيخ الأنبياء، نوحاً عليه السلام، وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فبيّن سبحانه أنه جعل في ذريتهما النبوة والكتاب ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ إلى قومهما كما قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء:٣] وقال تعالى عن إبراهيم ﷺ: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [العنكبوت:٢٧] وقال سبحانه عن نوح وإبراهيم معاً عليهما السلام: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ ﴾ كهود وصالح وإسماعيل وشعيب ويعقوب عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي وأنزلنا عليهم كتباً، كصحف إبراهيم وموسى، ووصايا إسماعيل وإسحاق، والتوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، والزبور الذي نزل على داود، عليهم جميعا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وكما جعل الله في ذريتهما النبوة والكتاب، جعل من ذريتهما من اهتدى إلى الحق، فامتثل أمر الله تعالى واجتنب نهيه، وكثير من ذريتهما خارج عن الهداية، منغمس في الكفر والضلال، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ومن ذرية نوح: عاد وثمود وقوم لوط وأهل اليمن، والأوس والخزرج، ومن ذرية إبراهيم: مدين والحجاز وتهامة ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات:١١٣].

---

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهام) بالألف والباقون ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ بالياء وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

(٢) قرأ نافع بالهمز بعد الواو في ﴿ ٱلنُّبُوَّةَ ﴾ والباقون بواو مشددة.

رِسَالَةُ عِيسَى وَرَهْبَانِيَّةُ النَّصَارَى

٢٧- ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ[1] وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً[2] وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

أي وبعد نوح وإبراهيم، أتبعناهما برسل كثيرين، أرسلناهم بالهدى ودين الحق، وأيدناهم بالدلائل الواضحة والحجج البينة، ومن هؤلاء الرسل، صلوات الله عليهم: موسى، وإلياس، وداود، وسليمان، وأيوب، واليسع، ويونس، وكانت رسالة يونس في أول القرن الثامن قبل الميلاد.

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا ﴾ أي أتبعنا كل رسول من ذرية نوح وإبراهيم برسول آخر، حتى انتهينا إلى آخر رسول من بني إسرائيل قبل الرسالة الخاتمة، وهو عيسى عليه السلام، وكان بينه وبين يونس بن متّى وهو آخر رسول قبل عيسى، ثمانية قرون، ولذلك فإن عيسى لم يدخل في جملة ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ التي تدل على قرب الوقت بين الرسولين، ولذا أفرد بالذكر لبعد الوقت بينه وبين آخر نبي قبله ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي أوحينا إلى عيسى بالإنجيل ليكون هداية لقومه، وهو مشتمل على البشارة ببعثة محمد ﷺ.

والإنجيل هو الوحي الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام، وكتبه الحواريون في أثناء ذكر سيرته، كتبوه أناجيل متعددة، ثم دخل عليها التحريف في وقت لاحق ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أي جعلنا أتباع تعاليم الإنجيل يتخلّقون

---

(١) عد البصري وحده ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ آية، وتركه من العدد الجمهور.

(٢) قرأ ابن كثير بخلف عن البزي بفتح همزة ﴿رَأْفَةً﴾ والباقون بإسكانها ومعهم البزي في الوجه الثاني، وهما لغتان في المصدر، وأبدل همزتها ألفاً الأصبهاني وأبوجعفر وأبوعمرو بخلف عنه وصلا ووقفا، ومثلهم حمزة وقفاً.

بالرأفة، وهي اللين وخفض الجناح، والرحمة، وهي العطف والشفقة، بمعنى محبة بعضهم لبعض وتوادهم فيما بينهم، كما وصف الله أمة محمد ﷺ بأنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح:٢٩].

الرَّهْبنة:

ثم قال تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ خُصَّت الرهبانية بالابتداع، لأن الرأفة والرحمة من أعمال القلوب، أما الرهبانية فهي من أفعال البدن، مع شيء من أعمال القلب.

والرهبانية هي: المبالغة في العبادة، وقد ذم الله هذه المبالغة لأنهم ابتدعوها من عند أنفسهم، وألزموا أنفسهم بما لم يُلزمهم به الله، يقصدون بذلك رضى الله، ولكنهم لم يقوموا بما ألزموا به أنفسهم، فذمهم الله لأمرين هما: ابتداعهم في الدين، وعدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم، وهذا معنى ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

وقد وصف الله أتباع عيسى عليه السلام بالرأفة والرحمة، فهم ألين من اليهود ومن الوثنيين، وشريعة عيسى أقرب الشرائع إلى الإسلام من الناحية الزمنية، لولا كفرهم بمحمد ﷺ، وقولهم: عيسى ابن الله، أو هو الله، أو أنه ثالث ثلاثة، واليهود أشد وأقسى.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾.

قال قتادة: هاتان (الرحمة والرأفة) من الله، والرهبانية ابتدعها قوم من أنفسهم ولم تكتب عليهم، ولكن ابتغوا بها رضوان الله فما رعوها حق رعايتها[1].

والراهب هو: العابد من النصارى المنقطع للعبادة، وسُمي راهباً: لأنه شديد الخوف من غضب الله تعالى وشديد الخوف من مخالفة دين النصارى.

من مظاهر الرهبانية:

١ - وقد أرادوا بالرهبنة: التشبه بعيسى عليه السلام في ترك الزاوج والزهد في الدنيا، ولذا قال تعالى: ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ أي أحدثوها وليست من شريعة عيسى، أما عدم زواج عيسى

(١) أخرجه الطبري بإسناد حسن.

عليه السلام فهو لحكمة أخرى أرادها الله تعالى، وعدم الزواج ليس من شأن الأنبياء.

٢ - ومن لوازم الرهبانية: العزلة عن الناس، حتى لا يُشغَل عن العبادة، وذلك بسكنى الصوامع والأذيرة.

٣ - ومن لوازم الرهبانية: ترك الزواج حتى لا تشغله زوجته عن عبادته.

٤ - ومن ذلك الامتناع عن مخالطة الأصحاب خشية اللهو عن العبادة.

٥ - ومن الرهبنة ترك لذائذ المآكل والملابس خشية اكتساب المال الحرام.

٦ - ومنها الاعتزال في الجبال والكهوف والغيران والأذيرة خوفاً من الفتنة.

وهذه الرهبانية لم يكتبها الله عليهم، ولكنهم هم الذين أحدثوها بعد رسولهم، فقد أحدثها القُسس والرُّهبان، فألزموا بها أنفسهم، وابتغوا بها وجه الله تعالى.

ولما لم يحافظوا على ما ألزموا به أنفسهم، وصارت الديانة عندهم طقوساً خالية من العبادة الحقة، ذمهم الله تعالى، لأنهم بدّلوا وغيّروا ولم يراعوا العبادة حق رعايتها.

والمعنى: أنهم ابتدعوا رهبانية بالغلو في العبادة، ما فرضناها عليهم، بل هم الذين اختاروها والتزموا بها من تلقاء أنفسهم، وقصدوا بذلك رضا الله تعالى عنهم.

فالله تعالى لم يكتبها عليهم ابتداء، ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله تعالى، بأن يُراعوا حقوقها ويحافظوا على مقتضياتها، وهذا شأن النذْر، فمن ألزم نفسه بشيء نَذره لزمه أن يفي به كما نذر.

دخل سهل بن أمامة هو وأبوه على أنس بن مالك في المدينة، زمان عمر بن عبد العزيز، وهو أمير المدينة، فإذا هو يصلي صلاة خفيفة، دقيقة، كأنها صلاة مسافر، أو قريباً منها، فلما سلّم، قال أبي: يرحمك الله، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة، أو شيء تنفّلته؟ قال: إنها المكتوبة، وإنها لصلاة رسول الله، ما أخطأتُ، إلا شيئاً سهوتُ عنه، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تشدِّدُوا على أنفسكم فيُشدَّد عليكم، فإنّ قوما

شدّدُوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار»[1].

والاستثناء في ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع، بمعنى: ما فرضناها عليهم رأساً، ولكنهم ألزموا بها أنفسهم ابتغاء رضوان الله.

ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً بمعنى: ما فرضناها عليهم لشيء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله تعالى، ويثابوا عليها.

والفرق بين الوجهين: أن الأول يقتضي أنهم لم يؤمروا بها أصلاً.

والثاني: يقتضي أنهم أمروا بها ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها[2].

وقال ابن عطية: ما كتبناها عليهم إلا في عموم المندوبات، لأن ابتغاء رضوان الله تعالى بالقُرَب والنوافل، مكتوب على كل أمة، والاستثناء على هذا متصل[3].

وعلى كل حال، فإن النصارى بمرور الأيام، لم يحافظ كثير منهم على ما تقتضيه الرهبانية من زهد وطُهر وتُقىً وعفاف، بل صارت الديانة عندهم طقوساً خالية من العبادة الصحيحة، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم، وهذا معنى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ بل قصّروا فيما ألزموا أنفسهم به، ثم بدّلوا وغيّروا دين الله، فلم يحفظوا حق الرهبانية حفظاً كاملاً، بل ضيعوها وضموا إليها التثليث، والاتحاد والحلول، وكفروا بالتوحيد الذي جاء به عيسى، ودخلوا في دين ملوكهم، وأقام أناس منهم على دين عيسى عليه السلام، ومنهم من أدرك محمداً ﷺ فآمن به.

قال ابن كثير: وهذا ذم لهم من وجهين:

أحدهما: الابتداع في دين الله تعالى ما لم يأمر به.

---

(١) أبوداود برقم (٤٩٠٤)، والضياء المقدس في المختارة برقم (٢١٧٨) عن عبد الله بن وهب، قال محققه: وإسناده حسن، وهو في مسند أبي يعلى (٣٦٥/٦) برقم (٣٦٩٤)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (١٠٤٩)، والسلسلة الضعيفة (٣٤٦٨).

(٢) تفسير الألوسي (١٩١/٢٧) بتصرف.

(٣) تفسير ابن عطية (٢٧٠/٥).

وثانيهما: عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله تعالى[١].

وكان أتباع عيسى فريقين: فريق استمر على الإيمان الصحيح، فلم يبدل ولم يغير وهؤلاء يؤتَوْن أجرهم مرتين، ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾ وهم الذين ثبتوا على التوحيد الذي جاء به عيسى، وماتوا عليه قبل رسالة محمد ﷺ أو أنهم أدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به أيضاً.

أما الفريق الآخر فقد قال الله فيه: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ وهم الذين غيّروا وبدّلوا فأشركوا بالله سبحانه، ولم يراعوا الرهبانية كما ينبغي، بل خرجوا عن الدين الحق، الذي جاءهم به عيسى عليه السلام.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، قال: سألتُ عما سألتَ عنه رسول الله ﷺ من قبلك فقال: «**أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكر لك في الأرض**»[٢].

أَجْرُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

٢٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾

المؤمنون في هذه الآية، إما أن يراد بهم: مؤمنوا هذه الأمة، أو المؤمنين بعيسى وموسى عليهما السلام، وذلك لأن لفظ ﴿ءَامَنُواْ﴾ له معنى خاص، وهو أن يكون المراد به: المؤمنون بمحمد ﷺ، وله معنى لُغوي عام، يطلق على كل من آمن برسول من رسل الله تعالى زمن سالته.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٩).

(٢) المسند (٣/٨٢) برقم (١١٧٧) بإسناد ضعيف، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٢١٥) رجاله أحمد ثقات، ورواه ابن حبان عن أبي ذر (٣٦١).

ولما وقعت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ بعد قوله تعالى ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ والمراد بهم في آية الرهبنة: الذين آمنوا بعيسى عليه السلام، كان المراد بالذين آمنوا في هذه الآية التي بعدها: هم أهل الكتاب عموماً.

فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا بعيسى وموسى وعملوا بشريعته: اتقوا الله واخشوا عقابه، وآمنوا بمحمد ﷺ ويرشح هذا المعنى قوله ﷺ فيما يرويه أبو موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة يؤتهم الله أجرهم مرتين: رجل مِنْ أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مَواليه، فله أجران، ورجل أدّب أمَتَه فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران**»[(١)].

والمعنى الثاني: أن المراد بالذين آمنوا: مؤمني هذه الأمة؛ أي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بالله رباً وإلهاً ومعبوداً واحداً وآمنوا برسوله محمد ﷺ نبياً رسولاً ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ أي اثبتوا وداوموا على الإيمان بالرسول الخاتم ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أي يمنحكم ضعفين ونصيبين من رحمة الله بكم، وهو ثواب الجنة ونعيمها.

وهذا النصيب المضاعَف بالنسبة لأهل الكتاب على المعنى الأول: لأنهم آمنوا بعيسى ومحمد عليهما السلام، ثم أدركتهم رسالة محمد ﷺ فآمنوا بها، فهم يُعْطون أجرين، لأنهم آمنوا برسولين.

أما بالنسبة لأمة محمد ﷺ فإنهم يعطون أجرهم ضعف أجر الأمم قبلهم.

ويشرح المعنى الثاني:

١ - ما ورد أن عمر بن الخطاب ﷺ سأل حبراً من أحبار يهود: كم أفضل ما ضُعّفَتْ لكم حسنة؟ قال: ثلاث مئة وخمسون حسنة، قال عمر: الحمد الله الذي ضاعف لنا إلى سبع مئة[(٢)].

---

(١) ينظر: البخاري برقم (٩٧، ٢٥٤٤، ٢٥٥١، ٣٠١١، ٣٤٤٦، ٥٠٨٣) ومسلم (١٥٤).

(٢) تفسير الطبري (١٤١/٢٧) وتفسير ابن عطية (٢٧١/٥) وابن كثير (٣٢/٧).

٢ - وفي حديث أبي موسى وابن عمر وابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل، على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، واعتذَروا عن العمل معه، فاستأجر غيرهم، فعملوا حتى العصر، واعتذروا عن تكملة اليوم، ثم استأجر قوماً يعملون بقية النهار، فعملوا حتى غربت الشمس، فأخذوا أجر الفريقين معاً»[(١)].

٣ - وفي رواية الإمام أحمد أن اليهود عملوا إلى نصف النهار، والنصارى عملوا إلى العصر، على أن يُعطي كلاً منهما قيراطاً من الأجر، وأن المسلمين عملوا من العصر إلى غروب الشمس، وأعطاهم قيراطان من الأجر، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، فقال: هل ظلمتكُم من أجركم شيئا؟ قالوا: لا، قال: إنما هو فضلي أوتيه من أشاء[(٢)].

٤ - وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ محمداً ﷺ ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي ضعفين من الأجر، وزادهم: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ على الصراط، كما قال تعالى عن المؤمنين ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم ﴾ [الحديد:١٢والتحريم:٨]﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ ﴾ ما مضى من ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ ﴾ لعباده ﴿رَّحِيمٞ ﴾ بهم.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾ [الأنفال:٢٩].

وعلى أن الخطاب في الآية لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فإن الله يأمرهم أن

---

(١) ينظر نص الحديث في البخاري برقم (٥٥٨، ٢٢٦٨، ٢٢٧١، ٣٤٥٩، ٥٠٢١) وغيرها من طرق عدة.

(٢) ينظر نص الحديث في المسند (٦/٢، ١١١/٢) عن ابن عمر عن نافع برقم (٤٥٠٨) وانظر (٥٩٠٢)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه عبدالرزاق (٢٠٥٦٥)، وهو عند البخاري (٢٢٦٨)، والطيالسي (١٨٢٠)، والبغوي في شرح السنة (٤٠١٧) وغيرهم وألفاظه متقاربة.

يعملوا بمقتضى إيمانهم بموسى وعيسى، فيتقوا الله تعالى ويتركوا معاصيه، ويؤمنوا بأصول الدين وفروعه وأوامره ونواهيه، ويؤمنوا بمحمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله نصيبين من الأجر، نصيب على إيمانهم بنبيهم ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ ولعل هذا المعنى هو المراد في الآية، وذلك لأن الآية تقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي برسولهم وكتابهم، ثم تقول: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي اتقوا الله كما أمركم بذلك وآمنوا برسوله أي بمحمد ﷺ إذ أن كتابكم يأمركم بالإيمان به، فاتقوا الله ولا تخالفوه، فإن لكم أجرين على ذلك.

لاَ حَرَجَ عَلَى فَضْلِ اللهِ تَعَالَى

٢٩ - ﴿لِّئَلَّا[1] يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

ولما نزل هذا الوعد لمن آمن بكتابه ثم آمن بمحمد ﷺ، بأن الله تعالى يضاعف لهم الأجر مرتين، وكانت اليهود تعظم دينها وتعظم أنفسها، ويزعمون أنهم أحباء الله وأهل رضوانه، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، أنزل الله تعالى هذه الآية، أي أن الله تعالى فَعَل ذلك، فضاعف الأجر للمؤمنين وأعطاهم نوراً يمشون به على الصراط، وأعلمهم أنهم يؤتون أجرهم ضعفين، ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون؛ فلا تكترثوا بجهل أهل الكتاب، واستمرارهم على الاغترار بأن لهم منزلة عند الله، فإن الله تعالى عالم بذلك، وهو خالقهم، ويعلم أنهم لن يُقلعوا عما هم فيه.

وقال الجمل: لمّا سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب، قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص:٥٤] قالوا للمسلمين: أمّا من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين، لإيمانه بكتابنا وكتابكم، ومن لم يؤمن منا بكتابكم فله أجر كأجركم، فبأي شيء فُضّلتم

(١) قرأ الأزرق بإبدال الهمزة من ﴿لِّئَلَّا﴾ ياء مفتوحة وصلاً ووقفاً، وكذا حمزة عند الوقف بخلْفٍ عنه.

علينا؟ فأنزل الله هذه الآية[1].

وكان أهل الكتاب يقولون: الوحي والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلا لنا، والله خصنا بهذه الفضيلة، من بين جميع العالمين، فرد الله عليهم بهذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ مؤكِّد ومقرِّر لِمَا قبله، ممن اقتضت حكمته أن يؤتيه من فضله، أي ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على الظفَر بشيء من فضل الله، وأهمُّه النبوة والهداية، إلا إذا آمنوا بالله ورسوله، وليعلموا أيضاً أن العطاء بيد الله يمنحه من يشاء، ويختار له من يشاء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي هو واسع العطاء والإحسان إلى خلقه.

ومن فضله تعالى أنه جعل الأجرَين لمن آمن بمحمد ﷺ بعد إيمانه برسوله، ليعلم من لم يؤمن بمحمد ﷺ، أنه لا أجر له ولا نصيب له في فضل الله، فقد خص الله به من آمن بالله وحده لا شريك له، وآمن بالنبي محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، وأن من آمن برسوله وكتابه، ولم يؤمن بمحمد لا حظ له في الأجر، بل هو كافر لا يقبل منه عمل صالح.

والعرب تجعل (لا) صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحود غير مصرح به كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف:١٢] وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾ [الأنبياء:٩٥] وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩].

والمعنى: ليعلم، أو كي يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله الذي أتاكم وخصكم به وأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا أو يمنعوا ما تفضل الله به على أمة محمد ﷺ.

تم تفسير (سورة الحديد) ولله الحمد والمنة

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين بتصرف (٤/٢٩٨).

تَفْسِيرُ سُورَةِ المُجادلة (٥٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المجادلة) هي السورة الثامنة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة المنافقون)، وقبل (سورة التحريم والحجرات)، ويبدو أن (سورة المجادلة) قد نزلت قبل (سورة الأحزاب)، لأن قول الله تعالى فيها ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤] يقتضي أن تكون هذه الآية قد نزلت بعد إبطال حكم الظهار.

وتسمى (سورة المجادلة) بكسر الدال، إشارة إلى المرأة التي جاءت تجادل الرسول ﷺ في شأن زوجها وهو الأولى، لأن فيه إضافة الجدل إلى صاحبة الجدال، أما على فتح الدال فهو مصدر مأخوذ من فعل ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ المعبر عنه بالمحاورة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾.

ويقال لها: سورة (قد سمع) وسُمِّيت في مصحف أُبَيّ بن كعب (سورة الظهار)[١].

فهذه ثلاثة أسماء لها: المجادلة، وقد سمع، والظهار.

وهي سورة مدنية، قال ابن عباس: نزلت سورة المجادلة بالمدينة[٢].

وكذا جميع سور الجزء الثامن والعشرين، كلها مدنية.

وعدد آياتها اثنتان وعشرون آية في العدد الكوفي والبصري والشامي، وإحدى وعشرون آية في العدد المدني والمكي.

وعدد كلماتها أربع مئة وثلاث وسبعون كلمة، وعدد حروفها ألف وسبع مئة واثنان

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٥/١٣).

(٢) البيهقي في الدلائل ١٤٣/٧ وغيره.

وتسعون حرفاً.

وشأن السور المدنية، أن تُعنى بأحكام التشريع وشؤون المجتمع المسلم.

وقد اشتملت هذه السورة على أحكام الظهار والكفارة التي تجب على المظاهِر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وعدم مودة أعداء الله تعالى، كما تحدثت عن المنافقين واليهود، وعن الذين يحادون الله ورسوله.

وكل آية في هذه السورة، فيها اسم الجلالة مرة أو أكثر.

وقد كان المجتمع المدني مشتملا على أصناف من الناس:

١- منهم المؤمنون الذين يُربيّهم الوحي، ليحْمِلوا دعوة الله تعالى إلى كافة الناس، في المشارق والمغارب.

٢- ومنهم الوثنيون الذين يقلّدون مَن سبقهم دون إعمال فكر ولا نظر، ويتعلّقون بذيل الليل المدْبر.

٣- ومنهم اليهود الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه! ويريدون فَرْض أهوائهم على العالم، والسيطرة على مقدّراته.

٤- ومنهم المنافقون الذي يَجْرُون وراء مصالحهم، ويظهرون في أَلْفِ لَوْن.

موضوعات السورة: على النحو التالي:

أ- وفي الآيات الست الأول تحدثت السورة عن الظهار وحكمه وكفارته.

ب- وفي الآية السابعة والثامنة تحدثت عن صورة من صور مكر اليهود، حتى في إلقاء التحية على المسلمين، والتناجي فيما بينهم وهم في مجالس المسلمين.

ج- وفي أعقاب ذلك تُوجّه السورة، ثلاث نداءات إلى المؤمنين، تنهاهم في أول نداء عن التشبه باليهود في التناجي بالإثم والعدوان.

وتأمرهم في النداء الثاني أن يفسح بعضهم لبعض في المجالس الخاصة والعامة.

وفي النداء الثالث تأمرهم بتقديم صدقة، عند مناجاة الرسول ﷺ بعد أن تكاثر عليه

الناس متوافدين إلى مجلسه، وذلك حتى الآية الثالثة عشرة.

د- ومن الآية الرابعة عشرة حتى الآية الحادية والعشرون، تحدثت السورة عن المنافقين الذين يوالون اليهود، ويتحالفون معهم ضد المسلمين، وينقلون إليهم أسرارهم، فتفضحهم وتكشف زيفهم.

هـ- وتُختم السورة ببيان حقيقة الحب في الله والبغض فيه، وتبين أن صلة الإيمان أقرب من صلة الدم، وأن المتحابين في الله هم حزب الله تعالى.

وهكذا: فقد بينت السورة حكم الظهار، فأبطلت ما كان شائعا في الجاهلية مِنْ جعْل المظاهَر منها في حكم الأم، وشرعتْ له الكفارة، وبينت سوء عاقبة الذين يحادون الله ورسوله، وهم جماعة يعيشون في كبت وقهر في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب مهين، وقد أحصى الله عليهم أعمالهم التي نسوها، وبينت أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن الله تعالى يشهد كل نجوة في خلوة وجلوة.

وحذرت آيات السورة من عاقبة التعاون على الإثم والعدوان، وما يكون من التناجي في هذا المقام، ورغَّبتْ في التعاون على البر والتقوى.

وساقت آيات السورة ألواناً من الآداب التي يجب على المؤمنين أن يتحلّوا بها، وبشَّرتْهم برضى الله تعالى متى أخلصوا له الطاعة والعبادة.

ومن ذلك أدب السماحة والتوسع في المجالس، لاسيما مجالس العلم والذكر، وأدب السؤال والحديث.

وبقية السورة تتحدث عن المنافقين الذين يتولّوا اليهود، ويتآمرون معهم على المسلمين، ويُدارون تآمرهم بالحلف الكاذب، وهؤلاء يواجهون عذاب الله تعالى وغضبه، مع الذين يحادون الله ورسوله.

وقد كتب الله سبحانه أنه ورسله هم الغالبون، وأنه لابد أن يتميز الصف المسلم من غيره، تحت راية الله تعالى والاعتزاز بدينه، وهذه هي الصورة الوضيئة لحزب الله تعالى،

في مقابلة الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله.

وقد وردت روايات في أسباب نزول آيات الظهار، منها ما جاء:

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خَوْلة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله، أكَل شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبُرتْ سني، وانقطع ولدي، ظاهَر مني، اللهم: إني أشكو إليك، فما برحتْ حتى نزل جبريل بهذه الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [(١)].

٢- وفي رواية الإمام أحمد عن خويلة بنت ثعلبة قالت: والله فيَّ، وفي أوْس بن صامت، أنزل الله سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً، قد ساء خلُقه وضجر، فدخل عليّ يوماً فراجعتُه بشيء فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج، فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ، فإذا هو يريدني على نفسي، فقلت: كلا والذي نفس خُويلة بيده، لا تخلُص إليّ وقد قلتَ ما قلتَ حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني وامتنعتُ منه، فغلبتُه بما تغْلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيتُه عني، ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي، فاستعرتُ منها ثيابها، ثم خرجتُ حتى جئتُ رسول الله ﷺ فذكرت له ما لقيتُ منه، فجعلت أشكوا إليه ما ألْقى من سوء خُلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتّقي الله فيه، قالت: فوالله ما برحتُ حتى نزل فيّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سُرّي عنه، فقال لي: يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ عليّ الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾

---

(١) أخرجه ابن ماجة برقم (٢٠٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٣٥٢/١) برقم (١٥٥) ورقم: (١٦٧٨)، وأخرجه البخاري معلقاً برقم (٧٣٨٥)، ووصله ابن حجر بسنده وصححه، تغليق التعليق (٣٣٨/٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي من طريق الأعمش، المستدرك (٤٨١/٢)، والسنن الكبرى للنسائي برقم (١١٥٧٠)، وتفسير الطبري (٦٠٥/٢٨)، والبيهقي في سننه (٣٨٢/٧)، والواحدي في أسباب النزول (٣٠٤) قال ابن حجر في الفتح (٣٧٤/١٣): وهذا أصح ما ورد في قصة المجادلة وتسميتها.

إلى ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فقال لي: مُريه فلْيعتق رقبة، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق.

قال: فليصم شهرين متتابعين، فقلت: والله يا رسول الله، إنه شيخ كبير ما به من صيام.

قال: فلْيُطْعم ستين مسكينا وُسْقاً من تمر، قالت: قلت: والله يا رسول الله، ماذاك عنده.

قالت: فقال رسول الله: فإنا سنُعينه بعَرَق من تمر، قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعينُه بعَرَق آخر، قال: قد أصبْت وأحسنْت، فاذْهبي فتصدقي عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرا، قالت: ففعلت»[1].

والعَرَق: ستون صاعا، وخويلة هي خوْلة بالتصغير، ويقال لها: بنت الصامت وبنت ثعلبة وهي امرأة أوس بن الصامت.

٣- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية: أنت عليّ كظهر أمي، حَرُمتْ عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام (أوس) ثم ندم، وقال لامرأته: انطلقي إلى رسول الله ﷺ فسليه، فأتته، فنزلت هذه الآيات[2].

٤- وفي رواية: قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان الظهار في الجاهلية يُحَرّم المرأة على الرجل تحريما مؤبدا، فجاءت خوْلة رسول الله ﷺ وذكرت له ذلك، فقال لها: حَرُمتِ عليه، فقالت للرسول ﷺ: إن لي صبية صغاراً، إنْ ضممتُهم إليه ضاعوا، وإن ضممتُهم إليّ جاعوا، فقال: ما عندي في أمرك شيء، فقالت: يا رسول الله، ما ذَكر

---

(١) المسند (٦/٤١٠) (٢٧٣١٩) قال محققوه: إسناده ضعيف، لجهالة معمر بن عبد الله بن حنظلة، فلم يَرْوِ عنه سوى محمد بن إسحاق، وذكره ابن حبان في الثقات، ورواه أبوداود مختصرا من طريق محمد بن إسحاق برقم (٢٢١٤)، والطبراني في الكبير (٦١٦)، والبيهقي (٣٩١/٧)، وصحيح سنن أبي داود (١٩٣٤)، قال ابن كثير: هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة قلت: وفي الباب عن عائشة وابن عباس بإسناد صحيح وهو يؤيد ما قاله ابن كثير وتحسين الألباني له.

(٢) رواه البيهقي في السنن (٣٨٣/٧)، ونسبه السيوطي في الدر المنثور (١٧٩/٦) لابن مردويه والنحاس عن عكرمة، وفيه أبو حمزة الثمالي وهو ضعيف.

طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي، وأحب الناس إليّ، فقال: حَرُمت عليه، فقالت: أشكوا إلى الله فاقتي وَوُجْدي، وكلما قال رسول الله: حَرُمت عليه، هتفتْ وشكتْ إلى الله، فأنزل الله الآيات[(١)].

وجميع الروايات التي استقصاها الطبري كلها متفقة على أن المرأة المجادلة هي: خوْلة، أو بالتصغير خويلة، أو جميلة، وزوجها: هو أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت، وجاء عن عمر بن الخطاب أنها خولة بنت حكيم، وقال أبو العالية والمهدوي: هي خولة بنت دُلَيج، وقال ابن إسحاق: هي خولة بنت الصامت، وقيل خولة بنت خويلد[(٢)].

والمشهور قول قتادة أنها خولة بنت ثعلبة[(٣)].

وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور عدداً من الروايات في هذا المعنى.

٥- وعاشت هذه المرأة حتى خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، فقد ورد أنه مَرَّ في خلافته على امرأة، وكان راكباً على حمار، والناس معه، فاستوقفتْه تلك المرأة طويلاً، ووعظتْه، وقالت له: عهدي بك يا عمر وأنت صغير، تدعى عُميْرا، ثم قيل لك: يا عمر، ثم قيل لك: يا أمير المؤمنين، فاتق الله ياعمر في الرعية، واعلم أن من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، وعُمَر واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين، أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف، فقال: والله لو حبستْني من أول النهار إلى آخره، لا زِلتُ، إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون مَن هذه العجوز؟! هذه (خولة بنت ثعلبة) التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر)[(٤)]؟!

---

(١) رواه أبوداود في كتاب الظهار بسند صحيح (٢٢١٥)، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٩٣٥).

(٢) ينظر: الإصابة (٦١٨/٧) وفتح الباري (٣٧٤/١٣).

(٣) ينظر: تفسير ابن عطية (٣٧٢/٥).

(٤) تفسير القرطبي (٢٦٩/١٧) ورواه الدارمي من طريق أبي يزيد عن عمر، وفيه انقطاع في السند، لأن أبايزيد لم يدرك عمر، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات برقم (٨٨٦) وابن أبي حاتم.

٦- وحدثت واقعة مماثلة لقصة خوْلة، حيث كان السائل فيها رجلاً، هو سلَمة بن صخر الأنصاري، وكان قد جامع امرأته بعد أن ظاهر منها، وليس فيها أنها كانت سبباً للنزول، قال سلمة: إنه كان رجلاً قوي الشهوة، لا يصبر على ترك الجماع، فلما دخل شهر رمضان ظاهَر من امرأته حتى ينتهي الشهر، وبينما كانت امرأته تخدمه في ليلة تكشّف له منها شيء فجامعها، فلما أصبح ذهب للنبي ﷺ فأمره أن يعتق رقبة، قال: فضربتُ صفحة رقبتي بيدي، وقلت: والذي نفسي بيده ما أملك غيرها، قال: فصم شهرين، قلت: وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام، قال: فتصدق، فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتْنا ليلتنا هذه وحْشاً - أي بدون طعام- ما لنا عشاء، قال: اذهب إلى صدقة بني زُريْق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك وَسقا من تمر، ستين مسكينا، ثم استعن بسائرها عليك وعلى عيالك، قال: فرجعتُ إلى قومي فقلت: وجدتُ عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السّعة والبركة، قد أمر لي بصدقتكم، فادفعوها إليّ، فدفعوها إليه[1].

* * *

(١) ينظر: نص الحديث في المسند (٣٧/٤) (١٦٤٢١) قال محققوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وأبي داود برقم (٢٢١٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٩٣٣)، وابن ماجة برقم (٢٠٦٢)، والترمذي برقم (٣٢٩٩) وحسنه، والطبراني (٦٣٣٣)، والبيهقي (٣٩٠/٧)، وجمع الفوائد (٦٢٠/١)، والحاكم (٣٠٢/٢)، وهو في مصنف عبد الرزاق (١١٥٢٨) بنحوه، قال الترمذي: والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم في كفارة الظهار.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْمَرْأَةُ الْمُجَادِلَةُ

١ - ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾

نزلت هذه الآيات في رجل من الأنصار، اشتكته زوجته إلى النبي ﷺ لما حرّمها على نفسه بعد العشرة الطويلة ووجود الأولاد بينهما، وكان رجلاً كبيراً فشكت حاله وحالها إلى النبي ﷺ وكررت الشكوى كثيراً[(١)].

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ﴾ خولة أو خويلة، أو جميلة بنت مالك بن ثعلبة، من بني عوف بن مالك بن الخزرج ﴿ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى﴾ شأن ﴿زَوْجِهَا﴾ أوس بن الصامت الخزرجي، أخي عبادة بن الصامت، فتحاورك وتراجعك بخصوص ما حصل منه من الظهار الذي كان يُحَرِّم المرأة على زوجها في الجاهلية تحريماً أبدياً.

وقيل: تبقى المرأة المظاهر منها معلقة فلا تعود إليه ولا تتزوج غيره، فهو أشد من الطلاق.

ولم يكن للظهار كفارة، قبل نزول آيات الظهار.

ومعنى (أنت عليّ كظهر أمي) أو (أنت عليّ حرام) أي عُلُوّي عليك حرام كعلوي على أمي، وكما يحرم على الرجل حرمة أبدية أن يَعلُوا ظَهر أمه، فإن امرأته تَحرُم عليه مثل ذلك، ومثل الأم، لو قال: الأخت، أو غيرها من المحارم، ومثل الظهر لو قال: البطن، أو الفخذ وغيرهما.

ولو ظاهر الرجل عدة مرات في وقت واحد، فهو كواحدة.

والظهار تشبيه للزوجة بالأم، في تحريم الجماع، وهو من أيمان الجاهلية، ولذلك

---

(١) ينظر: تفسير ابن سعدي للآية.

فقد أخذت المرأة تتضرع إلى الله تعالى أن يفرج كربتها ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي يسمع ما تم بين المرأة ورسول الله ﷺ مِن تخاطُب ومراجعة، فأجاب الله دعاءها وحلّ شكواها، وجعل لها فرجاً ومخرجاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكل قول، ولكل مناجاة، ولكل تضرع ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمال العباد، لا يخفى عليه شيء من أمورهم، وهو يُبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى سيزيل شكواها ويرفع بلواها.

و﴿قَدْ﴾ حين تدخل على الفعل الماضي تفيد التحقيق ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ فهو سماع محقق.

قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد الله الذي وسع سمعُه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة إلى النبي ﷺ تكلّمه، وأنا في ناحية من البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله الآية[1].

ذَمُّ الظِّهَارِ

٢- ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ[2] مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى[3] وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ ﴾

ثم ذم الله تعالى الظهار، وبيّن أن الزوجة لا تكون أُمّاً لمن ظاهر منها بحال، وأن الظهار يبغضُه الله تعالى، فهو كلام منكر، وقول باطل، وزور، إذ يتكلمون بكلام لا حقيقة

---

(١) صحيح سنن ابن ماجة (١٥٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٥٧٠)، وعبد بن حميد (١٥١٢) منتخب، والبيهقي (٣٨٢/٧) وغيرهم.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يَظَّهَّرُونَ) وقرأ عاصم ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ وقرا ابن عامر وحمزة والكسائي وأبوجعفر وخلف (يَظَّاهَرُون) ومثلها التي في الآية التالية.

(٣) قرأ البزي وأبوعمرو (اللاءِ) ولهما في الهمز وصلا: إبدالها ياء ساكنة مع إشباع المد، ولهما أيضا التسهيل مع المد والقصر حالة الوقف. وقرأ ورش وأبوجعفر مثلهما ولكن حالة الوصل، ولهما وقفا: إبدال الهمزة ياء ساكنة مع إشباع المد، ولهما التسهيل بالروم مع المد والقصر، وقرأ قالون وقنبل ويعقوب بحذف الياء أيضا ولكن مع تخفيف الهمزة وصلا ووقفا، وقرأ ابن عامر والكوفيون بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة وصلا ووقفا، وكل منهم على أصله في مقدار المد المتصل، ولحمزة وقفا تسهيل الهمزة مع المد والقصر.

له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ فيقول الرجل لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، أو أنت عليّ حرام في حرمة النكاح، هذا القول لا يجعلها أُمّاً.

واختاروا لفظ (الظهر) مبالغة في التحريم، لأنه كان من عادة اليهود: إتيان المرأة في قُبلها من جهة ظهرها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٣] .

وكان العرب يخالطون اليهود، ويأخذون بعض العادات منهم، ومنها هذا النوع من الجماع، وهو إتيان المرأة في قُبلها من جهة ظهرها.

وقد جمعوا في صيغة (أنت عليّ كظهر أمي) بين تحريم الأم وركوب الظهر، أي الإتيان من الخلْف، فجاءت الصيغة فظيعة شنيعة.

ثم بيّن سبحانه أن الزوجة ليست أُمّاً فقال: ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾ بل هن زوجاتهم، وهذا القول مجرد كلام باللسان، لا يجعل الزوجة أمّاً بحال من الأحوال ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ﴾ فالأم الحقيقية هي التي ولدتك من بطنها، أما هذا الظهار فهو كلام منكر، وكذب وزور، لا يصح، ولا يستقيم شرعاً ولا عقلاً ولا عُرفاً، وهذا معنى ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ فجعلُ الزوجة كالأم، كلام باطل غير صحيح.

ثم إن الله تعالى عفا عما حدث، وغفر لفاعليه فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ لمن صدر منه بعض هذه المخالفات، وتدَاركَها بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى.

قال في التسهيل: أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور، فالمنكر هو الذي لا تُعرف له حقيقة.

والزور هو الكذب، وإنما جعله كذبا لأن المظاهِر يجعل امرأته كأمه.

والظهار محرم شرعاً، ويدل على تحريمه أربعة أشياء:

الأول: ما هن أمهاتهم، فإن ذلك تكذيب للمظاهِر. والثاني: أنه سماه منكراً.

والثالث: أنه سماه زورا، والرابع قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ فإن العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب، والذنب مع ذلك لازم للمظاهِر حتى يرفعه بالكفارة[١] .

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/٢٠١).

كفارة الظهار

٣، ٤ - ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

ثم بيّن سبحانه كفارة الظهار، ولم يكن له قبل نزول هذه الآية كفارة ولا حلاً، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ أي يحرمون زوجاتهم على أنفسهم بتشبيههن بالأمهات ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ ﴾ أي يرجعون عن قولهم، ويندمون على فعلهم، ويعزمون على العودة إلى أزواجهم بالمعايشة والمعاشرة الزوجية، فعليهم أن يكفّروا عن أيمانهم، حيث يَحْرُم إتيان الزوجة قبل أن يُخرج المظاهِر كفارة الظهار، وإخراج الكفارة يكون قبل الجماع ومقدماته، وهو شرط قبل مساس المرأة بجماع أو تقبيل أو ضم ونحو ذلك، وهذا أحد قولين في معنى ﴿ يَعُودُونَ ﴾ أي يعزمون على جماع المظاهر منها، والقول الآخر هو حقيقة الوطء، ففي المعنى الأول مجرد العزم دون فعل، وفي المعنى الآخر هو وقوع الوطء فعلاً، ولعل المعنى الأول هو المراد، وهذه الكفارة واحد من ثلاثة أمور على الترتيب الآتي:

أولاً: عتق الرقبة: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ أي عتق رقبة مؤمنة كما قُيدت بذلك في كفارة القتل الخطأ - عبد أو أمة- قبل أن يطأ الرجل زوجته التي ظاهر منها، على الأرجح، وعليه فإن وطئها قبل أن يكفّر، فإنه يكون آثماً عاصياً، يلزمه التوبة من هذا الذنب، ولا تسقط عنه الكفارة.

والتّماس: هو الجماع ودواعيه كالتقبيل والمباشرة.

وقد جاءت الرقبة هنا مُطْلقة، وجاءت في كفارة القتل مقيدة في قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء:٩٢] وحَمَل أكثر العلماء المطلق على المقيد، عدا الحنفية، فيصح عندهم عتق الرقبة وإن لم تكن مؤمنة، وهذا الحكم شرَعه الله لكم

- أيها المؤمنون - لتعتبروا وتتعظوا وتنزجروا عن مثل هذا القول المنكر، وتحاسبوا أنفسكم قبل أن يحاسبكم الله تعالى.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي هذه هي الكفارة التي حَكَم الله بها على مَنْ ظاهر من زوجته ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي لتتعظوا به - أيها المؤمنون - مع الترهيب المقرون به، حتى تتركوا الظهار وقول الزور، وتكفّروا عنه إن وقعتم فيه، ولا تعودوا إليه، فحافظوا على حدود الله وعلى أوامره ونواهيه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء، يعلم ظواهر أموركم وبواطنها، وسيحاسبكم ويجازيكم عليها فاحفظوا حدود الله، واعملوا بشرعه.

ثانيا: صيام شهرين متتابعين: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة يُعتقها، أو لم يجد المال الذي يشتري به الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فإن أفطر يوما انقطع التتابع، ووجب عليه أن يبدأ من جديد، فتتابع الصيام شرط في الكفارة، ولا يمسّ امرأته قبل تمام الشهرين المتتابعين، فإن مسها ليلاً أو نهاراً في أثناء الشهرين وجب عليه أن يعيد الصيام من جديد مع الإثم، لأنه خالف أمر الله تعالى، وإن حدث شيء خارج عن إرادة الصائم كالحيض أو الصيد، فإنه لا يفسد التتابع، ويعتبر الشهر بالهلال، فإن لم يعرف الهلال صام ستين يوماً.

ثالثا: إطعام ستين مسكيناً: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي مَن عجز عن الصوم لمرض لا يُرْجَى برؤه، أو كِبَرِ سن، كالشيخ الكبير ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ يطعمهم بما يشبعهم، وجبة واحدة، من أوسط ما يأكل، ولا يجزىء عند أكثر العلماء أن يطعم أقل من ستين مسكيناً، وأجاز الحنفية أن يطعم مسكيناً واحداً لمدة ستين يوماً، ويجوز أن يعطي كل مسكين نحو كيلو ونصف من الأرز، أو من غالب قوت البلد كالبر ونحوه، وهو ما يعادل مد بُر أو نصف صاع من غيره مع شيء من الإدام، أو نصف دجاجة لكل مسكين مع الأرز ونحوه، لأن الإنسان لا يأكل الحبوب وحدها.

ولابد أن يتم إطعام المساكين الستين قبل أن يطأ المظاهِر زوجته على القول الراجح.

وجمهور الفقهاء على أن الذي يحرم على المظاهِر قبل القيام بالكفارة، هو الجماع فقط، وأضافت الأحناف إلى ذلك كل مقدمات ودواعي الجماع كالقبلة والمباشرة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي شرعه الله لكم من أحكام الظِهار ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ليكتمل إيمانكم بالله ورسوله، ولا تشوبه شائبة، ولتتركوا ما كنتم عليه قبل هذا التشريع فإن التزام أحكام الله والعمل بها هو مقصود الإيمان الكامل ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ فلا تتجاوزوها ولا تعتدوها، فالزموها وقفوا عندها، فهي كأحكام الميراث والطلاق والعدة التي لا يجوز مخالفتها، وكل من جحد هذه الأحكام ونبذَها وراء ظهره، فإن أمامه عذاب مؤلم ينتظره ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أطلق الله تعالى الكفر على من تعدى حدوده زجْراً وتغليظاً، حتى لا يتجاوزها العبد ولا ينتقص منها.

ولا يجوز الانتقال من الصيام إلى الإطعام، إلا بالعجز التام عن الصيام، فالشاب القادر على الصيام، لا يتعلل بأنه يعمل بالنهار مثلاً، ومن شأن صاحب الشهوة التي تَهِيج في أثناء الصيام، أن يكون شخصاً قوياً قادراً على الصيام، فليس له أن يطعم إلا في حالة العجز التام.

ويمكن لأحد الأثرياء أن يطعم ألف مسكين، ولكنه لا يصوم يوماً واحداً، ومن هنا وجب الترتيب في الكفارة، وفق ما جاء في الآيات والأحاديث السابقة في أسباب النزول، فإن لم يجد المظاهِر: رقبة، ولم يستطع الصيام ولا الإطعام، فلا تسقط عنه الكفارة، ويصح أن يُتصدق عنه بها.

في مصنف عبد الرزاق أن سلمة بن صخر الأنصاري جعَل امرأته عليه كظهر أمه حتى يمضي رمضان، فسمنَتْ وتربَّعَتْ - أي أكلت كيف شاءت وشربت - فوقع عليها في النصف من رمضان، فأتى النبيَّ ﷺ كأنه يعظِّمُ ذلك، فقال له النبي ﷺ: «أتستطيع أن تعتق رقبة»؟ فقال: لا، قال: «أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين»؟ قال: لا، قال: «أفتستطيع أن تطعم ستين مسكيناً»؟ قال: لا، فقال النبي ﷺ: «يا فَرْوَةَ بنَ عمْرو، أعْطيه

ذلك العرَق - وهو مكتل يأخذ خمسة عشر أو ستة عشر صاعاً - فلْيطعمْه ستين مسكيناً» فقال: أَعَلَى أفقر مني؟ فوالذي بعثك بالحق، ما بين لابتيْها أهلُ بيت أحوجُ إليه مني، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «اذهب به إلى أهلك»[1].

وإذا كان النبي ﷺ قد أمر بكفارة (سلمة بن صخر) من أموال بيت المال، فإن على وُلاة الأمور أن يدفعوا عن العاجز كفارة ظهارة.

والظاهر أن الكفارة تسقط عنه إن كان مُعدماً، وتعذَّر إخراجها من بيت المال، أو لم يجد من يتصدق بها عليه، وتبقى دَيْناً في ذمته كسائر الديون والحقوق التي لا تسقط عن المسلم حتى يتمكن من أدائها، وتُخْرَجُ من ميراثه قبل تقسيم التركة حال موته، فإن لم يترك شيئا، فهو إلى عفو الله الواسع.

ويستفاد من الآيات السابقة:

١ – رحمة الله بعباده في إيجاد حلّ للمرأة المظاهَر منها.

٢ – وأن الظهار مختص بالزوجة دون الأمة.

٣ – وأن الظهار لا يصح قبل الزواج، وأنه مما حرم الله.

٤ – وأن الكفارة بالصيام والعتق تكون قبل المسيس، بخلاف كفارة الإطعام فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

٥ – والحكمة في وجوب الكفارة قبل الجماع هو المبادرة والإسراع في إخراجها، ولا يجوز إعطاء طعام ستين مسكيناً لمسكين واحد[2].

سُوءُ عَاقِبَةِ الْخَارِجِينَ عَنِ الصَّفِّ الإِسْلَامِي

٥ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ ﴾

---

(١) مصنف عبد الرزاق برقم (١١٥٢٨) وانظر تخريجه في آخر مقدمة السورة.

(٢) ينظر: تفسير ابن سعدي للآيات.

ولما كانت الأرض لا تخلو من العلمانيين والملحدين والمنافقين، ممن يضادون الله تعالى في حكمه، ولا ينفّذون شرعه، فقد بيّن سبحانه أن من يخالف أمر الله ورسوله ويتعد حدوده، فإن الله تعالى يخزيه ويذله في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ﴾ يشاقون ويعادون ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ويخالفون أمر الله ورسوله، فيعصونه ويضادُّون أمره ونهيه.

وسمي ذلك محادّة، لأن كُلاً من المتخالفيْن يكون في حَدٍّ وَجهة، غير الحَدِ الآخر والجهة الأخرى.

هؤلاء المخالفون ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ أي خُذلوا وأذلّوا وأهينوا كما حدث لمن سبقهم من الأفراد والجماعات والأمم الذين حادوا الله ورسوله في كل زمان ومكان جزاءً وفاقاً ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الحجة والدلالة، تدل على أن شرع الله تعالى وحُدُوده حق، فيها الحلال والحرام، والأحكام والفرائض، وقد قامت حجة الله البالغة بإرسال رسله وإنزال كتبه، وليس لهم حجة على الله بعد ذلك ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

ولمن جحد هذه الآيات ولم يؤمن بها ويعمل بمقتضاها عذاب مؤلم يوم لقاء الله ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي ولجاحدي تلك الآيات عذاب في جهنم، يُذِلّهم ويخزيهم، ويَذْهَبُ بعزّهم، ويُفرق مِنْ جَمِعْهم، كما تكبروا على آيات الله، قال تعالى:

٦- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾

وهذا العذاب المهين يكون يوم البعث والحشر والنشر ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: يوم يحيي الله الموتى، ويجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، حيث يُساق المجرمون إلى جهنم وِرْدا في يوم عظيم الأهوال ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ أي: يخبرهم بما عملوه في الدنيا من خير أو شر، وهذه الأعمال قد ضبطها الله سبحانه وحفظها وأحصاها عنده في اللوح المحفوظ، كما أن الملائكة دوّنُوها عليهم في صحف أعمالهم ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ فقد سجله الله عليهم، وهم قد نسوه لتهاونهم به عند

ارتكابه، ولطول الوقت والعهد به، أو لأنهم لا يعتقدون أن في الآخرة حساباً ولا جزاء، فإذا أُخبروا به يوم القيامة تعجبوا، كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف:٤٩] .

والله تعالى رقيب ومطلع على كل شيء، لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ يطلع على الأمور المشاهدة وغير المشاهدة ويراها ويحاسب عليها.

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا خَفِيَ

٧- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ[١] مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ[٢] إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

وتمضي الآيات في تربية النفس البشرية فتبين سعة علم الله تعالى وإحاطته بجميع الأمور، فهو تعالى يرى الخلق، ويسمع كلامهم، ويرى مكانهم، حيث كانوا وأينما حلُّوا ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم أيها العاقل ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يعلم كل ذرة في الكون، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه سر ولا علانية.

ومن ذلك أن المنافقين في المدينة على عهد النبي ﷺ كان بعضهم يتحدث إلى بعض اليهود سراً على مرآى من المسلمين، ليُظهروا لهم مودة بعضهم لبعض، ومحبة بعضهم بعضاً، ويُظْهِروا أنهم طائفة واحدة، وكلمة واحدة، ليخيِّبوا آمال المسلمين حتى يتَّقُوا بأسهم، فلا يُقدِمون على أذاهم أو التعرض لهم.

قال ابن عطية: هذه الآيات نزلت في قوم من المنافقين وقوم من اليهود، كانوا في

---

(١) قرأ أبوجعفر بتاء التأنيث في ﴿مَا يَكُونُ﴾ والباقون بياء التذكير.

(٢) قرأ يعقوب بالرفع في ﴿وَلَآ أَكْثَرَ ﴾ معطوف على محل ﴿نَّجْوَىٰ ﴾ لأنه خبر يكون، ومن زائدة والباقون بالفتح عطفاً على لفظ ﴿نَّجْوَىٰ﴾ وهو مجرور بالفتحة، لأنه ممنوع من الصرف، للوصفية ووزن الفعل.

المدينة يتمرّسون برسول الله ﷺ والمؤمنين، ويتربصون بهم الدوائر، ويتمنون فيهم المكروه، ويتناجون بذلك، فنزلت هذه الآيات إلى آخر أمر النجوى فيهم"[(١)] .

وقال الصاوي: وقد نزلت هذه الآية في كفار مكة يوم الأحزاب، حين أرادوا التحزب على رسول الله ﷺ، والمقصود بها تسلية رسول الله ﷺ وبشارته مع المؤمنين بأن أعداءهم المتحزبين سيُذلّون ويُخزوْن، ويفرّق جَمْعهم، فلا تخشوا بأسهم"[(٢)] .

وقد أنزل الله هذه الآية، ليبين أنه سبحانه يعلم الخبايا ودخائل النفوس، وما يكون بينهم من أسرار وتناجٍ، ويعلم كل ما يُبصَر وما يُسمَع ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ أي ما يتناجى اثنان من خلقه بحديثِ سرّ، إلا والله تعالى رابعهم، بعلمه وإحاطته ومشاهدته لهم فهو حاضر معهم، كما يعلمه ويشاهده شخص رابع لو كان حاضرا معهم - ولله المثل الأعلى - ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ أي ولا تقع مناجاة، ولا حديث بالسر بين خمسة من الخلق إلا والله تعالى سادسهم يسمعهم ويراهم، ويكون معهم بعلمه وإحاطته ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ ﴾ ولا أقل من ثلاثة ولا أكثر من خمسة ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ معية علم وإحاطة، لا يعزب عنه شيء من حركاتهم ولا سكناتهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ وحيثما حلوا، فعلمه تعالى شامل لجميع الأحداث، لا يخفى عليه شيء من أمرهم.

وهذا العدد ليس مقصودا في حد ذاته، لأن الله تعالى يعلم ما يكون بين كلِّ عدد من خلقه قَلَّ أو كثُر، فاكتفى القرآن ببعض العدد دون بعض.

وفي يوم القيامة يظهر ما كان مستتراً ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي يخبرهم بكل ما عملوه من خير أو شر، ويجازيهم عليه بما يستحقونه من ثواب أو عقاب.

وقد ابتدأ الله سبحانه هذه الآية بالعلم واختتمها بالعلم، لينبه سبحانه على إحاطة علمه بالكليات والجزئيات، وأنه لا يغيب عنه شيء في الكائنات، فقال سبحانه:

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٢٧٥).

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/١٨١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[طه:٧] .

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [التوبة:٧٨] .

وقوله: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[الزخرف:٨٠] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في ربيعة، وحبيب بَنِي عمرو بن عمير، من ثقيف، وصفوان بن أمية السلمي، حليف بني أسد، كانوا يتحدثون، فقال أحدهم: أتُرى أن الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً، وقال الثالث: إن كان يعلم بعضاً فهو يعلم كله[1] .

آيَاتُ التَّنَاجِي

٨- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ[2] بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾

النجوى هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير أو الشر، وقد أمر الله المؤمنين أن يتناجوْا في الخير ولا يتناجوْا في الشر، وقد نزلت هذه الآية في قوم من اليهود، أو من المنافقين واليهود معا، نهاهم النبي ﷺ عن التناجي بحضرة المؤمنين فلم ينتهوا؛ ومما ورد في أسباب النزول:

١- أنه كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مرّ بهم رجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجوْن بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بشيء يكرهه، فإذا رأى المؤمن ذلك ترك طريقه خوفاً منهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا، وعادوا

---

(١) من تفسير الكشاف للآية.

(٢) قرأ حمزة ورويس (وينْتجُون) على وزن ينتهون مشتق من النجوى، وأصله ينتجيون نقلت ضمة الياء إلى الجيم وحذفت وقرأ الباقون ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾ مشتق من التناجي وهما بمعنى واحد هو السر.

إلى النجوى، فأنزل الله الآية[1].

٢- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن الصحابة كانوا يتناوبُون المبيت عند النبي ﷺ لحراسته وقضاء حاجته، فكثر المتناوبون ذات ليلة، فخرج عليهم النبي ﷺ فوجدهم يتناجوْن سراً، فقال: «**ما هذه النجوى؟ ألم تُنهَوْا عن النجوى؟**» قالوا: تُبْنا يا رسول الله، إنا كنا نذكُر المسيح – الدجال- خوفاً منه قال: أفلا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه؟ قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «**الشرك الخفي: أن يقوم الرجل بعمل لمكان رجل**»[2].

أي لأن رجلاً آخر ينظر إليه، فهو يرائي بعمله.

وهذا الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء.

٣- وقال ابن عباس ومجاهد: نزلت الآية في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجَوْن دون المؤمنين، وينظرون إليهم، ويتغامزون بأعينهم عليهم، يُوهِمُونهم عند أقاربهم أنهم أصابهم شر، فلما كثُر ذلك منهم، شكا المؤمنون إلى الرسول ﷺ فنهاهم عن التناجي دون المؤمنين فعادُوا لمثل فعلهم[3].

ولما كانت الآية السابقة قد نهت المنافقين عن التناجي في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية، وأنهم قد عادوا إلى النجوى ولم ينتهوا عنها، أنزل الله تعالى في هذه الآية ما يفيد التعجب من حالهم وحال أمثالهم إلى يوم القيامة، فإن شئت

---

(١) عن مجاهد ومقاتل كما في زاد المسير (١٨٨/٨) وابن كثير (٤٢/٨) والدر المنثور (٣١٨/١٤).

(٢) ينظر النص في المسند (٣٠/٣) برقم (١١٢٥٢) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف كثير بن زيد، وأخرجه ابن ماجة برقم (٤٢٠٤) من طريق كثير بن زيد، قال البوصيري في الزوائد (٢٩٦/٣) هذا إسناد حسن، وكثير وربيع بن عبد الرحمن، مختلف فيهما، ورواه ابن مردُوَيه كما في الدر المنثور ٣٢١/١٤ مختصراً، وأخرجه البزار مختصراً (٢٤٤٧) زوائد، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢)، رواه أحمد ورجاله موثقون، ورواه البزار ورجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف، قلت: ونظراً لهذا الخلاف فإن الحديث ينزل من مرتبة الصحيح إلى مرتبة الحسن، فلعلّه أولى كما قال البوصيري.

(٣) تفسير الألوسي (٢٥/٢٨) والخازن (٢٣٨/٤) وأسباب النزول للواحدي ص (٣٠٦) عن ابن عباس ومجاهد بدون سند وتفسير القرطبي (٢٩١/١٧) وزاد المسير (١٨٨/٨) وتفسير ابن كثير (٤٢/٨).

أن تعجب - أيها الرسول - فاعجب من حال اليهود والمنافقين الذين نَهيْتَهُم عن التناجي فيما بينهم بما يُقلق المؤمنين ويغيظُهم، فلم يستجيبُوا لنُصْحِك واستمروا على تناجيهم بما فيه إثم وعدوان ومعصية لك، **وفي هذه الآية قضيتان:**

القضية الأولى: النهي عن التناجي بالشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ ألم تعلم — أيها الرسول - حال اليهود والمنافقين، الذين نُهوا عن الحديث سراً، بما يثير الشك في نفوس المؤمنين ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي ثم يرجعون إلى التناجي الذي نُهوا عنه، ويتحدّثون سرّاً بثلاثة أشياء: الإثم، والعدوان، ومخالفة الرسول ﷺ؛ وهذه الثلاية هي:

الأول: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي بكل مافيه معصية وذنب، بما يشمل التناجي بالكفر وذم المسلمين وغيرهما، والإثم: اسم جامع لكل ما يجب تركه من المحرمات والمكروهات.

الثاني: ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وهو كل ما فيه ظلم للآخرين واعتداء عليهم، ومن ذلك ما يدبّره أعداء الإسلام من الكيد للمسلمين.

الثالث: ﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي كل ما فيه مخالفته ﷺ فيما يأمرهم به، وينهاهم عنه، ومنه النهي عن النجوى السيئة.

قال أبوحيان: بدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس، لما فيه من ظلم العباد، ثم ترقّي إلى ما هو أعظم، وهو معصية الرسول ﷺ، وفي هذا طعن على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك[1].

هذا: وقد نهى النبي ﷺ أن يتناجى اثنان دون الثالث، فإن كانوا أكثر من ثلاثة، فلا مانع. قالوا: وكان النهي عن هذا النوع من التناجي، حتى لا يَبْتاء الثالث.

وكان التناجي الذي يغيظ المؤمنين منهياً عنه في بدء الإسلام، فلما انتشر الإسلام، وآمن الناس، زال هذا الحكم لزوال السبب.

وقد ذم الإسلام التناجي بالحديث، عدا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدقة، والإصلاح بين الناس كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ

---

(١) تفسير البحر المحيط (٨/٢٣٦) بتصرف.

مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ [النساء:١١٤] .

ولابد للمسلم أن يستوي ظاهره وباطنه، وأن تكون نصيحته لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

القضية الثانية: تحية اليهود للنبي ﷺ:

وبعد أن تحدثت الآية عن أحوال اليهود والمنافقين فيما بينهم من تناجي آثم، تحدثت بعد ذلك عن نياتهم الخبيثة عند دخولهم على النبي ﷺ وقت التنزيل، أو حضورهم مجلسه، فكانوا إذا دخلوا على النبي ﷺ يخفضون أصواتهم بلفظ (السلام) لأنه شعار الإسلام، ولما فيه من معنى السلامة، ويعدلون عنه إلى قولهم (أنعم صباحاً) وهي تحية العرب في الجاهلية، وهم لا يحبون أن يتركوا عاداتهم، وكانوا يحذفون اللام من لفظ (السلام) في تحية النبي ﷺ فيقولون (السام عليكم) وهو دعاء عليه بالموت، فكشف الله خُبث طويتهم:

أحاديث في المعنى:

١- عن عائشة رضي الله عنها أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك، فَلَعَنْتُهُمْ، فقال ﷺ: (ما لَكِ؟) قالتْ: أوَلم تسمع ما قالوا؟ قال: (فلم تسمعي ما قلتُ؟ وعليكم)[(١)] .

٢- وعن أنس بن مالك ﷺ أن يهودياً أتى على النبي ﷺ وأصحابه، فقال: السام عليكم، فردّ عليه القوم، فقال نبي الله ﷺ: «**هل تدرون ما قال هذا؟**» قالوا: الله ورسول أعلم، سَلَّمَ يا نبي الله، قال: «**لا، ولكن قال: كذا وكذا، رُدُّوهُ عليّ**» فردُّوه، قال: (قلتَ: السّامُ عليكم؟) قال: نعم، قال نبيُّ الله عند ذلك: «**إذا سلّم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: عليك**» قال: عليك ما قلتَ، قال: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[(٢)] .

---

(١) البخاري برقم (٢٩٣٥،٦٠٢٤،٦٠٣٠،٦٢٥٦) وغيرها.

(٢) ينظر: المسند (١٢٤٢٧،١٢٤٦٧) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في البخاري (٦٩٢٦)، وسنن الترمذي برقم (٣٣٠١) واللفظ له، قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، وتفسير الطبري (١١/٢٧)، ورواه ابن ماجه (٣٦٩٧)، والبزار (٢٠١٠)، وأبو يعلى (٢٩١٦).

٣- وقالت عائشة رضي الله عنها: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: السَّامُ عليك يا أبا القاسم، فقلت: السّامُ عليكم، وفعل الله بكم، فقال رسول الله ﷺ: «**مه يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش، ولا التفحش**» فقلت: يا رسول الله، ترى ما يقولون؟ قال: «**أَلَسْتِ تَرِيني أرُدّ عليهم ما يقولون؟ وأقول: وعليكم**» قالت: فنزلت هذه الآية[(١)].

٤- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سامٌ عليك ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فنزلت هذه الآية[(٢)].

٥- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهْط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك، قالت عائشة: ففهمْتُها فقلتُ: عليكم واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «**مهلا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**» فقلت: يا رسول الله، ألم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «**قد قلت عليكم**»[(٣)].

٦- وفي رواية عنها رضي الله عنها أن يهود أتَوْا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم، فقال ﷺ: «**مهلا يا عائشة عليك بالرفق، وإياك بالعنف والفحش**» قالت: أو لم تسمع ما قالوا قال: «**أولم تسمعي ما قلت؟ رددْتُ عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في**»[(٤)].

وإذاً فإن أهل الكتاب إذا قالوا لنا (السام عليكم) نقول لهم (عليكم) بغير واو كما قال سفيان بن عيينة، فيكون قولهم مردود عليهم، أما إثبات الواو فإنه يقتضي

---

(١) عبد الرزاق (٢/٢٧٩) ومسلم (٢١٦٥) والبخاري (٦٠٢٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٩٠٩٨،٩٠٩٩) ورواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروق عن عائشة.

(٢) المسند برقم (٦٥٨٩) قال محققوه: صحيح، وهذا إسناد حسن، لأن حماد بن سلمة سمع من عطاء قبل الاختلاط وبعده، وقال في مجمع الزوائد (٧/١٢١) رواه أحمد والبزار (٢٢٧١)، والطبراني، وإسناده جيد، لأن حماداً سمع من عطاء في حالة الصحة، وقال ابن كثير: إسناده حسن، وأخرجه البيهقي في الشعب (٩١٠٠).

(٣) صحيح البخاري برقم (٦٠٢٤).

(٤) الحديث في البخاري برقم (٦٠٣٠) وهذا لفظه وانظر (٢٩٣٥) وفي مسلم (٢١٦٥).

الجمع والاشتراك[١].

وإذا تحقق المسلم من وجود اللام عند قولهم (السلام عليكم) فإنه يردّ عليهم السلام لعموم قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾[النساء:٨٦] ولكن لا نبدؤهم بالسلام، فإنه شعار الإسلام وتحيته، ويمكن إلقاء التحية عليهم بما يناسب الصباح أو المساء، وإذا هنؤونا بأعيادنا الدينية أو أهدَوْا إلينا فيهما، فلا نفعل مثل ذلك في أعيادهم الدينية، لأن في هذا إقرار واعتراف بها، بخلاف المجاملات الاجتماعية فلا بأس بها.

ونعود إلى الآية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ في هذا تقرير لإساءة اليهود في تحية النبي ﷺ أي إذا دخل عليك اليهود – أيها الرسول - لأمر من الأمور، حيّوْك بغير التحية التي شرعها الله لك، وجعلها تحية لأمتك، فقالوا (السام عليك) أي الموت لك.

﴿وَيَقُولُونَ ﴾ فيما بينهم ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ هلاّ يعاقبنا الله بما نقول لمحمد، إن كان رسولاً حقاً؟ فلو كان نبياً حقاً لعذبنا الله على هذا الكلام، ومعناه: أنهم يستدلّون على جواز ما يقولونه في تحيتهم للنبي ﷺ بعدم تعجيل العذاب لهم في الدنيا.

قال تعالى مبيناً أنه سبحانه يمهل ولا يهمل: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴾ تكفيهم جهنم يدخلونها ويُقاسون حرها وسعيرها ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ بئست جهنم مرجعاً ومستقراً لهم، وقد أمهلهم الله في الدنيا كرامة للنبي ﷺ لكونه بُعث رحمة للعالمين.

والله تعالى حليم لا يعاجل بعُقوبة مَنْ سبّهُ أو سبّ نبيه ﷺ كما جاء في الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ما أحد أصبر على أذى سمعه، من الله تعالى، يدعون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم**»[٢].

---

(١) ينظر تفسير الخازن (٤/٢٤٠٠).

(٢) صحيح البخاري (٦٠٩٩،٧٣٧٨) وهذا لفظه، وصحيح مسلم (٢٨٠٤).

وهؤلاء اليهود كانوا يقولون: لو كان محمد نبياً لما أمهلنا الله بسببه والاستخفاف به، فكشف الله سرائرهم، وفضح بواطنهم، فلا تحزن - يا رسولنا -، لما يقوله ويفعله اليهود والمنافقون ومن لَفَّ لفيفهم، وهم المعنيّون بالآية.

التَّنَاجِي الْمَحْمُودُ وَالتَّنَاجِي الْمَذْمُومُ

٩- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ[1] بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ[2] ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩ ﴾

لما ذم الله اليهود والمنافقين على التناجي بالإثم والعداون، حذّر المؤمنين أن يكونوا مثلهم، فنهاهم عن التناجي بالإثم والعدوان، وأمرهم أن يتناجوا بالبر والتقوى، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ يا من آمنتم بالله حق الإيمان ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ ﴾ أي إذا تحدثتم فيما بينكم سرا ﴿ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي لا تتحدثوا بما فيه إثم كالقبيح من القول، أو بما هو عدوان وظلم لغيركم، أو بما فيه مخالفة لأمر الرسول ﷺ ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ أي وليكن التناجي فيما بينكم - أيها المؤمنون - على كل ما هو خير وبرّ وطاعة وإحسان، والبر: اسم جامع لكل خير وطاعة وقيام بحق الله وحق العباد.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ خافوا الله تعالى وراقبوه في سركم وجهركم، واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فالتقوى: اسم جامع لترك جميع المحرمات والمكروهات.

وإلى الله سبحانه تُجمعون يوم القيامة، فهو ﴿ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ وإليه وحده مرجعكم، بجميع أعمالكم وأقوالكم التي أحصاها عليكم، وسيجازيكم بها.

وقيل: إن هذه الآية نزلت في المنافقين، بمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم، لا

---

(١) قرأ رويس (فلا تنتجوا) على وزن تنتهوا وقرأ الباقون ﴿تَتَنَٰجَوۡاْ ﴾.

(٢) وقف ابن كثير وأبوعمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على ﴿ وَمَعۡصِيَتِ ﴾ بالهاء والباقون بالياء وأمالها الكسائي وقفا، ووقف الباقون بالتاء وفقا للرسم، ومثلها في الآية التالية.

تتلاعبوا بالألفاظ ولا تتناجوا بالإثم والعدوان، وقد تعلّم المنافقون من اليهود بعض الأمور ومارسوها، كقولهم للنبي ﷺ (راعنا) فقد تعلموها من اليهود وطبّقوها، كما تعلموا منهم التناجي بالإثم والعدوان، ونحو ذلك، وقد خاطبهم الله بوصف الإيمان الذي أظهروه كما قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة:٤١]. قال تعالى:

١٠ - ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ[1] ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

ثم أسندت الآية التناجي بالإثم والعدوان إلى الشيطان، لأنه الذي يوسوس للإنسان ويزين له القول السيء، وهدفُ الشيطان من ذلك هو التأثير على نفوس المسلمين ليُدخِل الحزْن على قلوبهم، ولكن هؤلاء المتناجين لن يَضُرُّوا المؤمنين شيئاً إلا بإذن الله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي إنما التحدث سراً فيما بين أعداء المؤمنين بالمكر والخديعة بالمؤمنين، لا يكون إلا من الشيطان، فهو الذي يُحسِّنه ويُزَيِّنه، ومكره ضعيف غير مفيد، والحامل للشيطان على ذلك هو إغاظة المؤمنين والإساءة لهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] وهذا معنى: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ليُدخِل الحزْن على قلوب المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي أن هذا التناجي بالإثم والعدوان لن يؤذي المؤمنين في شيء إلا بمشيئة الله سبحانه.

فلا تحزنوا - أيها المؤمنون - واعلموا أن كيد الشيطان وكيد المنافقين لن يؤذيكم في شيء إلا بإذن الله، ومهما تناجوْا ومكروا، فإن مكرهم عائد عليهم، ولن يضروا المؤمنين في شيء إلا ما قضاه الله وقدّره، ومادام الأمر كذلك فاعتمدوا على الله وحده - أيها المؤمنون - ولا تخافوا غير الله سبحانه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فثقوا بالله، ولا تبالُوا بنجوى المنافقين، فإن الله يعصمكم من كيدهم وشرهم، ومن التناجي المؤذي أن

(١) قرأ نافع (وليحزن) بضم الياء وكسر الزاي، مضارع أحزن والباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن.

يتكلم اثنان بلغة لا يفهمها الثالث، إذا كانوا يتكلمون عادة بلغة ثالثهم، فإن ذلك يُحزنه.

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي لأن في ذلك أذى للآخرين:

عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يُحزنه**»[١].

فإن استأذن المتناجيان من الثالث جاز ذلك، كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد**»[٢].

قال قتادة: كان المنافقون يتناجون بينهم، فكان ذلك يغيظ المؤمنين ويكبُر عليهم، فأنزل الله ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٣].

ومنطوق الآيات: أن النجوى المنهي عنها هي التي يكون فيها إثم وعدوان، أما التناجي بالبر والتقوى، والصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس، فإن ذلك من أعمال الخير والبر المستحبة، وخير النجوى ما يكون بين العبد وربه يوم لقاء رب العالمين.

كما جاء عن صفوان بن مُحْرِز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كفَنه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورآى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الكاذبين**»[٤].

---

(١) المسند (٤٣١/١) برقم (٣٥٦٠، ٤٠٣٩، ٤٤٠٧، ٤٤٢٤) ومسلم برقم (٢١٨٤) واللفظ له والبخاري(٦٢٩٠).

(٢) مسلم برقم (٢١٨٣) والبخاري (٦٢٨٨) والمسند (٥٢٥٨).

(٣) تفسير ابن جرير (٤٧٤/٢٢).

(٤) أخرجه أحمد (٧٤/٢) برقم (٥٤٣٦) والبخاري (٢٤٤١، ٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨).

التَّفَسُّحُ فِي الْمَجَالِسِ

١١- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ (١) لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ (٢) فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ (٣) فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾

يؤدب الله عباده المؤمنين، فيعلِّمهم أنهم إذا اجتمعوا في مجلس فيه ضيق، فلْيفسح بعضهم لبعض، فإن هذا يفيد القادم على المجلس، ولا يضر الفاسح في شيء، وإذا طُلب من الجالسين أن ينْصرفوا عن المجلس لحاجة عرضت لأهل البيت ونحوهم، فليبادروا بالقيام، فإن من يفعل ذلك يكون من أهل العلم والإيمان، الذين يحتفظون بالحقوق لأهلها، ولا يحدُث في نفوسهم شيء من أمثال هذه التصرفات، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات على قدر ما يتأدبون بآداب الإسلام، وتُثمر أحكامه في نفوسهم.

وبهذه الآية يكون قد تمّ أربع آيات من آيات أحكام النجوى: فالآية السابعة من السورة تحدثت عن إحاطة علم الله تعالى بكل كلام خفي يكون بين اثنين فأكثر.

والآية الثامنة تحدثت عن نجوى المنافقين واليهود وأمثالهم، وخداعهم في تحية نبي الإسلام ﷺ.

والآية التاسعة حذّرت المؤمنين أن يكونوا مثل اليهود والمنافقين في التناجي بالإثم والعدوان.

وبيّنت الآية العاشرة أن مصدر النجوى السيئة هو الشيطان، وأن الضر والنفع بيد الله وحده.

---

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة القاف للضم وإشمام الياء بعدها للواو في (قيل)، والباقون بالياء الخالصة.

(٢) قرأ عاصم ﴿فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ بالجمع والباقون (في المجلس) بالإفراد.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبوجعفر وشعبة بخلف عنه بضم الشين في ﴿ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ والباقون بكسرها فيها ومعهم شعبة في الوجه الثاني وهما لغتان، ومن ضم الشين ضم الهمزة ابتداء ومن كسرها كسر الهمزة ابتداء.

والحديث موصول في موضوع النجوى، فتتناول الآيات الثلاث التالية، بدءاً من هذه الآية: التأدب مع النبي ﷺ عند التناجي معه، وعند الجلوس في مجلسه ﷺ وهو حيّ، وعند قبره بعد موته:

والآية عامة في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون على خير، سواء في مجلس يوم الجمعة، أو في مجلس ذكر، أو في مجالس القرآن والعلم، أو في بيوت الله ومقاعد الجهاد، أو في الولائم، وجميع المجالس العامة والخاصة.

حيث أمرتهم الآية أن يتوسعوا في المجالس، ليتسع المسجد أو المجلس، للجميع، ولتقديم أهل الفضل والصلاح.

وقد وردت روايات في **أسباب نزول هذه الآية**، منها:

١- أنها نزلت في يوم جمعة، وكان النبي ﷺ يومئذ في الصُّفة، والمكان ضيقاً، وقد سبق عامة الناس إلى المجلس، فجاء أهل بدر، وكان لهم منزلة خاصة، وكان النبي ﷺ يكرمهم، سواءً المهاجرون منهم أو الأنصار، فلما جاؤوا لم يجدوا مكاناً، ووقفوا حيال رسول الله ﷺ وقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد عليهم السلام، ثم سلّموا على القوم، فردوا عليهم، وظلوا واقفين على أرجُلهم، وشقّ ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله ممن ليسوا من أهل بدر: **قم يا فلان، قم يا فلان**، بعدد الواقفين، فعزَّ ذلك على من أُقيموا من مجالسهم، وعرف النبي ﷺ في وجوههم الكراهية، وهنا انتهز المنافقون الفرصة، فقالوا: ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس؟ والله ما رأيناه قد عدل بين هؤلاء، فإن قوما أحبوا القُرْب من نبيهم، فأقامهم، وأجلس مكانهم مَنْ تأخر عنه، وقال ﷺ: «**رحم الله رجلاً فسح لأخيه**» فأخذوا يقومون سراعاً، وتفسح القوم لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة[(١)].

---

(١) هذا المعنى رواه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان كما في القرطبي (٢٩٧/١٧) والألوسي (٢٨/٢٨)، وابن الجوزي (١٩١/٨) والرازي (١٦٤/٨)، وابن كثير (٤٥/٨)، والدر المنثور (٣٢٢/١٤).

وتقديم النبي ﷺ للبدريّين، ليُعلّم أمته أن يتصدَّر المجلس أفاضل القوم، أخذاً من حديث النبي ﷺ عن عبد الله بن مسعود ﷺ: «ليليني منكم أولوا الأحلام والنُّهَى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وإياكم وهيشات الأسواق»[1].

والآية تُطيّب خاطر الذين أُقيموا من مجالسهم، وفيها تعليم للأمة بوجوب رعاية أهل الفضل وإنزال الناس منازلهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء:٣٢] وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠].

٢- وقيل: إن الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس، وقد تقدمت قصته في سورة الحجرات.

٣- وكان الصحابة يتنافسون في مجلس النبي ﷺ محبة في القرب منه، فأمرهم الله تعالى أن يفْسح بعضهم لبعض.

٤- وقال سعيد بن جبير: كان الناس يتناجون في المجلس عند النبي ﷺ فنزلت الآية[2].

٥- وقال زيد بن أسلم وقتادة: نزلت هذه الآية بسبب تضايُق الناس في مسجد النبي ﷺ وذلك أنهم كانوا يتنافسون في القرب منه ﷺ لسماع كلامه والنظر إليه، فيأتي الرجل الذي له الحق، والسنّ، والقِدَم في الإسلام، فلا يجد مكاناً، فنزلت بسبب ذلك[3].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا من صدّقتُم بالله ورسوله واهتديتُم بهذيه ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ أي إذا طُلب منكم أن يوسع بعضكم لبعض في المساجد والمجالس بصفة عامة ﴿فَافْسَحُوا﴾ توسعوا وانضمُّوا لبعضكم ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي يوسع الله عليكم في الدنيا والآخرة، ويشملكم برحمته ويدخلكم جنته.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٤٣٢).

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور (٣٢١/١٤).

(٣) تفسير ابن عطية (٢٧٨/٥)، وعبد الرزاق (٢٧٩/٢).

وكل من وَسَّع على عباد الله أبواب الخير والعلم والراحة، وسع الله عليه خيرات الدنيا، كسعة الرزق، والمسكن، وراحة الصّدْر، ووسّع عليه خيرات الآخرة، فيوسّع عليه قبره ويرفع درجاته في الجنة.

ففي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»[(١)].

والجزاء يكون من جنس العمل، فمن يوسع على غيره يوسع الله عليه، ومن يستر مسلماً يستره الله في الدنيا والآخرة، ومن ييسر على معسر ييسر الله عليه.

وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "**لا يقيم الرجُلُ الرجُلَ من مقعده ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا**»[(٢)].

قال ابن كثير: وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء، على أقوال:

١- فمنهم من رخص في ذلك محتجا بحديث: «**قوموا إلى سيدكم**»[(٣)].

٢- ومنهم من منع ذلك محتجا بحديث: «**من أحب أن يُمَثُل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار**»[(٤)].

٣- ومنهم من فصّل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دلّ عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لمّا استعمله النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة، ورآه مقبلاً قال للمسلمين: (قوموا إلى سيدكم) ليكون هذا أنفذ لحكمه، والله أعلم.

---

(١) جزء من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٢) البخاري برقم (٩١١،٦٢٦٩،٦٢٧٠) ومسلم برقم (٢١٧٧) واللفظ له والترمذي (٢٧٤٩،٢٧٥٠).

(٣) من حديث أبي سعيد الخدري في البخاري برقم (٣٠٤٣،٣٨٠٤،٤١٢١،٦٢٦٢) ومسلم برقم (١٧٦٨).

(٤) من حديث معاوية عند أبي داود برقم (٥٢٢٩) والترمذي برقم (٢٧٥٥) وقال: إسناده حسن، وأخرجه أحمد في المسند (١٦٨٣٠) إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين(محققوه)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٧)، والبغوي في شرح السنة (٣٣٣٠)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٨٦)، وعبد بن حميد في المنتخب (٤١٣).

فأما اتخاذه ديناً، فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك[١].

إنزال الناس منازلهم:

ومما يدل على أنه ينبغي إنزال أهل الفضل منازلهم ما رواه ابن العربي بسنده عن أنس ﷺ أنه قال: بينا رسول الله في المسجد، وقد طاف به أصحابه، إذ أقبل عليّ بن أبي طالب، فوقف وسلّم، ثم نظر مجلساً يشبهه، فنظر رسول الله ﷺ في وجوه أصحابه أيهم يوسع له، وكان أبوبكر جالساً عن يمين النبي ﷺ فتزحزح له عن محله، وقال: ها هنا يا أبا الحسن! فجلس بين النبي ﷺ وبين أبي بكر فقال: «يا أبابكر، إنما يَعْرف الفضل، لأهل الفضل، ذوو الفضل»[٢].

وكان عمر ﷺ يقدم ابن عباس وهو صغير السن عن غيره، فكلّمه الصحابة في ذلك، فدعاه ودعاهم، ثم سألهم عن معنى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أجلُ رسول الله، أعلمه إياه، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم، ثم قال: بهذا قدّمتُ الفتى).

ولا يجوز لقادم أن يفرق بين اثنين لحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما**»[٣].

وفي الأثر (ثلاث يصفين لك وُدّ أخيك: أن تبدأه بالسلام، وأن توسع له بالمجلس، وأن تدعوه بأحب الأسماء إليه).

وفي حِلَق القرآن والعلم، ينبغي أن تتزاحم الركب، وتُسدّ الفرج، فقد صح في الحديث عن أبي واقد الليثي قال: بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد، فأقبل ثلاثة

---

(١) ينظر: حديث أنس في الترمذي برقم (٢٧٥٤).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي جزء ٤ والقرطبي (٣٠١/١٧).

(٣) المسند (٢٣١/٢) برقم (٦٩٩٩) بإسناد حسن (محققوه)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٤٢)، وأبوداود برقم (٤٨٤٥)، والترمذي برقم (٢٧٥٢) وقال: هذا حديث حسن.

نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فأما أحدهما فرآى فرجة في الحلقة فجلس، وأما الآخر، فجلس خلفهم، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بخبر الثلاثة، أما أحدهم، فأوى إلى الله، فآواه الله، وأما الآخر: فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر: فأعرض، فأعرض الله عنه**»[(١)].

ومن قام من مجلسه لسبب ثم عاد إليه فهو أحق به، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به**»[(٢)].

الارتفاع عن المجلس لحاجة:

وكما أمر الإسلام بالتوسع في المجالس، أمرنا أنه إذا طُلب منا القيام من المجلس لسبب من الأسباب، كالنهوض للصلاة، أو للجهاد، أو لقادم، أو نحو ذلك فليستجيبوا، وهذا معنى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ أي إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا.

فإذا طُلب منكم - أيها المؤمنون- أن تقوموا من مجالسكم، لأمر من الأمور التي يكون فيها خيرا، فقوموا، فإن دعيتم إلى الجهاد فأجيبوا، وإن دعيتم إلى الأمر بالمعروف فأجيبوا، وإن دعيتم إلى أداء حق فأجيبوا، وإذا دعيتم إلى التوسع لغيركم في المجلس فأجيبوا، وهكذا.

فالنشوز هو النهوض والارتفاع، والقيام من المكان الذي يجلس فيه المرء.

ولما كان النشوز ارتفاعاً عن المكان الذي يكون فيه الإنسان، فإن جزاء من يفعل ذلك يكون من جنس عمله، حيث يرفع الله درجات الذين استجابوا للأمر بالنشوز إذا كانوا من المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ أي يرفع مكانة المؤمنين المخلصين المستجيبين لله والرسول، وهذه الاستجابة دليل العلم بالأحكام الشرعية، ولذا: عطف عليهم أهل العلم، ببيان رفْع درجاتهم عند الله تعالى، فقال:

---

(١) البخاري (٦٦،٤٧٤) وهذا لفظه ومسلم (٢١٧٦).

(٢) مسلم (٢١٧٩).

﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أي يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم منهم درجات[1].

فأهل العلم على درجات كثيرة من الثواب ومراتب الرضوان.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء منها، وهو مجازيكم عليها.

في فضل العلم والعلماء:

وفي الآية تنويه بفضل العلم والعلماء ورفع درجاتهم عند الله تعالى، وفيها بيان أن المؤمن العالم فوق المؤمن غير العالم، فرفْع الشأن عند الله تعالى يكون بالإيمان والعلم.

وفي الحديث عن أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ...**»[2].

وجاء في الأثر (يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء).

وعن قيس بن كثير أن رجلا من المدينة قدم على أبي الدرداء في دمشق، فسأله عن سبب قدومه، قال: حديث بلغني أنك تُحدّثه عن رسول الله ﷺ قال: أما جئتَ لتجارة ولا لشيء غيره؟ قال: ما جئتُ إلا في طلبِ هذا الحديث، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقاً يبتغي فيه علما سلك الله له به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر**»[3].

---

(١) هذا تفسير ابن عباس كما في المستدرك (٤٨١/٢) والبيهقي في المدخل (٣٤١).

(٢) سنن الترمذي ٢٩٨٥ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢١٦١) وهو في السلسلة الصحيحة (٧٨)، وفي المشكاة (٢١٩) التحقيق الثاني.

(٣) ينظر بعضه في: كتاب العلم باب (١٠) في صحيح البخاري قبل الحديث رقم (٦٨) وهو في المسند برقم (٢١٧١٥) حسن لغيره، وهذا لفظه، وأخرجه الترمذي (٢٦٨٢)، وأبوداود وابن ماجة (٢٣٩)، والحديث بعضه في المسند أيضاً عن أبي هريرة برقم (٨٣١٦) بإسناد صحيح على شرط البخاري وهذا إسناد حسن.

وروى البغوي بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ بمجلسين في مسجده، أحدُ المجلسين يدعون إلى الله تعالى ويَرْغَبُون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلّمونه، فقال: «**كِلاَ المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلّمون الجاهل، فهؤلاء أفضل، وإنما بعثت معلماً**» وجلس معهم.

وأخرج مسلم بسنده أن نافعاً بن عبد الحارث لقى عمر بعُسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملتَ على أهل البوادي؟ فقال: ابن أَبزَى، قال: ومَن ابن أبزّى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفتَ عليهم مولى؟ قال: إنه قارىء لكتاب الله، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين**»[(١)].

وفي الصحيحين عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من يرد به الله خيراً يفقهه في الدين**»[(٢)].

تَقْدِيمُ الصَّدَقَةِ عِنْدَ مُنَاجَاةِ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ الرُّخْصَةِ وَالْعَزِيمَةِ

١٢، ١٣ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ[(٣)] أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٣﴾

---

(١) مسلم برقم (٨١٧).

(٢) البخاري (٧١، ٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).

(٣) قرأ قالون وأبوعمرو وأبوجعفر بتسهيل الهمزة الثانية مع الإدخال في ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ وقرأ الأصبهاني وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وللأزرق تسهيل الثانية مع عدم الإدخال وإبدالها حرف مد مشبع لالتقاء الساكنين، ولهشام ثلاثة أوجه: تسهيل الثانية مع الإدخال، وتحقيقها مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

في حياتنا العامة توجد مراسم لمقابلة كبار الشخصيات كمقابلة مدير المكتب، وتفتيش الداخل وكتابة معروض يلخص فيه القادم حاجته، تخفيفاً للزحام، ورداً لمن ليس حاجة، وعدم إشغال المسؤول أكثر من اللازم، ولمَّا ازدحم الناس على رسول الله ﷺ شرع الإسلام لمن يريد مقابلة النبي ﷺ والتحدث معه أن يقدم صدقة ليست لمصلحة النبي ﷺ وإنما هي لنفع الفقراء والمحتاجين، إن كان قادراً، فمن لم يجد فلا حرج عليه، فإذا شق تقديم هذه الصدقة على بعض الناس، فعليهم أن يكثروا من الأعمال الصالحة، ويقوموا بما أوجبه الله عليهم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله والرسول، فإن في هذا عوضاً عن الصدقة، وقد جاء هذا العوض بعد عشرة أيام فحسب من مشروعية الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ.

هذا: ولاستيفاء أنواع النجوى؛ المحمود منها والمذموم، تتحدث هذه الآية عن تقديم الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ فأمر الله عباده المؤمنين إذا أرادوا مناجاة النبي ﷺ لأمر من الأمور أن يتصدقوا قبل هذه المناجاة:

١- تعظيماً لشأن الرسول ﷺ.

٢- وتخفيفاً للزحام عليه.

٣- ونفعاً يومياً للفقراء، وكانوا كثرة، من أهل الصُّفَّة ومعظم المهاجرين.

٤- وتمييزاً بين المؤمن المخلص والمنافق المراوغ.

٥- وعدم الإشغال للنبي ﷺ بما لا يكون من أمور الرسالة.

٦- وتمييزاً بين محب الدنيا ومحب الآخرة، فإن ذلك أزكى للنفوس وأطهر للقلوب، وأكرم عند الله تعالى.

٧- فإن لم يتيسر للمؤمن الصدقة، فلا بأس عليه ولا حرج.

من أسباب النزول:

١- ورد عن ابن عباس وقتادة: أن قوماً من المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي ﷺ في غير

حاجة، إلا لتظهر منزلتهم، وكان ﷺ سمحاً لا يردّ أحداً، فنزلت الآية مشددة أمر المناجاة[(١)].

٢- وعن مقاتل أن الأغنياء كانوا يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته، ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم، فنزلت الآية[(٢)].

٣- وورد أن علياً ﷺ قال: إن في كتاب الله لآية، ما عَمِلَ بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان لي دينار، فاشتريتُ به عشرة دراهم، فكلما ناجيت الرسول ﷺ قدَّمْتُ بين يدي نجواي درهماً، ثم نُسِخَتْ فلم يعمل بها أحد فنزلت ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾[(٣)] لكن استقر حكمها بالعزم عليه، كأمر إبراهيم بذبح ولده.

٤- قال مجاهد: نُهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يقدّموا صدقة، فلم يناجيه إلا عليُّ بن أبي طالب، فإنه قدّم دينارا فتصدق به، ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال، ثم نزلت الرخصة[(٤)].

٥- وصح عن عليّ ﷺ أنه قال: ما عمل بها أحد غيري، وأنا كنت سبب الرخصة والتخفيف عن المسلمين، وذلك أني أردت مناجاة النبي ﷺ في أمر ضروري، فصرفْتُ ديناراً بعشرة دراهم، ثم ناجيتُه عشر مرات، أُقدّم في كل مرة درهماً، قال علي: ثم أدراك رسول الله ﷺ أن هذه العبادة قد شقَّتْ على الناس، فقال لي: يا علي، كم ترى أن يكون حدّ هذه الصدقة؟ أتراه ديناراً؟ قلت: لا، قال: نصف دينار؟ قلت: لا، قال: فكم؟ قلت: حبة من شعير، قال: إنك لزهيد، فأنزل الله الرخصة، قال مقاتل: بقى هذا الحكم عشرة أيام. وقال قتادة: بقى ساعة من نهار[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٨/٢٣٧) والألوسي (٢٨/٣٠) والقرطبي (١٧/٣٠١) وتفسير ابن عطية (٥/٢٧٩).

(٢) الألوسي (٢٨/٣٠)، وزاد المسير (٨/١٩٥)، والخازن (٤/٢٤٢)، وابن عطيه (٥/٢٧٩)، والدر المنثور (١٤/٣٢٦).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٣/٤٢٨)، والألوسي (٢٨/٣١)، والقرطبي (٧/٣٠٢)، وابن كثير (٧/٥٠)، وابن أبي شيبة (١٢/٨١)، والحاكم (٢/٤٨١).

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (١٤/٣٢٥).

(٥) تفسير ابن عطية (٥/٢٨٠).

٦- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآة بسبب أن المسلمين كانوا يُكْثِرُون المسائل على رسول الله حتى شقوا عليه، فأراد الله تعالى أن يخفف عن نبيه، فلما نزلت هذه الآية، كف كثير من الناس، ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها[1].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي إذا أردتم أن تكلّموه سراً بينكم وبينه ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ تَقَدّمُوا قبل المناجاة بصدقة مطلقة، قليلة أو كثيرة، إلى الفقراء وأصحاب الحاجات ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي فيه ثواب لكم، وفيه منفعة للفقراء، وفيه تعظيم لمقام النبي ﷺ وفيه تطهير لقلوبكم من المآثم ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ﴾ ما تتصدقون به فلا حرج عليكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لعباده ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

قال أهل العلم: إن هذه الآية منسوخة بالآية التي بعدها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن صدقة المناجاة شُرعت قبل مشروعية الزكاة، ونُسخت بوجوبها، أي أنها نُسِختْ اكتفاءً بالزكاة، وأبطل فرضُ الزكاة كُلَّ حَقٍّ كان واجباً في المال.

قلت: والأولى حمْل هذه الآية على الرخصة، والآية التي بعدها على العزيمة، كما قال أبومسلم الأصفهاني، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن هذه الصدقة فرضها الله تعالى على من يجد ما يتصدق به، وأسقطها عمن لا يجد، فهي تجب على القادر وتسقط عن غيره، حيث قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ووقتها هو وقت التوجه إلى مناجاة النبي ﷺ أي قبله بقليل.

وقد شق على بعض المسلمين القادرين تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ فأسقط الله وجوبها، وأنزل بعد عشرة أيام من نزول الآية السابقة قوله تعالى:

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ﴾.

أي: أخشيتم - أيها المؤمنون - من الفقر، إذا قدّمتُم صدقة قبل مناجاتكم رسول الله

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/٣٠١).

ﷺ؟ ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾ ما أُمرتم به من الصدقة وشق عليكم ذلك ولم يهن عليكم تقديم الصدقة، فأكثروا من الفرائض والنوافل بدلاً منها، وقد قيدت الآية عدم تقديم الصدقة بالتوبة فقال تعالى: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي رخص لكم في ألا تفعلوا، وعفا عنكم، فأكثروا من الصلاة والزكاة عوضاً عنها، واثبُتوا، وداوِمُوا عليها، وهذا معنى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها وواجباتها ومستحباتها ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة، وهاتان العبادتان أمّا العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما فقد قام بحقوق الله وحقوق العباد، وبعد تخصيص هاتين العبادتين عمم سبحانه جميع الأوامر فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في كل ما أُمرتم به، وكل ما نُهيتم عنه، وفي جميع أحوالكم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي محيط بأعمالكم ونياتكم وسيجازيكم على أقوالكم وأفعالكم، فيجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

حِزْبُ الشَّيْطَانِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ

١٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

ثم ذكر سبحانه حالة أخرى من أحوال أهل النفاق، الذين اتخذوا اليهود وغيرهم حلفاء لهم، ينقلون إليهم أسرار المؤمنين، فبين سبحانه أنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين، لأن باطنهم مع الكفار وظاهرهم مع المؤنين، فكان جزاؤهم أن أعدَّ الله لهم عذاباً شديداً لا يُعلم وصفه ولا يُقادر قدره وهذا تعجب من حالهم.

قال قتادة: هم المنافقون تولوا اليهود وناصحوهم.

والذين غضب الله عليهم هم اليهود، والذين تولّوهم، هم المنافقون، وأمثالهم كثير في العالم الإسلامي، ممن يتظاهرون بالإسلام ويحلفون كذباً أنهم مؤمنين، ويحبون غير المسلمين ويتعاونون معهم ضد المسلمين.

والمعنى: ألم تر - أيها المخاطب - إلى المنافقين الذين اتخذوا غير المسلمين حلفاء وأصدقاء لهم ضد المسلمين وَوَالُوهم؟ ألا تعجب من حال هؤلاء الذين يزعمون

الإيمان، وقد اتخذوا اليهود المغضوب عليهم أولياء، يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، وهؤلاء اليهود هم الذين قال الله فيهم ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠] .

والمنافقون ليسوا من المسلمين، ولا من اليهود ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي اليهود، لا هم من المسلمين، ولا من اليهود، فليسوا بمسلمين خلّص، ولا بكافرين خلّص ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣] .

وهؤلاء المنافقون يحلفون كذبا أنهم مسلمون، وأنك رسول الله، والحلف على ما يُعلم أنه كذب، في غاية القبح، والله تعالى يُنْكِر في هذه الآية على المنافقين موالاتهم لغير المسلمين في الباطن، وهم في الواقع مخادعون لهم، يظهرون ما لا يبطنون.

سبب النزول:

قال السدي: كان (عبد الله بن نبتل) المنافق، يجالس رسول الله ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود، فبينا رسول الله ﷺ في حجرة من حجراته إذ قال: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، وينظر بعَيْنَي شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل، وكان أزرق العينين، فقال له النبي ﷺ: «**علام تشتمني أنت وأصحابك؟**» فحلف بالله ما فعل ذلك، فقال له النبي ﷺ: «**بل فعلت**» فانطلق، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما سبُّوه، فأنزل الله الآية[(١)] .

وقد جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ كان جالساً في ظل حُجْرة من حُجَره، وعنده نفر من المسلمين فقال: «**إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعين شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلموه**» فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق، فقال حين رآه: «**علام تشتمني أنت وأصحابك ...**»[(٢)] .

---

(١) ينظر: الفخر الرازي (٢٨/٢٨) والقرطبي (٢٩٧/٧) والخازن (٢٤٢/٤) وابن كثير (٥٢/٧).

(٢) أخرجه الطبراني برقم (١٢٣٠٧)، وقد صححه الحاكم على شرط الشيخين في المستدرك (٤٨٢/٢) وأقره الذهبي، ورواه أحمد بإسناد جيد (٢٤٠/١) برقم (٢١٤٧،٣٢٧٧)، والبزار (٢٢٧٠ كشف)، قال محققو المسند: إسناده حسن برقم (٣٢٧٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢/٧): رجاله رجال الصحيح، وهو عند البزار (٢٢٧٠ كشف).

فكان هذا اليهودي يجالس النبي ﷺ وينقل أخباره إلى اليهود، ويسبه، فإذا بلغ النبي ﷺ خبره، أو أطلعه الله عليه، جاء فاعتذر، وأقسم أنه ما فعل.

ثم بيّن سبحانه ما أعده لهؤلاء المنافقين من عذاب في الآخرة فقال:

١٥ - ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

أي هيأ الله لهم - بسبب نفاقهم - عذابا بالغ الشدة والألم، فهم في الدرك الأسفل من النار ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ من النفاق والكذب والحلف عليه، فبئس ما فعلوا، وبئس ما صنعوا، فقد عملوا ما يسخط الله، ويوجب عليهم العقوبة واللعنة، وهذا تعليل لنزول شدة العذاب بهم. قال تعالى:

١٦ - ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾

ولما كان المسلمون في كل زمان ومكان في حالة جهاد مستمر مع اليهود والنصارى والمشركين، وقد أُمر المسلمون شرعاً أن يقاتلوا الكفار حتى يشهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن من شأن المنافقين أن يتظاهروا بالإسلام، ويُوهموا المسلمين أنهم مسلمين حتى لا يقاتلوهم، وحتى يَحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم بهذا النفاق، وبهذه الأيمان الكاذبة ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي جعلوا أيمانهم الكاذبة ترساً ووقاية لهم من القتل، ومن لوم المؤمنين لهم لو أنهم أظهروا كُفْرهم، فكانوا بذلك سبباً لمنع الناس من الدخول في الإسلام، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء، وبالخداع والمكر بالمسلمين ﴿فَصَدُّوا۟ ﴾ غيرهم وصدوا أنفسهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهو الإسلام، وهو الطريق الموصل إلى جنات النعيم، ومن صد عنه فليس أمامه إلا الصراط الموصل إلى نار الجحيم، وبسبب ذلك فإن للمنافقين عذاباً مذلاً ومخزيا في نار جهنم، لنفاقهم وعدم إيمانهم بالله ورسوله واستكبارهم عن الانقياد لآيات الله، ولصدهم الناس عن دين الله. قال تعالى:

١٧ - ﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

لقد كان المنافقون وهم في الدنيا أكثرَ أولاداً وأكثرَ أموالاً من المسلمين، ويزعمون

أنهم بسبب ذلك لن يعذَّبوا في الآخرة - إن كان ثمة قيامة، على حد قولهم - فنفى سبحانه في هذه الآية، هذه المزاعم، لأن يوم القيامة، يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، أي أن هذه الأموال وهذه الأولاد، وهذا الجاه والسلطان، لن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى، ولن يحصل لهم قسط من الثواب.

ومن المعروف أن عبد الله بن أُبيّ بن سلول - زعيم المنافقين- كان من أغنياء المدينة، وكان يوطّن نفسه أن يكون ملِكاً عليها، وكانوا يُعِدُّون له تاج الملك، قبل مقدم النبي ﷺ إلى المدينة، وهو القائل ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨].

وكان المنافقون على وجه العموم من أهل الثراء في المدينة، وكان ثراؤهم سبب إعراضهم عن الإسلام، فكانوا أهل سيادة وجاه، يخافون على ضياع منزلتهم بين الناس، وكانوا يفتخرون على المسلمين بوفرة أموالهم وكثرة عشائرهم، فإذا لم تُغن عنهم هذه الأموال والأولاد في الدنيا فهي أجدر ألا تنفعهم في الآخرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبدا، ولا يموتون فيها، وهذا الجزاء يعم كل من صد الناس عن دين الله بقوله أو فعله في كل زمان ومكان ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر:١٩] إنه خلود أبدي ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦] و﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]. قال تعالى:

١٨ - ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ[١] أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾

تقرر هذه الآية أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، ويوم القيامة سوف يكون حال المنافقين كما كان في الدنيا، فيحلفون لله تعالى في الآخرة بأنهم مسلمون، كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا بأنهم مسلمون، وهم يتوهمون

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبوجعفر بفتح السين من ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ والباقون بكسرها.

أن أيمانهم هذه ستنفعهم في تخفيف شيء من العذاب عنهم ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أي اذكر - أيها المخاطب - يوم القيامة حين يبعث الله المنافقين جميعا، ويحشرهم للحساب والجزاء ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ ﴾ في الآخرة أنهم كانوا مؤمنين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ أي كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا - أيها المؤمنون- أنهم مؤمنون ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي: ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله، كما كان ينفعهم في الدنيا عند المسلمين، ويزعمون بحلفهم هذا أنهم على شيء يعتدُّ به، ويُعلّق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، فإن عقائدهم الباطلة لم تزل راسخة في أذهانهم حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء.

وهذا شأن المشركين بالله أيضاً في الآخرة، فإنهم يحلفون لله كذباً أنهم لم يكونوا مشركين، وهذا ما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنعام:].

فالكفر والنفاق باق فيهم بعد موتهم وبعثهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام:٢٨] ومعلوم أن الأيمان الكاذبة لا تروج على عالم الغيب والشهادة.

إن النفاق متوغل فيهم، فقد مَرَدُوا عليه، وقد خرجت نفوسهم وهم في الدنيا مع بقائه في أرواحهم.

كما جاء في صحيح مسلم عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**»[1].

ثم إن الكذب على الله تعالى ليس كالكذب على الناس، ولذا فإن الله تعالى وصف المنافقين بأنهم الكاذبون حقاً، البالغون في الكذب حدّاً لم يبلغه غيرهم ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ لقد تجاسرُوا فكذبوا على علاّم الغيوب وتصورُوا أن كفرهم يخفى على رب العالمين، وهذا أمر عجيب، وجرأة بالغة!!

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٧٨).

سَبَبُ انْغِمَاسِ الْمُنَافِقِينَ فِي النِّفَاقِ وَعُقُوبَتِهِم

١٩ - ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ(١) ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

ثم بين سبحانه الأسباب التي جعلت المنافقين ينغمسون في نفاقهم، فالشيطان قد استولى على قلوبهم، وتملّك نفوسهم، فاستحوذ عليهم وزين لهم أعمالهم حتى أنساهم ذكْر ربهم، وصاروا تابعين لوساوسه وتزينه ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ لقد تغلب الشيطان على المنافقين، وتملّك قلوبهم من كل جهة، حتى تركوا أوامر الله تعالى والعمل بطاعته، فصاروا طوع أمره ورهن إشارته، والشيطان هو العدو المبين لا يريد بهم إلا الشر ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

والموصوفون بهذه الصفات: هم أنصار الشيطان وأعوانه وجنوده، الذين فوّتوا على أنفسهم نعيم الدنيا والآخرة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ﴾ الذين استجابوا له ولبُّوا نداءه بسبب ضعف إيمانهم ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة.

ومن سُبل استحواذ الشيطان على الإنسان ترك صلاة الجماعة.

فعن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من ثلاثة في قرية ولا بدْوٍ، لا تُقام فيهم الصلاة، إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»**(٢).

---

(١) قرأ أبوعمرو بكسر الهاء والميم من ﴿عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ وضمهما حمزة والكسائي ويعقوب وخلف والباقون بكسر الهاء وضم الميم، وضم الهاء من ﴿عَلَيْهِمْ ﴾ وصلاً ووقفاً حمزة ويعقوب.

(٢) سنن أبي داود برقم (٥٤٧) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب برقم (٤٢٥) وفي صحيح سنن أبي داود (٥١١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرك (٢/٤٨٢)، والنسائي (٢/١٠٦) (٨٤٦)، وابن حبان في صحيحه برقم (٢٠٩٨)، وقال النووي: إسناده صحيح، نصب الراية (٢/٢٤)، والمسند (٢٧٥١٤، ٢١٧١٠)، قال محققوه: إسناده حسن من أجل السائب بن حبيش، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح.

الذِّلَّةُ وَالْهَوَانُ لِحِزْبِ الشَّيْطَانِ، وَالنَّصْرُ وَالْغَلَبَةُ لِحِزْبِ الرَّحْمَنِ

٢٠، ٢١- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ (١) ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ(٢) إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾

ذُكر صدْر هذه الجملة، في الآية الخامسة من السورة، صفة لغير المسلمين المعلنين مضادتهم لله والرسول، وذُكرتْ هنا مرة أخرى في شأن المنافقين المسرين مضادتهم لله والرسول، وفيها بيان للخسران الدنيوي والأخروي، الذي يلحق بحزب الشيطان، والمذَلة والهزيمة أشد أنواع الخسران في الدنيا.

وفي هذه الآية وعيد شديد لمن حادّ الله ورسوله بالكفر والمعاصي وبيان أنه مخذول مُهان، لا عاقبة له محمودة، ولا راية له منصورة.

والذين يحادون الله ورسوله، هم المخالفون لأمر الله ورسوله، المشاقون لما أنزل الله على رسوله بمخالفة الأوامر والنواهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ المغلوبين المهانين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾[الأنفال:١٣] .

وبعد هذا الوعيد يأتي وعد من الله تعالى لمن آمن بالله ورسله، واتبع ما جاء به رسل الله، فصار من حزب الله، وقد وعدهم الله بالفتح والعزة في الدنيا والآخرة، والله تعالى لا يُخلف وعده.

وقد كتب الله وقدّر أن تكون الغلَبة والنصر لرسل الله، على أعدائهم، لاسيما خاتمهم محمد ﷺ المعنيّ بهذه الآيات، وهذا من آثار قدرة الله تعالى التي لا يغلبها شيء ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ أي قدّر الله وحكَم ودوّن في اللوح المحفوظ وفق سابق علمه تعالى، بأن النصر له سبحانه ولكتابه، ورسله، وعباده المؤمنين، كما قال تعالى:

(١) ترك عد ﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ المكي والمدني الأخير وعدها غيرهما.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبوجعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿وَرُسُلِىٓ إِنَّ ﴾ والباقون بإسكانها.

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر:٥١] .

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣] .

والله تعالى لا يعجزه شيء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ قوي على نصر رسله وأوليائه، غالب على أعدائه، لا يُقْهر ولا يُغلَب، ولا يعجزه شيء يريده.

قال مقاتل: لما فتح الله مكة والطائف وخيبر للمؤمنين قالوا: نرجو الله أن يظهرنا على فارس والروم، فقال عبد الله بن أبيّ بن سلول: أتظنون أن الروم وفارس، كبعض القرى التي غلبتم عليها؟ والله إنهم لأكثر عددا، وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم ذلك، فنزلت ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾[1].

الإِيمَانُ وَمَحَبَّةُ أَعْدَاءِ اللهِ لاَ يَجْتَمِعَانِ

٢٢- ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

تشير الآية إلى أن من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر، محبة المؤمنين وموالاتهم وبغض الكافرين وعداوتهم، ولا يكون العبد مؤمناً إلا إذا كان عاملاً بمقتضى الإيمان، والحب في الله والبغض في الله من ثمرات الإيمان ولوازمه.

ولما كان لأكثر المنافقين قرابة بأصحاب النبي ﷺ وكان نفاقهم لا يخفى، فقد حذر الله تعالى المؤمنين الخلّص من مودةِ ومحبةِ من يُعادي الله ورسوله، لأن الإيمان ومحبة أعداء الله لا يجتمعان في قلب واحد، فإذا حصل في القلب محبة أعداء الله، فقد انتفى عنه الإيمان الكامل، فَحُبُّ الله وحُبُّ أعدائه لا يجتمعان، كما لا تجتمع الظلمة والنور.

---

(١) البحر المحيط (٢٣٨/٨) والتفسير الكبير (٢٧٦/٢٩) والألوسي (٣٤/٢٨).

وقد جاء النهي عن محبة أعداء الله تعالى بطريقة الخبَر، مبالغة في النهي، والآية عامة في الولاء والبراء، سواء أكانت قد نزلت في أشخاص بأعينهم أم لا، فلا يلزم أن يكون لها سبب نزول، وقد ذكر القرطبي ثمانية أقوال في سبب نزولها وذكر المفسرون بعض ذلك، ومما ورد في أسباب النزول أنها نزلت في:

١- أبي عبيدة عامر بن الجراح، فقد قَتل أباه يوم بدر، بعد أن تصدَّى له والده، فأخذ أبوعبيدة يحيد عنه، فلما أكثر، قصَدَه أبوعبيدة فقتله[(١)].

٢- ونزلت في أبي بكر ﷺ، دعا ابنه - قبل إسلامه - إلى المبارزة يوم بدر، وطلب من النبي ﷺ أن يجعله في المقدمة، فقال ﷺ: **«متّعْنا بنفسك يا أبابكر، أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري»**؟

٣- ونزلت في مصعب بن عمير، فقد قتل أخاه: عبيد بن حمْنة، يوم أحد.

٤- ونزلت في عمرو بن العاص قتل أخاه العاص بن هشام يوم بدر.

٥- ونزلت في علي وحمزة، فقد قَتَلا عُتبة وشيبة ابنا ربيعة يوم بدر[(٢)].

٦- وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق، فقد لطم أباه حين سبّ النبي ﷺ ولما بلغ ذلك النبي ﷺ قال له: **«لا تعُدْ»** فقال أبوبكر: لو كان السيف قريباً مني لقتلْتُه[(٣)].

٧- وقيل: نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ، كان جالساً إلى جنب النبي ﷺ فشرب الرسول ماءً، فقال عبد الله: يا رسول الله، ابق فَضْلةً من شرابك، قال: **«وما تصنع بها؟»** قال: أسقيها أبي، لعل الله سبحانه يُطهّر قلبه، ففعل، فأتى بها أباه، فقال: ما هذا؟ قال: فَضْلَةٌ من شرابٍ، مِنْ رسول الله ﷺ جئتُك بها لتشربها، لعل الله يطهر قلبك، فقال:

---

(١) الطبراني في الكبير ٣٦٠ والحاكم ٢٦٤/٣ وابن عساكر ٤٤٦/٢٥ والبيهقي في السنن (٢٧/٩).

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٣٠١ بغير سند، والمستدرك ٢٦٥/٣ والطبراني بسند جيد كما في الإصابة ٢٤٤/٢ والسيوطي (٢٨٨).

(٣) أسباب النزول للواحدي عن ابن جريج (ص ٣١٠)، وقال الحافظ في تخريج الكشاف (١٦٦) نقله الثعلبي عن ابن جريج.

هلاّ جئتني ببول أمّك! فرجع إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله، ائذن لي في قتل أبي، قال: فقال رسول الله: «ارفق به، وأحسن إليه» فنزلت الآية، قاله السُّدي.

٨- وقيل: إنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حين كتب إلى أهل مكة، يخبرهم أن رسول الله ﷺ قد عزم على قَصْدهم، قاله مقاتل، واختاره الفراء والزجاج.

٩- ومن ذلك أنه حين استشار النبي ﷺ أصحابه في أسارى بدر، فأشار أبوبكر أن يؤسروهم وتؤخذ منهم الفدية، فَهُمْ بنو العم والعشيرة، ولعل الله تعالى أن يهديهم، وأشار عمر بأن يمكِّن كل قريب من قريبه فيقتله.

وأياً ما كان الأمر، فقد بيّنت الآية أن مودة الكفار تقدح في صحة الإيمان، وأن المؤمن لا يوالي الكافر، ولو كان أباً، أو ابناً، أو أخاً، أو زوجاً، أو أحداً من عشيرته:

﴿لَّا تَجِدُ﴾ أيها الرسول ﴿قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ حق الإيمان، ويعملون بما شرعه الله لهم، ويصدقون بيوم القيامة ومافيه من بعث وحساب وجزاء، لا تجدهم ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي لا يحبون ويُوَالُون من عادى الله ورسوله، وخالف أمر الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران:٢٨] .

لقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبلغ المؤمنين بأن مَنْ يجاهر بمخالفة ما شرَع الله، أو يجاهر بسوء معاملة المسلمين من أجل إسلامهم، وليس لعداوة دنيوية، فعلى المسلمين أن يُظهروا عداوتهم لهم، إلا إذا كانوا أولي بأس شديد، فإنه يرخّص له في اتقاء شرهم، وهذا معنى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ وهذه التقية لا تكون مع المسلمين، إنما تكون من ذوي البطش والنفوذ من غير المسلمين.

وقد ذكرت الآية أربعة أصناف من المحادين لله ورسوله لا تجوز موالاتهم:

أولا: الأصول ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ أي أنه لا يجوز للأبناء المسلمين أن يُوالُوا ويُوادُّوا آباءهم غير المسلمين وهم الذين أتوْا بأبناهم إلى الحياة وكانوا السبب المباشر

في ذلك، فإن رابطة الدين أقوى من رابطة الدم، فقد قتل أبوعبيدة أباه الكافر، واستأذن عبد الله بن عبد الله، النبي ﷺ في قتل أبيه المنافق، فنهاه النبي ﷺ، وضرب أبوبكر أباه لما سب النبي ﷺ وهذا لا ينفي حُسْنُ صُحْبتهم في الدنيا معروفاً.

ثانياً: الفروع ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ الذين هم قطعة منهم، وفلذات أكبادهم، لا تجوز موالاتهم إذا كانوا غير مسلمين، كما ورد أن أبابكر طلب مبارزة ابنه عبد الرحمن، يوم بدر، وكان ذلك قبل إسلامه، فقد أسلم أيام الهدنة.

ثالثاً: الحواشي ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ وهم الذين تربطهم بهم رابطة الدم، فلا تجوز مودتهم لعدم إسلامهم، كما ورد أن مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير، وقيل: إنه مرّ بأخيه يأسرُه رجل من المسلمين، فقال له: شُدُّوا وثاقه.

رابعاً: العائلة ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ وهم الذين ينتسبون إليهم، وتربطهم بهم رابطة الدم، ومع ذلك فلا تجوز موالاتهم إذا كانوا غير مسلمين، فإن حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، قتلوا: عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة، يوم بدر.

وقدم الله سبحانه الآباء في الآية: لأنهم أول من تجب طاعتهم، وثنّى بالأبناء: لأنهم ألْصق الناس بهم، وثلّث بالإخوان: لأنهم الناصرون المؤازرون لهم، وختم بالعَشِيرة: لأن الانتماء يكون إليهم، والاعتزاز يكون بهم.

ثم أثنى سبحانه على الذين يوالون في الله ويعادون في الله فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله، هم المؤمنون حقاً، المستحقون لجنة الله ورضوانه، ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤].

ثم ذكر الله تعالى لهؤلاء المخلصين في إيمانهم خمس مزايا:

أولاً: أن الله تعالى ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: رَسمه وثبّته وغرسه وقوّاه، فهو

إيمان لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك فاختلط الإيمان بهم، وأصبحت قلوبهم تحب من أحبه الله، وتبغض من أبغضه الله، فالإيمان ثابت في قلوبهم متمكن منها.

ثانياً: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي قواهم بوحيه ومعونته ومدده الإلهي، وأمدهم بنصر من عنده، وأيدهم على عدوهم في الدنيا، ويسمى النصر على العدو رُوحاً، لأن الأمة تحيا به، فهو بمعنى عناية الله ولطفه، والله تعالى ثبتهم وقواهم بنورٍ من عنده، فصاروا أشداء على الكفار رحماء بينهم.

ثالثاً: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أي إنهم يهنؤون بالحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم يهنؤون فيها بحدائق وبساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ خلوداً أبدياً، ماكثين فيها زمناً ممتداً لا ينقطع، ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس من كل ما لذ وطاب، وفوق ذلك فإنهم ينعمون برضوان الله تعالى فلا يسخط عليهم أبداً.

رابعاً: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي أحل الله عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدا، لأنه سبحانه قبل أعمالهم وأثابهم عليها.

خامساً: ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي أنهم رضوا بما أعطاهم الله من أجر ومثوبة وكرامة، ورفع درجات.

وذكَر سبحانه رضوان الله عليهم بعد دخولهم الجنة، لأن رضوان الله تعالى أكبر النعم. قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

ثم أشار سبحانه إلى الذين أعطاهم الله هذا النعيم المقيم، والفوز العظيم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ الذين يشرُف المرء بالانتساب إليهم، فهم أولياء الله ومُحِبّوه، وهم جماعة الله وخاصته. وحزب المرء: أنصاره وجنده ومن يواليه ﴿أَلَآ﴾ فانتبهوا يا قوم ﴿إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، وشتان ما بين حزب الله وحزب الشيطان! فالأول له الفلاح والنجاح، والآخر له الخسران والوبال.

جاء في الحديث «**إن الله يحب الأخفياء - أي الخامل ذكرهم- الأتقياء، الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا، وإذا حضروا لم يُدعوْا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة**» فهؤلاء أولياء الله، الذين قال فيهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وجاء في الأثر (اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة)[2].

وذلك لأن الإحسان يستعبد القلب، ويكسر العين، وربما يؤدي العطاء والإحسان إلى موالاة غير المسلمين.

ومن يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو محب لأعداء الله يواليهم ويترك المسلمين، فإن إيمانه مزعوم لا حقيقة له، لأن لكل أمر برهان يصدقه ومجرد الدعوى لا تكفي، محبة المؤمنين وبغض غيرهم من ثمرات الإيمان الخالص، ومن علامات الفلاح في الدنيا والآخرة.

تم تفسير (سورة المجادلة) ولله الحمد والمنة

---

(١) الحاكم (٣٢٨/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسنن ابن ماجة ٣٩٨٩ من طريق ابن لهيعة، وقد توبع، وانظر حديث سعد بن أبي وقاص في مسند أحمد (١٥٢٩)، وفيه: «إن الله يحب الغنى الخفي النقي».

(٢) أخرجه ابن مَردُوَيه عن كثير بن عطية عن رجل، كما في تخريج أحاديث الكشاف (٤٣٢/٣) وبنحوه أخرجه الديلمي (٢٠١١) من طريق الحسن عن معاذ عن النبي ﷺ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَشْرِ (٥٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الحشر)، هي السورة التاسعة والخمسون في ترتيب المصحف، والثامنة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة البينة، وقبل سورة النصر، في السنة الرابعة من الهجرة، وكان نزولها عقب إخراج بني النضير من القرية التي كانوا يسكنون فيها، واسمها (الزّهْرة) في ضواحي المدينة، وكان اليهود قد ذهبوا إلى المدينة، قرب هجرة النبي ﷺ إليها، انتظارا لقدومه، كما كانوا يقرؤون في التوراة، فلما جاءهم محمد ﷺ بأوصافه وعلاماته التي عرفوها في كتبهم كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

وتسمى (سورة الحشر)، لوقوع لفظ الحشر في أولها، ويسميها ابن عباس: سورة بني النضير، لأن قصتهم ذُكرت فيها.

فعن سعيد بن جبير، قال: قلت: لابن عباس رضي الله عنهما: (سورة الحشر، قال: قل: بني النضير)[1].

وفي البخاري عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، مازالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تُبق أحدا منهم إلا ذُكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر، قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير)[2]. وقد أراد ابن عباس أن يكون للسورة اسمين.

وسماها النبي ﷺ سورة الحشر كما في حديث معقل بن يسار ﷺ عند الترمذي وغيره أن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٠٢٩،٤٨٨٣).

(٢) البخاري برقم (٤٨٨٣)، وصحيح مسلم برقم (٣٠٣١).

الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وَكَّل الله به سبعين ألف ملك يُصَلُّون عليه حين يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدا، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة» [(١)].

وهي سورة مدنية باتفاق، وعدد آياتها أربع وعشرون آية باتفاق علماء عدّ الآي.

وعدد كلماتها: أربع مئة وخمس وأربعون كلمة، وهي ألف وتسع مئة وثلاثة عشر حرفاً.

أغراض السورة:

بدأت السورة بتمجيد الله تعالى وتنزيهه، فالكون كله يشهد بوحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، والمحور الرئيس الذي تدور عليه السورة: هو قصة يهود بني النضير، الذين أجلاهم النبي ﷺ عن المدينة، فأخرجهم من حصونهم وقِلَاعِهم المنيعة، بعد أن نقضوا عهد النبي ﷺ وكانوا يرون أنه لا تُردّ له راية، فلما كانت محنة يوم أُحد ارتابوا في شأنه، وتحالفوا مع قريش وغَدَروا، فلما رجع النبي ﷺ من غزوة أُحُد تبين له معتقد بني النضير وغَدْرِهم وموالاتهم للكفار، فحاصرهم وعاهدهم على أن يُجْلِيهم عن أرضهم فارتحلوا إلى خيبر والشام وغيرهما.

وتَبِعَ ذلك موضوع الفيء والغنيمة وما يتعلق بهما من شروط وأحكام، ومن ذلك أن الفيء - وهو الذي حصل للمؤمنين بدون حرب ولا قتال - يختص بالفقراء دون غيرهم.

وفي أعقاب ذلك نوّهت السورة بفضل المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

وفي مقابل ذلك تحدثت السورة عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام، فبينتْ جُبْن اليهود، وضَربتْ للمنافقين أسوأ الأمثال، حيث مثّلتْهم بالشيطان الذي يُغري الإنسان بالكفر والضلال ثم يتبرأ منه.

ووجّهت السورة نداء إلى المؤمنين تأمرهم فيه بتقوى الله تعالى، وترهّبهم من اليوم

---

(١) المسند (٥/٢٦) برقم (٢٠٣٠٦) بإسناد ضعيف؛ لضعف خالد بن طهمان، ضعّفه ابن معين، وانظر آخر السورة وأخرجه الترمذي برقم (٢٩٢٢) قال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب ولا مال ولا بنون، وتبين أن مصير السعداء والأشقياء لا يستويان، وأن الفارق كبير بين أهل الجنة وأهل النار، وتنهاهم عن التشبه بالفاسقين الذين خرجوا عن طاعة ربهم فكان عاقبة أمرهم خُسْراً.

وختمت السورة بذكر نحو عشرين اسماً من أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، وفيها تنزيه الله تعالى عن كل نقص، حتى يتناسق بدء السورة مع ختامها.

هذا: وقد تحدثت الآيات الخمس الأولى من السورة عن قصة إجلاء بني النضير.

وتحدثت الآية السادسة والسابعة عن حكم الفيء وكيفية توزيعه.

وتحدثت الآية الثامنة عن المهاجرين، والآية التي بعدها تحدثت عن الأنصار، أما الآية العاشرة فتحدثت عن التابعين ومَنْ بعدهم من أهل الإيمان.

والسبع آيات التي تتوسط السورة من الآية ١١-١٧ تناولت الحديث عن المنافقين الذين لا يَرَوْن حرجاً في أن يعيشوا مع اليهود، ويقاسموهم حياة خشنة أو ناعمة ويُطَبِّعُون علاقاتهم بهم.

وتُبرز السورة، طبيعة اليهود التي لا تختلف في الحاضر والمستقبل عن الماضي، فهم ناقضون للعهود دائماً ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة:١٠٠] يُغَرِّرُون بمن تحالف معهم ويَخْذُلونه، وشأنهم شأن غيرهم من الكفار، والنار عاقبة كل منهم.

ويأتي التعقيب في آخر السورة على أحداث اليهود ومَنْ سار في ركابهم، بتوجيه الخطاب للمؤمنين أن يتقوا الله تعالى ويعملوا ليوم الحساب والجزاء، ولا يكونوا كغيرهم ممن نسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم، لأن أهل النار وأهل الجنة لا يستويان.

وتشير الآية الحادية والعشرون إلى أن لهذا القرآن أثر كبير في النفوس، فهو يَهُزُّ القلب هزًّا، ويحرك الضمير والوجدان، ولو نزل على الصخرة الجامدة لتأثرت به وخشعت له.

وفي الآيات الثلاث الأخيرة عود على ما بدأت به السورة من تسبيح الله تعالى في ظلال نخبة من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

قصة بني النضير:

بنو النضير: هم جماعة من اليهود، من ذرية الكاهن بن هارون، هم وبنو قريظة، وكان يقال للقبيلتين: الكاهنان[(١)].

والكاهن هو الذي يحفظ الديانة بيده ويد ذريته، وكان هارون عليه السلام يحفظ الملة الإسرائيلية، وكان هؤلاء اليهود قد نزلوا المدينة على إثْر فتن في بني إسرائيل، انتظاراً منهم لمقْدم محمد ﷺ[(٢)].

سبب تواجد اليهود في المدينة:

وذلك أن موسى عليه السلام كان قد أرسل طائفة من بني إسرائيل لقتال العماليق فتقاعسوا، فلما مات موسى عليه السلام رجعوا إلى أريحا وما حولها، فقال لهم قومهم: أنتم عصيتم أمر موسى فلا تدخلوا بلادنا، ولما كانوا يعلمون بظهور نبي جديد كما في كتبهم، خرجوا إلى موطن هجرته ﷺ ليقيموا فيها حتى يظهر النبي الخاتم، فيكونوا أول من يؤمن به، فلما ظهر النبي ﷺ كانوا أول من كفر به، فلعنة الله على الكافرين، وكانوا قد نزلوا في قرية يقال لها: الزُّهْرَة، قُرب المدينة في شمال قباء، وصار لهم فيها نخل وأموال كثيرة، وكان لهم فيها ستة حصون.

ولما بُعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أُبيّ بن سلول وغيره يهددونهم بسبب إيوائهم للنبي ﷺ وأصحابه، ويتوعّدونهم بالحرب، هم والمسلمون معهم، فنصحهم النبي ﷺ بأن قريشا تريد أن تجعل بأسهم بينهم، فلما كانت غزوة بدر وانتصر المسلمون، قال بنو النضير: إنه النبي الأمي الذي نجد نعته في التوراة، وكان النبي ﷺ حين قدم إلى المدينة، كتب بينه وبينهم صلحا على أن يكونوا محايدين، ليسوا معه ولا عليه.

---

(١) تفسير ابن عطية (٢٨٣/٥).

(٢) تفسير فتح القدير (١٩٢/٥).

جبريل يأمر الرسول بقتل كعب بن الأشرف:

فلما وقعت غزوة أحُد، ارتاب اليهود في شأن النبي ﷺ ونقضوا العهد الذي بينهم وبينه، وأظهروا العداوة للنبي ﷺ فخرج كعب بن الأشرف، ومعه أربعون رجلاً إلى مكة، وحالفوا قريشاً عند الكعبة، ورجع كعب إلى المدينة، ونزل جبريل، فأخبر النبي ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبوسفيان وأمره بقتل كعب بن الأشرف، فقتله محمد بن مسلمة غيلة في حصنه، وكان أخاً له من الرضاع.

تآمر اليهود على قتل النبي ﷺ:

وكان النبي ﷺ قد اطلع على خيانة منهم حين أتاهم في دية المسلمين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمْري بعد انصرافه من غزوة بئر معونة التي استشهد فيها سبعون من قراء الصحابة، ونجا عمرو من القتل، وأسَرهُ المشركون، فأطلقه عامر بن الطفيل، ولمّا كان في طريقه إلى المدينة، قتل عمرو رجلاً من بني عامر، يظن أنه يثأر بهما، وكان لبني عامر عقد أمان، مع النبي ﷺ فلما قدم عمرو، وأخبَرَ النبي ﷺ بذلك، قال له: لقد قتلْت قتيلين، وسوف أدفع ديتهما، فخرج إلى بني النضير يطلب منهما المشاركة في دفع دية الرجلين بمقتضى ما بينهما من اتفاق، فتآمروا على الغدر بالنبي ﷺ وهو عندهم.

١ - وقال: عمرو بن جحاش: أنا أظهر على البيت الذي يجلس تحته، فأطرح عليه صخرة، فجاء جبريل وأخبر النبي ﷺ بما أراد القوم، فنهض من مجلسه متوجهاً إلى المدينة، وكان سلام بن مشكم قد قال لهم: لا تفعلوا فوالله لَيُخْبرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه.

٢ - ومرة أخرى بيّتُوا نية الغدر بالنبي ﷺ حيث طلبوا منه أن يخرج إليهم في ثلاثين من أصحابه، ثم رأوا أن هذا العدد كثير، فطلبوا تعديله إلى ثلاث، قالوا: ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتّبعناك، ففعل، واشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار، مسلم، تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وأرسل إليهم محمد بن مسلمة، يطلب منهم الخروج، وأمهلهم عشراً.

حصار بني النضير وخروجهم من المدينة:

وفي ربيع الأول سنة أربع من الهجرة، سار إليهم النبي ﷺ والمسلمون معه، وأمرهم أن يخرجوا من قريتهم، ولا يساكنوه فيها، وقال لهم: قد أمهلتكم عشراً، فمن وجدته بعد ذلك ضربت عنقه، وأخذوا يتجهزون للخروج، فأرسل إليهم زعيم المنافقين عبدالله ابن أبي يقول لهم لا تخرجوا وسوف أمدكم بألفين، يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاءكم من غطفان، فاشتد ساعدهم، وقال رئيسهم حُيي بن أخطب: إنا لن نخرج، واصنع مابدا لك، فحاصرهم النبي ﷺ يحمل اللواء علي بن أبي طالب، ولم ينصرهم أحد ممن وعدوهم أن يكونوا معهم، فلما رأوا ذلك قذف الله في قلوبهم الرعب، فطلبوا من النبي ﷺ الصلح، فأبى إلا الجلاء عن ديارهم، فأخذوا يُخْرِبون بيوتهم بأيديهم، ويحملوا معهم ما ينتفعون به من الأبواب والأخشاب، فحمل كل ثلاثة أبيات، حِمْل بعير، وخرجوا، فمنهم من لَحِق بخيبر، ومنهم من لحق بأريحا وأذرعات، وخرج قليل منهم إلى الحيرة.

ولم يَسْلَم من بني النضير إلا أهل بيتين هما: آل أبي الحقيق، وآل حُييّ بن أخطب، فإنهم لَحِقُوا بخيبر، ولحقت طائفة منهم بالحيرة.

وأسلم من بني النضير رجلان هما: يامِن بن عُمير، وأبوسعد بن وهب، وترك بنوا النضير خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاث مئة وأربعين سيفا، وقد قسمها النبي ﷺ على المهاجرين دون الأنصار، لأنهم هم الذين تركوا ديارهم وأموالهم، وأصبحوا بحاجة إلى المعونة، ولم يُعط من الأنصار إلا ثلاثة أظهروا حاجتهم وهم: سهل بن حُنيف، وأبو دَجانة، والحارث بن الصّمة، أما النخيل فقد خص الله به رسوله[(١)].

---

(١) ينظر في هذا: أبوداود برقم (٣٠٠٤)، وفتح الباري (٢٥٥/٧) عن ابن مردويه بإسناد صحيح عن الزهري، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني (٩٥/٢)، وطبقات ابن سعد (٥٧/٢)، وابن هشام (١٩٠/٢)، وتفسير الطبري (٢١/٢٨)، والبداية لابن كثير (٧٥/٤).

قال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: كانت بني النضير بعد بدر بستة أشهر [(١)].

هذا: ولم يُخمِّس النبي ﷺ أموال بني النضير، بل جعلها خالصة له يُنفقها في مصالح المسلمين، لأن الله تعالى قد أفاء عليه بها، ولم يوجف المسلمون عليها من خيل ولا ركاب، وكان النبي ﷺ قد استولى على أرضهم وديارهم، وأخرجهم من حصونهم صاغرين مُهانين.

وهكذا كان اليهود أذلاّء في مقابلة المسلمين لا شوكة لهم ولا قوة، ولا عزة لهم ولا منعة، فما بالهم اليوم يشمخون بأنوفهم ويشترطون على المسلمين أصحاب الأرض في فلسطين ما يشاؤون، ولا يريدون أن تقوم لهم قائمة، ولا أن يعود اللاجؤون إلى ديارهم، ولا يكون لهم كيان ولا قوة، إنه لمن عجائب الزمن أن يُصبح العدوّ المحتل هو سيد الموقف الذي يُملي شروطه. وأن يكون صاحب الأرض تحت رحمة المغتصب [(٢)]!!

* * *

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/٣٢٩).

(٢) في ٢١/ ٦/ ١٤٣٠ هـ أعلن رئيس وزراء الكيان الصهيوني (نتنياهو) أن القدس عاصمة أبدية لإسرائيل، وأنه لا عودة للّاجئين الفلسطينيين، وأن على أهل فلسطين أن يعترفوا بالدولة اليهودية العبرية، وأنه يوافق على قيام دولة فلسطينية منزوعة السلاح على ساحة الأرض التي يريدها بعد الاعتراف بهم! فاللهم ارحم ضعفنا، واجبر كسرنا، وغيّر ما بنا، وهيء لنا أسباب النصر.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

التَّمْهِيدُ لإِخْرَاجِ الْيَهُودِ مِنَ الْمَدِينَةِ بِشُكْرِ اللهِ تَعَالَى

١ - ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾

بدأت سورة الحشر بالإخبار عن تسبيح هذا الكون شكرا لله تعالى على ما أفاء به من فتح بلاد بني النضير، لأن خُلُوّ الأرض من الطغاة وتطهيرها منهم، نعمة جليلة، جديرة بحمد الله تعالى وتمجيده.

وحرية الإنسان في أرضه، واستمتاعه بحقوقه خير عظيم، يستحق الثناء على الله تعالى، فما أجمل أن يُصبح المرء آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، لا يتسلط عليه ظالم، ولا يسلُب أرضه محتلّ.

إنّ تسبيح الله تعالى هنا قبل حكاية طرد اليهود من ديارهم، يشبه تحميده سبحانه في سورة الأنعام بعد استئصال الظَّلَمة وقطْع دابرهم ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾.

وتسبيح العالم العلوي والعالم السفلي، جاء كله في القرآن الكريم بلفظ (ما) دون (من) إلا في موضعين هما قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] وفي سورة النور: ٤١ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ وهو يدل على أن هذا التسبيح يشمل العقلاء وغير العقلاء، فقد أثبتت الآية تسبيح السموات والأرض بذاتهما، وهن من غير العقلاء، وهذا يشمل: الأفلاك والكواكب، والبروج، والجبال والوديان، والوهاد، والبحار، والفجاج.

ثم عطف – سبحانه - على غير العقلاء بلفظ ﴿مَن﴾ ليشمل جميع العقلاء، فضلا عن أن كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ تشمل جميع الكائنات، فلا تبقى ذرة في فلاة إلا شملتها.

وبهذا فإن التسبيح يشمل كل من في الكون، عاقل وغير عاقل، فيشمل الملائكة، والإنس، والجن، والطير، والحيوان، والنبات، والشجر، والحجر، والمدر، وكل مخلوق لله تعالى.

قال ابن عاشور: في عدم ذكر لفظ (ما) في أول سورة الحديد بالنسبة لتسبيح أهل الأرض ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إنها تضمنت الاستدلال على عظمة الله تعالى وصفاته وانفراده بخلق السموات والأرض، فكان دليل ذلك مجموع ما احتوت عليه السموات والأرض من أصناف الموجودات.

وأما أول سورة الحشر فقد سيقت للتذكير بمنة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرْضية هي خُذلان بني النضير، فناسب ذلك تخصيص أهل الأرض بزيادة (ما)[1].

جميع الكائنات تسبح بحمد الله:

١- وقد جاء تسبيح الله تعالى نفسه - ليعلمنا كيف نسبحه -:

فقال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧﴾ [الروم].

وأمرنا بتسبيحه فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [الطور].

٢- والملائكة تسبح بحمد الله تعالى:

قال جل شأنه: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر:٧٥].

وقال سبحانه على لسان الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، وقال أيضاً: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

٣- والرعد يسبح بحمد الله ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٣].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٦٥/٢٧).

٤- والجبال تسبح بحمد الله ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨] .

٥- والطير تسبح بحمد الله ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩] .

٦- والإنسان يسبح بحمد الله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر] .

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق].

٧- والسموات والأرض ومن فيهما يسبحن بحمد الله ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

والكون كله يسجد لله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ .

وهذا للعقلاء: الملائكة، والإنس، والجن.

ثم ذكر غير العقلاء بأسمائها فقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾.

ولأن من الناس مؤمن وكافر، قال تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨].

للجمادات والحيوانات نُطق وفَهْم وإدراك:

والتسبيح والسجود محمولان على الحقيقة، فقد أخبر تعالى أن لجميع الكائنات إدارك كإدراك الإنسان:

١ – وذلك حين تخلّت السموات والأرض والجبال عن حمل الأمانة، وحملَها الإنسان.

٢ - وحين قال تعالى للسموات والأرض ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

٣ - وأثبت سبحانه أن الجبال تتصدع من خشية الله، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وأن الحجارة تهبط من خشية الله ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وفي الحديث أن الحجر ينطق ويتكلم وكذا الشجر: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ**

اليهوديّ من وراء الحجر والشجرة، فيقول الحجر أو الشجرة: يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهوديّ خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود»[١] .

٤ - وفي الحديث عن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا يسمع مَدَى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة**»[٢] .

٥ - وقد ارتجف جبل أُحُد لصعود النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان عليه، فقال ﷺ من حديث أنس ﷺ: «**اثْبتْ أُحُد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**»[٣] .

والإخبار باستشهاد عمر وعثمان رضي الله عنهما من معجزات النبي ﷺ.

٦ – وقد صح في الحديث أن عرش الرحمن اهتز لموت سعد بن معاذ، فاهتزاز العرش على عظمته دليل فهم وإدراك.

٧ - وقال الهدهد لسليمان ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢].

٨ - وقالت النملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

٩ - وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ صلّى الصبح، ثم أقبل على الناس فقال: «**بينما رجل يسوق بقرة، إذ ركبها فضربها فقالت: إنا لم نُخلق لهذا، وإنما خُلِقْنا للحرث**» فقال الناس: سبحان الله، بقرة تتكلم؟ فقال ﷺ: «**فإني أومن بهذا أنا وأبوبكر وعمر، وما هُما ثَمّ**»[٤] أي أن أبابكر وعمر لم يكونا في القوم وقتئذ.

١٠ - ولمّا أخذ الذئب شاة من غنم الراعي واستنقذها - أي أن الراعي استخلص

---

(١) المسند بإسناد صحيح (٩٣٩٨)، وانظر: (٧٣٠٥ و١٠٥٨٦).

(٢) من حديث أبي سعيد الخدري في البخاري (٦٠٩،٣٢٩٦،٧٥٤٨).

(٣) من حديث أنس في البخاري برقم (٣٦٧٥،٣٦٨٦،٣٦٩٧)

(٤) ينظر الحديث في البخاري عن أبي هريرة (٢٣٢٤) بنحوه و(٣٤٧١) وهذا لفظه (٣٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨٨)، والترمذي (٣٦٧٧،٣٦٩٥)، والمسند (٧٣٥١)، وابن حبان (٦٤٨٥)، والنسائي في الكبرى (٨٠٥٧-٨٠٦٠).

الشاة من الذئب واستردّها منه - قال له الذئب، فَمَنْ لها، يومَ السَّبع يوم لا راعي لها غيري، فقال الناس: سبحان الله، ذئب يتكلم؟ فقال ﷺ: «**إني أؤمن بهذا، أنا وأبوبكر وعمر، وما هما ثم**»[1].

واشتكى جمل إلى النبي ﷺ أن صاحبه يؤذيه ويضربه.

وعلى كل فالآية تذكير للمسلمين أن يشكروا نعمة الله تعالى عليهم، ويشكروه على نصرهم على عدوهم، وفيها تمهيد لموضوع السورة، وهو إخراج بني النضير وقسمة أموالهم.

والله تعالى هو العزيز الذي قهر كل شيء، ولا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه أمر، وهو الحكيم في خَلْقه وأمره، فلا يَخْلُق شيئاً عبثاً، ولا يشرع إلا ما فيه مصلحة لعباده، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك إخراج بني النضير إلى خيبر وغيرها.

إِجْلاَءُ بَنِي النَّضِيرِ مِنْ ضَوَاحِي الْمَدِينَةِ وَسَبَبُهُ

٢- ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ[2] ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ[3] بُيُوتَهُم[4] بِأَيْدِيهِمْ[5] وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾

لإخراج يهود بني النضير من ضواحي المدينة المنورة قصة:

---

(١) ونص الحديث في البخاري تتمة الحديث السابق برقم (٣٤٧١، ٣٦٦٣، ٣٦٩٠)، ومسلم (٢٣٨٨)، وحديث البقرة والذئب حديث واحد في الصحيحين.

(٢) قرأ ابن عامر والكسائي وأبوجعفر ويعقوب بضم العين من ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ والباقون بإسكانها، وكسر الهاء والميم وصلا من ﴿قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أبوعمرو ويعقوب، وضم الهاء والميم حمزة والكسائي وخلف، وكسر الهاء وضم الميم الباقون.

(٣) قرأ أبوعمرو بفتح الخاء وتشديد الراء من ﴿يُخْرِبُونَ﴾ مضارع خرّب، والباقون بإسكان الخاء وتخفيف الراء مضارع أخرب.

(٤) كسر الباء من ﴿بُيُوتَهُم﴾ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وضمها الباقون.

(٥) ضم الهاء من ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ يعقوب وكسرها غيره.

وذلك أن كفار قريش في مكة أرسلوا إلى اليهود في المدينة بعد غزوة بدر، يحرضونهم على قتال النبي ﷺ فعزمت بنو النضير على الغدْر برسول الله ﷺ فأرسلوا إليه يقولون: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج معنا ثلاثون حَبْراً، حتى نلتقي بمكان نَصف بيننا وبينك، ليسمعوا منك، فإن صدّقوك وآمنوا بك، صدّقناك وآمنا بك، فلما خرج إليهم قالوا فيما بينهم: كيف تَصِلُون إليه ومعه ثلاثين رجلاً، ثم قالوا: اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك، فخرج إليه ثلاثة من اليهود مشتملين على الخناجر يريدون الفتك برسول الله ﷺ وكان لامرأة منهم أخ مسلم، فأخبرته بما عزم عليه بنو النضير، فأقبل مسرعاً على رسول الله ﷺ وأخبره، فخرج إليهم النبي ﷺ وحاصرهم حتى صالحوه على الجلاء، وحَمْل ما أقلّت الإبل إلا السلاح وأنزل الله الآيات[1].

ومن جهة أخرى فإن النبي ﷺ لما قدم المدينة صالح اليهود على أن لا يكونوا معه ولا عليه، فلما انتصر يوم بدر، قالوا: إنه النبي المنعوت في التوراة، فلما هُزم يومُ أحد شكّوا في نبوّته، فنكثوا عهدهم، فخرج كعب بن الأشرف إلى أهل مكة في أربعين راكبا، وحالفوا أبا سفيان فأمر النبي ﷺ (محمد بن مسلمة) أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، فقتله غيلة، ثم صبّحهم بالكتائب وحاصرهم، حتى صالحوه على الجلاء، فجلى أكثرهم إلى أرض الشام، وطائفة منهم إلى خيبر[2].

قالت عائشة رضي الله عنها: كانت غزوة بني النضير على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلّت الإبل، من الأمتعة والأموال إلا الحلقة - يعني السلاح - فأنزل الله أول سورة الحشر، فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سِبْطٍ لم يُصِبْهُم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا

---

(١) انظر هذا المعنى في سنن أبي داود (٣٠٠٤)، وأسباب النزول للواحدي (ص ٣٤٣)، والسيوطي (٢٩٠)، وعبد الرزاق وغيرهم.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي (٤٦٩/٣).

ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي.

وأما قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ فكان جلاؤهم ذلك أول حَشْرٍ في الدنيا إلى الشام[١].

ونمضي مع الآيات: وذلك أن الله سبحانه هو الذي طهر المدينة من يهود بني النضير، الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ ولم يؤمنوا به، وقد سماهم القرآن كفارا، لأن من لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر، وقد أسند الله تعالى إخراج اليهود إلى نفسه، مع أن المسلمين محاصِرين لهم، لأن إخراجهم كان بوعد سابق من الله تعالى، وكفى الله ورسوله مؤونة القتال، فقد فاجأهم بأس الله وعذابه، من حيث لم يكن في حسبانهم ولم يخطر لهم على بال، وكان هذا أمر مقدر عند الله تعالى.

قال تعالى في الوعد السابق: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة:١٣٧].

معنى لأول الحشر:

لقد أخرجهم الله ﴿مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ أي من مساكنهم التي جاوروا فيها المسلمين حول المدينة، حيث قدموا إليها ينتظرون ما بَشّرتْ به توراتهم، من ظهور النبي الخاتم في المدينة، وكان هذا الإخراج ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي إلى أول الأرض التي حُشِروا إليها بالشام، وخيبر، وأذرعات، وأريحا، وكان هذا أول إخراج لليهود من جزيرة العرب.

وقد تعاقب حشرهم بعد هذا، حتى اكتمل إخراج جميع اليهود من الجزيرة في خلافة عمر ﷺ تنفيذاً لوصية النبي ﷺ «**لا يبقى دينان في جزيرة العرب**» كما في صحيح مسلم وغيره عن جابر ﷺ قال: أخبرني عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لأُخرِجَنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً**»[٢].

(١) صححه الحاكم في المستدرك (٤٨٣/٢) ووافقه الذهبي، وهو على شرط الشيخين والبيهقي (١٧٨/٣).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٦٧)، وأبوداود (٣٠٣٠)، والترمذي (١٦٠٦)، والمسند (٢٠١) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٧٥٦)، والنسائي في الكبرى (٨٦٣٣)، ومصنف عبدالرزاق (٩٩٨٥)، والبغوي (٢٧٥٦)، والبزار (٢٣٠).

قال مُرّة الهمداني: كان أول الحشر من المدينة، والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب، إلى أذرعات وأريحاء من الشام في أيام عمر.

وقال الكلبي: إنما قال: لأول الحشر، لأنهم كانوا أول من أُجلي من أهل الكتاب من جزيرة العرب، ثم أَجلى آخرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه[١].

وقيل: إن أول الحشر: إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخر الحشر: إخراجهم من خيبر إلى الشام، أو أن آخر الحشر هو حشر الناس جميعا إلى أرض المحشر.

وقد تم جلاء اليهود من فلسطين بعد ذلك مرتين: مرة في زمن (بختنصّر) ومرة في زمن (طيطس) سلطان الروم.

وفي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لبني النضير: «**اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر**»[٢].

وقد كانوا أهل حصون ومنَعة ونخيل وأموال وعقار وعز، فكان إخراجهم من حصونهم أمر بعيد المنال، ولذا قال تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ أي من ديارهم وأموالهم بهذا الذل والهوان، لشدة بأسهم وقوة منَعتهم، وحصانة ديارهم، مع أنهم أهل عدد وعتاد، ولهم حلفاء من المنافقين الذين قالوا لهم سراً ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ وحلفاء من غطفان، ومن بني عمومتهم، وهم بنو قريظة.

هذا من جانبكم أيها المسلمون.

أما من جانب اليهود فقد قال تعالى عنهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

لقد ظن اليهود أن حصونهم المنيعة تدفع عنهم بأس الله تعالى، ولا يقْدر عليهم أحد، فأعجبوا بها، وغرّتهم، وحسبوا أنه لا يقدر عليهم أحد، ولا ينال منهم شيء.

وكان اليهود يتخذون حصوناً يأوون إليها عندما يغزوهم العدوّ، وكان لبني النضير

---

(١) من تفسير البغوي والشوكاني وغيرهما للآية.

(٢) حديث مرسل عن الحسن عن ابن عباس في تفسير الطبري (٢٨/٢٠). وطبقات ابن سعد (٢/٤٢).

ستة حصون هي: الكَتِيبة، والوَطيح، والسُّلاَلِم، والنَّطَاةُ، والوَخْدَة، وَشَقّ[(١)].

وكانوا يظنون أن الأمر لن يصل إلى إجلائهم، لأنهم كانوا في أنفسهم أعزّ وأقوى.

فكانت النتيجة أن الله تعالى خذل بني النضير من حيث لم يخطر لهم على بال، وجاءهم عذاب الله وعقابه من حيث لم يتوقعوا، وأوقع الله في قلوبهم القتل والتشريد، وملأها بالجزَع والفزع، فاستسلموا لحكم الرسول فيهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وهو شدة الخوف والفزع، فلم تُغن عنهم حصونهم ولا قلاعهم، ولم ينفعهم قوة ولا دفاع.

والرعب سلاح من أسلحة نَصْرِ النبي ﷺ على العدو كما في قوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[(٢)] وذلك من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه.

وكان الرعب من أسلحة النصر في غزوة بدر، قال تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ والرعب جند الله الأكبر الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة ولا قوة ولا شدة.

وقد ألقى الله الرعب في قلوب اليهود فأصابهم الخور والضعف، وأزال قوتهم وشدتهم، ونصر المسلمين عليهم، وبمفهوم المخالفة فإن الله تعالى يلقي بالطمأنينة والثبات في قلوب المؤمنين كما قال تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال:١٢] .

ثم وصف الله حال بني النضير عند الجلاء فقال ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكانوا قد صالحوا النبي على أن لهم ما حملت الإبل، أي أنه لما أيقن اليهود بالجلاء، حَسدُوا المسلمين أن يسكُنوا منازلهم، فأخذوا يهدمون بيوتهم من الداخل بأيديهم، ومن الخارج بأيدي المؤمنين.

قال الزهري: وذلك أن النبي ﷺ لما صالحهم على أن لهم ما حملت الإبل، فكانوا ينظرون إلى أحسن الخشب فينزعونه ويأخذوه، ويخرب المؤمنون البقية، وكانوا يقْلعُون

---

(١) التحرير والتنوير (٦٩/١٣)، وقد أخرجه ابن مردُويه عن ابن عباس كما في الدر (٣٥٦/١٤).

(٢) من حديث ابن عباس في المسند (٢٧٤٢)، والطبراني (١١٠٤٧) بإسناد حسن وعن جابر في المسند (١٤٢٦٤)، وأبي ذر (٢١٤٣٥،٢٢٥٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٠٢)، وله شاهد في البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

العُمُد، وينقُضُون السُّقُف، وينقبون الجدران حتى لا يسكنها المسلمون[(١)] .

قلت: وهكذا فعل اليهود عندما خرجوا من سيناء بعد حرب العاشر من رمضان، فأزالوا منها معالم الحياة، من ماء وكهرباء وأشجار وبناء ومرافق عامة، وتركوها صحراء قاحلة، ويا ليت المستردِّين لها قد عمّروها وخضَّرُوا أرضها، كما فعل عدوهم بها من قبل!!

فتأملوا - أيها المؤمنون - ما نزل ببني النضير، وانظروا أسباب ما حل بهم حتى تنتفعوا من التاريخ ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ اتعظوا يا أصحاب البصائر السليمة، والعقول الراجحة، بما جرى لهم، حيث دبر الله أمر إخراجهم من ديارهم تدبيراً حكيماً، ونصر المؤمنين عليهم بأيسر الطرق، وجعل ديارهم من بعدهم عبرة وعظة.

لقد كان من الممكن أن يبقى بنو النضير في مساكنهم لو لم يتآمروا مرتين على اغتيال النبي ﷺ وهو بينهم آمن مسترسل، فكان من نتائج ذلك أن أُخرِجوا في أول حَشْرٍ لهم.

الكيان الصهيوني:

إن اليهود - في غفلة من المسلمين- أقاموا لأنفسهم دولة مدجّجة بالسلاح والعتاد، ونحن ننتظر حشراً آخر في الغد القريب يأتي عليهم إن شاء الله تعالى، ولكي يتحقق ذلك لابد للمسلمين أن يأخذوا بأسباب النصر المادية والمعنوية، وفي مقدمة ذلك أن يثوب المسلمون إلى رشدهم ويصطلحوا مع ربهم، وعندئذ يورّثهم الله ديار بني إسرائيل، ويرجع اليهود شتاتاً في العالم كالبدْو الرحّل، بلا وطن ولا مأوى، كما هو مكتوب عليهم في التوراة والقرآن، عقوبة لهم، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف:١٦٨] .

وقال سبحانه: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء:١٠٤].

---

(١) تفسير الخازن (٤/٤٤٥) وبنحوه قال ابن زيد في تفسير البغوي للآية.

وقال جل شأنه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [الأعراف:١٦٧].

وقد أرخ يوسف عليه السلام لإخوته وبيّن أنهم قوم رُحّل كالبدو، حين قال كما حكاه عنه رب العالمين ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ [يوسف:١٠٠].

٣- ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ[١] ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ﴾

أي: ولولا أن الله تعالى قضى وقدّر على بني النضير الخروج من ديارهم عقاباً لهم على كفرهم وتكذيبهم بالنبي ﷺ، ولولا أن الله تعالى قذف في قلوبهم الرعب حتى استسلموا، لعاقبهم الله في الدنيا بالجوع والعطش وهم في الحصار، وفُتحت ديارهم عَنوة، فعُذبوا بالقتل والأسر والجرح والإهانة، كما فُعل ببني عمومتهم.

فلولا أن الله كتب على يهود بني النضير الجلاء الذي قضاه وقدره عليهم، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم إن فاتهم العذاب الدنيوي فإن لهم في الآخرة عذاب لا يعلم شدته إلا الله، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ ﴾ من ديارهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ ولكن الله قدّر لهم الجلاء دون التعذيب والقتل، لمصلحة اقتضتها حكمته تعالى، ولعل منها أن يأخذ المسلمون أرضهم وديارهم، دون إزهاق للأرواح، استبقاء لقوة المسلمين لما ينتظرهم من فتوح أكبر.

ثم إن ما أصابهم في الدنيا لن يعفيهم من عذاب الآخرة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ فلا يخطر ببالهم أن عقابهم قد انتهى، فما أعده الله لهم في الآخرة أشد وأعظم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير، وأقرّ قريظة، ومنَّ عليهم، حتى حاربتْ قريظة بعد ذلك، فقتل رجالهم، وقسّم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا أن بعضهم لحقوا برسول الله ﷺ فأمّنهم وأسلموا، وأجلى رسول الله ﷺ يهود المدينة كلهم: بني

---

(١) ضم الهاء من ﴿عَلَيْهِمُ﴾ وصلاً ووقفاً حمزة ويعقوب وكسرها باقي القراء.

قينقاع، وهم قوم عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهودي كان بالمدينة [(١)].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم وأن يسيّرهم إلى أذرعات الشام وجعل لكل منهم بعيرا وسقاء [(٢)].

والجلاء: مفارقة الوطن، ويأتي الجلاء والإخراج بمعنى الإبعاد من وَجْهَين:

الأول: أن الجلاء يكون مع الأهل والولد، والإخراج يكون مع بقاء الأهل والولد.

الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة [(٣)]. قال تعالى:

٤ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾

أي: والسبب فيما حدث لبني النضير أنهم خالفوا الله وعصوْا أمره، وكذّبوا رسوله وخانوه ونقضوا عهده ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي أن ما أصاب اليهود في الدنيا وما ينتظرهم في الآخرة، قد حدث لهم لأنهم خالفوا أمر الله وأمر رسوله أشدَّ المخالفة، وحاربوهما، وسعَوْا في معصيتهما، ومن يخالف أمر الله ونهيه، فإن عقاب الله شديد لمن أعرض عن طاعته وذِكْره ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والمشاقة هي المعارضة والمحادّة والمعاندة.

إلْجَاءُ الْعَدُوِّ إلَى الاستِسْلامِ حَقْناً لِلدِّمَاء

٥ - ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾

لما حاصر رسول الله ﷺ بني النضير، شرع بعض الصحابة في قطع وحرق بعض نخيلهم، إرعاباً لقلوبهم وإهانةً لهم، وحملاً لهم على الاستسلام، فقالوا: يا محمد إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله الآية [(٤)].

---

(١) هذا المعنى في مسلم برقم (١٧٦٦)، والمسند (٧/٢)، والبخاري (٤٠٢٨).

(٢) الطبري (٥٠٥/٢٣)، والبيهقي (٣٥٩/٣)، وابن عساكر (١٧٩/١).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٦/١٨).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٢٤٤/٨)، وابن كثير (٦٢/٨) وغيرهما.

هذا: وقد شرع - سبحانه - في بيان ما حدث في حصار بني النضير حين استسلموا وتحصّنُوا بحصونهم، حيث حاصرهم المسلمون، وعمد بعضُهم إلى بعض نخيلهم فقطَعها، قيل: نخلتان، وقيل: ستة، لتخويف بني النضير، وليوسِّعُوا مكاناً لمعسكرهم، وليكون فيه إذلال وخزي لهم في الدنيا، وعلامة على عجزهم التام عن إنقاذ نخلهم، وهو مادة قوتهم، فقالت اليهود: يا محمد، ألست تزعم أنك نبيّ تريد الصلاح؟ أفمن الصلاح قطع النخل، وهل وجدتَ فيما أُنزِل عليك إباحة الفساد في الأرض، فأنزل الله تعالى ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ أي نخلة، فاللينة، اسم يشمل سائر النخيل ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا ﴾ أي على ساقها من غير أن تتعرضوا لها ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي أن الحرق أو القطع أو الترك بأمر الله وإرادته، وليذلّ ويُهين أهل الفسق والضلال، وهذا معنى: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي يذل الخارجين عن طاعة الله، وأمره ونهيه من اليهود وغيرهم، حيث سلط الله المسلمين على قطع نخيل بني النضير، وكان لهم بستان معروف يسمى (البُوَيْرَة).

قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية إلى ﴿ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ يستنْزِلُونهم من حصونهم، وأُمروا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعْنَا بعضاً وتركنا بعضا، فلنسألن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركْنا من وزر؟ فأنزل الله الآية[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، فأنزل الله الآية[2].

والذي تم في ذلك هو قطع نخلتين اثنتين، وقيل ستة، فلا تختلفوا - أيها المؤمنون - في شأن ما قطعتموه من نخيل بني النضير، فإن مَنْ قطَع شيئاً منه فلا إثم عليه، ومن لم يقطع فلا إثم عليه، فالكل بإذن الله، وفي كليهما مصلحة، لأن مَنْ فَعَلَ، فلِحَمْلِ العدو

---

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٧٤).

(٢) البخاري برقم (٤٨٨٤)، ومسلم برقم (١٧١٦).

على الاستسلام بِفعْل ما يغيظه ويذله، ومن تَرَك فقد فَعَل ما يعود بالخير عليكم، لأن النخلة الباقية سيعود نفعها عليكم.

وقطعُ النخيل أريد به إلجاء العدو إلى الاستسلام وإلقاء الرعب في قلبه، وما بقي منه فهو آيل للمسلمين، وكان المسلمون قد اختلفوا بين القطع والترك فتساءل بعضهم: هل علينا من إثم فيما قطعنا؟ أو علينا وزر فيما تركنا؟ فنزلت الآية تُصدّق مَنْ نَهَى عن القطع، وتُحلّل من قطَعهُ من الإثم.

وقد أخذ الفقهاء من ذلك جواز تحريق دار العدوّ وتخريبها وقطع ثمارها، وجواز هدْم حصون العدو ومعسكراته وأسلحته للقضاء على قوته، لأن إتلاف بعض المال لإبقاء بعضه، مصلحة.

واللينة هي النخلة الكريمة ذات الثمر الطيب، وقيل النخلة القصيرة، أو التي لها ثمر خاص يقال له: اللون شديد الصفرة، لا تخرج منه العجوة، ولم يَرد في القرآن أن المسلمين أحرقوا شجراً أو نخلاً، ولم يحدث هذا لغير بني النضير، وكانت بساتينهم بعيدة عن بيوتهم، وكانت لهم حصون، فاعتصموا فيها قبل أن يستسلموا، فحاصرهم المسلمون فيها.

والمقصود بالآية: إدخال المسرّة والبهجة في قلوب المؤمنين، حتى لا يحزنوا ولا يتأثروا بما حدث بالنسبة لنخيل بني النضير، وحتى يتركوا الخلاف في هذه المسألة بعد صدور حكم الله فيها، وهو أن القطع والترك بإذن الله، ولأن كلا الأمرين يغرس الحسرة في قلوب الأعداء، وفيه عزة للمؤمنين وخزي للكافرين.

قيل: إن ما قُطع من نخيل كان بأمر من النبي ﷺ وقيل: بدون أمره، ولكنه لم ينكر عليهم، ثم أمرهم بالكف عنه.

أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ خَاصَّةٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ تُنْفَقُ بَعْدَهُ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ

٦ - ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ

عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾

ولما خرج بنوا النضير، طلب المسلمون من النبي ﷺ تخميس أموال بني النضير مثل غنائم بدر، على ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١] فنزل تشريع الله تعالى فيمن يستحق هذه الأموال، فجعلها خالصة لرسول الله ﷺ في حياته، وتُنفق على مصالح المسلمين بعده، وذلك نظراً لأنها حصلت لرسول الله ﷺ بدون قتال ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ أي واعلموا - أيها المؤمنون - أن ما أعطاه الله تعالى لرسوله ﷺ من أموال يهود بني النضير ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي لم تركبوا لتحصيله خيلاً ولا إبلاً، وإنما آل لكم بدون قتال ولا جهد ولا مشقة.

والفيء في اصطلاح الفقهاء، هو ما أُخذ من مال الكفار بحق من غير قتال، كأموال بني النضير الذين فرُّوا من ديارهم وتركوها خوفاً من المسلمين.

وسُمِّي فيئاً: لأنه رجع من الكفار إلى المسلمين، والمسلمون هم أصحاب الحق فيه، والكفار غير مستحقين له، فهو: مِنْ فاء، أي رجع.

وإيجاف الخيل: هو سيرها وركضها السريع، مع الإيقاع الذي يكون منها حين تُغير على العدو.

والركاب هي الإبل التي تُركب، فأنتم لم تلْقوا حرباً ولا مشقة، وإنما فتحها الله صُلحاً، وأجلاهم عنها.

ومن سنة الله تعالى أن ينصر رسله بقذف الرعب في قلوب أعدائهم حتى لا يقاسوا شدائد الحرب وويلاته، قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي أن الله تعالى لم يسلطكم على أموال بني النضير، وإنما سلط عليه رسوله، فقد حصلت لكم هذه الأموال بتسليط الله رسوله ﷺ عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فلا حقَّ لكم فيها، إنما هي من مال الله تعالى، يتصرف فيه رسول الله ﷺ كما أمره الله تعالى، وكذا ولاة الأمر بعده.

تقسيم أموال بني النضير وأدلته:

ورسول الله ﷺ لم يقسم أموال بني النضير على جميع الجيش، وإنما خص بها المهاجرين، سواء من خرج منهم لبني النضير، ومن لم يخرج، وذلك حتى يعيد التوازن في المجتمع الإسلامي بالمدينة، فإن المهاجرين هم الذين صُودرتْ أموالهم وبيوتهم في مكة، وتحمّلُوا هذه المحنة في ذات الله تعالى، فكان الحل الأمثل توريث المهاجرين ما ترك اليهود.

ولم يُعط النبي ﷺ من الأنصار إلا ثلاثة، لشدة حاجتهم وهم: أبودَجانة، وسَهلُ بن حنيف، والحارث بن الصّمة، وأعطى سعد بن معاذ سيف أبي الحقيق[(١)].

١ - قال صهيب بن سنان ﷺ: لما فتح رسول الله بني النضير، أنزل الله هذه الآية، فكانت للنبي ﷺ خاصة، فقسمها للمهاجرين، وأعطى رجلين من الأنصار، هما: سهْلَ بنَ حُنيف، وأبا لبابة بن عبد المنذر[(٢)].

٢ - وقال الزهري: صالَح النبي ﷺ أهل فدَك - وهي بلدة في شمال المدينة - وبلاداً أخرى سمّاها، وهو محاصِر قوماً آخرين، فأرسلوا بالصلح، فأفاءها الله عليهم من غير قتال، لم يُوجفُوا عليه خيلاً ولا ركاباً ... وقال: كانت أموال بني النضير للنبي ﷺ خاصة، لم يفتتحوها عنوة، وإنما افتتحوها عن صلح، فقسمها النبي ﷺ بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا رجلين كانت بهما حاجة؛ أبو دُجانة، وسهلُ بنُ حنيف[(٣)].

٣ - وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كان لرسول الله ﷺ صفايا بني النضير وخيبر وفدَك، فأما بنوا النضير فكانت حُبُساً لنوائبه، وأما فدَك فكانت لابن السبيل، وأما خيبر فجزّأها ثلاثة أجزاء، فقسم منها جزئين بين المسلمين، وحبس جزءاً لنفسه ولنفقة أهله،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٣/٨٠).

(٢) تاريخ البخاري (٤/٣١٥)، وسنن البيهقي (٦/٢٩٧).

(٣) هذا المعنى عند عبد الرزاق (٢/٢٨٣)، والبيهقي (٦/٢٩٦).

فما فضل عن نفقة أهله ردها على فقراء المهاجرين[(١)].

والصفايا: ما يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة.

فهذه الآية خاصة بأموال بني النضير، يضعها حيث يشاء، وبهذا قال أبوبكر في خلافته، وقال عمر في خلافته.

٤ - كما جاء في حديث مالك بن أوس المتفق على صحته من حديث الزهري، حين جاء عليّ والعباس رضي الله عنهما يطلبان من عمر بن الخطاب ميراثهما من رسول الله ﷺ فأشهدهما وأشهد جمعاً من الصحابة على أن النبي ﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة**» قالوا: نعم، ثم قال: إن الله خص رسوله ﷺ بخاصة لم يخص أحدا من الناس، وقرأ الآية، فوالله ما أَحرَزها دونكم، ولا استأثر بها عليكم، لقد أعطاكموها وبثّها فيكم، حتى بقي منها هذا المال.

وكان النبي ﷺ قد قسم أموال بني النضير المنقولة على المهاجرين، وأبقى الثابت منها كالدور والنخل والشجر لنفسه، وفق تشريع الله تعالى له في الآية التالية ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ بدون واو، فكان النبي ﷺ ينفق على أهله من هذا المال نفقة سنَته، ثم يأخذ ما بقى، فيجعله في مال الله، ثم قال لهما عمر: فإن شئتما أعطيتكما على أن تفعلا به ما كان رسول الله يفعل، وإلا رُدُّوه عليّ[(٢)].

فكان مال بنو النضير، مال الله تعالى، وضَعَهُ في يد رسوله ﷺ لِيَصْرِفه على مستحقِّيه من غير الجيش، وهذا حكم خاص به ﷺ.

٥ - وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله ﷺ مما لم يوجَف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٢٥٧١) بإسناد حسن وفي السنن (٢٩٦٧).

(٢) ينظر الحديث في البخاري برقم (٣٠٩٤،٤٨٨٥)، ومسلم برقم (١٧٥٧)، وأبوداود برقم (٢٩٦٣)، والنسائي في الصغرى (٤١٤٥)، والترمذي (١٦١٠).

خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله[(١)].

وعلى هذا فليس لكم الحق - أيها المؤمنون - في أموال بني النضير، لأنكم لم تظفروا بها عن طريق القتال، فلا تُخَمَّس كأموال الغنائم ومَصْرِف الفيء بعد رسول الله ﷺ، وقد قال قوم: هو للأئمة بعده، وقيل: ينفق في مصالح المسلمين، الأهم فالأهم، وأوّلُها المقاتلون.

وقد ختم الله الآية بقوله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ لا يعجزه شيء، ولا يغالب ولا يُمانَع.

مَصَارِفُ الفَيْءِ العَامِّ وَالغَنَائِمِ

٧- ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ[(٢)] دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧ ﴾

المراد بالفيء في هذه الآية ما غنمه المسلمون عموماً من أعدائهم بدون حرب ولا قتال في غير بني النضير، ويدخل في ذلك ما كان في وقت الرسول ﷺ، أو بعده لمن يتولى شؤون الأمة.

وذلك أنه لما كانت الآية السابقة خاصة بأموال بني النضير، ذكر سبحانه في هذه الآية، حكم الفيء في سائر القرى التي فُتحت بعد بني النضير وهي: قريظة، وفدَك، وقُرَى: عُرَيْنة، ويُنْبُع، ووادي القرى، وخيبر، والصفراء، وغيرها، وكلها فتحت في عهد

---

(١) ينظر الحديث بطوله في البخاري (٢٩٠٤،٤٨٨٥)، ومسلم (١٧٥٧)، وأبوداود (٢٩٦٥)، والترمذي (١٧١٩)، والمسند (١٧١،٣٣٧) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في الكبرى (٦٣١٠).

(٢) قرأ أبوجعفر بالتاء في ﴿يَكُونَ﴾ ورفع ﴿دُولَةٌ﴾ على أن كان تامة ودولة فاعل، ولهشام ثلاثة أوجه: الأول مثل قراءة أبي جعفر، والثاني والثالث بتذكير (يكون) وعليه الرفع والنصب في (دولة)، والباقون بياء التذكير في (يكون) ونصب (دولة)، على أن كان ناقصة، واسمها ضمير الفيء، و(دولة) خبرها.

النبي ﷺ ومنها ما فُتح عنوة، ومنها ما فُتح صلحاً.

وأكثر أهل العلم على أن أموال (فدَك) خاصة، حكمها حكم بني النضير، خاصة برسول الله ﷺ أما بالنسبة لسائر القرى فقد جاء حكمها في هذه الآية: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أي من أموال مشركي أهل القرى، من غير ركوب خيل، ولا إبل، ولا استخدام أسلحة في قتل العدو، فإنه يقسم إلى خمسة أقسام؛ كما هو الشأن في آية سورة [الأنفال ٤١] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ ﴾.

الأول: سهم الله تعالى، وسهم رسوله ﷺ في حياته، حيث كان يُنْفِقُ منه على نفسه وأهله، وما بقي منه ينفق في مصالح المسلمين، وبعد موت النبي ﷺ يصرف في المصالح العامة للمسلمين، فيكون حكمه حكم سهم الله تعالى، فهما سهم واحد، جاءا في قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ أي أن هذا السهم، وهو سهم الله ورسوله، يُنفق في مصالح المسلمين العامة.

الثاني: سهم أقارب النبي ﷺ ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ من بني هاشم وبني المطلب حيث كانوا، وكل من بقي من نسلهم إلى يوم القيامة، يُسوِّي فيه بين الذكور والإناث، وإنما دخل بنو المطلب في خُمس الخُمس مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف في القرابة، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشِّعب، حين اتفقت قريش على حصار المسلمين، وعلى هجرتهم وعداوتهم، فنصر بنو المطلب رسول الله ﷺ مع بني هاشم، دون بني عبد مناف، ولهذا قال ﷺ في بني المطلب «**إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام**»[1].

ولأن بنو هاشم وبنو المطلب مُنعوا الصدقة، فجُعل لهم حقا في الفيء.

الثالث: سهم لليتامى الفقراء، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم وهم دون سن الحلُم، وقد يكون اليتيم غنياً إذا كان وارثاً لأموال أبيه، فلا يكون من الفقراء فاليتم في حد ذاته ليس مقصوداً وإنما يضم إليه الحاجة، فإن كان محتاجاً وإلا فلا.

---

(١) ينظر بتصرف: تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (٢/٣٣٨).

الرابع: سهم للمساكين، ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ وهم الذين ليس لهم مال يكفيهم ضرورات الحياة.

الخامس: سهم لأبناء السبيل، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهم المسافرون الغرباء ممن نفذت أموالهم أو فُقدت، وليس لهم وسيلة توصلهم إلى ديارهم ولو كانوا أغنياء في بلادهم.

ويرى بعض العلماء أن هذه الآية موضحة ومفسرة للآية السابقة، ففيها تفصيل لما أُجمل فيها، ولعل الرأي الأول هو الأصوب، لأنه ثبت في صحيح السنة أن النبي ﷺ لم يخمّس أموال بني النضير، وأنها كانت له خاصة يوزعها كما يشاء، وقد آثر بها المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلا ثلاثة، وأعطى سعد بن معاذ سيفَ أبي الحُقيّق، وكل ذلك تصرف باجتهاد الرسول ﷺ لأن الله تعالى جعل تلك الأموال له يتصرف فيها كما يشاء، ولم يكن بين ديار بني النضير وبين المدينة سوى ميلين في ذلك الوقت، ولم يركب إليها سوى رسول الله ﷺ فقد كان راكباً على جمل، ولم يكن للمسلمين فيها خيل ولا ركاب.

آيات الفيء والغنائم:

ومعلوم أن الفيء: هو ما حصل عليه المسلمون بدون حرب ولا قتال.

وأن الغنائم ما غنمه المسلمون من العدو بسبب القتال.

هذا: وفي القرآن ثلاث آيات تتعلق بتقسيم الفيْء والغنائم.

وهذه الآيات الثلاث هي: آية الأنفال ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ ﴾[آية:٤١] .

وآيتا سورة الحشر: ٦،٧.

وقد نصت آية سورة الأنفال على أن الغنيمة ما كانت بقتال، وذُكر فيها لفظ الخمس.

وأما آية الحشر الأولى فهي خاصة بأموال بني النضير وفدَك، وقد نُصّ فيها على أن أموالهم حصلت بدون قتال.

أما الآية الثالثة وهي ما نحن بصددها، فلم يُذكر فيها أن ما أفاء الله به على رسوله،

هل هو بقتال أم بغير قتال؟ ولم يُذكر فيها لفظ الخمس كآية سورة الأنفال، ولذلك فإن من العلماء من ألحقها بآية سورة الأنفال، ومنهم من ألحقها بالآية التي قبلها.

قلت: إن الآية الأولى في سورة الحشر، نزلت في فَيْءٍ خاص برسول الله ﷺ هو فَيْءُ بني النضير، لأن ضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ يعود على بني النضير فحسب، وللحيثيات السابق ذكرها.

أما الآية الثانية في سورة الحشر أيضاً فهي في الفيء العام، لبقية البلاد التي فُتحت في الماضي وتُفتح في المستقبل من غير قتال.

وآية الأنفال تخص غنائم الحرب.

فالغنيمة ما أُخذت بالقتال، والفيء ما أُخذ صلحاً، وكل منهما يقسَّم خمسة أخماس.

ومصرف آية بني النضير خاص برسول الله ﷺ في حياته، وبعد مماته يُصْرف في مصالح المسلمين.

ومصرف الغنائم والفيء العام واحد، يقسم أخماساً كما سبق.

علماً بأن سورة الأنفال، نزلت قبل سورة الحشر، حيث نزلت سورة الأنفال عقب غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة، أما سورة الحشر فقد نزلت في أوائل السنة الرابعة للهجرة، حيث كانت غزوة بني النضير بعد غزوة بدر بستة أشهر.

هذا: وقد كان تقسيم الفيء العام على هذا النحو، ليشمل مختلف طبقات المجتمع، حتى لا يستأثر به الأغنياء دون الفقراء، وهذا معنى ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي حتى لا يكون المال مُلْكاً متداوَلاً بين الأغنياء وحدهم، ويُحرم منه الفقراء والمساكين.

قال القرطبي: فعلْنا ذلك كي لا يتقاسمه الرؤساء والأغنياء بينهم دون الفقراء والضعفاء، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا، أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو ما يسمى – المرباع – ثم يَصْطفي القائد منها أيضا ما يشاء[1].

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/١٨).

والمرباع هو ربع الغنائم يعطى لقائد الجيش، وقد أبطله الإسلام.

وأبطل أيضاً: الصفايا، وهو أخذ القائد أو من يراه، النفيس من الغنائم.

كما أبطل النشيطة، وهي ما يصيبه الجيش من العدو، وهو في طريقه إلى أرض المعركة.

وأبطل الفضول، وهو ما يبقى بعد القسمة لا يُقسم ولا يُجزأ[(١)].

فهذه أربع حالات أبطلها الإسلام، وهي المرباع والصفايا والنشيطة والفضول.

وهكذا أبطل الإسلام ما كان شائعا في الجاهلية من استئثار قواد الجيش، ورؤساء القبائل، بالكثير من الغنائم، دون غيرهم ممن اشترك معهم في الحرب.

وأموال الفيء أو الغنيمة أموال عامة، فتُصرف لعموم المسلمين.

ليس في الآية دليل على الاشتراكية البائدة:

أما أموال الناس الخاصة، فليس للإسلام فيها سوى الزكاة، ولا يجوز استيلاء الدولة عليها، وتوزيعها على الفقراء، وهو ما عرف في العهد البائد بالاشتراكية الشيوعية.

ومما استدل به بعضهم على الاشتراكية قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [النحل: ٧١] وهو استدلال خاطئ فيه تطويع وتوظيف للنصوص في غير وجهها لموافقة الهوى والحكم.

وقد أُلِفت كتب في ذلك وقتها، منها ما زعموه (اشتراكية الإسلام) وجعلوا عمر ﷺ أبو الاشتراكيين، ومن ردّ على هذه المزاعم فألّف تحت عنوان (لا اشتراكية في الإسلام) كان نصيبه الشهادة في سبيل الله، وقد ذهبت الاشتراكية إلى غير رجعة، وقُضِيَ عليها في مهدها، ولكن أذنابها المنتفعين بمبادئها الفاسدة قد أعلنوا تمسكهم بها!! فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

ولا ينافي هذا ما جاء في الأثر «الناس شركاء في ثلاث: الماء والنار والكلأ» فإن هذه الثلاث إذا كانت في مورد عام، فالناس شركاء فيها، أما إذا كان فرع أو جزء منها

(١) التحرير والتنوير (٨٥/١٨).

في حيازة شخص معين، فهي ملك خاص به.

والإسلام يحترم الملكية الفردية ويصونها، ولا يجوز تأميمها بحال.

القاعدة الكلية والأصل العام في اتباع الرسول ﷺ:

ثم أمر القرآن بامتثال أمر الرسول ﷺ واجتناب نهيه في كل ما أمر به ونهى عنه، ومن ذلك مصارف الفيء قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ أي ما أعطاه لكم الرسول من مال، وما شرعه لكم من شرع، فخذوه بقوة واعملوا به ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ والرسول ﷺ يأمر بكل خير، وينهى عن كل شر، وهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه وأن ما جاء به النبي ﷺ يتعين على العباد الأخذ به واتباعه ولا تجوز مخالفته.

والآية عامة في كل أمر: واجب، أو مندوب، أو مستحب، أو نهي محرم أو مكروه، ويدخل في ذلك التشريع والأحكام والسنن والآداب والأخلاق في كل قول أو فعل.

ونظرا لأن المال صنْو النفس، وهو موطن الشح والحرص، والنفوس تتطلع إليه، وتبذل المهَج للوصول إليه، ومن ذلك أموال بني النضير، فقد توقّع الصحابة قِسْمَته بينهم، وإذ به يُمنع عنهم، ويحال بينهم وبينه، ويقسم المنقول منه على المهاجرين، ولا يقسم العقار الثابت، ويقال لهم: حدث هذا ﴿كَىْ لَا يَكُونَ﴾ المال ﴿دُولَةًۢ﴾ أي متداولاً ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ ويستوي في ذلك الأغنياء بأبدانهم أو بأموالهم.

ولذاك: كان لابد للنفوس أن تتحرك نحو هذا المال، وفعلاً ناقشوا عمر رضي الله عنه فيه، ولكن سوط الطاعة، وأَمرَ التشريع الملْجم جاء ليقول: إن هذا الحكم صادر عن الله تعالى، جاء به رسول الله ﷺ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ وشأن المؤمنين الاستجابة الفورية لأمر الله ورسوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور:٥١] .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

هذه جملة من الأحاديث في وجوب الاتباع:

١ - عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود ﷺ فقالت: بَلَغني أنك تَنْهى عن الواشمة والواصلة، أَشيْء وَجَدْتَه في كتاب الله، أو عن رسول الله ﷺ؟ قال: بلى، شيء وجدتُه في كتاب الله، وعن رسول الله ﷺ قالت: والله لقد تصفَّحتُ ما بين دفَّتي المصحف فما وجدتُ الذي تقول! قال: فما وجدتِ فيه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قالت: بلى، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ **ينهى عن الواصلة والواشمة، والنامصة،** قالت، فلعله في بعض أهلك؟ قال: فادخُلي فانظُري، فدخلتْ، فنظرتْ ثم خرجتْ، قالتْ: ما رأيت بأساً، فقال لها: أما حفظتِ وصية العبد الصالح ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[1] [هود:٨٨].

٢ - وفي لفظ آخر عن علقمة عن عبد الله بن مسعود أيضاً أنه قال: **لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلِّجات لِلْحُسْن، المغيرات خلْق الله،** فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأتته، فقالت: ما حديثٌ بَلغني عنك أنك تقول كذا وكذا، وذكَرَتْه، فقال عبد الله: وما لي لا ألعن مَنْ لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله، فقالت المرأة: لقد قرأتُ لَوْحَي المصحف فما وجدتُه، فقال: إن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، قال الله عز وجل ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[2].

والوشم هو: غرز الإبرة في عضو من الجسم، ثم يُحشى بالكحل.

والمستوشمة هي التي تَطْلبُ أن يُفعل بها ذلك.

والنامصة هي التي تنتف شعر الحاجبين.

---

(١) مسند أحمد (٣٩٤٥) بإسناد قوي، والطبراني في الكبير (٩٤٦٨، ٩٤٧٠)، والنسائي في المجتبى (٨/ ١٤٦).

(٢) البخاري (٥٩٤٨، ٤٨٨٦،٤٨٨٧)، ومسلم (٢١٢٥)، وأحمد (٤١٢٩) إسناده صحيح على شرط الشيخين، والترمذي (٢٧٨٢)، والنسائي (٨/١٤٦)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٨٩).

والمتفلجة هي التي تُوسِّع ما بين الثنايا طلباً للحسن.

٣ - وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»**[1].

٤ - وعن ابن عمر وابن عباس ﷺ، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الدُّباء، والحنْتم، والنَّقير، والمزفَّت، ثم تلا ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[2].

والدّباء هو القرع، كانوا يصنعون منه نبيذاً.

والحنْتم جرار من خذَف مدهونة باللون الأخضر، يُحمل فيها الخمر.

والنقير أصل النخلة، ينقر وسطه ويوضع فيه التمر ويلقى عليه الماء ليصير نبيذاً.

والمزفَّت: إناء يطلى بالزفت وهو نوع من القار ثم يوضع فيه النبيذ.

٥ - وعن أبي رافع ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا ألفينَّ أحدا متكِئاً على أريكته، يأتيه أمر مما أُمرتُ به، أو نُهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتّبعْناه»**[3].

وهذا الحديث من أعلام النبوة، فقد وقع هذا من بعض الجاهلين.

والآية دليل على وجوب الأخذ بصحيح السنة في كل الأمور.

٦ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع رسول الله ﷺ أمراً، فترخّص به، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنهم كرهوه وتنزهوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيباً فقال:

«ما بال رجال بَلغهم عني أمر ترخصتُ فيه، فكرهوا وتنزَّهوا عنه، فوالله، لأنا أعلمهم

---

(١) البخاري برقم (٧٢٨٨)، وهذا لفظه ،ومسلم برقم (١٣٣٧).

(٢) الحديث بدون الآية في صحيح مسلم برقم (١٩٩٧)، والنسائي (٥٩٥٩)، ومع الآية عند ابن أبي شيبة (٤٧٧/٧)، والنسائي (٥٦٦٠).

(٣) أبوداود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجة (١٣) والمسند (٢٣٨٦١) بنحوه، قال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، وابن حبان (١٣)، والحاكم (١٠٨/١)، وصحيح سنن أبي داود (٣٨٤٩)، والطبراني (٩٧٥، ٩٣٦).

بالله وأشدهم له خشية»[١].

٧ - ورأى ابن مسعود ﷺ رجلاً مُحْرِماً في ثيابه المخيطة، فقال له: اطرح عنك هذا، فقال الرجل: أتقرأ عليّ بذلك آية من كتاب الله، فقال ابن مسعود: نعم، وتلا هذه الآية ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٢].

وكل ما أتى به الرسول ﷺ فهو من عند الله تعالى، وهو بمنزلة القرآن في التشريع.

والسنة تستقل بالتشريع، كما جاءت بتحريم لحوم الحمر الأهلية، وكل ذي مخلب من الطير، وناب من السباع، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، ومع ابنة أخيها، أو ابنة أختها.

والآية عامة في الأخذ بكل ما أمرنا به الرسول ﷺ وترك ما نهانا عنه.

وفرّق الحديث بين عموم الأمر وعموم النهي، فالنهي يُجتنب كله دفعة واحدة، والأمر يُؤتى منه بالمستطاع **(إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا)** ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أيها المؤمنون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وخالف أمره ونهيه.

في فَضْلِ المُهَاجِرِينَ وَأَوْصَافِهِمْ

٨- ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا[٣] وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾

هذه الآية متعلقة بما سبق من حكم الفيء، فقد أثنى الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الثلاث على: المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وبيّن سبحانه في هذه الآية أن فقراء المهاجرين هم أولى الناس بالأخذ من المال الذي أفاءه الله على

---

(١) مسلم برقم (٢٣٥٦).

(٢) تفسير ابن عطية (٥/٢٨٦).

(٣) قرأ شعبة بضم الراء في ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ والباقون بالكسر.

رسوله ﷺ من بني النضير ونحوها فهم الذين اضطرهم كفار مكة للخروج من ديارهم وأموالهم، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي ما أفاء الله على رسوله من فَيء أهل القرى المفتوحة صُلحاً فهو لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، من فقراء المهاجرين، لأنهم تركوا الديار والأموال، والأحباب والخلان وألجأهم الكفار إلى ترك الأهل والوطن، فهم ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ لأنهم آمنوا بالله والرسول.

ثم بين سبحانه دوافع هجرتهم فذكر لها سبب وغاية، أما السبب فلأنهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي لأنهم يطلبون من الله تعالى أن يتفضل عليهم بالرزق في الدنيا، والرضوان في الآخرة، أما غايتهم من هذه الهجرة، فهي نُصرة دين الله تعالى، ونصرة رسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي بالجهاد في سبيل الله لإقامة دولة الإسلام وإعلاء كلمة الله، هذا هو قصدهم من الهجرة، وقد وصف الله المهاجرين في هذه الآية بستة أوصاف، فهم:

١- فقراء. ٢- مهاجرون. ٣- أخرجوا من ديارهم وأموالهم.

٤- يبتغون فضلا من الله ورضواناً. ٥- وينصرون الله ورسوله بأنفسهم وأموالهم.

٦- وهم الصادقون مع الله تعالى في دينهم.

ولذا: فإن الله تعالى حكم في نهاية الآية بأنهم صادقون مع الله تعالى في هجرتهم، فقد خرجوا حُباً في الله ورسوله، مؤثرين ذلك على ملذات الدنيا وشهواتها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم، فقد صدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة ومنها الهجرة والجهاد.

قال قتادة في وصفهم: هم المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشار، خرجوا حباً لله ورسوله، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة، حتى ذُكر لنا أن الرجل كان يَعْصِب الحجر على بطنه، ليقيم به صُلْبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحصيرة في الشتاء، ما له دينار غيرها[1].

---

(١) تفسير الخازن (٢٤٨/٤)، والقرطبي (٢٠/١٨)، وقد أخرجه عبد بن حميدو بن المنذر كما في الدر المنثور (٣٦٦/١٤).

في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً**»[١].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أبشروا صعاليك المهاجرين بالنور يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك خمس مئة سنة**»[٢].

في فضل الأنصار وأوصافهم الأربعة

٩- ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ[٣] وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

أما الذين سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين، من الأوس والخزرج، الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة واختياراً، وآووا رسول الله ﷺ ومنعوه من أهل الكفر والطغيان، فقد أخلصوا دينهم وعبادتهم لله، ومن صفاتهم أنهم يحبون إخوانهم الذين هاجروا إليهم حبا شديدا، وهكذا فقد مدح الله سبحانه الأنصار، وبيّن فضلهم وشرفهم، ووصفهم بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: أن الإيمان قد تمكن من قلوبهم فحلّ فيها واتخذها مسكناً له: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وهم الأنصار الذين سكنوا المدينة قبل المهاجرين واتخذوها داراً لهم، كما أنهم اتخذوا الإيمان ديناً لهم في بيعة العقبة الأولى والآخرة، واستوطنوا المدينة، وآمنوا بالله ورسوله قبل هجرة المهاجرين إليها، وتمكن الإيمان من قلوبهم، وأخلصوا دينهم لله، حتى صارت المدينة دار الهجرة والإيمان، يأوى إليها

---

(١) مسلم برقم (٢٩٧٩).

(٢) ينظر: المسند (١١٦٠٤)، وهو حديث حسن، وأبوداود مطولاً (٣١٦٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٩٩٢)، والطبراني في الأوسط (٨٤)، وأبو يعلى (١١٥١)، والترمذي (٢٣٥١)، وابن ماجه (٤١٢٣).

(٣) ضم حمزة ويعقوب الهاء من ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وكسرها الباقون.

المؤمنون، ويلجأ إليها المهاجرون تحت حماية الأنصار لهم، إذ كانت البلاد كلها بلاد حرب وشرك وشر، ولم يزل أهل الإيمان يفدون على الأنصار حتى انتشر الإسلام وعمّ، وقويت شوكته، وقامت دولته، وفتح أهلها البلاد بالعلم والإيمان، والسيف والسنان.

وهذه الآية يصح أن تكون عطفاً على ما قبلها، فيكون للأنصار حق في الفيء كالمهاجرين، ويصح أن تكون استئنافا للثناء على الأنصار.

الوصف الثاني: أنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حباً شديداً، فقد ربط الإيمان بين قلوبهم برباط الأخوة والمحبة والمودة، فأنزلوهم منازلهم، وشاركوهم أموالهم، ومن كان له امرأتان عرض على أخيه إحداهما، لقد أحبوا الله ورسوله، وأحبوا أحبابهما، وأحبوا من نصر دينهما.

الوصف الثالث: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي ولا يجد الأنصار في نفوسهم حزازةً ولا غيظاً ولا حسداً، مما أخذه المهاجرون من مال الفيء أو الغنيمة أو غيرهما، بل طابت أنفسهم بذلك، فكان المهاجرون في دور الأنصار، دون حقد ولا حسد ولا ضغينة.

هذا: ولما غَنِم النبي ﷺ أموال بني النضير، دعا الأنصار وشكَرهم فيما صنعوا مع المهاجرين، من إنزالهم إياهم في منازلهم، وإشراكهم لهم في أموالهم، ثم قال:

«**إن أحببتم قسمتُ ما أفاء الله عليّ من بني النضير، بينكم وبين المهاجرين، وإن أحببتم أعطيتهم ذلك وخرجوا من دياركم**» فرضوا بقسمتها على المهاجرين وطابت أنفسهم بذلك، وببقاء الأنصار في دورهم والترحيب بهم، فمع أن النبي ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين دون الأنصار، فقد طابت نفوس الأنصار بهذه القسمة، ولم تتشوف نفوسهم أو تتطلع لشيء منها.

وسلامة الصدر من الضغائن، أقرب طريق يوصل إلى الجنة مع الإيمان، كما في قصة الرجل الذي أخبر عنه النبي ﷺ ثلاث مرات أنه من أهل الجنة، لأنه لا يبيت وفي

قلبه ضغينة لأحد[١].

الوصف الرابع: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي أن من صفات الأنصار: أنهم يقدّمون المهاجرين وذوي الحاجات على أنفسهم، ولو كان بهم فقر وحاجة.

وإيثار الأنصار للمهاجرين على أنفسهم، ليس عن غنى وعدم حاجة، بل هو عن حاجة ماسّة، وفقر واضح، وذلك لأن محبتهم لله ورسوله وقُدِّمَتْ على محبة شهوات النفس وملذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه حين آثر ضيفه بما عنده من طعام وبات هو وأهله وأطفاله جياعاً[٢].

وقد وصف الله قوما بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⑧﴾ [الإنسان:٨].

وفي الأثر (**أفضل الصدقة جهد المقل**).

وأفضل الصدقة (**أن تَصَدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى**).

والإيثار عكس الأثرة في المعنى، فالأول وصف للكريم والآخر وصف للبخيل.

وهذه جملة من الأحاديث والآثار في فضل الأنصار

١ - قال أنس ﷺ: لما قدم النبي ﷺ المدينة، أتاه المهاجرون، فقالوا: يا رسول الله ما رأينا قوماً أبذل من كثير، ولا أحسن مواساة من قليل، من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال النبي ﷺ: «**لا، ما دَعَوْتُم الله لهم، وأَثْنيتم عليهم**»[٣].

---

(١) ينظر الأثر عن أنس عند الحكيم الترمذي (١٦٧/٢)، والنسائي (١٠٦٩٩)، وضعيف الترغيب (١٧٢٨).

(٢) سيأتي ذكره قبل نهاية الآية تحت عنوان: أمثلة من إيثار الأنصار.

(٣) سنن الترمذي (٦٥٣/٤) في كتاب صفة القيامة باب ٤٤ قال الترمذي: حديث صحيح حسن غريب من هذا الوجه وصحح إسناده محقق المختارة للضياء المقدسي برقم (١٩٣٠-١٩٣٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٣٦/٢)، وصحح إسناده الألباني في المشكاة (١١٩/٢)، وانظر: مسند أحمد (١٣٠٧٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أبو داود (٤٨١٢)، وأبو يعلى (٣٧٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٨١).

٢ - وعن يزيد بن الأصم: أن الأنصار قالوا: يا رسول الله، اقسم بيننا وبين إخواننا من المهاجرين الأرض نصفين، قال: (لا، ولكنهم يكفونكم المؤونة، وتُقاسمونهم الثمرة، والأرض أرضكم) قالوا: رضينا، فأنزل الله الآية[(١)].

٣ - وقال قتادة في الآية: هم هذا الحيّ من الأنصار، أسلموا في ديارهم، فابتنوا المساجد قبل قدوم النبي ﷺ بسنتين، وأحسن الله الثناء عليهم في ذلك، وهاتان الطائفتان الأُولتان من هذه الأمة، أثبت الله حظهما في الفيء، ثم ذكر الطائفة الثالثة، وأُمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ ولم يؤمروا بسبهم.

٤ - وقال عمر ﷺ: أُوصِي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين خيراً، أن يعرف لهم حقهم، وأن يحفظ لهم حرمتهم، وأُوصيه بالأنصار الذين تبوّؤوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم ويعفُو عن مسيئهم[(٢)].

٥ - وقال سعد بن أبي وقاص ﷺ، عن المهاجرين: هذه منزلة قد مضت، وقال عن الأنصار: وهذه منزلة قد مضت، ثم قال عن التابعين ومن يأتي بعدهم: وبقيتْ هذه المنزلة، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة[(٣)].

الوقاية من الشح سبب للفلاح:

ومن سَلِم من البخل، ومنَع الفضل من المال، ووقاه الله شر الحرص والشح، فقد أفلح ونجا ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ أي الذي يوفقه الله تعالى ويقيه شح نفسه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الذين فازوا بمطلوبهم وانتصروا على أنفسهم، والشح هو البخل الشديد مع الجشع والطمع، وهو غريزة سيئة في النفس، تحتاج إلى قمعٍ وترويضٍ على البذل والعطاء، والوقاية من شح النفس يشمل وقايتها من الشح في جميع ما أُمرت به،

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/٢٠)، وقد أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٤/٣٦٨).

(٢) ابن أبي شيبة (١٤/٥٧٤)، والبخاري (١٣٩٢، ٤٨٨٨)، واللفظ من الأخير.

(٣) ينظر: الأثر في المستدرك (٢/٤٨٤) بتصحيح الحاكم له.

فإذا وُقي العبد شح نفسه، سمحت نفسه بأداء أوامر الله عز وجل طواعيه وانقياداً، وترك ما نهى الله عنه وإن كان محبوباً للنفس، وسمحت نفسه بإخراج الزكاة وبذل الصدقات وإنفاق المال ابتغاء وجه الله، وبذلك يحصل الفلاح للعبد في دنياه وأخراه، ومن لم يوق شح نفسه كان شحيح النفس بكل أنواع الخير، وبالتالي فهو ليس من المفلحين الفائزين.

أحاديث في الوقاية من الشح:

١ - جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[(١)].

٢ - قال ابن عمر رضي الله عنهما: (ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، إنما الشح أن تطمع عينه فيما ليس له)[(٢)].

٣ - عن ابن مسعود ﷺ أن رجلاً قال له: إني أخاف أن أكون قد هلكت! قال: وماذاك؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ **وأنا رجل شحيح، لا يكاد يخرج مني شيء، فقال له ابنُ مسعود:** ليس ذلك بالشح، ولكنه البخل، ولا خير في البخل، وإن الشح الذي ذكره الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً[(٣)].

٤ - ونُقل عن ابن عمر رضي الله عنهما أن الشحيح يشح بما في يده، ويحرص على

---

(١) مسلم برقم (٢٥٧٨)، والمسند (٣/٣٢٣) من حديث جابر بن عبد الله ورقمه في المسند (١٤٤٦١) بإسناد صحيح، وهو في البخاري برقم (٤٨٨،١٨٣)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٣٢)، وعبد بن حميد (١١٤٣)، والبغوي (٤١٦١).

(٢) حاشية الصاوي (٤/١٩٠)، وقد أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر كما في الدر (٣٧١/١٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٩/٩٨)، والطبري (٥٢٩/٢٢)، والطبراني (٩٠٦٠)، والحاكم (٢/٤٩٠)، والبيهقي (١٠٨٤١) وغيرهم.

أخذ ما في أيدي الناس، أما البخيل، فإنه يبخل بما في يده فحسب[(١)].

٥ - وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «شر ما في الرجل: شُحّ هالع، وجُبن خالع»[(٢)].

والهالع هو المحزن، والخالع هو الجبن المخيف الذي يخلع القلب من شدته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثم فسر سبحانه هذا الهلع فقال: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩ - ٣٥].

واستثنى من ذلك أهل الإيمان ممن يحافظون على الصلاة وغيرها من شرائع الإسلام.

٦ - وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[(٣)].

٧ - وعن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبار في سبيل الله، ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً»[(٤)].

ومن اخرج زكاة ماله، وأكرم ضيفه، وواسى أهل المصائب فليس شحيحاً.

وكان عبد الرحمن بن عوف ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: اللهم قني شح نفسي، ولا يزيد على ذلك.

---

(١) أخرجه الخرائطي في مساوىء الأخلاق (٣٥٣).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢١٩٢)، وابن أبي شيبة (٩/٩٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٦/٨)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٣١).

(٣) ينظر: المسند (٢/١٥٩) برقم (٦٤٨٧،٦٨٣٧) بإسناد صحيح، من حديث طويل، وابن حبان (٥١٧٦)، والطيالسي (٢٢٧٢)، والبيهقي في الشعب (٧٤٥٨)، والسنن (١/ ٢٤٣)، وأبوداود برقم (١٦٩٨)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٨٣).

(٤) رواه النسائي (٦/١٣) برقم (٣١١٠،٣١١٥) وهو في صحيح سنن النسائي (٢٩١٣)، وابن أبي شيبة (٥/٣٣٤)، والحاكم (٢/٧٢)، والبيهقي في الشعب (٤٢٥٧،١٠٨٢٨) والمسند (٨٥١٢) حديث صحيح بطرقه وشواهده، فيه القعقاع بن اللجلاج وباقي رجال الإسناد ثقات من رجال الصحيح.

٩ - وجاء في الأثر عن أنس ﷺ مرفوعاً «بريء من الشح من أدّى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة»[(١)].

ولقد ضرب الأنصار ﷺ أروع الأمثال وأسماها، في هذا المضمار، من ذلك:

١- أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار، قيل: هو ثابت بن قيس، وكنيته أبو طلحة، أوْهَم هو وزوجه الضيف أنهما يأكلان، ونوّما الصبيان وأطفآ السراج حتى أكل.

فقد روى أبوهريرة ﷺ قال: أَتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجَهْد، فأَرسَلَ إلى نسائه فلم يجد شيئاً، فقال ﷺ: «**ألا رجل يضيّف هذا الليلة، ضيف رسول الله، رحمه الله**» فقام رجل من الأنصار - وفي رواية أنه أبوطلحة - فقال: أنا يا رسول الله، فذهب به إلى أهله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصِّبْية، قال: إذا أراد الصِّبْية العَشاء، فنوّميهم، وتعالي، فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، لضيف رسول الله ﷺ ففعلَتْ، ثم غدا الضيف إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: **لقد عجِبَ الله - أو ضَحِك- من فلان وفلانة**، وأنزل الله عز وجل ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[(٢)].

٢- ومن ذلك ما عرضه سعد بن الربيع على عبد الرحمن بن عوف أن يقاسمه ماله، وأن يتنازل له عن إحدى زوجتيه، وبمقدار ما يَعْجب المرء من كرم سعد، بمقدار ما يَعْجب من نُبل عبد الرحمن، وهو يقول لسعد: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين السوق؟!

٣- ولما دعا النبي ﷺ الأنصار، لتُقْطع لهم قطائع بنخل البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تَقْطع لإخواننا من المهاجرين مثلها؟

---

(١) تفسير الطبري (٢٩/٢٨)، وأبو يعلى كما في الإصابة (٢٣٦/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١٠٨٤٢)، والطبراني في الكبير (١٨٨/٤ ٤٠٩٦، ٤٠٩٧) وهو حديث مرسل .

(٢) البخاري برقم (٣٧٩٨، ٤٨٨٩)، ومسلم برقم (٢٠٥٤، ١٧٣)، والترمذي برقم (٣٣٠٤)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٨٢)، وابن أبي شيبة (٣٥٠/١٣)، والحاكم (١٣٠/٤)، والبيهقي (٩٧٩)، والطبري (٥٢٨/٢٢).

٤- ومن صور الإيثار: أن حذيفة العدَوي أخذ يبحث يوم اليرموك، عن ابن عم له بين الجرحى، ومعه شيء من ماء، ولمّا وجده، عرَض عليه الماء، فوجده في حاجة شديدة إليه، ولكنه سمع رجلاً آخر يصيح، يطلب الماء فآثره على نفسه، قال حذيفة: فوجدتُه هشام بن العاص، فقلت له: اشرب، فإذا آخر يقول: آه، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئته، فإذا هو قد فاضت روحه، فرجعتُ إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات، فعجبت من إيثارهم، رحمهم الله[1].

٥ - قال ابن عمر رضي الله عنهما: أُهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول، فنزلت ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2].

٦- وقال أبو يزيد البسطامي: قدم علينا شاب من بلْخ حاجّاً، فقال: ما حدُّ الزهد عندكم؟ فقلت: إذا وجدنا أكَلْنا، وإذا فقدْنا صبرْنا، قال: هكذا عندنا كلاب بلْخ، فقلت له: فما هو عندكم؟ فقال: إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجَدْنا آثرنا[3].

التَّابِعُونَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ

١٠- ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

في الآيتين السابقتين وهذه الآية، رتب الله سبحانه وتعالى المؤمنين على ثلاثة منازل: المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون ومن تبعهم بإحسان إلى قيام الساعة، فإن من شأن من جاء بعد المهاجرين والأنصار أن يذكروا السابقين عليهم بالرحمة والدعاء، وأنَّ مَن

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٢٨٧).

(٢) أخرجه الحاكم وصححه (٢/٤٨٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٧٩).

(٣) تفسير ابن عطية (٥/٢٨٧).

ذكَرُهم بسوء فهو خارج عن أقسام المؤمنين الواردة في هذه الآيات، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ وهم المؤمنون الذين جاؤوا بعد المهاجرين والأنصار.

ويجمع هذه الفرق الثلاث قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة:١٠٠] كما في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي في سائر الفتوحات بعده ﷺ ولا يختص بالمهاجرين والأنصار، بل يشمل كل من يوجد من المسلمين أبد الدهر، وبهذا فهم عمر ﷺ من هذه الآيات، ثم قال: ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك.

وحسبُهم من الفضل أن يسيروا خلْف أصحاب رسول الله ﷺ وأن يقتفوا أثرهم ويهتدوا بهديهم.

ثم بين سبحانه وتعالى أن التابعين ومَن بعدَهم من شأنهم أنهم يسألون الله تعالى المغفرة لهم، ولمن سبقهم من إخوانهم في الدين، ويُكِنُّون لهم في أنفسهم المحبة والمودة، فهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ إنهم يدعون لهم، ويعترفون بأنهم أهل السبق في الإيمان، وأهل الفضل، وأن أُخُوَّتهم أعز وأشرف من أُخُوّة النسب.

وهذا الدعاء يشمل جميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، واللاحقين ممن جاؤوا بعدهم، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضى لعقد الأخوة بين المؤمنين، وهم يسألون الله تعالى ألاّ يجعل في قلوبهم غلاً ولا حقداً ولا حسداً لإخوانهم في العقيدة فيدعون ربهم قائلين: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ أي غشاً وبغضاً وحسداً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ويدخل في ذلك الصحابة دخولا أوّليّاً، فمن وجد في قلبه غلاً على واحد منهم فقد أصابه نزغ من الشيطان، وكذا من سبهم أو أذاهم أو انتقص من شأنهم، وإذا انتفى الغل عن القلب ثبت ضده وهو المحبة والإيمان ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ﴾ بعبادك ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، ومن كمال الرأفة والرحمة توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق العباد.

ومعنى الآيات: وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى التي فُتحت صُلْحاً فلله وللرسول، ولهؤلاء المسلمين من المهاجرين والأنصار، وللذين يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة، ما أقاموا على محبة أصحاب رسول الله ﷺ.

من سب الصحابة أو أساء إليهم ليس له حق في الفيء ولا في الخمس:

فمن ترضّى على أصحاب رسول الله ﷺ وترحّم على مَن بعدَهم، ولم يكن في قلبه غل لهم، فله حظ من فَيْء المسلمين، ومَن سبّهم، أو سبّ بعضهم، ولم يترحَّم عليهم، وكان في قلبه غلّ لهم، أو لبعضهم فليس له حق في شيء مِنْ فَيء المسلمين بنص الكتاب.

وهذه جملة من الأحاديث والآثار في المعنى:

١- قال مالك بن أنس ﷺ: من تنقّص أصحاب رسول الله ﷺ أو كان في قلبه غل عليهم، فليس له حق في فيء المسلمين[(١)].

ومن لم يستغفر للصحابة عموماً، ولم يَطلبْ رضوان الله تعالى لهم، فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية.

٢- وقال ابن عطية: جاء عراقيُّون على عليّ بن الحسين، فسبُّوا أبابكر وعمر وعثمان، فقال لهم: أمن المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا: لا، قال: أفمِنْ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ قالوا: لا، قال: فقد تبرّأتُم من هذين الفريقين، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، قوموا، فعل الله بكم وفعل[(٢)].

٣- وقال الحسن: أدركتُ ثلاث مئة من الصحابة، منهم سبعون بَدْرياً، كلهم يحدثني أن النبي ﷺ قال: «**من فارق الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**»[(٣)].

---

(١) زاد المسير (٢١٦/٨)، وتفسير الخازن (٢٥٠/٤).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٨٨/٥)، وانظر الدر المنثور (٣٨٤/١٤) كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عمر.

(٣) والحديث في المسند عن أبي ذر برقم (٢١٥٦١)، قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة خالد بن وهبان، وأخرجه ابن أبي عاصم (١٠٥٤).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية**»[١].

٤- وفي الصحيحين عن أبي سعد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه**»[٢].

٥- وفي صحيح مسلم عن عروة بن الزبير ﷺ قال: قالت عائشة رضي الله عنها: (يا ابن أختي، أُمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبّوهم)[٣].

٦- وعن عبد الله بن مغفَّل ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه**»[٤].

وما وقع من بعض الصحابة من مخالفات، وما حدث بين بعضهم من نزاع، وما جرى بين عائشة وعلي، وبين عليّ ومعاوية، كان انتصاراً للحق في نظر كل منهما.

فيجب علينا أن نمسك عن ذلك ولا نخوض فيه، فلن يترتب عليه شيء في حياتنا، وغير الأنبياء من البشر يقع منهم الصواب والخطأ.

٧ - ذكر القرطبي أن عمر ﷺ دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله عليه من البلاد، ثم قال لهم: لقد مررت بآيات سورة الحشر الثلاث فما بقى أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل فيها.

التحالف الكاذب بين المنافقين واليهود على النيل من الإسلام وأهله

١١ - ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ

(١) الحديث أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) عن ابن عباس، وهو عن عمر في المسند (٦١٦٦)، وعن عامر بن ربيعة (١٥٦٨١،١٥٦٩٣).

(٢) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

(٣) مسلم (٣٠٢٢).

(٤) الترمذي برقم (٣٨٦٢) قال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

هذه الآية وما بعدها، حكاية لما جرى ويجري بين أهل الكفر وأهل النفاق، في كل زمان ومكان، من تحالف وتعاون على المكر بالمسلمين وتدبير المكايد للإسلام وأهله، وتعجُّبٍ من أحوالهم وسلوكهم.

ولما ذكر سبحانه أوصاف المؤمنين الصادقين، أتبع ذلك بذكر أوصاف المنافقين المخادعين الذين صادقوا اليهود وحالفوهم على حرب المسلمين، وكان المنافقون قد أرسلوا إلى بني النضير سرّاً يقولون لهم: لا تَخْرجوا من حصونكم، فنحن معكم، ومصيرنا مصيركم:

ومعنى الآية: ألم يصل إلى علمك – أيها الرسول - حال أهل النفاق، الذين يقولون لإخوانهم في الكفر من أهل الكتاب، أثناء محاصرتهم في حصون بني النضير، كي تقوى نفوسهم على مواجهة محمد ﷺ وقتاله وهم كاذبون فيما قالوه، وهذا أمر يدعو إلى العجب، فقد طمّعوا إخوانهم في نصرتهم، ثم خذلوهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ وهؤلاء المنافقون هم فريق من بني عوف، من الخزرج، منهم: عبد الله بن أُبيّ، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيظي، ووديعة، وسويد، وداعس.

هؤلاء المنافقون ومن معهم، أرسلوا إلى بني النضير حين حاصرهم المسلمون في حصونهم، يقولون لهم: اثبتوا في معاقلكم وحصونكم، فنحن معكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم.

فانتظَروا نصْرهم لهم كما وعدُوهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا النبي ﷺ أن يُجْلِيهم ويكُف عن دَمائهم، ففعل، وهذا معنى: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو النضير، إخوان المنافقين في الكفر، وهذه الأخوة ليست أخوة في النسب، وإنما هي أخوة في الدين، فهم متّحدين معهم في الكفر بمحمد ﷺ يقولون لهم ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ أي من ضواحي المدينة ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ ونصاحبكم

في الخروج منها ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي لا نطيع أحداً في عدم نصرتكم، أو يسألنا أن نخذلكم، ولا نخرج مع أحد يقاتلكم، أو يمنعنا من نُصْرتكم، أو يخوفنا ويعذ لنا عنكم، ولن نسمع لمحمد ﷺ أن يأمرنا بِخُذْلاَنكم، ولن نطيعه في قتالكم ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي وإن قاتلكم المسلمون فسوف نعاونكم عليهم، ونقاتلهم معكم.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما وَعدُوا به يهود بني النضير، وغرورهم به، فإن الكذب والغرور والخداع وصفهم والنفاق والجبن مصاحباً لهم.

وفي مثل هذه الموالاة يقول سبحانه ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢] قال تعالى مكذبا لهم:

١٢- ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

لقد كذّب الله المنافقين في وَعْدهم لليهود بمناصرتهم لهم في قوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي: لئن أَخْرَج المؤمنون اليهود من مساكنهم بالمدينة - على سبيل الفرض - فلن يخرُج معهم المنافقون لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم.

﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي: ولئن قاتل المؤمنون اليهود، فإن المنافقين لا ينصرونهم، بل يستولى عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، وهم أحوج ما يكون إليهم.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ أي: ولئن قاتل المنافقون مع اليهود لِيَنْصُروهم ويَدْفَعُوا عنهم على سبيل الفرض والتقدير، لَيُولُّنَّ الأدبار فراراً منهزمين من المسلمين.

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لن تنفعهم نُصْرة المنافقين لهم، ولن ينصرهم الله، بل يخذلهم ويذلهم، ولن ينفعهم نفاقهم.

والذي أخبر به القرآن من الأمور الغيبية التي تحققت، فإن بني النضير حين أُخرجوا من حصونهم، لم يخرج معهم المنافقون الذين وَعَدُوهم بذلك، ولم يقاتلوا معهم، ولم

ينصروهم، وكذلك الشأن بالنسبة ليهود بني قريظة وخيبر في المستقبل، فإن المنافقين لن يفعلوا لهم شيئا بل يضروهم، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ ﴾ [التوبة:٤٧].

وهذا النفاق الذي نزلت بسببه الآيات، لا يقتصر على العصر النبوي فحسب، فهو موجود وحاصل في كل زمان ومكان.

وأكثر ما تُمْنى به البلاد من تدهوُر أمني وسياسي وعسكري واقتصادي هو بسبب هؤلاء المنافقين.

ونحن نعيش عصر الانتفاضة الفلسطينية ـ وقت كتابة هذه السطور ـ ونرى كيف يستعين اليهود بغيرهم للتعرف على أماكن تواجد من يريدون قتلهم من المسلمين، وبعض المنافقين لا يرؤن حرجاً في أن يعيشوا مع اليهود ويقاسمونهم حياة خشنة أو ناعمة، وكلاهما قد أَلِف الآخر، لأن الفريقين لا دين لهم.

مِنْ أَوْصَافِ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ فِي الْحُرُوبِ

١٣ - ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

ثم كشف الله سبحانه عن طبيعة المنافقين وبيّن السبب الموجب لعدم نُصرة المنافقين لليهود، وذلك بأنهم في خوفهم من المؤمنين، أشد من خوفهم من الله تعالى ﴿ لَأَنتُمْ ﴾ أيها المسلمون ﴿ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أي خوفاً وخشية ﴿ فِي صُدُورِهِم ﴾ أي في صدور المنافقين ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ لخوف المنافقين واليهود منكم، فإن خَشْيَتُهم إياكم في السر - أيها المؤمنون - أعظم وأشد في صدورهم، من خوفهم وخشيتهم من الله تعالى، فهم يرهبونكم ويَخافون منكم سراً أشد من رهبتهم من الله تعالى، وذلك لعدم وجود الإيمان في قلوبهم، ولأنهم لا يعرفون حقائق الأمور، ولا يدركون عواقبها.

وإذا علم المسلمون أن عدُوّهم يزهبهم، قويتْ نفوسهم، وأقدموا على لقائه.

وهذه بشرى من الله تعالى للمؤمن بأنه أوقع الرعب منهم في قلوب عدوهم،

وبيّن سبحانه أنها رهبة خفيّة داخل صدورهم، مع أنهم يتظاهرون بالشجاعة والاستعداد للمواجهة.

وقد أطْلع الله رسوله على دخائلهم، ثم ذمهم سبحانه، مبينا أن خوفهم من الناس أشد من خوفهم من الله تعالى بسبب قلة فِقْههم، ولو أنهم كانت لهم عقول تُحْسِن الإدراك، لكان خوفهم من الله تعالى أشد وأعظم، وهذا معنى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أي: لا يعقلون عظمة الله تعالى ويدركون حقيقة الإيمان به، ولا يرهبون عقابه، ولا يرجون ثوابه.

والفقه: فهم المعاني الخفية، كما قال تعالى: ﴿ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٧٨] وهذه الرهبة التي في نفوسهم علامة النفاق، لأنهم يُظْهرون خوفهم من الله تعالى، ويُبطِنون خوفهم من المؤمنين، ورهبتهم السِّرية أشد من رهبتهم العلنية. وقد وصف الله تعالى قوماً بقوله: ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء:٧٧].

١٤- ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ[1] بَأْسُهُم[2] بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) ﴾

وصف الله اليهود في هذه الآية بوصفين:

الوصف الأول: أنهم جبناء: لا يقدرون على قتال المسلمين إلا وهم متحصنين في قلاعهم وحصونهم، من وراء الحيطان والأسوار، ولا يقاتلونكم مجتمعين من موطن واحد، بل يتحصنون بالخنادق والأنفاق، لأنهم يَعْجَزُون عن مبارزتكم ومواجهتكم وجهاً لوجه.

ولقد رأينا هذا بأعيننا، رأينا الجندي الإسرائيلي وهو يختبىء وراء باب سيارته أو

---

(١) قرأ ابن كثير وأبوعمرو بكسر الجيم وفتح الدال بعدها على الإفراد (جدار) والباقون بالجمع ﴿ جُدُرٍ ﴾ بضم الجيم والدال وحذف الألف.

(٢) أبدل الهمزة من ﴿ بَأْسُهُم ﴾ ألفاً أبو عمرو بخلْف عنه، وأبوجعفر، وسكنها الباقون.

مدرّعته، حاملاً مدفعه في مواجهة طفل الحجارة، وهو يُصوّب رصاصته من خلف الباب! ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي لا يواجهكم اليهود في ساحة القتال وهم مجتمعين أو منفردين وجهاً لوجه ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالأسوار والبيوت والخنادق والحواجز ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي من خلْف الحيطان والأبواب، وهذا قتال من لا يقيمون في قُراهم، فيقاتلونكم متفرقين، كل فريق في قَرْيته، خائف متترس، وقد وصفهم القرآن بهذا لأنهم شعب بلا وطن، فهم قوم رحّل أهل بداوة، كما أرخ لهم أخوهم يوسف عليه السلام في قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] فقوله: ﴿مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ تشير إلى أنهم متنقلون لا وطن لهم.

وهم لا يبدؤونكم بهجوم بريّ فيه مواجهة، وإنْ هاجمْتُموهم لا يبرُزون لقتالكم.

وفي هذا دليل على أن مصيرهم في النهاية هو الهزيمة، كما قال عليّ ﷺ: ما حُورب قوم في عُقر دارهم إلا ذَلّوا.

الوصف الثاني: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي أن عداوتهم فيما بينهم، عداوة شديدة، فهم لا يتفقون على رأي، ولا يجتمعون على كلمة، وهم مختلفون فيما بينهم، متخاصمون أشد الخصام، ومع هذا فهم متفقون على عداوة المسلمين.

قال قتادة: أهل الباطل مختلفة أراؤهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفة شهادتهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق[(١)].

ولقد رأينا اختلافهم فيما بينهم، عندما هاجر يهود الفلاشا من السودان إلى الأرض المحتلة، حيث وجدوا أنفسهم منبوذين مضطهدين، مواطنين من الدرجة الثالثة، مما جعلهم يرتكبون بعض الجرائم، ويعودون من حيث أتوا.

وقد يراهم الرائي في ظاهر حالهم متفقين، ولذلك فإن الله تعالى قد نفى ذلك عنهم في قوله ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ تظن أنهم طائفة واحدة، وهم شيع وأحزاب، لا

(١) تفسير القرطبي (١٨/٣٥)، والخازن (٤/٢٥٠).

يجتمعون على كلمة واحدة، وقلوبهم متفرقة متخاصمة متنازعة.

وما دام الأمر كذلك فلا تبالوا بهم - أيها المؤمنون - بل أغلظوا عليهم وجاهدوهم بكل شدة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم:٩].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣].

والسبب في أن بأس اليهود بينهم شديد، وأن قلوبهم شتى: أنهم انساقوا وراء الأحقاد والتشفِّي، وأهملُوا النظر في عواقب الأمور، وما تقتضيه المصلحة، فصارت عقولهم كأنها معدومة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أمر الله ومراده، ولا يتدبرون آياته، ولو كانت عقولهم تدرك الحقائق لكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، ولما آثروا المفضول على الفاضل، ولآمنوا بخاتم النبيين.

وختمت هذه الآية بـ ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾ لأن العقل هو أداة النظر في عواقب الأمور.

أما ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الذي ختمت به الآية السابقة، فلأن الفقه هو فهم المعاني الخفية بالنظر الثاقب، فكان هذا الختام مناسباً للآية قبلها.

لِلْمُنَافِقِينَ مَعَ بَنِي قَيْنُقَاعٍ وَعْدٌ كَاذِبٌ أَيْضاً

١٥ - ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

ولم يكن حادث بني النضير هو الأول من نوعه، فقد سبقه حادث بني قينقاع الذي تشير إليه هذه الآية، أي مَثَلُ يهود بني النضير الذين حلّ بهم عقوبة الله، كمثل يهود بني قينقاع الذين سبقوهم، وكان خروجهم من المدينة قبل خروج بني النضير بزمن ليس بطويل، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وأمان كذلك، فلما انتصر المسلمون على المشركين في غزوة بدر، حقدوا على المسلمين، وخافوا أن يضعف مركزهم أمام المسلمين، وبلغ رسول الله ﷺ ما يتهامسُون به، وما يخفُونه من الشر، فذكَّرهم النبي ﷺ بالعهد الذي بينه وبينهم، وحذّرهم من مغبة نقضه، فردُّوا عليه ردّاً شديداً، حيث قالوا:

يا محمد، لا يغرنّك أنك لقيتَ قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، والله لئن حاربناك لتعلَمنَّ أَنَّا نحن الناس.

وأخذوا يتحرشون بالمسلمين، ومن ذلك أن امرأة من العرب جلستْ إلى صائغ يهودي في سوق بني قينقاع، فأخذ اليهودي يطلب منها كشف وجهها فأبت، فعقد الصائغ طرف ثوبها الفضْفاض في أعلى ظهرها وهي لا تشعر، فلما قامت تكشَّفت وضحك الناس، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وقتل اليهودي المسلم، واستنْجد كل فريق بذويه، وحدث بينهم قتال، فحاصرهم الرسول ﷺ حتى نزلوا على حُكْمه.

وقبل النبي ﷺ أن يجلُوا عن المدينة، وأن يأخذوا مالهم ومتاعهم إلا السلاح، ورحَلُوا إلى الشام.

وكما حلّ ببني قينقاع من الخزي والنكال، فتركوا منازلهم ورحَلُوا، حلّ أيضا بالمشركين يوم بدر من القتل والأسر، فقد زين الشيطان لكفار قريش سوء أعمالهم وقال لهم ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فقد حدث من كفار قريش مع النبي ﷺ كما حدث من بني قينقاع.

والقرآن الكريم يضرب المثل لبني النضير بمن أُخرجوا من ديارهم قبلهم بسبب غدرهم، وبمن حلّت بهم الهزيمة المنكرة بسبب كفرهم، فذاق كل منهما عاقبة أمره ذُلاً وعذاباً في الدنيا، ويضرب المثل أيضاً بما حدث من كفار قريش يوم غزوة بدر، حين اغتروا بأنفسهم واغتروا بمن وعدوهم المساعدة والمؤازرة، وبما غرهم به الشيطان، فلم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم شيئاً من العذاب، وأذاقهم الله عاقبة كفرهم وشركهم، وهذا معنى: ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة إجرامهم في الدنيا، ولم يُغن عنهم هذا من عذاب الآخرة، فأمامهم عذاب مؤلم ينتظرهم يوم لقاء الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهكذا

كان للمنافقين مع بني قينقاع دور، كما حدث بينهم وبين بني النضير، وكما حدث بين المسلمين وكفار قريش، وكما يحدث بين المسلمين وغيرهم في كل زمان ومكان.

إغراءُ المُنَافِقِينَ لِليَهُودِ كَإِغْرَاءِ الشَّيْطَانِ لِلإِنْسَانِ وَالتَّخَلِّي عَنْهُ

١٦ - ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ[1] أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

لقد أغرى المنافقون اليهود، فخدعوهم وأوهموهم بأنهم سيقفون معهم، فزعموا أنهم إن أخرجهم المؤمنون من ديارهم خرجوا معهم، وإن قاتلوهم، قاتلوا معهم، وكان هذا مجرد خداع وتضليل، فلم يخرجوا معهم، ولم يُدافعوا عنهم، وانتهى بهم الأمر إلى هذه الحال البائسة.

وهذا الإغراء يشبه إغراء الشيطان للإنسان حتى يقع في المعصية، ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أي ومثَل هؤلاء المنافقين في إغراء اليهود على القتال، ووعدهم لهم بالنصر على رسول الله ﷺ، مثلهم في تخاذلهم وعدم تناصرهم كمثل الشيطان حين يُزين للإنسان الكفر، ويدعوه إليه في الدنيا ثم يتبرأ منه يوم القيامة ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ الإنسان ومات على كفره، وبُعث يوم القيامة ليواجه مصيره السيء، ندم وتحسر، وألقى بالتبعة على الشيطان، بعد أن اغتر به وكفر، وكان من أهل الشقاء، ولم ينفعه الشيطان الذي تولاّه واتبع إشارته، فما كان من الشيطان إلا أن تبرأ من الإنسان الذي أغراه وأغواه، فأظهر خوفه من ربه، و﴿قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وليس المراد بالإنسان في الآية شخص معين، كما جاء في بعض التفاسير من قصص غير صحيحة فيها وسوسة الشيطان لإنسان معين في الدنيا فارتكب بعض المعاصي.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وأبوجعفر بفتح ياء الإضافة من {إني أخاف} والباقون بإسكانها

سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم:٢٢].

قال في التسهيل: هذا مثَلٌ، مثّل الله به للمنافقين الذين أغوَوْا يهود بني النضير، ثم خذلوهم بعد ذلك، بالشيطان الذي يُغوي ابن آدم، ثم يتبرأ منه والمراد: جنس الإنسان وجنس الشيطان[1].

وتبرُّء الشيطان من الإنسان لا يكون في الدنيا لأنه لا يحدث بينهما فيها كلام.

فيكون المراد: أن الشيطان أغرى الإنسان بالكفر، فلما كفر وهو في الدنيا، ثم لقى الله يوم القيامة بكفره، قال كل شيطان لقرينه من الإنس: إني بريء منك، وهو يطمع أن ينجو بهذا من العذاب.

والمعنى: فلما كفر، واستمر على كفره، حتى فارق الدنيا وجاء يوم الحشر، اعتذر بأن الشيطان قد أضله، وقال الشيطان: إني بريء منك، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ [ق:٢٧].

وهذه المحاجّة، لا تكون إلا في يوم الجزاء بعد موت الكافر على الكفر دون أن يسلم. قال تعالى مبيناً مصير الفريقين:

١٧ - ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

أي ثم تكون النتيجة يوم القيامة أن يدخل الكافر والشيطان النار، وبئست العاقبة عاقبتهما ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي عاقبة الشيطان الذي دعا إلى الضلال، والإنسان الذي أطاعه فكفر ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ ماكثين فيها أبداً ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مصير كل معتدٍ ظالم متجاوز لحدود الله.

والمعنى: فكان عاقبة الشيطان وعاقبة الإنسان أنهما في نار جهنم خالدين فيها، وذلك جزاء من ظلم نفسه بالشرك والكفر، فضل وأضل.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١١٠).

تحصيل الزاد ليوم المعاد

١٨ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

أمر الله عباده بمقتضى إيمانهم أن يلزموا تقواه في جميع أحوالهم، في سرهم وعلانيتهم، وأن يمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، ويلزموا حدوده وشرائعه، وينظروا ما لهم وما عليهم، وما ينفعهم وما يضرهم، وأن يجعلوا الآخرة نصب أعينهم في كل صغيرة وكبيرة، ويجتهدوا في كثرة الأعمال الموصِلة إلى جنة الله ورضوانه، ويجتهدوا في صرف العوائق والشهوات والشبهات التي تحول بينهم وبين الأعمال الصالحة، وأن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا، ويزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليهم، والله تعالى لا تخفى عليه أعمال العباد، وهو رقيب ومطلع عليهم في جميع أحوالهم، وسوف يحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى صفات اليهود والمنافقين، وضرب لهم الأمثال، توجهت الآيات بعد ذلك بالخطاب إلى المؤمنين، تعظهم وتذكّرهم قُرب قيام الساعة، وتُحذّرهم ممن لا تخفى عليه خافية، كي يُعِدّوا العدة لليوم الآخر، بعد أن امتن الله عليهم بما أفاءه وأفاض به عليهم من منافع دنيوية فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي يا من صدقتم بالله رباً واحداً، وصدَّقتم بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، ختم الله به النبوات، ويا من عملتم بِهَدْي الله ورسوله: صونوا أنفسكم عن كل ما يغضب الله تعالى، وراقبوه في السر والعلن، وقفوا عند حدوده، ولا تتجاوزوا أمره ونهيه، واحذروا عقاب الله، وخافوا يوم لقائه، واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أمره واجتناب نهيه.

﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾ أي وعلى كل نفس مؤمنة أن تتدبر وتتفحص الأعمال التي قدمتْها ليوم القيامة، والتي ستلقى بها ربها لتحاسَب عليها، فتنظر في الأعمال التي عَمِلَتْها لآخرتها؟ هل هي موافقة لهدْي الله تعالى وهدْي رسوله ﷺ أم فيها مخالفة

وعصيان؟ فإن كانت خيراً تزوّدت منه، وإن كانت شراً أقلعت عنه، وهذه محاسبة للنفس في الدنيا قبل الحساب الأخروي، لتدارُك جوانب النقص والتقصير، ومراجعة ما ادّخره العبد ليوم المعاد.

قال قتادة: قرّب الله القيامة حتى جعلها غداً، وذلك أنها آتية لا محالة، وكل آت قريب، وعلى المرء أن ينظر ما قدم لنفسه من أعمال، فإذا نظرها تزود بالعمل الصالح وكف عن السيئات، وادّخر لنفسه من صالح عمله ليوم عَرْضِه على ربه.

قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠].

وقال جل شأنه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار].

وقال سبحانه: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اثبتوا وداوموا على تقواه، فإنها وصية الله للأولين والآخرين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

وكررت التقوى لتأكيد الاستمرار والمداومة عليها، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء:١٣٦].

والتقوى: جماع كل خير، ومَلاك كل بِر، وبها وصّى كل رسول أمته قائلاً:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨﴾ [الشعراء].

وبتقوى الله تعالى يسْعدُ العبد في دنياه وأخراه:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢،٣].

وأصدقاء الدنيا يكونون أعداء يوم القيامة، إلا من كان تقياً:

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف].

والمنزلة العالية في الدار الباقية، لمن اتقى وَبرّ:

قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥ ﴾ [القمر].

والله تعالى لا تخفى عليه خافية من أعمالكم وسيجازيكم عليها، ومن ذلك اجتهادكم في التقوى.

وفي حديث المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدْر النهار، فجاء قوم حفاة عراة، متقلدي السيوف، وهم من مُضَر، فتغيّر وجه النبي ﷺ لِمَا رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، ثم أمر بلالاً، فأذّن وأقام الصلاة، فصلّى وخطب، ثم قرأ أول سورة النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ وقرأ هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ودعا الناس إلى الصدقة وقال: «**تصدقوا قبل أن يُحال بينكم وبين الصدقة**» فكان منهم من تصدق بديناره، بدرهمه، بثوبه، بصاع بُره، حتى قال: ولو بشق تمرة، فجاء رجل من الأنصار، بِصُرّة كادت كفّه تَعْجز عنها، ثم تتابع الناس حتى جاؤوا بِكومَيْن من طعام وثياب، حتى تهلل وجه النبي ﷺ كأنه مُذْهبة، فقال ﷺ «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[(١)] ثم قسم بينهم ما جمع من هذه الصدقات، وهذا الحديث يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾.

التَّحْذِيرُ مِنَ الإِعْرَاضِ عَنْ دِينِ اللهِ تَعَالَى

١٩ - ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝١٩ ﴾

وبعد أن أمر الله المؤمنين بتقواه والتزود للآخرة، حذّرهم من الإعراض عن دين الله، والتغافل عن التقوى، لأن ذلك يؤدي إلى الفسوق والخسران، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فتركوا أداء حق الله الذي أوجبه عليهم، فكان

---

(١) ينظر الحديث في المسند (٣٥٨/٤) برقم (١٩١٥٦، ١٩١٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في صحيح مسلم برقم (١٠١٧)، وابن أبي شيبة (١٠٩/٣)، والنسائي (٢٥٥٢)، وابن ماجة (٢٠٣).

عاقبة ذلك أن الله تعالى أنساهم حقوق أنفسهم بالنظر فيما يصلحها ﴿فَأَنسَىٰهُمْ﴾ حظوظ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ من الخيرات والأعمال التي تنجّيهم من عذاب الله يوم القيامة، وهذا من عقوبة الذنب بالذنب.

ثم وصف الله هذا الصنف من الناس بالفسق والخروج عن طاعة الله تعالى فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي هم الفجرة الخارجون عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

وقد حذرنا الله تعالى من ذلك في كثير من آياته، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

وقوله تعالى عن المنافقين ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧].

والسبب في هذا أنهم لم يتفطّنوا لفهم الهدْي الإسلامي فيعملوا بما يُنْجيهم من عذاب الله في الآخرة وما يصلحهم في الدنيا، فنسيانهم لأنفسهم بسبب نسيانهم دين الله والإعراض عنه، ولذا! فإنه ينبغي على العبد أن يتفقد نفسه، فإن رآى زللاً أقلع عنه من فوره، وتاب توبة نصوحاً، وإن رآى تقصيراً بذل جهده في إصلاحه وإتقانه ... وهكذا.

وهذا الإعراض عن دين الله، له مراتب تنتهي بالكفر، والذين نسوا الله بلغوا منتهى الفسق الذي لا فسق بعده، ولذا فإنهم يُتركون في عذاب النار يوم القيامة عقوبة لهم ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الجاثية: ٣٤].

البَوْنُ شَاسِعٌ بَيْنَ السُّعداء وَالأَشْقِيَاء

٢٠- ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ثم بين جل شأنه الفرق بين من اتقى الله تعالى، وبين من نسي لقاء الله سبحانه، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي لا يستوي المعذّبون والمنعّمون، ولا يستوي الأشقياء والسعداء، لا يستوي مَنْ حافظ على تقوى الله، ونظر ما قدّمه لغد، فاستحق

جنات النعيم، وكان ممن أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن غفل عن حقوق الله وحقوق عباده، فشقى في دنياه، واستحق العذاب في آخراه، فالبؤن شاسع بين العاقبة التي ينتهي إليها كل فريق.

وفي هذا تنبيه للناس، وإيقاظهم من غفلتهم لترك الشهوات، وإيثار الآجلة على العاجلة، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى:

١- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ [غافر:٥٨].

٢- وقوله سبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

٣- وقوله جل شأنه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم].

٤- وقوله عز وجل: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر].

٦- وقوله أيضاً: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة].

ثم قرر سبحانه أن أهل الجنة هم أهل الفوز والفلاح فقال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي أنهم الظافرون بكل مطلوب، الناجون من كل مكروه، ونَفْي الاستواء بين الفريقين كناية عن البون الشاسع بين أهل السعادة الأبدية والشقاء الأبدي.

تَأْثِيرُ الْقُرْآنِ عَلَى الشُّمِّ الرَّاسِيَاتِ، فَمَا بَالُ الإِنْسَانِ؟

٢١- ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ(١) عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ(٢) خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

وبعد هذا الكلام، على فتح قُرى اليهود، وما ينال المنافقين من خسران في الدنيا

(١) نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها من ﴿الْقُرْآنَ﴾ ابن كثير وحمزة عند الوقف وحققها غيرهما.

(٢) أخفى النون عند الخاء في ﴿مِّنْ خَشْيَةِ﴾ أبوجعفر والباقون بالإظهار.

والآخرة، وبعد تحذير المسلمين من الوقوع في الغفلة ونسيان الله تعالى، كما حدث للفاسقين، وبعد بيان أن الشيطان هو الذي سول لهم الكفر، وأنهم أطاعوه واتبعوا وسوسته، بعد ذلك أرشد الله سبحانه إلى أن طريق النجاة من المهالك ومسالك الشر، هو هذا القرآن، فعلى العباد أن يبادروا إلى تدبره والعمل به، فإن قلوبهم لو كانت في غاية الصلابة والقسوة لتأثَّرت بمواعظ القرآن وأوامره ونواهيه ليسرها وسهولتها، وخُلوِّها من التناقض والاختلاف، وإصلاحها لكل زمان ومكان، ولو أنزل الله هذا القرآن على جبل لخشع وتصدع من خشية الله، فما بالكم بالإنسان؟

والمعنى: لو أن الناس تدبّرو القرآن وتأملوه، وعملوا بما فيه، فإن من روعة هذا القرآن، أنه يؤَثِّر على الصُّم الراسيات من الجبال، فلو كان المخاطب بهذا القرآن جبلاً، وكان لهذا الجبل عقلاً وتمييزاً يفهم الخطاب، لتأثَّر الجبل بخطاب القرآن، تأثُّراً ناشئاً من خشية الله تعالى بسبب تأثره بمعاني القرآن.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال، وفَهِمَ مافيه من الوعد والوعيد، والهدايات والمواعظ، والأحكام والآداب ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ مع كونه في غاية الصلابه والقسوة والقوة ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ متشققاً ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي لأبصرتَ الجبل على قوّتِه وشدّته وصلابته وضخامته، خاضعاً متطامناً ذليلاً مشفقاً من خشية الله تعالى، حذَراً من عقابه وخوفاً من عذابه.

ولو كان الجبل في موضع هؤلاء الذين نسوا الله، وأعرضوا عن فهم القرآن، ولم يتعظوا بمواعظه، لاتّعظ الجبل، وتصدّع صخرهُ وتُربتُه، لشدة تأثره بكلام الله تعالى.

وتصدُّع الجبل يُضرب مثلاً لشدة الانفعال وقوة التأثر، لأن الأجسام الصلْبة إذا تأثرت، تشقّقتْ وتصدّعت، ولا يحصل هذا بسهولة.

وهذا توبيخ للإنسان على قسوة قلبه، وقلة خشوعه، وعدم تدبُّره لما في القرآن، وترك العمل بما فيه.

وفيه تصوير لعظمة القرآن، وقوة تأثيره، ونفاذه في القلوب.

ثم بين سبحانه أن هذا من باب ضرب المثل للناس لتقريب المعاني، وتوضيح الحلال والحرام، ومعرفة الخير والشر، ومحاسن الأخلاق ومساوئها، فقال ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في قدرة الله وعظمته، ويتأملوا آثار قدرته الله تعالى فيؤمنوا به ويوحدوه، فإن التفكر في آيات الله يفتح للعبد خزائن العلم ونور الحكمة.

فالغرض من هذا التمثيل: التنبيه على فساد قلوب الكفار وقساوتها، وغلْظ طباعهم، وعدم التأثر بالقرآن.

وثبت أن النبي ﷺ كان يقف يوم الجمعة إلى جانب جذْع من جذوع النخل، فلما وُضع له المنبر، وجاء ليخطب عليه، ترك الجذع مكانه وتوجّه نحو المنبر، وأخذ يَحِنُّ ويَئِنُّ، كما يئنّ الصبي، لِمَا كان يسمعُه من الذكْر والوحي عنده.

وكان الحسن البصري إذا حدّث بهذا الحديث بكى، ثم قال: يا عبد الله، الخشبة تحنّ إلى رسول الله شوقا إليه، لمكانه من الله تعالى، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

فإذا كانت الجبال الصم، والجمادات، تخشع من خشية الله تعالى، فكيف بالإنسان؟ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد:٣١] أي لكان هذا القرآن قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة:٧٤].

إن القلوب المؤمنة وحدها هي التي تخشع لذكر الله تعالى، قال جل شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الزمر:٢٣].

وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال:٢].

أخرج ابن المنذر عن الضحاك في معنى الآية: لو أنزلتُ هذا القرآن على جبل،

فأمرتُه بالذي أمرتكم به، وخوّفتكم بالذي خوّفتكم به، إذاً لخشع وتصدع من خشية الله، فأنتم أحق أن تخشعوا وتذلّوا وتلين قلوبكم لذكر الله[1].

الاستشفاء بهذه الآية:

روى الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأتُ على خلَف - وهو القارىء العاشر، من أئمة القراءات العشر، وشيخه حمزة - فلما بلغتُ هذه الآية ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ إلى آخر السورة قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأتُ على الأعمش.

فلما بلغتُ هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على يحيى بن وثّاب.

فلما بلغتُ هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على علقمة والأسود.

فلما بلغتُ هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإنا قرأنا على عبد الله بن مسعود.

فلما بلغنا هذه الآية قال: ضعا أيديكما على رؤوسكما، فإني قرأتُ على النبي ﷺ فلما بلغتُ هذه الآية قال: «ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء، إلا السام»[2]. والسام الموت.

وأخرج الديلمي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ إلى آخر السورة، هي رُقية الصداع).

عِلمُ الغَيبِ، وَالرَّحمَةُ المُطلَقَةُ، مِن خَصَائِصِ الإلهِ الحَقِّ

٢٢- ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾

بدأت سورة الحشر بتسبيح العوالم كلها لله تعالى، على أعظم حَدثٍ شهدتْه المدينة

---

(١) ينظر: الدر المنثور (١٤/٣٩٧) وما بعدها.

(٢) قال الطاهر بن عاشور في تفسيره (١٣/١٢٨)، هذا حديث أغر مسلسل إلى جبريل عليه السلام، وهو في تاريخ الخطيب (١/٣٧٧)، وقد نقله الشوكاني في فتح القدير (٥/٢٠٥) بسياق آخر، ونقل عن الذهبي قوله: باطل، قلت: ربما يقصد اللفظ الذي أورده الشوكاني.

النبوية بعد الهجرة، وهو خروج اليهود منها، ولم يكن هذا مظنوناً.

وبعد ذِكْر المؤمنين والمنافقين واليهود، ذكرت السورة أخطر حدث في حياة كل أمة، وهو تقريرُ مصيرها، فبينتْ أنه لا يستوي أهل النعيم وأهل الجحيم، وأن في اتباع هذا القرآن، النجاة من الهلاك.

وقد اشتملت السورة على ذكر اسم الله تعالى صريحا، أربعا وعشرين مرة.

وذكرتْه تعالى بالصفات والضمائر الظاهرة ست عشرة مرة.

وآخر آية قبل الآيات الثلاث الأخيرة في السورة، ذُكر فيها اسم الجلالة ثلاثُ مرات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾.

ثم جاء ضمير الغيبة في أول الآيات الثلاث الأخيرة من السورة، عوْداً على ألفاظ الجلالة في هذه الآية التي نحن بصددها، إشارة إلى أن ما جاء في السورة، أخبر به عالم الغيب والشهادة، الموصوف بصفات الجلال والكمال.

وقد اشتملت هذه الآيات الثلاث، على كلمة التوحيد مرتين، وعلى تسبيح الله تعالى مرتين، وعلى أربعة عشر اسما من أسماء الله تعالى وصفاته.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ أي هو الله سبحانه وتعالى المعبود بحق، لا رب غيره، ولا معبود سواه، فلا تنبغي العبادة والإلهية إلا له سبحانه.

والتوحيد هو الأصل، ولذا بدأ الله تعالى به بعد اسم الجلالة، الذي هو عَلَمٌ على الذات الإلهية، إذ هو سبحانه الموجود أزلاً وأبداً، الإله المعبود، الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ثم ذكر جل شأنه اثنتين من خصائص الإله الحق:

الخاصية الأولى: أنه سبحانه ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ ﴾ يعلم السر والعلن، ويعلم ما غاب وما ظهر.

والمراد بالغيب: ما غاب عن إحساس الناس ومداركهم.

والمراد بالشهادة: ما يشاهدونه بعيونهم، ويدركونه بعقولهم.

فهو سبحانه لا يخفى عليه شيء في هذا الكون، يستوي في علمه تعالى: ما ظهر وما بطن، وما هو موجود، وما هو معدوم. ويستوي عنده سبحانه علم الدنيا والآخرة.

وعلم الغيب والشهادة دليل إفراد الله تعالى بالألوهية، لا يشاركه في ذلك أحد، لأنه من خصائص الإلهية.

والخاصية الثانية: من خصائص الإله الحق، أنه سبحانه: ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهذا دليل على وحدانية الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة:١٦٣] ورحمته تعالى وسعت كل شيء، وقد ألزم الله نفسه بها فضلاً منه وكرماً، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ [الأنعام:٥٤] وبهذا وصفته ملائكة الرحمن فقالت كما حكى الله عنها: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر:٧].

والرحمن أكثر مبالغة من الرحيم، فهو سبحانه رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، وسعت رحمته في الدنيا: الكافر والمؤمن، وهو رحيم في الآخرة رحمة خاصة بالمؤمنين.

ومعنى الرحمة: إسباغ الخير والنعمة والإحسان على خلقه، وعدم مؤاخذتهم بذنوبهم في الدنيا.

وفي الحديث: أن الله تعالى جعل الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، ومن ذلك الجزء، يتراحم الخلق كلهم، حتى إن الفرس لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.

أَحَدَ عَشَرَ اسْماً مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ فِي خِتَامِ السُّورَةِ

٢٣- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣﴾

في هذه الآية جاءت كلمة التوحيد مرة أخرى، يسبقها لفظ الجلالة، وعوْدُ الضمير في لفظ ﴿هُوَ﴾ على ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وقد أعقب ذلك عدداً من الصفات الجامعة، وكُرِّر هذا، اهتماماً بالتوحيد، وزيادة في التعظيم، فهو الله سبحانه المتفرد

بالوحدانية، المعبود بحق دون سواه.

وقد جاء في هذه الآية ثمانية من أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وجاءت ثلاثة أخرى في الآية التالية، وبيانها فيما يأتي:

الأول: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أي المالك لجميع المخلوقات، في العالمين العلوي والسفلي، بلا منازع ولا مشارك، الحاكم فيهم، المتصرف في جميع شؤونهم بلا ممانعة ولا مدافعة، فالكون كله تحت قهره ومُلْكه وتدبيره وإرادته، بيده الأمر والنهي، والموت والحياة.

الثاني: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي المنزه عن كل نقص، المبرأ من كل عيب، الذي تُقدّسه الملائكة الكرام، وتقول في تسبيحها (سبوح قدوس رب الملائكة والروح).

ومعنى القدوس: بالغ الغاية في الطهارة، المعظم الممجّد.

الثالث: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي الذي سَلِم من كل عيب وآفة في الماضي والحاضر والمستقبل، فلا يطرأ عليه سبحانه تغيير، وصفةُ القدُّوس تدلّ على أنه تعالى منزه في ذاته عن النقائص، وصفة السلام تدل على أنه سبحانه منزه في معاملة خلقه عن الجور والحيف والظلم، وفي الحديث (**إن الله هو السلام**).

الرابع: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي المصدق رسله وأنبياءه بما أرسلهم به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، والمصدق للمؤمنين بما وَعدهم به من الثواب، وما أوْعد الكافر به من العذاب، والمؤمن هو واهب الطمأنينة والأمن لخلقه، الذي أمّن الخلق من ظُلْمه، وأمّن المؤمن من عذابه.

الخامس: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي الرقيب على خلقه في أعمالهم، الحافظ لأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الشهيد على عباده بأعمالهم، الذي لا يغيب عنه شيء، قال تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣] فهو القائم بأرزاق العباد وآجالهم وأحوالهم.

السادس: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الذي لا يُغالب ولا يُقهر، ولا يتطاول على مقامه أحد، بل إنه قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، وعنت الوجوه لعظمته.

السابع: ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ أي الذي قهر جميع العباد، وأذْعن له سائر الخلق، فهو الذي يَجْبُر خلقه على ما يريده منهم، ولا يستطيع مخلوق أن يتجاوز ما حدّده الله له، فالإنسان مثلاً لا يستطيع الطيران، والحيوان من ذوات الأربع لا يمشي على رجلين، وهكذا.

والجبار صفة ذم بالنسبة للإنسان، لأنها صفة خاصة بالله تعالى، وهي صفة مدح بالنسبة لله تعالى، ومن معانيها أنه سبحانه يجبر الكسير من خلقه ونحو ذلك. وهو جل شأنه لا يسأل عما يفعل.

الثامن: ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي الذي له الكبرياء والعظمة والجلال، والكبرياء صفة من صفات الله تعالى لا يشاركه فيها أحد، كما في الحديث القدسي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ عن رب العزة جل في علاه: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيتُه في جهنم**»[1] والكبرياء صفة ذم في حق الناس، والله تعالى له جميع أنواع العلو والكبرياء.

وبعد هذه الصفات الثمانية، نزه نفسه سبحانه عن الشركاء له في عبادته، وعلّمنا كيف نُسبّحه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه سبحانه عما يصفه به المشركون مما لا يليق بجلاله، وتعالى جل شأنه عما يشركونه معه في العبادة، وتنزه سبحانه عن مشابهته في أسمائه وصفاته وأفعاله.

وفي بقية الأسماء والصفات التي في آخر هذه السورة قال تعالى:

٢٤- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

وصف الله تعالى نفسه في الآية الأخيرة من السورة بثلاثة أوصاف تضاف إلى الصفات الثمانية التي ذُكرت في الآية السابقة، مع إعادة الضمير، وإعادة اسم الجلالة

---

(١) المسند (٩٥٠٨، ٧٣٨٢)، حديث صحيح، وأخرجه من طرق أخرى الحميدي (١١٤٩)، والطيالسي (٢٣٨٧)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، والبغوي (٣٥٩٢)، ومسلم (٢٦٢٠).

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ أي الواحد الأحد، وهذه الصفات هي:

التاسع: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ﴾ أي المُوجد لجميع المخلوقات والمنشىء لها من العدم على مقتضى حكمته تعالى وإرادته، وفي هذا إبطال لإلهية مَن لَّا يخلُق؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل:١٧] وقال جل شأنه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النحل:٢٠].

العاشر: ﴿ٱلْبَارِئُ ﴾ أي المنْشىء المبدع لما يخلقه، كما في الحديث «من شر ما خلق وذَرأ وبرأ».

ومن كلام عليّ ﷺ (والذي فلَق الحبة، وبَرأ النّسمة).

قال ابن العربي: البارىء: خالق الناس من البَرَى، وهو التراب، فيكون هذا المعنى خاصاً بخلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ أي الخليقة.

الحادي عشر: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ أي الذي يصور خلقه كيف يشاء، على هيئات وأشكال مختلفة، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٦].

وقال جل شأنه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [التغابن:٣].

وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار:٨،٧].

وهو سبحانه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ والصفات العلى، والحسنى بمعنى الأحسن، أي له أحسن الأسماء الدالة على أفضل المعاني، وله الأسماء الحسنى الكثيرة التي لا يحصيها ولا يعلمها إلا هو، وعلينا أن نؤمن وندعو بما جاء منها في كتاب الله، وما علّمنا إياه رسول الله، مما صح وثبت عنه ﷺ.

وكما بدأت السورة بتسبيح الله تعالى، خُتمت كذلك بالتسبيح ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الكون كله يلْهجُ بالثناء على الله تعالى، وينزهه عن كل ما لا يليق بجلاله من صفات العجز والنقص بلسان الحال والمقال.

وقد خُتمت الآية الأخيرة بما خُتمت به الآية الأولى من السورة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي وهو شديد الانتقام من أعدائه، كما حدث لبني النضير، وهو سبحانه حكيم في تدبير شؤون خلقه، يضع الأمور في نصابها.

والعبد يسأل ربه بأسمائه الحسنى، فيكون هذا الدعاء مظنة الإجابة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠].

هذا: وأسماء الله تعالى وصفاته لا حصر لها في كتاب ولا سنة، فمنها ما استأثر الله به ولم يطلعنا عليه.

كما جاء في الأثر عن ابن مسعود ﷺ عند أحمد وغيره أن النبي ﷺ قال: **«ما أصاب أحدا قط، همّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلْته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حُزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حُزنه وهمه»** الحديث[١].

وهكذا: فقد خص الله سبحانه بعض خلقه بمعرفة بعض أسمائه، كما أن هناك أسماء استأثر الله بها في علم الغيب.

وصح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: **«إن لله تسعاً وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»**[٢].

وقد حاول بعض أهل العلْم استخراج هذا العدد من القرآن فزادُوا ونقصوا، ومنهم

---

(١) المسند (١/٣٩٢) برقم (٣٧١٢)، قال محققوه: إسناده ضعيف كا قال الدارقطني في العلل (٥/ ٢٠١)، وهو في صحيح ابن حبان (٢٣٧٢ موارد)، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني (١٩٨)، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٥٣)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢)، والبزار (٣١٢٢ موارد).

(٢) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم برقم (٢٦٧٧) والمسند (٧٥٠٢،١٠٥٣٢) حديث صحيح، وأخرجه البخاري (٦٤١٠)، والترمذي (٣٥٠٨)، والنسائي في الكبرى (١٦٥٩) وغيرهم.

من أفردها بالتأليف. ومن هذه الأسماء والصفات:

١- صفات الأخلاق: كالحلم، والعفو، والرأفة، والرحمة، والكرم ... الخ.

٢- وصفات القوة مثل: الجبار، القهار، العزيز، المذل، المتكبر.

٣- وصفات المراقبة لخلقه، مثل: الرقيب، الحسيب، الخبير.

٤- وصفات الرحمة والعطاء مثل: التواب، الغفار، الرزاق، الفتاح، الباسط، الهادي، الرافع، المعز، اللطيف. وهكذا بقية الأسماء والصفات.

حديث سرد أسماء الله التسعة والتسعين ضعيف:

وأسماء الله الحسنى كما في حديث الترمذي وأحمد عن أبي هريرة ﷺ هي:

(هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارىء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الولي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور)[1].

وأخرج ابن مردُويه عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ أنه كان في موضع يجفَّف فيه التمر،

---

(١) وفي سنن ابن ماجة (٣٨٦١) زيادة ونقص وتقديم وتأخير، وانظر تخريجه في الآية (١٨٠) الأعراف، وهو حديث ضعيف بسرد هذه الأسماء.

فلما كان الليل شعر بوجود رجل، فقال له: من أنت؟ قال: رجل من الجن، أرذنا زاداً من هذا البيت فنفذ زاده، فأصبنا من تمركم، فقال له أبو أيوب: إن كنت صادقا فناولني يدك، فإذا بشعر كذراع الكلب، فقال له أبو أيوب: ما أصبتَ من تمرنا فأنت في حلّ، أفلا تخبرني بأفضل ما تتعوذ به الإنس من الجن؟ قال: هذه الآية آخر سورة الحشر [(١)].

وعن معقل بن يسار ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ إلى آخر السورة، وكّل الله به سبعين ألف ملك يصلّون عليه حتى يُمسي، وإن مات ذلك اليوم، مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة**» [(٢)].

تم تفسير (سورة الحشر) ولله الحمد والمنة

(١) كما في الدر المنثور (١٤/٣٩٨).

(٢) المسند (٥/٢٦) برقم (٢٠٣٠٦) بإسناد ضعيف لضعف خالد بن طهمان، والترمذي برقم (٢٩٢٢)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والدارمي (٢/٤٥٨) (٣٤٢٥)، والطبراني (٢٠/٢٢٩)، والبيهقي في الشعب (٢٧٧٢)، وقد حسن إسناده بعضهم وضعفه بعضهم، وممن ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٥٦٠)، وهو في الترمذي (٢٩٢٢)، والطبراني في الكبير (٥٣٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ (٦٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الممتحنة) هي السورة الستون في ترتيب المصحف، والثانية والتسعون في ترتيب النزول عند جابر بن زيد، نزلت سنة ست من الهجرة، بعد (سورة العقود) وقبل (سورة النساء).

وهي سورة مدنية خالصة، وعدد آياتها ثلاث عشرة آية باتفاق، وهي ثلاث مئة وثمان وأربعون كلمة، وألف وخمس مئة وعشرة أحرف.

وتُسمَّى سورة الممتحنَة، بفتح الحاء، أي سورة المرأة التي امتُحنتْ في إيمانها، وهي التي حملتْ كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، ويشير إلى هذا أول آية في السورة.

ويقال: سورة الممتحِنة، بكسر الحاء، أي السورة التي امتحنت المهاجرات في إيمانهن، فأُسْنِد الامتحان إلى السورة، كما سُمِّيتْ سورة براءة، الفاضحة، أي التي فضحت المنافقين، وينظر في هذا المعنى إلى الآية العاشرة من السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾.

وقال السخاوي في كتابه جمال القراء: وتسمى سورة الامتحان، وسورة المودّة.

فهذه أربعة أسماس.

موضوع السورة:

إن الوفاء للعقائد والمبادىء، يفرض الولاء لمن يواليها، والبراء ممن يعاديها، واعتراض من يعترضها، وهكذا فعل أتباع الأنبياء في كل عصر ومصر.

ومن الناس من يرفض الاستسلام، ويصبر ويصابر حتى يتحقق له النصر، ومنهم من يستبعد طريق الكفاح، فيقبل الواقع المر، ويَسْقُط أمام عدوه، ويَمُدُّ إليه يده حرصاً على

سلامته وسلامة أهله.

وموضوع هذه السورة هو الولاء والبراء، فهي تنْهَى عن موالاة غير المسلمين، واتخاذهم أخلاء وأحباباً وأمناء من دون المؤمنين، وتُبيّن أن غير المسلم لا يصْفُوا للمسلم أبداً، وأنه إن ظفر به ظهرت له عداوتُه.

والسورة تدعو إلى التأسّي بإبراهيم عليه السلام في وجوب الولاء والمحبة بيْن من جمعتْهم كلمة التوحيد.

وتدعو إلى عدم موالاة غير المسلمين في شيء، أمّا حُسن معاملة غير المحاربين منهم، فهو شيء آخر يأمر به الإسلام، والولاء غير حُسن المعاملة.

وينسحب هذا الحب في الله والبغض في الله، على كل قريب وبعيد في النسب والصلة.

وبينت السورة أن الإنسان لا ينفعه إلا عمله الصالح، وأن أقاربه وأصهاره لن تغني عنه من الله شيئاً.

كما ذكرت السورة مبايعة النبي ﷺ للنساء، وشروط هذه البيعة.

وفي السورة ثلاث نداءات للمؤمنين:

النداء الأول: ينهى عن موالاة غير المسلمين الذين يقاتلون المسلمين ويعادونهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية.

والنداء الثاني: يبين حكم النساء المؤمنات اللاتي يتركْن أزواجهن من غير المسلمين، وما يتعلق بذلك من وجوب الفراق بينهما، وتحريم الزواج من المشركات الوثنيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ الآية.

والنداء الثالث للمؤمنين: ينهى عن موالاة أعداء الله وأعداء المؤمنين مرة أخرى في ختام السورة كما في بدايتها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

وفيها نداء خاص للنبي ﷺ وهو يبايع النساء كما بايع الرجال ويأخذ عليهن العهود على طاعة الله تعالى والبعد عن محارمه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ

بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ الآية.

وللربط بين أول السورة وآخرها، فقد خُتمت السورة بما بدأت به عن الولاء والبراء، ليتناسب الكلام في البدء والختام.

قصة حاطب بن أبي بلتعة:

جاء في هذه القصة روايات كثيرة في كتب الحديث والتفسير والسِّير والتاريخ وأسباب النزول ونحوها، وسوف أقتصر في قصة حاطب بن أبي بلتعة على بعض روايات القصة، وبعض روايات سبب النزول:

أولاً: مما جاء في قصة حاطب:

١ - في الصحيحين وغيرهما عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عليّ ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مَرْثَد، والزبير بن العوام، وكلنا فارسٌ، وقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روْضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين، معها كتاب من حاطب إلى المشركين**» فأدركناها تسير على بعير لها، حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، فأنخْناها، فالتمسْنا فلم نَر كتاباً، فقلنا: ما كذَب رسول الله ﷺ لتُخرِجنّ الكتاب أو لنُجرّدنّك، فلما رأت الجِدّ أهوت إلى حُجْزتها، وهي محْتجزة بكساء فأخرجتْه، فانطلقا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدَعْني لِأَضْرِبَ عنقه، فقال النبي ﷺ لحاطب: «**وما حملك على ما صنعت؟**» قال حاطب: والله ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، أردتُ أن تكون لي عند القوم يدٌ، يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال النبي ﷺ: «**صدَق، ولا تقولوا له إلا خيراً**» فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدَعْني فلأضرب عنقه، فقال «**أليس من أهل بدر؟**» فقال: «**لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجب لكم الجنة، أو: قد غفرت لكم،**

فدَمَعتْ عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم»[(١)].

٢ - وفي رواية عمر بن الخطاب ﷺ قال: كتب حاطب بنُ أبي بلتعة إلى المشركين بكتاب، فجيء به إلى النبي ﷺ فقال: «يا حاطب، ما دعاك إلى ما صنعت؟» قال: يا رسول الله، كان أهلي فيهم، فخشيتُ أن يضرمُوا عليهم، فقلت: أكتب كتاباً لا يضر الله ورسوله، فقال عمر: أَضْرِب عنقه يا رسول الله فقد كفر؟ فقال ﷺ: «وما يدريك يا ابن الخطاب أن الله اطّلع على أهل هذه العصابة من أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[(٢)].

٣ - وفي حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ أمّن الناس يوم فتح مكة إلا أربعة: عبدَ العُزَّى بنَ خَطل، ومِقْيَس بنَ صُبابة، وعبدَ الله بنَ سعد ابن أبي سرح، وأم سارة وهي المرأة التي حملت كتاب حاطب إلى قريش، ولمّا أدركها رسولا النبي ﷺ أنكرت وفتشاها ولم يجدا شيئا، ولما هدّداها بالسيف أخرجت الكتاب من قرون شعرها فدفعته إليهما[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر: قلت: قد ذكروا أن النبي ﷺ كان أهدر دمَها ثم أمنها يوم الفتح. قال ابن حجر: وهي أم سارة التي أعطاها حاطب بن أبي بلتعة الكتاب إلى قريش فنزلت فيه ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ سمّاها قتادة عن أنس في حديث مختصر أخرجه ابن مندة من طريق عن قتادة عن أنس، أن أم سارة أَمة لقريش، أتت النبي ﷺ فشكت إليه الحاجة، ثم إن رجلاً بعث معها كتاباً إلى أهل مكة ليحفظوا عياله، فنزلت

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٠٠٧،٣٩٨٣،٤٨٩)، وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٤)، وينظر: المسند (٧٩/١) (٨٢٧،٦٠٠) ٣٠٠٧،٤٨٩ وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبوداود برقم (٢٦٥١)، والترمذي برقم (٣٣٠٥)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٨٥)، والطبري (٣٨/٢٣)، وابن حبان (٦٤٩٩)، والبيهقي (١٥٢/٣)، وعبد بن حميد (٨٣).

(٢) أخرجه أبويعلى كما في المطالب العالية (٤١٥٢)، والحاكم (٧٧/٤)، والضياء المقدسي (١٧٥-١٧٧)، وقال الحافظ: إسناده صحيح.

(٣) ينظر: تمام الحديث عند ابن مردُويه كما في تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٤٥١/٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ قال أبو نعيم: ذكرها في الصحابة ونسبها إلى الإسلام[1]. وقوله (أَمة لقريش) أي لعمرو بن هاشم بن المطلب.

ثانيا: جاء في أسباب النزول: أن الآية الأولى من هذه السورة نزلت في حاطب بن أبي بلْتعة، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم، أتت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، ورسول الله ﷺ يتجهّز لفتح مكة، فقال لها: أمُسْلمةً جئْتِ؟ قالت: لا، قال: فما جاء بك؟ قالت: أنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد احتجْتُ حاجةً شديدة، فجئتُ إليكم لتُعطوني، قال لها رسول الله ﷺ: «فأين أنت من شباب أهل مكة؟» وكانت مُغنّية، فقالت: ما طُلب مني شيء بعد وَقْعَة بدر، فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، فكسَوْها، وحملُوها، وأعطَوْها، فأتاها حاطب بن أبي بلْتعة، فكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطاها عشرة دنانير، على أن تُوصِّل الكتاب إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب: من حاطب إلى أهل مكة، إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذركم، فخرجتْ به سارة، ونزل جبريل عليه السلام، فأخبر رسول الله ﷺ بما فعل حاطب ، فبعث رسول الله ﷺ علياً، وعمّاراً، والزبير، وطلحة، والمقداد، وأبا مَرْثَد، وقال: «**انطلقوا، حتى تأتوا روْضة خاخ** - وهي مكان قريب من المدينة - **فإن فيها ظعينة** - أي امرأة مسافرة - **معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها، وخلُّوا سبيلها، فإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها**»، فخرجوا حتى أدركوها، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، ففتّشُوا متاعها فلم يجدوا شيئاً، فهمُّوا بالرجوع، فقال علي: والله ما كَذَبْنا، ولا كذب رسول الله ﷺ، وسلَّ سيفه، وقال: أَخْرجي الكتاب، وإلا ضربتُ عنُقك، فلما رأت الجدّ أخرجتْهُ من ذُؤابتها - أي من ضفيرة شعرها - فخلوا سبيلها، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى حاطب، فأتاه، فقال له: (**هل تعرف الكتاب؟**) قال: نعم، قال: «**فما حملَك على ما صنعت؟**» فقال: يا رسول الله، والله ما كفرتُ منذ أسلمت، ولا

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (١٤/ ٣٧٤) رقم (١٢١٧٨).

غشَشْتُك منذ نصحْتُك - أي منذ أخلصت لله - ولا أحببْتُهم منذ فارقْتُهم، ولكن، لم يكن أحد من المهاجرين إلا وَلَهُ بمكة من يمنع عشيرته، وكنتُ غريباً فيهم، وكان أهلي بين ظهْرانَيْهم، فخشيتُ على أهلي، فأردتُ أن أتّخذ عندهم يداً، وقد علمتُ أن الله يُنْزل بهم بأسه، وكتابي لا يُغني عنهم شيئا، فصدّقه رسول الله ﷺ وعذَرَهُ.

ونزلت هذه السورة تنهي حاطباً عما فعل، وتنهي المؤمنين أن يفعلوا كفعله، فقام عمر ابن الخطاب فقال: يا رسول الله، دعْني أضرب عنُق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ:

«وما يدريك يا عمر، لعل الله اطّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1].

ورد أن حاطباً كتب إلى قريش يقول لهم: إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم في مثل الليل والسيل، وأقسم بالله لو غزاكم وحده لنُصِر عليكم، فكيف وهو في جمع كثير[2].

ولنا مع قصة حاطب أربع وقفات:

الأولى: أن أول سورة الممتحنة نزلت أوّلاً في شأن حاطب، حليف بني أسد بن عبدالعزّى، وكان من المهاجرين، ومن أهل بدر، وكان مُلْصَقاً بقريش، ولم يكن منهم، ولكن الحكم عام في كل من يُوالي أعداء الله تعالى، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الثانية: أن المرأة التي حملت الكتاب، جاء في بعض الروايات أنها أم سارة كَنُود، أمة

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٣١٥) ولم ينسبه لأحد، وقد ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢٣١/٨)، وهو في تفسير الخازن (٢٥٥/٤)، والألوسي (٦٥/٢٨)، وغيرهم، والقصة عند السيوطي في الدر المنثور ٢٠٢/٦ وممن نسبها إليهم: الحميدي، وعبد بن حميد، وأبي عوانة، وابن حبان (٤٧٩٧)، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي، وأبي نعيم في الدلائل، وهذا بالإضافة إلى ما سبق ذكره في الحاشية السابقة، وانظر: رواية جابر بن عبدالله في المسند برقم (١٤٧٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأبي يعلى (٢٢٦٥).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٩٣/٥).

لقريش، وفي بعض الروايات أنها سارة مولاة عمرو بن هاشم بن المطلب التي كان معها كتاب حاطب، أمنها النبي ﷺ يوم الفتح[(١)]، وهكذا فقد اختلف في اسمها وكنيها، وكانت امرأة مُشْركة مُغنّية في مكة، وأن هذه المرأة جاءت مُتجسسة.

الثالثة: أما الوقت الذي حدثت فيه هذه القصة، فقيل: إنه كان قبل فتح مكة، وقيل إنه كان قبل صلح الحديبية، وهو الأرجح، لِمَا في رواية الحارث عن عليّ عند الطبري: أن النبي ﷺ لمّا أراد أن يأتي مكة أفشى في الناس أنه يريد خيبر، وأَسرَّ إلى ناس من أصحابه، منهم حاطب، أنه يريد مكة، فكتب حاطب إلى أهل مكة، وكَوْنه ﷺ أفشى في الناس أنه يريد خيبر، يدل على أن ذلك كان قبل عمرة الحديبية، لا قبل فتح مكة، لأن خيبر فُتحت سنة سبع، أي قبل فتح مكة، ويؤيده أن هذه المرأة التي أرسل معها حاطب كتابه، قدِمتْ إلى المدينة بعد غزوة بدر بسنتين، كما رواه الطبري[(٢)].

الرابعة: إن سعة صدر النبي ﷺ جعلته لم يتعجل في عقاب حاطب، وإنما سأله وعذَرَه على لحظة ضعفه الطارئة فقال له: (ما حملك على ما صنعت؟) وأقال عثْرته، والتمس له العذر، ليعينه ويجعله ينهض من عثرته...

جاء عن الحسن أن حاطباً قال: أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله، وما كفرتُ منذ أسلمت، ولا شككت منذ استيقنت، ولكني كنت امرءاً لا نسب لي في القوم، فكتبتُ إليهم أذرأُ عن أهلي ومالي، وقد علمتُ أن ذلك لن يغني عنهم من الله شيئاً[(٣)].

* * *

(١) كذا قال ابن حجر العسقلاني في الإصابة (١٣/ ٤٥٥) برقم (١١٤٠٥).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٣٠/١٣)، وتفسير الطبري (٣٨/٢٣)، وابن كثير (٨٤/٨).

(٣) وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن كما في الدر المنثور (٤٠٧/١٤).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

النَّهْيُ عَنْ مَوَالاَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُحَارِبِينَ

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

بدأت سورة الممتحنة بنهي المؤمنين عن اتخاذ غير المسلمين أصدقاء وأولياء وأحبّاء، فإن من علامة الإيمان: حب المؤمنين وبغض الكافرين، ومودة الكافرين ومحبتهم منافٍ للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من المخالف في الدين، لأنه لا يألو جهداً في إيصال الضرر إلى من خالفه في العقيدة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يا من آمنتم بالله رباً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وعملتم بشرع الله، واهتديتم بهدي رسوله ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله وعدو للمؤمنين، والمراد بالعداوة: عداوة الدين، والمؤمنون لم يبدؤوا بعداوة غير المسلمين، وإنما هم الذين بدؤوا بالعداوة، انتصاراً لكفرهم وشركهم.

والمشركون السابقون متفاوتون في عداوتهم للمسلمين، فخُزَاعة مثلا كانوا مشركين، وكانوا موالين للنبي ﷺ، والكفار أعداء الله وأعداء للمؤمنين، ولذا قال تعالى ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وقد قدّم الله سبحانه عداوته للمشركين على عداوة المؤمنين لهم، لأن عداوة المشركين لله تعالى أشدّ وأقبح، فهم قد عبدوا غير خالقهم، وشكروا غير رازقهم، وكذّبوا رسل ربهم وآذوهم.

جاء في الحديث القدسي (إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بنعمي

وأنا الغني عنهم، ويتبغّضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر ما يكون إليّ)[(١)].

ولو أن الكفار آمنوا بالله تعالى، وانتفت عداوتهم له، لأصبحوا إخوانا للمؤمنين، وانتفت العداوة بينهم.

وقد جاء النهي عن محبة غير المسلمين في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران:٢٨] بأن تكون لهم صَوْلة وجَوْلة، وسلطان وهيْمنة، فليس من الحكمة نطْح الصخر، ولكن ينبغي تجنّبه والوقاية منه، وفيما عدا ذلك فإن من يواليهم على حساب عقيدته يكون منهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [المائدة:٥١].

وقد وصف الله تعالى من يسارعون في مودتهم ومحبتهم، تحسُّباً لنوائب الدهر، للاحتماء بهم، بأن هذا مرض ونفاق، ودلالة على عدم صحة الإيمان ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ﴾ [المائدة:٥٢].

أي ترى أهل النفاق يسارعون في مودتهم والقرب منهم، وربما يكون هذا الولاء لغير المسلمين خوفاً من إخوة لهم في العقيدة!! فيكون في هذا حجة ودليلاً على عدم صحة إيمانكم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء:١٤٤].

فالمحبة القلبية الخالصة لا ينبغي أن تتعدّى المسلمين إلى غيرهم.

واتخاذ المستشارين والمؤتمنين على أسرار البلاد والعباد، والمطّلعين على الخطط الأمنية للبلاد، لا يصح أن تتجاوز المسلمين إلى غيرهم، فقد توعّد الله تعالى بالعقاب من يفعل ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ﴾ [التوبة:١٦].

---

(١) رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، وابن عساكر عن أبي الدرداء.

ومعنى وليجة: موضع سر وبطانة، وسكرتارْيَة.

والعداوة الظاهرة تكون مع المحاربين لنا، والْمُعِينينَ على حَرْبنا، أما غير المسلمين في بلاد الإسلام، وهم في الأصل من أهل هذه البلاد، أو من المقيمين فيها بمقتضى عقد وأمان، فإنهم يعاملون معاملة حسنة، من البر والصلة والعدل، لا سيما الأرحام والأقارب والجيران، أما من أخرجُونا من ديارنا، واغتصبوا أرْضنا، هم ومن عاونهم على ذلك، فكيف نتخذهم أولياء؟ وكيف نطبّع معهم العلاقات؟ ونحن لا نأمن شرهم وفسادهم وإهلاكهم للحرث والنسل؟ وكيف نتقرب إليهم بالمودة والمحبة؟ وكيف ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ وتسارعون في مودتهم، والحال أنهم كافرون بدينكم، وبما أنزل على نبيكم من الحق الواضح، والمودة إذا حصلت تبعتْها النُّصرة والموالاة، فخرج العبد من الإيمان وانفصل عنه وصار من جملة الكافرين.

ومما يدعو المؤمن إلى عداوة الكفار أنهم قد كفروا بما جاء به المؤمنين من الحق، وهذا أعظم مشاقة ومخالفة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم وزعموا أنكم على ضلال، ومن ردّ الحق فليس له دليل على صحة قوله وهذا معنى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ أي محمد ﷺ ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ويخرجونكم أيضاً من دياركم ظلماً وعدواناً، أو لا ذنب لكم إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم، وهذا أمر يجب على الخلق جميعاً أن يؤمنوا به.

فسبب النهي عن موالاة الأعداء كما جاء في الآية أمران:

الأول: هو الكفر، وكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر، ويدخل في هذا ملل ونحل كثيرة، من الشيوعيين، والملْحدين، والعلْمانيين، والهنْدُوك، والبوذيّين، واليهود والنصارى وغيرهم، وقد أُخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾.

والسبب الآخر: هو إخراج الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، موطنهم ومسقط رؤوسهم.

وهذا السبب مطرد في كل زمان ومكان بالنسبة لكل مَنْ أُخرج من بلده، وأول ما ينطبق هذا على اليهود، فقد أَخْرَجُوا أهل فلسطين من ديارهم، واحتلُّوها ودنّسُوا

مقدسات المسلمين فيها، وقد أُخذ هذا من قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.

هل لليهود حق في فلسطين؟

ولو أن كل أمة تمسكت بسُكْنَى آبائها حِقْبة من الزمن في مكان من العالم، لحدَث تسلسل وخلل، واضطراب لا نهاية له.

والمقياس الحق في هذا: هو أن الحكم في كل زمان ومكان من العالم، يكون لآخر الشرائع السماوية، والإسلام هو كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، وبيتُ المقدس قد فُتِحتْ فتحاً إسلامياً كغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون، ومحمد ﷺ هو الذي صلّى إماماً بالأنبياء والمرسلين جميعاً في المسجد الأقصى، ومنهم موسى وعيسى عليهما السلام، وقد نسخ الإسلام كل شريعة سماوية قبله، فأورشيلم، والقدس الشرقية والغربية، أو الجديدة والقديمة، وفلسطين كلها، دولة إسلامية، منذ أن فتحها عمر ﷺ، وهي دولة عربية على مدى التاريخ قبل ذلك بآلاف السنين، واغتصاب اليهود لها فترة من الزمن لا يعطيهم حق التملك فيها، واليهود شعب بلا وطن، كتب الله عليهم ذلك عقوبة لهم على امتناعهم من دخول الأرض المقدسة حين طلب ذلك منهم نبيهم موسى عليه السلام، وهذا هو ما تقرره التوراة، ويؤمن به اليهود غير الصهاينة[1].

وعداوة اليهود للإسلام وأهله أشدّ من غيرها، لأنهم كفروا برسولين هما (عيسى ومحمد) عليهما السلام، وكفروا بكتابين هما (الإنجيل والقرآن) أما النصارى فقد كفروا برسول واحد وكتاب واحد، ولذلك كانوا أقرب إلى المسلمين من اليهود، وسبب هذه العداوة كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج:٨].

وهذا معنى ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي من أجل إيمانكم بالله ورسوله.

فإن كانت هجرتكم وجهادكم أيها المسلمون في سبيل الله، وطلباً لمرضاة الله، فلا تُوَالُوا أعداء الله وأعداءكم، وهذا معنى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾.

---

(١) راجع تفسير آيات سورة المائدة (٢٠ – ٢٦).

أي إن كان مقصود خروجكم هو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاته، فوالُوا أولياء الله وعادُوا أعداءه، فإن هذا من الجهاد في سبيل الله، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم، فجواب الشرط وهو ﴿إن﴾ محذوف، دل عليه ما قبله، أي إن كان إيمانكم خالصاً صادقاً لله تعالى، فاتركوا مودّتهم وصداقتهم، ولا تُفْضوا إليهم بالمودة سرّاً، فتظهرون للناس أنه لا علاقة بينكم وبينهم، مع أنكم تُخْفُون مودّتهم وتُفْضُون إليهم بأسرار المسلمين، فأنتم ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ و﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ وفي هاتين الجملتين تفسير وتوضيح لهذه الموالاة التي نُهوا عنها.

وإلقاء المودة: إيصالها والإفضاء بها في السِّر أو العلن. فالجملة الأولى أعم من الثانية.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ فاحْذرُوا أن تُظهروا القطيعة لهم، وتُبْطنوا العلاقة معهم، فإن علاّم الغيوب سبحانه، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وسيحاسبكم عليه ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ فيُوالي أعداء الله، ويُلْقي إليهم بالمودة، ويتعامل معهم سراً فيخفى مودتهم ويفشي أسرار المسلمين إليهم ويُبطن ما لا يُظهر في هذا المضمار وغيره ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي أخطأ طريق الحق والصواب، وضل عن قصد السبيل، والله تعالى سيحاسبه ويجازيه.

الكَشْفُ عَنْ نَوَايَا أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ

٢- ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾

ثم كشف الله سبحانه عن حقيقة الأعداء، وبيّن أنهم عندما يتمكّنون من المؤمنين، تظهر العداوة الكامنة في نفوسهم، المستحكمة في قلوبهم، فهم ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي إن يظفر بكم هؤلاء الذين تُسرون إليهم بالمودة ويتمكنون منكم، ويُحكِمُون قبضتهم عليكم ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ أي يكونون حرباً عليكم، ويَظهر لكم منهم ما انْطوت عليه نفوسهم من بُغضٍ لكم، وليس هذا فحسب، بل ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي يَمُدّون إليكم أيديهم بالقتل والسبي، ويمدّون ألسنتهم بالسبّ والشتم، وهذا من باب

التهييج وشدة التحذير، فقد يظن ظان أن موالاة غير المسلمين من باب الدهاء والحزم، رجاء نفعهم إن دالت لهم الدولة.

وقد بيّن سبحانه في هذه الآية، وفي آية سورة المائدة: ٤٦ خطأ هذا الزعم، وبيّن أن العدوّ يستفيد من هذه المودّة: الاطلاع على قوة المسلمين، ومعرفة أسرارهم الحربية، حتى يتأهّبوا لهم ليظفروا بهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران:١١٨].

وهؤلاء الأعداء في نهاية الأمر يتمنّون أن تصيرُوا كفارا مثلهم وهذا غاية ما يريدون منكم ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي تمنوا لو تكفرون كما كفروا، لتكونوا مثلهم، كما قال تعالى: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء:٨٩] أي متساوين معهم في الكفر.

وقال سبحانه: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾ [البقرة:١٠٩].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٠].

وفي ذلك بيان لعداوتهم وتمنيهم لهم الارتداد من الإيمان إلى الكفر.

الْمُخَالِفُونَ فِي الدِّينِ لاَ تَجُوزُ مُوالاتُهُمْ وَلَوْ كَانُوا أَقْرَبَ النَّاسِ

٣- ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ (١) بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾

وبعد أن بيّن سبحانه سوء عاقبة موالاة أعداء الدين في الحياة الدنيا، وبيّن أن موالاتهم تؤدي إلى إذلال المسلمين وذهاب قوتهم، وتؤثّر على عقيدتهم، بيّن سبحانه بعد ذلك سوء عاقبة موالاتهم في الآخرة، وأنها لا تنفع ولا تفيد عند الله تعالى في

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وأبوجعفر (يُفصَلُ) بالبناء للمجهول ونائب الفاعل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وقرأ ابن ذكوان (يُفَصَّلُ) بفتح الصاد المشددة، وقرأ عاصم ويعقوب ﴿يَفْصِلُ ﴾ بكسر الصاد المخففة، مبنياً للمعلوم والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ حمزة والكسائي وخلف (يُفَصِّلُ) بكسر الصاد المشددة مبنياً للمجهول، ولهشام قراءتان: الأولى كابن ذكوان، والأخرى كنافع ومن معه، فهذه أربع قراءات.

شيء، فمداراة الكفار غير نافعة في الدنيا وهي ضارة في الآخرة، ولو كان هؤلاء المخالفين في الدين أقرب الناس إلى الإنسان، فإن احتججتم وقلتم: نوالي غير المسلمين لأجل القرابة أو السياسة والاقتصاد، فلن يغني عنكم ذلك من الله شيئاً، ولن يقدِّموا مصلحتكم على مصلحتهم، وقد حذركم الله من موالاتهم، وهذا لا يمنع جواز التعامل السياسي وتبادل المنافع بين جميع الدول، من غير محبة قلبية.

وفي هذا تعريض بحاطب بن أبي بلْتعة حين اعتذر للنبي ﷺ بأنه أراد أن يتخذ له عند المشركين يداً يحمي بها أمه وإخوانه الذين كانوا في مكة.

والحكم عام في كل من أفشى أسرار المسلمين للكفار خوفاً على نفسه وأهله، وأن ذلك لا يجوز، كما لا تجوز محبتهم ولا التقرب منهم، وعفو النبي ﷺ عن حاطب، حالة خاصة به، لكونه من أهل بدر، ولأن النبي ﷺ صدّقه فيما قال، وأخذ بظاهر حاله، وحسابه على الله.

قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾ وأقاربكم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ من غير المسلمين الذين رغبتم في وَصْلهم، ولن يدفعوا عنكم شيئاً من عذاب الله، فلا تُفشوا أسراركم للكفار لأي سبب من الأسباب ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي في يوم الحساب والجزاء يفرق الله بينكم، فيُدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار، فلا تُغضبوا الله تعالى بسبب أولادكم وأرحامكم، فإنهم سيفرُّون منكم، يوم يشتد الهول ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

وعلى هذا المعنى، فيوم القيامة متعلق بما بعده، أي أن الفصل بينهم موعده يوم القيامة.

ويصح أن يكون ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلق بما قبله، فيصح الوقف عليه، أي أن الأموال والأولاد لا تنفعهم يوم القيامة، ولعل المعنى الأول أرجح.

ثم بين سبحانه أنه لا يخفى عليه شيء، وأنه مطلع على جميع الأمور، وسيجازي عباده على ما عملوا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وفي هذا وعد لمن أحب في الله وأبغض في الله، ووعيد لمن خالف ذلك، وفيه بيان للآثار السيئة التي تترتب على من ضل سواء السبيل.

والآية صريحة في أن صلة الدين والعقيدة يجب أن تُقدَّم على صلة الأرحام والأولاد، لأن الاستجابة لله والرسول، هي التي تنفع يوم القيامة، وليس الأهل والعشيرة.

عن أنس ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قَفَّى دعاه فقال: «**إن أبي وأباك في النار**»[(١)].

وفي لفظ آخر: «**إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار**»[(٢)].

وعن سعد بن أبي وقاص وابن عمر ﷺ أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «**في النار**»، قال فأين أبوك؟ قال: «**حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار**»[(٣)].

وفي هذه الآيات الثلاث التي سبقت: النهي عن موالاة الأعداء، والنهي عن إفشاء أسرار المؤمنين إليهم، مع بيان السبب في ذلك وهو كفرهم بنبي الإسلام، ومحاربة المسلمين، وإخراجهم من ديارهم والتعدي على أموالهم.

الْوَلَاءُ وَالْبَرَاءُ فِي الدِّينِ سُنَّةُ أَتْبَاعِ الأَنْبِيَاء فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمَصْرٍ

٤- ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ[(٤)] حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ[(٥)] وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا

(١) المسند (٣/٢٦٨) برقم (١٢١٩٢،١٣٨٣٤) قال محققوه: رجاله ثقات، رجال الشيخين غير حماد – ابن سلمة – فمن رجال مسلم، وقد تفرد أحمد بهذا اللفظ، وهو في صحيح مسلم برقم (٢٠٣)، وسنن أبي داود برقم (٤٧١٨).

(٢) (مسالك الحنفاء في والدي المصطفى) للسيوطي عن معمر عن ثابت، قال السيوطي: واللفظ الذي في رواية حماد – أي الحديث السابق – من تصرف الراوي، رواه بالمعنى على حسب فهمه، ينظر: تحقيق المسند (١٩/ ٢٢٩).

(٣) قال محققو المسند: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وأعلّه بعضهم بالإرسال، كما في العلل لابن أبي حاتم (٢/ ٢٥٦)، والدارقطني (٤/ ٣٣٤)، وقد أخرج حديث سعد، البزار (١٠٨٩)، والطبراني (٣٢٦)، وابن السُّني في عمل اليوم والليلة (٥٩٥)، والبيهقي في الدلائل (١/ ١٩١)، وجاء مثل هذا عن ابن عمر في ابن ماجه (١٥٧٣)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٠١)، هذا إسناد صحيح.

(٤) قرأ عاصم بضم الهمزة من ﴿أُسْوَةٌ﴾ والباقون بكسرها والضم لغة قيس وتميم، والكسر لغة أهل الحجاز.

(٥) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهام) والباقون ومعهم ابن ذكوان في الوجه الثاني ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.

﴿تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ[1] أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ[2] لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾

ولما حذّر سبحانه من مَضارّ موالاة أعداء الله في الدنيا والآخرة، ضرب مثلاً بقصة إبراهيم عليه السلام للاقتداء به في براءته من كل صلة تربطه بغيره، سوى صلة الإيمان والإخلاص لله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُسْوَةٌ﴾ أي قدوة ﴿حَسَنَةٌ﴾ صالحة، وخصلة حميدة للتبرؤ من الكفر ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من أنبياء الله ورسله وكل مَن آمن به، فكلهم أُمروا باتباع ملة إبراهيم في وجوب الحب في الله والبغض في الله، وعدم موالاة الكفار، فإن ذلك من أوثق عرى الإسلام، ومَن خالف ذلك فقد عرّض نفسه لذل الدنيا وخزْي الآخرة.

وقد اقتدى الناس بخليل الرحمن، أبي الأنبياء، الذي سمانا المسلمين، فكونوا مثلهم - أيها المسلمون - في التأسي برسولكم، فإنه يحب أحباب الله، ويبغض أعداءه.

ثم بين سبحانه أن التأسي بإبراهيم عليه السلام في الولاء والبراء يكون في ثلاثة أمور:

أولها: وجوب التبرّؤ من غير المسلمين، ومما يعبدونه من دون الله، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ أي قد كانت لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة في إبراهيم، وفي الذين آمنوا معه وقت أن قالوا لقومهم الكفار بكل شجاعة وقوة ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي إنا بريئون منكم ومن كل ما تعبدونه غير الله تعالى، فلا أنتم منا ولا نحن منكم.

وثانيها: إنكار المؤمنين لما عليه الكافرون من عبادة غير الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وبآلهتكم التي تعبدونها، وهذا تصريح بعداوة الكافرين غاية التصريح،

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وأبوجعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوا من ﴿وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ وتسهيلها بين بين والباقون بالتحقيق.

(٢) اتفق القراء على قراءتها ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.

والكفر بالقوم، غير الكفر بما يعبده القوم، والمؤمنون يكفرون بمن يعبُد غير الله، ومن يُعبَد من دون الله.

وثالثها: إظهار المؤمنين لعداوة الكافرين وبُغضهم، وإعلان ذلك بلا مواربة ولا مداهنة، ولا تورية، فهي عداوة بالقلب، وعداوة بالقول، وعداوة بالفعل، بشكل واضح، ويتجلّى ذلك في سوء معاملة العدو لنا والاعتداء علينا، وهذا معنى ﴿وَبَدَا﴾ أي ظهر وبان علناً واضحاً ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ وهي النفور منكم وكراهيتكم، أي فنحن نسيء معاملتكم، ونضمر لكم الكراهة في نفوسنا، وهذه العداوة مستمرة وقائمة مادمتم على الكفر دائماً و﴿أَبَدًا﴾ أي: أن هذه البغضاء ليس لها وقت محدد، بل ما دمتم مستمرين على كفركم.

ولن تزول هذه القطيعة بيننا وبينكم ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ فالإيمان بوحدانية الله تعالى هو الغاية، وهو الحاجز بيننا وبينكم، فإن آمنتم بالله وحده زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة ومحبة وولاية ونصرة.

وهذه الأمور الثلاثة من قول إبراهيم وأبنائه وإخوانه المؤمنين، إلى الكفار من قومه، وقد أمرنا الله تعالى أن نتأسى بها.

قال الطبري وغيره: إن المراد بالذين آمنوا مع إبراهيم: هم الأنبياء الذين كانوا في عصره، والذين كانوا قريبا من عصره.

وقال ابن عطية: وهذا القول أرجح، لأنه لم يُرْوَ أن إبراهيم كان له أتباع مؤمنون في مكافحته للنمروذ[(١)].

وفي البخاري: أن إبراهيم عليه السلام قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجرا من بلد النمروذ: (ما على الأرض مَنْ يَعْبُد الله غيري وغيرك).

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٢٩٥).

قلت: وممن آمن بإبراهيم: ابن أخيه لوط عليه السلام، لقوله تعالى ﴿فَآمَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦].

وهذه الأسوة مقيدة بالتبرىء من الشرك، وهو مطرد في كل ملة، وفي نبينا عليه السلام أسوة حسنة على الإطلاق، في العقائد وفي أحكام الشرع كلها.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»[1].

والمراد بالناس في الحديث: خصوص الكفار، ولعل ذلك كان قبل أن يُفرض الحج، ولذا: لم يأت ذِكْره في الحديث.

منع الاستغفار لغير المسلمين:

هذا: وقد كان من عادة الناس قبل رسالة إبراهيم ﷺ، أن يستغفروا لآبائهم الذين ماتوا، ولذا، فإن إبراهيم عليه السلام وعد أباه بالاستغفار له، بعد أن أعرض عن دعوة التوحيد، فلما نهاه الله عن الاستغفار لأبيه تبرأ منه، وبهذا جاء الاستثناء في هذه الآية، وهو استثناء منقطع على الأرجح في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي لا يدخل في هذا الاقتداء، استغفار إبراهيم لأبيه، فإن ذلك إنما كان قبل أن يتبيّن لإبراهيم أن أباه عدو لله ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فلكم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه في القيام بالتوحيد ولوازم الإيمان ومقتضياته، إلا في خصلة واحدة هي الاستغفار للكافر ولو كان أقرب الناس إليك.

ومعنى الجملة: اقتدوا بإبراهيم في كل أحواله، إلا في قوله لأبيه المشرك: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فإن استغفاره له كان بسبب وعد سابق وعده إياه قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

---

(١) البخاري برقم (٢٥)، ومسلم برقم (٢٢).

فليس لكم أن تدعوا للمشركين وتقولوا : إنا متبعون لإبراهيم في ذلك، فإن الله تعالى قد ذكر عُذر إبراهيم في ذلك، وبيّن أن دعاءه له كان بسبب وعده له بالدعاء، ولما نهاه ربه عن ذلك تبرأ منه.

قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨].

وهذه قضية عامة بالنسبة للخلق جميعا ألّا يستغفر المؤمنون للمشركين ولو كانوا أقرب الناس إليهم، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة:١١٣].

ثم ذكر سبحانه بقية كلام إبراهيم لأبيه في قوله ﴿ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ لكني أدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شيئاً، أي ليس في قدرتي وطاقتي إلا الاستغفار لك، ولا أستطيع أن أُغني عنك أو أدفع عنك شيئا من عذاب الله إن أشركت به وعصيته، فالأمر كله لله، إن شاء عذبك وإن شاء عفا عنك، والذي يملك ذلك هو الله وحده: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام:١٥٨].

ثم ذكر سبحانه جانباً من تضرع إبراهيم إلى خالقه سبحانه حين دعا ربه قائلاً: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ أي رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ عليك وحدك يا ربنا اعتمدنا وفوّضنا أمورنا، وإليك وحدك رجعنا بالتوبة، وأنت الذي تقبل توبتنا، وإليك لا إلى غيرك المرجع والمصير يوم القيامة، فعليكم أن تتأسّوا بإبراهيم ومن معه في مثل هذا الدعاء أيضاً، فإن فيه توكل على الله، وإنابة إليه، واعتراف بالعجز والتقصير.

وفي هذا تعليم للمؤمنين أن يَصرفوا توجُّههم إلى الله تعالى بإرضائه، ولا يلتفتُوا إلى ما لا يُرضيه سبحانه، فإن رضى الله تعالى مقدم على كل شيء، والمسلم يسأل ربه النجاح في جميع أحواله، وأعظم النجاح هو العمل لمصير ما بعد البعث في الحياة الأبدية.

ويُكمل إبراهيم عليه السلام دعاءه لربه فيقول:

٥- ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

أي ربنا لا تُظهر الكفار وتسلّطهم علينا بذنوبنا ومعاصينا فتنصُرهم وتُخْذلنا فيظنُّوا أنهم على حق، ويقولون عنا: لو كان هؤلاء على حق، ما أصابهم هذا العذاب بأيدينا، فيكون هذا سببا في زيادة كفرهم وإصرارهم عليه، وسبباً في تحوّل غيرهم إلى الكفر، ويظنون أننا على الباطل، فيزدادوا كفراً وطغياناً ويفتنوننا في ديننا، ويمنعوننا مما يقدروا عليه من أمور الدين.

وقال قتادة: ربنا لا تظهرهم علينا فيُفتنوا بذلك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية: ربنا لا تسلِّطهم علينا فيفتنوننا عن ديننا، أي لا تجعلنا مفتونين بهم[1] .

﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ أي استُر علينا ذنوبنا بعفوك عنها يا ربنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الغالب الذي لا يُذلّ من التجأ إليه، وأنت (الْحَكِيم) الذي لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة، ويضع الأمور في نصابها، فبعزتك وحكمتك انصرنا على أعدائنا واغفر لنا ذنوبنا.

فهذه خمس دعوات من إبراهيم عليه السلام، اثنتين في هذه الآية، وثلاثة في الآية التي قبلها.

تَأَسِّي هَذِهِ الأُمَّةِ بِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ فِي الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ وَعَقِيدَةِ التَّوْحِيد

٦- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ[2] أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

حث سبحانه وتعالى على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام مرة أخرى، ليبين في هذه المرة أن هذا التأسي يسهل على كل من يطلب الأجر والمثوبة من الله تبارك وتعالى،

---

(١) قال ابن عطية: وهذا أرجح الأقوال (٥/٢٩٦)، وانظر تفسير الطبري (٢٢/٥٦٩) وغيره.

(٢) ضم الهاء من ﴿فِيهِمْ﴾ يعقوب وكسرها غيره.

فإن من يرجو لقاء الله يسهل عليه كل عسير، ويرى نفسه مفتقراً إلى الاقتداء بأنبياء الله ورسله، وعباده الصالحين.

وبعد الفراغ من وصايا إبراهيم ومن معه فيما يتعلق بالولاء والبراء، توجّه سبحانه وتعالى بالخطاب إلى أمة محمد ﷺ لتأكيد التأسي بخليل الرحمن، مع تقرير أنه لا ينتفع بهذي القرآن إلا المؤمن بالله واليوم الآخر ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيهِمْ﴾ أي في إبراهيم والذين معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة طيبة، وسيرة حميدة، في التبرّؤ من الكفر وأهله ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي أن هذا التأسي إنما ينتفع به من يطمع في الخير وجزيل الثواب من الله تعالى، فإن في هذا دلالة على صدق الإيمان ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي ومن يعرض عما ندبه الله إليه من التأسي بأنبيائه ويوالي أعداء الله فلن يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن عباده غنىً مطلقاً، والكل مفتقر إليه ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي المحمود في ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله، والذي يُحمد: يُمتثل أمره ويُجتنب نهيه، وهذا تحذير عام لمن عاد إلى ما نُهي عنه كما قال سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧].

وقال جل شانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝﴾ [إبراهيم:٧].

وَعْدُ الْمُؤْمِنِينَ بِانْقِلَابِ عَدَاوَةِ أَقْرِبَائِهِمْ إِلَى مَحَبَّةٍ

٧- ﴿۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

أخبر سبحانه أن عداوة المؤمنين لغيرهم قائمة ما داموا على الكفر والشرك، فإذا انتقلوا إلى الإيمان تحولت العداوة إلى محبة، ولما أمر الله المؤمنين بعداوة الكافرين في الآيات السابقة، عادَى المؤمنون أقرباءهم من المشركين، وأظهروا لهم البراءة والبغضاء، وقد علم الله سبحانه شدة ذلك على المسلمين، فوعدهم بأن هذه القطيعة ستؤول إلى مودّة، بحيث يُسْلِمُ أقرباؤهم، ويوالونهم في الله، فقال تعالى ﴿عَسَى اللَّهُ أَن

﴿يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي مِنْ أقاربكم المشركين ﴿مَّوَدَّةً﴾ أي محبة بعد البغضاء، وأُلفة بعد الشحناء، بانشراح صدورهم للإسلام، وتحولهم إلى الإيمان فتتحول عداوتكم لهم إلى صلة ومحبة وأخوة ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ بليغ القدرة على تغيير القلوب، قادر على أن يُقبِل بقلوب المعاندين عليه ليدخلهم في مغفرته ورحمته، فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف شاء، ومن قدرته تعالى أن يتحول الكافر إلى مؤمن، والعدوّ إلى صديق ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن امتثل أمره، فأقلع عن الكفر وتحوّل إلى الإيمان، وهو سبحانه لا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولفظ ﴿عَسَى﴾ في جانب الله تعالى، لتحقُّق الوقوع، فهي وعْد وعَد الله به المؤمنين، وقد أنجز الله وعده، فهدَى كثيراً من الكفار إلى الإيمان في يوم فتح مكة، منهم: أبوسفيان، والحارث بن هشام، وسُهيْل بن عمرو، وحكيم بن حزام.

ففي الآية بشرى للمسلمين وإشارة إلى دخول غير المسلمين في الإسلام.

ومن أمثلة حصول المودة مع غير المسلمين أن النبي ﷺ كان قد تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان بعد وفاة زوجها عبد الله بن جحش في أرض الحبشة، فلما تزوجها النبي ﷺ لانت عريكة أبي سفيان، فصرّح بفضل النبي ﷺ حين قال: ذلك الفحل لا يُقْدحُ أنفه، أي لا يُضرب أنفه بالرمح.

ولما أسلم أبوسفيان، وقُبض رسول الله ﷺ كان أبوسفيان أول من قاتل في حروب الردة، وجاهد عن الدين[1].

والأمثلة المعاصرة على هذا كثيرة، من ذلك أن مَنْ يدخُل في الإسلام حديثاً يعاديه أهله، وقد يستمر هذا لبعض الوقت، ثم يُسلمون غالباً، وهناك الآباء الصالحون أو الطالحون، ولهم أبناء على عكس ذلك، فتحدُث بينهم القطيعة، ثم تتحول إلى مودة.

---

(١) ينظر: الدر المنثور (٤١٠/١٤) عن ابن شهاب عند ابن أبي حاتم بسند مرسل وعن أبي هريرة عند ابن مردُويه.

وهكذا: فالآية بشرى عامة للمؤمنين، ووعْد لهم بانقلاب العداوة إلى محبة.

حُسْنُ التَّعَامُلِ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُسَالِمِينَ

٨- ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾

رخص الله سبحانه وتعالى في صلة الذين لم يحاربوا المسلمين، ولم يخرجوهم من ديارهم، أو يغتصبُوا أرضهم، أو يَقِفُوا في وجه دعوتهم، فأجاز بِرَّهم، وحُسن معاملتهم، والصدقة على فقيرهم دون أن يؤدي ذلك إلى موالاة ومحبة قلبية.

والمعنى: أن الله تعالى لا ينهى عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل والقسط ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ فِى ٱلدِّينِ ﴾ أي من أجل دينكم، وهم الكفار ﴿ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ فيطْردُوكم منها ويحتلّوا أرضكم، لا ينهاكم الله عن فعل ما هو من البر، كصلة الرحم، ونفع الجار، والتعامل بالحسنى معهم، والضيافة، وحسن الخلق ﴿ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تعدلوا فيما بينكم وبينهم بأداء ما لهم من الحق كالوفاء بالوعد معهم، وأداء الأمانة لهم، وحسن التعامل في البيع والشراء، والبر والإحسان إليهم، فتكرمُوهم وتتصدقوا على المحتاج منهم، وتعدلوا في برّكم بهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ الذين يعدلون في أقوالهم وأفعالهم، وبين أهليهم، ومن ولاّهم الله عليهم.

وهذه الآية استثناء ممن ذكرتْهم السورة في أولها، فهم ليسوا من الأعداء المحاربين لنا، ولم يتسلّطُوا علينا ويخرجونا من ديارنا.

وقد دخل في هذه الآية في عصر التنزيل حلفاء للنبي ﷺ ممن يخالفونه في العقيدة، وكانوا يحبون نُصْرته على قريش مثل: خزاعة، وبني الحارث بن كعب بن مناة بن كنانة، ومُزينة، وغيرهم، ومما ورد في أسباب نزول هذه الآية:

١- ما جاء عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: قالت: قدِمَتْ أمي وهي مشركة، في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيتُ النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنّ أمي قدِمَتْ وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نعم، صلي أمك»[(١)].

وأمها هي: (قُتيلة بنتُ عبد العُزّى القرشية العامرية) ويقال (قَتْلَة) والدة أسماء بنت أبي بكر من بني عامر بن لؤي، من قريش، وكانت مشركة، فقدِمتْ المدينة من مكة، في مدة الهدنة التي كانت بين النبي ﷺ وبين كفار قريش، بعد صلح الحديبية، لزيارة ابنتها، ومعها هدايا، فلم تُدخلها أسماء بيتها، ولم تقبل هداياها، فسألت عائشة النبي ﷺ فنزلت هذه الآية، فأمرها رسول الله ﷺ أن تُدْخِلَها منزلها، وتَقْبل هديتها، وتُكْرمها، وتحسن إليها[(٢)] وهذه المرأة كانت خالة لأسماء فسمّتْها أُمّاً[(٣)].

قال أبو موسى: ولو كانت مسلمة لما احتاجت أسماء أن تستأذن في صلتها إلا أن تكون أسلمت بعد ذلك.

قال ابن حجر العسقلاني: إن كانت عاشت إلى الفتح فالظاهر أنها أسلمت[(٤)].

أما أم عائشة رضي الله عنها فهي (أم رُومان) وكانت مسلمة مهاجرة، وكانت عائشة من أم، وأسماء من أم أخرى، قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ [لقمان:١٥].

---

(١) المسند (٦/٣٤٤-٣٤٧) ورقمه (٢٦٩١٥، ٢٦٩١٣) حديث صحيح، والبخاري برقم (٢٦٢٠، ٣١٨٣، ٥٩٧٨)، ومسلم برقم (١٠٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٩٣١) وغيرهم

(٢) أسباب النزول للواحدي عن عبد الله بن الزبير (ص ٣١٧) وهو في المسند (٤/٤) (١٦١١١)، والطيالسي (١٧٤٤)، والمستدرك (٢/٤٨٥)، ومجمع الزوائد (٧/١٢٣)، والدر المنثور (١٤/٤١٢)، والطبري (٢٨/٤٣)، والبزار في كشف الأستار برقم (١٨٧٣) وضعفه محققوا المسند لضعف مصعب بن ثابت، وهو ابن عبدالله بن الزبير، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٣) تفسير ابن عطية (٥/٢٩٧).

(٤) الإصابة (١٤/ ١٣٠).

٢- وقيل: إن هذه الآية نزلت في خزاعة وبني مدلج، وكانوا قد صالحوا النبي ﷺ على ألا يقاتلوه، ولا يعينوا عليه أحداً[(١)].

وبهذا يتبين أن الإسلام دين محبة وسلام، يستهدف أن يظلِّل العالم كله بظله، وأن يجمع الناس تحت لوائه، ويقيم فيهم منهجه، ويعيشوا إخوة متحابين متعارفين متعاونين.

والإسلام لا يجبُر الناس على اعتناق الإسلام، ولم يتخذهم أعداء، ماداموا لم يقفوا حَجَر عثرة في وجه الدعوة، ولم يعتدوا علينا، وهو يفرق في التعامل بين الكافر المسالم والكافر المحارب.

الْعَدُوُّ غَيْرُ الْمُسَالِمِ مِنْ أَعْدَاءِ الدِّينِ يُعَامَلُ بِالْمِثْلِ

٩- ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ[(٢)] وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وبعد الحديث عن القسم الأول، وهو عدوّ مسالم، لم يقاتل المسلمين، ولم يخرجهم من ديارهم، وبالتالي لم ينه الإسلام عن برّهم والإقساط إليهم.

بعد ذلك يأتي القِسْم الآخر، وهو عدوّ غير مسالم، يقاتل المسلمين، ويُخرجهم من ديارهم، ويظاهر على إخراجهم، وهؤلاء نهى الله تعالى عن موالاتهم ومودتهم، مع ملاحظة الفرق بين البر والقسط، وبين الموالاة والمودة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ﴾ إكرام وصلة وبرّ من قاتلكم على الإيمان، وأخرجكم من الأوطان، وعاون عليكم عبدة الأوثان، فلا تصالحوهم ولا تَلِينُوا لهم، فإن الإسلام ينهاكم عن مودة الكافرين ﴿ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ فناصبوكم العداء، وقاتلوكم من أجل

(١) ذكره ابن الجوزي عن ابن عباس كما في زاد المسير (٨/٢٣٦).

(٢) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلا من ﴿أَن تَّوَلَّوْهُمْ﴾ والباقون بتخفيفها، واتفق القراء على تخفيف التاء عند الابتداء بها.

أنهم على غير دينكم، ووقفوا في وجه انتشار الدعوة ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ التي تسكنوها ﴿وَظَٰهَرُوا﴾ أي عاونوا غيرهم ﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ من دياركم، فعداوتهم لكم عداوة لدين الله ولمن قام به.

وقد كان أهل مكة فريقان: منهم من يأتي بالأسباب التي لا يحتمل المسلمون البقاء معها بمكة، ومنهم من يعين على ذلك ويُغْري عليه، والله تعالى ينهاكم ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بالنصرة والمودة، فلا توالُوا من قاتلوكم لأجل دينكم، ولا من اغتصبوا أرضكم، أو استوْلوا على أموالكم، أو مقدساتكم.

ثم توعّد الله سبحانه من يتخذهم أنصارا وأحبابا ويفضّلهم على المؤمنين فقال ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم، الخارجون عن حدود الله، المعادون لله والرسول، المعرِّضون أنفسهم لعذاب الله، فإن من أحبهم وتولاهم فهو ظالم، لأنه جعل الأمر في غير موضعه، وتعدى الحدود في العهود والمواثيق كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة:٥١].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء:١٤٤].

وهكذا رسمت الآيتان المنهج الذي يتعامل به المسلمون مع غيرهم، فقد رخّصَت الآية الأولى في حُسْن التعامل مع غير المسلمين المسالمين.

ونهت الآية الثانية عن ذلك بالنسبة للمحاربين المعتدين.

وسورة التوبة تقرر ما في الآية الثانية فتأمر بقتال المعتدين المقاتلين ﴿وَقَٰتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة:٣٦] وهي ناطقة بقتال من قاتل.

الإِسْلَامُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُسْلِمَةِ وَزَوْجِهَا غَيْرِ الْمُسْلِمِ

١٠ - ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ[1] ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟[2] بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟[3] مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

في هذه الآية حُكْمان، **الحكم الأول:** هو التفرقة بين المسلم وزوجته الوثنية.

والحكم الثاني: ردّ المهر لمن فارق زوجته الوثنية أو لمن فارقت زوجها الكافر.

والحكم الثاني منسوخ، لأنه شُرع لحالة خاصة في وقت خاص.

أما الحكم الأول فالعمل به قائم إلى يوم القيامة، ولا خلاف في أن هذه الآيات نزلت بعد صلح الحديبية.

هذا: ولما نهى الله تعالى عن موالاة غير المسلمين، وكان هذا يشمل المصاهرة، وعقود النكاح التي بين المسلمين وغيرهم، وقد يكون المسلم مُتزوّجاً من مشركة، وقد تكون المسلمة متزوجة من مشرك، وقد تختلف الدارين بين الزوجين، بأن يكون كلا منهما في بلد، وقد حدثتْ حالات في العصر النبوي من هذا القبيل، فكان بعض الأزواج في المدينة من المسلمين المهاجرين، وزوجاتهم المشركات في مكة.

وكان من شروط صلح الحديبية، أنَّ مَنْ جاء إلى النبي ﷺ من المشركين مسلماً، ردّهُ النبي ﷺ إليهم، سواء أكان رجلاً أو امرأة، فأراد الله سبحانه أن يُخرج النساء من هذا

---

(١) وقف يعقوب بهاء السكت بخلف عنه في {فامتحنوهن، علمتموهن، ترجعوهن، تنكحوهن، آتيتموهن، أجورهن} والباقون بدونها ومعهم يعقوب في الوجه الثاني.

(٢) قرأ أبوعمرو ويعقوب بفتح الميم وتشديد السين من ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟﴾ مضارع مسك، والباقون بإسكان الميم وتخفيف السين مضارع أمسك.

(٣) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف بنقل حركة همزة ﴿وَسْـَٔلُوا۟﴾ إلى السين قبلها وحذف الهمزة وصلاً ووقفاً، وكذا حمزة عند الوقف.

الشرط بهذه الآية، لما في ردهنّ إلى غير المسلمين من مفاسد كثيرة، وشرع الإسلام امتحان هؤلاء النسوة في إيمانهن، ليبيّن للناس صدق إيمانهن من عدمه، فإن كنَّ غير صادقات في إيمانهن تعيَّن ردّهن إلى الكفار وفاء بالشرط من غير حصول مفسدة، وإن كنّ صادقات في إيمانهن فلا يرجعوهن إلى الكفار، وليعطوهم ما دفعوه من مهر لهنّ.

فحكم الله سبحانه في هذه الآية أن المرأة المسلمة المهاجرة لا تُردّ إلى الكفار في مكة، بل تبقى في المدينة، تقضي عدتها، لأن الإسلام قد فرّق بينها وبين زوجها الكافر، ثم تتزوج، ويُعطَى زوجها الكافر الصداق الذي كان قد دفعه إليها.

كما أن من فرّت زوجته المشركة من المؤمنين إلى الكفار، فله أن يطلب الصداق الذي دفعه لها، وكان صلح الحديبية سنة ست من الهجرة.

أخرج ابن إسحاق، وابن سعد، وابن المنذر، عن عروة بن الزبير، أنه سُئل عن هذه الآية، فكتب أن رسول الله ﷺ كان قد صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يَرُد من قريش مَنْ جاء، فلما هاجر النساء، أبى الله أن يُرْدَدْن إلى المشركين، إذا هُن امتُحنّ بمحنة الإسلام، فعُرفوا أنهن إنما جئن رغبة فيه، وأمر برد صدُقاتهن إليهم إذا حُبِسْنَ عنهم، وأنهم يردّوا على المسلمين صداق من حَبَسُوا عنهم من نسائهم، ثم قال ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ فأمسك رسول الله ﷺ النساء وردّ الرجال، ولولا أن هذا حُكم الله لردّ النساء كما ردّ الرجال، ولولا الهدنة والعهد، لأمسك النساء ولم يرد لهن صداقاً[(١)].

حالات ممن تنطبق عليهن الآية:

١- وحدث عقب توقيع شروط الصلح، والنبي ﷺ لم يزل في الحديبية أنْ جاء (أبو جندل) بن سهيل بن عمرو، الذي تولّى كتابة الشروط نيابة عن المشركين، جاء مسلماً يرْسُف في الحديد، وكان مقيّداً فيها عند أبيه بمكة، فانْفلَت من قيده، وجاء إلى النبي ﷺ فردّه النبي ﷺ إليهم، بموجب الشرط الذي بينه وبينهم[(٢)].

(١) ابن إسحاق، سيرة ابن هشام (٣٢٦/٢)، وابن سعد (١٢/٨).

(٢) القصة في البخاري (٢٧١١، ٤١٨٢)، والبيهقي في السنن (١٧١/٧).

٢- كما جاءت أيضا (سُبيعة الأسْلمية) للنبي ﷺ وهو لم يزل في الحديبية، فجاء زوجها يطلب ردّها، وقال للنبي ﷺ: إن طينة الكتاب الذي بيننا وبينك لم تجفّ بعدُ، فنزلت هذه الآية، فأبى النبي ﷺ أن يردها عليه.

٣- ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة جاءته أم كلثوم بنت عقبة، وأميمة بنت بشر، هاربتان مِنْ زوجهما، وكان زوج الأولى: عمرو بن العاص، وزوج الآخر: ثابت بن الشمراخ، أو حسان بن الدحداح، ولحق بالأولى أخواها: عمارة والوليد، فرد النبي ﷺ أخوَيْها، وأبقاها في المدينة، فقالوا للنبي ﷺ: رُدَّها علينا بالشرط، فقال: كان الشرط في الرجال لا في النساء، وبقيتا عند النبي ﷺ فتزوج زيد بن حارثة: أم كلثوم بنت عقبة، وتزوج سهل بن حنيف: سبيعة وأميمة[1].

٤- وحدث أيضا أن زينب بنتُ النبي ﷺ وهي مسلمة بطبيعة الحال، وكان زوجها أبوالعاص بن الربيع بن عبد العُزّى مشركاً، فلحق بها زوجها بعد مدة، ثم أسلم وهو في المدينة، فردها إليه النبي ﷺ وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنوات.

وكان أبو العاص قد تزوج زينب وهي مسلمة، ولما وقع أبوالعاص ضمن الأسرى المشركين يوم بدر، أرسلتْ زينب بقلادة لها لتفْدي زوجها من الأسْر، فلما رأى النبي ﷺ القلادة رقّ لها رقة شديدة، وقال للمسلمين: «**إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها فافعلوا**»، ففعلوا، فأطلقه النبي ﷺ على أن يبعث له بابنته، فوفّى بذلك وأرسلها إليه مع زيد بن حارثة ﷺ، فبقيت في المدينة من سنة اثنين للهجرة، إلى أن أسلم زوجها سنة ثمان، فردّها عليه بالعقد الأول، ولم يُحدث لها صداقاً[2].

وقد ورد أن النبي ﷺ قال للذين سألوه إرجاع النساء المؤمنات بمقتضى شروط

(١) ينظر: ابن سعد (٨/٢٣١) عن ابن شهاب وابن دُريْد في أماليه عن الواقدي.

(٢) ينظر: المسند (١/٢٦١)، وصحيح سنن أبي داود برقم (١٩٥٧)، والترمذي برقم (١١٤٣)، وابن ماجة برقم (٢٠٠٩) مختصراً.

الصلح (إنما الشرط في الرجال لا في النساء) فكانت هذه الآية تشريعا للمسلمين، وبيانا للحكم في هذه الحالة.

امتحان المهاجرات المؤمنات:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ يا من آمنتم بالله تعالى حق الإيمان ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ﴾ النساء ﴿ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ ممن شهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، جئن ﴿مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام، وهن راغبات في فراق أزواجهن والبقاء معكم ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ أي اختبروهن، لتعلموا صدق إيمانهن، ومدى رغبتهن في الإسلام، حتى يغلب على ظنكم أنهن صادقات في إيمانهن وهجرتهن، وأن الأقوال موافقة للأفعال، وأنهن لم يهاجرن رغبة في زواج أو نحوه.

قال ابن عباس وغيره: كانت المرأة تُستحلف أنها ما هاجرت بُغضاً لزوجها ولا هرباً بذنب، ولا طمعاً في الدنيا، وأنها ما خرجتْ إلا حُباً لله والرسول، ورغبة في دين الإسلام، فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك أعطى النبي ﷺ زوجها مهرها، وما أنفق عليها، ولم يردّها[(١)].

فكان هذا الامتحان لتحري سبب الهجرة، بحيث لا تكون الهجرة تخلُّصاً من زوج مكروه، ولا جرياً وراء حب آخر، ولا طلباً لمنفعة دنيوية، وكانت المرأة إذا غضبت من زوجها بمكة قالت: لألْحقنّ بمحمد ﷺ.

وكان النبي ﷺ يأمر عمر بن الخطاب ﷺ أن يتولى تحليفهنّ، فإذا تبيّن صحة إيمان المرأة لم يردّها النبي ﷺ إلى دار الكفر.

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يأمر من هاجر من المؤمنات بآية بيعة النساء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾.

---

(١) تفسير البحر المحيط (٨/٢٥٦)، والخازن (٤/٢٥٨)، والتحرير والتنوير (٢٨/١٥٦)، وابن عطية (٥/٢٩٧)، وغيرهم كثير.

أما الرجال فإنهم لا يُمتحنون في إيمانهم، والهجرة وحدها كافية في الحكم على صدق إيمانهم، لأن هجرة الرجل تستلزم تحمُّل تبعة الهجرة، والتضحية بترك الديار والأوطان والأموال والأهل والعشيرة، وعليه مناصرة الدعوة والمشاركة في الجهاد.

وهجرة المرأة يترتب عليها ضياع حق مع طرف آخر، هو الزوج، وإسقاط حقه في النكاح، وإيجاب حقه في العوض، والمرأة هي التي يُخْشى عليها من الفتنة، ولذا قال تعالى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ أي يعلم حقيقة حالهنّ، فخفايا القلوب مردّها إلى علام الغيوب، وهو الذي سيحاسب ويجازي عباده.

وبعد اجتياز هذا الامتحان الخاص بالنساء المهاجرات من مكة إلى المدينة، كان النبي ﷺ يُمسك من جاءه من النساء، ويعطي أزواجهن مهُورهن، ويردّ من جاء من الرجال، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ بحسب ما ظهر لكم من العلامات والدلائل، وغلب على ظنكم أنهن صادقات فأبقوهن عندكم ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ﴾ أزواجهن ﴿الْكُفَّارِ ﴾ وذلك لأن المؤمنة لا تحل للمشرك.

ولا يحلّ للمؤمن نكاح المشركة الوثنية، ولا يصح الارتباط بينهما في هاتين الحالتين، وفي هذا تحريم لزواج المؤمنين من الوثنيات، وكان ذلك جائزاً قبل الإسلام.

التفرقة بين المؤمنة وزوجها الكافر ورد المهر له:

والآية توجب التفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها الكافر، والذي يقوم بتنفيذ هذه التفرقة هو القاضي أوْ وَليّ الأمر، والآية تقرر عدم رجوع المرأة المؤمنة إلى زوجها الكافر في حالتين:

إحداهما: أن لا ترجع المرأة المؤمنة إلى زوجها الكافر في بلاد الكفر، ولا تعود إلى ذمته، لما في هذا من مفسدة كبيرة، وهذا معنى ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ .

وثانيهما: أن لا ترجع المرأة المؤمنة إلى زوجها الكافر، فيقيم معها في دار الإسلام، وهو باق على كفره، وهذا معنى ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾.

وكلا الصورتين لا تجوز، لأن اختلاف الدين فرق بينهما.

والزوج الكافر إذا أسلمت زوْجته يُردّ إليه ما أنفقهُ عليها من مهر وخلافه، حتى لا يُجمع عليه خسران الزوجة والمال، كما أن الفرقة بين الزوجين إذا كانت بسبب الزوجة، فإنها تَرُدّ ما أنفقه عليها الزوج من مهر وخلافه، وهذا معنى ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ أي وأعطوا أزواج اللاتي أسْلَمن مثل ما أنفقوا عليهن من المهور.

للمسلمة حق المهر إذا تزوجت بآخر:

وقد يظن ظان أن ما دفعه الرجل من مهر للمرأة التي أسلمت وبقي زوجها على كفره وتم التفريق بينهما: أن ذلك يُسقط حقها في المهْر، إذا أرادتْ أن تتزوج بزوج آخر مسلم، بعد براءة رحمها، فدفع الله هذا التوهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي لا إثم ولا حرج عليكم - أيها المؤمنون - أن تتزوجوهن إذا دفعتم لهن مُهُورَهُن بعد انقضاء عدة المرأة من زوجها الكافر، بعد أن فرّق الإسلام بينهما.

وقد سُمّي المهر نفقة، وسُمّي أجْرا، لأنه مقابل الاستمتاع بالبُضع.

قطع العلاقة بين الزوج المسلم وزوجته الوثنية:

ثم قطع الإسلام العلاقة بين الزوج المسلم، والزوجة المشركة الوثنية، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أي ولا تُبقوا على زوجاتكم الكافرات في عصمتكم، فمن كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة، لانقطاع عصمتها باختلاف الدين.

عن يزيد بن الأخنس أنه لما أسلم، أسلم معه جميع أهله إلا امرأة واحدة، أبت أن تُسْلم، فأنزل الله ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ فقيل له: قد أنزل الله آية، فرّق بها بينها وبين زوجها، إلا أن تُسْلم، فضرب لها أجل سنة، فلما مضت السنة، إلا يوم، جلست تنظر الشمس حتى إذا دنت للغروب أسلمت[1].

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٩٣٣)، وابن عساكر (٦٥/٩٣).

وقد كان الزواج من الكافرات جائزاً قبل ذلك، ثم نسخ بهذه الآية.

وكانت المرأة بالخيار، إن شاءت فَسخت الزواج من زوجها الكافر وذهبت لتتزوج بآخر ، وإن شاءت بقيت على ذمة زوجها[1] .

ولما نزلت هذه الآية طلّق المسلمون مَنْ كان في ذمتهم من زوجات، فطلق عمر امرأتين مشركتين كانتا له بمكة، وهما: قُرَبة بنت أبي أمية، وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية، وقد تزوج الأولى معاوية بن أبي سفيان، وتزوج الأخرى: صفوان بن أمية، وهما على شركهما.

وطلّق طلحة بن عبيد الله، أزوى بنت الحارث بن ربيعة بن عبد المطلب، وتزوجها خالد بن سعيد بن العاص[2] .

ومن أحكام الآية أن كل مسلم كانت له امرأة كافرة لم تهاجر معه فإنه لا يُعتدّ بها كزوجة، لأن العصمة بينهما قد زالت بسبب الكفر، وانتهى عقد النكاح، لأن الإسلام لا يبيح الزواج بالمشركة.

ولما كانت هذه الآية تخص الزوجات المشركات دون الأزواج، فإن آية البقرة:٢٢١ قد عمت الرجال والنساء معا فقالت ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ .

وقالت: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ .

زواج الكتابية وزواج الكتابي:

وخرج من هذا العموم الكتابية من اليهود والنصارى، فإنه يصح الزواج منها لقوله تعالى ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة:٥].

وجاز ذلك بالنظر إلى أصل الديانة وهو التوحيد.

---

(١) تفسير ابن كثير (٩٤/٨)، وهو ما حُمل عليه حديث ابن عباس.

(٢) تفسير الطبري (٤٧/٢٨).

ولم يَجُز العكس، وهو زواج المسلمة بالكتابي، لأن المسلم يعترف بالديانات السابقة، وأهلُ هذه الديانات لا يعترفون بالإسلام، فالرجل المسلم يكون مأموناً على ديانة زوجته الكتابية، أما المرأة المسلمة فإنها لا تأمن على دينها مع غير المسلم، وهذا إلى جوار أن أبناء الكتابية يكونون مسلمين لأبيهم، والإسلام يطمع في إسلام أمّهم، وكثيرا ما يحدث هذا.

رد المهر إلى الزوج مسلماً كان أو كافراً:

ومن عدالة الإسلام أنه سوّى في الحقوق والواجبات الزوجية بين المسلم والمشركة فلو أن المسلم ارتدَّتْ زوجتُه، ولحقتْ بقومها المشركين، فإن لزوجها المسلم أن يطلب مهره الذي دفعه إليها ، وهذا معنى ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ فالمراد بالنفقة في الآية، هو المهر المدفوع للزوجة التي ارْتدّت عن الإسلام، أي اطلبوا أيها المؤمنون ما دفَعْتُموه من مهور نسائكم اللاتي انفصلْتُم عنهن بسبب كفرهن.

وكذلك الحكم بالنسبة للمشرك الذي أسلمتْ زوجتُه، ولحقتْ بالمسلمين، فانفصلت عن زوجها بهذا السبب، فإن لزوجها المشرك أن يطلب المهر الذي كان قد دفعه إليها وهذا معنى: ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ أي وليطلب المشركون مهور نسائهم اللاتي أسلمن، ففرّق الإسلام بين الزوجين.

قال ابن العربي: كان مَنْ ذَهَب من المسلمات مُرْتدّات إلى الكفار، يقال لهم: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين إذا جاءت إحدى الكافرات مسلمة، مهاجرة، ردُّوا إلى الكفار مهرها، وكان ذلك نَصَفاً وعدلاً بين الحالتين[1] .

وهذا الحكم العدل بين الفريقين، هو بمقتضى علم الله تعالى بحاجات العباد، وما تقتضيه الحكمة الإلهية من إعطاء كل ذي حق حقه، إلى جوار ما في الآية من أحكام وتشريعات أخرى ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور في الآية، هو ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ العادل ﴿يَحْكُمُ﴾ به

(١) نقلاً عن القرطبي (١٨/٦٨).

﴿بَيْنَكُمْ﴾ فلا تخالفوه واعملوا بما فيه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده، لا يخفى عليه شيء منها ﴿حَكِيمٌ﴾ في تشريعاته وأقواله وأفعاله.

ولما نزلت هذه الآية، وفيها تقرير الحكم على الكفار والمسلمين معاً، قال المسلمون: رضينا بحكم الله، وكتبوا إلى المشركين في مكة يخبرونهم بذلك، فقالت قريش: لا نرضى بهذا الحكم، ولا نلتزم به، ولا ندفع لأحد من المسلمين صَداقاً. قال تعالى:

١١ - ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾

أنزل الله تعالى يأمر المؤمنين أن يدفعوا إلى من ارتدتْ زوجته من المسلمين وفرّت إلى الكفار: صداقه الذي أعطاه لها [(١)].

وقيل: يؤخذ هذا المهر من الغنائم التي يغنمها المسلمون من المشركين في الغزوات.

ذلكم قول الله تعالى ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ ﴿فَاتَكُمْ﴾ بمعنى: إن فارقَكم ، ولم يسلِّموا لكم مهورهن، فخذوه من غنائم المشركين، والمراد بالكفار الذين ليس لهم عهد ولا ذمة و﴿شَيْءٌ﴾ بمعنى: بغض أزواجكم، أي: وإن فارقكم – أيها المؤمنون – بعض أزواجكم الكافرات أو فارقكم بعض مهوركم.

ومعنى ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أحد أمرين:

١ - أي إن حصل التعاقب بينكم وبين الكفار، وأراد كل فريق أن يتزوج من الآخر، فلا تدفعوا – أيها المؤمنون – شيئاً لزوج مَنْ قَدِمتْ من المشركين حتى يدفعوا هم لزوج من فرّت من المسلمين مهره الذي دفعه فيها.

٢ - أو أن معنى ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أي إنْ كانت لكم العقبى، فغزوتم الكفار وانتصرتم عليهم، وأصبتم منهم غنيمة، فخذوا من الغنائم بقدْر ذلك المهر. سورة الممتحنة: ١١

ومعنى الآية على القول الثاني: وإن انفلَت منكم - أيها المؤمنون- بعض أزواجكم

---

(١) بهذا قال محمد بن شهاب الزهري، قال ابن عطية (٥/٢٩٨): وهو قول صحيح.

وهَرَبْن منكم مُرْتدّات ولَحِقْنَ بالكفار، ولم يدفع لكم المشركون ما تستحقونه من مهورهن، ثم ظفرتم بهؤلاء الكفار، فانتصرتم عليهم، وغنمتم منهم ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ أي فأعطوا الأزواج من رأس الغنيمة، ما أنفقوا من المهر، بمقدار مُساوٍ لما أعطاه الزوج لزوجه من قبل، دون نقص فيه.

ثم حرّض الله المؤمنين على الوفاء بما أمرهم الله به، وألَاّ يمنعهم من ذلك جور المشركين، فالإيمان يحمل صاحبه على التقوى، أما المشرك فليس لديه وازع يحمله على الوفاء والعدل، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ خافوا الله في جميع شؤونكم، ونفّذوا ما أُمرتم به أو نُهيتم عنه.

عدد من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين تسع:

هذا: وجميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ممن لم يُسْلمن تسع:

١- أم الحكم بنت أبي سفيان، كان زوجها عياض بن شداد الفهري.

٢- فاطمة بنت أبي أُمية بن المغيرة، ويقال لها (قُرَيْبَة) أخت أم سلمة، كان زوجها عمر بن الخطاب ﷺ فلما أراد الهجرة، أبت، وارتدّت.

٣- أم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية (أم عبيد الله) كانت زوجة لعمر بن الخطاب أيضاً.

٤- بَرْوَع بنت عقبة، كان زوجها شماس بن عثمان.

٥- شَهْبة بنت غيلان، لم أعرف اسم زوجها.

٦- عبْدة بنت عبد العُزّى، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل.

وقيل: تحت عمرو ابن عبد.

٧- هند بنت أبي جهل، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل أيضاً.

٨- أزوى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كانت تحت طلحة بن عبيد الله، وكان قد هاجر، وبقيت زوجُه مشركة بمكة، فلما نزلت الآية طلقها.

٩- عزة بنت عبد العزيز بن نقيلة، كانت تحت عمرو بن عبد وُدّ.

وقد أعطى النبي ﷺ من الغنائم والأخماس: عمر، وعياض، وشماس، وهشام، مهور نسائهم اللاحقات بالمشركين[1].

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ طلّق كل من المسلمين زوجته، وهي بمكة، فلحقتْ بالمشركين، وبعد نزول هذه الآية ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ ردَّ المؤمنون إلى كل امرأة ذهبتْ من أزواج المؤمنين إلى المشركين النفقة التي أنفقت عليها من العِقِب، أي من المال الذي بأيديهم، مما أمروا أن يردوه على المشركين، وإن بقي شيء من هذا العقب ردّوه عليهن أيضاً.

قال الطبري: والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمنَّ وهاجرن[2].

حكم الآية باق :

ومن المعلوم أن العمل بهذا الحكم كان في الفترة من صلح الحديبية إلى فتح مكة، وبعد فتحها لم يعُد هناك بالنسبة لمكة والمدينة بلد كفر وبلد إسلام.

وأصبحت كلها دار إسلام، والمعتبر في هذا ليس اختلاف الدارين، وإنما هو اختلاف الديانة، وهذا يسري إلى أن تقوم الساعة على كل امرأة ارتدت عن الإسلام، وعلى كل رجل أسلم وله زوجة وثنية.

بَيْعَةُ النِّسَاءِ وَشُرُوطُهَا السِّتَّةُ

١٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ[3] إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٦٣/١٣)، وتفسير الخازن (٢٥٩/٤)، وتفسير ابن عطية (٢٩٨/٥).

(٢) تفسير الطبري (٤٨/٢٨).

(٣) قرأ نافع بالهمز في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ وفي حالة الوصل يحقق الهمزة الأولى ويسهل الثانية بين بين، ويبدلها واوا خالصة، وكل من قالون وورش على حسب مذهبه في المد، وقرأ الباقون بياء مشددة.

وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٢ ﴾

في هذه الآية شروط مشتركة بين الرجال والنساء معاً كما ثبت في حديث عبادة ابن الصامت في البخاري (٤٨٩٤) وفيه بيعة الرجال قبل بيعة النساء في نفس اليوم بحيث يلتزم بها المسلم في جميع الأوقات، وتسمى بيعة النساء، لأنها نزلت في مبايعتهن، فإذا التزمت المرأة بهذه الشروط بايعهن النبي ﷺ واستغفر لهن الله بالنسبة لما يحدث منهن من تقصير، وأدخلهن في جملة المؤمنين، وكان هذا في بدء الإسلام، والعمل بهذه الشروط قائم إلى قيام الساعة، تلتزم به كل مؤمنة وكل مؤمن، فهو من أحكام الإسلام العامة التي لا تفارق المسلم والمسلمة في كل زمان ومكان.

هذا: وبعد أن فرغ سبحانه وتعالى من ذِكْر ما يتعلق بامتحان النساء المهاجرات، شرع جل شأنه يفصل بيعة النساء ويُبيِّن بنودها وآثارها، فقد صح أن عائشة رضي الله عنها أخبرت عروة ﷺ أن النبي ﷺ كان يمتحن مَنْ هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها ﷺ: قد بايعتُك، كلاماً، ولا والله مامسّتْ يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يُبايعُهن إلا بقوله «**قد بايعتك على ذلك**»[(١)].

قال الحافظ ابن حجر: قوله: (قد بايعتك كلاماً) أي يقول ذلك كلاما فقط، لا مصافحة باليد، كما جرت به العادة من مصافحة الرجال عند البيعة[(٢)].

أخرج الإمام أحمد عن سلمى بنت قيس - إحدى نساء بني عدي بن النجار - قالت: جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار، فشرط علينا: (أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا

---

(١) هذا لفظ البخاري برقم (٧٢١٤،٥٢٨٨،٤٨٩١،٢٧١٣)، وفي مسلم برقم (١٨٦٦)، والترمذي (٣٣٠٦)، وابن ماجة (٢٨٧٥).

(٢) فتح الباري (٨/٤٨٨)، وهو في البخاري (٤١٨٢، ٤٨٩١)، والبغوي في شرح السنة (٢٧٤٨)، ومسلم (١٨٦٦)، والحديث في مسند أحمد (٢٦٣٢٦) وهو حديث صحيح.

نعصيه في معروف) ثم قال ﷺ: «ولا تغشُشْن أزواجكن» قالت: فبايعناه ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي إلى رسول الله ﷺ فسليه ما غِش أزواجنا؟ فسألته فقال: «تأخذ ماله فتحابي غيره»[(١)].

وكانت هذه البيعة بعد أن دخل الناس في الإسلام، واستقرت أحكام الدين وشرائعه، خلال سنوات لم تشهد فيها النساء - سيما اللاتي في مكة- ما شهده الرجال من اتساع التشريع شيئاً فشيئاً.

وقد بايع النبي ﷺ بهذه الآية: النساء المهاجرات اللاتي قَدِمْنَ عليه من مكة، وأجرى هذه البيعة أيضا على نساء الأنصار، كما قالت أم عطية رضي الله عنها: بايَعَنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها، فقالت: (أسْعدتْني فلانة ـ يعني بالنياحة ـ أريد أن أجْزيَها، فما قال لها النبي شيئاً، فانطلقتْ ورجعتْ، فبايعها)[(٢)] ومعنى أسعدتني في المناحة أي أن المرأة تقوم معها امرأة أخرى من جاراتها أو قريباتها فتساعدها على النياحة، وهي مجاملة عندهن ينبغي ردها في زعمهنّ.

وكانت هذه المبايعة قد أُجريت على الرجال قبل النساء، فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «أَتُبايعُوني على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تزنوا ولا تسرقوا، وقرأ آية النساء، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئاً من ذلك فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عذّبه، وإن شاء غفر له»[(٣)].

---

(١) المسند (٦/٣٧٩) برقم (٢٧١٣٣) قال محققوه: إسناده ضعيف وهو أيضاً برقم (٢٧٣٧٥) مختصراً، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٤ (٧٥١ و٢٧٥٢) من طريق آخر.

(٢) هذا لفظ البيهقي في السنن (٤/ ٦٢)، وقد أخرجه البخاري برقم (٤٨٩٢)، ومسلم برقم (٩٣٦)، وانظر: مسند أحمد (٢٠٧٩٦)، والنسائي في الكبرى (١١٥٨٧)، وابن حبان (٣١٤٥)، وأبو داود (٣١٢٧)، والطبراني في الكبير (٢٥/ ١٣٣).

(٣) البخاري برقم (٤٨٩٤).

وقوله: وآية النساء، أي الآية النازلة في بيعة النساء.

وقد استمر العمل بهذه المبايعة إلى يوم فتح مكة حيث أسلم أهلها: رجالاً ونساءً، فجلس النبي ﷺ ثاني يوم فتح مكة على جبل الصفا يأخذ البيعة من الرجال على ما في هذه الآية.

ولما فرغ من بيعة الرجال وهو على الصفا، أتته النساء وجلس عمر بن الخطاب ﷺ في أسفل الجبل يأخذ البيعة من النساء على ذلك ويُبلّغهُنّ عنه ﷺ وكان عدد النسوة اللاتي أُخِذتْ عليهن البيعة: أربع مئة وسبع وخمسون امرأة[1].

وكان منهن: هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وكبشة بنت رافع.

وهذه البيعة اشتملت على ستة أمور، كانت متفشية في الجاهلية، وكانت هند زوج أبي سفيان متنكّرة مع النساء، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها فيقتصّ منها، على شَقِّها بطن حمزة ﷺ وإخراجها كبده يوم أحد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ﴾ النساء ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ بالله ورسوله ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ على ما شرعه الإسلام من أحكام وآداب، ويلْتزمْن بأمر الله ونهيه، والمبايعة في الأصل هي المعاوضة.

ومعناها في الآية: أن الناس قد التزموا شرع الله، وقاموا بما كلّفهم به، طمعاً في ثواب الله وخوفا من عقابه، وقد ضمن لهم الإسلام الجنة، مقابل وفائهم بالعهد، والتزامهم بما في البيعة من شروط وأحكام، فإذا جاءك النساء المؤمنات – أيها الرسول – للبيعة فبايعهن على هذه الأمور الستة وهي:

أولا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ بأن يُفردن الله بالعبادة، فالشرك أعظم الذنوب، ولا يقبل الله معه عملاً، ولا يُغفر للعبد إذا لَقِيَ الله به دون توبة، وكان النبي ﷺ قد بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد والسمع والطاعة.

---

(١) زاد المسير (٨/٢٤٦).

وعند ذِكْر هذا الشرط رفعتْ (هند) رأسها، وقالت للنبي ﷺ والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذْته على الرجال، وكيف نطمع أن يقبل الله منا شيئا لم يقبله من الرجال؟

ومن المعلوم أن عدم الشرك بالله تعالى هو البند الأول في الإسلام، وهو أول شرط يؤخذ على الناس قاطبة، الرجال والنساء معاً.

وكون النبي ﷺ قد بايع الرجال على الإسلام والجهاد والسمع والطاعة، فإن الإسلام لا يكون إسلاماً إلا بالتوحيد وعدم الشرك بالله تعالى، والجهاد يُناط بالرجال قبل النساء.

ولما بايع النبي ﷺ على عدم الشرك بالله تعالى، وضعتْ فاطمة بنت عتبة يدها على رأسها حياء، فأُعجب النبي ﷺ بما رأى فيها، فقالت عائشة: أَقِرِّي أيتها المرأة، فوالله ما بايغنا إلا على هذا، قالت: فنعَمْ إذاً، فبايعَها النبي ﷺ بالآية[(١)].

ثانيا: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ أي ويبايعنك على عدم ارتكاب فاحشة السرقة، وكانت السرقة في النساء قديماً، أكثر منها في الرجال، وهي كذلك في بعض المجتمعات المعاصرة، ولا يلزم أن تكون السرقة عن طريق السَّطْو المسلّح ونحوه، بل للنساء طرق أخرى للسرقة عن طريق الإغراء والإغواء والخداع ونحو ذلك.

ولما قال النبي ﷺ ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ قالت هند: إن أباسفيان، رجل شحيح، وإني أصبْتُ من ماله هنَات، فلا أدري أيحلّ لي أم لا؟ وفي رواية قالت: وهو لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بَنِيّ، فهل عليّ جناح إن أخذتُ من ماله بغير علمه؟ فقال ﷺ:

«خذي من ماله بالمعروف، ما يكفيك ويكفي بنيك»[(٢)].

ولما قالت هند ذلك عرفها النبي ﷺ فضحك، وقال: قد عرفتُك، وإنك لهند بنت عتبة، قالت: نعم، فاعف يا رسول الله عما سلف، عفا الله عنك، فدعاها النبي ﷺ لمّا

---

(١) ينظر: المسند (١٥١٥/٦) عن عائشة رضي الله عنها برقم (٢٤٨٢٩،٢٥١٧٥) قال محققوه: حديث صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين، وهو في مصنف عبد الرزاق (٩٨٢٧)، وابن حبان (٤٥٥٤)، وزوائد البزار (٧٠).

(٢) ينظر: صحيح البخاري برقم (٢٢١١،٧١٨٠)، وصحيح مسلم برقم (١٧١٤).

عرفها، فأتتْهُ واستعاذت به أن يمسَّها بسوء، فأعاذها النبي ﷺ وقبل أوبتها.

ومعنى هذا أن الرجل إذا كان لا ينفق على أهله وولده في الضروات، بحيث لا يكفيهم في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والتعليم والرعاية الطبية بالمعروف، إن كان يُقصّر في شيء من هذا، فيجوز أن تأخذ الزوجة بما يكفيها وأولادها فيما ذكرنا، فإن أخذت للتوسع والتبذير أو لتُعطي أهلها، أو لتتصدق دون علمه، فإنه لا يجوز، فإن فعلت ذلك أثمت وله الأجر.

ثالثاً: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي ولا يرتكبن فاحشة الزنى، ولما قال النبي ﷺ ذلك، استنكرتْ هند من المرأة الحرة المحصنة أن تزني، فقالت: أوَ تزني الحرة؟ أي إنّ هذا أمر مستبعد!!

قلت: رضي الله عنك يا هند، أوَما علمتِ أن الزنى سيكون حُرية شخصية، تنص عليه مواثيق حقوق الإنسان والمؤتمرات الدولية؟

أوَما علمتِ أن الزنى برضا الطرفين لا تُعاقب عليه نُظُم البشر!

أوَما علمتِ أن الزنى إذا وقع في الطريق العام، فإن الفاعل يدفع نحو ربع دينار، لا لأنه زنى، ولكن لأنه خدش الحياء العام!

أوَما علمتِ أن بعض الدول الإسلامية تبيح الزنى وتستحلّه، وتمنع تعدّد الزوجات.

وبعض الحكام كان يقول: إنه أب لكل طفل وُلد من سفاح!

(أوَ تزني الحرة)؟ يا لها من كلمة تخرج من فم امرأة أسلمت بالأمس، ولاكتْ قبل ذلك كبد حمزة - عم رسول الله ﷺ - في فمها، إنها امرأة كانت كافرة أول أمس، ونشأت في بيئة جاهلية، ومع ذلك فهي تستبعد وقوع الزنى من المرأة الحرة!

رابعاً: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ وقتل الأولاد، إما أن يكون بالوأْد، الذي كان يفعله أهل الجاهلية بأولادهم خوف الفقر، وبيناتهم خوف العار، وكان بعض الرجال يفعلون ذلك، كما كانت بعض النسوة تضع مولودها إلى جِوارِ حُفْرة، فإن كان ولداً أخذتْه، وإن كانت بنتاً أسقطتْها في الحفرة ووارتْها التراب! يا سبحان الله!! ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ

قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير:٨،٩] وقد يكون القتل بالإجهاض، وإسقاط الأجنة، لسبب من الأسباب.

وكان (حنظلة بن أبي سفيان) قد قُتل يوم بدر، ومن أجل ذلك فإن أمه هند استأجرت (وحْشياً) وكان يجيد الرمْي، استأجرته ليقتل حمزة ﷺ يوم أحد، فلما قال النبي ﷺ: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قالت هند: ربّيناهم صغاراً وقتلتموهم كبارا، فأنتم وهم أعلم.

وفي رواية أنها قالت: قتلْتَ الآباء وتُوصّينا بالأبناء؟ وحينئذ ضحك عمر ﷺ حتى استلْقى، وتبسم النبي ﷺ وقال: «**لقد عرفتك، وإنك لهند بنت عتبة**».

قال الأعرابي لمّا ولدتْ زوْجته بنتاً: والله، ما هي بنعْم الولد، بَزُّها بكاء، ونصرها سرقة[(١)].

خامساً: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي ولا تُلْحِق المرأة بزوجها ولداً ليس منه، والمراد بذلك: الولد اللقيط، وكانت المرأة العقيم، إذا خافت أن يفارقها زوجها لعدم الإنجاب، نفختْ بطنها، ثم التقطتْ مولوداً، وقالت لزوجها: هذا ولدي منك، وشأن الأم إذا وضعت المولود أن يسقُط بين يديها ورجليها، والبهتان هو الافتراء على الآخر، أي لا يفترين على غيرهن سواء مع الأزواج أو مع غيرهم، وقد ينفي الرجل عن نفسه ابنه من صلبه، فيكون داخلاً في معنى الآية، على أن ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ ليس شرطاً في البهتان، وإنما هو لبيان واقع المرأة في هذه الحالة، والافتراء هو الكذب الشنيع، ومنه هذه الحالة، ولمّا سمعت هند ذلك قالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «**أيما امرأة أدخلَتْ على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء، ولن يُدخلها الله جنته، وأيما رجل جَحَدَهُ ولَدُه وهو ينظر إليه، احتجب الله منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين**»[(٢)].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٣/١٦٧).

(٢) سنن أبي داود برقم (٢٢٦٣)، وابن ماجه (٢٧٤٣)، والنسائي (٦/ ١٧٩)، وفي الكبرى (٥٦٧٥)، وفي التحفة (١٢٩٧٢)، وابن حبان (٤١٠٨).

سادساً: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ هذا تعميم بعد تخصيص، وهو قول جامع يشمل كل ما يأمر به الإسلام، أو ينهى عنه وعن الاقتراب منه.

ولما سمعتْ هند ذلك قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء، فأقر النسوة بما أَخَذ عليهن من البيعة.

وكان النبي ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة في العيد، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: شهدتُ الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، فكلهم كان يصليها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يُجَلّس الرجال بيده، ثم أقبل يَشُقّهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ حتى فرغ من الآية، ثم قال: «أَنْتُنّ على ذلك؟» وقالت امرأة واحدة لم يُجبْه غيرها، نعم يا رسول الله ... قال: «فتصدّقنْ» وبسَط بلال ثوبه، فجعلْن يُلْقين الفَتْخَ والخواتينم في ثوب بلال[(١)].

أحاديث في تحريم النياحة:

النياحة: ومما يشمله هذا الحكم: النياحة، ودعوى الجاهلية، وشق الجيوب، ولطم الخدُود، فإنها معاصي تختصُّ بها المرأة غالباً:

١ - ولذلك فإن أم عطية رضي الله عنها قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة، ألاّ ننوح، فما وفَت منا امرأة، غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى[(٢)].

٢ - وقالت أم عطية أيضاً: كان فيما اشتُرط علينا من المعروف حين بايَعْنا: ألاّ ننوح، فقالت امرأة: إن بني فلان أسْعدُوني، فلا، حتى أَجْزيهم، فانطلقتْ فأسْعدَتْهُم، ثم جاءت

(١) البخاري برقم (٤٨٩٥).

(٢) ينظر: صحيح البخاري برقم (١٣٠٦،٧٢١٥)، ومسلم (٩٣٦).

فبايعت، قالت: فما وفّى منهن غيرها وغير أم سُلَيم بنت مِلْحان، أم أنس بن مالك[(١)].

قال ابن عاشور: وهذه رخصة خاصة بأم عطية، وبمن سمّتْهُم، وفي يوم معين[(٢)].

٣ - وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاءت أميمةُ بنتُ رُقَيْقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام، فقال: **أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتُلي ولدَك، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك، ولا تنُوحي، ولا تبرّجي تبرّج الجاهلية الأولى**[(٣)].

٤ - وفي الحديث عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»[(٤)].

٥ - وفي حديث أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ بريء من (**الصالقة، والحالقة، والشاقة**)[(٥)].

٦ - وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ على النساء حين بايعهن ألاّ ينُحْن، فقلن: يا رسول الله، نساء أسعدتْنا في الجاهلية، فنُسْعِدُهنّ، فقال رسول الله ﷺ: «**لا إسعاد في الإسلام**»[(٦)] وهذا الحديث يخصص حديث أم عطية السابق.

٧ - وعن مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية**

---

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم (٤٨٩٢)، وتفسير الطبري (٥٢/٢٨)، والحديث في المسند برقم (٢٠٧٩٦، ٢٧٢٩٨، ٢٧٣٠٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وقد سبق تخريجه بأكثر من هذا في حديثها السابق.

(٢) التحرير والتنوير (١٦٨/١٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤٣٧/١١) (٦٨٥٠) قال محققو المسند: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، وله شاهد من أميمة بنت رقيقة عن ابن حبان (٤٥٥٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٧)، رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٤) البخاري برقم (١٢٩٤،١٢٩٧،١٢٩٨)، ومسلم برقم (١٠٣).

(٥) البخاري برقم (١٢٩٦)، ومسلم برقم (١٠٤).

(٦) أخرجه النسائي وعبد الرزاق (٦٦٩٠)، وأحمد (١٣٠٣٢) بأطول منه، قال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ومصنف عبدالرزاق (٦٦٩٠)، وأبو داود (٣٢٢٢)، والترمذي (١٦٠١)، وابن حبان (٣١٤٦)، وعبد بن حميد (١٢٥٣).

لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة» وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تُقام يوم القيامة، وعليها سربال من قَطِران، ودرع من جَرَب»[1].

حكم مصافحة النساء الأجنبيات:

١ - عن أميمة بنت رُقيقة، أخت خديجة رضي الله عنها قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة يبايعْنهُ على الإسلام، فقلْن: يا رسول الله، نبايعك على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف، فقال رسول الله ﷺ: «**فيما استطَعْتُنّ وأطَقْتُنّ**» قالت: فقُلْن: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، هلُمَّ نبايعك يا رسول الله، فقال ﷺ: «**إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمئة امرأة، كقولي لامرأة واحدة**»[2].

لم يصافح النبي ﷺ في البيعة ولا في غيرها امرأة أجنبية، وإنما بايعهن كلاماً، ومن ذلك قوله ﷺ في الحديث السابق « إني لا أصافح النساء».

٢ - وقول عائشة رضي الله عنها (والله ما مسّتْ يده يد امرأة قط في المبايعة، وما يبايعهن إلا بقوله: قد بايعتُكِ على ذلك)[3].

٣ – وقالت أسماء بنت يزيد: كنت في النسوة المبايعات، فقلت: يا رسول الله، ابسط يدك نبايعك، فقال عليه السلام: «**إني لا أصافح النساء، لكن آخذ عليهن ما أخذ الله عليهن**»[4].

---

(١) مسند أبي يعلى (١٤٨/٣)، وصحيح مسلم برقم (٩٣٤)، ومسند أحمد (٢٢٩١٢)، وهو حديث صحيح، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٩٠)، والبيهقي في السنن (٤/ ٦٣)، وانظر في المسند (٢٢٩٠٣) وما بعده.

(٢) الموطأ برقم (٢)، والترمذي برقم (١٥٩٧)، وسنن النسائي (١٤٩/٧) (٤١٩٢)، وابن ماجة برقم (٢٨٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٥/٢)، وهو في السنن برقم (٢٨٧٤)، وصحيح سنن الترمذي (١٣٠٠)، والمسند (٢٧٠٠٦-٢٧٠١٠)، قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين، وابن سعد (٥/٨).

(٣) البخاري برقم (٢٧١٣،٤٨٩١)، ومسلم (١٨٦٦).

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٣٠٠).

شبهات مردودة، وآثار ضعيفة:

وأما ما ورد من أحاديث تفيد أن المبايعة كانت مصافحة باليد، ومنها:

١- حديث أم عطية في قصة المبايعة قالت: فمد عمر يده من خارج البيت، ومددن أيديهن من داخل، ثم قال « اللهم اشهد»[١] فهو حديث ضعيف بقصة عمر.

٢- ومن ذلك حديث أم عطية في البخاري وغيره، وفيه: (فقبضتْ منا امرأة يدها) حين نهاهن عن النياحة، والمراد بقبض اليد: الامتناع عن البيعة بسبب نهي النبي ﷺ عن النياحة، كما هو في الحديث، وليس المراد أنها قبضت يدها من مصافحة النبي ﷺ لها، فليس المراد بسْط اليد، والتي قبضتْ يدها هي أم عطية، أبهمت نفْسها أوّلاً، وتأخرت عن البيعة، ثم جاءت فبايعت[٢].

٣- وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عامر هو الشّعْبي قال: بايع رسول الله ﷺ النساء، وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه ثم قال: «ولا تقتلْن أولادكن» فقالت امرأة: تَقْتلُ آباءهم، وتُوصينا بأولادهم؟ قال: وكان بعد ذلك إذا جاء النساء يُبايِعْنه، جمعَهُنّ فعرض عليهن، فإذا أقررْن رجَعْن[٣] وهذا أثر مرسل، والمرسل ضعيف.

قال ابن عطية: ورُوي عن الشعبي أيضاً أن النبي ﷺ لفّ ثوباً كثيفاً قَطَرِيّاً على يده، وجاء نسوة فلمسْن يده كذلك[٤].

٤- وَرُوي عن الكلبي: أن عمر بن الخطاب ﷺ قدّم يده فلمس نساءٌ يده، وهو خارج

---

(١) ينظر الحديث كاملاً في شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد (٩٢٨/٢)، وفي المسند (٢٠٧٩٧،٢٧٣٠٩) قال محققوه: حديث صحيح دون ذكر قصة عمر فيه، وهذا إسناد ضعيف، وتفسير الطبري (٥٣/٢٨)، ومثله عند ابن خزيمة (١٧٢٢)، وابن حبان (٣٠٤١)، والبزار، والطبراني في الكبير (١٣٦)، والأوسط (١٥٠٦)، والبيهقي في الشعب (٩٣١٧) وهو حديث ضعيف كما في ضعيف سنن أبي داود (٢٤٥).

(٢) البخاري برقم (١٣٠٦،٤٨٩٢)، ومسلم في الغنائم (٩٣٦)، والترمذي برقم (٣٣٠٧).

(٣) تفسير ابن كثير (١٠٠/٨)، وقد أخرجه سعيد بن منصور وابن سعد بنحوه (٩٢٥/٨)، وهو أثر مرسل.

(٤) تفسير ابن عطية (٣٠٠/٥).

من بيت، وهُنّ فيه، بحيث لا يراهن[١] وما يروى عن الكلبي غير صحيح.

٥- وذكر النقاش وغيره أن النبي ﷺ بايع النساء على الصفا بمكة، وعمر بن الخطاب يصافحهن وذكر في بيعة نساء الأنصار، أن النبي ﷺ مدّ يده من خارج بيت ومدّ نساء من الأنصار أيديهن من داخله فبايعهن)[٢].

٦- وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ورفعه النقاش عن ابن عباس، وعن عروة بن مسعود الثقفي: أنه ﷺ غمس يده في إناء فيه ماء، ثم دفعه إلى النساء، فغمسْن أيديهن فيه[٣]، ولا يصح من هذه الروايات شيء تقوم به حجة.

ومن مجموع هذه الروايات يتبيّن الآتي:

أولاً: أن النبي ﷺ لم تمس يده يد امرأة أجنبية قط، وهذا الذي تشهد له الأدلة الصحيحة.

ثانياً: يُردّ على أن المبايعة كانت مصافحة باليد من داخل البيت وخارجه، بأنه مروي عن الكلبي، ومعلوم أن ما يروى عنه لا يصح.

وحديث قبض اليد، معناه: الامتناع من البيعة في هذا الوقت، وكان ذلك بسبب رغبة أم عطية في رد الجميل للنائحات بدليل أنها قد جاءت وبايعت بعد ذلك.

ثالثاً: وفي رواية الشعبي أن المبايعة كانت بالمصافحة مع وجود حائل، وهي غير صحيحة لانقطاع السند فيها بين الشعبي وبين النبي ﷺ.

رابعاً: والقول بأن المبايعة كانت بِغَمْس اليد في ماء غمَس فيه النبي ﷺ يده، فإن هذه روايات لم تثبُت، قال عنها ابن عطية: والذي قدمتُه - أي من عدم مصافحة النبي ﷺ للنساء الأجنبيات مطلقاً - أثبت ، بعد الإجماع على أنه لم تمس يده يد امرأة أجنبية قط[٤].

وفي نهاية آية البيعة يوجه الله تعالى رسوله أن يطلب للمبايِعات المغفرة من الله تعالى فيقول: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ عن تقصير صدر منهن وتطييباً لخاطرهن والله تعالى

(١ -٤) تفسير ابن عطية (٥/٢٢٩) بتصرف.

يغفر ذنوب عباده التائبين ويرحمهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير الرحمة للعاصين، وكثير الإحسان للمذنبين، وقد وسعت رحمته كل شيء وعم إحسانه جميع خلقه.

عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ فِي النَّهْيِ عَنْ مُوَالاَةِ الأَعْدَاءِ

١٣ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

وتختم السورة بما بدأت به من النهي عن موالاة أعداء الله، ويدخل فيهم دخولاً أولياً: اليهود، فهم كثيراً ما يوصفون بالمغضوب عليهم، وكان من فقراء المسلمين من يوالي اليهود، ويعطونهم أسرار المسلمين، وينتفعون منهم ببعض الثمار، فنهى الله تعالى عن موالاتهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يا من صدقتم الله ورسوله ﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تتخذوا مَنْ غَضِبَ الله عليهم أصدقاء وأحباباً توالُونهم من دون المؤمنين، قال الحسن البصري: هم اليهود.

وجاء في أسباب النزول: أن قوماً من فقراء المؤمنين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم، وربما أخبروهم عن شيء من أخبار المسلمين، فنزلت الآية تنهاهم عن ذلك[1].

والآية عامة بالنسبة لغير المسلمين، ممن عرفوا أن محمداً رسول الله ﷺ فكذّبوه ولم يؤمنوا به، ولا يرجون ثواباً في الآخرة، وحالهم كحال الكفار الذين ماتوا على الكفر، فلا مطمع لهم في ثواب الآخرة، لأنهم ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ﴾ ثواب الله في ﴿ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ وهم المقبورون من الكفار، إذ لا أمل لهم في رحمة الله تعالى يوم لقائه، عندما يَرَوْا حقيقة الأمر، ويعلموا عِلْم اليقين أنهم لا نصيب لهم في الجنة.

والكافر إذا دخل القبر، أيس من رحمة الله، وأيس من العودة إلى الدنيا مرة أخرى، وتبيَّن له قُبح حاله وسوء منقلبه حين يرى مقعده من النار الذي سيصير إليه، ومقعده من

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص ٣٥٠)، والسيوطي (٢٩٦)، وزاد المسير (٢٤٧/٨).

الجنة لو كان مؤمناً، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٣].

ويحتمل أن يكون المعنى: قد يئسوا من الآخرة، أي: أنهم أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب منهم الإقدام على ما يوجب سخط الله تعالى وعظيم عذابه، كما يئس منكرو البعث من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى يوم لقائه.

وهذه الآية مؤكدة للآية الأولى في السورة، فإن أعداء الله تعالى مغضوب عليهم، ويأْس الكفار الأحياء من رحمة الله، كيأس الكفار الأموات من قيام الساعة، لأنهم لا يؤمنون بها، وينكرون عودتهم إلى الحياة مرة أخرى، ولا يعتقدون ببعث ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب.

والكافر إذا مات له قريب أو صديق يقول: هذا آخر العهد به، أي فلا بعث بعد ذلك ولا حياة.

وهذه الآية تجمع أغراض السورة وتوجُّهاتها، ولا يدخل فيها قوله تعالى ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ فهي ممن استثنى الله سبحانه بالنسبة لمن يدخل من الكفار في الإسلام.

وعليه: فلا يطمع المؤمنون في موالاة اليهود والمنافقون، لأنهم لا تربطهم بهم رابطة الإيمان، ولا يدخلون في الرجاء المشار إليه بـ ﴿عَسَى﴾ فيأْس المؤمنين من إيمان اليهود والمنافقين، كيأس اليهود والمنافقين من قيام الساعة، فلا يطمعوا في الانتفاع منهم بشيء، ولا في معرفة أخبارهم وأسرارهم، ولن تعود موالاة المؤمنين لهم إلا بالضرر على المؤمنين في الدنيا والآخرة، والمخْبِر بذلك هو علّام الغيوب.

تم تفسير (سورة الممتحنة) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّفِّ (٦١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الصف) هي السورة الحادية والستون في ترتيب المصحف، والثامنة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التغابن) وقبل (سورة الفتح).

وهي سورة مدنية عند الجمهور، كان نزولها بعد وقْعة أحد.

وعدد آياتها أربع عشرة آية باتفاق أهل العدد.

وهي مئتان وإحدى وعشرون كلمة، وتسع مئة حرف.

وتُسمَّى سورة الصف، لوقوع لفظ ﴿صَفًّا﴾ فيها، وهي التسمية المشتهرة من عهد النبوة، وذكر السيوطي والألوسي أنها تسمى أيضاً (سورة الحواريين)، لذكر لفظ الحواريين فيها. فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الحواريين بالمدينة.

ومما ورد في سبب النزول أن عبد الله بن سلام ﷺ قال: قعدْنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرْنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله سورة الصف، قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ[(١)].

ومن ذلك ما جاء عن مقاتل: أن المؤمنين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه، ولبذلْنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى

(١) سنن الترمذي برقم (٣٣٠٩)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٣٦)، وبنحوه في المسند (٥/٤٥٢) برقم (٢٣٧٨٨،٢٣٧٨٩) وهو إسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، والحاكم في المستدرك (٢/٤٨٦) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والدارمي في سننه (٢/٢٠٠) برقم (٢٣٩٠)، قال ابن حجر في الفتح (٨/٤١٩): وإسناده صحيح، وأخرجه ابن حبان برقم (١٥٨٩)، والبيهقي في الشعب برقم (٣٩٠٧)، والسنن (٩/١٥٩).

سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ الآية: ٤ وأنزل ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الآية: ١٠.

ولما ابتلاهم الله بيوم أُحُد وَلَّوْا مدبرين، وكرهُوا الموت، وأحبّوا الحياة، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾[1] الآيتان: ٢، ٣.

وقد نزل الأمر بالجهاد في سور أخرى قبل نزوله في هذه السورة.

ويكاد يكون موضوع السورة، هو الجهاد في سبيل الله، فهو الذي تدُور حوله أسباب النزول.

وقد بدأت السورة بتنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله، ثم حذرت المؤمنين من خُلْف الوعد، وعدم مطابقة الأقوال للأفعال.

وبعد أن ذكرت السورة جانباً مما قاله موسى ﷺ لقومه، وما قاله عيسى ﷺ لقومه، أتبعتْ ذلك ببيان ما جُبل عليه الكافرون من تكذيبٍ للحق، ومن كراهية لظهور نور الإيمان.

وقد استهدفت السورة أمرين هامين:

الأمر الأول: من أول السورة إلى الآية التاسعة، وفي هذا المقطع إشارة إلى المنهج الإلهي للبشر الذي جاءت به الرسالات الثلاث الرئيسة: اليهودية والنصرانية والإسلام.

أما اليهود فقد آذوا موسى عليه السلام وأتعبوه، وفقدوا الشجاعة في مقاتلة عدوّه، وضيّعوا كتاب الله تعالى الذي نزل عليهم..

أما عيسى عليه السلام فهو صاحب رسالة محدودة الزمان والمكان، وقد أرسله الله تعالى ليمهِّد للرسالة العامة التي تهدي البشر كلهم إلى توحيد الله تعالى، وكان لولادة عيسى عليه السلام على نحو فريد من نوعه، سبب في انتشار رسالته في طول الأرض وعرضها.

وقد انتهت هذه الخطوات إلى استقرار دين الله تعالى في أرضه على يد رسوله الأخير ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ ﴾ الآية: ٩.

أما الأمر الآخر، فهو من الآية العاشرة إلى نهاية السورة، وهو مقطع يتكلم عن القوة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤٤٥/١٤).

التي لابد منها لمساندة الحق ودعمه، فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة.

وقد حفلت السورة بآيات الجهاد في سبيل الله لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وعَدَّتْ ذلك بعد الإيمان بالله ورسوله، هو التجارة الرابحة التي يتحقق بها سعادة المرء في الدنيا والآخرة، وعلى المجاهدين في سبيل الله أن يكونوا يداً واحدة، وصفاً واحداً، ضد عدو الله وعدوهم، وأن يقتدُوا في بذل النفس والنفيس، لنُصْرة دين الله تعالى، بالحواريين في نُصْرتهم لنبي الله عيسى عليه السلام.

وقد شرع الإسلام الجهاد لتأمين نشر الدعوة، ولمنع الحيلولة بين الناس وبين ظهور دين الإسلام على الديانات التي سبقته ومهّدتْ له في أطوارٍ من تاريخ البشرية، ولإقامة منهج الله تعالى في أرضه إلى قيام الساعة، بعد أن انحرف أتباع الرسالات السابقة عن توحيد الله تعالى وزاغت قلوبهم عن الحق..

ولذا: فقد ذكرت السورة مَثَلَيْن على ذلك هما رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام، وكانت رسالة عيسى، امتداداً لرسالة موسى عليهما السلام، وقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله، لمّا زاغوا وانحرفوا وضلّوا عن سبيله، ولم يعودوا أمناء على شرع الله تعالى.

وقد جاء عيسى عليه السلام ليصل بين الدين الكتابيّ الأول، والدين الكتابيّ الأخير، فيمهِّد للرسالة الأخيرة ويبشر بها، ويُسلِّم أمانة الوحي الإلهي التي حملها موسى وعيسى عليهما السلام إلى الرسول الذي بشَّر به، وهو محمد ﷺ.

وقد خُتمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرة دين الرحمن، كما فعل الحواريون مع عيسى عليه السلام حين دعاهم إلى نصرة دين الله، فاستجابوا له ونصروا دينه..

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

التَّسْبِيحُ بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى عَلَى أَمْرِهِ بِجِهَادِ الْعَدُوِّ

١ - ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾

افتتحت سورة الصف بما افتتحت به سورتا الحديد والحشر ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أي نزّه الله تعالى ومجّده وقدّسه عن كل ما لا يليق بجلاله، كل ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من ملَك وإنسان ونبات وجماد، فجميع المخلوقات شهدت له بالوحدانية والربوبية، وبأنه صاحب العزة والحكمة، متصف بكل صفات الجلال والكمال ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه غالب ولا يقهره قاهر، وجميع ما في الكون خاضع لعزته وسلطانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل أقواله وأفعاله، فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

وهذا بيان لعظمته تعالى، وأن جميع ما في الكون ومن في الكون يسبح بحمد الله تعالى ويعبده ويسأله حوائجه.

ومن حكمته تعالى أن الكافرين يستحقون القتال، لأنهم شذُّوا عن مخلوقات الله تعالى، فلم يسبّحوا بحمده، ولم يصفُوه بصفات الكمال، وإنما جعلوا له شركاء في وحدانيته.

فكان هذا مناسبة افتتاح السورة بهذه الآية، لبيان أن الله تعالى لم يأمر بجهاد العَدُوِّ عبثاً، وأنه تعالى هو الغالب لعدوّه، فلا ترهَبُوا - أيها المسلمون - أعداء الله، ولا تفرُّوا منهم عند اللقاء.

وفي الآية تعريض بأن الذين أخلفوا الله ما وعدُوه، لم يُؤدُّوا حق تسبيح الله عليهم، لأنه سبحانه هو المستحق أن يُوَفَّى بعهده، وفيها إرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل وقت.

ذَمُّ مُخَالَفَةِ الْقَوْلِ لِلْعَمَلِ

٢، ٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ[1] تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ

---

(١) وقف البزي ويعقوب على ﴿لِمَ﴾ بهاء السكت بخلف عنهما، والباقون بدونها، ومعهم البزي ويعقوب في الوجه الآخر.

﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾

ثم أنكر سبحانه وتعالى على من يقول قولاً، أو يَعِدُ وعْداً ثم لا يفي به، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يا من آمنتم بالله والرسول حق الإيمان، ناداهم سبحانه بوصف الإيمان، لأن من شأن الإيمان أن يكون وازعاً للعبد من مخالفة القول للعمل، والمنافقون عكس ذلك، فيا من صدقتم بالله، واتبعتم هذي رسوله ﷺ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ لِمَ تَعدُون وعْداً، أو تقولون قولاً، ولا توفُون به؟ لِمَ تقولون الخير وتحثون غيركم عليه ولا تفعلونه؟ لم تنهون غيركم عن الشر وأنتم ملوثون به؟ فهل يليق بالمؤمنين أن يكونوا بهذه الحالة الذميمة؟ إن هذا من أكبر المقت عند الله.

وفي هذا تعريض بالمنافقين الذين يُظهرون الإيمان بأقوالهم، ولا يعملون أعمال أهل الإيمان بالقلب ولا بالجوارح.

قال ابن زيد: نزلت في المنافقين، لأن جملةً منهم، كانوا يقولون للمؤمنين: نحن منكم ومعكم، ثم يَظْهَرُ من أفعالهم خلاف ذلك، فنزلت الآية عتاباً لهم، وحكمها عام في كل زمان ومكان.

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وَعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[1].

وفي الحديث الآخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه واحدة منهن، كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها ...**» وذكر منها «**إخلاف الوعد**»[2].

وخلف الوعد لا يجوز حتى مع الصبيان ولا مع الدواب:

ومن ذلك ما ورد عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ؓ قال: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا،

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٣)، وصحيح مسلم برقم (٥٩).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٤)، وصحيح مسلم برقم (٥٨).

وأنا صبي، قال: فذهبتُ لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله: تعال أُعْطك، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردتِ أن تعطيه؟» قالت: تمرا، فقال: «أما إنك لو لم تفعلي، كُتبتْ عليكِ كِذْبة»[(١)].

ولهذا فإن أحد رجال الحديث امتنع عن أخذ الرواية من رجل سافر إليه مسافات شاسعة ليأخذ عنه حديثاً، يُعضدّ بها الروايات الأخرى للحديث، فلما وجد الرجل يضُمُّ حِجْرهُ، يُوهم بغْلته أن به طعاماً لها، وهو فارغ، فدلّس عليها حتى أمسكها، فلما رأى ذلك، رجع من حيث أتى، دون أن يسأله في شيء، مادام قد كذب على بغلته!

والذي عليه جمهور أهل العلم أنه يجب الوفاء بالوعد سواء ترتب عليه، غُرم للموعود أم لا[(٢)].

في سبب النزول:

وهذه الآية كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ: أن ناساً من المؤمنين سألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى ليعملوا به، فلما نزل الجهاد كرهوه وشق عليهم[(٣)].

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في نفر من الأنصار، منهم عبد الله بن رواحة، قالوا في مجلس لهم: لو نعلم أيّ عمل أحب إلى الله تعالى لعملناه حتى نموت، فأنزل الله هذا فيهم، فقال ابن رواحة: لا أبرح حبيساً في سبيل الله حتى أموت، فقُتل شهيداً[(٤)].

ثم صرح سبحانه بالمعنى المراد، وشدد النكير على من يخالف قولُه فعلَه فقال:

---

(١) المسند (٣/٤٤٧) برقم (١٥٧٠٢)، قال محققوه: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لإبهام مولى عبدالله بن عامر، وبقية رجاله رجال الشيخين، غير محمد بن عجلان، فقد أخرج له مسلم متابعة، وهو في سنن أبي داود برقم (٤٩٩١)، والبيهقي في السنن (١٠/ ١٩٨)، وفي الشعب (٤٨٢٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/١٠٥).

(٣) تفسير الطبري (٢٨/٥٦).

(٤) ابن عساكر (٢٨/٩٠).

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ أي عظم بُغضاً وإثماً ﴿عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟﴾ بألسنتكم ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ بأعمالكم.

والمقت: أشد الغضب، ومنه نكاح المقت، وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء:٢٢].

قيل لبعض السلف: حدّثنا، فقال: أتأمرونني أن أقول ما لا أفعل، فأستعجل مقت الله[1].

وقد ذم الله تعالى الذين يقولون ما لا يفعلون هنا، وفي قوله تعالى عن بني إسرائيل ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤].

وفي قول شعيب عليه السلام إلى قومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨].

الثَّبَاتُ فِي مُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ

٤- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾

بيّن جل شأنه في هذه الآية الوعد، الذي أخلفه من سألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، وذلك أنهم لما ذكروا أن الجهاد يشق عليهم، أنكر الله عليهم ذلك، وأثنى على المجاهدين الصادقين، الذين يثبتُون في مواجهة عدوّهم ثباتاً لا يضطربُ ولا يتزلزل، وأكد سبحانه محبته للمقاتلين في سبيله، ومحبة الله تعالى تَظْهَر على عباده في نَصْره لهم وكرامته إياهم.

والجهاد ذروة سنام الإسلام، وهو أعلى ما يحبه الله تعالى من عباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ أي أن الله تعالى يحب المجاهدين الذين يَصُفّون أنفسهم عند القتال صفاً واحداً، ويثبتُون في أماكنهم عند لقاء العدو، فيكون

---

(١) من تفسير النسفي للآية.

أمرهم واحدا، وكلمتهم واحدة، يوالي بعضهم بعضا ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ قد رُصّ بعضه ببعض، وأُلْصَق بعضه ببعض، حتى صار شيئاً واحداً، فيثبُت كل منهم في جهاده، ويلزم مكانه وموقعه الذي تتطلبه ظروف المعركة، كثبوت البناء ولزومه.

وفي هذه الآية حث من الله تعالى لعباده على الجهاد في سبيله، وتعليم لهم كيف يثبتون ويصفُّون في مواجهة العدو حتى يحصل لهم المراد، فيفوزوا بنصر الله عز وجل، وقد نزلت هذه الآية جواباً لمن سألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، فكان الجواب هو الجهاد في سبيله.

كلمات في الجهاد:

وهذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين، كيف يكونون عند قتال عدوهم قوة واحدة، وكلمة واحدة، وقد كان النبي ﷺ يحدّد مواقع الجيش وتقسيماته، من الميمنة والميسرة والأجنحة، والألوية، كما وضع الرماة في غزوة أُحد لحماية ظهر الجيش، حتى لا يلْتفّ العدوّ به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران:١٢١].

وفي غزوة بدر أخذ ﷺ يرُصّ الصفوف ويسوّيها بقضيب في يده، وقد غيَّر موقع الجيش من مكان إلى مكان نزولاً على رأي أحد أفراد الجيش (الحباب بن المنذر) لأنه الأصلح، وفي الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**»[(١)].

وفي سورة الأنفال بيّن سبحانه أن من أهم عوامل النصر على العدو ستة أمور هي: الثبات عند اللقاء، وذكر الله تعالى، والطاعة، والامتثال، وعدم التنازع وعدم الاختلاف، والصبر والمجالدة، وعدم الإعجاب بالنفس، فالمجاهدون يحملون على العدو حملة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٥)، وابن أبي شيبة (١١/ ٢١)، وأحمد في المسند (١٩٢٤) بإسناد صحيح، وانظر: البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦)، والطبراني في مكارم الأخلاق (٨٩).

رجل واحد، وفي هذا يقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥-٤٧].

ويقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنفال:١٥،١٦].

وقد ذم الله تعالى من يتمنى الجهاد، فإذا دُعي إليه تكاسل وتخاذل، وذلك في كثير من آياته، منها قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾ [محمد:٢٠].

وقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب:١٩].

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ ﴾ [النساء:٧٧].

ولقد ذم الله تعالى الذين يُعطون العهود على الثبات وعدم الفرار أمام العدو، فإذا حدث القتال لم يوفوا بما عاهدوا الله عليه ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحزاب:١٥].

وفي مقابل ذلك فإن الله تعالى امتدح المؤمنين الصادقين في إيمانهم والوفاء بعهودهم فقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٣].

وفي حديث أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال «**ثلاثة يحبهم الله تعالى: وذكر منهم رجلاً غزا في سبيل الله، خرج محتسباً مجاهداً، فلقى العدوّ فقُتل**»، قال ﷺ: وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ الحديث[1].

---

(١) في سنن الترمذي برقم (٢٥٦٨) وقال: هذا حديث صحيح، وفي سنن النسائي الكبرى (١٣١٦)، وانظر: المسند (٢١٣٥٥)، وهو حديث صحيح، وأخرجه الترمذي (٢٥٦٨) وصححه، وابن خزيمة (٢٤٥٦)، والحاكم (١/ ٤١٦)، وابن حبان (٣٣٤٩) بألفاظ متقاربة.

قال قتادة في معنى الآية: ألم تروْا إلى صاحب البناء، كيف لا يحب أن يختلف أمره، وإن الله صف المسلمين في قتالهم وصفَّهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله، فإنه عصمة لمن أخذ به"[1].

وعن البراء بن عازب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة يمسح مناكبنا وصُدورنا ويقول: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم، إن الله وملائكته يصلّون على الصفوف الأُول، وَصَلُوا المناكب بالمناكب، والأقدام بالأقدام، إن الله يحب في الصلاة ما يحب في القتال** ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾»[2].

وفي هذه الآيات الثلاث: نرى – **أوّلاً** – أن السورة تحدثت في أولها عن لحظات الضعف البشري الطارىء على نفس المؤمن، ليعْلَم أنه لابد له من تعاهد النفس بتقوى الله تعالى، لتقْوى على مواجهة الصعاب.

ونرى – **ثانياً** – إغراء الله تعالى لعبده المقاتل في سبيله، بأنه فاز بحب الله تعالى له، وهو غاية ما يتمنى المؤمن.

ونرى – **ثالثاً** – أن الله تعالى يأمر الفرد في صورة جماعة أن يقاتلوا في سبيله صفا واحدا كالبنيان المرصوص.

وبين سبحانه جزاء من وفّى بعهده الذي قطعه على نفسه في شأن الجهاد وغيره، فاستوجب الثناء من الله تعالى والأجر الجزيل، كما بين جزاء من لم يف بعهده ووعده. فقال تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب:٢٤].

وكما مدح الله المؤمنين في قتالهم للعدو، وشبّههم في وحدتهم وقوتهم بالبنيان المرصوص، فقد ذم اليهود على عدم ثبات قلوبهم وتفرقها عند القتال فقال تعالى:

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر كما في الدر المنثور (١٤/٤٤٦).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٦١٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٦١٨)، وانظر سنن ابن ماجة (٩٩٧) والنسائي في الكبرى (٨٨٧)، وانظر المسند (١٨٥١٦) وهو حديث صحيح (محققوه)، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦١١)، وابن حبان (٢١٥٧).

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤].

هذه هي القاعدة العامة بالنسبة للمسلمين في قتالهم اليهود، فإن حدَث خلاف ذلك في بعض فترات التاريخ، فهو عرَض سيزول، لأنه مخالف للقاعدة.

وحماية الحق، ونُصرة الدين، يتطلبان الصدق والجد، ولا يصلح لهذا، من كان حريصاً على الحياة، غارقاً في النزوات والشهوات، جباناً، متخاذلاً، إذا دنت ساعة الجهاد وحَمِي الوطيس، دارتْ عينه، ولفّت رأسه، كالذي يخاف الموت.

فأصحاب الأهواء، والمبادىء الهدامة، لا يقهرهم إلا المؤمنون، الذين يستميتون في نصرة الحق، ويبذُلون في سبيله النفس والمال، ويتراصّون في مواجهة العدوّ، كلما استشهد بطل حلّ مكانه بطل آخر.

وفي الآية بيان فضل الجهاد والمجاهدين، وتقرير محبة الله تعالى لعباده المؤمنين إذا كانوا قوة واحدة، ويداً واحدة في مواجهة أعداء الله تعالى، يقاتلونهم في سبيله، فإما النصر وإما الشهادة ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ أي يستشهد أو ينتصر،ولا ثالث لهما ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

تَوْبِيخُ الْيَهُودِ عَلَى إِيذَائِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ وَخُذْلَانِهِمْ لَهُ

٥- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾

وبّخ الله تعالى في هذه الآية، اليهود الذين آذوْا موسى عليه السلام وأتْعبوه، وفقدوا الشجاعة في مواجهة العدو، وأصابهم الجزع والخَور، فخذلوا نبيّهم، وخرجوا عن تعاليم كتابه، ولم يُطيعوا رسولهم فيما ندبهم إليه من دخول الأرض المقدسة لقتال العماليق، فاستخفوا به وقالوا له ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤] فحذّر الله أمة محمد ﷺ أن يخذُلوا نبيهم مثلهم، ولا يطيعوه كما فعل اليهود

مع نبيهم موسى عليه السلام، ومن حق الرسول أن يطاع، ويمتثل أمره، ويعظم شأنه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي اذكر – أيها الرسول - لقومك قصة عبده وكليمه (موسى بن عمران) سليل خليل الرحمن: إبراهيم عليه السلام، من أولي العزم من الرسل، أرسله الله إلى بني إسرائيل، وإلى فرعون وقومه، اذكُر حين قال لهم ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ والإيذاء المناسب لسياق الآيات: هو خُذْلانهم لنبيهم عن الخروج معه لقتال عدوهم، واستخفافهم به، لَمَّا قالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا، ونحن هنا جالسون ننتظر النتيجة! كما جاء ذلك مفصلاً في سورة المائدة.

صور أخرى من إيذاء قوم موسى له:

وهناك ألوان أخرى كثيرة من إيذائهم له:

منها: أنهم وصفوه بأنه ساحر، وأنه مَهين ولا يكاد يبين.

ومنها: أنه لما دعاهم إلى طاعته والاستجابة لدعوته قالوا له ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء:٤٦].

ومنها: أنهم قالوا عنه: إنه مصاب بمرض في جسده، إما بآفة، أو برص، أو تضخُّم في الخصية، وهذا اللون من الإيذاء، هو الذي قال الله تعالى عنه في سورة الأحزاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

وكانت هذه التبرئة كما جاء في صحيح البخاري وغيره: أن موسى عليه السلام قد خلع ثيابه يوماً ولم يكن حوله أحد، فوضع ثيابه على حَجَر واغتسل، فلما فرغ من غسله، وجد أن الحجَر قد أخذ ثيابه وذهب بعيداً عنه، فأخذ يبحث عنه، حتى وجدهُ في مكان، رآهُ فيه ملأ من بني إسرائيل عُرياناً، أحسن ما خلق الله عز وجل، فبرّأه الله من قولهم، وفي هذا وغيره يقول النبي ﷺ: «**رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[(١)]. أي أن موسى عليه السلام قد أوذي أكثر من إيذاء المشركين للنبي ﷺ فصبر.

---

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في البخاري برقم (٣٤٠٥)، ومسلم برقم (١٠٦٢).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

فلعنة الله وغضبه على كل من يسخر أو يستهزئ بالنبي ﷺ في صورة من الصور، سواء في الأفلام كما فعل اليهود، أو بالرسومات الساخرة كما فعل أهل الدنمارك وغيرهم، أو بالهمز واللمز بالنسبة لزوجات النبي ﷺ فضلاً عن سب بعضهن أو اتهامهن بما لا يليق برعاع البشر، بلْه أهل بيت النبوة!!

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة:٦١] أي يسمع لكل شيء.

وقال جل شأنه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٦١].

وقد حدث للنبي ﷺ من الإيذاء المذكور في الآية كما حدث لموسى ﷺ وأكثر منه.

ومن ذلك أنه ﷺ لما رجع عبد الله بن أُبَيّ بثُلث الجيش يوم أحد، وخالف الرماة أمر نبيهم، ففارقوا موقعهم طلباً للغنيمة، فكان الدرس القاسي، وكسرت رباعيته ﷺ وشُج وجهه الكريم في هذه الغزوة.

وقد جمع الله تعالى إيذاء الكفار لرسول الله ﷺ وإيذاء قوم موسى ﷺ له في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء:١٥٣].

فكفار قريش طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم آية، وقوم موسى ﷺ طلبوا منه أن يريهم الله جهرة.

إيذاء قوم موسى له في رسالته:

وأكثر ما يدل عليه أذى قوم موسى له في هذه السورة، يتعلق بخصوص الرسالة، فهو ليس أذىً في شخصه، وكأن موسى ﷺ يقول لقومه: يا قوم لم تفعلون ما يؤذيني، وأنتم تعلمون قطعاً من المعجزات الباهرات، أني رسول الله إليكم، وأني صادق تمام الصدق فيما أخبرتكم به من عند الله سبحانه.

ذلكم قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ أي: ومع هذا العلم اليقيني بصدق رسالتي إليكم، فقد خالفْتم ما جئتكم به، ومِلْتُم عن طريق الحق، فتمكَّن الزيغ من قلوبكم ولم تنفكُّوا عن الضلال ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: عدلوا عن الحق مع علمهم به، وانحرفوا عن طريق الهدى، وأصرُّوا على ذلك ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أي صرف الله قلوبهم عن قبول الهداية، فأصبحت المواعظ لا تؤثِّر فيها، عقوبة لهم على زيغهم الذي اختارُوه لأنفسهم، حين آثروا الباطل على الحق، والضلالة عن الهدى ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر:١٩].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥].

وهكذا فإن الكفر والتكذيب شؤم وهلاك يؤدي إلى شقاء صاحبه:

١ - كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ [البقرة:١٠].

٢ - وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ [الإسراء:٤٦].

٣ - وقال جل شأنه: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:١٠١].

٤ - وقال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠].

٥ - وقال أيضاً: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

والعكس صحيح، فإن الإيمان يزيد القلب إيماناً وهدى قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن:١١].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾﴾ [محمد:١٧].

ولذلك فإن المؤمن يحرص على هذا الدعاء ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران:٨].

والله تعالى لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق خارج عن طاعته وهدايته.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وهم الذين اختاروا طريق الشقاء، وخرجوا عن طاعة الله والرسول، وخرجوا عن منهاج الحق والنور.

قال الفخر الرازي: وفي هذا تنبيه على عظم إيذاء الرسل، حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى[1].

وهذه الآية تفيد أن إضلال الله للعباد، سببه أنهم أغلقوا على أنفسهم طريق الهداية بعد أن عرفوه، فهم الذين اختاروا الزيغ، فلما زاغوا بأنفسهم أزاغ الله قلوبهم، فختم عليها بعدم قبول الهدي، عقوبة لهم وعدلاً منه بهم، لقد ملؤوا قلوبهم بالفسق، فطبع الله على هذه القلوب، فهم الذين ضلوا أنفسهم وظلموها. وكان ذلك مطابقاً لعلم الله عنهم قبل وجودهم في هذه الحياة.

رِسَالَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَرْبُطُ مَا بَيْنَ مُوْسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

٦ - ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي[2] ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ[3] مُّبِينٞ ۝٦﴾

ثم تمّم الله تعالى مثَل موسى مع قومه، بمثَل آخر لقوم منهم، خرجوا عن طاعة رسولهم، وهم قوم عيسى عليه السلام، فبيّنت الآية أن عيسى ﷺ صاحب رسالة محدودة الزمان والمكان، فهو مبعوث إلى خِرَاف بني إسرائيل الضالة، وهو يربط رسالته بالتوراة التي تمرّدوا عليها، ويعالج أمراضهم النفسية والاجتماعية، ويُمهّد لنبوة عامة تَهْدي البشر كلهم إلى وحدانية الله تعالى.

وبنو إسرائيل، كان يُطلق عليهم في عهد موسى ﷺ أنهم (قوم موسى) وقد اشتهروا

---

(١) التفسير الكبير (٣١٣/٢٩).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وشعبة وأبوجعفر ويعقوب بفتح ياء الإضافة من ﴿بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ﴾ والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (ساحر) اسم فاعل والباقون ﴿سِحۡرٞ﴾ مصدر.

بعد موسى ببني إسرائيل، ولذلك فإن موسى ﷺ في الآية السابقة خاطب أمته بقوله ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ وعيسى خاطبهم في هذه الآية بقوله ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وقد أُرسل عيسى عليه السلام لتأييد شريعة موسى عليه السلام، وتغيير بعض أحكام التوراة تخفيفاً عن بني إسرائيل، وعيسى عليه السلام يقول لبني إسرائيل: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾ لست إلهاً، ولا ابناً للإله، ولا أقنوماً من أقانيم الإله، وإنما أنا عبد الله ورسوله، وقد بشرت بي التوراة، فأنا مصدق لما أخبرتْ به، وفي الوقت نفسه، فأنا مبشر بالرسول النبي الأمي العربي المكي، الذي يأتي من بعدي.

تصديق عيسى لرسالة موسى عليهما السلام:

فاذكر يا رسولنا لقومك وقت أن قال عيسى ابن مريم لسلالة أبناء يعقوب عليه السلام: إني عبد الله ورسوله إليكم لأُخرِجكم من ظلمات الكفر والشرك إلى نور التوحيد والإيمان، وأنا حلْقة اتصال بين صاحب الشريعة السابقة، فأُصدقها وأعمل بما فيها، وبين صاحب الرسالة الخاتمة، فأبشّر بها بوصْفي آخر رسول قبله، فأنا رسول الله إليكم ﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي جئتُ بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية مُقرّاً ومعترفاً بأحكام التوراة، وبكتُب الله جميعاً التي نزلت على رسل الله قبلي، وأنا لن آتيكم بشيء يخالف ما فيها حتى تنفروا عني، ولو كنتُ مدّعياً النبوة لَجئتُ بغير ما جاءت به الأنبياء.

وكان قوم موسى يعتقدون أن أحكام التوراة لا تُنسخ، فهم متمسكون بها، ولذا: فقد ابتدأ عيسى دعوته إليهم باستمالتهم لتقريب إجابتهم.

ولم تزد دعوة عيسى عن دعوة سلفه موسى عليهما السلام إلا بما قاله لهم ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [آل عمران:٥٠] ولم يأمر الله عيسى في أول الدعوة بنسخ بعض أحكام التوراة.

وهكذا شأن التشريع في الأمم، كما في حديث عائشة رضي الله عنها في البخاري

أنها قالت: (إنما أُنزل أول ما أُنزل منه - أي القرآن - سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو أُنزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نترك الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنى أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده)[١].

فتصديق ما جاء به موسى عليه السلام هو المهمة الأولى من رسالة عيسى عليه السلام.

الإعلام المبكر بالرسالة الأخيرة:

أما المهمة الأخرى لرسالة عيسى عليه السلام، فقد جاءت في قوله تعالى على لسانه عليه السلام ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ أي فأنا شاهد بصدق رسول يأتي من بعدي هو محمد ﷺ فقد جئتُ لأبشر العالم بمقْدَمه، وأدعو الناس إلى التصديق به، وكل نبي قد بشَّر قومه بالرسول الخاتم، فعيسى عليه السلام كسائر الأنبياء، أرسله الله ليصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق.

وإنما أُفرد عيسى عليه السلام بالبشارة في هذا الموضع، لأنه آخر نبي قبل محمد ﷺ وليبيّن أن البشارة عمت جميع الأنبياء واحداً واحداً، حتى انتهت إلى عيسى آخر أنبياء بني إسرائيل.

ومن جهة أخرى فإن بني إسرائيل كانوا يترقبون دائماً من يخلّصهم من براثن المتسلطين عليهم، وقد وعدَهم أنبياء الله بعد موسى عليه السلام بهذا المخلِّص، فجاء عيسى عليه السلام ليُفاتحهم في أول دعوته بأن من أول اهتماماته: الاعتناء بوصية موسى والأنبياء بعده، فنبّههم على أنه ليس هو المخلِّص الموعود به، وإنما الذي يخلِّصهم مِنْ تسلُّط الجبارين عليهم هو الرسول الخاتم الذي يأتي بعده، ويحكُم بشرع الله فيهم الذي جاء به محمد ﷺ إلى قيام الساعة، وهذا لمن آمن به واتبعه.

(١) يُنظر: صحيح البخاري (٤٩٩٣، ٤٨٧٦).

وقد صرّح القرآن الكريم بالتعريف بمحمد ﷺ وأصحابه، وذِكْر أوصافهم في التوراة والإنجيل معاً في آية واحدة، هي قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ وهم أصحابه رضوان الله تعالى عليهم، فوصفهم في التوراة: بالشدة على الكفار والرحمة فيما بينهم، وكثرة الركوع والسجود، وتحرِّيهم فضْلَ الله تعالى ورضوانه، ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ﴾.

ثم وصفهم في الإنجيل بزرع ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح:٢٩].

فهذا إثباتٌ لرسالة محمد ﷺ في الكتابين معاً.

وقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين، بالإيمان بصاحب الرسالة الأخيرة، والإقرار بذلك، وإبلاغه إلى أممهم، فشهدوا بذلك، وشهد الله تعالى على شهادتهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

وفي هذه الآية التي نحن بصددها: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى﴾ إعداد مبكّر للبشر، بقبول هذه الرسالة الأخيرة، الموعود بها على لسان كل رسول، وقد جاءت أوصاف محمد ﷺ وعلاماته في كتبهم، وبهذا كانت دعوة خليل الرحمن ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩].

عن العرباض بن سارية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجَدِلٌ في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْن**»[1].

---

(١) المسند (١٢٧/٤) وفيه سعيد بن سويد، لم يوثقه غير ابن حبان، وقد ورد هذا الحديث من طرق أخرى، منها أيضاً: المسند (١٧١٥١)، ومن طريق خالد بن معدان، وهو من خيار التابعين عند الحاكم في المستدرك (٦٠٠/٢) وقال محققو المسند (١٧١٥٠، ١٧١٦٣): صحيح لغيره، وأخرجه الطبري في التفسير (٢٠٧١)، والبيهقي في الدلائل (١/ ٨٣).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد، لئن بعثه وهو حيّ ليتبعَنَّه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته: لئن بُعث محمد وهم أحياء، لَيتبعُنّه وينصرنه[(١)].

وقد وصف الله تعالى بعض صفات محمد ﷺ لنبيه موسى عليه السلام في ثنايا إجابة دعائه: حيث قال تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٦،١٥٧].

ولم تزل جميع الأنبياء تنعتُه ﷺ وتذكُره لأممها، وتأمرهم باتباعه ونَصْره، ومؤازرته عندما يُبعث.

وقد اشتهر ذلك واستفاض على ألسنة رسل الله جميعاً:

١ - وجاء مصداق ذلك في قصة النجاشي حين هاجر إلى أرضه نحو ثمانين رجلاً من الصحابة، فأرسلتْ قريش على أثَرهم وفداً ليأتي بهم، ووقف الطرفان أمام النجاشي، فسجد له وفد قريش، ولم يسجد وفد النبي ﷺ ولما سُئلوا عن ذلك، قال جعفر بن أبي طالب متحدثاً عن الوفد: إنّا لا نسجد إلا لله عز وجل، قال النجاشي: وما ذاك؟ قال جعفر: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة..

ثم قال عمرو بن العاص ﷺ للنجاشي متحدثاً عن وفد قريش: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم.

قال النجاشي: فما تقولون فيه؟ قالوا: نقول كما قال الله عز وجل: هو كلمة الله، وروحه ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسّها بشر، فرفع النجاشي عوداً من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسّيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجده في

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/١١٠).

الإنجيل، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من المُلْك، لأتيتُه حتى أكون أنا، أَحْمِل نعليه وأُوَضِّئُه، وأَمر بهدايا وفد قريش فرُدّت إليهم[1].

٢ - ولما أرسل النبي ﷺ كتابه إلى النجاشي مع عمرو بن أمية الضمري، يدعوه إلى الإسلام، ردّ قائلا: (أشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً، وقد بايعتُك، وبايعتُ ابن عمك، وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين)[2].

٣ - أما المقوقس عظيم مصر، فإنه كان نصرانياً أيضاً، ولم يُسْلم، ولكنه أقر في ردّه على النبي ﷺ أنه يعلم أن نبياً قد بقي، وأرسل له جاريتين: مارية، وسيرين، وبغلة، وكسوة، وقد اتخذ النبي ﷺ مارية فولدتْ له إبراهيم، وأعطى حسان بن ثابت سيرين[3].

٤ - وكان الجارُود ابن العلاء، سيد عبد القيس، نصرانياً، فقدم على النبي ﷺ في عام الوفود مسلماً، وكان مما قال للنبي ﷺ: والله لقد جئتَ بالحق، ونطقتَ بالصدق، والذي بعثك بالحق نبياً، لقد وجدتُ وصْفك في الإنجيل، وبشّر بك ابن البتول[4].

بشرى الأناجيل برسالة محمد ﷺ:

وعن كعب الأحبار: أن الحواريين قالوا لعيسى ﷺ: يا روح الله، هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم، يأتي بعدكم أمة حكماء علماء أبراراً أتقياء، كأنهم في الفقه أنبياء، يَرضوْن من

---

(١) ينظر: المسند (٤٦١/١) برقم (٤٤٠٠) عن ابن مسعود، وقد ضعّف إسناده محققوه، وحسّنه الحافظ في الفتح (٧/ ٨٩) وجوّده ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٦٩)، وتضعيفه لأن فيه خديج بن معاوية متكلم فيه، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٣٤٦)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٩٨)، وهو خبر مستفيض مشتهر.

(٢) فتح الباري (١١٦/٣)، في الأحاديث (٣٨٧٧-٣٨٨١)، وصحيح مسلم في كتاب الجنائز (٢١/٧)، والسيرة النبوية لابن هشام (٣٣٣/١)، وفي الرحيق المختوم (ص ٣٥٢).

(٣) الإصابة (٢١٦/١)، والاستيعاب (٢٤٧/١)، وينظر: الرحيق المختوم (ص ٣٥٤).

(٤) فتح الباري (١٢٩/١) حديث ٥٣، وصحيح مسلم (١٧٩/١)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢٧٥/٢)، وانظر: تهذيب سيرة ابن هشام (ص ٢٤٣).

الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل[١] .

فبشارة عيسى بمحمد عليهما السلام ثابتة ثبوتاً قطعياً، وعندما ننظر في الكتب التي ألّفها تلاميذ عيسى من بعده والتي سميت بالأناجيل، نجد أن بعض هذه الأناجيل قد خلَت من هذه البشارة، بسبب ما اعتراها من تحريف وتبديل، على أيدي علماء أهل الكتاب، وبعضها الآخر قد تضمن ذلك تصريحاً أو تلْميحاً:

١- ففي إنجيل متّى في الإصحاح الرابع والعشرين يقول عيسى عليه السلام: ولكن الذي يصير إلى المنتهى، فهذا يخلّص ويكرز - أي يدعو- ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة، شهادة لجميع الأمم، ثم يكون المنتهى.

والذي يدعو الملكوت - أي العالم كله - في أرجاء المسكونة - أي المعمورة - فيفرض دعوته على العالم أجمع، وتبقى رسالته حتى ينتهي العالم، هو محمد ﷺ.

٢- وجاء في إنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع عشر: (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب «الله» فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد).

والفارقليط: كلمة رومية، تعني النبي المبشَّر به، رسول الرحمة والحق الذي يدفع الأحزان ويخلّص من المصائب.

ثم قال: (وأما الفارقليط الروح القدس، الذي سيُرسله الأب «الله» باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم).

٣- وفيه أيضاً: (والكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل الذي أرسلني، وبهذا كلمتكم، وأنا عندكم).

أي أن هذه المعلومات هي من عند الله تعالى، وليست من عندي، وقد كلم عيسى الناس بهذا وهو في الدنيا.

---

(١) تفسير الخازن (٤/٢٦٢).

٤- وفي الإصحاح الخامس عشر في إنجيل يوحنا: (ومتى جاء الفارقليط الذي سأرسله أنا إليكم من الأب «الله» روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي).

٥- وفي سفر التثنية في الباب الثالث والثلاثين: (جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبل فاران).

ومجيء الرب من سيناء، يعني إعطاءه موسى التوراة، وإشراقه من ساعير يعني إعطاء عيسى الإنجيل، وساعير: اسم لجبال فلسطين، واسم لقرية من قرى الناصرة بين طبرية وعكا، وفاران اسم لجبال مكة، واستعلاؤه منها يعني نزوله القرآن على محمد ﷺ.

٦- وفي إنجيل يوحنا، الإصحاح السادس عشر: ... لكن أقول لكم الحق، إنه لكم أن أَنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى، ولكن إن ذهبتُ أرسله إليكم.

ولفظ (المغزى) معناه: خاتم الأنبياء.

فرية صَلْب عيسى عليه السلام (من إنجيل برنابا):

٧- ومن أعظم البشارات التي فيها التصريح باسم النبي محمد ﷺ ما جاء في إنجيل برنابا، وكانت هذه البشارة في حوار دار بين عيسى عليه السلام، وبين تلميذه برنابا، ومما جاء فيه: (لكنّ بعض الناس لما قالوا في حقي: إنه الله، وابن الله، كره الله هذا القول، واقتضت مشيئته بألا تضحك الشياطينُ يوم القيامة عليّ، ولا يستهزؤون بي، فاستحسن بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء في الدنيا بسبب موت يهوذا، ويظن كل شخص أني صُلبت، لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجيء محمد رسول الله، فإذا جاء في الدنيا ينبّه كل مؤمن على هذا الغلط، وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس).

وكما يتضح من النص، فإن عيسى ينطق بوحدانية الله تعالى، ويبطل قول من قال: إن عيسى هو الله، أو ابن الله، وينطق إنجيل برنابا ببطلان قصة الصلْب، ويُثبت أن الذي صُلب هو يهوذا الذي دلّ اليهود على مكان عيسى عليه السلام، ويُصرح أخيراً بمجيء

محمد ﷺ بعده نبيا ورسولاً[(١)].

وفيما يزيد من توضيح مسألة الصلب أن عيسى عليه السلام قال: (فاعلم يا برنابا أنه لأجل هذا يجب عليّ التحفظ، وسيَبِيعُني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود، وعليه فإني على يقين، من أن مَنْ يَبيعُني يُقْتل باسمي، لأن الله سيُصعدني من الأرض، وسيُغيّر منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إيّاي، ومع ذلك فإنه لمّا يموت شرّ ميتة، أمكُث في ذلك العار زمناً طويلا في العالم، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تُزال عني هذه الوصمة)[(٢)] وهذا الذي جاء في إنجيل برنابا هو ما قاله القرآن الكريم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧].

بشرى التوراة برسالة محمد ﷺ:

وكما بشر الإنجيل ببعثة النبي ﷺ فإن التوراة بشرت بها قبل ذلك:

١- جاء في حديث مُخيْرق النضَري الإسرائيلي، وكان من كبار علماء اليهود: ولمّا كان يوم غزوة أُحُد، وهو يوافق يوم السبت قال: (يا معشر اليهود، والله إنكم لتعْلمون أن نصْر محمد عليكم لحق، قالوا: فإن اليوم يوم السبت، قال: (لا سبْت) ثم أخذ سلاحه في يوم السبت، وخرج حتى أتى النبي ﷺ في جبل أُحُد، وكان قد أوصى قومه إن قُتل في هذا اليوم، فمالُه لمحمد ﷺ يصنع فيه ما أراه الله، وكان لِمخَيْرق حدائق سبع، ونخل كثير ... فقاتل حتى قُتل، فكان ﷺ يقول: مُخيْرق خير يهود).

وقبض رسول الله أمواله وعقاراته، وكان معظم صدقاته في المدينة منها[(٣)].

---

(١) نقله من إنجيل برنابا القس سيل في مقدمة ترجمته للقرآن، ومثله ترجمة الدكتور خليل سعادة، نشر: محمد رشيد رضا، وانظر ثماني عشر بشارة عن كتب البروستانت في كتاب إظهار الحق للعلامة رحمت الله الهندي (١١١٥/٤-١٢١٣).

(٢) من الفصل (١١٢) من ترجمة الدكتور خليل سعادة.

(٣) ينظر: الوفا بأحوال المصطفى (١٠٣/١)، والشفا للقاضي عياض (٣٦٣/١)، وسيرة ابن هشام (٥١٨/١).

٢- وكان لليهود بيت يتعلمون فيه، يقال له: بيت المدارس، فأتاه النبي ﷺ وقال: (اخرُجوا إليّ أُعلّمكم) فخرج إليه (عبد الله بن صوريا) وهو عالم من أحبارهم، وهو الذي أقرّ بوجود حكم الرجم للزاني المحصن في التوراة، سأله النبي ﷺ بمن أطعمهم المن والسلوى، وظللهم الغمام (أتعلم أني رسول الله)؟ فقال: اللهم نعم، وإن القوم يعرفون ما أعرف، وإن صفتك ونعتك لمبيّن في التوراة، ولكنهم حسدُوك، قال: (فما يمنعك أنت؟ قال: أكره خلاف قومي، عسى أن يتبعوك، ويُسْلِموا فأُسْلم)[(١)].

وقد أسلم ابن صوريا بعد ذلك وشهد بنبوة محمد ﷺ.

٣- قالت أم المؤمنين صفية رضي الله عنها - وكان هذا قبل أن تُسلم، ويتزوجها النبي ﷺ وهي بنت حُييّ بن أخطب، زعيم يهود بني النضير - (لما قدم النبي ﷺ المدينة ونزل قباء، ذهب إليه أبي وعمّي في وقت الغلَس - أول النهار - فلم يرجعا إلا عند غروب الشمس، وأتيا مُتْعبيْن يمشيان الهُويْنا، فهشَشْتُ لهما، فلم يلتفت إليّ أحد منهما مع ما بهما من الهمّ، فسمعتُ عمي يقول لأبي: أهو، هو - أي أهو محمد المبشّر به في التوارة؟- قال: نعم والله، قال: أتُثْبتُه وتعرفُه؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته – والله- ما بقيت أبداً)[(٢)].

ويكفينا ما ينطق به القرآن الكريم ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة:١٤٦].

ولما سئل عبد الله بن سلام عن هذه الآية قال: إني لأعرف أن محمداً رسول الله، عن طريق الوحي الإلهي القطعي، وهذا أشد من معرفتي لابني، فأنا لا أدري ماذا تفعل النساء؟

---

(١) الوفا (٩٢/١)، وابن هشام (٥٦٤/١).

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (٥١٨/١، ٣٣٦/٢)، والوفا (١٠٢/١)، والبداية والنهاية (٣٣٠/٣)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥٣٣/٢)، وللأصبهاني (٨٩/١) برقم (٣٧).

من أسماء النبي ﷺ:

أما كون النبي ﷺ اسمه (أحمد) فهذا أحد أسمائه ﷺ بمعنى أنه المحمود كثيرا، والذي يحمده الناس كلهم، فهو ذو ذِكْر محمود، وسُمْعة محمودة، ويبعثه الله يوم القيامة مقاما محمودا، وفي الحديث «**أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة**»[(١)].

وقد ذُكر النبي ﷺ هنا باسمه (أحمد) وذكر باسمه (محمد) في سور: محمد والفتح والأحزاب.

وذكر رب العالمين عدداً من صفات النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

وفي حديث جُبير بن مُطعِم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحوا الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»[(٢)].

وعن أبي موسى ﷺ قال: سمّى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، منها ما حفظنا فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفّي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة، والملحمة»[(٣)].

موقف بني إسرائيل من دعوة محمد ﷺ:

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ محمد الذي بشر به عيسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الأدلة الواضحة الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقاً ﴿قَالُوا﴾ معاندين للحق مكذبين له﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وبما أن الضمير يعود على أقرب مذكور وهو في الآية (أحمد) ﷺ فيكون المعنى: فلما جاءهم محمد ﷺ بالآيات الواضحات الدالة على صدق دعواه،

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٥٣٢،٤٨٩٦)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤)، والدارمي (٢/٣١٧)، والترمذي (٢٨٤٠)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٥٩٠)، ومالك مرسلاً (٢/١٠٠٤).

(٣) مسند الطيالسي عن جبير بن مطعم بنحوه برقم: ٤٩٢ قال محققه: حديث صحيح، وهو في صحيح مسلم برقم (٢٣٥٥)، ومسند أحمد (١٩٥٢٥) بإسناد صحيح، وابن أبي شيبة (١١/ ٤٥٧).

اتهموه بالسحر البيّن، ولما جاء محمد ﷺ إلى أهل الكتاب، بأوصافه التي عرفوها في كتبهم كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

ومن العجب أن يقال عن الرسول الذي بشرت به كتبهم وعُلِمَ صدقه يقيناً أنه ساحر!!

ويصح أن يعود الضمير على عيسى عليه السلام لأنه المتحدَّث عنه في الآية، وقد جاء عيسى قومه بالمعجزات الظاهرات على يديه: كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، ومع ذلك فقد قالوا عن هذه المعجزات إنها سحر ولم يصدقوه.

ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد دعوة محمد ﷺ وقفة العداء والكيد والتضليل، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حرباً شعواء، ولم تضع الحرب أوزارها حتى اليوم، فقد قالوا عن الإسلام: إنه سحر مبين، وحاربوه بالدس والوقيعة، بين طوائف المسلمين لتفتيت وحدتهم، وتمزيق صفهم، وحاربوه بالتآمر مع غيرهم، لضرب الإسلام في مقتل، حاربوه بترويج الإشاعات الباطلة على الإسلام للنيل منه، وهي حرب مستمرة.

وهكذا،، دأبت الصهيونية العالمية، والصليبية الماكرة على الكيد للإسلام وأهله، في كل جيل من الأجيال: في الحروب الصليبية في المشرق، وفي الأندلس بالمغرب، وقوّضُوا الخلافة العثمانية في الوسط.

وها نحن نعيش عصر الانتفاضة في القدس لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي الذي مضى عليه ستون عاماً.

ونعيش عصر التسلط على حريات الشعوب في منع امتلاكهم قوى حربية ونووية، يدافعون بها عن أنفسهم، فهي تجوز لإسرائيل ولا تجوز لغيرهم.

ونعيش عصر استجواب العلماء والحكام في امتلاك ذلك وتصنيعه،.

ونعيش عصراً يسمى فيه الدفاع عن النفس والدين والوطن، إرهاباً!

يا له من عصر انفرد فيه قوم عاد بالقوة المادية والعسكرية.

وأن من لم يكن معهم فهو ضدهم،، وسنّوا قانوناً للعقوبات لمن يعادون السامية.

أما من يسخرون من سيد الأنبياء والمرسلين فإن هذا من باب حرية الرأي والصحافة يجب حمايتهم والتعطاف معهم؟! وفضلا عن ذلك فقد تجسسوا على أموال الشعوب وحرياتهم، وتدخّلوا في شؤونهم الداخلية، وأحلوا لأنفسهم ما حرموه على غيرهم!!

أَظْلَمُ النَّاسِ مَنْ كَذَّبَ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ

٧- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾

ولما كانت دعوة عيسى ومحمد، دعوة واحدة، وكان جواب القوم عليهما واحداً، أفرد الله تعالى رسالة محمد ﷺ بالذكر، فشنّع جل شأنه على من كذّب برسالة محمد ﷺ وبيّن أنهم أظلم الناس، ولا يوجد من هو أظلم منهم، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ أي لا أحد أشد ظلماً وعدواناً ممن اختلق على الله الكذب، وجعل له شركاء في عبادته، ولا أحد أقبح ظلماً ممن يدعوه ربُّه إلى الإسلام، على لسان نبيه ﷺ فيجعل مكان إجابته للدعوة، افتراء الكذب على الله، فيسمى نبيه ساحراً، ويسمى كتابه سحراً.

فالمراد بالتكذيب في الآية هو تكذيب دعوة النبي ﷺ وتكذيب رسول الله ﷺ تكذيب لله عز وجل ﷺ:

١ - وهؤلاء قد ظلموا الرسول بقولهم: هو ساحر أو كاهن أو شاعر.

٢ - وظلموا أنفسهم، حيث لم يسلكوا طريق النجاة، وأعرضوا عن النظر الصحيح في صدق نبوة محمد ﷺ.

٣ - وظلموا ربهم حين سمُّوا هُدَى الله وآياته سحرا أو شعرا أو كهانة.

٤ - وظلموا الناس بحملهم على التكذيب، وإخفاء ما جاءت به التوراة والإنجيل من صدق النبي ﷺ.

ولا يزال هؤلاء على ظلمهم مستقيمين عليه، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزجرهم عنه برهان، فهم يردون الحق وينصرون الباطل.

فافتراؤهم الكذب على الله تعالى، لأنهم كذّبوا رسوله ﷺ وهو يقول لهم: إنه مرسل

من عند الله، وهم يعلمون صدقه كما في كتبهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٤٠] ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام:٩١].

فقد عَلِم من افترى على الله الكذب، أن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق من عند الله، فكذّبه وأعرض عنه.

فلا أحد أعظم ظلماً ممن يكذب محمداً ﷺ ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى﴾ الدخول في ﴿ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ وإخلاص العبادة لله وحده.

لقد عرف المسلم ربه بعقله بعد النظر في الأنفس والآفاق، فإذا كان كتاب محمد ﷺ لا يصلح دليلاً على رسالته، فلن يصح في الأذهان شيء، ولن تصدُق رسالة بشر.

على أن العقل لا يقبل أن يزعم شخص أنه نبي يدعو الناس إلى الدخول في الإسلام وهو يفتري الكذب على ربه، فما أقبح قولهم!

والله تعالى لا يوفق الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والتكذيب إلى مافيه فلاحهم وسعادتهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهؤلاء الذين كذبوا محمداً ﷺ من جملتهم.

وفي الآية بيان أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وأن العقاب قد حل بمن خالفهما، لتحذر أمة محمد ﷺ أن يفعلوا مع نبيهم كما فعل قوم موسى وعيسى مع نبيهما.

المُسْتَقْبَلُ لِلإِسْلامِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى

٨- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟[1] نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ[2] نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾

(١) قرأ أبوجعفر بحذف الهمزة وضم الفاء من (ليطفئوا) ومثله حمزة عند الوقف، مع جواز إبدال الهمزة ياء وتسهيلها بين بين.

(٢) قرأ ابن كثير وحفص وحمزة والكسائي وخلف بعدم التنوين في ﴿مُتِمُّ﴾ وخفض ﴿نُورِهِۦ﴾ على الإضافة، والباقون بتنوين ﴿مُتِمٌّ﴾ ونصب ﴿نُورَهُۥ﴾ على أنه مفعول ﴿مُتِمٌّ﴾.

وهؤلاء الظالمون لأنفسهم ولغيرهم، يريدون أن يُبطلوا الحق بأقوالهم الكاذبة، وهو القرآن الذي بُعث به محمد ﷺ فهم ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي يريد هؤلاء الكافرون المشركون أن يَقْضُوا على دين الإسلام، ويَطْمِسُوا شرعه وتعاليمه التي جاء بها هذا القرآن عن طريق أقاويلهم الباطلة الخارجة من أفواههم، وهي أقوال فاسدة يردون بها الحق، دون أن يكون لها مصداق من الوقائع.

وقد شُبّه حالهم بحال من ينفُخ في نور الشمس بِفيه ليطْفئه.[1]

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي والله تعالى مظهر دين الإسلام بإتمامه وانتشاره في الآفاق، ولو كره ذلك الجاحدون والمبطلون، أي أن دين الإسلام سوف ينتشرُ في المشارق والمغارب، وسوف يُعزّ الله هذا الدين رغم أنف الكافرين، وسوف يذلّهم بإظهار ما يكرهون من الحق، وكراهيتهم لا أثر لها.

وإنّ شيئاً تولّى الله فعله لا يستطيع أحد أن يزيله، فلا يزال هذا الدين في ازدياد مستمر، حتى يتم المراد بمشيئة الله تعالى.

وهذا بخلاف دين عيسى عليه السلام فقد ناله من القمْع والْخفْت في أول أمره ما ناله، واستمرّ زماناً طويلاً حتى تنصّر قُسْطنطين سلطان الروم، فانتشرت النصرانية على يديه، بعدما ناله من التحريف والتغيير ما ناله.

وقد أنجز الله وعده، وظهر هذا الدين في العالمين، وإن عرضتْ له عوارض من آثار تفريط بعض المسلمين في إقامة الدين، وعدم الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية على الوجه المطلوب، فغلبت عليهم أمم، والعاقبة أولاً وآخراً للإسلام وأهله بمشيئة الله تعالى، جاء في الحديث عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زُويَ لي منها**»[2]. قال تعالى:

---

(١) التفسير الكبير (٢٩/٣١٤).

(٢) جزء من حديث في صحيح مسلم برقم (٢٨٨٩).

٩ - ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝ ﴾

ثم إن محمداً ﷺ لم يأت للناس يدعوهم إلى الله سبحانه من قِبَلِ نفسه، بل إن الله تعالى هو الذي أرسله وحدد له المنهج ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾ محمداً ﷺ ﴿ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ وهو القرآن ﴿ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ وهو الإسلام جاء بالعلم النافع والعمل الصالح، فالعلم يهدي إلى جنة الله ورضوانه ودين الحق الذي يتعبد به العباد لربهم، وهو دين لا نقص فيه ولا خلل ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أي لِيُغلِيَ هذا الدين على كل الأديان المخالفة له بالحجة والبرهان والسيف والسنان، ولابد للقائمين بهذا الدين أن يهتدوا بهديه، ويستنيروا بنوره، في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وإلا فإن مجرد الانتساب إلى هذا الدين مع التقصير والإهمال لا يفيد شيئاً، وإظهار هذا الدين مع القيام به يكون بإذن الله ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ ذلك.

وفي هذا تأكيد لأمر الرسالة وشد لأزْرِها، فمن يقدر على معارضته فلْيُعارض!!

التِّجَارَةُ الرَّابِحَةُ فِي الإِيمَانِ وَالْجِهَادِ

١٠ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم[1] مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾

وكما ابتدأت السورة بالحديث عن الجهاد، فقد خُتمت بالحديث عن الجهاد أيضاً، بعد أن ضربت له الأمثال، وعنّفتْ من يكذّب دين الله، وبينتْ أنه سبحانه مُغلي دينه ومظهره على سائر الأديان، بحيث لا يبقى موضع في الأرض فيه دين غير الإسلام، وهذا يتم عند نزول عيسى عليه السلام كما قال أبوهريرة ومجاهد[2].

ثم أجاب الله تعالى في هذه الآية، الذين سألوا - في أول السورة - عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، فبيّن جل شأنه أن الحياة الرابحة إيمان وجهاد، وأن شأن المؤمن أن يكون مستعداً في كل وقت وفي كل موطن، لنُصرة الإسلام وإعلاء كلمته، إنه يعيش

(١) قرأ ابن عامر ﴿ تُنَجِّيكُم ﴾ بفتح النون وتشديد الجيم، والباقون بإسكان النون وتخفيف الجيم.

(٢) تفسير ابن عطية (٥/٣٠٤).

في الحياة مُصْغِيَ السمع، فإذا بلَغتْه صيحة تدعو إلى الله تعالى هرع إليها، ولبّى: حيّ على الجهاد، فيرجّع صداه، كما يجيب صوت المؤذن، وهو يشق الأجواء داعياً إلى الصلاة والفلاح.

وقد سمّى الله تعالى هذا العمل تجارة مع الله سبحانه، لأن المؤمن بالله، المجاهد في سبيل الله، قد ربح رضوان الله تعالى وجنته، وفاز بالنجاة من النار، فإذا كان المشركون والكافرون يريدون أن يطفئوا نور الله، فإن المؤمنين يجاهدون أعداء الله بالنفس والمال.

قال عثمان بن مظعون: وددت يا نبي الله أَنْ أعلم، أي التجارات أحب إلى الله تعالى، فأتجر فيها، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي يا من صدّقوا الله وآمنوا به حق الإيمان، واتبعوا رسوله وعملوا بهديه، وآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ﴾ هل أُرشِدكم إلى تجارة رابحة جليلة الشأن، وهذه التجارة ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي إنكم إن زاولْتم هذه التجارة وباشرْتموها فإنها تنجيكم من عذاب شديد الألم.

وفي هذه الآية وصية من الله تعالى لعباده أن يقوموا بأعظم تجارة معه سبحانه عن طريق الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله، فإن في هذا، النجاة من النار والفوز بالنعيم المقيم.

وقد فسّر سبحانه هذه التجارة ووضّحها، فذكر أنها تجمع بين الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيل الله ببذل النفس والمال. فقال تعالى:

١١ - ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

أي تداومون مداومة كاملة على الإيمان ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إيماناً صادقاً لا يشوبه شك ولا نفاق والإيمان التام هو التصديق القلبي الجازم بما أمر الله به، وظهور ذلك على اللسان وسائر الجوارح ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أعداء الله لنصرة دينه وإعلاء كلمته، بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لقمع أعداء الله ونَصْر دينه ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ وقُدّم الجهاد بالمال هنا على الجهاد بالنفس، لأن المقام مقام مرابحة ومعاوضة، وبالأموال تُشترى الأسلحة

والمعدات، ويجهِّز الجيش.

وقد كان المجاهد قديماً يجهز نفسه بالسلاح والعدة والعتاد واللباس والطعام والشراب.

وأصبحت الدولة في الوقت الحاضر هي التي تُعدّ الجنديّ وتُجهزه للقتال، ولكن قد تَعجزُ الدولة عن هذا لفقرها، وقوّة عدُوّها، وحينئذ فلا غنى عن الجهاد بالمال لدعم الأفراد والجماعات المسلمة، ولذا: جاء في الحديث عن زيد بن خالد الجهني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا**»[(١)].

وجاء في حديث أنس ﷺ مرفوعاً: «**جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم**»[(٢)].

وقد يجاهد بالمال من لا يستطيع الجهاد بالنفس.

وحقيقة الجهاد: بذل الجهد والطاقة، وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق**»[(٣)].

أما المعاوضة في هذه التجارة، فالثمن هو الجنة، وإذا كانت النفس أعزَّ ما يملكه الإنسان، فإن الجنة هي أعز ما يهبه الله للإنسان، وأسمى ما تتطلع إليه النفوس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

قال الفخر الرازي: والجهاد ثلاثة أنواع:

١- جهاد فيما بينه وبين نفسه، وهو قهر النفس ومنْعها عن اللذات والشهوات.

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٩٥)، وصحيح البخاري (٢٨٤٣).

(٢) أبوداود (٢٥٠٤)، والمسند (١٢٢٤٦،١٣٦٣٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٤٧٠٨) وسنن النسائي الكبرى (٤٢٨٩)، وصحيح سنن أبي داود (٢١٨٦)، والحاكم (٨١/٢)، والنسائي (٣٠٩٦، ٣١٩٢)، والدارمي (٢٤٣١)، والضياء في المختارة (١٩٠٥).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٩١٠).

٢- وجهاد فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يَدَعَ الطّمع منهم ويُشفق عليهم ويرحمهم.
٣- وجهاد أعداء الله بالنفس والمال نصرة لدين الله [١].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي هذا الذي أرشدناكم إليه من التجارة الرابحة خير لكم من مختلف التجارات في الدنيا، وخير من الدنيا وما فيها، فإن في الجهاد النصرعلى العدو، ودفع الذل عن النفس، وفيه الفوز بالأجر العظيم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الضار من النافع، والخير من الشر، فامتثلوا ذلك، وَمن يخالف أمر الله تعالى فليس من أهل الإدراك في شيء، ومن فاتته هذه الصفقة الرابحة، فهو خاسر لا محالة، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٦].

وفي الحديث عن أبي مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في نهاية حديث الطهور شطر الإيمان: «**كل الناس يغدوا فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**» [٢].

فهي تجارة مع الله، إيماناً بالله ورسوله، وجهاداً بالمال والنفس والعمل الصالح، ومن ذا الذي لا يشتاق إلى هذه التجارة، وهي أَربح تجارة في الدنيا والآخرة.

لقد تمتْ هذه البيعة بين رسول الله ﷺ وبين عبد الله بن رواحة، حين قال ابن رواحة للنبي ﷺ: اشترطْ لربك ولنفسك ما شئت، فقال ﷺ: «**أشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**» قال: فمالنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «**الجنة**» قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل) [٣].

جَزَاءُ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، سِتَّةُ أُمُورٍ

١٢، ١٣- ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ

---

(١) التفسير الكبير (٢٩/٣١٦).

(٢) حديث صحيح، رجاله ثقات في المسند (٢٢٩٠٢)، وابن أبي شيبة (١/٦)، ومسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٦٨)، وابن ماجة (٢٨٠)، والطبراني في الكبير (٣٤٢٤)، والبيهقي في السنن (١/ ٤٢).

(٣) عبد الرزاق (٢/٢٩٠).

ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

بيّن سبحانه وتعالى أن ثمن هذه المبايعة مع الله تعالى للنفس والمال، ستة أمور هي: غفران الذنوب، ودخول الجنات، والقصور العالية فيها، والنصر على العدو، والفتح العاجل، وبشرى المؤمنين.

أولاً: قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي إنكم إن فعلتم ما أمركم الله به - أيها المؤمنون - من الإيمان بالله تعالى، والجهاد في سبيله بالنفس والمال، فإنه يستر عليكم عيوبكم، ويتجاوز عن سيئاتكم، فيزيل ذنوبكم ويبدلها حسنات، وهذه المغفرة تشمل صغائر الذنوب وكبائرها، فإن الجهاد في سبيل الله مكفر لجميع الذنوب إلا حقوق العباد، فقد استثنى النبي ﷺ ذلك حين قال «**يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين هكذا قال لي جبريل آنفاً**».

ثانياً: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي تجري هذه الأنهار من تحت قصور الجنات وأشجارها في الحدائق والبساتين، والغرف، وهي أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات.

ثالثاً: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي ويسكنكم في مساكن عالية، وقصور فخمة، مشتملة على كل ما هو طيب ونافع، فهي مساكن طاهرة زكية في دار إقامة دائمة، لا تحول ولا تزول، وقد جمعت هذه الجنات كل طيّب، من عُلو وارتفاع، وحُسن بناء وزخرفة، بعضها من ذهب وبعضها من فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض منازلها من الزمرّد والجواهر، ومن صفاء بناء الجنة أنه يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها ما لا يخطر على قلب أحد من العالمين. وسميت جنة عدن: لأن أهلها مقيمون فيها لا يخرجون منها ولا يبغون عنها حولاً.

وأهل الجنة يتراءون فيها كما يتراءاى الكوكب الدري في الأفق.

وخُصَّت المساكن بالذكر من بين نعيم الجنة: لأن المجاهدين قد فارقوا مساكنهم عندما خرجوا للجهاد، ومنهم من استشهد بعيدا عن وطنه وفيها أهله وماله، فوعدهم الله

تعالى في الآخرة بما هو خير منها ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤].

ثم بيّن سبحانه أن ما وعد الله به المؤمنين المجاهدين في سبيله من مغفرة الذنوب، ودخول الجنات، وسُكْنى القصور العالية، هو الفوز الذي ما بعده فوز، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ إنه السعادة الدائمة التي لا تدانيها سعادة، هذا هو الثواب الأخروي، فماذا عن الثواب الدنيوي لهذه التجارة.

رابعاً: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ ونعمة أخرى عاجلة في الدنيا سوى ما تقدم، يعطيكم الله إياها، ونفوسكم تتطلع إليها وهي ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يأتيكم في الدنيا يحصل به العز والفرح إذا قاتلتم في سبيله ونَصرْتُم دينه، فإن الله تعالى يتكفل بنصركم، كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾ [محمد: ٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

خامساً: ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ وبالإضافة إلى هذا النصر الموعود به على مدى التاريخ، فقد وعد الله المؤمنين فتحاً قريباً عاجلاً في الدنيا قبل نعيم الآخرة، تتسع به دائرة الإسلام ويحصل به الرزق الواسع.

والنصر المذكور في هذه الآية أعده الله للمجاهدين في سبيله، فقد تقدم التحريض عليه في آية الإيمان والجهاد، وهو أيضاً نصر دين الله بالثبات عليه وانتشاره في الآفاق.

وهو يشبه نصر الحواريين لدين الله تعالى.

سادساً: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم أمر الله رسوله أن يبشر المؤمنين بصفة عامة بالنصر القريب والفتح المبين في الدنيا، وبالجنة في الآخرة، وهذه بشرى عامة لسائر المؤمنين غير المجاهدين في سبيل الله، فقد وعدهم الله بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن لم يبلغوا مبلغ المجاهدين في سبيل الله. ففي الحديث «من رضي بالله رباً

وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد الخدري – راوي الحديث – فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه ثم قال: «وأخرى يرفع اله بها العبد مئة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» فقال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله»[1].

حَثُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الانْتِصَارِ لِدِينِ اللهِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ

١٤ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ[2] ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ[3] إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

وبعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بنصر دينه عن طريق الجهاد في سبيله، ووعَدَهم النصر على عدوهم، أمرهم ثانياً أن ينصروا دين الله تعالى بالثبات عليه، وعدم الاكتراث بما يصيبُهم من أذى في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وهذا هو وجه الشبه بنصر الحواريين لدين الله الذي جاء به عيسى عليه السلام، فإن الحواريين نصرُوا دعوة عيسى عليه السلام بالصبر والمصابرة والثبات، ولم يجاهدوا عدُواً لهم.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يا من صدقتم بالله رباً، وإلهاً معبوداً واحداً، واتبعتم رسول الله ﷺ ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ أي كونوا أنصاراً لدين الله بإعلاء كلمته ونشر دعوته وبثّها في الآفاق بالأقوال والأفعال، وجهاد من حارب الدعوة، ومن نصر الباطل.

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ عندما رأى اليهود يرتابون في دعوته وينصرفون عنه،

---

(١) رواه مسلم برقم (١٨٨٤، ١١٦)، وسعيد بن منصور (٢٣٠١)، والبغوي (٢٦١١)، والنسائي في الكبرى (٩٨٣٤).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وأبوجعفر بتنوين (أنصاراً) و (لله) بلام الجر، والباقون بعدم تنوين ﴿أَنصَارَ﴾ وإضافتها إلى اسم الجلالة (الله) بدون لام الجر.

(٣) قرأ نافع وأبوجعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والباقون بإسكانها.

فصاح قائلاً لتلاميذه: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي من يتولّى منكم نصري وإعانتي فيما يُقرّب إلى الله تعالى؟

وهذا ينطبق على كل مسلم ينصر الحق، ويؤنس وحشته، ويرفع رايته من أهل الرسالة، ويساهم في قيامها ونشرها وبقائها، ويقوم بواجبه تجاه نصر دين الله تعالى.

والمعنى: انصروا دين الله - أيها المسلمون - كما نصر الحواريون دين الله تعالى حين قال لهم عيسى: مَنْ أنصاري إلى الله؟ فكونوا كذلك عندما يدعوكم الإسلام إلى نشره في الآفاق، وتحمل الأذى في سبيله، كما فعل الحواريون مع عيسى ﷺ فاستجابوا له وتحملوا الابتلاء في النفس والمال، كما قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦].

وهكذا فقد استجاب الحواريون لدعوة نبيهم عيسى ﷺ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي نحن على استعداد لبذل أنفسنا وأموالنا في سبيل تبليغ الدعوة من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، وقد مضى عيسى عليه السلام، ينفذ أوامر الله تعالى وينصر دينه هو ومن معه من الحواريين.

وحواريُّوا عيسى كأصحاب محمد، والحَواري: هو الصاحب الصفي والخلّ الوفيّ، وهي كلمة حبشية معرّبة، وقد أُطلِق هذا اللفظ على أصحاب عيسى الاثني عشر، وهم أول من آمن به.

وقد سَمَّى النبي ﷺ الزبير بن العوام: حَواريُّه، فقال: «لكل نبي حواريّ والزُّبير حَواريّ وابن عَمتي»[(١)] وعمته صفية بنت عبدالمطلب.

---

(١) من حديث عبدالله بن الزبير في المسند (١٦١١٣) قال محققوه: حديث صحيح، ورواه البزار (٢٥٩٨ زوائد)، وابن أبي عاصم في السنة (١٣٩٢)، وجاء عن علي بإسناد حسن في المسند أيضاً (٦٨٠، ٦٨١) لأن فيه عاصم بن أبي النجود، وأخرجه الترمذي (٣٧٤٤)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٩٣)، وابن أبي عاصم (١٣٨٩).

وهذا على التشبيه بحواريِّ عيسى عليه السلام، وكان عيسى ﷺ يرسل هؤلاء الحواريين دعاة إلى الناس في بلاد الشام.

وهكذا كان النبي ﷺ يتلمس في موسم الحج من يبلغ الناس رسالة ربه، فيقول: «من رَجُل يؤويني حتى أُبلغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي» فقيض الله له الأوس والخزرج من المدينة فبايعوه وآزروه، واشترطوا على أنفسهم أن يمنعوه من الأسود والأحمر، إن هو هاجر إليهم، فوفّوا بعهدهم معه، وسمّاهم الله أنصاراً.

عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لقوه بالعقبة: «**أخرجوا إليّ اثني عشر منكم، يكونون كفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم**»[(١)].

وعن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله ﷺ للنقباء: «**إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل قومي، قالوا: نعم**»[(٢)].

قال قتادة: والحواريون - يعني في هذه الأمة- كلهم من قريش: أبوبكر، وعمر، وعلي، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام[(٣)].

ثم إن بني إسرائيل بالنسبة لدعوة عيسى عليه السلام افترقوا على طائفتين: طائفة آمنت بعيسى وبما جاء به من عند ربه، وطائفة كفرت به وبرسالته.

والطائفة التي آمنت هي التي نصرتْ دعوته وصبرتْ وصابرت عليها، والذين استجابوا

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٩٢)، وطبقات بن سعد (١/٢٢٢)، وابن إسحاق (١/٤٤٦)، وانظر حديث كعب بن مالك في المسند برقم (١٥٧٩٨) بنحوه في آخره من حديث قوى، إسناده حسن، لأن فيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، وهو حديث طويل جداً، اخرجه ابن حبان (٧٠١١)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٧٥)، والحاكم (٣/ ٤٤١) مختصراً وغيرهم.

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٢٢).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/٢٩٠)، وعبد بن حميد وابن المنذر كما قال السيوطي في الدر (١٤/٤٥٠).

لعيسى عليه السلام عدد قليل.

جاء في إنجيل لوقا: أن أتباع عيسى ﷺ كانوا أكثر من سبعين.

ذلكم قوله تعالى ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أن جماعة منهم صدقت بدعوته واهتدت بهديه.

طوائف النصارى:

﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ قال قتادة: والطائفة الكافرة ثلاث فرق: اليعقوبية، وهم الذين قالوا: عيسى هو الله، والإسرائيلية – الملكانية – وهم الذين قالوا: عيسى ابن الله، والنسطورية، وهم الذين قالوا بأن عيسى إله، وأمه إله، والله ثالثهما[(١)]. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وذلك أنه لما رُفع عيسى عليه السلام تفرق قومه ثلاث فرق: فرقة قالوا: كان الله فارتفع، وفرقة قالوا: كان ابن الله فرفعه، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله، فرفعه، وهم المؤمنون، واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس[(٢)] ...

وجاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى لما أراد أن يرفع عيسى إلى السماء بعد أن تآمر اليهود على قتله وصلْبه خرج إلى أصحابه الاثني عشر، وقال لهم: أيكم يُلْقَى عليه شبَهي فيُقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب مِنْ أحدثهم سناً فقال: أنا، فقال له: اجلس، ثم كرر ذلك ثلاث مرات، والشاب يقول: أنا، فقال عيسى: نعم، أنت ذاك، قال: فألقى عليه شبه عيسى، ورُفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا شِبْهَهُ فقتلوه، وصلبوه، وكفر بعيسى بعضهم بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق، قالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء هم اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه إليه، وهم النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله، ما شاء الله، ثم

---

(١) تفسير ابن عطية بتصرف (٣٠٥/٥).

(٢) تفسير الخازن (٢٦٤/٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

رفعه إليه، وهؤلاء هم المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ[(١)].

وكان اليهود قد قتلوا من أتباع عيسى خلْق كثير ومثّلوا بهم، وألْقوهم إلى السباع تفترسهم، وكان ممن قُتل: الحواريّ الأكبر، الذي سماه عيسى: بُطرس، أي الصخرة في ثباته في الله[(٢)].

قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي نصرْنا وقويّنا المؤمنين على مَنْ عداهم من فرق النصارى، فأظهرهم الله عليهم ببعثة محمد ﷺ حيث ظهرت كلمة التوحيد، وبطل القول بألوهية عيسى ﷺ وبنوّته، وأنه ثالث ثلاثة.

وأظهر الله أيضاً صِدْق حُجَّةِ من آمن بعيسى عليه السلام، فآمن به واهتدى بهديه، وظهر بطلان الفرق الكافرة، وبعد فترة من رَفْع عيسى عليه السلام، ارتفع شأن من آمن به، فغلبوا الكافرين من اليهود الذين قتلوا صاحبه حين أُلقي عليه الشبه.

وعلى هذا: فإن ظهور من آمن بعيسى، ولم يُدْخِل في دينه انحرافات في العقيدة، على من كفر به من اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً، وعلى من انحرف عن التوحيد إلى القول بالتثليث أو البنوة، يُحتمل أن هذا الظهور كان قبل بعثة محمد ﷺ ويحتمل أنه كان بعد بعثته ﷺ.

والمقصود من ذلك: حض المؤمنين في كل زمان ومكان من أمة محمد ﷺ على التمسك بدينها ونصرته، وأن يكونوا أنصاراً لله، دعاة لدينه، ينصرهم الله كما نصر مَن قبلهم، ويظهرهم على عدوهم، والعاقبة في النهاية للمتقين.

قال إبراهيم النخعي في ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي أصبحت حجة من آمن بعيسى، ظاهرةً بتصديق محمدٍ أن عيسى كلمة الله وروحه[(٣)].

---

(١) ينظر هذا المعنى في سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩١)، وتفسير الطبري (٢٨/٦٠).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٣/٢٠٣).

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (١٤/٤٥٢).

وقال ابن كثير: لما بلّغ عيسى ابن مريم رسالة ربه: اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلّت طائفة، فجحدوا نبوّته ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود، وغلَت فيه طائفة من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوّة، وافترقوا فيه فرقاً وشيعاً، فمنهم من زعم أنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة (الأب والابن وروح القدس) ومنهم من قال: إنه الله، تعالى الله عما يقولون علُواً كبيراً، فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى[1].

تم تفسير (سورة الصف) ولله الحمد والمنة

(١) تفسير ابن كثير بتصرف (١١٣/٨).

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
	تفسير سورة الذاريات - مقدمة السورة وأغراضها ومقاطعها الثلاثة	٥
١-٤	خمسة أنواع من القسم على أن القيامة حق، وأن الرسول حق، حديث ابن الكَوّاء،	٨
	اختصاصات القسم في أوائل السور	١٠
٥ - ٩	جواب القسم - القسم على تناقض المكذبين بالوحي والبعث	١٢
١٠ - ١٤	عقوبة المكذبين بالبعث وبخاتم المرسلين	١٤
١٥ - ١٩	نعيم المتقين وصفاتهم الخمس: الإحسان، قيام الليل، الاستغفار، بذل المال	١٥
٢٠، ٢١	ثلاثة من براهين التوحيد: الأرض والنفس والسماء	٢٢
٢٢، ٢٣	لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها	٢٣
٢٤ - ٣٧	قصة ضيف إبراهيم والاعتبار بما حدث لقوم لوط	٢٤
٣٨ - ٤٠	الاعتبار بما حدث لفرعون وجنوده	٣٢
٤١، ٤٢	الاعتبار بما حدث لقوم عاد	٣٣
٤٣ - ٤٥	الاعتبار بما حدث لقوم ثمود	٣٥
٤٦	الاعتبار بما حدث لقوم نوح	٣٧
٤٧	ثلاثة براهين أخرى على البعث والتوحيد: البرهان الأول: خلق السماء واتساعها	٣٨
٤٨	البرهان الثاني: صلاحية الأرض لمنافع الناس	٣٩
٤٩	البرهان الثالث: خلق نوعين متقابلين من جميع أجناس المخلوقات	٣٩
٥٠	وجوب الفرار من المعصية إلى الطاعة	٤٠
٥١	وجوب الفرار من الشرك إلى التوحيد	٤١
٥٢، ٥٣	موقف الأقوام من الرسل	٤٢
٥٤، ٥٥	الدعوة إلى الله تعالى لا يعوقها عائق	٤٣
٥٦	العبادة هي الغرض من خلق الجن والإنس	٤٤
٥٧	ثمرة العبادة تعود على الخلق، لا على الخالق	٤٧
٥٨	ثلاثة أوصاف لله رب العالمين	٤٨
٥٩، ٦٠	العبرة المستفادة من هلاك الظالمين	٤٩
	تفسير سورة الطور - مقدمة السورة، أحاديث فيها، ومحاورها - الاستفهامات الخمسة عشر	٥١
١ - ٨	خمسة أنواع من القسم على أن عذاب الله واقع لا محالة، أحاديث في البيت المعمور	٥٥
٩ - ١٢	الفناء المؤذن بقيام الساعة	٦٠
١٣ - ١٦	مشهد عذاب المكذبين وهم يساقون إلى نار جهنم	٦١
١٧	عشرة ألوان من نعيم أهل الجنة	٦٣
١٨	أولاً: إنهم في فرح وسرور بما أعطاهم الله من النعيم - ثانياً: فوزهم بالنجاة من النار	٦٣
١٩	ثالثاً: تهنئة أهل الجنة بطعامهم وشرابهم	٦٤
٢٠	رابعاً: هيئة أهل الجنة حال اتكائهم على السرر - خامساً: الحور العين	٦٤